تصوير ابو عبد الرحمن الكردي

المنهج التربوي للسيرة النبوية

٦

التربية القيادية

التابعون بإحسان للسابقين الأولين

د. منير الغضبان

الجزء الثالث

دار الوفاء

الطبعة الأولى

١٤١٨هـ - ١٩٩٨م



دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - ج.م.ع - المنصورة
الإدارة : ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب ص . ب ٢٣٠
ت : ٣٤٢٧٧٢١/ ٣٥٦٢٢٠/ ٣٥٦٢٣٠ فاكس ٣٥٩٧٧٨
المكتبة : أمام كلية الطب ت ٣٤٧٤٢٣

المنهج التربوي للسيرة النبوية

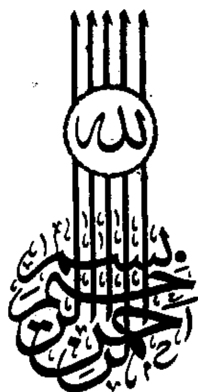
(٦)

التربية القيادية

التابعون بإحسان للسابقين الأولين

الجزء الثالث

منير الغضبان


بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى جيل الصحوة الإسلامية الذى يبحث عن قيادات

أهدى هذا الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن سار بسيرته واهتدى بهديه إلى يوم الدين .

وبعد :

فهذا هو الجزء الثالث من التربية القيادية . نلتقى فيه مع سيد القادة فى هذا الوجود ـ محمد ﷺ ـ وهو يصوغ لبناته العظيمة فى عملية البناء الكبرى فى التاريخ ، حيث أصبح على رأس دولة الإسلام الأولى فى هذا الوجود ، والتى وصفها ـ عليه الصلاة والسلام ـ بقوله : « اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد فى الأرض » .

وفى رواية البخارى والنسائى : « اللهم إن تشأ لا تعبد بعد اليوم » .

فقد رعى رسول الله ﷺ هذه اللّبِنات وصاغها حتى يوم بدر .حيث أنزل الله تعالى ملائكة سمائه لتحارب بجوارهم .

وستتابع فى هذا الجزء الحياة مع هذه التربية القيادية منذ بدر إلى العام الذى غزت فيه العرب المدينة غزوة الخندق ، وكيف استطاع هذا الجيل أن يواجه أعظم محنة فى حياته .

ونشهد كيف ربى رسول الله ﷺ هذا الجيل، واختار ذوى الطاقات والكفاءات فيه؛ لتمارس مسؤولياتها على عينه[1] ، ويؤهلها لتتابع المسيرة من بعده ، وتقود الأجيال اللاحقة من خلال هديه وتوجيهه . وتبقى القدوة العليا للأمة . كما قال جل شأنه :

﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾[2] .

فبقى القادة الهداة هم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، وبقى الذين جاؤوا من بعدهم تبع لهم . وإن نال الفريقان رضا الله ـ سبحانه ـ وجناته . وذلك هو الفوز العظيم .

---

(١) التربية العامة تمت معالجتها فى الحلقة السابقة من البحث تحت عنوان « التربية الجهادية » . أما التربية الخاصة للنوعيات والنماذج المؤهلة فهى التى نتناول الحديث عنها تحت عنوان :« التربية القيادية » والتى نتابع الحديث عنها فى أجزاء لاحقة من هذه السلسلة .

(٢) التوبة / ١٠٠ .

انتقاءات من بدر

تحدثنا عن غزوة بدر فى الجزء الأول من الحلقة السابقة بصورة تفصيلية من خلال سورة: « الأنفال »، وفى مجال الحديث عن التربية الجهادية .

أما الانتقاءات هنا ، فهى النماذج الفردية التى كانت يد النبوة تبنيها وتصوغها؛ لتؤهلها لدورها الصعب المرتقب فى قيادة الأمة كلها .

توزيع المسؤوليات وبروز القيادات :

١ ـ قال ابن إسحاق : ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير ــ وكان أبيض ــ وبين يدى رسول الله ﷺ رايتان سوداوان إحداهما : مع على بن أبى طالب يقال لها : العقاب، وكانت سِنّه إذ ذاك عشرون سنة ، وكانت الأخرى: مع بعض الأنصار .

وقال ابن سعد : كان لواء المهاجرين مع: مصعب بن عمير ، ولواء الخزرج مع: الحباب بن المنذر ، ولواء الأوس مع : سعد بن معاذ ، وجزم بذلك فى الهدى.

قال أبو الفتح :والمعروف أن سعد بن معاذ كان يومئذ على حرس رسول الله ﷺ، وأن لواء المهاجرين كان بيد على . قلت : العريش كان ببدر ، والذى ذكره ابن سعد كان فى الطريق ، واستخلف ابن أم مكتوم على الصلاة ، وردَّ أبا لبابة من الروحاء واستخلفه على المدينة .

٢ ـ وروى الإمام أحمد، وابن سعد، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : كنا يوم بدر كل ثلاثة على بعير وكان أبو لبابة وعلى زميلى رسول الله ﷺ ، وكان إذا كانت عُقَبةُ رسول الله ﷺ قالا : اركب يا رسول الله حتى نمشى عنك فيقول :

« ما أنتما بأقوى منى على المشى ، وما أنا بأغنى عن الأجر منكما » .

قال فى البداية والعيون : وهذا قبل أن يرد رسول الله ﷺ أبا لبابة من الروحاء ثم كان زميلاه عليًا وزيدًا .

وقال ابن عقبة، وابن إسحاق، والشعبى، وابن القيم : كان زميلاه مرثد بن أبى مرثد الغنوى وعليًا .

٣ ـ واستعمل رسول الله ﷺ على المشاة ـ وهم فى الساقة ـ قيس بن أبى صعصعة. وأمره حين فصل من بيوت السقيا أن يعد المسلمين، فوقف بهم عند بئر أبى عنبة

فعدهم ، ثم أخبر رسول الله ﷺ بأنهم ثلاثمائة وثلاثة عشر ففرح بذلك وقال : « عدة أصحاب طالوت »... ثم انصب منه حتى إذا كان قريبًا من الصفراء بعث بسبس بن عمرو الجهنى حليف بنى ساعدة، وعدى بن أبى الزعباء حليف بنى النجار إلى بدر يتحسسان له الأخبار عن أبى سفيان .

٤ - وذكر موسى بن عقبة، وابن عائذ: أن عمر قال : يا رسول الله ، إنها قريش وعزها ، والله ما ذلت منذ عزت ، ولا آمنت منذ كفرت ، والله لتقاتلنك . فأهب لذلك أهبته ، وأعد لذلك عدته ، ثم استشارهم ثالثًا . ففهمت الأنصار أنه يعنيهم، وذلك أنهم عدد الناس . فقام سعد بن معاذ رضي الله عنه وجزاه خيرًا ، فقال : يا رسول الله ، كأنك تعرِّض بنا . قال : « أجل » ، وكان إنما يعنيهم ؛ لأنهم بايعوه على أن يمنعوه من الأحمر والأسود من الناس فى ديارهم . فاستشارهم ليعلم ما عندهم ، فقال سعد :

يا رسول الله، قد آمنا بك وصدَّقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض لما أردت ، ولعلك يا رسول الله تخشى أن تكون الأنصار ترى عليها ألا ينصروك إلا فى ديارهم ، وإنى أقول عن الأنصار وأجيب عنهم ، فاظعن حيث شئت، وصل حبل من شئت ، واقطع حبل من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، واعطنا ما شئت ، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت ، وما أمرت فيه من أمر فأمرنا تبع لأمرك ، فوالله لو سرت بنا حتى تبلغ البرك من غمدان - وفى رواية : برك الغماد من ذى يمن - لنسيرن معك ، والله لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى عدونا غداً ، إنا لصبر فى الحرب ، صدق عند اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقرُّ به عينك ، ولعلك خرجت لأمر فأحدث الله غيره ، فسر بنا على بركة الله ، فنحن عن يمينك وعن شمالك وبين يديك ومن خلفك، ولا نكوننَّ كالذين قالوا لموسى: ﴿ **فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ** ﴾ (١) ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما متبعون .

فأشرق وجه رسول الله ﷺ وسُرَّ بقول سعد . فقال رسول الله ﷺ : « سيروا على بركة الله وأبشروا ، فإن الله تعالى وعدنى إحدى الطائفتين . والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم » .

---

(١) المائدة / ٢٤ .

٥ ـ وروى عبد بن حميد عن قتادة قال : كان النعاس أمنة من الله، وكان النعاس نعاسين : نعاس يوم بدر ، ونعاس يوم أحد ، وكانت ليلة الجمعة ، وبين الفريقين قوز من الرمل . وبعث ﷺ عمار بن ياسر، وعبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنهما ـ فأطافا بالقوم ثم رجعا فأخبراه أن القوم مذعورون ، وأن السماء تسح عليهم ، وسار رسول الله ﷺ عشاء يبادرهم الماء فسبقهم إليه ، ومنعهم من السبق إليه: المطر أرسله الله تعالى عليهم حتى جاء أدنى ماء من بدر فنزل ،فقال الحباب بن المنذر بن الجموح ـ فيما رواه ابن إسحاق :

يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل أمنزلاً، أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ قال: « بل هو الرأى والحرب والمكيدة » قال : يا رسول الله ليس هذا المنزل ، فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم فننزله ، ثم نغور ما وراءه من القُلب ، ثم نبنى عليه حوضاً فنملأه ماءً ، ثم نقاتل القوم . فنشرب ولا يشربون ، فقال رسول الله ﷺ : « لقد أشرت بالرأى . . . ». وذكر ابن سعد: أن جبريل نزل على النبى ﷺ فقال : الرأى ما أشار به الحباب. فنهض رسول الله ﷺ ، ومَنْ معه منَ الناس ، حتى إذا أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه نصف الليل ، ثم أمر بالقُلُب فَغُوِّرَت وبنى حوضًا على القليب الذى نزل عليه فملأه ماءً ، ثم قذفوا فيه الآنية.

فقال سعد بن معاذ : يا رسول الله، ألا نبنى لك عريشًا تكون فيه ، ونُعدُّ عندك ركائبك ، ثم نلقى عدونا . فإن أعزنا الله تعالى وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا ، فلقد تخلف عنك أقوام يا نبى الله ، ما نحن بأشد حبًا لك منهم ، ولو ظنوا أنك تلقى حربًا ما تخلَّفوا عنك ، يمنعك الله بهم ، يناصحونك ويجاهدون معك ، فأثنى رسول الله ﷺ عليه خيراً ، ودعا له بخير .

ثم بُنى لرسول الله ﷺ عريش على تلٍ مشرف على المعركة ، فكان فيه هو وأبو بكر وليس معهما غيرهما ، وقام سعد بن معاذ رضي الله عنه متوشحًا بالسيف ، ومشى رسول الله ﷺ فى موضع المعركة ، وجعل يشير بيديه : « هذا مصرع فلان ، وهذا مصرع فلان إن شاء الله » ، فما تعدى أحد منهم موضع إشارته . رواه الإمام أحمد ومسلم وغيرهما (١) .

---

(١) مسلم ج ٣ / ١٤٠٤ .

٦ ـ وخرج عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة بن ربيعة وابنه الوليد بن عتبة، حتى إذا فصل من الصف دعوا إلى المبارزة ، فخرج إليهم ثلاثة من الأنصار وهم عوف ومعاذ ابنا الحارث ـ وأمهما عفراء ـ وعبد الله بن رواحة .

قال ابن عقبة وابن سعد وابن عائذ : ولما طلب القوم المبارزة وقام إليهم الثلاثة استحى رسول الله ﷺ من ذلك ؛ لأنه أول قتال التقى فيه المسلمون والمشركون ورسول الله ﷺ شاهد معهم . فأحب رسول الله ﷺ أن تكون الشوكة لبنى عمه وقومه . فقالوا : من أنتم ؟ قالوا : رهط من الأنصار . فقالوا : أكفاء كرام ، ما لنا بكم من حاجة ، ثم نادوا : يا محمد أخرج لنا أكفاءنا من قومنا ، فناداهم رسول الله ﷺ : «ارجعوا إلى مصافكم ، وليقم إليهم بنو عمهم » .

قال ابن إسحاق : فقال رسول الله ﷺ : « قم يا عبيدة بن الحارث ،وقم يا حمزة، وقم يا على ـ وكان على معلمًا بصوفة بيضاء ـ فقاتلوا بحقكم الذى بُعِثَ به نبيكم إذ جاؤوا بباطلهم ليطفئوا نور الله » فلما قاموا ودنوا منهم، قالوا : من أَنتم ؟ تكلموا . فقال عبيدة : أنا عبيدة ، وقال حمزة : أنا حمزة ، وقال على : أنا على . قالوا : نعم أكفاء كرام . فبارز عبيدة ـ وكان أسن القوم ـ عتبة بن ربيعة ، وبارز حمزة شيبة بن ربيعة ، وبارز علىٌّ الوليد بن عُتبة . فأما حمزة فلم يمهل شَيبة أن قتله ، وأما على فلم يمهل الوليد حتى قتله ، واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين كلاهما أثبت صاحبه ، وضرب عتبة رِجْلَ عبيدة فقطعها ، وكر حمزة وعلى بأسيافهما على عتبة فذفَّفا عليه ، واحتملا صاحبهما فحازاه إلى أصحابه ، ولما جاؤوا به رسول الله ﷺ أضجعوه إلى جانب موقف النبى ﷺ ، فأفرشه رسول الله ﷺ قدمه الشريفة وقال عبيدة : يا رسول الله لو أن أبا طالب حى لعلم أنى أحق بقوله :

كذبتم وبيت الله نُبزى محمدًا (١) ... ولما نطاعن حوله ونناضل

ونسلمه حتى نصرَّع حوله ... ونذهل عن أبنائنا والحلائل

رواه الإمام الشافعى . وعن قيس بن عُباد فقال : سمعت أبا ذر يقسم قسمًا: إن هذه الآية :﴿ **هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ** .... ﴾ (٢) نزلت فى الذين بارزوا يوم بدر : حمزة وعلى وعبيدة ، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة . رواه الشيخان .

وعن على رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : نزلت هذه الآية فى الذين تبارزوا يوم بدر : حمزة وعلى

---

(١) نُبزى محمدًا : لا نسلبه ونُغلب عليه .

(٢) الحج / ١٩ .

وعبيدة بن الحارث ، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة . قال على :

أنا أول من يجثو للخصومة بين يدى الله - عز وجل - يوم القيامة .

وروى البخارى عن على رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال : فينا نزلت هذه الآية : ﴿ **هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ** .... ﴾[1] [2] .

طاقات شبابية :

٧ - روى الإمام أحمد والشيخان وغيرهم عن عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال : إنى لواقف فى الصف يوم بدر فنظرت عن يمينى وعن شمالى ، فإذا أنا بين غلامين من الأنصار حديثة أسنانهما ، فتمنيت أن أكون بين أضلع منهما . فغمزنى أحدهما سراً من صاحبه فقال : أى عم ،هل تعرف أبا جهل؟ قلت: نعم ، فما حاجتك إليه يا بن أخى؟ قال : أُخبرت أنه يسب رسول الله ﷺ ،والذى نفسى بيده لئن رأيته لا يفارق سوادى سواده حتى يموت الأعجل منا ، قال : وغمزنى الآخر سراً من صاحبه فقال مثلها، فعجبت لذلك. قال : فلم أنشب أن نظرت إلى أبى جهل يجول فى الناس وهو يرتجز :

ما تنقم الحرب العوان منى   بازل عامين حديث سنى

لمثل هذا ولدتنى أمى

فقلت : ألا تريان ؟ هذا صاحبكما الذى تسألان عنه . فابتدراه بسيفيهما فضرباه حتى برد ، وانصرفا إلى رسول الله ﷺ فأخبراه ، فقال : « أيكما قتله؟» فقال كل واحد منهما : أنا قتلته ، قال : « هل مسحتما سيفيكما؟» قالا : لا . فنظر رسول الله ﷺ إلى السيفين وقال : « كلاكما قتله ». وقضى رسول الله ﷺ بسلبه لمعاذ بن عمرو ابن الجموح .

والرجلان : معاذ بن عمرو بن الجموح ، ومعوِّذ بن عفراء .

وروى الإمام أحمد والبيهقى عن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وابن إسحاق، عن معاذ بن عمرو ، والبيهقى عن ابن عقبة ، والبيهقى عن ابن إسحاق، قال معاذ:

سمعت القوم ،وأبو جهل فى مثل الحرجة وهم يقولون : أبو الحكم لا يخلص إليه. فلما سمعتها جعلته من شأنى فعمدت نحوه . فلما أمكننى حملت عليه فضربته ضربة أطنت بها قدمه بنصف ساقه ، فوالله ما شبهتها حين طاحت إلا كالنواة تطيح من

(١) الحج / ١٩ .

(٢) فتح البارى ٧/ ٢٩٦ برقم ٣٩٦٥ .

تحت مرضخة النوى حين يضرب بها ، وضربنى ابنه عكرمة ـ وأسلم بعد ذلك ـ على عاتقى فطرح يدى فتعلقت بجلدة من جنبى ، وأجهضنى القتال عنه ، فلقد قاتلت عامة يومى هذا وإنى لأسحبها خلفى. فلما آذتنى وضعت قدمى عليها ، ثم تمطيت بها عليها حتى طرحتها ، قال ابن إسحاق : وعاش بعد ذلك إلى زمن عثمان .

قال القاضى: زاد ابن وهب فى روايته: فجاءَ يحمل يده إلى رسول الله ﷺ فبصق عليها رسول الله ﷺ فلصقت ، كذا نقله عن القاضى فى العيون .

قال ابن إسحاق : ثم مرَّ بأبى جهل يوم بدر معوِّذ بن عفراء ، فضربه حتى أثبته وبه رمق ،وقاتل معوِّذ حتى قتل، ثم مر عبد الله بن مسعود بأبى جهل فذكر ما سيأتى.

وأقبل رسول الله ﷺ حتى وقف على القتلى فالتمس أبا جهل فلم يجده ، حتى عُرِف ذلك فى وجه رسول الله ﷺ ، فقال : « اللهم لا يعجزنى فرعون هذه الأمة » وقال ﷺ : « من ينظر لنا ما صنع أبو جهل ؟ وإن خفى عليكم فى القتلى ، فانظروا إلى أثر جرح فى ركبته ؛ فإنى ازدحمت أنا وهو يومًا على مأدبة لعبد الله بن جُدعان ونحن غلامان ، وكنت أشف منه بيسير ، فدفعته فوقع على ركبته فجحش[1] فى إحداهما جَحشًا لم يزل أثره به » .

قال عبد الله بن مسعود : فأتيته فوجدته بآخر رمق فعرفته ، وكان مقنعًا بالحديد ، واضعًا سيفه على فخذيه ليس به جرح ، ولا يستطيع أن يحرك منه عضواً وهو منكب ينظر إلى الأرض ، فلما رآه ابن مسعود طاف حوله ليقتله،فأراد أن يضربه بسيفه فخشى ألا يغنى سيفه شيئًا ، فأتاه من ورائه ـ قال : ومعى سيف رث ، ومعه سيف جيد ، فجعلت أنقف رأسه بسيفى ، وأذكر نتفًا كان برأسه حتى ضعفت يده ، فأخذت سيفه فرفع رأسه فقال:على من كانت الدَّبْرة ـ وفى رواية : لمن الدائرة ؟ قلت :لله ورسوله. فأخذت بلحيته وقلت: الحمد لله الذى أخزاك الله يا عدو الله . قال : بم أخزانى ؟ هل أعمد من رجل قتلتموه ـ أو غير أكار[2] قتلنى ، فرفعت سابغة البيضة عن قفاه ، فضربته فوقع رأسه بين يديه ثم سلبته .

قال ابن مسعود : ثم حززت رأسه ،ثم جئت رسول الله ﷺ ، فقلت : يا رسول الله ، هذا رأس عدو الله أبى جهل . فقال رسول الله ﷺ : « آلله الذى لا إله إلا هو؟ » فاستحلفنى ثلاث مرات . فألقيت رأسه بين يديه ، فقال : «الحمد لله الذى أعز

---

(١) جحش : جُرح جرحًا شديدًا .

(٢) أكار : مزارع ويعرِّض بالأنصار أنهم أهل زرع .

الإسلام أهله » ثلاث مرات ،وخرَّ رسول الله ﷺ ساجدًا - وفي رواية :صلى ركعتين .

قال القاضي : إن ابن مسعود إنما جعل رجله على عنق أبي جهل ليصدِّق رؤياه ، فإن ابن قتيبة ذكر أن أبا جهل قال لابن مسعود : لأقتلنك، فقال : والله لقد رأيت في النوم أني أخذت حدجة حنظل فوضعتها بين كتفيك بنعلي، ولئن صدقت رؤياي لأطأن رقبتك ، ولأذبحنك ذبح الشاة .

وروى ابن عائذ عن قتادة أن رسول الله ﷺ قال : « إن لكل أمة فرعونًا ، وإن فرعون هذه الأمة أبو جهل ، قتله شر قتلة ، قتله ابنا عفراء ، وقتلته الملائكة، وتدافه ابن مسعود » [1] .

١ - أكبر حشد تشهده المدينة يتحرك صوب قافلة قريش على رأسه رسول الله ﷺ وقد شاركَ فيه المهاجرون والأوس والخزرج . وهي الجبهات المعترف عليها في الدولة الإسلامية الفتية . وقام القائد العام - عليه الصلاة والسلام - بتوزيع الرايات [2] على هذه الجبهات الثلاث ، حيث استلم سيد الأوس - سعد بن معاذ - راية الأوس . واستلم نائب سيد الخزرج - الحباب بن المنذر - راية الخزرج ؛ لأن سعد بن عبادة نهش فلم يتمكن من المشاركة . وسلَّم رسول الله ﷺ راية المهاجرين لأخيه علي بن أبي طالب نيابة عنه، وأراد - عليه الصلاة والسلام - أن يواجه مكة باعتباراتها التي توارثتها كابرًا عن كابر ، حيث إن اللواء كان لبني عبد الدار حسب توزيع أمجاد قريش في مكة، فأعطى رسول الله ﷺ اللواء لبني عبد الدار باسم الجيش كله . وللتمييز بين اللواء والراية . فكان لون اللواء أبيض، بينما كان لون الرايات أسود .

لقد كان التخصص هو سمة المجتمع النبوي الرائد .

وحيث إن فريقًا كبيرًا من المسلمين لا يزال في المدينة،فلابد من حاكم يدير شؤونها في غياب القائد الأعظم ﷺ . وفي الروحاء [3] رد رسول الله ﷺ أبا لبابة بن عبد المنذر إلى المدينة ،واستعمله واليًا عليها . وكان أبو لبابة من الأوس من بني عمرو بن عوف ، إذ لا يمكن أن يكون في المدينة أكثر من أمير واحد . أما إمرة الصلاة فقد أوكلها رسول الله ﷺ لابن أم مكتوم القارئ المجيد الذي شهدته المدينة أول إمام فيها بعد ورود المهاجرين إليها ؛ حيث كان يؤم القوم وفيهم عمر رضي الله عنه وإخوانه من العشرة

---

(١) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحي ٤/ ٣٩ - ٧٠ مقتطفات .

(٢) هناك خلاف حول الراية واللواء أيهما الأهم . حيث يذكر الصالحي أن اللواء دون الراية .

(٣) قرية جامعة على ليلتين من المدينة . وفي معجم المعالم الجغرافية للسيرة النبوية أنها تبعد ٧٥ كم عن المدينة .

المبشرين . ونشير إلى أن التدريب الذى أراده رسول الله ﷺ لأبى لبابة كى يمارس مسؤولياته هدف مقصود بذاته، إضافة إلى التربية الشاقة التى أرادها رسول الله ﷺ للجيل المسلم . إذ أن أكثرية أهل المدينة من الخزرج ،وأخوال رسول الله ﷺ من بنى النجار فـرع منهم . عليهم أن يسمعوا جيعًا ويطيعوا للأمير الأوسى الجديد أبى لبابة .

ولتتم التوازنات بين الحيين ـ الأوس والخزرج ـ فقد كان أمير المشاة قيس بن أبى صعصعة المازنى النجارى الخزرجى .

وللاستفادة من الاختصاصات كذلك ، فقد بعث رسول الله ﷺ دليلين يتحسسان أخبار القافلة هم: بسبس بن عمرو، وعدى بن أبى الزعباء، وكلاهما جُهَنِيَّان حليفان للأنصار فى المدينة . وجهينة على الساحل على طريق القوافل الغادية والرائحة إلى الشام . فهما أدرى بالطريق وأخبر به ، وبإمكانهما أن ينزلا فى جهينة فيتعرفا ويسألا أكثر من غيرهما . فهما أقدر من أى شخص آخر على هذه المهمة ، ولاحظنا أن اللقاء السابق بين المسلمين والمشركين والذى كان حمزة رضي الله عنه على رأسه ، إنما حجز بينهما مُجدى بن عمرو الجهنى . ولاحظنا كذلك أن رسول الله ﷺ قد مضى على رأس جيش من قبل وحالف جهينة ذات الموقع الاستراتيجى المهم فى تلك المنطقة، ومُجْدى ابن عمرو الجهنى هو الذى كان على ماء بدر ، فلعلها تمتد مضاربها إليها .

٢ ـ والتطور الجديد الذى حدث باتجاه الجيش ، هو وصول الأخبار عن تحرك جيش قريش من مكة . والمسلمون قد خرجوا أصلاً للقاء القافلة . وهنا تبرز عظمة الطاقات الإسلامية فى مواجهة هذا التطور الجديد .

روى ابن أبى حاتم وابن مردويه عن أبى أيوب قال :(لما سرنا يومًا أو يومين قال لنا رسول الله ﷺ: « ما ترون فى القوم فإنهم قد أخبروا بمخرجكم ؟ » فقلنا :ما والله لنا طاقة بقتال القوم ، ولكن أردنا العير . ثم قال : « ما ترون فى قتال القوم ؟ » فقلنا مثل ذلك وذكر الحديث . فأنزل الله تعالى : **﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ . يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ . وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ . لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾**(١)) (٢) .

---

(١) الأنفال : ٥ - ٨ .

(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٤/ ٤٣ .

وهذه الرواية ـ على قلة شهرتها ـ نحن بحاجة إليها ؛ لتوضيح النص القرآنى فى الدلالة على نفسيات المسلمين غير الراغبين فى المواجهة . وأمام هذا الواقع النفسى ، رأى رسول الله ﷺ أن عملية المواجهة لا يمكن أن تتم بهذه النفسية حيث تتم الرواية الثانية صورة الواقع النفسى للمواجهة وهى :

(... وسلك ذات اليمين على وادٍ يقال له : ذفران ، وجزع فيه ثم نزل ، وأتاه الخبر بمسير قريش ليمنعوا عيرهم . فاستشار الناس فتكلم المهاجرون وأحسنوا ، ثم استشارهم ـ وفى رواية : فقام أبو بكر فقال وأحسن. ثم قام عمر بن الخطاب وأحسن. ثم قام المقداد بن الأسود فقال :

يا رسول الله ، امض لما أمرك الله فنحن معك ، والله ما نقول لك كما قال قوم موسى لموسى: ﴿ **فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ** ﴾[1] ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، وعن يمينك وعن شمالك، وبين يديك ومن خلفك، والذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه . فأشرق وجه رسول الله ﷺ وقال له خيرًا ودعا له) [2].

ولابد أن يتكلم المهاجرون ابتداء . ولا يتقدم أحد من المهاجرين على شيخ المهاجرين وسيدهم أبى بكر الصديق ، وعلى الفاروق عمر رضي الله عنه .

وتشى كلمة عمر رضي الله عنه التى روتها كتب السيرة بخطورة المواجهة ؛إذ يقول : يا رسول الله ، إنها قريش وعزها ، والله ما ذلت منذ عزت، ولا آمنت منذ كفرت ، والله لتقاتلنك ، فأهب لذلك أهبته ، وأعد لذلك عدته[3] .

ولا غرو أن نرى عمر يقف هذا الموقف ، فهو من أكبر المستشارين للنبى ﷺ ، وعليه أن يدرس الموقف بجلاء ووضوح ليضعه بين يدى قائده ، وليس الأمر أمر حماس عارم ، واندفاع عاطفى جارف . إن عمر رضي الله عنه والصديق ليشاركان فى صياغة القرار النبوى فهما وزيرا رسول الله ﷺ . أما الذى مثل دور الجندية ، وتحدث بلسان إخوانه المهاجرين جميعًا فهو: المقداد بن الأسود رضي الله عنه حتى لينفس عليه جندى آخر أخ له ، كان يتمنى أن يكون صاحب القول نفسه ، يقول ابن مسعود رضي الله عنه :

(شهدت من المقداد بن الأسود مشهدًا لأن أكون صاحبه أحب إلىَّ مما عدل به . أتى النبى ﷺ وهو يدعو على المشركين فقال : لا نقول لك كما قال قوم موسى

(١) المائدة / ٢٤ .

(٢ ، ٣) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٤/ ٤٢ .

لموسى : ﴿ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ ولكن نقاتل عن يمينك وعن شمالك ، وبين يديك ومن خلفك ، فرأيت رسول الله ﷺ أشرق وجهه وسرَّه)(١) .

٣ ـ لكن هذه المواقف الثلاثة لم تكف لاتخاذ قرار المواجهة ، وما يزال ـ عليه الصلاة والسلام ـ يقول : « أشيروا عليَّ أيها الناس » .

وكان أدب الأنصار ألا يتقدموا على إخوانهم المهاجرين فى الرأى ، لكن إلحاح الرسول ﷺ عليهم دفع سيدهم سعد ليقول :

يا رسول الله ، كأنك تعرِّض بنا ـ وفى رواية : كأنك تعنينا يا رسول الله؟! قال : « أجل » .

ولن ينفرد رسول الله ﷺ وهو القائد الأعظم ، والمفدى بالأرواح والمهج ، لن ينفرد باتخاذ القرار مع المهاجرين . ولابد أن تشارك الأنصار فى الرأى خصوصًا والأنصار أكثرية الجيش ؛ إذ لا يبلغ المهاجرون إلا ربع الجيش ، والمعركة تحتاج إلى المشاركة الكاملة . ومن جهة ثانية فالعهود مع الأنصار أن يدافعوا عن رسول الله ﷺ داخل المدينة لا خارجها . وهذه تحتاج إلى عقد جديد وبيعة جديدة .

وسعد رضي الله عنه هو أبو بكر الأنصار . و عندما رأى أن رسول الله ﷺ يود أن يعرف رأيهم فراح يقول :

يا رسول الله، قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة .

فقد لخص سعد رضي الله عنه الموقف ابتداءً بارتباط السمع والطاعة بالبيعة الكبرى على الإيمان والإسلام ، ثم عرَّج على البيعة الخاصة . بيعة العقبة الكبرى فقال :

ولعلك يا رســول الله تخشى أن تكون الأنصار ترى عليها ألا ينصروك إلا فى ديارهــم .

وإنى أقول عن الأنصار وأجيب عنهم .

وعظمة سعد أنه لم يتكلم باسم الأوس فقط ، وهو سيدهم ، إنما تكلم باسم الأنصار جميعًا ،فهو يعرف مدى التفاعل والالتحام مع رسول الله ﷺ من الأنصار كلهم، ومن أجل هذا قال : وإنى أقول عن الأنصار وأجيب عنهم :

فاظعن حيث شئت وبذلك نقل البيعة إلى كل مكان في الأرض خارج المدينة .

---

(١) فتح البارى للحافظ ابن حجر ٧/ ٢٨٧ برقم ٣٩٥٢ من صحيح البخارى .

وصل حبل من شئت ، واقطع حبل من شئت .

فأكد البيعة على حرب الأحمر والأسود من الناس .

وخذ من أموالنا ما شئت ، واعطنا ما شئت ، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت .

فليست البيعة إلا على نهكة الأموال وقتل الأشراف ليس فى يثرب فقط . ولو كان فى أقاصى اليمن :

(وما أمرت فيه من أمر فأمرنا تبع لأمرك ، فوالله لئن سرت حتى تبلغ البرك من غُمدان لنسيرن معك) .

ولو كان فى لجج البحار .

والله لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد .

أى ثقة هذه ؟! وأى زعامة هذه أن يتكلم باسم قومه جميعًا أوسهم وخزرجهم، ولا يستثنى فردًا واحدًا من هذه الروح الفدائية العالية ؟!

ويشير رضي الله عنه من جانب آخر ـ إلى أن هذا الكلام ليس كلام الأغرار أو المندفعين . إنه كلام أبناء الحرب الذين اصطلوا بنارها وخاضوا غمراتها . وليس يوم بعاث عنهم ببعيد ، ولكن الفرق هائل وشاسع . كانوا هناك يذبحون بعضهم ويكاد يفنى أولهم آخرهم ، وقد تحالفوا مع يهود ليقتلوا إخوانهم. أما اليوم فسعد بن معاذ ينطق باسم الحيين والحزبين والفريقين ـ الأوس والخزرج ـ بين يدى سيدهم وحبيبهم وقائدهم محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ فهم :

صُبرٌ فى الحرب ، صُدُقٌ عند اللقاء .

إنه الفخر العظيم الذى جاء فى أوانه ، والذى نزل فى مكانه .

والجواب ما ترى لا ما تسمع . (لعل الله يريك منا ما تقر به عينك) .

إنها التجربة الأولى للمواجهة ، والمحك الأول للنزال .

ويريد أن ينهى من نفس قائده ـ عليه الصلاة والسلام ـ أى أثر لتغير القرار للظروف الجديدة . فيقول رضي الله عنه :

ولعلك خرجت لأمر فأحدث الله غيره .

فسر بنا على بركة الله ، فنحن عن يمينك وعن شمالك ، وبين يديك وخلفك .

فعاد وأكد أنه على خط إخوانه من المهاجرين الذى أعلنه المقداد حيث كرر كلماته:

ولا نكونن كالذين قالوا لموسى : ﴿ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾(1) ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما متبعون .

وفى مثل هذا الموقف ، يبدو أثر القادة التاريخيين فى تكوين المنعطفات الكبرى فى القرارات الحاسمة . لقد كان سعد رضي الله عنه قائدًا تاريخياً فذًا فى سجل القادة الكبار . فهو الذى حقق فى ظاهر الأمر المنعطف التاريخى من العير للنفير ، وبرأيه وبكلمته التى حدّد بها موقف حزبه من الأنصار تم اتخاذ القرار النبوى الحاسم الخالد .

« سيروا على بركة الله وأبشروا ، فإن الله تعالى وعدنى إحدى الطائفتين ، والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم » .

فقد اختار ﷺ - بعد كلمة سعد الخالدة باسم الأنصار(2) - النفير والمواجهة حيث أكد - عليه الصلاة والسلام - أنه (وكأنه ينظر إلى مصارع القوم) .

وكلمة سعد هى التى نقلت الجيش المسلم من الصورة الأولى :

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾(3)

إلى الصورة الجديدة من الاستعداد للبذل والموت والقتل فى سبيل الله فى ظل أى ظرف.

والله تعالى هو الذى شاء أن يجعل بدرًا فرقانًا فى التاريخ، لا عيرًا تسلب وتُغْنم.

والبشر ستار لقدر الله ، وسعد هو الذى مثل هذا الستار ، وقاد هذه الأمة بهذا الاتجاه .

٤ - وفى مجال بروز القيادات الموهوبة العالية نلحظ موقف نائب سيد الخزرج الحباب بن المنذر فى مجريات المعركة :

حتى جاء أدنى ماءٍ من بدر فنزل ، فقال الحباب بن المنذر بن الجموح فيما رواه ابن إسحاق : يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ قال : « بل هو الرأى والحرب والمكيدة ». قال : يا رسول الله ليس هذا المنزل ، فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم ،

---

(1) المائدة / ٢٤ .

(2) تشير بعض الروايات التى رواها الإمام أحمد بسنده إلى أن سعد بن عبادة رضي الله عنه زعيم الخزرج تكلم وقال : والذى نفسى بيده ، لو أمرتنا أن نخيضها البحار لأخضناها ، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى برك الغماد لفعلنا . لكن رواة السيرة مجمعون على أن سعدًا لم يحضر بدرًا ؛لأنه نهش وحيل بينه وبينها ، والاشتباه هو بين السعدين بالنسبة لهذه الكلمة .

(3) الأنفال / ٧ .

فننزله ، ثم نغوِّر ما وراءه من القُلُب ، ثم نبنى عليه حوضًا فنملأه ماءً ، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون .

فقال رسول الله ﷺ : « لقد أشرت بالرأى » .

وذكر ابن سعد أن جبريل نزل على النبى ﷺ فقال: الرأى ما أشار به الحباب.

فلئن كان سعد بن معاذ رضي الله عنه كتب الله على يديه أن يكون المنعطف التاريخى فى اتخاذ القرار . فقد كتب الله على يد الحباب بن المنذر رضي الله عنه أن يكون المنعطف فى تغيير الخطة للمعركة ، وقدم خطة جديدة كاملة باستراتيجية جديدة ، سرعان ما قبلها رسول الله ـ صلوات الله عليه.

وحين نتحدث عن التربية القيادية ، ونشهد عظمة التربية النبوية التى سرت فى سعد، فجعلته يتأدب أمام رسول الله ﷺ ، وأمام إخوانه من المهاجرين ، فلا يتقدم بالرأى ، ولا ينافس هؤلاء القمم حتى شعر بأن رسول الله ﷺ يطلب رأيه مباشرة، فيتقدم للإجابة .

نشهد هنا كذلك عظمة التربية النبوية للقيادات فى شخص الحباب رضي الله عنه الذى تقدم هو الآن دون أن يُطلب رأيه؛ ليعرض الخطة التى لديه ، لكن هذا تم بعد السؤال العظيم الذى قدَّمه بين يدى قائده :

يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟

إن هذا السؤال ليشى بعظمة هذا الجوهر القيادى الفذ الذى يعرف أين يتكلم ومتى يتكلم بين يدى قائده. فإن كان الوحى هو الذى اختار هذا المنزل، فلأن يقدم فتقطع عنقه أحب إليه من أن يلفظ بكلمة واحدة ، وإن كان الرأى البشرى ـ فهو جذيلها المحكك ـ وعذيقها المرجب ، كما وصف نفسه فيما بعد رضي الله عنه .

إن هذه النفسية المبدعة التى تربت خلال هاتين السنتين عرفت أصول المشورة ، وأصول إبداء الرأى ، وأدركت مفهوم السمع والطاعة ، وأدركت مفهوم المناقشة، ومفهوم عرض الرأى المعارض لرأى سيد ولد آدم ـ عليه الصلاة والسلام .

ومن الصعب جدًا ـ مهما أفضنا فى الحديث عن هذه العظمة ـ أن نتمكن من أن نعيش فى هذا الجو النفسى الذى تمت فيه هذه الكلمة الخالدة فى الاستئذان بعرض الرأى.

لقد تربت هذه النفسيات على أن تكون فاعلة إيجابية مبدعة ، وأين ؟ بين يدى

رسول رب العالمين ، فتعرض رأيًا مخالفًا لرأيه . لكن تربت كذلك على خلع ذاتها والانعتاق من شخصها حين يكون الوحى الربانى هو الذى يحدد الموقف .

وتبدو عظمة القيادة النبوية كذلك من سيد ولد آدم أن يستمع للخطة الجديدة ، ويؤكد ابتداء أن هذا الوقت هو وقت عرض الخطة الأولى ومناقشتها وتعديلها ، أو العدول عنها : « بل هو الرأى والحرب والمكيدة » .

ولم يتوان ـ عليه الصلاة والسلام ـ لحظة واحدة من الاستجابة لتغيير الخطة السابقة، وتبنى الخطة الجديدة المطروحة من جندى من جنوده ، أو قائد من قواده . بل جاء الوحى ليبارك هذه المبادرة ويدعو إلى الأخذ بها . حيث تقطع تموينات العدو ، ويضطر إلى الاستسلام فى النهاية لو استمرت الحرب .

(فنهض ﷺ ومن معه من الناس حتى إذا أتى أدنى ماءٍ من القوم نزل عليه نصف الليل ثم أمر بالقُلُب فغوِّرت ، وبنى حوضًا على القليب الذى نزل عليه فملأه ماءً ، ثم قذفوا فيه الآنية) .

ونعود كذلك إلى خطة جديدة عرضها سعد ـ سيد الأوس ـ إضافة إلى خطة الحباب . فنحن بين يدى خبراء الحرب ، وقادة الرأى وقادة المعارك فى وقت واحد .

يقول سعد رضي الله عنه :

يا رسول الله ، ألا نبنى لك عريشًا تكون فيه ، ونعد عندك ركائبك ، ثم نلقى عدونا ، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا . فلقد تخلف عنك أقوام يا نبى الله، ما نحن بأشد حبًا لك منهم ، ولو ظنوا أنك تلقى حربًا ما تخلفوا عنك ، يمنعك الله بهم ، يناصحونك ويجاهدون معك .

هذا المستوى القيادى الذى نرى سعداً رضي الله عنه فيه يُبَعِّد النظر ، ويقلب وجهاته ويحسب جميع الحسابات أحسنها وأسوأها . ويفكر بمواجهة كل موقف . ويُعدُّ له عدته هو الذى يمثل القيادة التاريخية الفذة كما ذكرنا من قبل . فليس القائد الذى يدمر أمته بطموحاته دون أن يعد للعدو حسابه ، بل القائد هو الذى يدرك كل الاحتمالات ، ويعد لكل احتمال موقفه المناسب.

فسعد رضي الله عنه يدرك أن المسلمين ولو كان على رأسهم رسول الله ﷺ يمكن أن يُهزموا فى معركة من أهل الباطل ورجاله .ففى مثل هذه الحالة ، لابد من المحافظة على القائد الأعظم ﷺ فى عريشه وغرفة قيادته يدير المعركة . ولابد من إعداد البديل الجاهز وهو الطاقات الإسلامية الضخمة الموجودة فى المدينة ، والتى وصفها سعد رضي الله عنه

بقوله : (ما نحن بأشد لك حبًا منهم) .

فلم يأخذه الغرور فيمضى لينال من المقيمين فى المدينة ، ويشهر بهم ، أو يلمز جانبهم ، أو يغمز من قناتهم . بل قدَّمهم لسيده ــ عليه الصلاة والسلام ــ أشد حبًا له، وأشد وفاءً له ، يجاهدون معه ، ويحملون الراية بعد هذا الجيل الفدائى كله .

فرغم كل حماس سعد رضي الله عنه واستعداده ليقذف بقومه فى أتون الحرب وقلب الموت. لا يعفيه من المسؤولية أن يفكر بمصير الإسلام ورسول الإسلام بعد استشهاد هذا الجيل كله . فقدم هذه الخطة فى المحافظة على القيادة فى بناء العريش، ووضع خطة التحرك فى إعداد الركائب . ومتابعة معركة الثأر من الرديف الخلفى والجيش الثانى الذى يتابع المعركة من جديد فَيُغيِّر موازينها ويغير نتائجها .

وكان من تمام الخطة الرديفة أن يكون أبو بكر الصديق رضي الله عنه الوزير الأول ، وسعد ابن معاذ الوزير الأول من الأنصار هما حرسا رسول الله ﷺ ، وهما بالتالى مع سيد القادة ـ عليه الصلاة والسلام ـ أصحاب القرار المناسب لكل طارئ فهم بمثابة رئاسة الأركان فى الجيش . ولكن هذا لا يمنع هؤلاء الثلاثة وعلى رأسهم سيد الخلق ـ صلوات الله عليه ـ أن يمارسوا الجندية المباشرة ، والحرب المباشرة بل يكونون أقرب ما يكونون إلى العدو عند التحام المعركة .

(فقد روى البيهقى عن على رضي الله عنه قال : لما كان يوم بدر اتقينا المشركين برسول الله ﷺ وكان أشد الناس بأسًا) (١) .

وزاد فى رواية : (وما كان أقرب إلى المشركين منه) (٢) .

وبالسرعة التى تم فيها تنفيذ الخطة الأولى تم تنفيذ الخطة الثانية :

(ثم بُنى لرسول الله ﷺ عريش على تل مشرف على المعركة ، فكان فيه هو وأبو بكر وليس معهما غيرهما . وقام سعد بن معاذ رضي الله عنه على بابه متوشحًا بالسيف، ومشى رسول الله ﷺ فى موضع المعركة ، وجعل يشير بيده : « هذا مصرع فلان ، وهذا مصرع فلان إن شاء الله » ، فما تعدى منهم أحد موضع إشارته) . رواه الإمام أحمد ومسلم وغيرهما .

٥ ـ وبعد قرار المواجهة ، وتسوية الصفوف أصدر رسول الله ﷺ أوامره : « لا تقاتلوا حتى أوذنكم ، وإن كثبوكم فارموهم بالنبل ، ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم، واستبقوا نبلكم » . وروى ابن إسحاق، وابن المنذر، عن حبان بن واسع بن حبان،

(١، ٢) دلائل النبوة للبيهقى ت : د . عبد المعطى قلعجى ٣/ ٧٠ .

عن أشياخ من قومه ؛ أن رسول الله ﷺ عدَّل صفوف أصحابه يوم بدر، ورجع إلى العريش ، ثم انتبه فقال : « أبشر يا أبا بكر ، أتاك نصر الله ، هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده على ثناياه النقع » ، وخرج عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة بن ربيعة وابنه الوليد بن عتبة حتى إذا فصل من الصف دعوا إلى المبارزة . فخرج إليهم ثلاثة من الأنصار وهم: عوف ومعاذ ابنا الحارث ، وأمهما عفراء ، وعبد الله بن رواحة .

فهؤلاء الأنصار يصدِّقون مقولة سيدهم سعد بن معاذ ، ومن اللحظة الأولى التى دعا فيها المشركون إلى المبارزة . كان هؤلاء الثلاثة جاهزين لها ، فانطلقوا كالسهم ، ووقفوا بين الصفين لمواجهة أكبر قادة الشرك ـ عتبة وشيبة والوليد .

وعتبة هو ابن الحرب المجرب ؛ إذ شارك فى حرب الفجار قبل أربعين عامًا تقريبًا، وهو الذى أنهاها بحكمته . ولا يقل أخوه شيبة خبرة عنه . والوليد كان كذلك فى عرام الشباب، وأقرب إلى الكهولة منه إلى الفتوة. مع أن عتبة وشيبة كانا ضد المواجهة، ودعا عتبة قريشا إلى الكف عن الحرب ، لكن أبا جهل أحفظه واتهمه بالجبن ، فغضب وخرج مع أخيه وابنه يتحدى الله ورسوله ، ويطلب المبارزة . ولطالما اعتد بقوته مع أخيه شيبة. فدعا عليه رسول الله ﷺ كما روى البخارى عن ابن مسعود ،قال : (استقبل النبى ﷺ الكعبة ، فدعا على نفر من قريش : على شيبة بن ربيعة ، وعتبة بن ربيعة ، والوليد بن عتبة ، وأبى جهل بن هشام ، فأشهد بالله لقد رأيتهم صرعى قد غيرتهم الشمس، وكان يومًا حارًا)(١) .

لم يكن عتبة وأخوه وابنه أعداء ألداء للإسلام، بمقدار ما كانوا عبيدًا للزعامة والشهرة، ولطالما دعا عتبة إلى الكف عن مواجهة الرسول ﷺ ، وذلك فى الأيام الأولى للإسلام حين سمع القرآن فقال :

ورائى أنى سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة. يا معشر قريش، أطيعونى واجعلوها بى ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكوننَّ لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به .

قالوا :سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه .قال:هذا رأيى فاصنعوا فيه ما بدا لكم(٢).

وفى يوم بدر إذ خطب فى قومه فقال :

---

(١) البخارى برقم ٣٩٦٠ فى فتح البارى ٧/ ٢٩٣ . (٢) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٣٦٣ ، ٣٦٤ .

يا معشر قريش، إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئًا ، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر فى وجه رجل يكره النظر إليه، قتل ابن عمه ، أو ابن خاله، أو رجلاً من عشيرته ، فارجعوا وخلوا بين محمد وسائر العرب، فإن أصابوه فذلك الذى أردتم ، وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرضوا منه ما تريدون[1] .

وهو الذى قال فيه رسول الله ﷺ عند عرض رأيه هذا : « إن يكن فى أحد من القوم خير ، فعند صاحب الجمل الأحمر ، إن يطيعوه يرشدوا »[2] ولم يكن عند أحدٍ من القوم خير .

فها هو عتبة حين يستثيره أبو جهل ويتهمه بالجبن ، يندفع مع أخيه وابنه ليقاتل محمدًا ابن عمه .

فكلاهما من بنى عبد مناف ، ويكون أول المتحدين والداعين للمبارزة . ويأنف من أن يبارز الأنصار فيقول : أكفاء كرام ما لنا بكم من حاجة وينادى :

يا محمد، أخرج لنا أكفاءنا من قومنا .

وطالما أن الأمر تبلور بهذه الصيغة ، وأصرَّ عتبة وابنه وأخوه على المواجهة ، فليقدم رسول الله ﷺ قرة عينه ، وفلذة كبده : حمزة وعبيدة وعلى ، فهم ذاته الشريفة ليقدمهم طعمة للموت ، ووقودًا للمعركة .

نادى رسول الله ﷺ الفدائيين الثلاثة ابنى عفراء وشاعره ابن رواحة قائلاً : «ارجعوا إلى مصافكم ، وليقم إليهم بنو عمهم » .

قال ابن إسحاق : فقال رسول الله ﷺ :« قم يا عبيدة بن الحارث ،وقم يا حمزة، وقم يا على ،فقاتلوا بحقكم الذى بعث به نبيكم إذ جاؤوا بباطلهم ليطفئوا نور الله » .

هؤلاء الذين ادخرهم رسول الله ﷺ لمثل هذا الموطن بعد صبر ثلاثة عشر عامًا وهو يكفهم ويمنعهم عن المواجهة . أما الآن ، وقد تميزت المعركة ، وتميز الصف بين العصابة المسلمة التى تمثل الحق فى هذا الوجود ، وبين قريش التى خرجت بخيلها وخيلائها تحاد الله وتكذب رسوله ، وليكن اللقاء الأول ، والمبارزة الأولى بين أبناء العم من بنى عبد مناف ، بين أبناء العم من بنى هاشم ومن بنى أمية ، ابنى عبد مناف .

ها هو علىٌّ الطفل ابن الثامنة من عمره ، هو الآن وقد غدا ابن اثنى وعشرين ربيعًا يقف ليواجه بطل بنى أمية الوليد بن عتبة ،ويقف القرنان الكبيران حمزة وشيبة ، وشيخا بنى هاشم وبنى أمية عتبة بن ربيعة وعبيدة بن الحارث يتصاولان .

---

(١) المصدر السابق ٢/ ٣١٦ .　　(٢) المصدر السابق ٢/ ٣١٤ .

(وأما علىٌ فلم يمهل الوليد أن قتله ، وأما حمزة فلم يمهل شيبة أن قتله، واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين كلاهما أثبت صاحبه ، وضرب عتبة رِجْلَ عبيدة فقطعها . وكر حمزة وعلى بأسيافهما على عتبة فذففا عليه ، واحتملا صاحبهما فحازاه إلى أصحابه) .

الجيشان تعلقت أنظارهم بأبطال الساحة ، وانكشفت الساحة عن قادة بنى أمية الثلاثة صرعى فى العراء . بينما عاد بنو عمهم مكللين بالنصر .

وتشهد السموات العُلَى هذه المبارزة بين بنى العم وأبناء العشيرة الواحدة فى هذه البقعة القصية النائية من الأرض ، فيجعل الله تعالى هذه المبارزة رمزًا للإسلام والكفر فى الأرض ، ويتنزل قول الله عز وجل :

﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ . يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ . وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ . كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ . إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ . وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴾ (١) .

وإذا بعلىٌ رضي الله عنه الذى كان فى الظل فى مكة يبرز على أعتاب بدر مع حمزة وعبيدة ليمثلوا أشرف معركة وأشرف مقاتلين فى الوجود حتى ليقول علىٌ ـ رضوان الله عليه ـ:

(أنا أول من يجثو بين يدى الرحمن للخصومة يوم القيامة).(وقال قيس بن عباد: وفيهم أنزلت: **﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ﴾** قال : هم الذين تبارزوا يوم بدر : حمزة وعلى وعبيدة بن الحارث ، وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة)(٢) . (وقال على رضي الله عنه : فينا نزلت هـذه الآيـة : **﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ﴾** .)(٣) . ويقول قيس بن عباد: (سمعت أبا ذر يقسم قسمًا إن هذه الآية : **﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ﴾** نزلت فى الذين بارزوا يوم بدر : حمزة وعلى وعبيدة بن الحارث ، وعتبة وشيبة ابنى ربيعة والوليد بن عتبة) (٤) .

على رضي الله عنه الفتى الصغير . والذى أسعده الله تعالى بأن يتلقى التربية النبوية المباشرة

---

(١) الحج / ١٩ - ٢٤ .
(٢) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧ / ٢٩٦ ح (٣٩٦٥).
(٣) المصدر نفسه رقم ٣٩٦٧ .
(٤) المصدر نفسه رقم ٣٩٦٩ .

فى بيت النبوة . والذى مثل قمة التربية فى كف اليد خلال العهد المكى، ها هو الآن يمثل إطلاق اليد ، واستفراغ الطاقات فى بدر . ولنر ما فعل فى أول فرصة أُتيح له فيها أن تُفجر طاقاته .

(قال أبو عمر : ومن مشاهير القتلى : حنظلة بن أبى سفيان بن حرب قتله زيد ابن حارثة، وعبيدة بن سعيد بن العاص قتله الزبير بن العوام ، وأخوه العاص بن سعيد قتله على - وقيل : غيره - وعتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة قتلهم حمزة وعبيدة وعلىٌ كما تقدم ، وعقبة بن أبى معيط قتله عاصم بن ثابت صبراً بالسيف - وقيل :بل على بأمر رسول الله ﷺ بذلك - والحارث بن عامر بن نوفل قتله علىٌ - وطعيمة بن عدى قتله حمزة - وقيل : بل قتل صبراً والأول أشهر - وزمعة بن الأسود بن المطلب، وابنه الحارث بن زمعة وأخوه عقيل بن الأسود،وأبو البخترى بن هشام،وتقدم الخلاف فى قاتله من هو، ونوفل بن خويلد بن أسد قتله علىٌ - وقيل الزبير - والنضر بن الحارث قتل صبراً بالصفراء ، وعمير بن عثمان عم طلحة قتله على بن أبى طالب ، وأبو قيس بن الوليد أخو خالد بن الوليد قتله علىٌ عليه السلام ،وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة قتله حمزة بن عبد المطلب ، والسائب بن السائب قتله الزبير بن العوام) (١).

لقد كان عدد المشاهير المذكورين هنا عشرين من صناديدهم . وحين نضيف إليهم أبا جهل بن هشام وأمية بن خلف ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج . يصل العدد إلى أربع وعشرين من صناديدهم سقطوا قتلى فى هذه المعركة . قتل منهم على وحده فيما روى عنه رضي الله عنه ربعهم ، وهم :

١ - العاص بن سعيد . ٢ - الوليد بن عتبة .
٣ - عتبة بن ربيعة (شارك بقتله) . ٤ - الحارث بن عامر بن نوفل .
٥ - نوفل بن خويلد . ٦ - عمير بن عثمان .
٧ - مسعود بن أبى أمية المخزومى . ٨ - أبو قيس بن الوليد .

وبتحليل هؤلاء الثمانية نلاحظ أنهم أقرب الناس رحمًا بعلى رضي الله عنه فمن بنى أمية فقط فرع بنى عبد مناف ثلاثة، والرابع من بنى نوفل ، الفرع الثانى من بنى عبد مناف وهم : (الوليد وعتبة والعاص بن سعيد والحارث بن عامر بن نوفل) واثنان من بنى مخزوم هما : مسعود بن أبى أمية وأبو قيس بن الوليد وعبدرى وأسدى . كما قتل

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٢ / ١١٦ .

حمزة من هؤلاء الصناديد أربعة كبار . ولم يعد رسول الله ﷺ بحاجة إلى الحزب الهاشمى (غير المسلم) الذى قاد المعركة فى مكة بزعامة أبى طالب ، بل يقود المعركة اليوم (الحزب المسلم) وعلى رأسه ابن أبى طالب ، على وأخوه حمزة وتقر عين أبى طالب بهؤلاء الأبطال ولده وأخيه مصداقًا لقوله :

كذبتم وبيت الله نخلى محمداً ... ولما نطاعن دونه ونناضل

وتقر عين أبى طالب بعبيدة بن الحارث ابن عمه الذى استشهد مصداقًا لقول أبى طالب :

ونسلمه حتى نصرَّع حوله ... ونذهل عن أبنائنا والحلائل

لقد انتهى دور الحزب الهاشمى بمكة ، وجاء دور الحزب المحمدى بالمدينة بفروعه الثلاثة المهاجرين والأوس والخزرج مصداقًا لقول أبى طالب :

وينهض قـوم فى الحديـد إليكـم ... نهوض الروايا تحت ذات الصلاصل

وحتى يرى ذا الضغن يركب درعه ... من الطعن فعـل الأنكـب المتحامــل

وتقر عين أبى طالب بسقوط الأعداء الألداء جميعًا صرعى على يد الحزب المحمدى وعلى رأسه أسدا بنى هاشم حمزة وعلى .

روى البزار والطبرانى عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : لما جىء بأبى جهل يجر إلى القليب . قال رسول الله ﷺ :

« لو كان أبو طالب حيًا لعلم أن أسيافنا قد التبست بالأماثل » .

ولذلك يقول أبو طالب :

وإنا لعمرو الله إن جد ما أرى ... لتلتبسن أسيافنا بالأماثل

هؤلاء الأماثل ،وهؤلاء الملأ هم الآن الذين اختلطت أسياف المسلمين وأسياف ملائكة الرحمن برقابهم ، وهم يجرون اليوم إلى القليب صرعى، لا حول لهم ولا طول . كما روى الإمام أحمد برجال ثقات عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ: (أن رسول الله ﷺ كان يريهم مصارع أهل بدر بالأمس يقول: « هذا مصرع فلان غداً إن شاء الله ـ ووضع يده بالأرض ـ وهذا مصرع فلان غدًا إن شاء الله ، وهذا مصرع فلان غداً إن شاء الله » .

قال عمر : (فوالذى بعثه بالحق ما أخطؤوا الحدود التى حدها رسول الله ﷺ وجعلوا يُصرعون عليها فجعلوا فى طوى من أطواء بدر خبيث مخبث بعضهم على بعض) .

قال أبو طلحة : وكانوا بضعة - وفى رواية : أربعة - وعشرين رجلاً) (١) .

هؤلاء الأربعة والعشرون قتل نصفهم أسدا بنى هاشم حمزة وعلى . وقتل الزبير ابن العوام رضي الله عنه قريبه السائب بن السائب ، وعبيدة بن سعيد بن العاص . وقتل الأنصار باقيهم .

٦ - وهكذا سقطت قيادة بنى أمية ، أما قيادة بنى مخزوم والتى يمثلها أبو جهل بن هشام ، فشاءت إرادة الله - عز وجل - أن يُقتل على يدى الأنصار ليكون ذلك غصة فى حلقه . وأن يكون مقتله على يد فتيان صغار احتقارًا لشأنه، فيحرض بريقه ويتحسر قائلا: لو غير أكار(٢) قتلنى ، ويقول : لقد ارتقيت مرتقاً صعباً يا رويعيّ الغنم .

ويشهد وهو فى النزع الأخير الغلبة لله ولرسوله، ويشهد قتله من ابن مسعود.

قال القاضى : إن ابن مسعود إنما جعل رجله على عنق أبى جهل ليصدِّق رؤياه . فإن ابن قتيبة ذكر أن أبا جهل قال لابن مسعود : لأقتلنك . فقال : والله لقد رأيت فى النوم أنى أخذت حدجة حنظل فوضعتها بين كتفيك بنعلى ، ولئن صدقت رؤياى لأطأن رقبتك ، ولأذبحنك ذبح الشاة (٣) .

ويكفى أن نعلم أنه فرعون هذه الأمة وقُتِلَ بِيَدِ فتيانها ، وشارك فى قتله ملائكة السماء بعد أن أقسم قائلاً :

والله لا نرجع حتى نرد بدرًا ، فنقيم عليه ثلاثًا ، فننحر الجزر ، ونطعم الطعام، ونسقى الخمر ، وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا ، فلا يزالون يهابوننا أبدًا بعدها ، فامضوا (٤) .

فقد روى ابن عائذ عن قتادة ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « إن لكل أمة فرعونًا ، وإن فرعون هذه الأمة أبو جهل ، قتله شر قتلة ، قتله ابنا عفراء ، وقتلته الملائكة ، وتدافه ابن مسعود » .

فهى شر قتلة ، حيث تأتى ملائكة السماء فتقتله غضبًا لله ولرسوله . وحمية لسيد الخلق - عليه الصلاة والسلام - وإذا ابنا عفراء اللذين فاتهما شرف قتل عتبة وشيبة يكرمهما الله تعالى بقتل شر منهما وهو أبو جهل ، وإذ ابن مسعود الذى كان يُضْرب حتى ليغشى عليه من أبى جهل وأذنابه هو اليوم يطأ رقبة عدو الله ويجهز عليه ، ويرمى رأسه بين يدى رسول الله ﷺ .

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٢ / ٨٤ عن الإمام أحمد ١/ ٢٦ .

(٢) الأكار : المزارع ، يعنى بهم الأنصار .

(٣) سبل الهدى والرشاد ٤/ ٧٩ .

(٤) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣١٠ .

ولن ينتهى دوره مع ملائكة السماء بمقتله . بل يبدأ دوره بمقتله .

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ . ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ . كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (١) .

فمن آل فرعون إلى فرعون هذه الأمة نستمع مصداق هذه الآية كما روى الطبرانى وغيره. عن عبد الله بن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال : بينما أنا سائر بجنبات بدر إذ خرج رجل من حفرة فى عنقه سلسلة فنادانى : يا عبد الله ، اسقنى. فلا أدرى : عرف اسمى أو دعانى بدعاية العرب ، وخرج رجل من تلك الحفرة فى يده سوط فنادانى : يا عبد الله ، لا تسقه فإنه كافر ، ثم ضربه بالسوط فعاد إلى حفرته ، فأتيت النبى ﷺ مسرعًا فأخبرتُه فقال لى :

« قد رأيته ؟ ! » قلت : نعم . قال : « ذاك عدو الله أبو جهل ، وذاك عذابه إلى يوم القيامة »(٢) .

ومن هذه الانتقاءات التى شهدنا بها بروز الطاقات العسكرية والسياسية القيادية الشبابية ننتقل إلى التربية أثناء المعركة فى انتقاءات جديدة .

---

(١) الأنفال / ٥٠ - ٥٢ .

(٢) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحى ٤ / ٨٠ .

التربية أثناء المعركة

١ ـ الراكبون الثلاثة :

وروى الإمام أحمد وابن سعد، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال :

كنا يوم بدر كل ثلاثة على بعير . وكان أبو لبابة وعليٌّ زميليّ رسول الله ﷺ . وكان إذا كانت عُقبة رسول الله ﷺ قالا : اركب يا رسول الله حتى نمشي عنك . فيقول: « ما أنتما بأقوى منى على المشى ، وما أنا بأغنى عن الأجر منكما »[1] .

قال فى العيون : وهذا قبل أن يرد رسول الله ﷺ أبا لبابة من الروحاء ، ثم كان زميلاه عليًا وزيدًا . وقال ابن عقبة وابن إسحاق والذهبى وابن القيم : كان زميلاه مرثد بن أبى مرثد الغنوى وعليًا ، وجعلوا زيدًا مع حمزة .

فالقائد القدوة الذى يسوى نفسه مع جنده فى تحمل المشاق يدفعهم إلى التفانى بين يديه ، والزود عنه بالأرواح والأحداق والمهج ؛ ولهذا كان جوابه ـ عليه الصلاة والسلام ـ حين عرض عليه أن يكف عن المشى وهو ابن الخامسة والخمسين ما كان جوابه إلا أن قال : « ما أنتما بأقوى منى على المشى » .

هذا من جهة ، ومن جهة ثانية ، فلابد أن يشحذ عزمهما على متابعة المسير وتعاقبه على هذا البعير، وأن هذا الأمر يرافقه أجر الله تعالى وذخره مع كل خطوة. وحتى يطامن من نفسيات هذا الجيل ويخفف من غلوائهم ، ولا عجب أن ينالهم ذلك الاعتزاز، ورسول رب العالمين بين ظهرانيهم يقودهم ليؤكد لهم فقره إلى الأجر كفقرهم إليه . وبذلك تخلص النية ، وتخلص النفس من حظوظها : « وما أنا بأغنى عن الأجر منكما » .

ومَنْ هذان حتى يزهدا فى الأجر ،ورسول الله ﷺ يحرص عليه ؟ ! فهو كمن وضع فى أعماقهم مِرجَل طاقة تندفع وتجلب الأجر ، وتسعى وراء مرضاة الله فقط دون أى شىء آخر .

---

(١) مجمع الزوائد للهيثمى ٦/٦٩ وقال فيه : « رواه أحمد والبزار ، وفيه عاصم بن بهدلة وحديثه حسن ، وبقية رجال أحمد رجال الصحيح » .

٢ ـ ما يضحك الرب من عبده :

وأصبح القوم وكأنهم يعيشون مع الله. فهذا عوف بن الحارث رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ابن عفراء يشغل باله مرضاة ربه ، فيسأل الحبيب المصطفي قائلاً :

يشغل باله مرضاة ربه ، فيسأل الحبيب المصطفى قائلاً :

يا رسول الله ، ما يضحك الرب من عبده ؟ قال : « غمسه يده فى العدو حاسرًا » .

فنزع درعًا كانت عليه فألقاها ثم أخذ سيفه ، فقاتل القوم حتى قتل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ .

لقد نزعوا من قلوبهم كل ارتباط بهذه الدنيا الفانية ، وتوجهوا بهذه القلوب إلى الرب سبحانه يتسابقون في مرضاته، بعد أن كان جل همهم أن تتحدث الأبكار عن بطولاتهم ، ويرضى سيد القبيلة عنهم ، وتنشد الأشعار فى شجاعتهم .

٣ ـ ركضًا إلى الله :

ثم تزاحف الناس ودنا بعضهم من بعض ، فخرج رسول الله ﷺ إلى الناس فحرَّضهم فقال : « قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض ، والذى نفسى بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيُقتل صابراً محتسبًا مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة » . فقال ـ كما فى صحيح مسلم وغيره ـ عمير بن الحمام أخو بنى سلمة وفى يده تمرات يأكلهن : بخٍ بخٍ يا رسول الله ، عرضها السموات والأرض ؟! قال: « نعم » . قال: أفما بينى وبين الجنة إلا أن يقتلنى هؤلاء ؟ (وفى رواية قال : لئن حييت حتى آكل تمراتى هذه إنها لحياة طويلة) .

ثم قذف التمرات من يده ، وأخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل(١) . وذكر ابن جرير أن عميراً قال وهو يقاتل :

ركضًا إلى الله بغير زاد إلا التقى وعمل المعاد
والصبر فى الله على الجهاد وكل زاد عرضة النفاد
غير التقى والبر والرشاد

قال ابن عقبة : فكان أول قتيل قتل من المسلمين . وقال ابن سعد : مهجع مولى عمر بن الخطاب .

---

(١) صحيح مسلم ٣/١٥٠٩ ، ١٥١٠ حديث رقم (١٩٠١) بتحقيق فؤاد عبد الباقى .

٤ ـ ورسول الله أول المقاتلين :

روى ابن سعد والفريابى عن على رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال : لما كان يوم بدر وحضر البأس أمَّنا رسول الله ﷺ ، واتقينا به ، وكان أشد الناس بأسًا يومئذ ، وما كان أحد أقرب إلى المشركين منه . وروى الإمام أحمد بلفظ : لقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله ﷺ . والنسائى بلفظ :كنا إذا حمى البأس ولقى القومُ القومَ اتقينا برسول الله ﷺ (١) .

٥ ـ ورسول الله أول المستغيثين :

قال ابن إسحاق : ثم رجع رسول الله ﷺ إلى العريش ومعه أبو بكر الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ليس معه غيره ، ورسول الله ﷺ يناشد ربه ما وعده من النصر، يقول فيما يقول: « اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد فى الأرض » .

وأبو بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقول : يا رسول الله، بعض مناشدتك لربك فإن الله منجز لك ما وعدك .

وروى ابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى عن أبى أيوب الأنصارى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن عبد الله بن رواحة قال : يا رسول الله ،إنى أريد أن أشير عليك ـ ورسول الله ﷺ أعظم من أن يشار عليه ـ إن الله تبارك وتعالى أجل وأعظم من أن ينشد وعده. فقال رسول الله ﷺ : « يا بن رواحة، لأنشدن الله وعده إن الله لا يخلف الميعاد » .

وروى ابن سعد وابن جرير عن على بن أبى طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال :

لما كان يوم بدر قاتلت شيئًا من قتال ، ثم جئت مسرعًا إلى النبى ﷺ؛ لأنظر ما فعل فإذا هو ساجد يقول : « يا حى يا قيوم » لا يزيد عليهما ، ثم رجعت إلى القتال، ثم جئت وهو ساجد يقول ذلك، ثم ذهبت إلى القتال، ثم رجعت وهو ساجد يقول ذلك. ففتح الله عليه .

وروى البيهقى بسند حسن عن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال : ما سمعت مناشدًا ينشد مقالة أشد مناشدة من رسول الله ﷺ لربه يوم بدر . جعل يقول : «اللهم إنى أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد» . ثم التفت كأن وجهه شقة قمر فقال: « كأنى أنظر إلى مصارع القوم العشية » .

وروى البيهقى عن ابن عباس وحكيم بن حزام وإبراهيم التيمى قالوا : لما حضر القتال رفع رسول الله ﷺ يديه يسأل الله النصر وما وعده ويقول : « اللهم إن ظهروا

---

(١) رواية الإمام أحمد فى المسند ٢/٢٢٨ . وقال أحمد شاكر : صحيح . عن السيرة النبوية الصحيحة لأكرم العمرى.

على هذه العصابة ظهر الشرك وما يقوم لك دين ». وأبو بكر يقول له : والله لينصرنك الله ، وَلَيُبَيِّضَنَّ وجهك ، وخفق رسول الله ﷺ خفقة وهو فى العريش ثم انتبه . فأنزل الله ـ عز وجل ـ ألفًا من الملائكة مردفين عند أكناف العدو، وقال رسول الله ﷺ: « أبشر يا أبا بكر، هذا جبريل متعمم بعمامة صفراء آخذ بعنان فرسه بين السماء والأرض، فلما نزل إلى الأرض تغيَّب عنى ساعة ثم طلع على ثناياه النقع بقوله : أتاك نصر الله إذ دعوته ».

وروى ابن أبى شيبة والإمام أحمد ومسلم وأبو داود والترمذى وغيرهم عن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه قال : لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلاً . فاستقبل نبى الله القبلة، ثم مد يديه فجعل يهتف بربه يقول : « اللهم أنجز لى ما وعدتنى، اللهم آتنى ما وعدتنى ، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد فى الأرض » . فما زال يهتف بربه مادًا يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه . فأتاه أبو بكر ، فأخذ رداءه وألقاه على منكبيه ، ثم التزمه من ورائه فقال : يا نبى الله كفاك تناشد ربك فإنه سينجز لك ما وعدك . فأنزل الله عز وجل : ﴿ **إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ** ﴾ (١) فأمده الله تعالى بملائكته .

وروى البخارى والنسائى وابن المنذر عن ابن عباس :(أن رسول الله ﷺ قال وهو فى قبة بدر: « اللهم إنى أنشدك عهدك ووعدك ، اللهم إن تشأ لا تعبد بعد اليوم » فأخذ أبو بكر بيده فقال: حسبك يا رسول الله، لقد ألححت على ربك، فخرج وهو يثب فى الدرع وهو يقول : ﴿ **سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ** ﴾ (٢)) (٣).

لقد كانت الاستغاثة النبوية ذات أثر ضخم جدًا لدى هذه العصابة المسلمة، فلأول مرة وفى أضخم لقاء بين الكفر والإيمان حتى الآن نجد رسول الله ﷺ يلح فى الدعاء والاستغاثة . كما قال ابن مسعود رضي الله عنه :(ما سمعت مناشدًا ينشد حقًا له أشد من مناشدة النبى ﷺ يوم بدر . . . .)(٤) .

وحين يشهد المسلمون قائدهم ـ سيد الخلق ـ يخر ساجدًا بين يدى رب الخلق يناجيه : « يا حى يا قيوم » ويشهدونه وقد سقط رداؤه عن كتفيه ، وهو يدعو ويلح فى الدعاء ، ويتضرع ويكثر من التضرع ، ترتفع معانى الإيمان فى قلوبهم بصورة فريدة تعجز أى صيغة فى التربية عن تحقيقها .

---

(١) الأنفال / ٩ .
(٢) القمر / ٤٥ .
(٣) سبل الهدي والرشاد للإمام الصالحى ٤/ ٦٠ .
(٤) دلائل النبوة للبيهقى ٣/ ٥٠ وسنده حسن .

أ ـ إن معنى التوحيد الخالص ليتمحص فى قلوبهم ، بحيث لا تشوبه أدنى ذرة من شوائب الشرك ، فرسول رب العالمين ، وإمام المرسلين والمصطفى المختار هو عبد الله لا يملك ضراً ولا نفعًا ، ولا نصرًا ولا موتًا ، ولا حياة ولا نشورا . هو فى أعلى مقامات العبودية والرجاء فى هذا الوجود . وهذا يعنى: أنه أعبد خلق الله لله ، وأذل خلق الله إلى الله ، وكلما ارتفع فى مقام العبودية الخالصة ، كلما زاد عند الله سمواً ورفعة وعلاء؛ لأن قلبه الشريف قد تمحض فى الرجاء لله وحده ، والخضوع لله وحده، والخوف من الله وحده .

وأى حديث نظرى عن التوحيد لو كتبت به المجلدات الكبار هو أعجز من أن يحقق ـ فى عالم البناء القلبى ـ شيئًا أمام هذا المنظر المتفرد فى الوجود لسيد الخلق بين يدى خالقه وبارئه ومصوره ، وحين يرى أهل بدر هذا التضرع والتذلل والخشوع ، تخفق قلوبهم بالتوحيد الخالص والعبودية الخالصة ،والرجاء الخالص لله سبحانه ، وبهذا البناء ينتشرون بعد ذلك فى آفاق الأرض يفتحون ويحكمون ويملكون، فلا يبطرهم الحكم ولا يغرهم الملك ، ولا تستبد بهم الشهوات .إنهم وهم يقهرون الجيوش الجرارة يذكرون يوم بدر وضراعة نبيهم لله أن ينزل نصره ، وينجز وعده ، ويعلمون أن هذا النصر الذى حققوه هو من الله وحده واهب النصر ، وحين تصبح رقاب الخلق بيدهم، ومصائرهم تحت حكمهم ، لا يمكن أن يصيبهم البطر والأشر والكبر ، وقد تربوا فى هذه المدرسة النبوية التى جعلت قلوبهم ممحضة العبودية لله ، فلا يظلمون ، ولا يسفكون دمًا حرامًا ، ولا يأكلون درهمًا حرامًا ؛ لأن الله تعالى معهم فى قلبهم ووجدانهم ، وفى كل ذرة من ذرات كيانهم ، ألا إن أعلى قمة من قمم التربية تلقاها هذا الجيل الفريد ، وهو يشهد قائده وسيده قد خرّ ساجدًا لله يدعوه، ويشهد قائده وسيده يناجى ربه حتى ليسقط الرداء عن كتفه . وهو ينشد ربه نصره الذى وعده .

فمن أين لأى تربية فى هذا الوجود أن تبلغ عشر معشار ما تبلغه هذه الصورة الحية الخالدة فى تاريخ البشرية ؟!

ب ـ ومن جهة ثانية يشهد هذا الجيل فى هذه اللحظات الخالدة من تاريخ البشرية مدى الأمانة الملقاة على عاتقه ، وجسامة المسؤولية المناطة به ، وخطورة المهمة التى حُملها من رب العالمين وهو يسمع نبيه يناجى الرب ـ جل وعلا ـ بقوله : « اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد فى الأرض » .

فهم إذن أمناء الله على الأرض كلها أن تتحقق بهم العبودية فيها لله سبحانه، وهم حملة هذه الرسالة إلى كل صقع؛ لينقلوا العباد جميعًا من عبودية العباد إلى عبودية

الله، وهم ستار لقدر الله سبحانه فى الانتقال بهذا الدين إلى كل بادٍ وحاضر؛ ليعلموا البشر مفهوم العبودية الخالصة لله . فليسوا هم إذن طلاب غنيمة ولا نشاد قافلة ، ولا حالمى مجد تعزف عليهم القيان ويتحدث العرب بنصرهم العتيد .

إن جيش الباطل فى هذا الوجود يعلن هدفه من النصر لو تحقق :

والله لن نرجع حتى نرد بدراً ، فنقيم فيها ثلاثة أيام ، نشرب الخمور ، وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا فلا يزالون يهابوننا أبدًا .

أما جيش الحق فى هذا الوجود فيعلن هدفه . أن يعبِّد الأرض كلها بأهلها وبمن فيها لله : « اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد فى الأرض » .

جـ - ومن جهة ثالثة يحس هذا الجيل الفريد إحساسًا مباشرًا ، وليس فكرة نظرية بحتة ، يحس هذا الجيل بمدى حب رسول الله ﷺ له ، وبمدى حدب قائده عليه ، وبمدى حرص محمد ﷺ القائد المفدى على سلامته ، فلا غرو أن يتفاعل حب رسول الله ﷺ فى قلبه أكثر وأكثر . وبذلك يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما . لكن مع الفصل الكامل بين حب الرب سبحانه المتفرد بالألوهية والربوبية ، وحب رسول الله ﷺ عبد الله ورسوله ومصطفاه من خلقه .

إن الحب البشرى هو الذى يدفع إلى هذا الاختلاط ، ويدفع إلى الوثنية . الحب الأعمى الذى يجعل كثيرًا من الناس يرفعون من يحبونهم إلى مقام الآلهة ، ويعطونهم صفاتهم ، ويعبدونهم من دون الله ، وينسون بذلك دينهم وتنطمس عقيدتهم .

﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ (١) .

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ (٢) .

أما هذا الحب فى هذا المقام لرسول الله ﷺ ، فمهما علا ، ومهما سما ، ومهما رسخ ، يبقى حبًا لا يعطيه ذرة ولا صفة ولا شبهة من التأليه والوثنية والتعبيد له .

وهذه عظمة هذه التربية التى تفرد فيها هذا الجيل ، وهو يُرعى من رسول الله ﷺ فى كل خطوة من خطواته وفى كل خفقة من خفقات قلبه .

د - ونجد من جهة رابعة ثقة هذه الأمة بنَبِيِّها المصطفى والتى تمثلت فى قول الصديق رضي الله عنه للمصطفى عليه السلام :

(١) التوبة / ٣١ .　(٢) التوبة / ٣٠ .

(بعض مناشدتك لربك ، فإن الله منجز لك ما وعدك) .

(والله لينصرنك الله ، وليبيضن وجهك) .

لقد كان أبو بكر رضي الله عنه يمثل هذه الأمة كلها ، ويعلن ثقته المطلقة بالنبى المصطفى ﷺ أن الله تعالى منجز وعده له ، ومنزل نصره .

فهى الثقة بصدق النبى والثقة بالرسالة العظيمة لهذا الرسول . والثقة بأنه النبى الحق المجتبى من الله سبحانه ، وأى مكان أعظم من هذا المكان ؟ وأى موقف أعظم من هذا الموقف يحسن أن تترجم هذه الثقة فى الحبيب المصطفى منه ؟

هـ ـ ومن منة العلى ـ سبحانه ـ فى هذه الاستغاثة أن جاء التعبير القرآنى عنها بصيغة الجمع لا بصيغة المفرد ، رغم أن كل روايات السيرة تشير إلى أن المستغيث هو الرسول ﷺ ، لكنه بمثل هذه الأمة فهو من أنفسها ، وهو منها ؛ ولهذا جاء التعبير القرآنى الخالد : ﴿ **إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ** ﴾ (١).

وتعلم هذه الأمة أن رسول الله ﷺ هو الذى يمثلها ، وهو الذى يخفق بقلوبها ، ويحس بوجدانها ، وينطق باسمها ، ويمثل ذاتها وكيانها ، فتزداد التحامًا به ، وتعلقًا به ، وتفانيًا فيه .

و ـ وهو درس ربانى أخيرٌ من دروس التربية ؛ ليعلم كل فرد من أبناء بدر اليوم حين تضعه المسؤوليات فى المستقبل قائدًا لجيش أو مديرًا لمعركة ، أو حاكمًا لأمة ، أو أميرًا لسرية ما هى مسؤوليته فى ذاك الموقف فيفعل ما يفعل قائده فى التجرد من النفس وحظها ، والخلوص واللجوء لله وحده ، والسجود والجثى بين يدى الله سبحانه يُنزِّلُ نصره ، ويبقى مشهد نبيه ، وقد خر ساجدًا لله ، وقد سقط رداؤه عن كتفه وهو ماد يديه ، يبقى هذا المشهد محفورًا بقلبه ووجدانه . يحاول تنفيذه فى مثل هذه الساعات ، وفى مثل هذه المواطن ، حين تناط به المسؤولية ، وتُلقى عليه أعباء القيادة .

٦ ـ ما أنا بآمن تلك الكلمة :

وصاحب هذه الكلمة الخالدة هو أبو حذيفة بن عتبة رضي الله عنه ولنشهد كلمته والتى تحولت إلى معلم ضخم من معالم التربية فيما بعد .

قال ابن إسحاق : وحدثنى العباس بن عبد الله بن معبد عن بعض أهله عن ابن

---

(١) الأنفال / ٩ .

عباس ؛ أن النبى ﷺ قال لأصحابه يومئذٍ : « إنى قد عرفت أن رجالاً من بنى هاشم وغيرهم أخرجوا كرهًا لا حاجة لهم بقتالنا ، فمن لقى منكم أحدًا من بنى هاشم فلا يقتله ، ومن لقى العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ فلا يقتله، فإنه إنما أُخرج مستكرهًا » . قال : فقال أبو حذيفة : أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخوتنا وعشيرتنا ، ونترك العباس، والله لئن لقيتُه لألحِمنَّه السيف.

قال ابن هشام : لألجمنه السيف .

فبلغت رسول الله ﷺ فقال لعمر بن الخطاب : « يا أبا حفص » ـ قال عمر: والله إنه لأول يوم كنانى فيه رسول الله ﷺ بأبى حفص ـ « أيضرب وجه عم رسول الله ﷺ بالسيف ؟ ! » فقال عمر : يا رسول الله ، دعنى فلأضرب عنقه بالسيف ، فوالله لقد نافق .

فكان أبو حذيفة يقول : ما أنا بآمن من تلك الكلمة التى قلت يومئذ ولا أزال منها خائفًا إلا أن تكفرها عنى الشهادة ، فقتل يوم اليمامة شهيدًا (١) .

إنها لحظة من لحظات الضعف البشرى ، ونزغ من نزغات الشيطان فى قلب هذا السيد العظيم رضي الله عنه .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾(٢) .

ولحظة الضعف هذه ، ونزغ الشيطان هذا أوهمه أن الأمر هو أمر عصبية قبلية ، خاصة وبنو أمية رهطه وعشيرته كلهم فى الصف المعادى وعلى رأس المقاتلين والمحادين لله ورسوله .

وملاحظة أخرى هى أن أباه عتبة كان من دعاة الصلح وعدم المواجهة مع الرسول ﷺ ، وهو الذى قال عنه رسول الله ﷺ : « إن يكن فى القوم خير ففى صاحب الجمل الأحمر إن يطيعوه يرشدوا » ، فكان من الممكن أن يدخل مع صف بنى هاشم فى عدم قتله .

هذه الملابسات جميعًا حدت بأبى حذيفة أن يقول هذه الكلمة علنًا ، كأنما هو تحدٍ للأمر النبوى فى هذا الموضوع ، حيث يعلن أنه سيقتل العباس لو لقيه .

وتبلغ الكلمة رسول الله ﷺ ، ولو بلغت أى قائد من قادة الدنيا لكان الحكم على

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٢٤ .

(٢) الأعراف / ٢٠١ .

مثل هذا القول في ساحة المعركة هو المحاكمة الميدانية ثم القتل . ففي قلب الحرب لا يحتمل مثل هذا العصيان وهو الموقف الذي عبر عنه عمر رضي الله عنه : دعني أضرب عنقه ، فوالله لقد نافق .

ولا شك أن هذا الموقف العمري قد وصل إلى مسامع أبي حذيفة . فتذكر، وأدرك الهوة السحيقة التي سقط فيها ، وأوقعه فيها الشيطان . وتذكر فإذا هو مبصر .

لقد أدرك انطلاقًا من التربية السابقة التي عاشها خمسة عشر عامًا أو تزيد على يد النبي القائد الحبيب أبعاد هذه الزلة العنيفة ، وأدرك بطبيعة تركيبه الإيماني وعملية التذكير التي أعادت الأمور إلى نصابها الصحيح في الحس المسلم . أدرك أن هذا الموقف ، موقف جاهلي أقرب ما يكون إلى الردة والنفاق، ولا يمكن لمسلم صادق الإسلام أن يعتقد أن محمداً ﷺ يتبع هواه والله تعالى برأه وزكاه وقال عنه : ﴿ **وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى. إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى** ﴾ (١) .

أدرك الصورة كاملة ، وأدرك أن هذه الخطيئة من الضخامة والجسامة لا يمكن أن تغفر بالصلاة والصدقة والصيام والاستغفار ، ولا يمكن أن تغفر إلا ببذل الدم سخيًا في سبيل الله ، فالشهادة تُكَفِّرُ كل ذنب ، ولعلها تكفر هذه الكلمة ،وفي رواية:(فما زلت أصوم وأصلي وأتصدق رجاء أن يكفرها الله عني ، وما أرى يكفرها إلا الشهادة) .

والذي يعنينا من هذا القول هو الموقف من الخطيئة لدى الجيل الأول ، ولا يعنينا نوع الخطيئة كثيرًا ، فكل بني آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون ، فإذا أدرك المسلم خطأه فماذا يفعل ؟ إننا في جيلنا النكد مهما كانت جسامة الخطيئة وضخامتها فيكفينا الاعتذار عنها ، نعتبر الأخ الذي يعتذر عن خطيئته ويستغفر أخًا مثاليًا أوابًا إلى الحق ، أما العادي فيماطل ويجادل ويبرر خطأه .

أما في ذلك الجيل الرائد فبقيت الخطيئة والشعور بجسامتها ترافقه طيلة حياته ، فيصوم ويصلي ويتصدق رجاء أن يكفرها الله عنه ، ويختم حياته في لحظاته الأخيرة شهيداً في سبيل الله رجاء أن تغفر له ، وتكاد تنزل معه في إحساسه في قبره .

(فذكر أن سالمًا وُجِد هو ومولاه أبو حذيفة رأس أحدهما عند رجلي الآخر صريعين ـ رضي الله عنهما) (٢) .

ولعل من محاولات التوبة النصوح التي قام بها أبو حذيفة لمواجهة هذه السقطة:

---

(١) النجم / ٣ ، ٤ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١/ ١٦٩ .

أن حاول حرق كل شوائب الجاهلية والعصبية فى نفسه فبرز لأبيه ودعاه للبراز .

فعن عبد الرحمن بن أبى الزناد عن أبيه قال : شهد أبو حذيفة بدراً ودعا أباه عتبة ابن ربيعة إلى البراز فقالت أخته هند بنت عتبة لما دعا أباه إلى البراز :

الأحول الأثعل المشؤوم طائره   أبو حذيفة شر الناس فى الدين
أما شكرت أبًا رباك فى صغر   حتى شببت شبابًا غير محجون (١)

وبقى أثر هذه السقطة حيًا فى ضميره ووجدانه حتى فى أعنف لحظات الثأر والثورة. عندما سقط أبوه وعمه وأخوه صرعى بين يديه ، ثم عندما دفعوا جثثهم فى قليب بدر . ونقف هنا لحظة لنقارن بين نفسيتين لأخٍ وأخت وهما : هند بنت عتبة، وأبو حذيفة بن عتبة؛ إذ أن كليهما نبتا فى بيئة واحدة ، وأرومة واحدة . هند يمر على بدر عام ونيف، وما أن تصل إلى حمزة رضي الله عنه قاتل أبيها وأخيها وعمها حتى تمثل بـه، وتقطع أنـفه وأذنيـه ، وتبقر بطـنه ، وتأخذ كبده فتلوكها ، وما تشتفى من الحقد .

كان هذا بعد مرور عام ونيف . وهذا أبو حذيفة ، ولا يزال الدم يغلى كالمرجل فى قلبه وبجواره قتلة أبيه وأخيه وعمه ، وها هو يرى فى اللحظة نفسها أباه وعمه وأخاه يجرون إلى القليب والسيف فى يده ، وينظر به رسول الله ﷺ ، فيرى وجهه قد تلون فيقول : « يا أبا حذيفة، لعله قد داخلك من شأن أبيك شىء ». فقال : لا والله يا رسول الله ، ما شككت فى أبى ولا فى مصرعه ، ولكن كنت أعرف من أبى رأيًا وحلمًا وفضلاً ، فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام ، فلما رأيت ما أصابه ، وذكرت ما مات عليه من الكفر بعد الذى كنت أرجو له ، أحزننى ذلك(٢) .

وتتمة النص : فدعا له رسول الله ﷺ بخير ، وقال له خيراً .

لقد غدا أبو حذيفة ـ بعد ذلك الدرس البليغ الذى تلقاه ـ إنسانًا آخر ، غدا إنسان العقيدة الذى لا يتحرك فى قلبه ـ أمام مصرع أبيه وأهله ، وجرِّهم إلى القليب ـ إلا داعى الإيمان والحزن على وفاته على الكفر ، أما استحقاق الموت ورمي جثته وجثة أخيه وعمه فى القليب فهذا لا يهيج شيئًا فى قلبه ، ولا يحرك ثأراً فى نفسه ، فقد عاد إلى قواعده سالمًا ـ كما يقولون ـ ولقى من رسول الله ﷺ الرضا والثناء .

والمفروض أن هذا الرضا والثناء أن يمسح عن قلبه ونفسه آثار الخطيئة السابقة ، فهذا الرضا والثناء يعنى: أن قائده الحبيب قد رضى عليه ، ورضا قائده من رضا ربه ، والأصل أن يمسح هذا من قلبه كل آثار الجرح السابق والكلمة السابقة ، لكن قلبه كان

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣/ ٨٥ .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٤٢ .

أيقظ بالإيمان ، وكان الموقف من الخطيئة فى أعلى وتيرة إيمانية :

ما أنا بآمن من تلك الكلمة التى قلت يومئذٍ ، ولا أزال منها خائفًا إلا أن تكفرها عنى الشهادة . ولا شك أنها كانت ذكرياتها فى قلبه بعد عشرة أعوام وقد استجرت الرماح فى اليمامة ، وتطاعنت القنا وتقصفت السيوف ، وسقط شهيدًا يرجو ربه أن يغفر له هذه الزلة قبل عشرة أعوام على التقريب .

٧ ـ فكان من علية أصحابه :

سلمة بن سلامة بن وقش من بنى عبد الأشهل ،قوم سعد بن معاذ وسيد من ساداتهم ، حضر بيعة العقبة الأولى والثانية ، وأكرمه الله تعالى بشهود بدر .

ولنشهد كيف تمت بعض دروس التربية له :

(وسار رسول الله ﷺ حتى إذا كان بعرق الظبية لقوا رجلاً من الأعراب ، فسألوه عن الناس فلم يجدوا عنده خبرًا ، فقال له الناس : سلِّم على رسول الله ﷺ . قال : أو فيكم رسول الله ؟ قالوا : نعم ، فسلَّم عليه ثم قال : إن كنت رسول الله فأخبرنى عما فى بطن ناقتى هذه ، قال له سلمة بن سلامة بن وقش: لا تسأل رسول الله ، وأقبل علىَّ فأنا أخبرك عن ذلك ، نزوت عليها ففى بطنها منك سخلة[1] . فقال رسول الله ﷺ : « مه ! أفحشت على الرجل » ، ثم أعرض عن سلمة) [2] .

وسلمة يثأر لدينه ولرسوله من هذا الأعرابى الجلف الذى جاء يتحدى رسول الله ﷺ أن يعرِّفه عما فى بطن ناقته ، لكن أدب الإسلام يرفض هذا الفحش ولو كان ثورة لله ولرسوله ـ فأجابه عليه الصلاة والسلام ـ : « مه ! أفحشت على الرجل » .

ولم يكتف ـ عليه الصلاة والسلام ـ بهذه الكلمة الزاجرة ، بل أعرض بعدها عن سلمة .

ثم كان الدرس الثانى فى طريق العودة إلى المدينة :

(ثم أقبل رسول الله ﷺ حتى إذا خرج من مضيق الصفراء نزل على كثيب بين المضيق وبين النازبة ، فقسم هنالك النفل الذى أفاء الله على المسلمين من المشركين على السواء . ثم ارتحل رسول الله ﷺ حتى إذا كان بالروحاء لقيه المسلمون يهنئونه ـ كما حدثنى عاصم بن عمر بن قتادة ويزيد بن رومان ـ : ما الذى تهنئونا به ؟ فوالله إن لقينا إلا عجائز صلعًا كالبُدن المعقَّلة فنحرناها . فتبسم رسول الله ﷺ ، ثم قال : « أى ابن

---

(١) السخلة : الصغيرة من الضأن فاستعارها لولد الناقة .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٣٠٤ .

أخى ، أولئك الملأ »(1) .

وفى رواية الطبرانى : (فتغير وجه رسول الله ﷺ حتى رأيته كأنما تفقأ فيه حب الرمان) ، ثم قال :

« يا بن أخى، لا تقل ذلك ، أولئك الملأ الأكبر من قريش ، أما لو رأيتهم فى مجالسهم بمكة هبتهم . . . . »(2) .

وعند الواقدى فى المغازى : (فتبسم النبى ﷺ وقال : « يا بن أخى أولئك الملأ ، لو رأيتهم لهبتهم ولو أمروك لأطعتهم ، ولو رأيت فعالك مع فعالهم لاحتقرته ، وبئس القوم كانوا على ذلك لنبيهم » . فقال سلمة : أعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله ، إنك يا رسول الله لم تزل عنى معرضًا منذ كنا بالروحاء فى بدأتنا . فقال رسول الله ﷺ : « أما ما قلت للأعرابى : وقعت على ناقتك فهى حُبلى منك ، ففحشت، وقلت ما لا علم لك به ! وأمَّا مـا قلـت فى القوم ، فإنك عـمدت إلى نعم من نعم الله تزهدها» .

فاعـتذر إلى النبى ﷺ ، فقبـل منه رسول الله ﷺ معذرته . فكان من علية أصحابه) (3) .

لقد قُدِّر الخطأ عليه مرتين فى المكان نفسه فى الروحاء عند الذهاب وعند الإياب . وكان الذى يعتصر قلبه طيلة هذه الرحلة إعراض رسول الله ﷺ عنه ، وهو يدرك خطأه؛ لأن النبى ﷺ نبهه بقوله : « مه ! أفحشت مع الرجل » .

وكانت الخطيئة الثانية هى التى فسحت المجال للحساب على الأولى والثانية، وذلك حين أقبل رضي الله عنه على حبيبه المصطفى متعوذًا :(أعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله). فتضرع لحبيبه المغضب أن يعلمه عن سبب إعراضه وغضبه ، وأوضح له إمام المربين ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن الإعراض ابتداء للفحش فى الكلام مع الأعرابى ، فرسول الله ﷺ لا يرضى لمن يمثِّل هذا الدين أن يكون فاحشًا متفحشًا مهما كانت خطيئة الخصوم ، ومن جهة ثانية فالأصل أن ينطق المسلم بما يعرف . أما سلمة : « وقلت ما لا علم لك به » .

وأما الثانية : فهو التخفيف من غلواء هذا الغرور الذى رافق نصر بدر ، حتى

---

(1) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٣٤٦ .

(2) مجمع الزوائد للهيثمى ٦٠ / ٢٦ ، ٢٧ وقال فيه : « رواه الطبرانى وفيه حسين السلولى ولم أعرفه ، وبقية رجاله ثقات» .

(3) المغازى للواقدى ١/١١٦ .

ليشعر سلمة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن قريشًا كانت كالجمال المربوطة للذبح ، فجاء المسلمون فنحروها ، لقد ذاقوا هذا النصر بثمن ضئيل ، وشاءت إرادة الله - عز وجل - أن يُقرْ عين نبيه ﷺ وعين صحبه بملائكة السماء مددًا له ، ولم ير المسلمون الملائكة ، ولم يدركوا بعد عوامل النصر الخارجية التى أدت إلى هذا الفرقان بين الحق والباطل ، فصغر فى عين سلمة هذا العدو كما شاءت إرادة الله تعالى : ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً .... وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ ﴾ (١) .

لابد لهذه النفوس أن تعالج ، ولابد لهذا الاغترار أن يكبح ، ولابد أن يعرف الأنصار أن قريشًا بخيلها وخيلائها كان يمكن أن تقضى على أهل بدر جميعهم، وخشية من ذلك ؛ كان - عليه الصلاة والسلام - يضرع إلى ربه : «اللهم إن تهلك هذه العصابة فلا تعبد فى الأرض »، فكان لابد لسلمة أن يعرف من هو هذا العدو الذى انتصر عليه .

« أى ابن أخى ؟ أولئك الملأ لو رأيتهم لهبتهم ، ولو أمروك لأطعتهم ، ولو رأيت فعالك مع فعالهم لاحتقرته » ، فهم عدو رهيب كما وصفه الله تعالى : ﴿ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ . وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ ... ﴾(٢) .

وأن ينزل جبريل وميكائيل مع ألف من الملائكة مردفين من السموات العلى لنصرة رسول الله ﷺ فى الأرض لهو أمر جلل لا مثيل له فى تاريخ الأرض . فقال عندها - عليه الصلاة والسلام - وهو يمسك بقلب هذا السيد العظيم الأشهلى العقبى البدرى :

« وأما ما قلت فى القوم ، فإنك عمدت إلى نعمٍ من نعم الله تزهدها » .

وأدرك سلمة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أبعاد خطئه ، وآماد تصوره البشرى القاصر ، فاعتذر إلى رسول الله ﷺ ، فقبل عذره ، وأخذ موقعه القيادى فى الصف بعدها، فكان من عِلية أصحابه .

لقد صُقِل لسانه عن الفحش ، وصُقِلَ قلبه عن الغرور ، وأدرك مَنِ الملأ الذين منَّ الله تعالى على المؤمنين بالنصر عليهم ، وعبق من رحيق النبوة ومدرسة التربية المحمدية ما جعله المقدَّم بين الصحب للمسؤوليات المناطة به .

---

(١) الأنفال / ٤٣ ، ٤٤ .

(٢) الأنفال / ٤٧ ، ٤٨ .

٨ ـ أن يمس جلدى جلدك :

قال ابن إسحاق : (وحدثنى حبان بن واسع بن حبان عن أشياخ من قومه(١): أن رسول الله ﷺ عدَّل صفوف أصحابه يوم بدر ، وفى يده قِدْحٌ يُعدِّل به القوم، فمر بسواد بن غزية حليف بنى عدى بن النجار ـ قال ابن هشام: يقال: سوَّاد ـ مثقلة ، وهو مستنتل(٢) من الصف ، فطعن فى بطنه بالقِدح ، وقال : « استو يا سواد » . فقال: يا رسول الله ، أوجعتنى وقد بعثك الله بالحق والعدل؛ فأقدنى(٣). فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه، وقال: « استقد » . قال : فاعتنقه فقبَّل بطنه . فقال : « ما حملك على هذا يا سواد ؟ » قال : يا رسول الله ، حضر ما ترى، فأحببت أن يكون آخر العهد بك ، فدعا له رسول الله ﷺ وقال له. . .) (٤).

وتسوية الصفوف وتعبئتها لمواجهة العدو أمر عام ، لكن الحدث الجلل الضخم هنا، هو أن يقف جندى عادى فى الصف ليقول لإمام المرسلين ولرسول رب العالمين : أوجعتنى وقد بعثك الله بالحق والعدل ، فأقدنى من نفسك .

إن مفهوم العدل الذى انطلقت به هذه الأمة تجوب الأرض فيه هو السمة الرئيسية العليا فى هذا الوجود لهذه الأمة ، والذى تفردت به عن أمم الأرض ، فالأمم الفاتحة فى أحقاب التاريخ لا تكاد تحصى ، ومفهوم القوة الذى يسود الأرض هو سمة مشتركة بين الأمم الفاتحة جميعها ، حتى ليأتى فلاسفة هذه الأرض ليصيغوا الوجود البشرى والكونى كله على هذا المفهوم . مفهوم الصراع والبقاء للأقوى ، كما هو مفهوم نظرية دارون ، ونيتشه ، وماركس وغيرهم . أما مفهوم العدل ، فهو الرسالة الربانية إلى الأرض ، والتى جاءت على يد الرسل لتخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام .

والحديث عن العدل ، وادعائه كذلك يملأ الأفق ، ويسده ، لكن التطبيق العملى له هو الذى يعنينا فى هذه الفقرة ، وحين تبلغ القناعة بالجندى العادى أن من حقه أن يقول لسيد ولد آدم : أوجعتنى ، وقد بعثك الله بالحق ، فأقدنى من نفسك . يعنى هذا أن التربية النبوية قد أنضجت هذا الجيل فى أعلى مستوياته ولما يمر على عمره سنتان فقط ، فنحن لا تقِلُّ عندنا جرأة سواد بصفته يمثل أفراد الأمة أهمية عن استجابة رسول الله ﷺ للقود من نفسه. إن عظمة التربية التى قام بها ـ عليه الصلاة والسلام ـ

(١) ورواها الحافظ ابن حجر فى الإصابة عن عبد الرزاق عن أبى جريج عن جعفر بن محمد عن أبيه م٢/ ١٤٨/٣ .

(٢) مستنتل : متقدم . (٣) أقدنى : اقتص لى من نفسك .

(٤) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٢١ .

هو فى بناء هذه النفوس التى تنشد العدل وتُقْتَل فى سبيله ، وترفض الظلم والسيطرة لأى طاغية :هو الخطوة الأولى فى البناء .

بينما الخطوة الثانية هى لهذا الجيل القائد الرائد ، الذى تعلَّم من هذا الدرس العلنى المباشر أن ينحنى للحق، ويستجيب للعدل، ويتعلم عمليًا لا نظريًا أن الكبر غمط الناس ،وبطر الحق،وأنه لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من خردل من كبر .

لقد مثل سواد رضي الله عنه الأمة الحية التى تجاوزت حد الطفولة إلى سن الرشد والنضج بحيث تجاهد وتستشهد فى سبيل هذا الحق والعدل ، ومثَّل رسول الله ﷺ لهذه الأمة القائدة الراشدة ، أن تقود الناس بهذا الدين ، وبهذا العدل ، وبهذا الخضوع للحق ، والانحناء له على الملأ من الناس كذلك .

وتأتى الخطوة الثالثة التى مثلت هذا الحب والتفانى بين الجند وقائدهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ حين اندفع سواد بكل حبه ، وبكل عشقه ليقبل جسد رسول الله ﷺ، ويمس جلدهُ جلدهَ قبل أن يمضى إلى الجنة ، ويفارق حبيبه إلى أمد لا يعلم إلا الله مداه . إنه من بني عدى بن النجار أخوال رسول الله ﷺ الخاصة الخاصة ؛ لأن بنى النجار أخواله الخاصة،والخزرج أخواله بعامه،والذى تمثل هذا الحب حتى فى الجيل الذى رضع حب النبى ﷺ فراحت جواريه الصغار ينشدن :

نحن جوارٍ من بنى النجار   يا حبذا محمد من جار

قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: « أتحببننى ».قلن : نعم . قال : « وأنا كذلك والله أحبكُن » .

بهذا العدل ، وبهذا الحب ، وبهذا الحق ، كانت القوة تقاد فى الأمة المسلمة ، وبهذا قامت السموات والأرض .

٩ ـ إنى وجدت ما وعدنى ربى حقًا :

أ ـ عن قتادة قال : (ذكر لنا أنس بن مالك عن أبى طلحة أن نبى الله ﷺ ، أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلاً من صناديد قريش فقُذفوا فى طوى من أطواء بدر خبيث مُخبث ، وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاثة لَيال . فلما كان ببدر اليوم الثالث، أمر براحلته فشُدَّ عليها رحلها ، ثم مشى واتبعه أصحابه، وقالوا : ما نرى ينطلق إلا لبعض حاجته ، حتى قام على شفة الرَّكى ، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم « يا فلان ابن فلان ، ويا فلان ابن فلان، أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله ؟ فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًا . فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًا ؟! » . فقال عمر :

يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح فيها. فقال رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم » . قال قتادة : أحياهم الله حتى أسمعهم قوله توبيخًا وتصغيرًا ونقيمة وحسرة وندمًا) (١) .

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ ترك قتلى بدر ثلاثة أيام حتى جيَّفوا ثم أتاهم فقام عليهم فقال : « يا أمية بن خلف ، يا أبا جهل بن هشام، يا عتبة بن ربيعة ، يا شيبة بن ربيعة ، هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًا ، فإنى قد وجدت ما وعدنى ربى حقًا ». قال : فسمع عمر صوته فقال: يا رسول الله أتناديهم بعد ثلاث وهل يسمعون؟ يقول الله ـ عز وجل ـ : ﴿ إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى ﴾ (٢) . قال : « فوالذى نفسى بيده ما أنتم بأسمع منهم ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوا » (٣).

قال الحافظ فى الفتح : (وكأن الذين طُرحوا فى القليب كانوا الرؤساء منهم ثم من قريش ، وخصوا بالمخاطبة المذكورة لما تقدم منهم من المعاندة)(٤) .

قال ابن إسحاق : (حدثنى بعض أهل العلم أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال : « يا أهل القليب بئس العشيرة كنتم لنبيكم ، كذبتمونى وصدقنى الناس ، وأخرجتمونى وآوانى الناس ، وقاتلتمونى ونصرنى الناس ، فجزاكم الله عنى من عصابة شرًا ، خونتمونى أمينًا ، وكذبتمونى صادقًا ») (٥) .

وكما شهد الناس الاستغاثة حتى تنزلت ملائكة الرحمن ، ها هم الآن يشهدون ختام الحساب فى الدنيا مع دولة الباطل ، وطواغيت قريش ، وشياطين الإنس .

(فقد أمر رسول الله ﷺ بأربعة وعشرين رجلاً من صناديد قريش فقذفوا فى طوى من أطواء بدر خبيث مخبث) ، ولم يدر الجيش المسلم سببًا لذلك ، لكنه يعلم أنهم قادة الكفر .

يقول الحافظ فى الفتح : (ومن رؤساء قريش ممن يصح إلحاقه بمن سمى :

من بنى عبد شمس بن عبد مناف : عبيدة والعاص ولدا أبى أحيحة ، وسعيد بن العاص بن أمية ، وحنظلة بن أبى سفيان ، والوليد بن عتبة بن ربيعة (خمسة).

ومن بنى نوفل بن عبد مناف: الحارث بن عامر بن نوفل،وطعيمة بن عدى (اثنان).

---

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧ / ٣٠١ (٣٩٧٦) .
(٢) النمل / ٨٠ .
(٣) رواه الإمام أحمد بسند رجاله ثقات ٣ / ١٠٤ ، ٢٦٣ ، ٢٧٨ .
(٤) فتح البارى ٧/ ٣٠٢ .
(٥) شرح المواهب اللدنية للزرقانى ١/ ٥٠٢ وقال : وهو مرسل أو معضل .

ومن سائر قريش : نوفل بن خويلد بن أسد ـ أسد قريش ـ وزمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد وأخوه عقيل ، والعاص بن هشام أخو أبى جهل ، وأبو قيس بن الوليد أخو خالد ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج السهمى ، وعلى بن أمية بن خلف ، وعمرو بن عثمان عم طلحة أحد العشرة ، ومسعود بن أبى أمية أخو أم سلمة ، وقيس بن الفاكه ابن المغيرة ،والأسود بن عبد الأسد أخو أم سلمة ،وأبو العاص بن قيس بن عدى السهمى،وأميمة بن أبى رفاعة .فهؤلاء العشرون تنضم إلى الأربعة فتكمل العدة) (١) .

لقد كبَّت هذه القيادات على وجوهها جثثًا منتنة فى أحد آبار بدر الخبيثة .

وبلغ الأمر العصبة المسلمة ، وغاية ما أدركوه من ذلك الأمر هو إعلان انتصار الحق على الباطل الممثل بهؤلاء الصناديد .

ب ـ لكن الجديد فى الأمر بعد ثلاثة أيام ، يشد رسول الله ﷺ على راحلته، وتمضى العصبة المسلمة خلفه ، ولا يدرون أين يمضى ليفاجئوا بوقوفه على شفير هذا البئر ، فينزل عن راحلته ، وعيونهم مشدودة نحوه ، كأن على رؤوسهم الطير ، فتكون المفاجأة الأكبر أن يناديهم : « يا أبا جهل بن هشام ، ياعتبة بن ربيعة ، يا شيبة ابن ربيعة ، يا أمية بن خلف ، أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله ، فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًا » .

إن المسلمين الآن أمام المحضر الختامى بين رسول الله ﷺ وبين أعدائه الألداء . يذكرهم بماضيهم الأسود ، ويعرض الخط الطويل الذى اختاروه طيلة خمسة عشر عامًا فى حرب الله ورسوله ، وبعد أن اختار رموزهم الكبرى للخطاب : عتبة وشيبة وأبو جهل وأمية ، عاد فخاطبهم جميعًا : « يا أهل القليب ، بئس العشيرة كنتم لنبيكم ، كذبتمونى وصدقنى الناس ، وأخرجتمونى وآوانى الناس ، وقاتلتمونى ونصرنى الناس، فجزاكم الله عنى من عصابة شرًا ، خونتمونى أمينًا ، وكذبتمونى صادقًا » .

﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ . الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴾(٢) .

وإن كانت تلك المحاجة بين المؤمنين والكافرين يوم القيامة وفى الدار الآخرة ، لكن كرامة عبد الله ورسوله محمد ﷺ أن تتم المحاجة هنا فى الدنيا ، وعلى رؤوس

(١) فتح الباري للحافظ ابن حجر ٧/٣٠٣ .

(٢) الأعراف / ٤٤ ، ٤٥ .

الأشهاد ، وأمام العصابة المسلمة التى لم يشأ الله أن يهلكها .

وما أسعد الأنصار ، وما أسعد المهاجرين ، وهم يعلمون أنهم الناس ، وأنهم المعنيون الذين آمنوا ، والذين هاجروا ،والذين جاهدوا ،والذين آووا والذين نصروا ، والذين قال قائلهم : والله لو خضت بنا هذا البحر لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد .

إن الإيمان لينمو فى قلوبهم ، وليزداد فى صدورهم كما ينمو البقل . فسيدهم - عليه الصلاة والسلام - يثنى عليهم ويحاج العدو اللدود أمامهم .

جـ- وكل ما يدريه المسلمون حتى الآن أن رسول الله ﷺ يخاطب جثثًا منتنة للعبرة وللعظة فى ختام الباطل ودولته ، حتى ليجرؤ الوزير الثانى عمر رضي الله عنه أن يسأل قائده بلسان العصبة المسلمة كلها : يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح لها ، فقال رسول الله ﷺ : « ما أنتم بأسمع لما أقول منهم » .

قال قتادة : أحياهم الله حتى أسمعهم قوله ، توبيخًا وتصغيراً ونقيمة وحسرة ونـدمًا .

وتنتفض القلوب المؤمنة بالسعادة الغامرة ، وتقشعر لها جلود المؤمنين خشية من الله ، ويقينًا صادقًا برسوله ، لهؤلاء الذين زرعوا الأرض حربًا لله ورسوله . وها هم الآن يسمعون هذا التوبيخ وهذا التبكيت وهذا التقريع حيث لا تنفع الحسرة ، ولا ينفع الندم ، وقد وجدوا ما وعدهم ربهم حقًا من النار التى كذبوا فيها ، والذبح الذى أرادوه للمسلمين ، والخزى والنكال ، حيث الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وتقول : ذوقوا عذاب الحريق . وها هو رسولهم أمامهم يكلمهم ويذكرهم ، ولكن لات ساعة مندم . فهم حتى عاجزون عن الإجابة .

وكم زرع هذا الحدث فى نفوس العصبة المؤمنة من هدى ونور ! وكم تفاعل القلب بالإيمان واليقين وهم يشهدون الحساب الختامى الذى سيغلق عليه المسرح بعدها إلى يوم القيامة !

ويستعيد المؤمنون الشريط كله مع قائدهم وحبيبهم - عليه الصلاة والسلام - ليعلموا أن وعد الله حق ، فهو الآن ليس علمًا فقط ، بل عين اليقين يرونه أمامهم ، يرون سيدهم وحبيبهم - عليه الصلاة والسلام - وهم يقفون وراءه ، ويرون صناديد قريش صرعى فى القليب ، ويرون الحوار الحى من قائدهم - عليه الصلاة والسلام - أن قد وجد ما وعده ربه حقًا من التمكين والنصر ، فهل وجدوا ماوعدهم ربهم حقًا ، ويأتى

الحوار الصامت من طرفهم ، أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًا ، ولكنهم لا يستطيعون الإجابة . هذا الجيل الفريد فى تاريخ البشرية الذى أتيح له أن يرى بأم عينيه رسوله وهو يستغيث فيسقط الرداء عن كتفه فيحبسون قلوبهم خشية ورجاءً وتضرعًا مع قائدهم - عليه الصلاة والسلام .

ويرونه وهو يثب فى الدرع فرحًا يقول : « سيهزم الجمع ويولون الدبر ، هذا جبريل ممسك بزمام فرسه يقود على ثناياه النقع » ، فينطلقون كالطير ، يطيرون مع الملائكة فرحًا وسعادة وبشرى بهذا المدد السماوى ، ويصبحون والملائكة صفًا واحدًا لمواجهة قريش .

ويرونه وهو يحاور الصناديد الكبار وقد انتهت المعركة ، ويذكرهم بمصيرهم الأسود اليوم الذى غدا حقًا يعانونه ويعاينونه ، ويستعرض معه شريط الكفر والضلال والحرب لله ورسوله ، أين أودت بهم اليوم ، ويحدثهم أنه قد وجد ما وعده ربه حقًا ، فقد تكلل النصر ، وتحقق الوعد ، ورميت جثث الأبطال فى القليب .

ويرون كيف أقر الله عينه ، بأن أحياهم له ليشهدوا آخر مشاهد الخزى والذل فى الدنيا ، وينضمون بعدها إلى ركب آل فرعون .

﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾[1] .

إنهم آل فرعون هذه الأمة ، إنهم آل أبى جهل، وآل عتبة وشيبة وأمية ، فليشهدوا عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ، ولعذاب الآخرة أشق ، وما لهم من الله من واق .

١٠ - رضى الله عنهم ورضوا عنه ، أولئك حزب الله :

يقول الحافظ ابن كثير - رحمه الله -: (ثم قال تعالى : **﴿ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ. . . ﴾**[2] أى : لا يوادون المحادين ولو كانوا من الأقربين كما قال تعالى: **﴿ لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ . . . ﴾** الآية[3] .

وقد قال سعيد بن عبد العزيز وغيره : أنزلت هذه الآية : **﴿ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ**

---

(١) غافر / ٤٦ .
(٢) المجادلة / ٢٢ .
(٣) آل عمران / ٢٨ .

بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ .... ﴾ إلى آخرها فى أبى عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح حين قتل أباه يوم بدر ؛ ولهذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين جعل الأمر شورى بعده فى أولئك الستة ـ رضى الله عنهم ـ : ولو كان أبو عبيدة حيًا لاستخلفته . وقيل فى قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُم ﴾ نزلت فى أبى عبيدة قتل أباه يوم بدر . ﴿ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ فى الصديق هم يومئذ بقتل ابنه عبد الرحمن : ﴿ أَوْ إِخْوَانَهُمْ ﴾ فى مصعب بن عمير قتل أخاه عبيد بن عمير يومئذ : ﴿ أَوْ عَشِيرَتَهُم ﴾ فى عمر قتل قريبًا له يومئذ أيضًا ، وفى حمزة وعلي وعبيدة قتلوا عتبة وشيبة والوليد بن عتبة يومئذ ، فالله أعلم . وقوله تعالى: ﴿ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ كل هذا تقدم تفسيره ، وفى قوله تعالى : ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ سر بديع هو: أنه لَّما سخطوا على العشائر والقرائب فى الله تعالى عوَّضهم الله بالرضا عنهم وأرضاهم بما أعطاهم من النعيم المقيم والفوز العظيم والفضل العميم . وقوله تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾(1) أى : هؤلاء حزب الله ، أى : عباد الله وأهل كرامته. وقوله تعالى : ﴿ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ تنويه بفلاحهم ونصرتهم فى الدنيا والآخرة في مقابلة ما ذكر عن أولئك بأنهم : حزب الشيطان . ثم قال : ﴿ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾(2)) (3) .

إننا الآن نلقى ثمرة التربية السابقة والمستمرة التى تلقاها السابقون الأولون من المهاجرين . والحديث عن أمين الأمة : عامر بن عبد الله بن الجراح ، وأحد العشرة المبشرين ، من الذين قدَّر الله تعالى لهم الصحبة مع رسول الله ﷺ . والتلقى عنه منذ أيامه الأولى ، أو من اليوم الثانى من الدعوة . هؤلاء السابقون الأولون الذين كانوا ملتزمين بكف اليد ثلاثة عشر عامًا لم تندَّ منهم مخالفة ، ولم تسجل عليهم خطيئة . هؤلاء هم الآن أذن لهم أن يقاتلوا ، بعد أن خلت نفوسهم من حظوظ نفوسهم ، وبعد أن غدوا جيلاً ربانيًا خالصًا لله سبحانه ، وكانت المحنة الكبرى لهم فى لقاء بدر . المحنة التى كشفت عن نفاسة معدنهم، وكشفت عن مدى تغلغل الإيمان فى قلوبهم ، وعمقه فى نفوسهم . وحين وجدوا أنفسهم وجهًا لوجه أمام آبائهم وإخوانهم ، لم يترددوا لحظة واحدة فى قتلهم فى ساحة المعركة . وقد صُبغوا بالإيمان من رؤوسهم إلى أخمص أرجلهم ، أبو عبيدة يقتل أباه ، ومصعب بن عمير يقتل أخاه ، وأبو بكر يقول لابنه : لو برزت إلىَّ لما أفلتك . ورسول الله هو الذى منع الصديق من مبارزة

(1) المجادلة / ٢٢ .
(2) المجادلة / ١٩ .
(3) تفسير ابن كثير ، سورة المجادلة ٦/ ٥٩٢ .

ابنه، وعمر يقتل خاله ، وعلى وحمزة وعبيدة يقتلون أبناء عمومتهم من عشيرتهم . بل إن الأمر لم يتم هكذا جزافًا ، إنما تم عن تصميم وقصد .

يقول عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لسعيد بن العاص : إنى أراك كأن فى نفسك شيئًا، أراك تظن أنى قتلت أباك ، إنى لو قتلته لم أعتذر لك عن قتله ، ولكنى قتلت خالى العاص بن هشام ابن المغيرة . فأما أبوك ، فإنى مررت به وهو يبحث بحث الثور بروقه فحدت عنه ، وقصد له ابن عمه على فقتله .

فقد كان قصد عمر خاله ، وكان قصد على ابن عمه ، وكان قصد أبى عبيدة أباه ، وذلك حتى تستوى النفوس غضبًا لله وحده ، ولو على أقرب المقربين ، وإلا فكيف يطلَقُ عليهم حزب الله . إن هذا الانتماء العظيم والشرف الكبير الذى حازوه بشهادة القرآن العظيم ، لا يمكن أن ينالوه لو كان آباؤهم وأبناؤهم وعشائرهم أحب إليهم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله . إنهم عند ذلك هم الفاسقون . أما الآن وقد قتلوا وقاتلوا أحب الناس إليهم فهم أهل الله وجنده وحزبه .

إن هذا المستوى الإيمانى الرفيع ، وهذا الخلوص العظيم من نوازع النفس وحب الأهل والعشيرة لم يتم هكذا بين يوم وليلة . إنه رصيد السنوات العجاف ظاهرًا والمرعات باطنًا حتى بلغوا هذا المستوى ، وتم العقد مباشرة بينهم وبين ربهم ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١) .

إن الحديث عن الأمر سهل ، لكن المعاناة فيه وتنفيذه أمر يعجز القلم عن وصفه عند احتدام المشاعر ، واصطراع العواطف ، بحيث تكون الغلبة بعد هذا كله لحب الله ورسوله .

وأى ثناء فى هذا المقام يفوق هذا الثناء ؟! و أى شهادة فى هذا الوجود تعدل هذه الشهادة ؟!

وممن ؟ من رب السموات والأرض . إنهم وصلوا هذا الأفق الوضىء ، ونكاد لو لا شهادة القرآن لا يستوعب عقلنا هذه المستويات ، بل نحسبها من المبالغات، لكن كيف وقد أثبتها رب السموات العلى فى كتابه الكريم ؟!

أولئك حزب الله .

---

(١) المجادلة / ٢٢ .

الأسرى ومدرسة التربية

روى الإمام أحمد [1] عن أنس ، وابن مردويه عن أبى هريرة ، وابن أبى شيبة ، والإمام أحمد والترمذى[2] وحسنه ، وابن المنذر والطبرانى وغيرهم عن ابن مسعود ، وابن مردويه عن ابن عباس ، وابن مردويه وابن المنذر وأبو نعيم عن ابن عمر[3] :

أنه لما كان يوم بدر جىء بالأسرى وفيهم العباس أسره رجل من الأنصار ، وقد وعدته الأنصار أن يقتلوه . فبلغ ذلك النبى ﷺ فقال رسول الله ﷺ : « لم أنم الليلة من أجل عمى العباس ، وقد زعمت الأنصار أنهم قاتلوه » فقال له عمر : أفآتيهم ؟ قال : « نعم » . فأتى عمر الأنصار فقال لهم : أرسلوا العباس، فقالوا : لا والله لا نرسله ، فقال لهم عمر : فإن كان رسول الله ﷺ رضى ؟ قالوا : فإن كان رسول الله ﷺ رضى فخذه . فأخذه عمر ، فلما صار فى يده قال له : يا عباس أسلم ، فوالله لئن تسلم أحب إلىَّ من أن يسلم الخطاب ، وما ذاك إلا لما رأيت رسول الله ﷺ يعجبه إسلامك .

فاستشار رسول الله ﷺ الناس فقال : « ما ترون فى هؤلاء الأسرى ؟ إن الله قد أمكنكم منهم ، وإنما هم إخوانكم بالأمس ؟ » .

فقال أبو بكر : يا رسول الله أهلك وقومك ،قد أعطاك الله الظفر ونصرك عليهم، هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان ، استبقهم ، وإنى أرى أن تأخذ الفداء منهم ، فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على الكفار ، وعسى الله أن يهديهم بك فيكونوا لك عضداً .

فقال رسول الله ﷺ : « ما تقول يا بن الخطاب ؟ » .

قال : يا رسول الله قد كذبوك وأخرجوك وقاتلوك . ما أرى ما رأى أبو بكر ، ولكن أرى أن تمكننى من فلان ـ قريب لعمر ـ فأضرب عنقه ، وتمكن عليًا من عقيل فيضرب عنقه ، وتمكن حمزة من فلان أخيه حتى يضرب عنقه ، حتى ليعلم الله تعالى أنه ليست فى قلوبنا مودة للمشركين ، هؤلاء صناديد قريش وأئمتهم وقادتهم فاضرب أعناقهم ، ما أرى أن يكون لك أسرى ، فإنما نحن راعون مؤلفون . وقال عبد الله بن

---

(١) مسند الإمام أحمد ١/ ٣٨٣ .
(٢) سنن الترمذى جـ ٤ رقم (١٧١٤) .
(٣) ورواه مسلم عن ابن عباس ٣/ ١٣٨٥ رقم (١٧٦٣) .

رواحة: يا رسول الله، انظر واديًا كثير الحطب فاضرمه عليهم نارًا . فقال العباس وهو يسمع ما يقول : قطعت رحمك. قال أبو أيوب: فقلنا - يعنى الأنصار - : إنما يحمل عمر على ما قال حسد لنا ، فدخل رسول الله ﷺ البيت فقال أناس : يأخذ بقول أبى بكر، وقال أناس : يأخذ بقول عمر، وقال أناس: يأخذ بقول ابن رواحة ، ثم خرج فقال :

« إن الله تعالى ليلين قلوب أقوام فيه حتى تكون ألين من اللبن ، وإن الله تعالى ليشد قلوب أقوام فيه حتى تكون أشد من الحجارة ، مثلك يا أبا بكر فى الملائكة : مثل ميكائيل ينزل بالرحمة، ومثلك فى الأنبياء مثل إبراهيم قال : ﴿ **فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ (١) ، ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى ابن مريم ؛ إذ قال : ﴿ **إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ (٢) ، ومثلك يا عمر فى الملائكة : مثل جبريل ينزل بالشدة والبأس والنقمة على أعداء الله تعالى ، ومثلك فى الأنبياء مثل نوح ؛ إذ قال : ﴿ **رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا** ﴾ (٣) ، ومثلك فى الأنبياء مثل موسى ؛ إذ قال : ﴿ **رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ** ﴾(٤) لو اتفقتما ما خالفتكما ، أنتم عالة فلا يفلتن منهم أحد إلا بفداء أو ضرب عنق » .

فقال عبد الله بن مسعود : يا رسول الله ، إلا سهيل بن بيضاء فإنى سمعته يذكر الإسلام . فسكت رسول الله ﷺ ، فقال عبد الله : فما رأيتنى فى يوم أخاف أن تقع علىَّ الحجارة من السماء منى فى ذلك اليوم حتى قال رسول الله ﷺ : « إلا سهيل بن بيضاء ». فلما كان من الغد غدا عمر إلى رسول الله ﷺ ، فإذا رسول الله وأبو بكر وهما يبكيان . فقال : يا رسول الله ما يبكيكما ؟ فإن وجدت بكاء بكيت ، وإلا تباكيت لبكائكما . فقال رسول الله ﷺ : « إن كاد ليمسنا فى خلاف ابن الخطاب عذاب عظيم، ولو نزل العذاب ما أفلت منه إلا ابن الخطاب ، لقد عرض علىَّ عذابكم أدنى من هذه الشجرة - لشجرة قريبة منه - وأنزل الله تعالى : ﴿ **مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . لَوْلا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾(٥) » . واستعمل ﷺ على الأسرى شُقران غلامه ، فأحذوه من كل أسير ما لو

---

(١) إبراهيم / ٣٦ .
(٢) المائدة / ١١٨ .
(٣) نوح / ٢٦ .
(٤) يونس / ٨٨ .
(٥) الأنفال / ٦٧ - ٦٩ .

كان حرًا ما أصابه من المقسم(١) .

وروى ابن أبى شيبة والترمذى(٢) وحسَّنه ، وابن سعد ، وابن جرير ، وابن حبان والبيهقى ، عن على رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جاء جبريل إلى النبى ﷺ فقال:

يا محمد ، إن الله تعالى قد كره ما صنع قومك فى أخذهم فداء الأسرى ، وقد أمرك أن تخيِّرهم بين أمرين: إما أن يقدِموا فتضرب أعناقهم، وإما أن يأخذوا منهم الفداء على أن يقتل منهم عِدتهم. فدعا رسول الله ﷺ الناس فذكر لهم ذلك ، فقالوا :

يا رسول الله ، عشائرنا وإخواننا نأخذ منهم الفداء ، فنتقوى به على قتال عدونا ويستشهد منا عدتهم فليس فى ذلك ما يكره .

وأقام ﷺ بالعرصة ثلاثًا (٣) .

وروى أبو داود (٤) عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن النبى ﷺ جعل فداء أهل الجاهلية يوم بدر : أربعمائة ، وادَّعى العباس أنه لا مال عنده ، فقال له رسول الله ﷺ: « فأين المال الذى دفنته أنت وأم الفضل ، وقلت لها : إن أُصِبت فى سفرى فهذا لبنىَّ الفضل ، وعبد الله ، وقثم ؟ » فقال : والله إنى لأعلم أنك رسول الله ، إن هذا لشىء ما علمه إلا أنا وأم الفضل .

وروى البيهقى عن إسماعيل بن عبد الرحمن السُّدِّى قال: كان فداء العباس، وعقيل ابن أخيه ، ونوفل : كل رجل أربعمائة دينار .

قال ابن إسحاق : وكان أكثر الأسارى فداءً يوم بدر فداء العباس ، فدى نفسه بمائة أوقية من ذهب .

وروى البخارى والبيهقى عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أن رجالاً من الأنصار استأذنوا رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله ، ائذن لنا فلنترك لابن أختنا عباسٍ فداءه، قال : « لا والله ، لا تذرون منه درهمًا »(٥) .

وجعل رسول الله ﷺ فداء الرجل أربعة آلاف إلى ثلاثة آلاف إلى ألفين إلى ألف، ومنهم من منَّ عليه ؛ لأنه لا مال له .

وروى ابن سعد عن الشعبى قال : كان أهل مكة يكتبون ، وأهل المدينة لا يكتبون، فمن لم يكن له فداء دُفِعَ إليه عشرة غلمان من غلمان المدينة يعلمهم ، فإذا حذقوا فهم

(١) سبل الهدي والرشاد للإمام الصالحى ٤/ ٩٤ .
(٢) سنن الترمذى ج٤ حديث رقم (١٥٦٧) .
(٣) سبل الهدى والرشاد ٤ / ٦٣ ، ٦٤ .
(٤) سنن أبى داود ١ / ٢٦٧ .
(٥) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧/ ٣٢١ (٤٠١٨) .

فداؤه ، وكان زيد بن ثابت ممّن عُلِّمَ(١) .

١ ـ المطعم بن عدى والأسرى :

لقد كان الأسرى حقًا يدخلون المدرسة النبوية للتربية وهم لا يزالون على شركهم، وهم يستمعون إلى سيد الخلق يتحدث عنهم ويشاور من أجلهم ، ويوصى بهم ، وهم يعلمون أن قتلهم بكلمة واحدة من شفتيه الشريفتين ، ويعلمون ماذا فعلوا برسول الله ﷺ خلال ثلاثة عشر عامًا وهم الأقوى والأعلى، وأنهم يستحقون القتل جميعًا وقد غدوا أسرى بيديه .

إننا سنعيش مع هذه القلوب البشرية التى تحس وتخاف وترجو وتحب وتألم ، وكيف امتدت اليد النبوية الحانية لها وهى على شركها (أى القلوب) ؛ لتقوم ببنائها العظيم .

وهذه هى الصورة الأولى من الصور الفريدة الخالدة فى التاريخ .

فعن الزهرى عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه؛ أن النبى ﷺ قال فى أسارى بدر : « لو كان المطعم بن عدى حيًا ثم كلَّمنى فى هؤلاء النتنى لتركتهم له »(٢) .

والمطعم بن عدى سيد بنى نوفل الفرع الثالث من بنى عبد مناف والذى كان فى موقع القوة والسلطة فى مكة . ومع أنه لم يخرج عن رأى قريش ابتداءً وينضم لأبى طالب ، لكنه كان وسطًا بين الطرفين ابتداءً ثم مثَّل موقف أبى طالب انتهاءً .

ها هو يلوم أبا طالب فى عدم تسليمه محمدًا لقريش مبادلة مع عمارة بن الوليد (فقال : والله لبئس ما تسوموننى ! أتعطونى ابنكم أغذوه لكم ، وأعطيكم ابنى تقتلونه! هذا والله لا يكون أبدًا . قال : فقال المطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف ابن قصى : والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك ، وجهدوا على التخلص مما تكرهه ، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئًا ، فقال أبو طالب للمطعم : والله ما أنصفونى ، ولكنك قد أجمعت خذلانى ومظاهرة القوم على ، فاصنع ما بدا لك)(٣) .

وها هو أبو طالب يناشد مطعمًا ويثير نخوته أن يقف بجواره :

أمطعم إن القوم ساموك خُطة ... وإنى متى أوكل فلست بوائل (٤)
أمطعم لم أخذلك فى يوم نجدة ... ولا معظم عند الأمور الجلائل

---

(١) سبل الهدى والرشاد ٤/ ١٠٤ ، ١٠٥ .
(٢) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧/ ٣٢٣ (٤٠٢٤) .
(٣) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٣٣٠ ، ٣٣١ .
(٤) فلست بوائل : لست بناج .

ولا يوم خصم إذ أتـوك ألـدة أولى جدل من الخصوم المساجل (١)

لكن المطعم بن عدى، وقد رأى ظهر محمد ﷺ خلاءً بعد وفاة أبى طالب، ورسول الله ﷺ عاجز عن دخول مكة بعد محنة الطائف ، عرَّض نفسه وأولاده وعشيرته للقتل ، وقرَّر مواجهة قريش لحماية سيد بنى عبد منـاف : محمد بن عبد الله صلوات الله عليه .

(وبيَّن ابن شاهين من وجه آخر السبب فى ذلك (أى يهب الأسرى للمطعم لو طلب ذلك) ما وقع منه حين رجع النبى ﷺ من الطائف ، ودخل فى جوار المطعم بن عدى . وقد ذكر ابن إسحاق القصة فى ذلك مبسوطة ، وكذلك أوردها الفاكهى بإسناد حسن مرسل وفيه : أن المطعم أمر أربعة من أولاده ولبسوا السلاح ، وقام كل واحد منهم عند ركن من الكعبة ، فبلغ ذلك قريشًا فقالوا له : أنت الرجل الذى لا تخفر ذمتك ؟ وقيل المراد باليد المذكورة : أنه كان من أشد من قام فى نقض الصحيفة التى كتبتها قريش على بنى هاشم، ومن معهم من المسلمين حين حصروهم فى الشعب . وروى الطبرانى عن محمد بن جبير عن أبيه قال : قال المطعم بن عدى قبل وقعة بدر : إنكم فعلتم ما فعلتم بمحمد ، فكونوا أكف الناس عنه وذلك بعد الهجرة ، ثم مات المطعم بن عدى قبل وقعة بدر وله بضع وتسعون سنة . وذكر الفاكهى بإسناد مرسل : أن حسان بن ثابت رثاه لما مات مجازاة له على ما صنع للنبى ﷺ) (٢) .

إن الحياة مواقف . ولنتصور وضع رسول الله ﷺ فى قمة معاناته بعد عودته من الطائف ، حين غادر الطائف هائمًا على وجهه ولم يستفق إلا بقرن الثعالب. لنتصور عجزه عن دخول مكة ،وأتباعه ـ القلة المؤمنة ـ موزعون بين مكة والحبشة ، وأهل الطائف قد أخرجوه منها ، وفشلت محاولات الجوار مع سهيل بن عمرو، والأخنس ابن شريق ، فأنقذ الموقف المطعم ،وحمى رسول الله ﷺ حتى أصبحت له أرض صلبة يقف عليها ، ويقيم عليها دولته ، وأصبح ظافرًا منتصرًا بيده سبعون أسيرًا من صناديد قريش . إن ذلك الموقف العظيم للمطعم ، هو الذى ساهم فى هذه النتيجة المظفرة للإسلام ، فلا غرو أن يقول عليه الصلاة والسلام :

«لو كان المطعم بن عدى حيًا ثم كلمنى فى هؤلاء النتنى لتركتهم له » .

إنها قمة الوفاء لمواقف الرجال ـ ولو كانوا مشركين ـ فى الحالات الصعبة مع قائد الدعوة محمد ﷺ وحق لحسان بن ثابت أن يقول فى رثائه :

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١ / ٣٤٣ .

(٢) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧ / ٣٢٤ .

أيا عين فابكى سيد القوم واسفحى ... بدمع وإن أنزفته فاسكبي الدما
وبكى عظيم المشعرين كليهما ... على الناس معروفًا له ما تكلما
فلو كان مجد يخلد الدهر واحدًا ... من الناس أبقى مجده اليوم مطعما
أجرت رسول الله منهم فأصبحوا ... عبيدك ما لبى مهل وأحرما
فلو سُئِلت عنه مَعَدٌّ بأسرها ... وقحطان أو باقى بقية جرهما
لقالوا :هو الموفى بخفرة جاره ... وذمته يومًا إذا ما تذمما
فما تطلع الشمس المنيرة فوقهم ... على مثله فيهم أعز وأعظما
وآبى إذا يأبى وألين شيمة ... وأنوم عن جار إذا الليل أظلما[(١)]

تذكر هذا ، وتذكر جبير بن مطعم الذى حقد لقتل عمه طعيمة بن عدى فى بدر ، فاستدعى وحشيًا وقال له : (إن قتلت عم محمد حمزة بعمى ، فأنت عتيق . . .)[(٢)]. وقتل وحشى حمزة بعمه طعيمة بن عدى وأعتق ، ولكن جبيرًا رضي الله عنه لم ينس أبدًا مقالة رسول الله ﷺ عن أبيه بأسرى بدر، فهو الذى نقلها لنا، ولا ننسى كذلك أن هذه المقالة قد سمعها الأسارى وتعلموا كيف يكون وفاء الرجال للرجال ، وأنها قد أعطت لجبير بن مطعم ومضات من النور تسللت إلى قلبه ، وقادته إلى الإسلام فيما بعد .

٢ ـ مقتل النضر وعقبة :

أ ـ وإذا كان هذا موقف الوفاء للرجال ، فلابد أن نشهد كذلك مصرع الطغاة الذين قدَّموا ألأم وأخس ما عندهم تجاه النبى ﷺ وهم فى موقف القوة ،ومثَّل هذا الموقف ، النضر بن الحارث ، وعقبة بن أبى معيط ، وهما الأسيران الوحيدان اللذان قتلا صبرًا بأمر رسول الله ﷺ ، كما يُقتل مجرمو الحرب فى أيامنا هذه .

أما النضر بن الحارث ، فقد كانت عداوته لله تعالى ولكتابه ، وكان قمة المستهزئين بكتاب الله تعالى (وكان النضر بن الحارث من شياطين قريش ، وممن كان يؤذى رسول الله ﷺ وينصب له العداوة وكان قد قدم الحيرة ، وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس، وأحاديث رستم واسفنديار ، فكان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلسًا فَذَكَّرَ فيه بالله ، وحذر قومه ما أصاب قبلهم من الأمم من نقمة الله، خلفه فى مجلسه إذا قام ، ثم قال: أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثًا منه ، فهلم إلىَّ فأنا أحدثكم أحسن من

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٣ ، ٢٤ .

(٢) المصدر نفسه ٣/ ١٠٣ .

حديثه، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسفنديار ، ثم يقول : بماذا محمد أحسن حديثًا منى)(١) .

(قال ابن هشام : وهو الذى قال فيما بلغنى : سأنزل مثل ما أنزل الله .

قال ابن إسحاق : وكان ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ يقول فيما بلغنى : نزل فيه ثمان آيات من القرآن قول الله عز وجل : ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾(٢) وكل ما ذكر فيه من الأساطير من القرآن)(٣) .

إن هذا الرجل المتعالى على الله والمتألى عليه ، والذى يزعم أنه سينزل أحسن ما أنزل الله . والذى يزعم أنه أحسن حديثًا من محمد ، لابد لمثل من يمثل هذا التيار ـ وقد أصبح بين يدى رسول رب العالمين ـ لابد أن يَثْأَرُ لله ولرسوله منه، ومن أجل هذا لم يدخله رسول الله ﷺ ضمن نطاق الاستشارة، وقد حكم القرآن بكفره ودخوله النار. فهو الشقى العنيد الذى تقرر مصيره، ونفذ رسول الله ﷺ الحكم فيه ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ . وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾(٤) .

وبها ـ أى بالصفراء ـ قُتِلَ النضر بن الحارث بن كلدة ، قتله على بن أبى طالب رضي الله عنه صبرًا بالسيف .

وأما عقبة بن أبى معيط ، فقد كان من أشد الناس عداوة لرسول الله ﷺ ولابد أن نعرض ملخصًا لتاريخه الملطخ بالسواد ، وماذا أنزل الله فيه :

(لقد سارع وأسلم فى بداية أمره فجاءه صديقه أبى بن خلف فسأله فقال : دخل منزلى رجل شريف ، فأبى أن يأكل طعامى إلا أن أشهد له ، فاستحييت أن يخرج من بيتى ولم يطعم ، فشهدت له فطعِم والشهادة ليست فى نفسى .

---

(١) المصدر السابق ١/٤٣٩ ، ٤٤٠ .
(٢) القلم / ١٥ .
(٣) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٣٧٠ .
(٤) الأنعام / ٩٣ ، ٩٤ .

فقال له أبى : وجهى من وجهك حرام إن لقيت محمدًا فلم تطأه ، وتبزق فى وجهه ، وتلطم عينه ، فقال عقبة : لك ذلك .

ففعل ذلك عقبة بن أبى معيط ـ لعنه الله ـ فأنزل الله تعالى فيه : **﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً . يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً . لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً ﴾**[١])[٢] .

ثم بعد هذه الواقعة كان أشقى القوم فى أذى رسول الله ﷺ ، ولم يدع مؤامرة لقتل النبى ﷺ إلا شارك فيها .

أما الأذى فهذه صورته :

ب ـ كما قال ﷺ : « كنت بين شر جارين: بين أبى لهب ، وعقبة بن أبى معيط ، وإن كانا ليأتيان بالفروث فيطرحانها على بابى حتى أنهم ليأتون ببعض ما يطرحونه من الأذى فيطرحونه على بابى » رواه ابن سعد عن عائشة[٣] .

جـ ـ وتابع ذلك بوطء عنقه الشريف ﷺ (ووطئ عقبة بن أبى معيط على رقبته الشريفة وهو ساجد عند الكعبة حتى كادت عيناه تبرزان)[٤] .

د ـ ثم كان إلقاء سلا البعير عليه ﷺ كما فى البخارى عن عبد الله بن مسعود قال: بينما رسول الله ﷺ قائم يصلى عند الكعبة، وجمع قريش فى مجالسهم إذ قال قائل منهم : ألا تنظرون إلى هذا المرائى ؟ أيكم يقوم إلى جزور آل فلان فيعمد إلى فرثها ودمها وسلاها فيجىء به ، ثم يمهله حتى إذا سجد وضعه بين كتفيه ؟ فانبعث أشقاهم. فلما سجد رسول الله ﷺ وضعه بين كتفيه ، وثبت النبى ﷺ ساجدًا ، فضحكوا حتى مال بعضهم إلى بعض من الضحك ، فانطلق منطلق إلى فاطمة عليها السلام ـ وهى جويرية ـ فأقبلت تسعى وثبت النبى ﷺ ساجدًا حتى ألقته عنه ، وأقبلت عليهم تسبهم ، فلما قضى رسول الله ﷺ الصلاة قال : « اللهم عليك بقريش ، اللهم عليك بقريش ، اللهم عليك بقريش ، ثم سمى : اللهم عليك بعمرو بن هشام ، وعتبة ابن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة وأمية بن خلف وعقبة بن أبى معيط وعمارة ابن الوليد » ، قال عبد الله : فوالله لقد رأيتهم صرعى يوم بدر ، ثم سُحِبوا إلى القليب قليب بدر[٥] .

---

(١) الفرقان : ٢٧ ـ ٢٩ .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٤٤٠ ، ٤٤١ .
(٣) المواهب اللدنية للزرقانى ٢٩٢ .
(٤) المصدر نفسه ١/ ٢٩٢ .
(٥) فتح البارى شرح صحيح البخارى ١/ ٥٩٤ (٥٢٠) .

لقد شهدنا الذين ناداهم - عليه الصلاة والسلام - بأسمائهم على القليب خمسة : أبو جهل وعتبة وشيبة والوليد وأمية ، وهذا سادسهم عقبة الذى انضم إليهم بعد مقتله بعرق الظبية ، وأما سابعهم فقد قتل فى الحبشة ، واستجيبت دعوة الرسول ﷺ فى أكابر المجرمين .

هـ - ثم كانت محاولة قتله الأولى بصفة شخصية كما روى البخارى عن عروة رضي الله عنه : (عن عروة قال : سألت ابن عمرو بن العاص : أخبرنى بأشد شىء صنعه المشركون بالنبى ﷺ قال : بينا النبى ﷺ يصلى فى حجر الكعبة ، إذا أقبل عقبة بن أبى معيط فوضع ثوبه فى عنقه فخنقه خنقًا شديدًا ، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه ودفعه عن النبى ﷺ وقال : أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله . . . .)(١) .

و - ثم كانت المحاولة الجماعية الثانية: من ذلك ما حدَّث به عثمان بن عفان - رضى الله تعالى عنه - قال : كان رسول الله ﷺ يطوف بالبيت ويده فى يد أبى بكر ، وفى الحجر ثلاثة نفر جلوس : عقبة بن أبى معيط ، وأبو جهل بن هشام ، وأمية بن خلف ، فمر رسول الله ﷺ عليهم: فلما حاذاهم أسمعوه بعض ما يكره ، فعرف ذلك فى وجه النبى ﷺ ، فدنوت منه حتى وسطته - أى جعلته وسطًا - فكان ﷺ بينى وبين أبى بكر ، وأدخل أصابعه فى أصابعى وطفنا جميعًا ، فلما حاذاهم قال أبو جهل : والله لا نصالحك ما بلَّ بحر صوفة، وأنت تنهى أن نعبد ما يعبد آباؤنا ، فقال رسول الله ﷺ : « أنا ذلك » ، ثم مشى عنهم: فصنعوا به فى الشوط الثالث مثل ذلك، حتى إذا كان الشوط الرابع ناهضوه - أى قاموا له ﷺ - ووثب أبو جهل يريد أن يأخذ بمجامع ثوبه ﷺ ، فدفعته فى صدره فوقع على استه ، ودفع أبو بكر أمية بن خلف ، ودفع رسول الله ﷺ عقبة بن أبى معيط، ثم انفرجوا عن رسول الله ﷺ وهو واقف ، ثم قال : « أما والله لا تنتهون حتى يُحِلَّ الله بكم عقابه » - أى ينزل عليكم عاجلاً - قال عثمان : فوالله ما منهم رجل إلا وقد أخذته الرعدة . فجعل رسول الله ﷺ يقول: « بئس القوم أنتم لنبيكم » ، ثم انصرف وتبعناه حتى انتهى إلى باب بيته، ثم أقبل علينا بوجهه فقال : « أبشروا فإن الله — عز وجل — مظهر دينه ، ومتمم كلمته ، وناصر نبيه ، إن هؤلاء الذين ترون مما يذبح الله على أيديكم عاجلاً » ثم انصرفنا إلى بيوتنا . فوالله لقد ذبحهم الله بأيدينا يوم بدر) (٢) .

ز - ولم يشتف صدر عقبة ، ولم يقتل النبى ﷺ وعجز عن ذلك ، وامتلأ حقدًا

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧/ ١٦٥ ، ١٦٦ رقم (٣٨٥٦) .
(٢) السيرة الحلبية ١/ ٤٧٢ والوفا فى أخبار المصطفى لابن الجوزى ١/ ٣٠١ ، ٣٠٢ .

ثم ينشد هذا شعرًا فيقول :

يا راكب الناقة القصواء هاجرنا عما قليل تراني راكب الفرس

أعل رمحي فيكم ثم أنهله والسيف يأخذ منكم كل ملتمس

ويقول عليه الصلاة والسلام لعقبة المصمم على قتله : « إن وجدتك خارج مكة ضربت عنقك صبرًا » .

أنشدنيها ابن الزناد ، فقال النبي ﷺ وبلغه قوله : « اللهم أكبَّهُ لمنخره واصرعه » . قال : فجمح به فرسه يوم بدر فأخذه عبد الله بن سَلَمَةَ العجلاني، فأمر به النبي ﷺ عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح فقتله صبرًا)[1] .

ح ـ لقد كان هذا المجرم على كل ما ذكرنا يجادل في مقتله ، ورسول الله ﷺ يصدر حكمه (وكان أسره عبد الله بن سلمة العجلاني ، فجعل عقبة يقول: يا ويلي علام أقتل يا معشر قريش من بين من هاهنا ؟ فقال رسول الله ﷺ : « لعداوتك لله ولرسوله » . قال : يا محمد منك أفضل، فاجعلني كرجل من قومي ، إن قتلتهم قتلتني، وإن مننت عليهم مننت عليَّ ، وإن أخذت منهم الفداء كنتُ كأحدهم ، يا محمد ، من للصبية ؟ قال رسول الله ﷺ : « النار قدِّمه يا عاصم فاضرب عنقه »[2]. فقدَّمه عاصم فضرب عنقه ، فقال رسول الله ﷺ : « بئس الرجل كنت، والله ما علمتُ كافرًا بالله وبرسوله وبكتابه ، مؤذيًا لنبيه ، فأحمد الله الذى هو قتلك ، وأقر عيني منك »[3] .

وبمقتل هذين المجرمين علم الجيل الأول أن بعض الطغاة العتاة المعادين لا مجال إطلاقًا للتساهل معهم ، فهم رأس الشر وقادته ، ولا هوادة معهم ؛ لأنهم تجاوزوا حد العفو والصفح، وعلم الأسرى جميعًا أن بالإمكان أن يقتلوا عن بكرة أبيهم بإشارة من رسول الله صلوات الله عليه .

٣ـ الشورى في الأسرى :

ونقف وقفة عند فقه النبوة العظيم في قضية الأسرى .

أ ـ ها هو ذا عليه الصلاة والسلام يستشير صحبه في الأمر ، وبين يديه سبعون

---

(١) المغازي للواقدي ١/ ٨٢ .

(٢) ورد هذا المقطع بسند صحيح ، انظر مجمع الزوائد ٦/ ٨٩ إذ قال فيه : « رواه الطبراني في الكبير والأوسط ، ورجاله رجال الصحيح » .

(٣) المغازي للواقدي ١/ ١١٤ .

أسيرًا وهو الغنى عن المشورة بالوحى ، والغنى عن المشورة بسداد رأيه وعظمة تفكيره ، ولكنها التربية النبوية للقيادات بعده ألا تستغنى عن الاستشارة إذا نزل بها أمر ذو بال .

ب ـ ونجد أدب الأصحاب قد ترك الرأى لأولى النهى والرأى ، فقد كفاهم أبو بكر وعمر ـ رضى الله عنهما ـ الرأى ، ولم يبادر الصحب إلى التكرار واللغو طالما أنه لم يخرج رأيهم عن هذين الرأيين ، بينما تقدم عبد الله بن رواحة رضي الله عنه برأى ثالث، هو أن يجمعهم فى واد كثير الحطب ، ويضرم بهم النار ، فلقد كان سعد بن معاذ رضي الله عنه من أنصار القتل كما تذكر الرواية المشهورة :

(فلما وضع القوم أيديهم يأسرون ، ورسول الله ﷺ فى العريش ، وسعد بن معاذ قائم على باب العريش الذى فيه رسول الله ﷺ متوشحًا السيف فى نفر من الأنصار يحرسون رسول الله ﷺ، يخافون عليه كرة العدو، ورأى رسول الله ﷺ ـ فيما ذكر لى ـ فى وجه سعد بن معاذ الكراهية لما يصنع الناس. فقال له رسول الله ﷺ: « والله لكأنك يا سعد تكره ما يصنع القوم » . قال : أجل يارسول الله ، كانت أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك ، فكان الإثخان بالقتل أحب إلىَّ من استبقاء الرجال)(١) .

ومع ذلك لم نسمعه يبدى رأيًا أو يشارك فيه وهو سيد الأنصار ، طالما أن رضي الله عنه كفاه مؤونة ذلك .

جـ ـ وتفاوت الرأيين كبير بين العفو وبين القتل أو الإحراق بالنار ، ومع ذلك لم يتهم فريق الآخر كما نرى فى دنيانا المعاصرة وفى رجالنا اليوم ، ومثل هذا التفاوت قد يقود إلى المفاصلة بين الفريقين ، فريق يتهم الأول بالمداهنة فى شريعة الله ، وتفضيل القرابة على الدين والتساهل مع العدو ،وفريق يتهم الثانى بالاندفاع الأعمى والتعصب، وفقدان الحكمة والموعظة الحسنة فى الدعوة إلى الله ، ويتعصب ناس لهذا الرأى ، وآخرون للرأى الثانى ، وينقسم الصف ويقع الشقاق ، ومع أننا لا ننكر أن وجود رسول الله ﷺ بين ظهرانيهم يحول دون استفحال هذا الموقف أو ذاك ، لكننا نجد فرصة للنيل من أحد الرأيين طالما أن رسول الله ﷺ لم يتبن أحدهما ودخل بيته ، فكل ما قاله الناس : إن رسول الله ﷺ قد يأخذ برأى أبى بكر أو عمر أو ابن رواحة ـ رضى الله عنهم .

د ـ وسيد الساسة والقادة محمد ـــ عليه الصلاة والسلام ـــ خرج على الناس ،

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٢٣ ، ٣٢٤ .

وكان بإمكانه أن يعلن رأيه مباشرة بترجيح أحد الآراء الثلاثة ، إلا أنه أراد أن يربى هذه الأمة على اختلاف الرأى واحترام هـذا الاختلاف ، وفقه الرأى الآخر ـ كما يقال ـ ومن أجل ذلك قدَّم للمسلمين نموذج أبى بكر رضي الله عنه فى اللين ، ونموذج عمر رضي الله عنه فى الشدة ، وأن كلا الرأيين منبثق من الإسلام ويتسع الإسلام لهما دون حرج ، فالشدة فى الله ، واللين لدعوة الله كلاهما مواقف فى هذا الدين لا تعارض بينهما .

وحتى تتضح الصورة لدى الصحب استحضر لهم نماذج الأنبياء من أولى العزم ، حيث مثل اثنان منهم الشدة فى دين الله وهما: موسى، ونوح ، ومثَّل اثنان آخران اللين فى دعوة الله هما: إبراهيم، وعيسى ، وبذلك انسكب فى نفوس الصحب الطمأنينة إلى صواب الموقفين، وكل واحد منهما مناسب لحالة معينة.

هـ ـ ومع هذه المقدمة المسهبة التى أوضحت وزن الصاحبين عند الله تعالى ورسوله، جاء اختيار رسول الله ﷺ لرأى أبى بكر فى أسلوب من الروعة والحكمة بحيث يبدو وكأنما أخذ برأى عمر : « لا ينفلتن أحد منهم إلا بفداء أو ضرب عنق » .

إن هذه الصياغة النبوية فى التعبير؛ لتوحى بعظمة إمام المربين ـ وهو يعلم أمته أصول الشورى واحترام الرأى وطريقة التعبير عنه ، وفن التعامل مع الآراء المختلفة ، والنفوس المختلفة ـ بحيث يجعل منها كلاً واحدًا لتحقيق الهدف المطلوب .

و ـ ويستوقفنا كذلك ذلك التجرد العظيم عند عمر رضي الله عنه بحيث لا تأخذه فى الله لومة لائم، فهو لم يكتف بالمشورة ـ أن يقتل قادة الشرك وصناديدهم من الأسرى، وفى هذا ما يكفيه للتجرد لله ، وهو يدعو إلى قتل قومه ـ بل نجد قمة التجرد يوم قال: (ولكن أرى أن تمكننى من فلان قريب لعمر فأضرب عنقه ، وتمكن عليًا من عقيل فيضرب عنقه ، وتمكن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه ، حتى يعلم الله أنه ليست فى قلوبنا هوادة للمشركين) فهو لا يكتفى رضي الله عنه بالقتل على عمومه ، بل لابد أن يقوم الأخ بقتل أخيه ، وكل واحد يقتل أقرب الناس إليه .

ز ـ ويستوقفنا كذلك: الحس الإسلامى لدى عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنهما ـ يوم يرفع صوته تعقيبًا على قول رسول الله ﷺ : « فلا ينفلتن أحد منهم إلا بفداء أو ضرب عنق » قائلاً : إلا سهيل بن بيضاء فإنى قد سمعته يذكر الإسلام . قال : فسكت.

لقد رأى عبد الله نفسه ـ وقد تجاوز الأدب مع قائده عليه الصلاة والسلام ـ حين استثنى سهيل بن بيضاء لذكره الإسلام ، وخلال اللحظات القليلة جدًا من صمت النبى ﷺ أحس عبد الله أن الحجارة من السماء ستنزل عليه ، وبقى فى هذا الذعر حتى انداح

خوفه بقول الرسول ﷺ : « إلا سهيل بن بيضاء » ، وجميل جداً أن يكون هذا الحس الإسلامى بين الجندى وقائده : بحيث لا يتجاوز الجندى حده ويدخل رأيه بكل صغيرة وكبيرة ، خاصة وقائده سيد الخلق ـ عليه الصلاة والسلام[1] .

ح ـ وتبرز بين يدينا آفاق شخصية الصديق رضي الله عنه الذى لا يغيب حس الداعية لحظة من نفسه، وهو يرى هذه الأعداد من الأسارى وهم بنو العم والعشيرة والإخوان ، فتكون الفدية من جهة قوة لا للإثراء والغنى والترف ، ولكن قوة لقتال الكفار . أما هؤلاء الأسرى فعسى الله أن يهديهم فيكونوا لنا عضداً . لقد طمع فى هذه الأعداد الضخمة ، وقد وجدت فى المحضن الإسلامى، ترى وتشهد عظمة التمكين لهذ الدين، وترى وتشهد عظمة خلق النبوة فى التعامل معها حين تعفو وهى تملك أن تقتل ، وترى وتسمع آيات الله البينات تدوى فى الصف المسلم ، فتنزاح الغشاوة عن عينيها ، وتفك أقفال قلوبها وتنضم لهذا الدين الجديد ، ولا بدع ! فأبو بكر الداعية رضي الله عنه قد قدَّم لهذا الدين غرره وقممه ، فعلى يديه انضم لهذا الدين ستة من العشرة المبشرين بالجنة غير من أعتقهم بماله فى سبيل الله ، فالمال عنده وسيلة للدعوة، والجهاد وسيلة للدعوة، وكل ما يملكه يود أن يوظِّفه للدعوة إلى الله عز وجل.

ط ـ ويفقه عمر الفاروق رضي الله عنه أبعاد شخصية الصديق ، ويعلم أنه وهو يعرض الفداء أعظم وأكبر من أن يكون لنفسه حظ ، ولذاته نصيب ، لكن التقدير يختلف للموقف بين الشخصيتين ، فيقول لهما عليه الصلاة والسلام : « لو اتفقتما ما خالفتكما » .

وكم هى عظمة الصاحبين حين يلتقيان على رأى ، فلا يخرج رسول رب العالمين عن رأيهما ؟!

ى ـ أما وقد اختلفا ، ومثَّل كل واحدٍ منهما خطًا ومنهجًا فى الحكم بهذه القضية، فأخذ برأى الصديق رضي الله عنه وهو يرى جنده الحفاة العراة العالة ، أحوج ما يكونون إلى الفدية .

«أنتم عالة، فلا ينفلتن أحد منهم إلا بفداء أو ضرب عنق»، ولعل هذا الجو الإسلامى الذى يعيشون فيه يليِّن تلك القلوب الجاسية، ويفتحها للإسلام فتنضم إليه.

ك ـ وينزل القرآن الكريم برأى عمر رضي الله عنه فلابد من الإثخان فى القتل، حتى تتمكن قواعد الإسلام فى الأرض ، وتُحقَن شوكة الكفر ، ويزول الخطر على دولة

---

(١) من كتاب (المنهج التربوى للسيرة النبوية – التربية الجهادية ، جـ ١) للمؤلف .

الإسلام فعندها ﴿ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً ﴾ (١) . وذلك حين تضع الحرب أوزارها ، وتنهار قوة العدو وتصبح عاجزة عن المواجهة والمقاومة، وهؤلاء الأسرى لن يبقوا فى الصف الإسلامى شهوراً أو سنين .بل سيعودون إلى الصف المشرك بمجرد دفع الفدية، وسيعاودون الحرب ويشكلون القوة التى تخطط لإبادة الإسلام والقضاء عليه ، وكى يدرك المسلمون أبعاد اندفاعهم ورغبتهم فى الفداء ؛ جاء الوحى الربانى ليخيرهم بين قتل الأسرى ،أو أن يُقتل منهم أعدادهم بعد ذلك فى الجولات القادمة،ولشدة فاقتهم، من جهة، ولتوقهم للشهادة من جهة أخرى ،كان موقفهم كما ذكرت الرواية :

يا رسول الله ، عشائرنا وإخواننا نأخذ منهم الفداء فنتقوى به على قتال عدونا ويستشهد منا عدتهم فليس فى ذلك ما يُكره .

والوحى يربيهم ، دون أن يفرض عليهم موقفًا محددًا حيث ترك الأمر شورى فيهم، عليه الصلاة والسلام وذكرهم بأبعاد وخطورة رأى الفدية ، فاختاروا الشهادة معها على قتل أسراهم دون فداء .

ل ـ وأخيرًا ونحن نستعرض النفوس للعصبة المسلمة مع قضية الأسارى لا يفوتنا: أن نشهد عظمة عمر رضي الله عنه وقد نزل القرآن برأيه فما جمحت به نفسه ، ولا استطال على المسلمين بموقفه ، ولا أخذه الغرور وتعالى على إخوانه .

أى نفسية هذه التى ينزل القرآن الكريم بصواب رأيها علنًا وعلى مشهد من القوم ، ثم تحافظ على توازنها فلا تطير تيهًا وغروراً ، بل تتواضع وتتواضع وتذل حتى ليجد حبيبه رسول الله ﷺ والصديق يبكيان ، ويستمع لسيده عليه الصلاة والسلام يقول له : « لو نزل عذاب لما نجا منه إلا ابن الخطاب » ، ويستمع إلى حبيبه عليه الصلاة والسلام يقول : « لقد عُرِض علىَّ عذابكم أدنى من هذه الشجرة » ، ومع هذا كله يود أن يبكى مع صاحبيه أو يتباكى إن لم يجد بكاء .

لقد استوت هذه النفسية العظيمة، وهذا المعدن الثمين فى الولاء لله ورسوله، والحب لله ورسوله ، والخلوص من ذاتها لله ورسوله بحيث تنسى نزول القرآن الكريم ووحى السماء برأيها، ويشغلها ألم الحبيب المصطفى وبكائه عن ذلك كله .

ولننطلق فى آفاق هؤلاء الأسارى ، وهم يعيشون هذه اللحظات القليلة فى صف النبوة وبين يدى سيد الخلق وأصحابه المؤمنين .

---

(١) محمد / ٤ .

٤ ـ العباس عم رسول الله ﷺ :

أ ـ فهو الآن أسير بيد الأنصار ، والأنصار يغضبون لله ، وهم يرون عم محمد يقف ضده ، وينضم لجيش مكة ليحاربه ، ورغم أن لديهم خلفية سابقة عن مواقفه فى نصرة محمد ﷺ فى مكة ، لكنه لم يسلم ، وها هو يعود حاملاً السلاح مع جيش قريش هذا هو ظاهر الأمر ، أما سيد الخلق ، فلا يستطيع النوم ؛ لأنه يسمع تضور العباس فى وثاقه ؛ ولأنه يعلم أن مَلَكًا كريماً أعان ذلك الصحابى القصير على أسره ، ليبقى ذخراً لنبيه فيما بعد . فملائكة السماء شاركت فى أسره والحفاظ عليه من القتل ، ويدرك عمر رضي الله عنه جانبًا من الحقيقة وهو الوزير الثانى فى الدولة فيقول لحبيبه المصطفى: أفآتيهم قال : « نعم » ، وفى الوقت الذى يرفض الأنصار وساطة عمر رضي الله عنه سرعان ما يستجيبون لرغبة حبيبهم المصطفى صلوات الله عليه.

ـ فإن كان رسول الله ﷺ رضى ؟!

ـ فإن كان رسول الله ﷺ رضى فخذه .

والجانب الذى يغيب عن عمر رضي الله عنه إسلام العباس ، فيجدها فرصة سانحة ، وقد خلا به أن يدعوه إلى الإسلام ، ويقسم له أن إسلامه أحب إلى قلبه من إسلام أبيه الخطاب ، وما ذلك إلا لما رأيت رسول الله ﷺ يعجبه إسلامك ، ويقذف بهذه الجمل فى صدر العباس ليؤكد له مدى الحب والتفانى الذى يكنه لابن أخيه محمد عليه الصلاة والسلام ، علَّ مغاليق نفسه تفتح ، ويشارك ابن أخيه فى تحقيق هذه الرغبة .

ب ـ وتبدأ عملية الفداء بعم محمد عليه الصلاة والسلام ، إذ يعرض الأنصار أن يتنازلوا عن حقهم فى فداء العباس قائلين : ائذن لنا فلنترك لابن أختنا العباس فداءه .

إنه الحب المتبادل بين الرسول ﷺ وجنده ، وطالما أن حبه لعمه بدا واضحًا فى استنقاذه من الأسر ، فليسارعوا إلى تلبية هذا الحب ، والتنازل عن فدائه . وكما يقول ابن حجر رحمه الله فى الفتح :

وروى ابن عائذ فى المغازى من طريق مرسل، أن عمر لما ولى وثاق الأسرى شدَّ وثاق العباس، فسمعه رسول الله ﷺ يئن ، فلم يأخذه النوم ، فبلغ الأنصار فأطلقوا العباس ، فكأن الأنصار لما فهموا رضا رسول الله ﷺ بفك وثاقه، سألوه أن يتركوا له الفداء طلبًا لتمام رضاه فلم يجبهم إلى ذلك [١] . (وإنما قالوا : ابن اختنا لتكون المنة عليهم فى إطلاقه بخلاف ما لو قالوا : (عمُّك) لكانت المنة عليه ﷺ . وهذا من قوة

---

(١) فتح البارى ٧/ ٣٢٢ .

الذكاء وحسن الأدب فى الخطاب ، وإنما امتنع النبى ﷺ عن إجابتهم؛ لئلا يكون فى الدين نوع محاباة)[1] .

إن حسن معاملة العباس رضي الله عنه وتخفيف وثاقه ، وإطلاق إساره ، والمحافظة عليه من القتل شىء ، وعفوه من الفداء شىء آخر .

فالدافع إلى الأولى معرفته ﷺ والتى أعلنها على الملأ ، هو أنه خرج مُكرَهًا وليس بحب قتال المسلمين ، هذا هو المدى الذى أفصح عنه - عليه الصلاة والسلام - أما المدى الآخر ، ودوره فى مكة ، وتغطية هذا الدور تقتضى أن يعامل فى الفداء كبقية الأسارى بل أشد . إن التغطية بالمال على دور العباس الذى يؤديه فى مكة أمر ضرورى ؛ ولهذا قال - عليه الصلاة والسلام -: « لا والله لا تذرون منه درهمًا » .

إن قلب جنوده الأحبة ، عزيز على رسول الله ﷺ ، فليأكلوا مما غنموا حلالاً طيبًا ، ولم يحرم أبو اليسر من فداء أسيره العباس ، فهذا لا يفيد فى قضية دور العباس رضي الله عنه شيئًا ، بل يساعد على كتمانها ، وتبقى الثقة فى العباس عند قريش قائمة ، وسيمضى الأسرى السبعون إلى مكة ، ويتحدثون بالتعامل مع العباس ، وأنه دفع الفداء أكثر منهم . فيتبخر الشك عندهم بولاء العباس لمحمد رسول الله ﷺ ، وسيشهد الأسرى كذلك عظمة هذا النبى الذى لم يحاب عمه بدرهم واحد ، وقد عرض عليه ذلك ، فهو رسول الله وليس ملكًا ذا مصلحة ، أو حاكمًا يقدم ذا قرابة ، وهذه معانٍ حين تملأ قلوب الأسرى يدركون أن محمدًا رسول الله ، وليس طالب ملك، أو داعية عصبية لسيادة بنى هاشم على الملأ ، ويزداد الذين آمنوا من الأنصار إيمانًا ، أن المعاملة السابقة فى حمايته وتخفيف الألم عنه لا تعنى حرمان الأنصار حقهم من إساره. ولنتابع قضيته إلى آخر المطاف .

جـ - وروى ابن إسحاق من حديث ابن عباس أن النبى ﷺ قال: « ياعباس افد نفسك، وابن أخويك عقيل بن أبى طالب، ونوفل بن الحارث، وحليفك عتبة بن عمرو فإنك ذو مال » قال: إنى كنت مسلمًا ولكن القوم استكرهونى. قال : « الله أعلم بما تقول إن كنت ما تقول حقًا الله يجزيك، ولكن ظاهر أمرك أنك كنت علينا » .

وذكر موسى بن عقبة أن فداءهم كان: أربعين أوقية ذهبًا . وعند أبى نعيم فى الأوائل بإسناد حسن من حديث ابن عباس: « كان فداء كل واحد أربعين أوقية . فجعل على العباس مائة أوقية ، وعلى عقيل ثمانين » ، فقال له العباس : أللقرابة

(١) سبل الهدي والرشاد للإمام الصالحى ٤/ ١٣٥ .

صنعت هذا ؟ قال : فأنزل الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ ﴾(١) فقال العباس : وددت لو كنت أخذ منى أضعافها لقوله تعالى : ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ ﴾(٢) .

فالعباس رضي الله عنه يعلن إسلامه ، وأنه كان على ذلك وهو فى مكة ، والعباس لا يكذب ورسول الله ﷺ يكتم إسلامه ويعامله على الظاهر ، ويضاعف الفداء عليه وعلى ولدى أخويه عقيل ونوفل ، ويحس العباس بالضيم فى ذلك، فيأتى القرآن بلسمًا لشفائه أن سيؤتيك الله خيرًا مما أخذ منك ، فيفرح ، وقد علم الله تعالى فى قلبه الخير، وعلم فى قلبه الإسلام فهو يحدثنا عما عوض الله تعالى عليه بعدها فيقول :

فىَّ نزلت :﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ. . . ﴾ (٣) فأخبرت النبى ﷺ بإسلامى وسألته أن يحاسبنى بالعشرين أوقية التى أخذت منى فأبى ، فأبدلنى الله بها عشرين عبدًا كلهم تاجر مالى فى يده(٤) .

وكان العباس يقول : ما أحب أن هذه الآية لم تنزل فينا وأن لى الدنيا لقد قال : ﴿ يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ ﴾ ، فقد أعطانى الله خيرًا مما أخذ منى مائة ضعف وقال ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُم ﴾ وأرجو أن يكون قد غفر لى (٥) .

فالعباس قد صدَّق الله تعالى قلبه بإسلامه ، وأعطاه خيرًا مما أخذ منه ، وهذه الشهادة الربانية كافية فى صدق إسلامه ، كما يحدثنا أبو رافع رضي الله عنه مولاه عن هذا الإسلام فيقول :

(كنت غلامًا للعباس بن عبد المطلب ، وكان الإسلام قد دخلنا أهل البيت، فأسلم العباس ، وأسلمت أم الفضل ، وكان العباس يهاب قومه ويكره خلافهم ، وكان يكتم إسلامه ، وكان ذا مال كثير متفرق فى قومه)(٦) .

وحين يذكر ابن إسحاق أسرى المشركين من قريش لا يذكر العباس على رأسهم، إنما يذكر: عقيلاً ونوفلاً ، أولاد أخيه . فيعلِّق الخشنى ـ رحمه الله ـ على ذلك .

وذكر فى الأسرى من قريش يوم بدر عقيل بن أبى طالب ، ونوفل بن الحارث بن

(١) الأنفال / ٧٠ .
(٢) فتح البارى شرح صحيح البخارى للحافظ ابن حجر ٧/ ٣٢٢ .
(٣) الأنفال / ٦٧ .
(٤) تفسير ابن كثير للحافظ ابن كثير ٣/ ٣٤٩ .
(٥) المصدر نفسه ٣ / ٣٥٠ .
(٦) السيرة لابن هشام ٢/ ٣٥١ ، ومجمع الزوائد ٦/ ٨٧ وقال فيه : « رواه الطبرانى والبزار وفى إسناده حسين ابن عبد الله وثقه أبو حاتم وغيره ، وضعفه آخرون ، وبقية رجاله ثقات » .

عبد المطلب ، ولم يذكر معهم العباس بن عبد المطلب ؛ لأنه كان أسلم وكان يكتم إسلامه خوف قومه فيما ذكر عنه [1] .

فإذن نحن مع العباس المسلم الذى يدفع مائة أوقية كما فى الحديث الحسن الذى مرَّ معنا ، ويفدى بنى أخويه بضعف المبلغ ، ويحاول إعفاء نفسه من عشرين أوقية دفعها فى الأيام العصيبة ورسول الله ﷺ يصر على أخذها منه قائلاً: « ذاك شىء أعطاناه الله منك » . ويعود المسلم العباس لمكة ، وقد دفع هذا المال كله ، فيرى المسلمون ظاهراً أن رسول الله ﷺ لم يحاب أحب الناس إليه عمه العباس، وتعامل معه على الظاهر ، رغم إلحاح الأنصار بإعفائه من الفدية، بينما يمضى العباس بعدها إلى مكة مخفيًا إسلامه ، ويعمل رأس استخبارات النبى ﷺ فى مكة ، طيلة عهد مكة ، حيث ينتهى دوره فى فتح مكة فيعلن إسلامه قبلها بساعات .

هذا هو البناء النفسى الذى ساهم رسول الله ﷺ فى بنائه لعمه العباس ، وفى بناء مفهوم العدالة الخالصة فى نفس الأسرى جميعًا ، ورفض المحاباة على أعين الناس سواءً الأسارى أو أصحابهم ، ويتمتعون بالحرية الخالصة فى اختيار الفداء .

٥ ـ وزينب بنت رسول الله :

قال ابن إسحاق :(وحدثنى يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عباد عن عائشة قالت : لما بعث أهل مكة فى فداء أُسرائهم، بعثت زينب بنت رسول الله ﷺ فى فداء أبى العاص بن الربيع بمال ، وبعثت فيه بقلادة لها كانت خديجة أدخلتها بها على أبى العاص حين بنى عليها ؛ قالت : فلما رآها رسول الله ﷺ رقَّ لها رقة شديدة وقال: « إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها مالها فافعلوا » ؛ فقالوا : نعم يارسول الله ، فأطلقوه وردوا عليها الذى لها .

فهذه سيدة من سيدات أهل الأرض ، زينب ـ رضى الله عنها ـ وفقيرة من فقيرات مكة ، تبعث ما جنته فى عمرها من دراهم ، ولا تجد لإتمام الفداء إلا أغلى ما تملك ، قلادة أعطتها أمها خديجة لها يوم زواجها بأبى العاص بن الربيع ، ويرى عليه الصلاة والسلام القلادة ، فيفيض دمعه ، فالقلادة جزء من حياته كان يعهدها عند زوجه خديجة ، ويرق القلب العظيم لهذه الزوجة الكسيرة ، فيستأذن المسلمين قائلاً : « إن أردتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها مالها فافعلوا » .

وفى الوقت الذى رفض فيه رسول الله ﷺ إعفاء العباس من درهم واحدٍ من

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٣/٧ .

فدائه ، يستأذن المسلمين فى فداء هذه الفقيرة الخالدة . وهو فى الوقت نفسه يبنى فى نفس صهره أبى العاص بن الربيع شحنات من الإيمان ، ودفعات جديدة عميقة من الحب ، ثم يخلو به ويطلب منه أن يُخلى سبيل زينب رضى الله عنها ، لتأتى إلى المدينة لتنضم إلى الركب المسلم فيه . فقد فرَّق الإسلام بين أبى العاص وزينب ، ولم يستجب أبو العاص للإسلام . فبعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة، ورجلاً من الأنصار مكانه فقال : « كونا ببطن يأجج[1] حتى تمر بكما زينب ، فتصحباها حتى تأتيانى بها » . فخرجا مكانهما ، وذلك بعد بدر أو شيعه[2] ، فلما قدم أبو العاص مكة أمرها باللحوق بأبيها فخرجت تجهز .

ولابد أن نستعيد جو مكة الموتورة الثائرة بعد بدر ، فقد خيم عليها الموت أو كاد؛ لمصاب أهل بدر .

وتجلدت مكة بحيث لا تبكى على قتلاها، فيشمت محمد والمسلمون معه بها ، ويخرج كنانة بن الربيع أخو زوجها يقودها إلى بطن يأجج ، وقد سمع من أخيه أبى العاص عظمة المعاملة النبوية لأخيه ، فكان لابد أن يرد هذا الجميل ، فخرج بها نهاراً يقود بها وهى فى هودج لها ، وتحدث بذلك رجال من قريش فخرجوا فى طلبها حتى أدركوها بذى طُوى ، فكان أول من سبق إليها هبار بن الأسود بن المطلب الفهرى، فروَّعها هبار بالرمح وهى فى هودجها ، وكانت المرأة حاملاً ـ فيما يزعمون ـ فلما ريعت طرحت ذا بطنها ، وبرك حموها كنانة ونثر كنانته ثم قال : والله لايدنو منى رجل إلا وضعت فيه سهمًا فتكركر الناس عنه وأتى أبو سفيان فى جلة من قريش فقال : أيها الرجل كُفَّ عنا نبلك حتى نكلمك . فكف ، فأقبل أبو سفيان حتى وقف عليه فقال : إنك لم تصب ، خرجت بالمرأة على رؤوس الناس علانية ، وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا، وما دخل علينا من محمد فيظن الناس إذا خرجت بابنته علانية على رؤوس الناس من بين أظهرنا أن ذلك عن ذلٍ أصابنا عن مصيبتنا التى كانت ، وأن ذلك منا ضعف ووهن ،ولعمرى مالنا بحبسها عن أبيها من حاجة ، وما لنا فى ذلك من ثؤرة ، ولكن ارجع بالمرأة ، فإذا هدأت الأصوات ، وتحدث الناس أن قد رددناها، فسلَّها سرًا، وألحقها بأبيها . قال : ففعل ، فأقامت ليالى ، حتى إذا هدأت الأصوات خرج بها ليلاً حتى أسلمها إلى زيد بن حارثة ، وصاحبه فقدم بها على رسول الله ﷺ . . .)[3] .

---

(١) بطن يأجج : اسم مكان علي ثمانية أميال من مكة .

(٢) أو شيعه : قريب منه .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٦٢ وقد رواه البزار ورجاله رجال الصحيح كما فى مجمع الزوائد ٩/ ٢١٢ ، ٢١٣.

ولما انصرف الذين خرجوا إلى زينب لقيتهم هند بنت عتبة فقالت لهم :

أفى السلم أعيار [1] جفاءً وغلظة وفى الحرب أشباه النساء العوارك

وقال كنانة بن الربيع فى أمر زينب حين دفعها إلى الرجلين :

عجبت لهبارٍ وأوباش قومه يريدون إخفارى ببنت محمد

ولست أبالى ما حييت عديدهم وما استجمعت قبضا يدى بالمهند[2]

لقد كان أبو العاص يعرف حموه محمدًا ﷺ منذ أعوام طويلة ، وافترق عنه فى دينه ، لكن عظمة الخلق النبوى ، وعظمة زينب بنت بيت النبوة بقيتا تملآن كيانه ، وكيان أخيه كنانة ، فيحسن معاملة زينب ويزداد تعلقًا بها ، وفى شهامة الرجال يستجيب لمحمد بن عبد الله ، ويضغط على عواطفه وحبه ، ويكرم محمدًا ﷺ بابنته ، ويُعرِّض كنانة حياته للخطر ، ويستعد لمواجهة مكة كلها حفاظًا على عرض بنت محمد وهو على شركه ، وأبو العاص على شِركه ، ويمتد الزمن ويمتد الخط ، وحسن معاملة النبى ﷺ تحفر فى قلب أبى العاص، حتى ليقع ثانية أسيرًا بيد المسلمين ، ويعرف ذلك القلب العظيم الذى عاش معه سنوات طِولا ، قلب زينب فيفر إليها ويستجير بها فتجيره ، إكبارًا لتلك المعاملة الكريمة العظيمة ، وتهتز المدينة كلها إجلالاً لتلك الإجارة ، بل يسارع البيت المسلم ، والمدينة كلها غدت بيتًا واحدًا ، تعيد تجارة أبى العاص إليه ، ويزداد إكبار أبى العاص لمحمد وابنة محمد، ثم لدين محمد بعدها الذى سخر المعسكر الإسلامى لخدمته حبًا بمحمد رسول الله ﷺ ، ويعرف أن هذا البيت ، وهذه البيئة ، هى موطنه الحقيقى ، وأن الإسلام ورسول الإسلام هو النور الذى عم الوجود فكوَّن هذه النماذج العظيمة ، فيعود أدراجه إلى مكة يسلم التجارة إلى أهل مكة والأرباح إليهم ، وفى قلب عاصمة الشرك وبين أساطينه وقادته يعلن كلمة التوحيد ، ويمضى إلى جوار حبيبه المصطفى صلوات الله تعالى عليه . إنها تربية ابتدأت بأبى العاص منذ لحظات زواجه الأولى، ورافقته فى كل لحظة من لحظات حياته مع زينب ، ومضت صعدًا بقلبه تزيح ذلك الران من الشرك ، حتى يغمر الإيمان قلبه بهدى ذلك السلوك .

٦ ـ إسلام عمير بن وهب (شيطان قريش) :

ولم تفجع مكة فقط بكنانة بن الربيع يشن حربًا من أجل بنت محمد ﷺ ، بل فجعت بـ (شيطان قريش) ينضم إلى الصف المسلم .

---

(١) أعيار : جمع عَيْر وهو الحمار .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٣٦٤ ، ٣٦٥ .

قال ابن إسحاق : (وحدثنى محمد بن جعفر بن الزبير، عن عروة بن الزبير قال: جلس عمير بن وهب مع صفوان بن أمية بعد مصاب أهل بدر من قريش فى الحجر بيسير ، وكان عمير بن وهب شيطانًا من شياطين قريش ، وممن كان يؤذى رسول الله ﷺ وأصحابه ، وكانوا يلقون منه عناء وهو بمكة ، وكان ابنه وهب بن عمير فى أسارى بدر . قال : فذكر أصحاب القليب ومُصابهم، فقال صفوان :والله إن فى العيش بعدهم خير ؛ قال له عمير : صدقت والله ، أما والله لولا دَيْنٌ علىَّ ليس له عندى قضاء ، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدى لركبت إلى محمد حتى أقتله ، فإنَّ لى قبلهم علة: ابنى أسير فى أيديهم . قال : فاغتنمها صفوان وقال :

علىَّ دينك أنا أقضيه عنك ، وعيالك مع عيالى أواسيهم مابقوا ، لا يسعنى شىء ويعجز عنهم؛ فقال له عمير : فاكتم شأنى وشأنك ؛ قال : أفعل .

قال : ثم أمر عمير بسيفه فشحذ له وسُمَّ ، ثم انطلق حتى قدم المدينة ؛ فبينا عمر ابن الخطاب فى نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر ، ويذكرون ما أكرمهم الله به ، وما أراهم من عدوهم ، إذ نظر عمر إلى عمير بن وهب حين أناخ على باب المسجد متوشحًا السيف ، فقال : هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب ، والله ما جاء إلا لشر ، وهو الذى حرَّش بنا وحزرنا للقوم يوم بدر .

ثم دخل عمر على رسول الله ﷺ فقال : يا نبى الله ، هذا عدو الله عمير بن وهب ، قد جاء متوشحًا سيفه ؛ قال : « فأدخله على » . قال : فأقبل عمر حتى إذا أخذ بحمالة سيفه فى عنقه فلببَّه بها ، وقال لرجال ممن كانوا معه من الأنصار : ادخلوا على رسول الله ﷺ فاجلسوا عنده ، واحذروا عليه من هذا الخبيث ، فإنه غير مأمون. ثم دخل به على رسول الله ﷺ . فلما رآه رسول الله ﷺ ، وعمر آخذ بحمالة سيفه فى عنقه . قال : « أرسله يا عمر ، ادن ياعمير». فدنا ثم قال : انعموا صباحًا ، وكانت تحية أهل الجاهلية بينهم . فقال رسول الله ﷺ : « قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك ياعمير السلام : تحية أهل الجنة » فقال : أما والله يامحمد إن كنت بها لحديث عهد ؛ قال : « فما جاء بك يا عمير ؟ » قال : جئت لهذا الأسير الذى بين أيديكم فأحسنوا فيه . قال: « فما بال السيف فى عنقك ؟ » قال : قبحها الله من سيوف وهل أغنت عنا شيئًا ! قال : « اصدقنى ما الذى جئت له ؟ » قال : ما جئت إلا لذلك .

قال : « بل قعدت أنت وصفوان بن أمية فى الحجر فذكرتما أصحاب القليب من قريش ثم قلت : لولا دين علىَّ وعيال عندى؛ لخرجت حتى أقتل محمدًا ، فتحمَّل لك صفوان بدينك وعيالك ، على أن تقتلنى له ، والله حائل بينك وبين ذلك » . قال

عمير : أشهد أنك رسول الله ، قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء ، وما ينزل عليك من الوحى ، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان ، فوالله إنى لأعلم ما أتاك به إلا الله ، فالحمد لله الذى هدانى للإسلام وساقنى هذا المساق ، ثم شهد شهادة الحق ، فقال رسول الله ﷺ: « فقهوا أخاكم فى دينه، وأقرئوه القرآن، وأطلقوا له أسيره » ففعلوا .

ثم قال : يا رسول الله، إنى كنت جاهدًا على إطفاء نور الله ، شديد الأذى لمن كان على دين الله عز وجل ، وأنا أحب أن تأذن لى ، فأقدم مكة ، فأدعوهم إلى الله تعالى، وإلى رسوله ﷺ ، وإلى الإسلام لعل الله أن يهديهم ، وإلا آذيتهم فى دينهم كما كنت أوذى أصحابك فى دينهم ؟ قال : فأذن له رسول الله ﷺ ، فلحق بمكة . وكان صفوان بن أمية حين خرج عمير بن وهب يقول : أبشروا بوقعة تأتيكم الآن فى أيام تُنسيكم وقعة بدر ، وكان صفوان يسأل عنه الركبان ، حتى قدم راكب فأخبره عن إسلامه ، فحلف ألاَّ يكلمه أبدًا ، ولا ينفعه بنفع أبدًا . قال ابن إسحاق : فلما قدم عمير مكة أقام بها يدعو إلى الإسلام ، ويؤذى من خالفه أذىً شديدًا ، فأسلم على يديه ناس كثير) [1] .

لقد صدقت فراسة عمر رضي الله عنه فهو ما جاء إلا لشر ، وجاء الوحى يقرِّر ذلك دون الاعتماد على الفراسة ،وسقط السيف المسموم بين يدى رسول الله ﷺ وثيقة إدانة كاملة ،وحاول شيطان قريش التنصل من المسؤولية حين قال عن سيفه بعد التحقيق معه: « فما بال السيف معك » قال : (قبحها الله من سيوف ، وهل أغنت عنا شيئًا).

وأمام هذه الإدانة الظاهرة كان من الطبيعى والمنطقى أن يقال لعمر : قم ياعمر فاضرب عنقه .

ولكن أمر هذا الدين أنه يريد أن يحيى الإنسان لا أن يقتله ، ويريد أن يستجيش هذه الطاقات المذخورة لتكون فى خدمته فى سبيل الله ، ونحن مع إمام المربين ﷺ ، وقد خفض جناحه لهذا الشيطان المريد ، الذى جاء لقتله ، وأحسن حديثه ، وذكر له مهمته التى أعلمه إياها رب السموات والأرض ، فإذا بعمير بن وهب الجمحى يلمس لمس اليد: الوحى الربانى، ويرى عيانًا كيف انتقل هذا السر المكنون بينه وبين صفوان إلى محمد رسول الله ﷺ ، من الذى يعلم السر وأخفى ؟ وأدرك أنه أمام النبى المصطفى من رب العالمين ، وكانت لحظات إعادة بناء كيانه من جديد .

أشهد أنك رسول الله ، قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر

---
(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٧٤ .

السماء ، وما ينزل عليك من الوحى ، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان، فوالله إنى لأعلم ما آتاك به إلا الله ، فالحمد لله الذى هدانى للإسلام وساقنى هذا المساق .

إنها لحظات خالدة فى تاريخ البشرية بين أن يقط رأس المقدم على الجريمة، وبين أن يتحول المجرم مؤمنًا تنفتح ذرات قلبه لتلقى النور الإلهى ، فيأتى التوجيه النبوى : «فقهوا أخاكم فى دينه ، وأقرئوه القرآن ، وأطلقوا له أسيره » .

لقد أطلقوا له أسيره ، وأطلقوه هو من عقال الكفر وظلمات الجهل ، ليصبح فى لحظات عضوًا فى الصف المسلم ، ويسعد بهذا الصف ، ويسعد الصف به .

وها هو لا يرضى أن يكون امرءًا عاديًا فحسب ، وينتظر دوره حتى تقوم معركة مع المشركين يمارس فيها طاقاته ، بل قال : يا رسول الله ،إنى كنت جاهدًا فى إطفاء نور الله، شديد الأذى لمن كان على دين الله ، وأنا أحب أن تأذن لى فأقدم مكة ، فأدعوهم إلى الله تعالى ، وإلى رسول الله ﷺ ،وإلى الإسلام لعل الله أن يهديهم ، وإلا آذيتهم فى دينهم كما كنت أوذى أصحابك .

إنه يريد أن يواجه مكة كلها كما واجهها عمر من قبل ، فهو ليس إنسانًا مغمورًا أو ورقة منسية. إنه طاقة قيادية بناءة، يود أن يقود مكة كلها إلى الإسلام، أو يواجهها بشخصه وأذن له رسول الله ﷺ ، وفعل ، وواجه ، وتحدى ، وعاد أدراجه إلى المدينة ، وأسلم على يديه ناس كثير، وكان حين تعد الرجال يطرحه عمر رضي الله عنه ممن يزن عنده ألف رجل ، وكان أحد الأربعة الذين أمد بهم أمير المؤمنين عمر ، عمرو بن العاص رضي الله عنه الذين كان كل واحد منهم بألف .

وبعد أن كان صفوان بن أمية يعد قريشًا بقوله : أبشروا بوقعة تأتيكم الآن فى أيام تنسيكم وقعة بدر . إذ به يصعق بإسلام عمير فيقسم لا يكلِّمُه أبدًا .

ويمر الزمن ، ويبقى عمير الشخصية القيادية العظيمة ، يحرص على صفوان بن أمية سيد بنى جمح أن ينضم للصف الإسلامى، بعد أن ذاق حلاوة الإيمان فى هذا الصف ، وقد خرج صفوان هاربًا من مكة، يريد جدة ليركب منها إلى اليمن ، (فقال عمير بن وهب : يا نبى الله إن صفوان بن أمية سيد قومه ، وقد خرج هاربًا منك ليقذف بنفسه فى البحر فأمِّنه صلى الله عليك . قال : « هو آمن » . قال : يارسول الله ، فأعطنى آية يعرف بها أمانك ، فأعطاه رسول الله ﷺ عمامته التى دخل بها مكة، فخرج بها عمير حتى أدركه ، وهو يريد أن يركب البحر، فقال : يا صفوان فداك أبى وأمى ، الله الله فى نفسك أن تهلكها . فهذا أمان من رسول الله ﷺ قد جئتك به . قال : ويحك . اغرب عنى فلا تكلمنى . قال ـ أى صفوان ـ : فداك أبى وأمى ،

أفضل الناس ، وأبر الناس ، وأحلم الناس ، وخير الناس ، ابن عمك ، عزُّه عِزك ، وشرفه شرفك ، وملكه ملكك . قال : إنى أخافه على نفسى . قال : هو أحلم من ذلك وأكرم ، فرجع معه حتى وقف به على رسول الله ﷺ ، فقال صفوان : إن هذا يزعم أنك أمنتنى ، قال : « صدق » . قال : فاجعلنى فى الخيار شهرين . قال: « أنت بالخيار أربعة أشهر »)[1].

لقد بقى عمير رضي الله عنه ينتظر الفرصة المواتية ليضم الطاقة المذخورة القيادية صفوان حتى جاء أوانها المناسب ، وصاروا من رجالات الإسلام الكبرى فى التاريخ بعد أن كان من الممكن أن ينتهوا من القادة الطغاة فى التاريخ . إنه إمام المربين الذى يتعامل مع أعماق القلوب لا مع مظاهر السلوك . وهو الذى يسعى ليحيى هذه النفوس بالإسلام عوضًا عن أن يقتلها لحربها للإسلام ، وندع الحديث عن إسلام صفوان لوقته المناسب إنما عرضنا معه لنتابع مدرسة التربية العظيمة فى أسرى بدر ، وهى التى قادت عميراً ليتعلل بفداء ابنه ، فألقت به فى بؤرة النور ، مع ابنه الذى أسلم كذلك بعد .

٧ ـ العلم خير من المال :

ولا ننسى أخيرًا تلك الفدية العظيمة لمن لم يملك المال ، وكان يملك القراءة والكتابة أن يفدى نفسه بتعليم عشرة من غلمان المدينة القراءة والكتابة، فقد كانت خطة تربوية لنشر وسيلة المعرفة من القراءة والكتابة فى يثرب عاصمة الإسلام ، وكان من ثمار هذه الخطة : زيد بن ثابت الذى أوكل إليه على ضوئها معرفة أسرار التوراة ، وتعلم العبرية بعد العربية ، ثم أوكل إليه فيما بعد حفظ أسرار القرآن ، حيث كلف بجمعه كلّه من صدور الحفاظ بأمر أبى بكر رضي الله عنه وكان هذا من آثار مدرسة التربية عند الأسرى والتى رعاها إمام المربين ـ صلوات الله وسلامه عليه .

١ ـ ظهور النفاق والمنافقين (المدينة بعد بدر) :

أ ـ قال محمد بن عمرو الأسلمى : ثم مضى رسول الله ﷺ حتى دخل المدينة قبل الأسارى بيوم واحد مؤيدًا منصورًا، قد خافه كل عدو له بالمدينة وحولها ، فأسلم بشر كثير من أهل المدينة ، وحينئذ دخل عبد الله بن أبى بن سلول فى الإسلام ظاهرًا وقالت اليهود : تيقنا أنه النبى الذى نجد نعته فى التوراة.

ودخل رسول الله ﷺ من ثنية الوداع . قال فى الإمتاع : دخل رسول الله ﷺ

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٨٦/٤ .

المدينة رجوعه من بدر يوم الأربعاء الثانى والعشرين من رمضان[1] .

ب ـ قال ابن إسحاق : ثم مضى رسول الله ﷺ حتى قدم المدينة قبل الأسارى بيوم[2] .

جـ ـ (. . . وكان النبى ﷺ يتأول العفو ما أمره الله به، حتى أذن الله فيهم، فلما غزا رسول الله ﷺ بدراً ، فقتل به صناديد كفار قريش ، قال ابن أبى سلول ومن معه من المشركين وعبدة الأوثان : هذا أمر قد توجه . فبايعوا الرسول ﷺ على الإسلام فأسلموا . . .)[3] .

٢ ـ مقتل عصماء بنت مروان :

فى بعث عمير بن عدى الخطمى رضى الله تعالى عنه لخمس ليالٍ بقين من رمضان من السنة الثانية إلى عصماء بنت مروان من بنى أمية بن زيد ، زوج يزيد بن زيد بن حصن الخطمى ، وكانت تعيب الإسلام ، وتؤذى رسول الله ﷺ وتقول الشعر ، وكانت تطرح المحايض فى مسجد بنى خطمة ، فأهدر رسول الله ﷺ دمها . فنذر عمير ابن عدى لئن رجع رسول الله ﷺ من بدر إلى المدينة ليقتلنها ، فلما رجع رسول الله ﷺ من بدر جاء عمير ليلاً حتى دخل عليها بيتها ، وحولها نفر من ولدها نيام ، منهم من ترضعه فى صدرها ، فجسَّها بيده وكان ضرير البصر . فنحَّى الصبى عنها ، ووضع سيفه على صدرها حتى أنفذه من ظهرها .

وروى ابن عساكر فى ترجمة أحمد بن أحمد البلخى ،من تاريخه عن ابن عباس ـ رضى الله تعالى عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال : «ألا رجل يكفنا هذه »[4] ؟ فقال رجل من قومها : أنا فأتاها وكانت تمَّارة . فقال لها : أعندك أجود من هذا التمر ؟ قالت : نعم ، فدخلت إلى بيت لها . وانكبت لتأخذ شيئا فالتفتُ يمينًا وشمالاً فلم أر أحدًا فضربت برأسها حتى قتلتها . ثم أتى المسجد فصلى الصبح مع رسول الله ﷺ . فلما انصرف نظر إليه رسول الله ﷺ وقال : « أقتلت ابنة مروان ؟ » قال : نعم فهل علىَّ فى ذلك من شىء ؟ فقال رسول الله ﷺ : « لا ينتطح فيها عنزان » ، فكانت هذه الكلمة أول ما سمعت من رسول الله ﷺ وقال : « إذا أحببتم أن تنظروا إلى رجل نصر الله عز وجل ورسوله فانظروا إلى عمير بن عدى » .

---

(١) سبل الهدي والرشاد للإمام الصالحى ٤/٩٨ . (٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٣٤٨ .
(٣) البخارى ك ٦٥ تفسير القرآن ، ب ١١ ، سورة آل عمران ج ٦ / ص ٤٩ .
(٤) وعند ابن هشام : ألا آخذ لى من ابنة مروان . السيرة ج٤ .

فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : انظروا إلى هذا الأعمى الذى يسرى فى طاعة الله . فقال رسول الله ﷺ : « لا تقل الأعمى ولكن البصير » . فلما رجع عمير وجد بنيها فى جماعة يدفنونها . فقالوا : يا عمير أنت قتلتها ؟ قال : (نعم فكيدونى جميعًا ثم لا تنظرون ، « والذى نفسى بيده لو قلتم بأجمعكم ما قالت لضربتكم بسيفى هذا حتى أموت أو أقتلكم »، فيومئذ ظهر الإسلام فى بنى خطمة . وكان يستخفى بإسلامه فيهم من أسلم ، فكان أول من أسلم من بنى خطمة: عمير بن عدى ، وهو الذى يدعى القارئ) [1] .

٣ ـ مقتل أبى عفك اليهودى :

فى بعثه ﷺ سالم بن عمير ـ رضى الله تعالى عنه ـ فى شوال[2] من السنة الثانية إلى أبى عفك اليهودى من بنى عمرو بن عوف ، وكان شيخًا كبيرًا قد بلغ مائة وعشرين سنة ، وكان يحرِّض على رسول الله ﷺ ،ويقول الشعر ،فقال رسول الله ﷺ : « من لى بهذا الخبيث » فقال سالم بن عمير ، وكان قد شهد بدرًا والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وأحد البكائين وتوفى فى خلافة معاوية : (علىَّ نذر أن أقتل أبا عفك أو أموت دونه) . فأمهل يطلب له غِرَّةً ، فلما كانت ليلة صائفة نام أبو عفك بفناء منزله، وعلم به سالم بن عمير ، فأقبل ووضع السيف على كبده ، ثم اعتمد عليه حتى خشَّ فى الفراش، وصاح عدو الله فثاب إليه ناس ممن نجم نفاقهم وهم على قوله ، فأدخلوه منزله فقبروه فقالت أمامة المريدية :

تُكذِّبُ دين الله والمرء أحمدا ... لعمر الذى أمناك أن بئس ما يمنى
حباك حنيف آخر الدهر طعنة ... أبا عفك خذها على كِبَر السن[3]

٤ ـ فى غزوة بنى قينقاع :

وهم قوم عبد الله بن سلام وكانت يوم السبت للنصف من شوال ، على رأس عشرين شهرًا من مهاجره ﷺ ، وكانوا حلفاء عبد الله بن أبى بن سلول، وعُبادة بن الصامت ، وغيرهما من قومهما ، وكانوا أشجع يهود وهم صاغة ، وقد كانت الكفار بعد الهجرة مع النبى ﷺ على ثلاثة أقسام : قسم وادعهم على ألا يحاربوه ولا يوالوا عليه عدوًا ، وهم: طوائف اليهود الثلاثة : قريظة، والنضير، وبنو قينقاع . وقسم

---

(١) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحى ٤/ ٣٦ .
(٢) وكان ذلك فى اثنين وعشرين من شوال كما ذكر الواقدى .
(٣) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحى.٤/ ٣٨ .

حاربوه ونصبوا له العداوة ، وهم : قريش ، وقسم تاركوه وانتظروا ما يؤول إليه أمره كطوائف من العرب ، فمنهم من كان يحب ظهوره فى الباطن كخزاعة ، وبالعكس كبنى بكر ، ومنهم من كان معه ظاهرًا ومع عدوّه باطنًا وهم المنافقون .

ولما قدم النبى ﷺ المدينة مهاجرًا ، وادعته يهود كلها، وكتب بينه وبينهم كتابًا، وألحق كل قوم بحلفائهم وجعل بينه وبينهم أمانًا. وشرط عليهم شروطًا منها : ألا يظاهروا عليه عدوًا ، فلما كان يوم بدر كان بنو قينقاع أول يهود نقضوا العهد، وأظهروا البغى والحسد وقطعوا ما كان بينهم وبين رسول الله ﷺ من العهد ، فجمعهم بسوق بنى قينقاع وقال : « يا معشر يهود أسلموا ، فوالله إنكم لتعلمون أنى رسول ﷺ ؛ يا معشر يهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة فأسلموا ، فإنكم قد عرفتم أنى مرسل ، تجدون ذلك فى كتابكم ، وعهد الله إليكم » قالوا : يا محمد إنك ترى أنا مثل قومك ؟! لا يغرنك أنك لقيت قومًا لا علم لهم بالحرب ، فأصبت منهم فرصة. إنا والله لئن حاربتنا ، لتعلمنَّ أنا نحن الناس .

قال ابن عباس فيما رواه ابن إسحاق : ما أنزلت هذه الآيات إلا فيهم: ﴿ **قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ . قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾ أى : أصحاب بدر من أصحاب رسول الله ﷺ : ﴿ **وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ** ﴾(١) فبينما هم على ما هم عليه من إظهار العداوة ونبذ العهد ، قدمت امرأة من العرب بِجَلَبٍ لها ،فباعت بسوق بنى قينقاع وجلست إلى صائغ بها لحلى ، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فلم تفعل، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها من ورائها فخلّه بشوكة وهى لا تشعر. فلما قامت بدت عورتها فضحكوا منها ، فصاحت ، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ وكان يهوديًا فقتله . وشهدت اليهود على المسلم فقتلوه ، ونبذوا العهد إلى النبى ﷺ ، واستصرخ فى أهل المسلم المسلمين على اليهودى ، وغضب المسلمون فوقع الشر بينهم وبين بنى قينقاع .

وأنزل الله تعالى : ﴿ **وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ** ﴾ (٢) فقال ﷺ : « إنما أخاف من بنى قينقاع » . فسار إليهم رسول الله ﷺ لهذه الآية ، وحمل لواءه : حمزة بن عبد المطلب ، وكان أبيض .

قال ابن سعد : ولم تكن الرايات يومئذ ، واستخلف على المدينة أبا لبابة بن عبد

---

(١) آل عمران/ ١٢ ، ١٣ .　　(٢) الأنفال/ ٥٨ .

المنذر، فتحصنوا فى حصنهم فحاصرهم أشد الحصار ، فأقاموا على ذلك خمس عشرة ليلة ، حتى قذف فى قلوبهم الرعب ، فنزلوا على حكم رسول الله ﷺ على أن لرسول الله ﷺ أموالهم ، وأن لهم النساء والذرية . فأمر بهم فكتبوا واستعمل على كتابهم المنذر بن قدامة السلمى ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله ﷺ ، وكان لهم من حلفه مثل الذى لهم من عبد الله بن أبى بن سلول ، فجعلهم إلى رسول الله ﷺ ، وتبرأ إلى الله تعالى ورسوله من حلفهم وقال : يا رسول الله ! أتولى الله ورسوله والمؤمنين ، وأبرأ من حلف هؤلاء الرجال، فقام إلى رسول الله ﷺ عبد الله بن أبى بن سلول حين أمكنه الله منهم. فقال : يا محمد أحسن فى مواليّ ، وكانوا حلفاء الخزرج، فأبطأ عليه رسول الله ﷺ فقال : يا محمد أحسن فى مواليّ فأعرض عنه . فأدخل يده فى جيب درع رسول الله ﷺ من خلفه ـ وكان يقال لها :الفضول ـ فقال له رسول الله ﷺ : « ويحك أرسلنى » وغضب رسول الله ﷺ حتى رأوا لوجهه ظللاً ، ثم قال : « ويحك أرسلنى ». قال : والله لا أرسلك حتى تحسن فى مواليّ : أربعمائة حاسر ، وثلاثمائة دارع . قد منعونى الأحمر والأسود من الناس تحصدهم فى غداة واحدة ، إنى والله امرؤ أخشى الدوائر . فقال ﷺ : « خلوهم لعنهم الله ولعنه معهم» وتركوهم من القتل ، وأمر بهم أن يجلوا من المدينة ، فخرجوا بعد ثلاث ، وولى إخراجهم منها عبادة بن الصامت ، وقيل : محمد بن مسلمة ، ولحقوا بأذرعات ، فما كان أقل بقاءهم فيها .

وأنزل الله تعالى فى شأن عبد الله بن أبى ، وفى شأن عبادة بن الصامت : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ** . . . ﴾ ﴿ **فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ** . . . ﴾ أى عبد الله بن أبى وقوله : إنى أخشى الدوائر : ﴿ **يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ** . . . ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا** . . . ﴾ وذلك لتولى عبادة بن الصامت الله ورسوله والذين آمنوا ، وتبرئه من بنى قينقاع وحلفهم وولايتهم : ﴿ **وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ** ﴾ (١) (٢).

٥ ـ بناؤه ﷺ بعائشة :

(تزوجها نبى الله قبل مهاجره بعد وفاة الصدِّيقة خديجة بنت خويلد ، وذلك قبل

---

(١) المائدة / ٥١ ـ ٥٦ .

(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٤/ ٢٦٨ .

الهجرة ببضعة عشر شهراً ، وقيل : بعامين . ودخل بها فى شوال سنة اثنتين منصرفه ـ عليه الصلاة والسلام ـ من غزوة بدر وهى ابنة تسع)[1] .

وعن عروة عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت :تزوجنى رسول الله ﷺ فى شوال وأُدخلت عليه فى شوال ، فأى نسائه كان أحظى عنده منى ؟ وكانت تستحب أن تُدخل نساؤها فى شوال [2] .

٦ ـ بناء على بفاطمة ـ رضى الله عنهما :

عن عبد الله بن محمد بن عمر بن على عن أبيه قال : تزوج على بن أبى طالب فاطمة بنت رسول الله ﷺ فى رجب بعد مقدم النبى ﷺ المدينة بخمسة أشهر ، وبنى بها مرجعه من بدر ، وفاطمة يوم بنى بها على بنت ثمانى عشرة سنة [3] .

وقال الذهبى :(مولدها قبل المبعث بقليل، وتزوجها الإمام على بن أبى طالب فى ذى القعدة أو قبيله من سنة اثنتين من وقعة بدر) [4] .

٧ ـ غزوة السويق [5] :

وسببها : أن فلَّ المشركين[6] لما رجعوا إلى مكة محزونين حرَّم أبو سفيان على نفسه الدهن ، ونذر ألا يمس رأسه ماءً من جنابة حتى يثأر من رسول الله ﷺ وأصحابه بمن أصيب من المشركين يوم بدر ، فخرج فى مائتى راكب من قريش ليبر بيمينه ، فسلك النجدية حتى نزل بصدر قناة إلى جبل يقال له: تبيب بالمدينة على بريد أو نحوه، ثم خرج من الليل حتى أتى بنى النضير تحت الليل، فأتى حيى بن أخطب فضرب عليه بابه ، فأبى أن يفتح له وخافه ، فانصرف عنه إلى سلام بن مشكم وكان سيد بنى النضير فى زمانه ذلك وصاحب كنزهم ، فاستأذن عليه فأذن له ، فقراه [7] وسقاه ، وبطن له من خبر الناس ، وخبر رسول الله ﷺ ، ثم خرج فى عقب ليلته حتى أتى أصحابه ، فبعث رجلاً من قريش ، فأتوا ناحية منها يقال لها: العُريض ، فحرَّقوا فى أصوار من نخل بها ، ووجدوا رجلاً من الأنصار وحليفًا له فى حرث لهما فقتلوهما .

قال فى الإمتاع : وهذا الأنصارى هو : معبد بن عمرو ، ورأى أبو سفيان أن يمينه قد حلَّت ، وقيل : إن أبا سفيان فعل ذلك لما رجع فى ليلته من عند سلام بن

(١) سير أعلام النبلاء ٢/ ١٣٥ .
(٢) الطبقات الكبري لابن سعد ٨/ ٦٠ .
(٣) المصدر نفسه ٨ / ٢٢ .
(٤) سير أعلام النبلاء ٢/ ١١٩ .
(٥) السويق : قمح أو شعير يقلى ثم يطحن فيتزود ويستف ناره بما يثرى به أو بسمن أو بعسل وسمن .
(٦) فل المشركين : القوم المنهزمون .
(٧) قراه : أضافه .

مشكم ، وانصرفوا راجعين ونذر بهم الناس ، فخرج رسول الله ﷺ فى طلبهم يوم الأحد، الخامس من ذى الحجة على رأس اثنتين وعشرين شهراً فى مائتين من المهاجرين والأنصار ، وفى الإشارة: ثمانين ، وجمع بأن الركبان ثمانون وعامة الجيش مائتان ، واستعمل على المدينة بشير بن عبد المنذر، حتى بلغ قرقرة الكُدْرِ ، وجعل أبو سفيان وأصحابه يتخففون للهرب فيلقون جُرُب السويق وهى عامة أزوادهم ،فيأخذها المسلمون، فسمِّيت غزوة السويق ، ولم يلحقوهم ، وانصرف رسول الله ﷺ راجعًا إلى المدينة ،وكان غاب خمسة أيام،وقال المسلمون لرسول الله ﷺ حين رجع بهم: يا رسول الله ، أتطمع أن تكون لنا غزوة ؟ قال : « نعم »[1] .

خط جديد من خطوط التربية الجهادية برز بعد بدر أو قبيلها هو: الحث على القضاء على أعداء الإسلام بمبادرات فردية وليس تكليفًا محددًا لشخص بعينه ، فأمام مواقف عصماء بنت مروان العدوة اللدودة التى تتحدى الله ورسوله ، والتى بلغ من فحشها أن تقول :

فباست[2] بنى مالك والبيت … وعوف وباست بنى الخزرج
أطعتم أتاوى[3] من غيركم … فلا من مراد ولا مذحج
ترجّونه بعد قتل الرؤوس … كما يرتجى مرق المنضج
الا أنفٌ يبتغى عِزة … فيقطع من أمل المرتجى

أمام مواقفها، وحضها الخزرج على قتل النبى ﷺ غِرةً ، وإلقائها المحايض فى مسجد بنى واقف قال ـ عليه الصلاة والسلام : « الا آخذ لى من ابنة مروان » .

وكان نذر عمير بن عدى ، لئن رجع رسول الله ﷺ من بدر إلى المدينة ليقتلنها ، والغريب أن عميراً رضي الله عنه كان ضريراً ولم يشهد بدراً لضرارته ، ولكن قلبه الحى لم يقبل هذا التحدى من هذه المرأة الشرسة ، وعاد رسول الله ﷺ إلى المدينة، ووفى بنذره حيث دخل عليها فقتلها وحولها أبناؤها، وعاد فصلى الفجر مع رسول الله صلوات الله عليه. إنه خشى أن يستأذن فلا يؤذن له لشخصه . فاكتفى بالإذن العام الذى أهدر دمها ، وحث المسلمين على تنفيذ هذه المهمة . فنحن أمام طراز من الرجال الفدائيين الذين ملأ الإسلام عليهم قلوبهم وحياتهم ، والذين يملكون من الشجاعة ما

(١) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحى ٢٥٨/٤ ، ٢٥٩ ، وقد أوردها ابن إسحاق بإسناد صحيح إلى عبد الله بن كعب بن مالك، لكنه مرسل. (السيرة ٣ / ٦٥ - ٦٧) انظر: السيرة النبوية الصحيحة للدكتور أكرم العمرى ٢/ ٣٧٤ .

(٢) الاست : الدبّر .

(٣) الأتاوى : الغريب.

يتحدون بها أهل الأرض . فهؤلاء أولادها يقولون له : يا عمير أ أنت قتلتها ؟ فقال : نعم﴿ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ ﴾ (١) والذى نفسى بيده لو قلتم بأجمعكم ما قالت لضربتكم بسيفى هذا حتى أموت أو أقتلكم .

إن هذا الضرير الذى عذره الله تعالى على رأس من عذرهم فقال جل شأنه : ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ (٢). لم يمنعه هذا العذر أن ينتصر لله ولرسوله، ويتحدى قبيلته كلها فى قتل هذه الطاغية العاتية ، ويمضى إلى إمام المربين ـ عليه الصلاة والسلام ـ لا ليدل ببطولته ، ويتغنى بالأشعار فخراً و خيلاء بذلك وهو الشاعر الموهوب ـ كما تقول الروايات الصحيحة ـ إنما مضى ليرى رأى نبيه فيما فعل .

كم هو هذا الانقلاب الهائل الذى صنعه الإسلام بهذه النفوس حين كانت تذبح على معبد الشهرة والمجد ، وإذا هو الآن تلميذ بين يدى نبيه ﷺ .

ـ « أقتلت ابنة مروان ؟ » .

ـ نعم فهل علىَّ فى ذلك من شىء ؟

ـ « لا ينتطح فيها عنزان»(٣) .

وبعد أن تأكد من إقرار موقفه من قيادته ، عاد إلى قبيلته ، ليتحداهم جميعًا ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ﴾ (٤) ولم نسمع له شعراً يتغنى به بمجده هذا ، إنما تكفل حسان بن ثابت رضي الله عنه شاعر الإسلام أن يسجل هذا المجد له فقال :

بنـو وائـل وبنـو واقـف ... وخطمة دون بنى الخزرج
متى ما دعت سُفَهًا ويحها ... بِقَولتــها والمنـايـا تجـى
فهزَّت فتىً ماجـدًا عِرقُـه ... كريـم المداخـل والمخـرج
فضرَّجها من نجيع الدمـاء ... بعــد الهـدوِّ فلم يحــرج

ولم يكن الأمر مجرد إجازة لهذا البطل ، بل كان هناك ثناءٌ عظيمٌ عليه من قائده ـ عليه الصلاة والسلام :

« إذا أحببتم أن تنظروا إلى رجل نصر الله عز وجل ورسوله فانظروا إلى عمير بن

---

(١) هود / ٥٥ . (٢) النور / ٦١ .

(٣) كانت هذه الكلمة أول ما سمعت من رسول الله ﷺ ، ومعناها كما شرحها ابن الأثير فى النهاية : لا يلتقى فيها اثنان ضعيفان ؛ لأن النطاح من شأن التيوس والكباش لا العنوز ، وهى إشارة إلى قضية مخصوصة لا يجرى فيها خلف ونزاع .

(٤) هود / ٥٥ .

عدى » . وكان تربية عظيمة لشباب الجيل كله فى أن يتسابق فى نصرة الله عز وجل .

وسُرَّ الجيل كله بهذا النصر ، حيث عبَّر عنه قول عمر ﷺ : انظروا إلى هذا الأعمى الذى يسرى فى طاعة الله تعالى . فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: « لا تقل الأعمى ولكن البصير » .

وقد غيَّرت هذه البطولة واقعًا كاملاً فى بنى خطمة . حيث (فيومئذ ظهر الإسلام فى بنى خطمة ، وكان يستخفى بإسلامه فيهم من أسلم فكان أول من أسلم عمير بن عدى) .

لقد قاد عمير الإسلام فى بنى خطمة ، وحطم أسطورة بنت مروان ، وكان القارئ الإمام الشاعر الفدائى .

وفى أقل من خمسة عشر يومًا ، كان العدو الثانى أبو عفك يسقط مضرجًا بدمائه على يد سالم بن عمير البدرى ﷺ فى بنى عمرو بن عوف، الذى كان يحرض على رسول الله ﷺ ويقول الشعر .

ولئن تكفَّل حسان ﷺ بالحديث عن ثائرة عمير ، فقد تكفلت أمامة المريدية بالحديث عن ثائرة ابن عمير . فقالت فى مقتل أبى عفك :

تكذِّب دين الله والمرء أحمدا	لعمر الذى أمناك أن بئس ما يمنى
حباك حنيف آخر الليل طعنة	أبا عفـك خذهـا على كبـر السـن

وبمقتل أبى عفك ، ومقتل ابنة مروان ، تـم تطهير الجيوب داخل المدينة ، والتى يمكن أن تشكل بؤر مواجهه ضد الإسلام ، والتى أرادت أن تشعلها فتنة داخلية ، ضد الإسلام ودولته ، حيث نكثت العهد ، وأعلنت الخيانة والانحياز للصف المشرك ، وابتدأت المواجهة ضد الإسلام متحدية سلطانه ودولته .

غدر بنى قينقاع ومواجهتهم :

كان أكبر حدث بعد وصول رسول الله ﷺ إلى المدينة هو: دخول عبد الله بن أبى فى الإسلام ، فهو قائد المعارضة فى المدينة ، وهو الذى اختارته قريش ليقود ثورة المواجهة الأولى للإسلام فى المدينة ، وتم القضاء عليها بحكمة وروية دون إراقة دماء ، وهو الملك المرشح لقيادة المدينة قبل وصول رسول الله ﷺ .

وخشى عبد الله بـن أبى أن ينظر حولـه فـلا يـرى أحدًا مـن أتباعـه إذ أن خط الانضمام إلى الإسلام ماضٍ فى وتيرة عالية ، وتصاعد مستمر ، وخاصة بعد نصر بدر،

ورأى أنه لا يمكن أن يمسك بزمام الأمر ، ويحتفظ بزعامته وجنوده، إلا بالانضمام إلى الإسلام، ومثل خطًا جديدًا فى الصف الإسلامى سرعان ما ظهرت آثاره . وفى أقل من شهر من خلال المواجهة مع بنى قينقاع حلفائه السابقين ، فقد كان الأمر تغطية سياسية على اتفاق سرى تم بينه وبين حلفائه من يهود بنى قينقاع على أن ينقضوا العهد، ويواجهوا محمدًا ﷺ ، وسيكون هو وحزبه معهم فى هذه المواجهة .

وكانت بنو قينقاع أشجع يهود ، فلما كان يوم بدر كان بنو قينقاع أول يهود نقضوا العهد ، وأظهروا البغى والحسد ، وقطعوا ما بينهم وبين رسول الله ﷺ .

ولابد أن ينبذ إليهم عهدهم على سواء أمام تلك التصريحات والمواقف التى يعلنونها فى الرغبة فى المواجهة والإصرار على التحدى ، ولم يكن فى خطة النبى ﷺ أى مواجهة داخلية ، وكان المفروض أن يعود بنو قينقاع إلى رشدهم، خاصة وقد أسلم سيدهم عبد الله بن سلام منذ الأيام الأولى للدعوة ، وإذا كان حسهم الغليظ ، ونزعتهم المادية قد نزعت من قلوبهم هتاف الإيمان ورفرفة الروح ، فقد كان فى بدر ما يعظهم أبلغ موعظة من خلال النصر الحاسم الذى تحقق فيها،وحتى تقوم عليهم الحجة، قال لهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ ما قال له ربه : ﴿ **قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ . قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ** ﴾ (١) .

وقال لهم كذلك بعد أن جمعهم بسوق بنى قينقاع : « يا معشر يهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة ، فأسلموا ، فإنكم قد عرفتم أنى نبى مرسل تجدون ذلك فى كتبكم ، وعهد الله إليكم » .

فقالوا : يا محمد ، إنك ترى أنا مثل قومك ، لا يغرَّنك أنك لقيت قومًا لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة ، إنا والله لئن حاربتنا لتعلمنَّ أنا نحن الناس .

وأمام التحدى واستعراض القوة ، كانت سرعة المبادرة الخاطفة بحيث لا تستكمل بنو قينقاع استعدادهم وأهبتهم ـ وهم أشجع يهود ـ وبحيث لا يمكنون من التفاوض وضم حلفاء جدد لهم مثل: بنى النضير، أو بنى قريظة وتوسيع نطاق المعركة داخل المدينة وخارجها، وطالما أنه لابد من الحرب فلتكن المباغتة لهم قبل أن يجيشوا الجيوش، ويُعدُّوا للمواجهة (فاستخلف على المدينة أبا لبابة بن عبد المنذر ، فتحصنوا فى حصنهم، فحاصرهم أشد الحصار ، فأقاموا على ذلك خمس عشرة ليلة ، حتى قذف

---

(١) آل عمران / ١٢ ، ١٣ .

الله فى قلوبهم الرعب ، فنزلوا على حكم رسول الله ﷺ على أن لرسول الله ﷺ أموالهم ، وأن لهم النساء والذرية ، فأمر بهم فكتِّفوا ، واستعمل على كتافهم المنذر بن قدامة السَّلمى) .

لقد أنهت سرعة المبادرة المعركة ،وقضت على أشجع اليهود،الذين تحدوا بقولهم : (ولئن لقيتنا لتعلَمنَّ أنا نحن الناس) وتحدوا بخبرتهم الحربية والقتالية: ولقد لقيت قومًا لا علم لهم بالحرب .

إننا ونحن نستعرض غزوة بنى قينقاع ، نستعيد إلى الذاكرة حرب حزيران عام ١٩٦٧ حيث انقلبت الآية تمامًا ، فقد كان العرب هم الذين يعلنون التحدى ، وكانت أبواق العرب تنطلق من كل إذاعة ، وأطنان الصحف والمجلات تريد أن ترمى باليهود فى البحر ، وكان أبواق العرب المحادين لله ولرسوله ، تريد أن تحطم اليهود باسم الاشتراكية وباسم العلمانية، حتى ليخرج قبل شهر فقط من حرب حزيران مقال المجلة الشهير فى سورية الذى يقول : إن الله والدين أصنام فى متحف التاريخ .

هؤلاء الذين مثلوا يهود بنى قينقاع فى حربهم لله ولرسوله ، وهم يعلمون أنه الحق، وسيدهم عبد الله بن سلام كان أول من غمر الإيمان قلبه فآمن .

لقد التقى عرب الـ ٦٧ ، ويهود بنى قينقاع على حرب الله ورسوله ، وحرب الدعاة إلى الله، أما يهود اليوم ، فقد درسوا بعناية حرب رسول الله ﷺ معهم ، ورأوا كيف انتصر عليهم بالحرب الخاطفة ، وفى سرعة المواجهة ، وفى عنصر المباغتة، فطبقوا الأسلوب النبوى فى الحرب،وانقضوا على الطيران العربى فى دمشق،والقاهرة، وعمان فحطموا أخطر أسلحة الحرب ، وأنهو فى خمس ساعات هذا السلاح وشلوه ، وتقدموا خلال ستة أيام حتى دخلوا فلسطين بكاملها ،وأضافوا إليها سيناء والقنيطرة. وأصبحت القاهرة ودمشق وعمان تحت رحمتهم .

والأيام دول ، فقد كانت قادة يهود يعلمون أنهم يحاربون المسلمين الذين تخلوا عن دينهم، وتعلموا فن الحرب من عدوهم الأول ـ رسول الله ﷺ .

وجاءت حرب رمضان فاعتمدت الأسلوب النبوى من قبل العرب ، اعتمدت عنصر المباغتة ، فهزت الكيان الإسرائيلى وعبرت القناة، لكنها كانت حرباً مرسومة ضمن إطار العمالة للعدو ، فتوقفت عند حدودها المرسومة؛ لتمكن اليهود ثانية من تحويل نصر العرب إلى هزيمة جديدة .

﴿ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاس ﴾ (١) .

وكان يمكن أن تنتهى حرب بنى قينقاع بقتل كل فرسانهم ورجالهم ، حيث أصبحوا أسرى بيد رسول الله ﷺ يحكم فيهم كما يراه ، ولم تكن آيات أسرى بدر قد جف مدادها بعد، فلا تزال غضة طرية حية فى نفوس هذا الجيل الربانى الذى عوتب على فداء الأسرى ، وكان عليه الإثخان فى القتل حتى يتمكن فى الأرض ، وكان الاتجاه هو تطبيق هذا النص على اليهود .

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . لَوْلا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٢) .

كان يمكن لهذه الحرب أن تنتهى كما قلنا بقتل رجال بنى قينقاع ، لولا العنصر الجديد الذى دخل فى الإسلام ، والذى جاء ليغير هذا الحكم .

بروز حزب المنافقين :

ونحن بحاجة هنا لنقف رويًا عند عبد الله بن أبى الذى كان قائد المدينة وملكها المتوج قبل رسول الله ﷺ ، وكان على رأس أكبر وفود الجزيرة إلى الحج ، فقد حضر معه ثلاثمائة من الأوس والخزرج فى موكب ضخم يعلن وحدة يثرب تحت قيادته .

فكيف وصل ابن أبى إلى هذه الزعامة الشاملة ؟

لقد كان موقفه فى حرب بعاث موقفًا مشرفًا استطاع من خلاله أن يقفز إلى الزعامة الأولى فى المدينة .

(اجتمعت الخزرج حتى جاؤوا عبد الله بن أبى ، وقالوا له : قد كان الذى بلغك من أمر الأوس وأمر قريظة والنضير ، واجتماعهم على حربنا ، وإنا نرى أن نقاتلهم فإن هزمناهم لم يحرز أحد منهم معقله ولا ملجأه حتى لا يبقى منهم أحد .

فلما فرغوا من مقالتهم قال لهم عبد الله : إن هذا بغى منكم على قومكم وعقوق، والله ما أحب أن رجلاً من جراء الفيناهم ، وقد بلغنى أنهم يقولون: هؤلاء قومنا منعونا الحياة أفيمنعوننا الموت ؟ والله إنى لأرى قومًا لا ينتهون أو يهلكوا عامتهم ، وإنى لأخاف إن قاتلوكم أن ينصروا عليكم لبغيكم عليهم ، فقاتلوا قومكم كما كنتم تقاتلونهم ، فإن ولوا فخلوا عنهم . فإذا هزموكم فدخلتم أدنى البيوت خلَّوا عنكم .

---

(١) آل عمران / ١٤٠ . (٢) الأنفال / ٦٧ ، ٦٨ .

فقال له عمر بن النعمان البياضى : انتفخ والله سحرك يا أبا الحارث حين بلغك حلف الأوس وقريظة والنضير . فقال عبد الله : والله لا حضرتكم أبدًا ، ولا أحد أطاعنى أبدًا ، ولكأنى أنظر إليك قتيلاً تحملك أربعة فى عباءة .

لقد ظهر ابن أبى فى منتهى الحكمة؛ حين رفض أن يشارك فى حرب الأوس، ثم أشار على قومه إن انتصروا على الأوس ألا يجهزوا عليهم ، بل يدعونهم يفرون إلى بيوتهم، ثم استعمل الحكمة ثالثًا؛ حين رفض قتل الرهائن التى فى يديه ، وكان هذا قبل الحرب ، حيث بعثت اليهود من قريظة والنضير بأربعين رهينة من أبنائهم تأكيدًا لعدم حلفهم مع الأوس، وأراد زعيم الخزرج أن يحتل ديار بنى قريظة والنضير ؛ لجودتها . فكتب إليهم : إما أن تخلوا بيننا وبين دياركم نسكنها ، وإما أن نقتل رهنكم، فهموا أن يخرجوا من ديارهم ، فقال لهم كعب بن أسد القرظى: يا قوم ، امنعوا دياركم وخلوه يقتل الرُّهُن ، والله ما هى إلا ليلة يصيب فيها أحدكم امرأته حتى يولد له غلام مثل أحد الرهن . فاجتمع رأيهم على ذلك ، فأرسلوا إلى عمرو بألا نسلم لكم دورنا ،وانظروا الذى عاهدتمونا عليه فى رُهُننا فقوموا لنا به ، فغدا عمرو بن النعمان البياضى على رهنهم هو ومن أطاعه من الخزرج فقتلوهم ، وأبى عبد الله بن أبى ـ وكان سيدًا حليمًا ـ وقال : هذا عقوق ومأثم وبغى ، فلست معينًا عليه ، ولا أحد من قومى أطاعنى ، وخلى عمن عنده من الرهن) (١) .

ورووا أنه بينما كان عبد الله بن أبى يتردد على بغلة له قريبًا من بعاث يتجسس أخبار القوم، إذ طُلع عليه بعمرو بن النعمان ميتًا فى عباء يحمله أربعة إلى داره ، فلما رآه قال : من هذا ؟ قالوا : عمرو بن النعمان فقال : ذق وبال العقوق .

لقد استطاع عبد الله بن أبى بموقفه هذا ، وبمقتل قيادات الخزرج وبهزيمتهم أن يثبت صواب رأيه فى عدم قتال الأوس وحلفائهم قريظة والنضير، وأن البغى عاقبته وخيمة، وبرز السيد المطاع فى قومه ، كما سجل فى الوقت نفسه يدًا عند الأوس واليهود؛ بأنه لم يحاربهم ، ولم يجار قومه فى البغى عليهم، فاتجهت له الأنظار من الفريقين ليكون الرئيس المختار فى يثرب ، وتكاد تكون صورته شبيهة بصورة أبى سفيان فى مكة، فقد كان أبو سفيان واحدًا من القيادات الكبرى فى مكة ، وعندما نجت تجارة قريش فى بدر وقف قائلاً :

إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم ، فقد نجاها الله فارجعوا ، فقال أبو جهل بن هشام : والله لا نرجع حتى نرد بدرًا ، فنقيم عليه ثلاثًا ، فننحر

---

(١) أيام العرب : لمحمد جاد المولى بك وزملائه ٧٣ ، ٧٤ .

الجزر ، ونطعم الطعام ، ونُسقى الخمر ، وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا فلا يزالون يهابوننا أبدًا فامضوا .

قال أبو سفيان ذاك رأى ابن الحنظلية ، ترأس فبغى. والبغى: منقصة وشؤم، وذلك حين رأى هزيمة قومه ، وبسقوط صناديد قريش الكبار ، آلت القيادة إلى أبى سفيان بمكة حيث أصبح رئيسها غير المنازع .

ولكن ابن أبى وقد رأى أن الإسلام غزا قومه ، واتجهت القلوب كلها إلى محمد رسول الله ﷺ وقف بين أمرين أحلاهما مر ، إنه الخيار الصعب بين الدخول فى الإسلام ، والاعتراف بقيادة النبى ﷺ ، والمحافظة على رئاسته فى قومه ، وبين أن يبقى على الكفر ، وهو يرى أن قومه يمضون إلى الإسلام غير عابئين به ، وقد ينفضون عنه جميعًا ، فاختار الإسلام ، وكأنما يتجرع السم فيه لتبقى له زعامته فى قومه، ويحافظ على قيادته من التصدع .

وها هو اليوم يرى بنى قينقاع بعد أقل من شهر من دخوله فى الإسلام يعرضون على الموت ، وهم حلفاؤه فى الأصل فيجن جنونه ، ويمضى إلى رسول الله ﷺ لينقذهم من الموت ، حفاظًا على حزبه من الانهيار ، وإثباتًا لزعامته أمام قومه ، وهو يحسب الأمر كله أمر رياسة وزعامة .

كان عبادة بن الصامت رضي الله عنه سيد بنى ثعلبة بن غنم بن عوف ، وكان ممن حضر العقبة الكبرى ، وكان من النقباء الاثنى عشر ، وكان حليفًا لبنى قينقاع كما كان عبد الله ابن أبى حليفًا لهم ، وقد حضر عبادة مباحثات العقبة ، التى قطعت كل الأحلاف والعهود السابقة ؛ حيث تم فيها صراحة الحديث عن هذا الأمر وإعلانه .

(قال : فاعترض القول ـ والبراء يكلم رسول الله ﷺ ـ أبو الهيثم بن التيهان، فقال: يا رسول الله ، إن بيننا وبين الرجال حبالاً ، وإنا قاطعوها ـ يعنى اليهود ـ فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟

قال : فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال : « بل الدم الدم والهدم الهدم ، أنا منكم وأنتم منى ، أحارب من حاربتم ، وأسالم من سالمتم ») (١) .

وأصبح رسول الله ﷺ هو الرئيس الذى يعقد المعاهدات باسمه بصفته حاكم المدينة وأميرها ، وهو الذى عاهد اليهود فيها ،فليس هناك سلطة ثانية تملك هذا الحق ، ومن أجل ذلك عندما أعلن رسول الله ﷺ حربــه على بـنى قيـنقاع تقدم عبادة بن الصامت

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٩٦ .

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو أحد أعضاء حكومة الإسلام الأولى ، وأحد النقباء الاثنى عشر، وتبرأ إلى الله تعالى ورسوله من حلفهم وقال : يا رسول الله ، أتولى الله ورسوله والمؤمنين ، وأبرأ من حلف هؤلاء الرجال(١) .

أما عبد الله بن أبى فيعتبر نفسه سلطة مستقلة ، صحيح أنه دخل فى الإسلام عقيدة ، لكنه لا زال يمثل كيانًا سياسيًا مستقلاً ، فجاء إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد أحسن فى موالىَّ ، فابطأ عليه رسول الله ﷺ .

وهذا الإبطاء دليل فى التربية النبوية على رفض الطلب ، والمسلم بعدها يكف عن ذلك ، لكن الزعيم السياسى ابن أبى ، لم يترب بعد فى هذه المدرسة ، وإن انتسب إليها منذ خمسة عشر يومًا تقريبًا. فقام ثانية ، وقال : يا محمد أحسن فى موالىَّ . فأعرض عنه رسول الله ﷺ ، وهذا هو المدى الأبعد للجندى المسلم حين يرى قائده يعرض عن طلبه فيصمت إلى الأبد أدبًا مع حبيبه المصطفى ؛ لأنه يعرف أن النبى ﷺ الموحى إليه من ربه لا يقدم بين يديه بموقف، أما الرأى فقد سمع، وأدب سيد ولد آدم مع جنده الذين رباهم ألا يتجاوز الأمر الإبطاء والإعراض ليفقه الجندى فى المدرسة المحمدية رفض نبيه ﷺ لرأيه .

أما ابن أبى الزعيم السياسى الذى دخل بكل ما يحمل فى نفسه من عقد الزعامة والمنصب والشهرة لن يقف عند هذا الحد .

فأدخل يده فى جيب درع رسول الله ﷺ من خلفه، فقال له رسول الله ﷺ: «ويحك أرسلنى » ، وغضب رسول الله ﷺ حتى رأوا فى وجهه ظللاً .

ورسول الله ﷺ وهو النبى المصطفى ، لم يضطر لهذا الموقف أبدًا فى المدينة منذ أن وطئها ، فالتربية التى تلقاها الجيل المسلم ، لا تعرف إلا الانضباط التام للقائد الأعظم ﷺ، ولم تشهد أحدًا يضع يده فى درع رسول الله ﷺ، ويتمادى فى ذلك حتى يضطر سيد الخلق لأن يقول له : « ويحك أرسلنى » ، ويغضب منه لذلك .

قال : والله لا أرسلك حتى تحسن فى موالى : أربعمائة حاسر ، وثلاثمائة دارع ، قد منعونى من الأحمر والأسود تحصدهم فى غداة واحدة. إنى والله امرؤ أخشى الدوائر .

وها هو سيد الخلق بين موقفين :

موقف يزجر فيه ابن أبى ، فيجله على المحاكمة ، أو يأمر بقتله لتجاوزه الحدود

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٤/ ٢٦٧ .

كلها ، وإعلانه قيادة جديدة وحلفًا خاصًا به من دون المسلمين ، ووراءه من وراءه من قومه ، وتنقسم المدينة إلى حرب أهلية يضيع فيها الحق ، فكثيرون من الذين دخلوا فى الإسلام بعد بدر لم تتضح فى أذهانهم بعد حقيقة هذا الإسلام ، إنما دفعهم الخوف أو الانبهار بالنصر إلى الانضمام لهذا الدين الجديد ، وهؤلاء سيقفون وراء ابن أبى لو وقعت الحرب .

وبين أن يفضى ـ عليه الصلاة والسلام ـ عنه ، وهو الذى لم يقل: لاقط لأحد بما يتناسب مع مقام النبوة العظمى ، ويعالج الموقف بعد ذلك ، فقال ﷺ : «خلوهم لعنهم الله ولعنه معهم » .

ورأى ابن أبى أنه قد حقَّق النصر الأكبر واعتُرف بزعامته ، حيث قُبِل طلبُه، ولم يعترف لمثله بذلك ، غير أن إمام المربين عليه الصلاة والسلام لم تفته أبعاد هذا الموقف، ولن يقبل أن يقيم ابن أبى دولة داخل دولة الإسلام ، على أكتاف بنى قينقاع ، وأتباعه الذين يدينون بزعامته ، إنها أكبر قضية واجهت الدولة الجديدة منذ أن قامت ، فالمواجهة السابقة التى قادها ابن أبى وهو على شركه ، سرعان ما انتهت بقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: « والله ما كانت قريش لتكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم ، تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم » فلما سمعوا ذلك من النبى ﷺ تفرقوا [1] .

وبقى تجمع ابن أبى يتناقص بعدها ، لكنه على رأس الكفر ، فخطره بيِّن واضح ، ولن يتأثر به من المسلمين أحد، أما الآن فهو إعلان حزب جديد تحت الراية الإسلامية يضم اليهود والمسلمين على رأسه عبد الله بن أبى ، ومن أجل هذا اتخذ رسول الله ﷺ الإجراء الحاسم الذى يهدم هذا الكيان؛ حيث أمر بإجلاء بنى قينقاع عن المدينة ، وصحيح أن مقام النبوة الأعظم لا يرفض طلب ابن أبى اللجوج الأشر ، لكن هذا لن يكون على حساب الدولة الفتية ، ولن يكون على حساب التربية النبوية ، والتى يتربى عليها الجيل الأرشد فى هذا الوجود ، وبعملية إجلائهم يكون الهدف الرئيسى لابن أبى قد تحطم ، وهو بقاء بنى قينقاع ليمنعوه الأحمر والأسود من الناس. وقد يمنعوه غدًا من رسول الله ﷺ . وبقاؤهم؛ لأنه يخشى الدوائر فى المستقبل . فمن ينصره من عدوه ؟ ومن يحميه من خصومه ؟

وعملية الإجلاء هى التى تنهى هذا الاتجاه كله ، واختار ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى تربيته العظيمة الخالدة عبادة بن الصامت ليقود هذه العملية ، عبادة الذى له من

---

(١) سنن أبى داود : كتاب الخراج والإمارة والفىء ، باب خبر بنى النضير ٣/١٥٦ رقم (٣٠٠٤) .

الحلف ما لعبد الله بن أبى ، وذلك لتعلم بنو قينقاع أن الإسلام قد قطع كل الحبال السابقة ، فحليفهم الثانى الذى يتوقعون منه الشفاعة فى إبقائهم فى المدينة ، هو الذى يقودهم خارجها ؛ لأنه تبرأ من حلفهم وتولى الله ورسوله وجماعة المؤمنين ، فهو عضو فى حزب الله اليوم ، وليس حليفًا ليهود ضد الأوس كما كان من قبل ، وحزب الله الذى صنع خلال هذين العامين ، هو من الأوس والخزرج والمهاجرين ، وعلى رأسه رسول الله ﷺ.

ومع ذلك ، فقد أراد ابن أبى أن يهتبل الفرصة ، وكما نجحت وساطته فى الإبقاء على حياتهم فليمض وساطته فى الإبقاء عليهم داخل المدينة ، فهذا هو الذى يحقق هدفه ، وعرف أن خروجهم صفعة قوية له ولمركزه ، فماذا حقق إن أجلى عن المدينة بنو قينقاع الذين منعوه الأحمر والأسود من الناس ؟! وستدور الدوائر عليه فى المستقبل حين يفقد هذا الحليف القوى .

(فجاء ابن أبى بحلفائه معه ، وقد أخذوا بالخروج، يريد أن يكلم رسول الله ﷺ أن يقرهم فى ديارهم ، فيجد على باب النبى ﷺ عويم بن ساعدة ، فذهب ليدخل ، فردَّه عويم وقال : لا تدخل حتى يؤذن رسول الله ﷺ لك . فدفعه ابن أبى فغلظ عليه عويم حتى جمش وجه ابن أبى الجدار، فسال الدم. فتصايح حلفاؤه من يهود فقالوا : أبا الحباب ، لا نقيم بدار أبدًا أصاب وجهك فيها هذا، لا نقدر أن نغيّره ، فجعل ابن أبى يصيح عليهم وهو يمسح الدم عن وجهه يقول: ويحكم قرُّوا ! فجعلوا يتصايحون : لا نقيم أبدًا بدار أصاب وجهك فيها هذا لا نستطيع له غيراً)[1] .

لقد صُدَّ ابن أبى عن باب رسول الله ﷺ وجمش وجهه ، وحيل بينه وبين الدخول؛ كى يطلب إبقاء اليهود فى ديارهم ، وأصبح مهيض الجناح بذهابهم ، لكن جناحه الآخر لا يزال سالمًا فقد وثّق علاقته مع بنى النضير ، وإن فقد فى بنى قينقاع ركنًا ركينًا من سلطته .

ومضى إلى عبادة بن الصامت شريكه فى الحلف يريد أن يدفعه ليقف بجواره ، فجرى بينهم الحوار التالى :

ابن أبى : تبرأت من حلف مواليك ؟ ما هذه بيدهم عندك (فذكرَّه مواطن قد أبلوا فيها) فقال عبادة: أبا الحباب ، تغيرت القلوب ، ومحا الإسلام العهود، أما والله إنك لُمعصم بأمر سترى غيَّه غدًا .

فكان عبادة رضي الله عنه هو الذى يحذر ابن أبى من مغبَّة مسيره ، وافترقا كل فى اتجاه .

---

(١) المغازى للواقدى ١ / ١٧٨ .

وحتى تتميز المواقف أكثر: كلَّف رسول الله ﷺ عبادة بن الصامت حليفهم بالإشراف على جلائهم ، فى الوقت الذى كان فيه ابن أبى يريد منع إجلائهم.

(وأخذ عبادة بالرحيل والإجلاء ، وطلبوا التنفس. فقال لهم : ولا ساعة من نهار، لكم ثلاث. لا أزيدكم عليها ؟ هذا أمر رسول الله ﷺ ، ولو كنت أنا ما نفَّستكم، فلما مضت ثلاث خرج فى آثارهم حتى سلكوا إلى الشام وهو يقول: الشرف الأبعد ، الأقصى ، فأقصى وبلغ خلف ذباب(1) ، ثم رجع ولحقوا بأذرعات)(2) .

لقد افترق الشريكان كل فى طريق. فابن أبى يريد أن يشقَّ طريقاً مستقلاً يحافظ به على زعامته ويحافظ على حلفائه تحت راية الإسلام ، ويشكل حزبًا معارضًا فى الصف الإسلامى. وعبادة بن الصامت ، انضم جنديًا تحت راية النبى ﷺ ، وأخذ وضعه القيادى فى قومه بصفته أحد النقباء الاثنى عشر .

ولو أن الأمر وقف عند هذا الحد لهان الأمر ـ ولكن القضية كانت أخطر بكثير مما يرد على البال ـ فقد نزل القرآن الكريم من عند رب العزة والجلال ، ليتحدث عن موقف ابن أبى وموقف ابن الصامت ، ويحدد موقعهما والحكم عليهما حكمًا قطعيًا لا يقبل المراجعة .

جاء القرآن الكريم ليقرر خطًا على مدار التاريخ البشرى كله من خلال هذين النموذجين .

ولم تعد القضية تخص هذين النموذجين . بل أصبحت قضية الأمة المسلمة كلها على امتداد الزمان والمكان ، أما نموذج ابن أبى : فهو يخاطب فيه ابن أبى رأس هذا الاتجاه بصفته عضواً فى المجتمع المسلم: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ، وينتهى به خارج الصف المسلم حقيقة ، ولو بقى الغلاف الخارجى والغلالة الرقيقة من الإسلام تحوطه: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ وينضمون إلى الذين ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ ، من منافقى اليهود من قبل .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

وتتابع الآيات فى تحليل أسباب هذا الولاء هو: أنه الركون واللجوء إليهم من دون الله ورسوله وجماعة المؤمنين :

---

(1) ذباب : أكمة صغيرة يفصل بينها وبين جبل سلع ثنية الوداع .
(2) المغازى للواقدى ١/ ١٧٩ .

﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ . وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴾ .

والذين يتخذون هذا الولاء هم مرتدون عن دينهم : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ .... ﴾ (١) .

ليأتى بعد هذا الحديث عن عبادة بن الصامت شخصًا ، وعنه رمزًا بقوله عز وجل: ﴿ ... فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

وتتابع الآيات تحديد ملامح هذا النموذج الذى اختير ابن الصامت ليمثله ومدى ولائه وانتمائه للأمة المسلمة .

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ . وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ (٢) .

هذه هى المرة الثانية وخلال أيام قلائل يتم الحديث فيها عن حزب الله، هذا الحزب الذى يرعاه رسول الله ﷺ بعينه الساهرة وقلبه الذى لا ينام .

لقد عرض فى المرة الأولى من خلال النموذج الخالد ، أبى عبيدة بن الجراح أمين الأمة رضي الله عنه والذى قاتل أباه فى الله وقتله ، وكان التركيز هناك على الفلاح .

وها هو يعرض مرة ثانية من خلال النموذج الثانى : عبادة بن الصامت رضي الله عنه والذى تبرأ من حلفه وولائه وأنصاره ، وتولى الله ورسوله وجماعة المؤمنين .

إنه الحزب الذى أكرمه الله تعالى وشرفه فنسبه إليه ، فكان أهلاً لهذه التسمية ، وأهلاً لهذا الانتساب ، ورسول الله ﷺ هو الذى يقوم على بنائه وتربيته .

ولا يضير هذا الحزب وجود من يدَّعى الانتساب إليه ، فقد عُزّى مباشرة بعد إعلان تمالُئه مع العدو ، واعتبر جزءًا منه ، وسيكون نصيبه الخسار والدمار وهو يلوذ بالكفار خشيَة الدوائر ، وطمعًا بالنصرة .

إن الزعيم السياسى يحرص أكثر ما يحرص على كسب الشعبية ، وكسب التأييد والأنصار والأزلام له ، وكلها أصوات تصب فى خانته ، والنتيجة التى يريدها هو: أن

(١) المائدة / ٥١ ـ ٥٣ .

(٢) المائدة / ٥٤ ـ ٥٦ .

يقول : إنه يمثل الأكثرية ، وبهذا المفهوم: فابن أبى أذكى وأوعى وأنضج من ابن الصامت؛ لأن ابن الصامت قطع كل الخيوط مع هؤلاء الحلفاء،بل قام بعملية ترحيلهم وإجلائهم.

لكن بالمفهوم الإيمانى ، فابن الصامت قدوة مثلى اختاره الله عز وجل نموذجًا للمؤمنين فى الأرض إلى يوم الدين ، وابن أبى نموذج سيئ ردىء باختيار الله تعالى له ليمثل المنافقين .

وأهم جانب فى القضية هو أن هذا القرآن المنزل ، قد أصبح على كل لسان يتلى فى البيوت ، ويتعبد به فى الصلاة ،تعرفه النساء فى خدورهن،والأطفال فى مرابعهم . فقد انتشر الوعى فى كل بيت من خلال الآيات التى تنزلت بهذا الحدث ، وأصبح عبد الله بن أبى معرىً من الجميع .

لكن لابد من الإشارة : أن النوعيات التى دخلت جديدًا فى الإسلام معه ، قد راحت تنضم حوله وتشكل تجمعًا خطيراً يدين له بالزعامة، وليسوا جميعًا من المنافقين الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر ، بل بعضهم حديث الإسلام لا يزال جانب العصبية والزعامة هو الذى يحكمه، وقامت فى دولة الإسلام الأولى هذه الجماعة الهلامية التى يصعب مسكها ، وبدأت ملامحها تتحدد لتقوم بدور رهيب فيما بعد ، وتشكل ثغرة داخل الصف الإسلامى الواحد .

أعراس المدينة :

ولنمض مع عائشة - رضى الله عنها - نشهد قدومها المدينة ، وحفلة زواجها ودخولها على النبى ﷺ .

أما قدومها المدينة فنقول عنه : (لما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة خلَّفنا وخلَّف بناته ، فلما قدم المدينة بعث إلينا: زيد بن حارثة، وأبا رافع. وأعطاهما بعيرين وخمسمائة درهم أخذها من أبى بكر؛ يشتريان بهـا ما نحتاج إليه من الظهر ، وبعث أبو بكر معهما: عبد الله بن أريقط الليثى (١) ببعيرين أو ثلاثة ، وكتب إلى ابنه عبد الله يأمره أن يحمل أهله أم رومان، وأنا وأختى أسماء ، فخرجوا ، فلما انتهوا إلى قُديد اشترى زيد بتلك الدراهم ثلاثة أبعرة ، ثم دخلوا مكة ، وصادفوا طلحة يريد الهجرة بآل أبى بكر ، فخرجنا جميعًا ، وخرج زيد وأبو رافع بفاطمة وأم كلثوم وسودة وأم

---

(١) وهو الذى كان دليل النبى ﷺ وأبى بكر فى الهجرة .
(٢) البيض : هو من منازل بنى كنانة بالحجاز .

أيمن وأسامة، فاصطحبنا جميعًا حتى إذا كنا بالبيض[٢] نفر بعيرى وقدامى مجفة فيها أمى ، فجعلت أمى تقول : وابنتاه ! واعروساه ! حتى أُدرك بعيرنا ، فقدمنا والمسجد يُبنى وذكر الحديث)[١].

لقد كانت تدرك عائشة ـ رضى الله عنها ـ وهى الفتاة اللعوب : أنها زوجًا لرسول الله ﷺ سيد الخلق، ولمَّا تناهز الثامنة من عمرها . وقد أدركت بحسها المرهف وبفرط ذكائها هذا الزواج منذ لحظاته الأولى إذ تقول ـ رضى الله عنها ـ: تزوجنى رسول الله ﷺ وإنى لألعب مع الجوارى ، فما دريت أن رسول الله تزوجنى، حتى أخذتنى أمى فحبستنى فى البيت عن الخروج، فوقع فى نفسى أنى تزوجت . فما سألتها حتى كانت أمى هى التى أخبرتنى .

ولا تنسى ـ رضى الله عنها ـ أن تحدثنا عن ساعة زفافها : فعنها قالت : تزوجنى رسول الله ﷺ متوفى خديجة ، وأنا ابنة ست ، وأُدخلت عليه وأنا ابنة تسع ، جاءنى نسوة وأنا ألعب على أرجوحة ، وأنا مجممة [٢] ، مهيأننى وصففنـى ، ثم أتين بى إلـيه[٣] .

قال عروة : فمكثت عنده تسع سنين .

ولا تنسى أن تحدثنا عن أحلى أيام عرسها متى كان ذلك فتقول : تزوجنى رسول الله ﷺ فى شوال ، وأعرس بى فى شوال ، فأى نسائه كان أحظى عنده منى .

وكانت العرب تستحب لنسائها أن يُدخلن على أزواجهن فى شوال .

يقول الحافظ الذهبى:(تزوجها نبى الله ﷺ قبل مهاجره،بعد وفاة الصديقة خديجة بنت خويلد وذلك قبل الهجرة ببضعة عشر شهراً، وقيل: بعامين ، ودخل بها فى شوال سنة اثنتين،منصرفه ـ عليه الصلاة والسلام ـ من غزوة بدر، وهى ابنة تسع) [٤] .

إنه أول عيد يشهده المسلمون ، وأعراس بدر فى السماء والأرض ، وفى عوالم الإنس والجن. والملائكة تشارك بهذه الأفراح فى عيد الفطر العظيم ، وفى تلك

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبى ٢/ ١٥٣ ، وقال المحقق :« أخرجه ابن سعد فى الطبقات ٨/ ٦٢ ، والواقدى ضعيف » .

(٢) مجممة : ذات جمة ، ويقال للشعر إذا سقط عن المنكبين : جُمة ، وإذا كان إلى شحمة الأذنين : وفَرة.

(٣) سير أعلام النبلاء ٢ /١٤٨ ، وقال المحقق فيه : « أخرجه أبو داود فى الأدب باب الأرجوحة وإسناده صحيح ».

(٤) المصدر نفسه ٢/ ١٦٤ ، وقال المحقق :« يحيى بن يمان صدوق يخطئ، لكنه متابع، فقد أخرجه مسلم فى النكاح رقم (١٤٢٣) » .

الأجواء: تشارك المدينة بهذا الحدث العظيم زواج رسول الله ﷺ بابنة الصديق الأكبر رضي الله عنه وجبريل - عليه الصلاة والسلام -: هو الذى يعرض الخطوبة بعائشة كما روت - رضى الله عنها - عن رسول الله ﷺ : « أريتك فى المنام ثلاث ليال ، جاء بك الملك فى سرقة من حرير فيقول : هذه امرأتك ، فأكشف عن وجهك فإذا أنت فيه . فأقول: إن يك هذا من عند الله يمضه» (١) .

وأخرج الترمذى عن عائشة : أن جبريل جاء بصورتها فى خرقة حرير خضراء إلى النبى ﷺ فقال : « هذه زوجتك فى الدنيا والآخرة »(٢) .

وإن استحيت - رضى الله عنها - أن تحدثنا عن ليلة زفافها ، فقد حدثتنا عنها أسماء بنت يزيد الأنصارية وهى التى هيأتها لجلوتها مع رسول الله ﷺ وأدخلتها عليها مع نسوة من الأنصار ، تقول أسماء :

إنى قينت عائشة لرسول الله ﷺ ، ثم جئته فدعوته لجلوتها ، فجاء فجلس إلى جنبها ، فأتى بعس لبن فشرب ، ثم ناولها النبى ﷺ فخفضت رأسها ، واستحيت ، قالت أسماء : فانتهرتها ، وقلت لها : خذى من يد رسول الله ﷺ، فأخذت ، فشربت شيئًا ، ثم قال لها النبى ﷺ : « أعطى تربك » قالت أسماء : فقلت : يا رسول الله ، بل خذه فاشرب منه ، ثم ناولنيه من يدك ، فأخذ فشرب منه ثم ناولنيه ، قالت : فجلست ثم وضعته على ركبتى ، ثم طفقت أديره ، وأتبعه بشفتى لأصيب منه مشرب النبى ﷺ. ثم قال النسوة عندى : ناوليهن ، فقلن : لا نشتهيه فقال النبى ﷺ : « لا تجمعن جوعًا وكذبًا » (٣) .

وفى أجواء الحرب والنصر تضيع معالم الحديث عن التربية النبوية ، لهذا الجيل . فهذه أسماء - رضى الله عنها - وهى تحدثنا عن زفاف عائشة إلى رسول الله ﷺ ، ليروعنا هذا الأدب الجم منها ، فهى التى تهيئ لرسول الله ﷺ زوجه، وتعالج حياءها منه ساعة دخوله عليها ، فتنتهرها لتأخذ العس من حبيبها - عليه الصلاة والسلام - وهى التى لا ترضى أن تأخذ من عائشة - رضى الله عنها - حتى تعيد عائشة العس إلى حبيبها. فيتبادلا شراب اللبن فى هذه الساعة المباركة ، ثم تتناول العس من يد سيد الخلق تبحث عن موضع شفتيه لتشرب منه فتنال بركة النبى ﷺ ، وهى التى تحدثنا فى آخر معالم التربية فى هذا الحديث عن النفسية الصافية الصادقة التى يجب أن تكون عليها المسلمة « لا تجمعن جوعًا وكذبًا » .

(١) أخرجه أحمد والبخارى ٧/ ١٧٥ فى مناقب الأنصار ، ومسلم رقم (٢٤٣٨) فى فضائل الصحابة .
(٢) الترمذى (٣٨٨٠) فى المناقب ورجاله ثقات . (٣) مسند الإمام أحمد ٦ / ٤٥٨ .

فيسألن - رضى الله عنهن - كما فى حديث آخر : يا رسول الله ، إن قالت إحداهن لشىء تشتهيه : لا تشتهيه، أيعد ذلك كذبًا ؟ قال : « إن الكذب يكتب حتى تكتب الكذيبة كذيبة » .

عرس فاطمة سيدة نساء العالمين :

ولمثل فاطمة يتقدم سادة أهل الأرض .

فعن علباء بن أحمر اليشكرى: أن أبا بكر خطب فاطمة إلى النبى ﷺ فقال : « يا أبا بكر ، أنتظر بها القضاء » . فذكر ذلك أبو بكر لعمر ، فقال له عمر : ردك يا أبا بكر، ثم إن أبا بكر قال لعمر : اخطب فاطمة إلى النبى فخطبها فقال له مثل ما قال لأبى بكر : « أنتظر بها القضاء » (١) .

وانتشر خبر الخطوبة هذه فى أرجاء المدينة ، فتحرك أهل على رضي الله عنه يحثونه ليخطب فاطمة. ويحدثنا على رضي الله عنه عن ذلك بنفسه فيقول :

(خُطِبت فاطمة إلى رسول الله ﷺ فقالت لى مولاة لى : هل علمت أن فاطمة قد خُطبت إلى رسول الله ﷺ ؟ قلتُ : لا .قالت : فقد خُطبت ، فما يمنعك أن تأتى رسول الله ﷺ فيزوجك . فقلت : وعندى شىء أتزوج به ؟ فقالت : إنك إن جئت رسول الله ﷺ زوَّجك . فوالله ما زالت ترَّجينى حتى دخلت على رسول الله ﷺ . وكان لرسول الله جلالة وهيبة ، فلما قعدت بين يديه أُفحِمتُ، فوالله ما استطعت أن أتكلم، فقال رسول الله ﷺ : « ما جاء بك ؟ ألك حاجةَ ؟ » فسكت ، فقال : « ما جاء بك ؟ ألك حاجة » فسكت ، فقال : «لعلك جئت تخطب فاطمة » ، فقلت : نعم. قال: «وهل عندك من شىء تستحلها بها ؟ » قلت : لا والله يا رسول الله ، فقال: « ما فعلت درع سلَّحتكها ؟ » فوالذى نفس على بيده إنها لحُطَمية ما ثمنها أربعة دراهم - فقلت : عندى . فقال : « قد زوجتكها فابعث إليها بها فاستحلها بها » فإن كانت لصداق فاطمة بنت رسول الله ﷺ) (٢) .

رضى الله عن سيدة نساء العالمين .ولعل درس التربية هذا يفقهه نسوة أهل الأرض ورجالاتها ، فقد انحرف الفهم لدى جيلنا النكد ، حيث يقيِّم الصداق بقيمة المرأة ، ويرتفع الصداق كلما كانت حسيبة أكثر أو جميلة أكثر أو مثقفة أكثر ، وليتعلم المؤمنون فى الأرض اليوم موقف أبى الفتاة من الشاب الكفء من خلال هذا الموقف الذى رضى

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٨/ ١٩ .

(٢) دلائل النبوة للبيهقى ٣/ ١٦٠ ، والسيرة النبوية لابن إسحاق برواية يونس بن بكير : ٢٤٧ .

فيه سيد الخلق رضي الله عنه لسيدة نساء أهل الجنة : درعًا حطمية لا تساوى أربعة دراهم كان قد وهبها لصهره ـ عليه الصلاة والسلام.

ولا ننسى ونحن فى غمرة الحديث عن الزواج فى أصل الهدية النبوية للفتى العظيم رضي الله عنه فالهدية درع حطمية ، يعد بها رسول الله ﷺ فتاه عليا للحرب ، والمواجهة ، فالهدية درع وليست ناقة سمينة أو تحفة نادرة أو ثوبًا براقًا أو غير ذلك . إنه يعد ـ عليه الصلاة والسلام ـ الجيل المجاهد، وكانت بدر، وبرز الفتى علىٌّ بطلاً مغوارًا يقارع صناديد قريش فيجندل لهم ، وعرفت فاطمة من فتاها الذى تزوجته ، فهو أول من يجثو للخصومة بين يدى الرحمن ، يوم جندل خصمه الوليد بن عتبة من اللحظات الأولى للمبارزة .

وحان موعد الزفاف . وكان الموعد عقب بدر . إذ أصبح لدى على رضي الله عنه ما يؤدى به حفلة الزفاف ، وأثاث البيت، فقد صار له بعد بدر جملان ربحهما من المعركة ، ولو شاء أن يثرى لأثرى ، فأكثر من الأسرى ، ولكنه كان ينظر بعين الله، فلا يقبل لخصمه إلا القتل ، ولا يرضيه إلا سفح دم المشركين فى سبيل الله كما وصفه عمر رضي الله عنه فى لحظة من لحظات جهاده ، حيث يقول لسعيد بن العاص :

إنى أراك كأن فى نفسك شيئًا . أراك تظن أنى قتلت أباك ، إنى لو قتلته لم أعتذر لك عن قتله ، ولكنى قتلت خالى العاص بن هشام ، فأما أبوك فإنى مررت به وهو يبحث بحث الثور بروقه فحدت عنه ، وقصد له ابن عمه على فقتله .

وعلمت سيدة نساء العالمين أن زوجها عليًا رضي الله عنه هو الذى شفى نفسها من عقبة بن أبى معيط ، واستعـادت تلك الصـورة التى يتزلزل كيانها كلـما ذكرتـها .

(بينا رسول الله ﷺ يصلى عند المقام ، فقال أبو جهل لأصحابه وهم جلوس عنده: من يذهب فيأتينا بسلى الجزور[1] ، فقام غاوٍ منهم (وهو عقبة بن أبى معيط كما فى رواية أخرى) فجاء به ، فقيل له : إذا رأيت محمدًا ساجدًا فضعه بين كتفيه ، فلما سجد رسول الله ﷺ وضعه بين كتفيه . فلم يتحلل حتى فرغ من سجوده ، فبلغ فاطمة . فجاءت وهى جارية فأخذته وجعلت تمسح عن ظهر رسول الله ﷺ، ثم أقبلت عليهم تشتمهم واستضحكوا حتى صرعوا، فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته استقبل الكعبة فدعا عليهم : « اللهم عليك بعمرو بن هشام ، وعتبة بن ربيعة ، وشيبة بن

(١) سلى الجزر : أمعاؤه .

ربيعة ، والوليد بن عتبة ، وعمارة بن الوليد ، وأمية بن خلف ، وعقبة بن أبى معيط»
قال عبد الله بن مسعود :

وأنا يومئذ غلام غير ذى منعة من القوم ، فوالذى أنزل الكتاب على محمد لقد رأيتهم صرعى فى الطوى طوى بدر)[١] .

هؤلاء السبعة قرابة نصفهم كانت منيته على يد على رضي الله عنه قتل الوليد بن عتبة ، وشارك عمه حمزة فى قتل عتبة بن ربيعة ، وكلّفه ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى قتل عقبة بن أبى معيط صبراً فى الصفراء ، وهم عائدون إلى المدينة ، وشفى نفس فاطمة العظيمة أن أخذ زوجها ثأرها من ابن معيط .

ها هو على رضي الله عنه يستعد للعرس بعد بدر . ويتهيأ للزفاف ، ولكن صدعه ما فعل عمه حمزة بثروته رضي الله عنه ولندع الحديث لعلى كما روى البخارى عنه :

(كانت لى شارف[٢] من نصيبى من المغنم يوم بدر . وكان النبى ﷺ أعطانى مما أفاء عليه من الخمس يومئذ ، فلما أردت أن أبتنى بفاطمة ـ عليها السلام ـ بنت النبى ﷺ واعدت رجلاً صواغًا من بنى قينقاع أن يرتحل معى فنأتى بإذخر . فأردت أن أبيعه من الصواغين ، فنستعين به فى وليمة عرسى . فبينا أنا أجمع لشارفىَّ من الأقتاب[٣] والغرائر[٤] والحبال ، وشارفاى مناخان إلى جنب حجرة رجل من الأنصار حتى جمعت ما جمعت . فإذا أنا بشارفى قد أجبت أسنمتهما ، وبُقرت خواصرهما ، وأخذ من أكبادهما . فلم أملك من عينىَّ حين رأيت المنظر ، قلت : من فعل هذا ؟ قالوا : فعله حمزة بن عبد المطلب ، وهو فى هذا البيت فى شَرْبٍ من الأنصار ، وعنده قينة وأصحابه ، فقالت فى غنائها :(ألا يا حمزة للشرف النواء) فوثب حمزة إلى السيف فأجب أسنمتهما ، وبقر خواصرهما ، وأخذ من أكبادهما . قال على: فانطلقت حتى أدخل على النبى ﷺ وعنده زيد بن حارثة ، وعرف النبى ﷺ الذى لقيت ، فقال : « مالك ؟ » قلت : يا رسول الله ما رأيت كاليوم، عدا حمزة على ناقتى فأجبَّ أسنمتهما، وبقر خواصرهما ، وها هو ذا فى بيت معه شرب . فدعا النبى ﷺ بردائه فارتدى ، ثم انطلق يمشى واتبعته أنا وزيد بن حارثة، حتى جاء البيت الذى فيه حمزة فاستأذن عليه فأذن له ، فطفق النبى ﷺ يلوم حمزة فيما فعل ، فإذا حمزة ثمل محمرةً

(١) السيرة النبوية لابن إسحاق من رواية يونس : ٢١١ .
(٢) الشارف : المسنّ من الدواب .
(٣) الأقتاب : جمع قتب وهو الرحل الصغير على سنام الجمل .
(٤) الغرائر : جمع غِرارة ، وعاء من الخيش يوضع به الطعام أو المتاع .

عيناه، فنظر حمزة إلى النبى ﷺ ثم صعَّدَ النظر ، فنظر إلى ركبته ، ثم صعَّد النظر فنظر إلى وجهه، ثم قال حمزة : وهل أنتم إلا عبيد لأبى ؟ فعرف النبى ﷺ أنه ثمل فنكص رسول ﷺ على عقبيه القهقرى ، فخرج وخرجنا معه)(١) .

وأوقفت وليمة العرس،وانشغلت المدينة ببنى قينقاع،ثم عادت فاحتفلت لخروجهم، وعاد على رضي الله عنه ليعد لحفلة زفافه ، ونستمع فيها إلى رواية أنس رضي الله عنه قال :

جاء أبو بكر وعمر يخطبان فاطمة إلى النبى ﷺ ، فسكت ولم يرجع إليهما شيئًا. فانطلقا إلى على رضي الله عنه يأمرانه بطلب ذلك. قال على: فنبهانى لأمر، فقمت أجر ردائى حتى أتيت النبى ﷺ فقلت : تزوجنى فاطمة ؟ قال : «عندك شىء؟» فقلت : فرسى وبدنى .قال: « أما فرسك فلابد لك منها، وأما بدنك فبعها ». فبعتها بأربعمائة وثمانين درهمًا ، فجئته بها، فوضعتها فى حجره فقبض منها قبضة فقال : « أى بلال، ابتع لنا طيبًا » وأمرهم أن يجهزوها، فجُعل لها سرير مشروط، ووسادة من أدم حشوها ليف . وقال لعلى : « إذا أتتك فلا تحدث شيئًا حتى آتيك » فجاءت مع أم أيمن، حتى قعدت فى جانب البيت، وأنا فى جانب، وجاء رسول الله ﷺ . فقال :« أها هنا أخى ؟ » قالت أم أيمن : أخـوك وقـد زوجته ابنتك ؟ قال : « نعم » ، ودخـل ﷺ فقال لفاطمة : « ائتنى بماء » فقامت فى البيت فأتت فيه بماء فأخذه ومج فيه . ثم قـال لها : « تقدمى » . فتقدمت، فنضح بين ثدييها وعلى رأسها وقال: « اللهم إنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم » ثم قال : « أدبرى » . فأدبرت فصب بين كتفيها، ثم فعل مثل ذلك بعلى ثم قال : « ادخل بأهلك بسم الله والبركة »، أخرجه أبو حاتم بن حبان التميمى وأحمد فى المناقب بنحوه (٢) .

هذه هى الحياة التى يربى عليها رسول الله ﷺ جيل المجاهدين ، البساطة والزهد فى المتاع ، فغرفة النوم فيها سرير مشروط ، ووسادة من جلد محشوة بليف. ونجد فى روايات أخرى حديثًا عن غرفة الطعام ، وغرفة الاستقبال ، ينقل لنا هذا الحديث: عطاء ابن السائب عن أبيه عن على قال : (جهَّز رسول الله ﷺ فاطمة فى خميل(٣)، وقربة، ووسادة من أدم حشوها إذخر(٤))(٥) . فالقربة للشراب ، والخميل فراش النوم .

وفى رواية ثالثة عن على :أن رسول الله ﷺ لما زوجه فاطمة: بعث معها بخميلة، ووسادة أدم حشوها ليف ، ورحاءين وسقاءين .

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى للحافظ ابن حجر ٨/٣١٦ رقم (٤٠٠٣) .
(٢) المواهب اللدنية للقسطلانى ١/ ٨٩ ، ٩٠ .
(٣) الخميل : قطيفة بمثابة الفراش .
(٤) الإذخر : حشيش رطب طيب الرائحة .
(٥) دلائل النبوة للبيهقى ٣/ ١٦١ ، ومسند الإمام أحمد ١/ ١٤ ، وإسناده صحيح .

إنها الرحى التى تطحن بها الشعير لتأكله ، والسقاء الذى تنقل به الماء إلى البيت .
وحين يرى هذا الجيل قائده - عليه الصلاة والسلام - يزوج ابنته بهذا الصداق ، ويهيئها بهذا الأثاث يتربى كله على الزهد فى الدنيا ، وعلى انخلاع هذه الدنيا من قلوبهم ، فكل همسة وكل حركة وكل خطوة درس فى البناء العملى والنفسى له. وكيف كانت تعيش سيدة نساء العالمين ؟ وهو درس لكل مسلمة ومسلم فى هذا الوجود. لقد تنوعت المسؤوليات وتحددت ، كما وزَّعها على رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لأعلى[1] .

فعن أبى البخترى قال : قال على رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لأمه : اكفى فاطمة الخدمة خارجًا ، وهى تكفيك العمل فى البيت والعجن والخبز والطحن[2] .

وهذه صورة من الحفلات الضخمة لولائم سيدة نساء العالمين .

وعن عمران بن حصين؛ أن النبى ﷺ عاد فاطمة وهى مريضة فقال لها : « كيف تجدينك ؟ » قالت : إنى وجعة، وإنه ليزيدنى ،ما لى طعام آكله. قال: « يا بنية أما ترضين أن تكونى سيدة نساء العالمين ؟ » قالت: فأين مريم ؟ قال: « تلك سيدة نساء عالمها ، وأنت سيدة نساء عالمك ، أما والله لقد زوجتك سيدًا فى الدنيا والآخرة » [3] .

فقد أشبع جوعها ما أعدَّ الله لها من الفضل ، وما أكرم الله به زوجها من فضل، وهذه صورة عن حياة ابنة الحاكم والقائد الأعظم فى المدينة .

عن على أن رسول الله ﷺ لما زوجه فاطمة بعث معها بخميلة ووسادة أدم حشوها ليف ورحاءين وسقاءين ، فقال على لفاطمة يومًا : لقد شقوت حتى أسلبت صدرى، وقد جاء الله بسبى، فاذهبى فاستخدمى . فقالت:وأنا والله قد طحنت حتى محلت [4] يداى. فأتت النبى ﷺ فقال : « ما جاء بك ؟ أى بنية؟» فقالت : جئت لأسلم عليك. واستحيت أن تسأله ، ورجعت . فأتياه جميعًا فذكر له على حالهما فقال : « لا والله لا أعطيكما ، وأدع أهل الصفة تتلوى بطونهم لا أجد ما أنفق عليهم ، ولكن أبيع وأنفق عليهم أثمانهم . . . » [5] .

لقد كانت الوساطة على أعلى مستوياتها وأخفقت فى الحصول على خادم؛ لأن السبى يريد - عليه الصلاة والسلام - أن يبيعه ، وينفق ثمنه على أهل الصفة الذين يتلوون من الجوع . فهم أهل رسول الله ﷺ وخاصته مثل على وفاطمة ، والطعام مقدَّم على الخدمة .

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر ٨/ ١٥٩ .
(٢) سير أعلام النبلاء للذهبى ٢/ ١٢٥ ، وقال المحقق فيه : « رجاله ثقات » .
(٣) المصدر نفسه ٢/ ١٢٦ .
(٤) محلت : تشققت وغلظت .
(٥) الإصابة فى تمييز الصحابة ٨/ ١٥٩ .

فرجعا فأتاهما وقد دخلا على قطيفتهما ،إذا غطيا رؤوسهما بدت أقدامهما . وإذا غطيا أقدامهما انكشفت رؤوسهما . فثارا . فقال : « مكانكما . ألا أخبركما بخير مما سألتمانى » . فقالا : بلى. فقال : « كلمات علمنيهن جبريل : تسبحان فى دبر كل صلاة عشراً ، وتكبران عشراً ، وإذا أويتما إلى فراشكما تسبحان ثلاثًا وثلاثين ، واحمدا ثلاثًا وثلاثين ، وكبرا أربعًا وثلاثين » .

قال على : فوالله ما تركتهن منذ علمنيهن .وقال له ابن الكواء : ولا ليلة صفين. فقال : قاتلكم الله يا أهل العراق . ولا ليلة صفين(١) .

لقد كانت أثرة النبى ﷺ لأهله وخاصة أن سارع ونقل لهم قبل غيرهم ما علمه جبريل ـ عليه الصلاة والسلام ـ من التسبيح والتحميد والتكبير ، وكان هذا عوضًا عن الخادم ، وتلقى الصهر السعيد هذا العطاء منذ تلك اللحظة ، وحافظ على هذا الكنز حتى آخر لحظة من حياته ، وهكذا تكون التربية .

ويمر الزمن بالفتى على فيصبح السيد الأول فى الأرض ، وخليفة المسلمين فى العصر . فإذا به من آثار هذه التربية يلبس أخشن الثياب ، ويأكل أخشن الطعام ، فلم تغره الدنيا ، ولم تفتنه بهارجها وبيده كنوز الأرض وخيراتها ؛ لأن ذلك الكنز العظيم يملأ قلبه ، وذكر الله تعالى يغمر وجوده ، فلا ينساه حتى فى ليلة صفين ، وكان كما وصفه ضرار بن ضِمرة فى مجلس معاوية:(. . . يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويستأنس بالليل وظلمته ، كان والله غزير العبرة، طويل الفكرة، يقلب كفه ، ويخاطب نفسه، يعجبه من اللباس ما قصر ، ومن الطعام ما جشب . . .) (٢) .

غزوة السويق :

لم ينته العام الثانى فى المدينة إلا بهجوم مباغت لأبى سفيان على نواحى المدينة ومعه مائتا راكب . واستغل الطابور الخامس فيها يهود بنى النضير حيث دلَّه سيدهم ـ سلام بن مشكم ـ على بعض عورات المدينة ، فحرَّق بعض النخل ، وقتل رجلين من الأنصار، وكر راجعًا ،حيث لحق به رسول الله ﷺ فى مائتين من المهاجرين والأنصار. وجعل أبو سفيان وأصحابه يتخففون للهرب فيلقون جُرُبَ السويق وهى: عامة أزوادهم، فيأخذها المسلمون فسميت غزوة السويق ولم يلحقوهم ، ورجع رسول الله ﷺ راجعًا إلى المدينة وكان غاب خمسة أيام .

---

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة ٨/ ١٥٩ .

(٢) صفة الصفوة لابن الجوزى ١/ ٨٤ .

فعملية الخروج تهدف ابتداءً إلى الثأر للقتيلين المسلمين ، وأن المسلمين لا ينامون على ضيم ، ورغم أن احتمال اللحوق بأبى سفيان كان ضعيفًا ، لكنه درس له ولكل القبائل المجاورة أن هذا الأمر لا يترك سدىً . فتتجرأ القبائل المجاورة على ذلك ، هذا من الجانب السياسى. ومن الجانب التربوى : هى عملية بناء وتدريب وتعبئة ، ولو لم يقع فيها قتال ، حتى إن المسلمين يقولون لسيدهم القائد ـ عليه الصلاة والسلام ـ : أتطمع أن تكون لنا غزوة ؟ قال : « نعم » .

فالذى يشغل بال هذا الجيل السعيد ويقلقه ، هو الأجر العظيم ، وابتغاء مرضاة الله ، وما يضيرهم بعدها أى نتيجة كانت ، إنما الذى يهمهم أن تُحسب لهم غزوة فى سبيل الله ، وغدوة وروحة فى الله ، وهذا الخروج رسالة موجهة لبنى النضير الذى تمالأ سيدهم على المسلمين ، ودل عدوهم على عوراتهم .

بقى علينا أن نذكر أن رسول الله ﷺ كان يعد شخصية جديدة ويدربها على الحكم والولاية فى هذا العام ، هذه الشخصية هى: أبو لبابة بن عبد المنذر رضي الله عنه وهو من بنى عمرو بن عوف من الأوس ، وفى رواية أنه هو: رفاعة بن عبد المنذر ، فهو أحد النقباء الاثنى عشر ،فقد كان أحد القادة الذين تحملوا مسؤولية الحكم بين يدى رسول الله ﷺ . وقد ردَّه رسول الله ﷺ من الروحاء إلى بدر ، واستخلفه على المدينة، فإذن قد مارس الحكم فى عهد القائد الأعظم ـ عليه الصلاة والسلام ـ وتتابعت مسؤولياته .

فعن عبد الله بن أبى بكر بن حزم قال : استخلف رسول الله ﷺ أبا لبابة بن عبد المنذر على المدينة ثلاث مرات : بدر القتال ، وبنى قينقاع ، وغزوة السويق.

صحيح أن الفترة قصيرة ولكنها التدريبات على الحكم والمسؤولية والتى لابد منها ليخرِّج جيلاً قادرًا على قيادة البشرية .

العام الثالث فى المدينة

١ ـ أهل الصفة :

(أعقب هجرة المسلمين من مكة إلى المدينة ظهور مشكلة تتعلق بمعيشة المهاجرين الذين تركوا بيوتهم وأموالهم ومتاعهم بمكة فراراً بدينهم من طغيان المشركين ، ولا شك أن بعض المهاجرين لم يستطيعوا العمل حال قدومهم إلى المدينة؛ لأن الطابع الزراعى يغلب على اقتصاد المدينة ، وليست للمهاجرين خبرة زراعية فمجتمع مكة تجارى، كما أنهم لا يملكون أرضًا زراعية فى المدينة ، وليست لديهم رؤوس أموال فقد تركوا أموالهم بمكة ،وقد وضع الأنصار إمكانياتهم فى خدمة المهاجرين ،لكن بعض المهاجرين بقى محتاجًا إلى المأوى.

وحانت الفرصة عندما تم تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة بعد ستة عشر شهراً من هجرته إلى المدينة ؛حيث بقى حائط القبلة الأولى فى مؤخر المسجد النبوى ، فأمر النبى ﷺ فظُلّل أو سُقف ،وأُطلق عليه اسم « الصفة» ، أو «الظلة» ، ولم يكن لها ما يستر جوانبها . . . ولاَ يعرف سعة الصفة ، ولكن يبدو أنها كانت تتسع لعدد كبير حتى أن النبى ﷺ استخدمها فى وليمة حضرها ثلاثمائة شخص ، وإن كان بعضهم قد جلس فى حجرة من حجرات أزواج النبى ﷺ الملاصقة للمسجد .

أول من سكن الصفة: المهاجرون ؛ لذلك نسبت إليهم ، فقيل: صفة المهاجرين. وكذلك كان ينزل بها الغرباء. . . وكان الرجل إذا قدم على النبى ﷺ وكان له عريف نزل عليه ، وإذا لم يكن له عريف نزل مع أصحاب الصفة . . . وإلى جانب المهاجرين والغرباء نزل بعض الأنصار فى الصفة حبًا لحياة الزهد والفقر، رغم استغنائهم عن ذلك ووجود دار لهم فى المدينة ، ومنهم: كعب بن مالك الأنصارى ، وحنظلة بن أبى عامر الأنصارى « غسيل الملائكة» ، وحارثة بن النعمان الأنصارى وغيرهم ، ولأن أهل الصفة كانوا أخلاطًا من قبائل شتى سماهم النبى ﷺ (الأوفاض) وقيل فى سبب هذه التسمية أيضًا : إن كل واحد منهم كان معه وفضة : وهى مثل الكنانة الصغيرة يلقى فيها طعامه ، لكن القول الأول أجود .

وكان عددهم يختلف باختلاف الأوقات ، فهم يزيدون إذا قدمت الوفود إلى المدينة، ويقلون إذا قل الطارقون من الغرباء ، على أن عدد المقيمين منهم فى الظروف

العادية كان فى حدود السبعين رجلاً)[1] .

وينقطع أهل الصفة للعلم ،ويعتكفون فى المسجد للعبادة ، ويألفون الفقر والزهد، فكانوا فى خلوتهم يصلون ويقرؤون القرآن ، ويتدارسون آياته ، ويذكرون الله تعالى ، ويتعلم بعضهم الكتابة . . . لكن انقطاع أهل الصفة للعبادة والعلم لم يعزلهم عن المشاركة فى المجتمع والإسهام فى الجهاد . بل كان منهم الشهداء . . . نعم هكذا كانوا رهبانًا في الليل فرسانًا فى النهار[2] .

وكما وصفهم الحافظ أبو نعيم فى الحلية :

(هم قوم أخلاهم الحق من الركون إلى شىء من العروض ، وعصمهم من الافتتان بها عن الفروض، وجعلهم قدوة للمتجردين من الفقراء ، لا يأوون إلى أهل ولا مال ، ولا يلهيهم عن ذكر الله تعالى تجارة ولا حال ، لم يحزنوا على ما فاتهم من الدنيا ، ولا يفرحوا إلا بما أيِّدوا به من العقبى)[3] .

وكما وصفهم أبو هريرة رضي الله عنه :

(وأهل الصفة أضياف الإسلام لا يأوون على أهـل ولا مال ، إذا أتته صدقة بعث بها إليهم، ولم يتناول منها شيئًا ، وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها) [4] ، (والمشهور من أخبارهم غلبة الفقر عليهم ، وإيثارهم القلة واختيارهم لها ، فلم يجتمع لهم ثوبان ولا حضرهم من الأطعمة لونان)[5] .

فلم يكن لهم من الملابس ما يقيهم من البرد أو يسترهم سترًا كاملاً ، فليست عندهم أردية ، ما لأحد منهم ثوب تام ، فكانوا يربطون فى أعناقهم الأكسية أو البرد ، أو يأتزرون بالأزر . . . وكان جل طعامهم التمر . فكان النبى ﷺ يجرى لكل رجلين منهم مدًا من تمر كل يوم . . . لقد قنعوا بالقليل من الطعام ، والخشن من الثياب ، وعافت نفوسهم القصور؛ لينقطعوا إلى العبادة والعلم والمجاهدة ، فكانوا أمثلة للزهد والترفع عن الدنيا [6] .

٢ ـ غزوة قرارة الكدر[7] :

إلى بنى سليم وغطفان على رأس ثلاثة وعشرين شهرًا غاب خمس عشرة ليلة . . .

(١) السيرة النبوية الصحيحة : د أكرم العمرى ، مقتطفات ١/ ٢٥٧ – ٢٥٩ .

(٢) المصدر نفسه ١/ ٢٦٣ ، ٢٦٤ .

(٣) حلية الأولياء للحافظ أبى نعيم ١/ ٣٣٧ ، ٣٣٨ .

(٤) متفق عليه .

(٥) حلية الأولياء ١/ ٣٤٠ .

(٦) السيرة النبوية الصحيحة ١/ ٢٦٤ ـ ٢٦٦ .

(٧) هى بناحية معدن بنى سليم قريبة من الأرحضية، بينها وبين المدينة ثمانية برد على طريق القصيم .معجم السيرة النبوية للبلاذرى : ٢٦٢ .

وكان الذى هاجه على ذلك أنه بلغه: أن بها جمعًا من غطفان وسليم ، فسار رسول الله ﷺ إليهم ، وأخذ عليهم الطريق حتى جاء فرأى آثار النعم[1] ومواردها ، ولم يجد فى المجال أحدًا ، فأرسل فى أعلى الوادى نفرًا من أصحابه، واستقبلهم فى بطن الوادى فوجد رعاءً فيهم غلام يقال له : يسار ، فسألهم عن الناس فقال يسار: لا علم لى بهم، إنما أورد لخمس ، وهذا يوم ربعى ، والناس قد ارتبعوا إلى المياه ، وإنما نحن عزاب فى النعم[2] ، فانصرف رسول الله ﷺ وقد ظفر بنعم ، فانحدر إلى المدينة حتى إذا صلى الصبح، فإذا هو بيسار فرآه يصلى .

وعن أبى أروى الدوسى قال : كنت فى السرية ، وكنت ممن يسوق النعم ، فلما كنا بصرار ، على ثلاثة أميال من المدينة ، خمّس النعم ، وكان النعم خمسمائة بعير ، فأخرج خُمُسه ، وقسم أربعة أخماس على المسلمين، فأصابهم بعيران بعيران .... واستخلف ﷺ ابن أم مكتوم ، وكان يجمع بهم ويخطب إلى جنب المنبر ، يجعل المنبر عن يساره .

٣ـ غزوة غطفان بذى أمر [3] :

وكانت فى ربيع الأول على رأس خمسة وعشرين شهرًا ، خرج رسول الله ﷺ يوم الخميس لثنتى عشرة خلت من ربيع . فغاب أحد عشر يومًا ، وذلك كما روى الواقدى بسنده قالوا :

بلغ رسول الله ﷺ أن جمعًا من ثعلبة ومحارب بذى أمر قد تجمعوا يريدون أن يصيبوا من أطراف رسول الله ﷺ .جمعهم رجل منهم يقال له : دعثور بن الحارث بن محارب، فندب رسول الله ﷺ المسلمين ، فخرج فى أربعمائة رجل وخمسين، ومعهم أفراس فأخذ على المنقى ، ثم سلك مضيق الخبيث ، ثم خرج إلى ذى القصة ، فأصاب رجلاً منهم بذى القصة يقال له: جبار من بنى ثعلبة ، فقالوا : أين تريد ؟ قال : أريد يثرب ، قالوا : وما حاجتك بيثرب ؟ قال : أردت أن أرتاد لنفسى وأنظر . قالوا : هل مررت بجمع ، أو بلغك خبر لقومك ؟ قال: لا ، إلا أنه قد بلغنى: أن دعثور بن الحارث فى أناس من قومه عزل ، فأدخلوه على رسول الله ﷺ ، فدعاه إلى الإسلام فأسلم وقال : يا محمد إنهم لن يلاقوك إن سمعوا بمسيرك هربوا فى رؤوس الجبال ،

(١) النعم : المال السائم وأكثر ما يقع على الإبل .

(٢) عُزاب فى النعم : بعيدون فى الإبل أو أننا بدون أزواجنا حيث رحلت القبيلة تبتغى الربيع .

(٣) ذو أمر : حدده الأقدمون ـ قرب النُخيْل ، والنخيل : بلدة وواد شمال الحناكية غير بعيد على طريق نجد بعد تسعين كيلاً (معجم السيرة للبلاذرى : ٣٣) .

وأنا سائر معك ، ودالُّك على عوراتهم ، فخرج به النبى ﷺ وضمَّه إلى بلال ، فأخذ به طريقًا أهبطه عليهم من كثيب ، وهربت منه الأعراب فوق الجبال ، وقبل ذلك ما قد غيبوا فى ذرى الجبال وذراريهم ، فلم يلاق رسول الله ﷺ أحدًا إلا أنه ينظر إليهم فى رؤوس الجبال ، فنزل رسول الله ﷺ ذا أمر وعسكر معسكرهم ، فأصابه مطر كثير، فذهب رسول الله ﷺ لحاجته ، فأصابه ذلك المطر فبل ثوبه ، وقد جعل رسول الله ﷺ وادى ذى أمر بينه وبين أصحابه ، ثم نزع ثيابه فنشرها لتجف ، وألقاها على شجرة ثم اضطجع تحتها ، والأعراب ينظرون إلى كل ما يفعل ، فقالت الأعراب لدعثور، وكان سيدها وأشجعها : قد أمكنك محمد ، وقد انفرد من أصحابه حيث إن غوَّث بأصحابه لم يُغَث حتى تقتله ، فاختار سيفًا من سيوفهم صارمًا ، ثم أقبل مشتملاً على السيف حتى قام على رأس النبى ﷺ بالسيف مشهورًا فقال: يا محمد! من يمنعك منى اليوم ؟ قال رسول الله ﷺ: « الله !» قال: ودفعه جبريل ـ عليه السلام ـ فى صدره، ووقع السيف من يده، فأخذه رسول الله ﷺ، وقام به على رأسه فقال : « من يمنعك منى اليوم ؟ » قال : لا أحد . قال : فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله؛ والله لا أكثر عليك جمعًا أبدًا . فأعطاه رسول الله ﷺ سيفه ، ثم أدبر، ثم أقبل بوجهه فقال : أما والله لأنت خير منى . قال رسول الله ﷺ : « أنا أحق بذلك منك » فأتى قومه فقالوا : أين ما كنت تقول ، وقد أمكنك والسيف فى يدك ؟ قال : والله ، كان ذلك ، ولكنى نظرت إلى رجل أبيض طويل، دفع فى صدرى ، فوقعت لظهرى، فعرفت أنه مَلَك ،وشهدت أن لا إله إلا الله ،وأن محمدًا رسول الله، والله لا أكثر عليه ، وجعل يدعو قومه إلى الإسلام ، ونزلت هذه الآية فيه: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ**﴾ (١)، وكانت غيبة النبى ﷺ إحدى عشرة ليلة ، واستخلف على المدينة عثمان بن عفان رضي الله عنه (٢) .

٤ ـ غزوة بنى سليم ببُحران بناحية الفرع (٣) :

لليال خلون من جمادى الأولى على رأس سبعة وعشرين شهرًا غاب رسول الله ﷺ عشرًا .

حدثنى معمر بن راشد عن الزهرى قال : لما بلغ رسول الله ﷺ أن جمعًا من بنى

---

(١) المائدة / ١١ .

(٢) المغازى للواقدى ١/١٩٣ - ١٩٦ .

(٣) الفرع : واد فحل من أودية الحجاز يمر على ١٥٠ كيلاً جنوب المدينة المنورة ، كثير العيون والنخل ، وكان عند البعثة لمزينة (معجم السيرة للبلاذرى : ٢٣٦) .

سليم كثيرًا ببحران تهيأ رسول الله ﷺ لذلك ، ولم يظهر وجهًا ، فخرج فى ثلثمائة رجل من أصحابه ، فأغدوا السير حتى إذا كانوا دون بُحران بليلة ، لقى رجلاً من بنى سليم فاستخبروه عن القوم وعن جمعهم ، فأخبره أنهم قد افترقوا أمس ورجعوا إلى مائهم ، فأمر به النبى ﷺ فحبس مع رجل من القوم ، ثم سار النبى ﷺ حتى ورد بُحران ، وليس به أحد . فأقام أيامًا ثم رجع ولم يلق كيدًا ، وأرسل رسول الله ﷺ الرجل ، وكانت غيبته عشر ليالٍ .

حدثنى عبد الله بن نوح عن محمد بن سهل قال : استخلف رسول الله ﷺ على المدينة ابن أم مكتوم (١) .

٥ ـ قتل كعب بن الأشرف :

روى البخارى عن جابر ـ رضى الله عنهما ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « من لى بكعب بن الأشرف ؟ فإنه قد آذى الله ورسوله » فقام محمد بن مسلمة فقال: يا رسول الله ، أتحب أن أقتله ؟ قال : « نعم ». قال : فأذن لى أن أقول شيئًا . قال: « قل » فأتاه محمد بن مسلمة فقال : إن هذا الرجل قد سألنا صدقة ، وإنه قد عنانا، وإنى قد أتيتك أستسلفك ، قال : وأيضًا والله لتُملَّنه . قال : إنا قد اتبعناه فلا نحب أن ندعه حتى ننظر إلى أى شىء يصير شأنه ، وقد أردنا أن تسلفنا وسقًا أو وسقين . فقال : نعم ؛ ارهنونى . قالوا : أى شىء تريد ؟ قال : ارهنونى نساءكم . قالوا : كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب ؟ قال : فارهنونى أبناءكم . قالوا : كيف نرهنك أبناءنا فيسب أحدهم فيقال : رهن بوسق أو وسقين، هذا عار علينا ، ولكنا نرهنك اللأمة ، وقال سفيان :(يعنى السلاح). فواعده أن يأتيه . فجاءه ليلاً ومعه أبو نائلة. وهو أخو كعب من الرضاعة ، فدعاهم إلى الحصن فنزل إليهم ، فقالت له امرأته: أين تخرج هذه الساعة ؟ قال : إنما هو محمد بن مسلمة، وأخى أبو نائلة . وقال غير عمرو: قالت : أسمع صوتًا كأنه يقطر منه الدم . قال : إنما هو أخى محمد ابن مَسلَمة ورضيعى أبو نائلة . إن الكريم لو دعى إلى طعنة بليل لأجاب . قال : ويدخل محمد ابن مسلمة معه رجلين ـ وقال غير عمرو : أبو عبس بن جبر بن الحارث بن أوس وعَّباد ابن بشر ـ فقال : إذا ما جاء فإنى قائل بشَعْره فأشمه ، فإذا رأيتمونى استمكنت من رأسه فدونكم فاضربوه ـ وقال مرة : ثم أُشِمكم ـ فنزل إليهم متوشحًا وهو ينفح منه ريح الطيب فقال: ما رأيت كاليوم ريحًا ـ أى أطيب ـ وقال غير عمرو : قال : عندى

(١) المغازى للواقدى ١/١٩٦ ، ١٩٧ .

أعطر نساء العرب وأكمل العرب ـ قال عمرو. فقال : أتأذن لى أن أشم رأسك ؟ قال : نعم . فشمّه ، ثم أشمَّ أصحابه ثم قال : أتأذن لى ؟ قال : نعم . فلما استمكن منه قال : دونكم ، فقتلوه ، ثم أتوا النبى ﷺ فأخبروه (١) .

٦ ـ شأن سرية القردة (٢) :

فيها زيد بن حارثة ، وهى أول سرية خرج فيها زيد رضي الله عنه أميرًا ، وخرج لهلال جمادى الآخرة على رأس سبعة وعشرين شهرًا .

حدثنى محمد بن الحسن بن أسامة بن زيد عن أهله قالوا : كانت قريش قد حذرت طريق الشام أن يسلكوها ، وخافوا من رسول الله ﷺ وأصحابه ، وكانوا قومًا تجارًا ، فقال صفوان بن أمية : إن محمدًا وأصحابه قد عوَّروا علينا متجرنا ، فما ندرى كيف نصنع بأصحابه ، لا يبرحون الساحل ، وأهل الساحل قد وادعهم ، ودخل عامتهم معه، فما ندرى أين نسلك ، وإن أقمنا نأكل رؤوس أموالنا ونحن فى دارنا هذه ، ما لنا بها نفاق(٣) ، إنما نزلناها على التجارة إلى الشام فى الصيف ، وفى الشتاء إلى أرض الحبشة ، قال له الأسود بن المطلب: فنكب(٤) عن الساحل وخذ طريق العراق ، قال صفوان : لست بها عارفًا . قال أبو زمعة: فأنا أدلك على أخبر دليل بها يسلكها وهو مغمض العين إن شاء الله . قال : من هو ؟ قال : فرات بن حيان العجلى ، قد دوخها وسلكها . قال صفوان: فذلك والله ، فأرسل إلى فرات ، فجاءه فقال : إنى أريد الشام وقد عوَّر علينا محمد متجرنا ؛ لأن طريق عيراننا عليه ، فأردت طريق العراق، قال فرات : فأنا أسلك بك فى طريق العراق ، ليس يطؤها أحد من أصحاب محمد ، إنما هى أرض نجد وفياف ، قال صفوان : فهذه حاجتى ، أما الفيافى فنحن شاتون، وحاجتنا إلى الماء قليل، فتجهز صفوان بن أمية ، وأرسل معه أبو زمعة بثلثمائة مثقال ذهب ونقَر فضة (٥) ، وبعث معه رجالاً من قريش ببضائع ، وخرج معه عبد الله ابن أبى ربيعة ، وحويطب بن عبد العزى ، ورجال من قريش ، وخرج صفوان بمال كثير نقر فضة ، وآنية فضة وزن ثلاثين ألف درهم ، وخرجوا على ذات عَرق .

---

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٣٣٦/٧ (٤٠٣٧) .

(٢) القردة : من أرض نجد بين الربذة والغمرة ناحية ذات عرق (طبقات ابن سعد ٢/ ٢٤) .

(٣) ما لنا بها نفاق : أى نفقة فهى كاسدة .

(٤) نكب : اعدل عنه وتنح .

(٥) نقر فِضَّة : قطع مذابة من الفضة .

وقدم المدينة نُعيم بن مسعود الأشجعى ، وهو على دين قومه . فنزل على كنانة بن أبى الحقيق فى بنى النضير ، فشرب معه وشرب معه سليط بن النعمان بن أسلم ، ولم تحرم الخمر يومئذ - وهو يأتى بنى النضير ويصيب من شرابهم - فذكر نعيم خروج صفوان فى عيره ، وما معهم من الأموال ، فخرج من ساعته إلى النبى ﷺ فأخبره ، فأرسل رسول الله ﷺ زيد بن حارثة فى مائة راكب فاعترضوا لها فأصابوا العير ، وأفلت أعيان القوم ، وأسروا رجلاً أو رجلين ، وقدموا بالعير على النبى ﷺ ، فخمَّسَها ، وكان الخمس يومئذ قيمة عشرين ألف درهم ، وقسم ما بقى على أهل السرية ، وكان فى الأسرى فرات بن حيان ، فأُتى به فقيل له : أسلم إن تسلم نتركك من القتل ، فأسلم فتركه من القتل(١) .

١ - فى عملية البناء التربوى التى حرص عليها رسول الله ﷺ فى المدينة كانت ظاهرة أهل الصفة ، والتى أخذت وضعها الطبيعى الواقعى على أبواب بدر ، بعد سبعة عشر شهرًا أو ستة عشر شهرًا من الهجرة ، حيث أقيمت دار الضيافة الكبرى بجوار بيت رسول الله ﷺ .

وحين نسمع عن دور الضيافات الملكية ، ونسمع عن ضباط الجيوش ، وأساتذة الجامعات المتفرغين ، وعن الحاشية الملكية من الأعوان والأنصار ، المتفرغين لخدمة الملوك والرؤساء،وحين نسمع عن الولائم الكبرى التى تقام لأمثال هؤلاء ، والترف الكبير والبذخ الذى يعيشه أولئك المقربون من سدة الحكم ، والذين يستأثرون بالثروات، والعلاوات الضخمة ، يمثل بين أيدينا الخالدون من أمتنا باسم - أهل الصفة - ففيهم الضيوف الوافدون وفيهم الحرس والخدم ، وفيهم طلبة العلم والمعلمون الكبار ، وفيهم الضباط والمقاتلون الأشداء، وفيهم المتفرغون للعبادة والطاعة لله ، أهل خاصته ، هؤلاء جميعًا هم : أهل الصفة ، ولكن شتان بين صورة هؤلاء عند أهل الأرض ، وصورة هؤلاء عند سيد ولد آدم محمد رسول الله ﷺ ، إنهم خاصة رسول الله وأحبابه وقرة عينه .

وصفهم الحافظ أبو نعيم بقوله : (هم قوم أخلاهم الحق من الركون إلى شيء من العروض ، وعصمهم من الافتتان بها عن الفروض ، وجعلهم قدوة للمتجردين من الفقراء - كما جعل من تقدم ذكرهم أسوة للعارفين من الحكماء - لا يأوون إلى أهل ولا مال ، ولا يلهيهم عن ذكر الله تجارة ولا مال ، لم يحزنوا على ما فاتهم من الدنيا ،

---

(١) المغازى للواقدى ١/ ١٩٧ .

ولا يفرحوا إلا بما أيّدوا به من العقبى ، كانت أفراحهم بمعبودهم ومليكهم ، وأحزانهم على فوت الاغتنام من أوقاتهم وأورادهم ، هم الرجال الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، ولم يأسوا على ما فاتهم ، ولم يفرحوا بما أتاهم ، حماهم مليكهم عن التمتع بالدنيا والتبسط فيها لكى لا يبغوا ولا يطغوا . رفضوا الحزن على ما فات من ذهاب وشتات، والفرح بصاحب نسب إلى بلى ورفات) (١) .

إنها مدرسة تربوية عليا مفتوحة يمكن الدخول إليها لمن شاء ، ولكن عليه أن يخضع لنظامها فى الطعام واللباس والنوم والأثاث ، وقد دخلها قادة كبار ، وشعراء كبار ، وعلماء كبار ، وسادة عظام ، عاشوا فيها أيامًا أو شهورًا أو سنين ، فهى مدرسة مفتوحة وجامعة عليا يديرها رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ويعطيها جل اهتمامه وكثيرًا من وقته بأمر رب العالمين، فعن سلمان الفارسى رضي الله عنه قال:

جاءت المؤلفة قلوبهم إلى رسول الله ﷺ : عيينة بن حصن ، والأقرع بن حابس، وذووهم. فقالوا : يا رسول الله ، إنك لو جلست فى صدر المسجد ، ونحيت عنا هؤلاء، وأرواح جبابهم ـ يعنون أبا ذر وسلمان وفقراء المسلمين ، وكان عليهم جباب الصوف لم يكن عندهم غيرها ـ جلسنا إليك وخالصناك ، وأخذنا عنك ، فأنزل الله عز وجل: **﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾** (٢). **وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾** حتى بلغ : **﴿ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾** (٣) يتهددهم بالنار ، فقام نبى الله يلتمسهم حتى أصابهم فى مؤخر المسجد يذكرون الله ، فقال رسول الله ﷺ : « الحمد لله الذى لم يمتنى حتى أمرنى أن أصبر نفسى مع قوم من أمتى ، معكم المحيا ومعكم الممات »(٤) .

وإن كان هذا الأمر قد وقع فى وقت متأخر ، وبعد دخولهم فى الإسلام ، فالرواية الثانية تشير إلى وقوع شبيه به فى وقت مبكر ، وقبل أن يدخل هذان الزعيمان فى الإسلام ، وحين لم يكن فى أهل الصفة إلا فقراء المهاجرين كما روى عن خباب ابن الأرت رضي الله عنه قال :

جاء الأقرع بن حابس التميمى ، وعيينة بن حصن الفزارى ، فوجد النبى ﷺ

---

(١) حلية الأولياء للحافظ أبى نعيم ١/٢٣٨ .

(٢) لابد من الإشارة إلى أن هذه الآيات قد ورد فى أسباب نزولها موقف مشركى مكة من ضعفة المسلمين ، لكن هذا لا يمنع من تكرار النزول وتكرار السبب .

(٣) الكهف / ٢٧ ، ٢٨.

(٤) حلية الأولياء للحافظ أبى نعيم ١/٣٤٥ .

قاعدًا مع بلال وعمار وصهيب وخباب فى أناس من الضعفاء المؤمنين ، فلما رأوهم حقروهم، فخلوا به فقالوا : إنا نحب أن تجعل لنا منك مجلسًا تعرف لنا العرب فضلاً ، فإن وفود العرب تأتيك فنستحى أن ترانا العرب قعودًا مع هذه الأعبد ، فإذا نحن جئناك فأقمهم عنا ، فإذا نحن فرغنا فاقعدهم إن شئت ، قال:« نعم ! » قالوا : فاكتب لنا عليك كتابًا ، فدعا بالصحيفة ليكتب لهم ، ودعا عليًا ـ عليه السلام ـ ليكتب ، فلما أراد ذلك ـ ونحن قعود فى ناحية ـ إذ نزل جبريل ـ عليه السلام ـ فقال : ﴿ **وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ** ﴾ إلى قوله : ﴿ **فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ** ﴾ ثم ذكر الأقرع وصاحبه فقال : ﴿ **وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ** ﴾ ثم ذكر فقال تعالى : ﴿ **وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ** ﴾ (١) ، فرمى رسول الله ﷺ بالصحيفة، ودعانا فأتيناه وهو يقول : « سلام عليكم » فدنونا منه حتى وضعنا ركبنا على رُكبته فكان رسول الله ﷺ يجلس معنا ، فإذا أراد أن يقوم قام وتركنا .فأنزل الله ـ عز وجل ـ : ﴿ **وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** ﴾ يقول: لا تعد عيناك عنهم وتجالس الأشراف ﴿ **وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا** ﴾ (٢) ، ثم ضرب لهم مثل الرجل ومثل الحياة الدنيا ، وقال : فكنا بعد ذلك نقعد مع النبى ﷺ فإذا بلغنا الساعة التى كان يقوم فيها قمنا وتركناه حتى يقوم ، وإلا صبر أبدًا حتى نقوم ، رواه عمر بن محمد العنقزى عن أسباط مثله (٣) .

فهؤلاء ـ كما ذكرناهم ـ أهله وخاصته، يرعاهم بعينه، ويحوطهم بقلبه، ويؤثرهم على فاطمة بنت محمد بضعته، فكما مر معنا ، عندما جاءت فاطمة ـ رضى الله عنها ـ وقد تشققت يداها من الرحى وتعبت حتى أُعيت وجاءت تطلب خادمًا من أبيها كان جوابه ﷺ ولزوجها الحبيب : « لا أعطيكما وأدع أهل الصفة تلوى بطونهم من الجوع»(٤) .

إن التوجيه الربانى لا يكتفى لهذه النماذج العالية الخالدة أن يكون لهم مجلساً خاصاً ويصرفون عن مجلس الملأ ، بل يريد لسيد الخلق ، أن يصبر نفسه معهم ويمضى

---

(١) الأنعام / ٥٢ ــ ٥٤ .
(٢) الكهف / ٢٨ .
(٣) حلية الأولياء للحافظ أبى نعيم ١/ ٣٤٤ ، ٣٤٥ .
(٤) المسند للإمام أحمد ١ / ٧٩ ، ١٠٦ .

جل وقته فى رعايتهم والاهتمام بهم ، وفرح رسول الله ﷺ بهذا التوجيه الربانى، وأشرفت له نفسه الشريفة أن يوجد من أمته من يوصيه ربه بالصبر معهم والتفرغ لهم حيث قال : « الحمد لله الذى لم يمتنى حتى أمرنى أن أصبر نفسى مع قومٍ من أمتى ، معكم المحيا ، ومعكم الممات » [(١)].

الخراف المحشية اللحوم الوافرة والأطعمة الدسمة ، لأصحاب النفوذ المقربين من الحكام، أما هؤلاء سادة أهل الأرض يحدثنا عن طعامهم اليومى: طلحة بن عمرو - رضي الله عنه فيقول : (كان الرجل إذا قدم على النبى ﷺ وكان له بالمدينة عريف [(٢)] نزل عليه ،وإذا لم يكن له عريف نزل مع أصحاب الصفة ،وكنت فيمن نزل الصفة فوافقت رجلاً ، وكان يجرى علينا من رسول الله ﷺ كل يوم مد[(٣)] من تمر بين رجلين) [(٤)] .

هذا هو طعامهم اليومى، لكن هذا لا يمنع أن يتسابق المسلمون فى دعوة أضياف الإسلام إليهم خاصة ، وقد يأتى يوم لا يوجد فيه قوتهم الضرورى من التمر.

فعن عبد الرحمن بن أبى بكر : أن أصحاب الصفة كانوا أناسًا فقراء ، وأن رسول الله ﷺ قال : « من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث ، ومن كان عنده طعام أربعة فليذهب بخامس أو سادس » وانطلق نبى الله ﷺ بعشرة [(٥)].

فإذا كانت الضيافة من أبيات المسلمين بثلاثة، فرسول الله ﷺ أكرم الخلق يمضى بعشرة ، وليس هو ذلك الحاكم الذى يتسابق الناس على استضافته ، ولا يشارك فى استضافتهم، أو أن الضيافة من تلك المنح الخاصة التى تخصص للحاكم أو الرئيس فينفق منها. إنه قد لا يجد ما يأكله ، وسبق أن مضى ﷺ بضيوف ، وسأل أبياته التسعة فلم يجد عند أحد منهم ولا قطعة خبز من شعير .

هذه هى القدوة الحية التى يتمثلها الجيل كله ، القدوة فى الزهد، والقدوة فى التجرد عن الدنيا ،والقدوة فى الاكتفاء بأقل القليل من الطعام وأبسط البسيط منه ، هى شاخصة أمام المجتمع الإسلامى كله .

هذا هو طعامهم ، ومع ذلك فلم يكن مهيئًا الضيافة أحيانًا ، ولا مُدُّ التمر بين الرجلين أحيانًا أخرى ، وكما قال فضالة بن عبيد :(كان رسول الله ﷺ إذا صلى

---

(١) الحلية لأبى نعيم ١/ ٣٤٤ ، ٣٤٥ .
(٢) العريف هنا بمعنى : رجل يعرفه لصداقة أو قرابة .
(٣) المد : ملء كفى الإنسان المعتدل إذا ملأهما .
(٤) الحلية لأبى نعيم ١/ ٣٣٩ .
(٥) حلية الأولياء للحافظ أبى نعيم ١/ ٣٣٨ ، وقال : « هذا حديث صحيح متفق عليه » .

بالناس يحر رجال من قامتهم فى صلاتهم لما بهم من الخصاصة - وهم أصحاب الصفة - حتى يقول الأعراب : إن هؤلاء مجانين)(١) .

لقد تفرغوا لله ولرسوله،وفرغت قلوبهم من هموم الدنيا ، ونفوسهم من ملذاتها، وشهدوا لذة هذا الوجود؛ بتلقى العلم كالشهد من فم رسول الله ﷺ، حيث كان يحدثهم كما يقول عقبة بن عامر رضي الله عنه : « أيكم يحب أن يغدو كل يوم إلى بطحاء والعقيق فيأتى منه بناقتين كوماوين فى غير إثم ولا قطيعة رحم ؟ » فقلنا: يا رسول الله، كلنا نحب ذلك، قال: « أولا يغدو أحدكم إلى المسجد فيتعلم أو يقرأ آيتين من كتاب الله خير له من ناقتين وثلاث وأربع ، خير له من أربع ومن أعدادهن من الإبل » (٢) .

وكان الموسرون من المسلمين يتنافسون فى استضافة أهل الصفة تقربًا إلى الله - عز وجل - بذلك ، فكان سعد بن عبادة يرجع إلى أهله كل ليلة بثمانين منهم .

إن الضباط الكبار، وقادة الجيوش المتفرغين والمتطوعين ، قد يمضى أحدهم عمره كله ، ولا يخوض معركة واحدة ضد العدو ، ويغدو موظفًا عاديًا يأخذ أعلى الرواتب، وأعلى العلاوات ، وأعلى الأوسمة ، وينظر إليه على أنه الحاكم الحقيقى المنقذ فى الدولة، أما هؤلاء الذين قد يخوضون فى العام الواحد أكثر من معركة ، وبين المعركة والأخرى يكون منصبًا بكل وقته وجهده يتلقى العلم ويتفرغ للذكر حتى ليحرص القائد الأعظم أن يشاركهم فيه . فعن ثابت البنانى قال : كان سلمان فى عصابة يذكرون الله عز وجل - فمر النبى ﷺ ، فكفوا فقال: « ما كنتم تقولون ؟ » فقلنا: نذكر الله يا رسول الله، قال: « قولوا ، فإنى رأيت الرحمة تنزل عليكم ، فأحببت أن أشارككم فيها » ثم قال : « الحمد لله الذى جعل فى أمتى من أمرت أن أصبر نفسى معهم »(٣) .

وكم رؤى - عليه الصلاة والسلام - وهو مستغرق مع أهل الصفة علمًا ،واهتمامًا.

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : أقبل أبو طلحة يومًا ، فإذا النبى ﷺ قائم يقرئ أصحاب الصفة ، على بطنه فصيل من حجر ، يقيم به صلبه من الجوع(٤) .

وهذه صورة ثانية من صور لقاء إمام المربين - عليه الصلاة والسلام - مع هذه القمم: فعن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه قال : أتى علينا رسول الله ﷺ ونحن أناس من ضعفة المسلمين ، ورجل يقرأ علينا القرآن ويدعو لنا ، ما أظن رسول الله ﷺ يعرف

---

(١) حلية الأولياء للحافظ أبى نعيم ١/ ٣٣٩ . (٢) المصدر نفسه ١/ ٣٤١ .
(٣،٤) المصدر نفسه ١/ ٣٤٢ .

أحداً منهم وإن بعضهم ليتوارى من بعض من العرى .

وصدرت الإشارة النبوية باجتماع كامل أهل الصفة دون أن يتوارى أو يختبئ أحد.

(فقال رسول الله ﷺ بيده . فأداراها شبه الحلقة ، فاستدارت له الحلقة) وبدأت المباحثات النبوية بين الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأهل الصفة :

ـ « بم كنتم تراجعون ؟ » .

ـ قالوا : هذا رجل يقرأ علينا القرآن ويدعو لنا .

ـ قال : « فعودوا لما كنتم فيه » ثم قال : « الحمد لله الذى جعل فى أمتى من أمرت أن أصبر نفسى معهم » .

وكان هذا إعلان الترفيع الأول لهذه الصفوة المختارة .

وكان الترفيع الثانى صادراً لهم من الله ـ سبحانه ـ تلقوه وهم أسعد وأرغد ما يكونون فيه ، وقال : « ليبشر فقراء المؤمنين بالفوز يوم القيامة قبل الأغنياء بمقدار خمسمائة عام ، هؤلاء فى الجنة ينعمون ، وهؤلاء يحاسبون »(١) .

وهذه صورة ثالثة من صور لقاء الحبيب المصطفى ﷺ مع هذه الصفوة الحبيبة الأثيرة إلى قلبه .

فعن الحسن قال :جاء رسول الله ﷺ إلى أهل الصفة . فقال : « كيف أصبحتم؟» قالوا : بخير . فقال : « أنتم اليوم خير ، وإذا غُدى على أحدكم بجفنة ، وربح بأخرى ، وستر أحدكم بيته كما تستر الكعبة ؟ » .

قالوا : يا رسول الله، نصيب ذلك ونحن على ديننا ؟

ولم يكن يخطر لهم أن نعيم الدنيا يمكن أن ينال مع سلامة الدين .

قال : « نعم » .

قالوا : فنحن يومئذ خير نتصدق ونعتق .

فقال رسول الله ﷺ : « لا بل أنتم اليوم خير ، إنكم إذا أصبتموها تحاسدتم وتباغضتم وتقاطعتم »(٢) .

وعاد ﷺ فأكد لهم هذا المعنى فى لقاء رابع، كما روى الحسن ـ رحمه الله :

(بنيت صفة لضعفاء المسلمين ، فجعل المسلمون يوغلون إليها ما استطاعوا من

---

(١) حلية الأولياء للحافظ أبى نعيم ١/ ٣٤٧ ،وقال : « رواه جعفر بن سليمان عن المعلى بن زياد بإسناد مثله».

(٢) المصدر نفسه ١/ ٣٥٠ وقال فيه : « كذا رواه أبو معاوية مرسلاً » .

خير، فكان رسول الله ﷺ يأتيهم فيقول: « السلام عليكم يا أهل الصفة ». فيقولون : وعليك السلام يا رسول الله ، فيقول : « كيف أصبحتم ؟ » ، فيقولون : بخير يا رسول الله ، فيقول : « أنتم اليوم خير من يوم يغدى على أحدكم بجفنة ويراح عليه بأخرى ، ويغدو فى حلة ويروح فى أخرى وتسترون بيوتكم كما تستر الكعبة » .

إنها صورة مغرية براقة خلابة يضعها رسول الله ﷺ بين يدى هذه الصفوة فى عملية تربية خالدة ، وفى امتحان عسير يكشف بها نفوسهم .

كم الفرق شاسع بين أن يغدوا أحدهم فى حلة ويروح فى أخرى ، وبينهم الآن كما وصفهم أبو هريرة رضي الله عنه فيما بعد : كان من أهل الصفة سبعون رجلاً ليس لواحد منهم رداء) (١) .

كم الفرق بين الغدو فى حلة والرواح فى أخرى ، وبين أن يكون عارى الصدر والظهر لا رداء عنده ؟

كم الفرق بين الغدو فى جفنة ، والرواح فى أخرى وبين السقوط من الجوع ، والحلم فى تمرات طعام هذا اليوم الطويل ؟

كم الفرق بين مهجع جماعى لسبعين على أقل تقدير فى ظلٍ من جريد النخل ، وبين قصر منيف تستر نوافذه وأبوابه وجدره كما تستر الكعبة ؟

إن الفرق شاسع فى مفهوم أهل الدنيا ، وكان جواب هذه الصفوة المختارة .

قالوا : نحن يومئذ خير ، يعطينا الله تعالى ، فنشكر ، فقال رسول الله ﷺ : « بل أنتم اليوم خير »(٢) .

إنه البناء الداخلى من الأعماق ، فى أن هذا الفقر اختيارى وليس إجباريًا . فالباب مفتوح لمن أراد أن يغادر هذا الموقع ، ويدع هذا التفرغ ويمضى ساعيًا لرزقه ، وساعيًا لبناء عيالٍ وبيت جديدين ، فالسوق قائم ، والأنصار العظام يتقربون إلى الله بأخوة هؤلاء ، لكن هذه الدار ، دار ضيافة الإسلام ، دار العلم ودار الجهاد ، هذه الدار لها حظوة خاصة واهتمام خاص من سيد الخلق ـ عليه السلام ـ فبهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ ينصر ، وبهم يقدم النماذج العالية الرفيعة التى تمثل الزهد الاختيارى بين يدى هذه الأمة الفتية .

---

(١) حلية الأولياء للحافظ أبى نعيم ١/٣٣٩ .

(٢) المصدر نفسه ١/ ٣٤٠ .

﴿ ... وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ . وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾[1] .

قال الشيخ ـ رحمه الله ـ : والمتحققون بالفقر من الصحابة وتابعيهم إلى قيام الساعة أمارة ، وأعلام الصدق لهم شاهرة ، وبواطنهم بمشاهدة الحق عامرة ، إذ الحق شاهدهم وسائسهم ، والرسول ﷺ سفيرهم ومؤدبهم ، وحق لمن أعرض عن الدنيا وغرورها ، وأقبل على العقبى وحبورها ، فعزفت نفسه عن الزائل الواهى ، ونابذ الزخارف والملاهى ، وشاهد صنع الواحد الباقى ، واستروح روائح المقبل الآتى من دوام الآخرة ونضرتها ، وخلود المجاورة وبهجتها، وحضور الزيارة وزهرتها ، ومعاينة المعبود ولذتها؛ أن يكون بما اختار له المعبود من الفقر راضيًا ، وعما اقتطعه منه ساليًا ، ولما ندبه إليه ساعيًا ، وللخواطر قلبه راعيًا ، ليصير فى جملة المطهرين و يحشر فى زمرة الضعفاء والمساكين ،ويقرب بما خص به الأبرار من المقربين ، فيغتنم ساعاته عن مخالطة المخلصين ، ويصون أوقاته عن مسالة المبطلين ، ويجتهد فى معاملة رب العالمين ، مقتدياً فى جميع أحواله بسيد السفراء والمرسلين ... استوطنوا الصفة فصفوا من الأكدار . ونقوا من الأغيار، وعصموا من حظوظ النفوس والأبشار ، وأثبتوا فى جملة المصطنع لهم من الأبرار ، فأنزلوا فى رياض النعيم . وسقوا من خالص التسنيم[2] .

بقى علينا أن نعرف عن أهل الصفة هؤلاء أمران :

الأمر الأول : أنهم أهل الله وخاصته ، ورئيس الوزراء فى دولة الإسلام ، والشخص الأول فيها مكلف بالحصول على رضاهم، وهو خير من طلعت عليه الشمس بعد الأنبياء والمرسلين .

فعن عائذ بن عمرو: أن أبا سفيان بن حرب مر بسلمان وصهيب وبلال فقالوا : ما أخذت السيوف من عنق عدو الله مأخذها ، فقال لهم أبو بكر : تقولون هذا لشيخ قريش وسيدها ؟! ثم أتى النبى ﷺ فأخبره بالذى قالوا . فقال :

« يا أبا بكر لعلك أغضبتهم ؟ والذى نفسى بيده لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك » ، فرجع إليهم فقال : يا إخوانى لعلى أغضبتكم ؟ فقالوا : لا يا أبا بكر يغفر الله لك[3] .

---

(١) هود / ٢٩ ، ٣٠ .
(٢) حلية الأولياء ١/ ٣٤٣ .
(٣) المصدر نفسه ١/ ٣٤٦ ، وهو عند مسلم فى الفضائل رقم (٢٥٠٤) .

والأمر الثانى : هم أول الفائزين يوم القيامة ، لا يسبقهم أحد ، ولا يبلغ شأوهم أحد ولا الملائكة المقربون ، كما روى عبد الله بن عمرو بن العاص عن رسول الله ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « هل تدرون أول من يدخل الجنة ؟» ، قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : «فقراء المهاجرين الذين تتقى بهم المكاره ، يموت أحدهم وحاجته فى صدره لا يستطيع لها قضاء ، فتقول الملائكة : ربنا نحن ملائكتك وخزنتك وسكان سمواتك لا تدخلهم الجنة قبلنا، فيقول: عبادى لا يشركون بى شيئًا : تتقى بهم المكاره ، يموت أحدهم وحاجته فى صدره لم يستطع لها قضاء ، فعندئذ تدخل عليهم الملائكة من كل باب ، سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار »(١) .

٢ ـ **الغزوات الثلاث** : لقد كانت الغزوات الثلاث على رأسها رسول الله ﷺ ، وابتدأت بمنتصف المحرم من العام الثالث للهجرة ، بمعدل غزوة كل شهرين ، فقد كانت فى المحرم ، وفى ربيع الأول ، وفى جمادى الأولى ، وكانت فى ساحة واحدة تقريبًا، ومع عدو واحد ، مع غطفان وسليم ، فهم أقرب القبائل الكبرى للمدينة ، وهم حلفاء متعاطفون مع قريش، ولعل هذا الحلف غير المعلن ،منشؤه الخوف من الخطر الإسلامى الجديد الذى حلّ فى يثرب ، ووحد الأوس والخزرج تحت راية واحدة ، وانصاع له فى ظاهر الأمر كل قيادات المدينة مثل عبد الله بن أبى وغيره بعد أن أعلن إسلامه .

وغطفان وسليم من القبائل التى خاضت غمار الحرب ، وأتقنت فن القتال، ويكفى أن نذكر حرب داحس والغبراء ، والتى استمرت عشر سنين لا تهدأ بين عبس ابن بغيض، وذبيان بن بغيض من بنى غطفان ، وأكلت الأخضر واليابس ، وأفنت الشباب ورملّت النساء وبرزت فيها قيادات مجربة كبرى فى تاريخ الحروب ، ونذكر الحروب بين سليم وغطفان نفسها والتى خلّدت الخنساء شاعرة بنى سليم ذكرها فى رثائها لأكبر قوادها صخر بن الشريد، ومعاوية بن الشريد أخويها ، وذلك فى حروب سليم مع بعض قبائل غطفان .

وغطفان من القبائل الكبرى عمومًا ذات الصول والجولة ، وأهم فروعها :

عبس بن بغيض ، وذبيان بن بغيض ، وأنمار بن بغيض ، وعبد الله بن غطفان، وأشجع بن رئب . ومن بطون عبس : بنو جذيمة ، وبنو جروة؛ وبنو هرم . ومن بطون ذبيان : ثعلبة وفِزارة ومرة .

أما سليم فتمت بنسب القربى إلى هوازن وثقيف وعامر بن صعصعة وبنى هلال ، كبرى قبائل العرب. والملاحظ أن غطفان وسليم قد بدؤوا يفكرون بغزو المدينة ، بعد

(١) حلية الأولياء للحافظ أبى نعيم ١/ ٣٤٧ .

مقدم أبى سفيان فى ذى الحجة من العام الثانى للهجرة ، وقتله الأنصارى وحليفه ، وفراره إلى مكة . فبعد أقل من شهر ، هم جمع من غطفان وسليم بالغزو ، ويقظة الرسول ﷺ ، وتعرفه على الساحة التى يتحرك فيها ، ويقيم بها دولته ، اقتضت أن ينقض بالجيش المسلم على هذه الجموع وهى فى مهدها ، وهى لا تزال تفكر بالغزو ، فكان هذا فى قرارة الكدر حيث انفض الجمع هاربًا بالجبال من الجيش المسلم الذى غزاه، وعلى النهج نفسه كانت غزوة غطفان بذى أمر فى ربيع الأول حيث فكر المغامر الجرىء (دعثور سيد بنى ثعلبة) بغزو المدينة ، وإذا بالغبار يتكشف عن الجيش المسلم فى أرضه يفرق جمعه فى ذرى الجبال ، وعلى النهج نفسه كانت غزوة بنى سُليم ببحران فى جمادى الأولى حيث هربت سليم وهى لا تزال تعد الجموع لغزو المدينة .

إنها القيادة الساهرة التى تعرف العدو : قوته ، وخططه ، ومدده ، وتتصرف التصرف المناسب ، وتتخذ القرار الواعى، والمبادرة السريعة؛ لتحطم هذه التجمعات قبل أن يستفحل أمرها ، وتصبح خطرًا على المدينة .

ونظرة أخرى إلى هذه الغزوات فى هذه الصحراء المترامية الأطراف ، على طريق نجد . هى أنها كانت دورات تدريبية تربوية للجيل الأول الذى بدأت تتقاطر له الأعداد الجديدة بعد بدر ، والشىء الجديد فيها : أنها لم تأخذ طابع التعبئة العامة، إنما أخذت طابع المبادرة الشخصية ،وأصبح الأنصار شركاء فيها بعد أن كانت الغزوات قبل بدر خاصة بالمهاجرين،وترتفع الأعداد فى هذه الغزوات،من ثلاثمائة إلى خمسمائة ، وتسعد هذه الأعداد بالقيادة النبوية ترافقها ،وتدربها وتربيها ،فتكاد تكون على رأس كل شهرين دورة تمتد من خمسة أيام إلى خمسة عشر يومًا ، تتم فيها الحياة الجماعية ، ويختبر بها الانضباط العالى ، والتدريب المتقن ، والخبرة الجديدة على المواجهة ، فالغزوات الثلاثة هذه لم يلق فيها رسول الله ﷺ كيدًا، ولم يخض حربًا ، إنما كانت هجومًا مباغتًا على مواقع العدو ، وتحديًا عظيمًا لقوتهم، وعرضاً للقوة الإسلامية داخل أرضه وفى مضاربه، فتشيع الإرهاب والذعر فى نفوس العدو من أن يفكر فى هجوم لاحق .

إن جو المدينة ، والمسجد النبوى تتم التربية فيه من خلال الموعظة العامة ، ومن خلال القدوة العظيمة ، ومن خلال العبادة الخاشعة لله ـ عز وجل ـ لكن تحويل هذه المواعظ إلى واقع عملى ما كان ليتم إلا من خلال هذه الحياة العسكرية الخشنة ، حيث يتم التطبيق العملى لهذه المعانى من خلال هذه الحياة الجهادية .

ولعل أهم حدث فى هذه الغزوات الثلاث هى محاولة اغتيال رسول الله ﷺ من دعثور بن محارب سيد بنى ثعلبة وفاتكها وفارسها الجرىء حيث وقف على رأس رسول

الله ﷺ بسيفه وهو يقول له : من يمنعك منى ، فيقول له ﷺ : « الله » ويتقدم سيد الفدائيين جبريل ـ عليه الصلاة والسلام ـ ليحمى حبيبه محمداً ﷺ من هذا الفارس وبلكزة منه يسقط السيف من يد دعثور ، ليصبح فى يد محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فيسأل دعثوراً قائلاً : « من يمنعك منى ؟ » فيقول : لا أحد . فيعفو عنه رسول الله ﷺ ليمضى دعثور بعدها داعية إلى رسول الله ﷺ ، يقص على قومه هذه المعجزة الخالدة . فيضع فى أعماقهم بذور الإيمان ، التى تثمر بعد عمر طويل ، وتتخمر بها نفوسهم ، حتى وهم يحاربون الرسول ـ عليه الصلاة والسلام .

ويأتى القرآن الكريم ليقص على الجيش المسلم قصة هذه المعجزة ، وكيف حمى الله تعالى نبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ دون حول ولا طول من الجيش المسلم: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** ﴾ (١).

وهى إشارة إلى أن رسول الله ﷺ هو الأمة كلها ، وقد حفظ الله الأمة بحفظه .

الفترة قصيرة جداً بين بدر وأحد ، هى سنة ونيف ، وقد انضمت أعداد كبيرة إلى المجتمع الإسلامى الجديد . وفيها كثير ممن لا يزال الإسلام ضعيفًا فى قلبه ، فلابد من دورات تربوية وعسكرية مكثفة ، لتهيئ انضمام هذه الأعداد إلى الإسلام انضمامًا فعليًا، وليست لزعامة عبد الله بن أبى ، فكانت هذه الدورات الدؤوبة . تصد هجمات العدو، وترص الصف الإسلامى ، وتكسبه الخبرة والدربة المطلوبة ، وتصهره ليكون على أقدام السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار .

٣ـ ويطالعنا من طرف آخر هاتان المهمتان الضخمتان اللتان مثلتا عظمة التربية فى هذا الجيل، وآثارها الضخمة التى بدأت تؤتى أكلها فى قلب الأحداث .

هاتان المهمتان الضخمتان هما: سرية قتل كعب بن الأشرف ، وعلى رأسها سيدُ أنصارى هو :محمد بن مسلمة رضي الله عنه وسرية القردة ، وعلى رأسها سيد مهاجرى هو: زيد بن حارثة ـ رضوان الله عليه ـ حيث نقف عندهما بإسهاب.

هذه هى صورة المدينة كما ذكرها الواقدى قبيل مقتل كعب بن الأشرف .

كان رسول الله ﷺ قدم المدينة ، وأهلها أخلاط . منهم المسلمون الذين تجمعهم دعوة الإسلام ، فيهم أهل الحلقة والحصون ، ومنهم حلفاء للحيين جميعًا الأوس والخزرج ، فأراد رسول الله ﷺ حين قدم المدينة استصلاحهم كلهم وموادعتهم ، وكان

---

(١) المائدة / ١١ .

الرجل يكون مسلمًا وأبوه مشركًا ، فكان المشركون واليهود من أهل المدينة يؤذون رسول الله ﷺ وأصحابه أذىً شديدًا ، فأمر الله - عز وجل - نبيه والمسلمين بالصبر على ذلك والعفو عنهم وفيهم أنزل : ﴿ **وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ** ﴾ (١) ، وفيهم أنزل الله - عز وجل -: ﴿ **وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ** . . . ﴾ (٢) ، فلما أبى ابن الأشرف أن ينزع عن أذى النبى ﷺ وأذى المسلمين ، وقد بلغ منهم. فلما قدم زيد بن حارثة بالبشارة من بدر بقتل المشركين ، وأسر من أسر منهم ، فرأى الأسرى مقرنين كبت وذَلَّ ، ثم قال لقومه : ويلكم والله لبطن الأرض خير لكم من ظهرها اليوم ، هؤلاء سراة الناس قد قُتلوا وأُسروا ، فما عندكم ؟ قالوا : عداوته ما حيينا ، قال : وما أنتم وقد وطئ قومه وأصابهم ؟ ولكنى أخرج إلى قريش فأحضهم وأبكى قتلاهم ، فعلهم ينتدبون فأخرج معهم، فخرج حتى قدم مكة ، ووضع رحله عند أبى وداعة بن ضبيرة السهمى ، وتحته عاتكة بنت أسيد بن أبى العيص ، فجعل يرثى قريشًا ويقول :

طحنت رحى بدر لمهلك أهله ... ولمثل بدر تستهل وتدمع
قُتلت سراة الناس حول حياضه ... لا تبعدوا إن الملوك تصرع
ويقول أقوام أذلُّ لسخطهم ... إن ابن أشرف ظل كعبًا يجزع
صدقوا فليت الأرض ساعة قُتِّلُوا ... ظلَّت تسيخ بأهلها وتصدَّع
كم قد أصيب بها من أبيض ماجد ... ذى بهجة يأوى إليه الضُّيَّع (٣)
طلق اليدين إذا الكواكب أخلفت (٤) ... حمَّال أثقال يسود ويربع
نبئت أن بنى المغيرة كلهم ... خشعوا لقتل أبى الحكيم وجدَّعوا
وابنا ربيعة عنده ومنَبِّه ... هل نال مثل المهلكين التُّبَّع

ودعا رسول الله ﷺ حسانًا ، فأخبره بنزول كعب على من نزل ، فقال حسان:

ألا أبلغوا عنى أسيدًا رسالة ... فخالك عبد بالسراب مجرب
لعمرك ما أوفى أسيد بجاره ... ولا خالد ولا المفاضة زينب
وعتَّاب عبد غير موف بذمة ... كذوب شُؤون الرأس قرد مجرَّب

---

(١) آل عمران / ١٨٦ .
(٢) البقرة / ١٠٩ .
(٣) الضُّيَّع : جمع ضائع وهو الجائع .
(٤) أخلفت الكواكب : أخلَّت فلم يكن فيها مطر .

فلما بلغها هجاؤه نبذت رحله وقالت : ما لنا ولهذا اليهودى ؟ ألا ترى ما يصنع بنا حسان ؟ فتحوَّل ، فكلما تحوَّل عند قوم دعا رسول الله ﷺ حساناً ، فقال : ابن الأشرف نزل على فلان . فلا يزال يهجوهم حتى نبذ رحله ، فلما لم يجد مأوى ، قدم المدينة[1] .

كان كعب بن الأشرف يهوديًا ، قال ابن عقبة : هو من بنى النضير ، وقال ابن إسحاق : هو من بنى نبهان ، من طيئ وأمه من بنى النضير ، وكان شاعراً يؤذى رسول الله ﷺ ويهجو الصحابة ـ رضى الله تعالى عنهم ـ ويحرض عليهم الكفار[2] .

وروى ابن سعد عن الزهرى فى قوله تعالى : ﴿**وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً**﴾ [3] قال: هو كعب بن الأشرف . فإنه كان يحرِّض المشركين على رسول الله ﷺ وأصحابه ـ يعنى فى شعره يهجو النبى ﷺ وأصحابه .

فقد أجمعت المصادر على أنه رأس الحربة فى مواجهة النبى ﷺ . وكان العام الأول فى المدينة ، عام صبر ومسالمة ، خاصة داخل يثرب ومع اليهود ، فى محاولة لجذبهم للإسلام من خلال الحوار الهادئ والجدال الحسن ، فهم أهل الكتاب الأول ، ونزلت الأوامر الربانية بالصبر عليهم وتحمل أذاهم ، لكنهم أظهروا من ضروب الكيد وفنون المواجهة ما لا سبيل إلى التغاضى عنه ، وكان القرآن الكريم ينزل تباعًا فى فضح هذا الكيد وكشف تلك المؤامرات ، وكانت العهود تحكم بين المسلمين واليهود ، بحيث لا يتجاوز الخلاف الإطار الفكرى، أما فى الجانب السياسى : فقد كانت العهود إعلانًا بالولاء للدولة المسلمة الجديدة ، وألا يناصروا على رسول الله ﷺ عدواً ، وأن عليهم النصرة على من دهم يثرب، لكن كعب بن الأشرف ، وزميله حيى بن أخطب من قادة بنى النضير ، كان حقدهم أكبر من عقلهم ، فأظهروا العداوة والبغضاء لله ولرسوله ، وجاءت غزوة بدر ، لتكون فرقانًا بين عهدين ـ عهد الصبر والمصابرة ، وعهد المواجهة والمعركة ـ وأعلن كعب بن الأشرف انضمامه صراحة لمعسكر قريش .

ثم رأى بعينه ما حلَّ ببنى قينقاع الذين نبذوا عهدهم لرسول الله ﷺ . وأرادوا خيانته ، وأعلنوا الحرب ضد المسلمين يتحدونهم ويطلبون مواجهتهم ، وانتهت المعركة ببنى قينقاع جميعًا . أن يُجلوا عن المدينة بعد شفاعة ابن أُبى لهم عن القتل .

ولم تثن هذه النتائج كعبًا عن طريقه . وتجاوز عملية الهجاء والنيل من رسول الله ﷺ وصحبه إلى الخطوات التآمرية المعلنة فيمضى إلى مكة يحرضهم على غزو المدينة .

---

(1) المغازى للواقدى ١/ ١٨٤ - ١٨٦ .
(2) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦/ ٤٠ .
(3) آل عمران / ١٨٦ .

وافتتح رسول الله ﷺ المعركة معه وهو فى مكة ، حيث كان حسان بن ثابت رضي الله عنه يرد على تباكيه على قريش ، ويهجو كل من يستضيفه منهم ، ويُنبذ كعب من بيوتات قريش جميعًا ، وهُزم فى المعركة السياسية ، وكان المفروض بهذا الدرس الثالث أن يثنيه عن عزمه .

عاد والحقد يأكل قلبه إلى المدينة ، لا ليعتذر ويعلن توبته عن خيانته السافرة، إنما ليتابع المعركة داخل المدينة ، ويتابع هجاء النبى ﷺ وصحبه ، والتشبيب بنساء المسلمين، ونال من أم الفضل بنت الحارث زوجة العباس عم رسول الله ﷺ فشبب بها وقال :

أراحل أنت لم نحلل بمنقبة   وتارك أنت أم الفضل بالحرم

وفى رواية موسى بن عقبة ما يبرز هذا العداء المعلن أكثر فأكثر . إذ يقول :

(وكان كعب بن الأشرف اليهودى وهو أحد بنى النضير وقيمهم ، قد آذى رسول الله ﷺ بالهجاء ، وركب إلى قريش ، فقدم عليهم فاستغواهم على رسول الله ﷺ فقال له أبو سفيان : أناشدك الله أديننا أحب إلى الله أم دين محمد وأصحابه ؟ وأينا أهدى برأيك وأقرب إلى الحق ؟ فإنا نطعم الجزور الكوماء، ونسقى اللبن على الماء ، ونطعم ما هبت الشمال ، فقال ابن الأشرف: أنتم أهدى منه سبيلا ، ثم خرج مقبلاً قد أجمع رأى المشركين على قتال رسول الله ﷺ معلنًا بعداوته وهجائه . . .) .

وهنا نلحظ ذلك الخط الذى اختطه ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى التربية منذ بدر، وفى استخلاص أعظم الطاقات لتكون فى خدمة الدعوة . حيث يحدِّد ـ عليه الصلاة والسلام ـ المهمة الجسورة المطلوبة ، ويطلب من الطاقات الكامنة أن تبرز إلى الساحة لأدائها .

قال رسول الله ﷺ : « من لنا من ابن الأشرف فقد استعلن بعداوتنا وهجائنا، وخرج إلى قريش فأجمعهم على قتالنا قد أخبرنى الله ـ عز وجل ـ بذلك ، ثم قدم على أخبث ما كان ينتظر قريشًا أن يقدم ، فيقاتلنا معهم » ثم قرأ رسول الله ﷺ على المسلمين ما أنزل الله فيه : ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا** ﴾[1] وآيات فى قريش معها [2] .

وكما سبق أن تم مقتل عصماء بنت مروان، ومقتل أبى عفك اليهودى . وكما فى

---

(١) النساء / ٥١ .

(٢) دلائل النبوة للبيهقى ٣/ ١٩٠ ، ١٩١ .

رواية الصحيحين : « من لى بكعب بن الأشرف ، فقد آذى الله ورسوله؟ » وانبعث السيد الأوسى البدرى العظيم محمد بن مسلمة . فقال : أنا لك يا رسول الله ، أنا أقتله ، قال : « أنت له فافعل إن قدرت على ذلك » .

وابن الأشرف فى حصن حصين[1] لا يستطيع الطير الوصول إليه ، فكيف بالناس ؟!

وكان التوجيه النبوى عامًا ، فهو يريد أن يفجر الطاقات الإسلامية ، وترك له أن يضع الخطة المناسبة ، وينفذها كما يريد .

إنها هنا تكمن تربية القيادات ، فمهمة بهذه الضخامة ، وهذه الصعوبة ، لابد لها من دراسة شاملة ومستوعبة ، لكن رسول الله ﷺ يعرف رصيده المذخور من رجالاته الكبار ، فاكتفى بإعطاء الإذن لهم بذلك .

وكانت المفاجأة بعد ذلك : (فمكث ثلاثًا لا يأكل ولا يشرب إلا ما تعلق به نفسه)، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فدعاه فقال له : « لم تركت الطعام والشراب ؟ » فقال : يا رسول الله ، قلت قولاً لا أدرى هل أفى لك به أم لا ، فقال : « إنما عليك الجهد » ، وقال رسول الله ﷺ : « شاور سعد بن معاذ فى أمره » .

وكان التوجيه النبوى الثانى لهذا القائد العظيم الذى قال كلمة كانت بمثابة عهد الشرف إليه ، إما أن ينفذها وإما أن يموت دونها ، أمضى أيامه الثلاثة يفكر فى تنفيذ هذه المهمة ، ونسى طعامه وشرابه وحياته حرصًا على تنفيذ كلمته ، فكان التوجيه التربوى النبوى الثانى له : « إنما عليك الجهد » ، وكان التوجيه الثالث : « شاور سعد ابن معاذ فى أمره » .

فقد دله على سيد الأوس سعد؛ ليشتركا معًا فى الرأى ووضع الخطة ، ورأى سعد رضي الله عنه أن المهمة من الجسامة والضخامة بحيث لا يكفيها بطل واحد ، إنها بحاجة إلى سرية فدائية كاملة ، وتم بعد المدارسة الاتفاق على أن يشارك فى هذه المهمة أربعة آخرون هم :

عباد بن بشر ، وأبو نائلة سلكان بن سلامة ، والحارث بن أوس بن معاذ بعثه عمه سعد بن معاذ ، وأبو عبس بن جبر ، فأصبحت المجموعة خمسة فدائيين يتوزعون مهمات التنفيذ .

فلابد من اقتحام الحصن ، والدخول إلى قلب العدو ، وقد يؤدى الأمر إلى صراع

(١) ولا تزال آثار هذا الحصن باقية فى المدينة ـ كما رأيتها ـ إلى اليوم تدل على مناعتها وصعوبة الوصول لابن الأشرف فيها .

مباشر مع اليهود يودى بهم جميعًا ، ومع ذلك بقيت المعضلة قائمة، فكيف يمكن دخول الحصن واقتحامه إلا بحيلة حربية ؟ وهل يجوز الكذب فى الحرب ؟ إنهم تلاميذ مدرسة النبوة ، ولا يعلمون عن ذلك شيئًا ، فجاؤوا إلى قائدهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقالوا له : يا رسول الله نحن نقتله فأذن لنا أن نقول شيئًا : فقال رسول الله ﷺ : « قولوا ما بدا لكم ، فأنتم فى حل من ذلك » .

وبعد أخذ هذا المعلم العام من المصطفى ﷺ ، راحوا يضعون الخطة المناسبة لذلك بكل تفاصيلها ، وتحديد جزئياتها ، للاستفادة من القرابة بين أبى نائلة سلكان بن سلامة أخى كعب من الرضاع . وندع الخطة تنطق كما هى بحيث تبدو فى كل جزئية من جزئياتها فى غاية الدراسة والتدقيق ، واستعراض الاحتمالات المتعددة ، والمواقف المفاجئة .

(فخرج أبو نائلة كما قال جل أئمة المغازى ، وكان أخا كعب من الرضاعة ، وفى الصحيح :خرج إليه محمد بن مسلمة ، فلما رآه كعب أنكر شأنه وذُعِر منه . فقال أبو نائلة،أو ـ محمد بن مسلمة: حدثت حاجة. فقال كعب وهو فى نادى قومه وجماعتهم : ادن إلىَّ فخبرنى بحاجتك ، فتحدثنا ساعة ، وأبو نائلة أو محمد بن مسلمة يناشده الشعر ، فقال كعب : ما حاجتك لعلك أتحب أن يقوم القوم من عندنا فلما سمع القوم قاموا) .

وكانت هذه المرحلة الأولى من الخطة ، أن يخلوا بكعب ويحدثوه ، ولم يقع خلل فى التنفيذ ، إنما لجؤوا إلى مناشدة الشعر حتى تحقق الهدف .

(فقال محمد بن مسلمة أو أبو نائلة : إن هذا الرجل قد سألنا صدقة ، ونحن لا نجد ما نأكل ، وإنه قد عنانا) قال كعب : وأيضًا والله لتملنه (وفى غير الصحيح) فقال أبو نائلة : (إنى قد جئتك فى حاجة أريد أن أذكرها لك فاكتم عنى) قال : أفعل. قال : كان قدوم هذا الرجل علينا بلاء من البلاء ، عادتنا العرب ، ورمونا عن قوس واحدة ، وقطعت عنا السبل ، حتى ضاع العيال، وجهدت الأنفس ، وأصبحنا قد جهدنا وجهد عيالنا . فقال كعب بن الأشرف :(أما والله لقد كنت أخبرك يا بن سلامة أن الأمر سيصير إلى ما أقول ، ولكن اصدقنى ما الذى تريدون من أمره ؟) قال : خذلانه والتخلى عنه، قال : سررتنى ألم يأن لكم أن تعرفوا ما عليه من الباطل ؟ فقال أبو نائلة : ومعى رجال من أصحابى على مثل رأيى. . .[1]

ونجحت المرحلة الثانية من الخطة ، فقد وثق كعب بن الأشرف بهم ووقع فى

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٤٢/٦ ، ٤٣ .

الشرك الذى نصبوه له .

وتأتى المرحلة الثالثة من الخـطة التى تبرر قدوم بقية العصبة المسلمة بسيوفهم الباترة .

قال أبو نائلة : ومعى رجال من أصحابى على مثل رأيى ، وقد أردت أن آتيك بهم فنبتاع منك طعامًا أو تمرًا وتحسن فى ذلك إلينا ، ونرهنك ما يكون لك فيه ثقة ، قال كعب : أما إن رفاقى تقصف تمرًا من عجوة يغيب فيها الضرس ، أما والله ما كنت أحب يا أبا نائلة أن أرى هذه الخصاصة بك ، وإن كنت من أكرم الناس على ، أنت أخى ، نازعتك الثدى ! قال سلكان : اكتم عنا ما حدثتك من ذكر محمد . قال كعب : لا أذكر منه حرفًا ، ثم قال كعب : يا أبا نائلة ، اصدقنى ذات نفسك ، ما الذى تريدون من أمره ؟ قال : خذلانه والتنحى عنه . قال : سررتنى يا أبا نائلة ، فماذا ترهنوننى ، أبناءكم ونساءكم ؟ فقال : لقد أردت أن تفضحنا وتظهر أمرنا ، ولكنا نرهنك من الحلقة ما ترضى به ، قال كعب : إن فى الحلقة لوفاء ، وإنما يقول ذلك سلكان لئلا ينكرهم إذا جاؤوا بالسلاح(١) .

إنها النفسية والسجية اليهودية تبدو مكشوفة عارية ، فأبو نائلة أخوه ، وأحب الناس إليه ، لكن عندما يصل إلى الرهن ، فلا يتورع أن يطلب رهن النساء والأولاد على قليل من التمر ، فهو الجشع اليهودى البشع ، وهو الحقد اليهودى الدفين، ثانيًا حين رقصت أساريره بخذلان محمد والتنحى عنه .

﴿ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ . . . ﴾ (٢) .

وكانت المرحلة الرابعة فى ابتداء التنفيذ حيث تتوجه العصبة المسلمة إلى كعب بن الأشرف ، لا تخاف حربًا أو مواجهة ، قد ثبَّتت الأرض تحت قدميها بهذه الصفعة الوهمية .

(فخرج أبو نائلة من عنده على ميعاد ، فأتى أصحابه فأجمعوا أمرهم على أن يأتوه إذ أمسى لميعاده ، ثم أتوا النبى ﷺ عشاء فأخبروه ، فمشى معهم حتى أتى البقيع، ثم وجههم ثم قال :« امضوا على بركة الله وعونه » ويقال :وجههم بعد أن صلوا العشاء فى ليلة مقمرة مثل النهار - فى ليلة أربع عشرة من ربيع الأول على رأس خمسة وعشرين شهرًا . . .) .

إنها ذكرى قدومه الأول إلى يثرب ﷺ ، فقبل سنتين من هذا الموعد ، وفى الثانى

---

(١) المغازى للواقدى ١ / ١٨٨ ، ١٨٩ .

(٢) آل عمران / ١١٨ .

عشر من ربيع الأول ، تشرفت المدينة بوطئه ثراها وها هو اليوم - عليه الصلاة والسلام - وبعد دخول يومين بعد ذكرى عام الوصول ، يجد نفسه - عليه الصلاة والسلام - يوجه الكتيبة للعدو اللدود الذى خان الله ورسوله وجماعة المؤمنين ، ومضى يعبئ القوى ضدهم ، ويشبِّب بنسائهم ويستهزئ ويستخف بعقيدتهم وأشخاصهم ، وعلى هذه الكتيبة المؤمنة أن تحقق هدفها فى قلب حصن العدو ، وتنتزعه من فراشه لتجهز عليه بعد أن أعلن العداوة السافرة ، ولن يعاقب بنو النضير بموقفه ، رغم أن هواهم معه ، ولن يمضى جيش لحربهم طالما أنهم لا يزالون ظاهرين متمسكين بالعهد ، فهو المجرم العريق ، ولن يُقتل بجريرته أحد ، إلا من تحدى وخان مثله .

والدرس الذى نفقهه هنا من هذه الحادثة وأمثالها: أن حرب العصابات لها فن وخطة تختلف عن الحرب النظامية التى تقوم على المواجهة ، ومن أجل ذلك : فعصبة صغيرة تبدأ من الرجل الواحد إلى العشرة أو أقل أو أكثر ، تستطيع أن تدخل أرض العدو ، وتضرب مواقعه ، أو تغتال أحد قياداته وتنسحب ، وطبيعة هذه الحرب تختلف عن طبيعة الحرب النظامية التى تقتضى أعدادًا أوفر ، وعدة أضخم ، وتناسبًا لحدٍ ما فى العدد ، لقد بارك الله هذه الخطوات ، ومضوا على عين رسول الله ﷺ ترعاهم عناية الله حيث ابتدأت الخطوة الأولى من مرحلة التنفيذ العملى .

(قال : فمضوا حتى أتوا ابن الأشرف ، فلما انتهوا إلى حصنه هتف به أبو نائلة، وكان ابن الأشرف حديث عهد بعرس ، فوثب ، فأخذت امرأته بناحية ملحفته وقالت : أين تذهب ؟ إنك رجل محارب ، ولا ينزل مثلك فى هذه الساعة ، فقال : ميعاد ! إنما هو أخى أبو نائلة ، والله لو وجدنى نائمًا ما أيقظنى ، ثم ضرب بيده الملحفة وهو يقول: لو دعى الفتى لطعنة أجاب ، ثم نزل إليهم فحياهم ، ثم جلسوا فتحدثوا ساعة حتى انبسط إليهم . . .) .

وكانت الخطوة الثانية فى تنفيذ العملية الجريئة هى استدراجه بعيدًا عن حصنه ، فى إحكام دقيق غاية الدقة لتحقيق الهدف المطلوب ، وراحوا فى مخططهم يتابعون تنفيذ الخطوة الثانية :

ثم قالوا له : يا بن الأشرف ! هل لك أن نتمشى إلى شرج العجوز[1] ، فنتحدث فيه بقية ليلتنا ؟ قال : فخرجوا يتماشون حتى وُجِّهوا قِبَل الشرج .

وكانت الخطوة التالية من عملية التنفيذ: هى التمكن منه لقتله ، فطُرحت هذه المداعبة البديعة لذلك ، فأدخل أبو نائلة يده فى رأس كعب ثم قال : ويحك ما أطيب

(١) شرج العجوز : موطن قرب المدينة ، كما ذكر السهودى ، وفاء الوفا ٣٢٨/٢ .

عطرك هذا يابن الأشرف : وإنما كان كعب يدهن بالمسك الفتيت بالماء والعنبر حتى يتلبد فى صدغيه ، وكان جعدًا جميلاً ، ثم مشى ساعة، فعاد بمثلها حتى اطمأن إليه ، وسلست يداه فى شعره ، وأخذ بقرون رأسه وقال لأصحابه : اقتلوا عدو الله .

وكانت الخطوة الثالثة من عملية التنفيذ الفعلى للقتل أن يتم الأمر بعد التمكن من أن يفر أو يستجير بأحد .

(فضربوه بأسيافهم ، فالتقت عليه فلم تغن شيئًا ، وردَّ بعضها بعضًا ، ولصق بأبى نائلة . قال محمد بن مسلمة : فذكرت مِغولاً [1] معى كان فى سيفى، فانتزعته فوضعته فى سُرَّته، ثم تحاملت عليه فقططته حتى انتهيت إلى عانته ، فصاح عدو الله صيحة ما بقى أُطَمٌ من آطام يهود إلا أوقدت عليه نار ، فقال ابن سنينة - يهودى من يهود بنى حارثة - وبينهما ثلاثة أميال : إنى لأجد ريح دم بيثرب مسفوح ، وقد كان بعض القوم أصاب الحارث بن أوس بسيفه وهم يضربون كعبًا ، فكَلَمَهُ فى رجله ، فلما فرغوا احتزوا رأسه ثم حملوه معهم .

لقد نفذت العملية بدقة بالغة لكن تتمة التخطيط المحكم العميق الدقيق هو : خطوات العودة السليمة من أرض العدو إلى المدينة ، وتحتاج إلى الخبرة فى الطريق ، والسرِّية فى السير .

ثم خرجوا يشتدون وهم يخافون من يهود الأرصاد ، حتى أخذوا على بنى أمية ابن زيد ، ثم على قريظة ، وإن نيرانهم فى الآطام لعالية ، ثم على بعاث[2]، حتى إذا كانوا بحرة العريض نزف الحارث الدم . . .) .

لقد اضطروا إلى المرور من أرض يهود بنى قريظة ، ويهود بنى قريظة يومها غير محاربين ، وحافظوا مع ذلك على السرية التامة فى المرور ليلاً من أرضهم ، غير أنهم فاجأتهم أزمة لم تكن فى المخطط ، هذه الأزمة هى الجرح الغائر للحارث بن أوس ، ولابد من التصرف لمقابلة هذه الأزمة ، وكان موقف الجندى العظيم الحارث الذى نزف جرحه أن يمضوا ويدعوه ، فسلامتهم مقدمة على سلامته الشخصية، وسوف يعيقهم أو يجعلهم فى خطر لو مكثوا يداوونه ، وهو عاجز عن المسير معهم ، فليكن الفدائى الأول إذن ويسلم إخوانه، ومن أجل ذلك: ودعهم وطلب منهم أن يبلغوا سلامه لحبيبه المصطفى ﷺ ، لكن العصبة المسلمة وببديهة حاضرة ووعى دقيق حملوه معهم ولم يتخلوا عنه ليكون طعمة للعدو .

---

(١) المِغْوَل : سيف دقيق له قفا ، أو حديدة دقيقة لها حد ماضٍ (القاموس المحيط ٤/٢٧) ، ط بيروت .
(٢) بعاث : من ضواحى المدينة ، ويقال : حصن ، ويقال : مزرعة .

حتى إذا كانوا بحرة العريض نزف الحارث الدم ، فأبطأ عنهم فناداهم : أقرئوا رسول الله ﷺ منى السلام ، فعطفوا عليه فاحتملوه حتى أتوا النبى ﷺ فلما بلغوا بقيع الغرقد كبروا ، وقد قام رسول الله ﷺ تلك الليلة يصلى ، فلما سمع رسول الله ﷺ تكبيرهم بالبقيع ، كبَّر وعرف أن قد قتلوه ، ثم انتبهوا يعدون حتى وجدوا رسول الله ﷺ واقفًا على باب المسجد .

إنه القائد العظيم والمربى الأكبر ـ عليه الصلاة والسلام ـ والساهر مع جنده يترقب نتاج المهمة التى كلفهم بها ، ولم تذق عينه النوم ينتظر بفارغ الصبر نتائج المهمة الصعبة التى كلَّف بها جنده ، إنه ينتظرهم أمام الباب ، فهو يعيش خطرات نفوسهم ، ويعيش لحظات الخطر التى يمكن أن تنزل بهم ، فلا يرقأ له جفن من أجلهم ، وكان ذلك اللقاء السعيد بين الجند والقائد ، بين الجند القادة الكبار ، وسيد القادة فى الوجود .

فقال : « أفلحت الوجوه ! » فقالوا: ووجهك يا رسول الله ! ورموا برأسه بين يديه، فحمد الله على قتله ، ثم أتوا بصاحبهم الحارث ، فتفل فى جرحه فلم يؤذه .

إنه فرعون يهود يرمى برأسه كما رُمى برأس فرعون الأمة ـ أبى جهل ـ بين قدميه ـ عليه الصلاة والسلام ، وهكذا يكون مصرع الطواغيت التى تحاد الله ورسوله .

وخلَّد عباد بن بشر رضي الله عنه أحد القادة الثلاثة الكبار فى الأوس ، هذه العملية العظيمة بشعرٍ حى، كأنما شهدنا معه العملية كاملة ، حيث يقول رضي الله عنه :

صرختُ به فلم يحفل لصوتى ... وأوفى طالعًا من فوق قصر
فعدتُ فقال : من هذا المنادى ؟ ... فقلت : أخوك عباد بن بشر
فقال محمدٌ (١) : أسرع إلينا ... فقد جئنا لتشكرنا وتقرى
وترفدنا فقد جئنا سغابًا (٢) ... بنصف الوسق(٣) من حب وتمر
وهذى درعنا رهنًا فخذها ... لشهر إن وفى أو نصف شهر
وأقبل نحونا يهوى سريعًا ... وقال لنا : لقد جئتم لأمر
وفى أيماننا بيض(٤) حداد ... مجربةٌ بها الكفار نفرى
فعانقه ابن مسلمة المرادى ... به الكفان كالليث الهزبر
وشدَّ بسيفه صلتًا عليه ... فقطره أبو عبس بن جبر
وصلتُ وصاحباى فكان لما ... قتلناه الخبيث كذبح عتر(٥)

---

(١) هو ابن مسلمة .
(٢) سغابًا : جياعًا .
(٣) الوسق : ستون صاعاً أو حمل بعير .
(٤) البِيض : السيوف .
(٥) العتيرة : وهى شاة كانوا يذبحونها فى رجب لآلهتهم .

ومـــر برأســه نفــر كــرام هــم ناهــوك مــن صدقٍ وبرِّ
وكـــان الله سادسـنًا فأبنـــا بأفضـــل نعمـــة وأعـــز نصـــر

قال ابن أبى حبيبة : أنا رأيت قائل هذا الشعر ، قال ابن أبى الزناد : لولا قول ابن أبى حبيبة لظننت أنها ثبت (١) .

وأراد النبى ﷺ أن يستثمر هذه الحادثة لاستئصال الغدر اليهودى كله ، وإنهاء هذا التحدى الذى برز من أكثر من زعيم من زعمائهم .

فلما أصبح رسول الله ﷺ فى الليلة التى قتل فيها ابن الأشرف قال رسول الله ﷺ: « من ظفرتم به من رجال يهود فاقتلوه » فخافت اليهود، فلم يطلع عظيم من عظمائهم ولم ينطقوا ، وخافوا أن يبيتوا كما بيِّت ابن الأشرف .

وكان ابن سنينة من يهود بنى حارثة، وكان حليفًا لحويصة بن مسعود، فوثب محيصة بن مسعود على ابن سنينة ــ رجل من تجار يهود كان يلابسهم ويبايعهم ـ فقتله، وكان حويصة بن مسعود إذ ذاك لم يسلم ، وكان أسنَّ من محيصة ، فلما قتله: جعل حويصة يضربه ويقول : أى عدو الله ، أقتلته ؟! أما والله لرب شحم فى بطنك من ماله. قال محيصة : والله لقد أمرنى بقتله من لو أمرنى بقتلك لضربت عنقك ؛ قال فوالله إن كان لأول إسلام حويصة . قال : والله لو أمرك محمد بقتلى لقتلتنى ؟ قال : نعم. والله لو أمرنى بضرب عنقك لضربتها . قال : والله إن ديناً بلغ بك هذا لعجب ، فأسلم حويصة .

قال ابن إسحاق : حدثنى هذا الحديث مولى لبنى حارثة عن ابنة محيصة عن أبيها محيصة ، فقال محيصة فى ذلك :

يلوم ابـن أمى لو أمـرت بقتلـــه لمتـى مـــا أصوبـــه فليس بكـاذب
حسامٍ كلون الملح أُخلص صقلـــه طبقـــت ذفـراه بأبيـض قاضـــب
مـــا سـرنى أنى قتلتـــك طائعـــًا وأن لنا ما بين بصرى ومأرب (٢)

وهزَّ الحدث الثانى ـ قتل ابن سنينة ـ كيان اليهود كله ، ففزعت اليهود ومن معها من المشركين، فجاؤوا إلى النبى ﷺ حين أصبحوا فقالوا : قد طُرِق صاحبنا الليلة، وهو سيد من ساداتنا قُتِل غيلة بلا جرم ولا حَدَثٍ علمناه ، فقال رسول الله ﷺ : «إنه لو قرَّ كما قر غيره ممن هو على مثل رأيه ما اغتيل ، ولكنه نال منا الأذى وهجانا

(١) المغازى للواقدى ١/١٨٨-١٩٢ ، مقتطفات . (٢) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٨٤ ، ٨٥ .

بالشعر، ولم يفعل هذا أحد منكم إلا كان له السيف » .

ودعاهم رسول الله ﷺ إلى أن يكتب بينهم كتابًا ينتهون إلى ما فيه، فكتبوا بينه وبينهم كتابًا تحت العذق فى دار رملة بنت الحارث ، فحذرت يهود وخافت ، وذلت من يوم قتل ابن الأشرف (١) .

لا نزال ضمن الخط التربوى الذى طرحه رسول الله ﷺ فى هذه المرحلة، خط استثارة الطاقات ، وإبراز المواهب الفردية ، وتدريبها على المسؤولية ، من خلال المبادرة الذاتية ، وكل عمليات القتل التى تمت ، برزت بهذه الصورة . فمقتل ابن سنينة تم ضمن هذا الخط : « من ظفرتم به من رجال يهود فاقتلوه » .

ويدرك ـ عليه الصلاة والسلام ـ طبيعة هذه العصبة التى رباها ، ويعرف أن القصد لن يتغير عندها أو يُفهم خطأ ؛ إذ القصد هو قتل الذى يتعرض بالأذى والهجاء للمسلمين ، وليس قتل كل يهودى أو زعيم من زعماء اليهود .

وحتى ندرك مستوى التربية الرفيع الذى وصل له حزب الله ، يستوقفنا ذلك الجواب العظيم من الأخ الشقيق محيصة لأخيه حويصة : والله لقد أمرنى بقتله من لو أمرنى بقتلك لضربت عنقك .

فقد ارتفع الولاء لله ولرسوله فوق أى ولاء آخر ، وفوق أى رابطة أخرى من الأهل والولد والزوج والعشيرة، وعاد كل حدث ينطق بالآية ويترجمها واقعًا عمليًا .

﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ . . . ﴾ (٢) .

ونجد هذا الارتفاع العظيم فى الولاء لله ورسوله هو الذى حدا بالأخ الشقيق أن يسلم إذ راعه أن يبلغ الولاء لهذا الدين هذا المبلغ ، إنه ليس مكاء وتصدية كما هو دين هؤلاء الوثنيين الذين ينجرون خشبة ويعبدونها ، أو ينحتون صخرة ويعبدونها ، إنه أمر تغلغل فى أعماق هذا الإنسان حتى ملأ عليه كيانه كله .

ـ آوالله لو أمرك محمد بقتلى لقتلتنى ؟

ـ نعم والله لو أمرنى بضرب عنقك لضربتها .

ـ والله إن دينًا بلغ بك هذا لعجب! فأسلم حويصة .

ويحاول محيصة أن يعلم الأمة معنى هذه التربية ؛ فهو ليس ضنينًا بأخيه عن

---

(١) المغازى للواقدى ١ / ١٩٢ .

(٢) المجادلة / ٢٢ .

الحياة، إنه أعز ما عنده ،ولن يقتله طائعًا، ولو عرض عليه ملك ما بين بصرى ومأرب، لو عرض عليه ملك جزيرة العرب ما قتل أخاه طائعًا .

وما سرنى أنى قتلتك طائعًا ولو أن لى ما بين بصرى ومأرب

أما عند الأمر النبوى ، فلن ينثنى لحظة عن التنفيذ .

يلوم ابن أمى لو أُمرت بقتله لطبقت ذفراه بأبيض قاضب

إنها تربية العقيدة ، إنها الحب فى الله ولله .

٤ ـ **المهمة الثانية : سرية القردة** : ونلحظ فى هذه السرية جوانب وآفاقًا خلف العملية العسكرية .

لقد استطاع أبو سفيان أن يغزو المدينة ، ويقتل رجلاً من الأنصار ، ويكفر عن يمينه التى أقسمها : ألا يـمس رأسه جنابة حتى يغزو محمدًا ، واستفاد من الجيب اليهودى داخل أرض الإسلام، الذى دلَّه على بعض الثغرات فى الحصن الإسلامى ، وكان هذا فى ذى الحجة من العام الثانى للهجرة ، وبعد أن أخضع رسول الله ﷺ هذا الجيب اليهودى من بنى النضير الذين دلوا أبا سفيان على عورات الناس ، وقتل عظيمين من عظمائهم ، كانوا يحملون نار العداوة ضد المسلمين ، ويقومون بصفقات علنية مع مشركى مكة ، بعد أن طهَّر ـ عليه الصلاة والسلام ـ هذا الجيب اليهودى الذى عقد معه معاهدة جديدة فى دار رملة بنت الحارث؛ على أن يقرَّ ويسالم ، وحذرت يهود وخافت، وذلت من يوم قتل ابن الأشرف ، كان من الممكن بعد هذا كله أن يتفرغ لقريش ويؤدب زعيمها أبا سفيان، وهى التى تمثل ضراوة الحرب لله ولرسوله ، لقد كان قتل ابن الأشرف فى ربيع الأول الذكرى الثالثة لوصوله ﷺ المدينة ، وفى جمادى الأولى كانت سرية القردة .

لقد أحكم ـ عليه الصلاة والسلام ـ الحصار الاقتصادى على عدوه فى مكة ، وكما وصفه صفوان بدقة : إن محمدًا وأصحابه قد عوروا علينا متجرنا ، فما ندرى كيف نصنع بأصحابه ، لا يبرحون الساحل وأهل الساحل، قد وادعهم ، ودخل عامتهم معه، فما ندرى أين نسلك ، وإن أقمنا نأكل رؤوس أموالنا ونحن فى دارنا هذه ، وما لنا بها نفاق ، وشُلَّت بذلك تجارة قريش ، لولا أن استطاعوا بعد تدارس الأمر أن يفكوا هذا الحصار ، باختيار طريق جديد لتجارتهم ، بعيدًا عن طريق الساحل وهو طريق العراق .

ورغم خطورة هذا الطريق ومفازاته المهلكة ، وجهلهم التام به ، فلم يكن لهم خيار عنه؛ لأن حياتهم بتجارتهم ، فهى الشريان الذى يغذى وجودهم ، ويمدهم فى

معركتهم ضد الإسلام وأهله ، واستفادوا من طاقات أكبر الخبراء آنذاك فى هذا الطريق، ووضع خبرته تحت تصرفهم ، وهو : فرات بن حيان العجلى . والحصار الاقتصادى هو بداية السقوط السياسى والعسكرى ، وفى فك هذا الحصار بعث دم جديد فيهم للمواجهة والحرب .

لم يكن ـ عليه الصلاة والسلام ـ سيد القادة لينام على أمجاد بدر ، ويمضى عامه فى احتفالات هذه الانتصارات ، ولم يكن لينام على أمجاد الحصار الاقتصادى الذى حقق فيه السيطرة السياسية على المنطقة ، بل كانت عينه الشريفة لا تنام عن أى خطة يمكن أن يختطها العدو ، كما كان يضع الخطط فى مواجهة حلفاء هذا العدو وكسر شوكتهم كلما هموا بالتحرك .

وشاء قدر الله تعالى أن يحبط خطة قريش الجديدة فى فك الحصار .

فهذا سليط بن النعمان بن أسلم الأنصارى يأتى بنى النضير ، ويصيب من شرابهم، وهو عين لرسول الله ﷺ عندهم، يتعرف على أخبارهم. فهو صاحب مهمة يؤديها فى صلته الوثيقة بهم ، وكان أن جاء لرسول الله ﷺ بالخبر الخطير .

قدم المدينة نُعيم بن مسعود الأشجعى ، وهو على دين قومه ، فنزل على كنانة بن أبى الحقيق فى بنى النضير ، فشرب معه ، وشرب معه سليط بن النعمان بن أسلم ، ولم تحرم الخمر يومئذ ، فذكر نعيم خروج صفوان فى عيره وما معهم من الأموال ، (فخرج من ساعته إلى النبى ﷺ فأخبره) .

إنه التخطيط الواعى ، واليقظة الدقيقة من القيادة ، والجندية المنضبطة التى تنفذ الأمر للتو ، فخرج من ساعته إلى النبى ﷺ فأخبره .

وهكذا أصبحت ساحة العدو مكشوفة ، وأخبار الخط الجديد للتجارة واضحة، فماذا يفعل ـ عليه الصلاة والسلام ؟ ومن أين له الخبراء فى طريق العراق ؟ وهل يضع خطة خمسية يستدعى الخبراء والمصورات والمخططات ليواجه هذا التحرك الجديد فى الساحة ، وقد تحركت القافلة ومضت فى طريقها الجديد ؟!

ها هو ـ عليه الصلاة والسلام ـ يستدعى أحد القادة الكبار عنده ، والذى رباهم على عينه ، إنه المولى الأول فى الأمة ، وهو أحد الأربعة الأوائل الذين قام الإسلام على أكتافهم ، وهو أحب الناس إليه ، هو زيد بن حارثة يدعوه ليتحرك بمائة راكب ليلاحق قافلة قريش ويعترض طريقها الجديد فى المجاهيل فى هذه البيد ، والتى وصفها أكبر خبراء المنطقة: فرات بن حيان بقوله لصفوان : فأنا أسلك بك فى طريق العراق ، وليس يطؤها أحد من أصحاب محمد ، إنما هى أرض نجد وفياف ، قال صفوان : فهذه

حاجتى، أما الفيافى فنحن شاتون وحاجتنا إلى الماء قليل .

ولم يكن يدور بخلد أحد من الناس أن يصل الخبر إلى محمد ، بله أن يتمكن من مهاجمة القافلة، لقد آن الأوان لأن يقطف رسول الله ﷺ ثمرة تربية خمسة عشر عامًا الآن ، فزيد ابن الخمسة عشر ربيعًا يوم دخل بيت سيد الخلق.

عن أبى فزارة قال : أبصر رسول الله ﷺ زيد بن حارثة غلامًا ذا ذؤابة قد أوقفه قومه بالبطحاء للبيع ، فأتى خديجة ، فقالت : كم ثمنه ؟ قال : «سبع مائة». قالت : خذ سبع مائة . فاشتراه وجاء به إليها ، فقال : «أما إنه لو كان لى لأعتقته» ، قالت : هو لك . فأعتقه (١) .

وعن موسى بن عقبة عن سالم عن أبيه قال : ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد ابن محمد ، فنزلت : ﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ... ﴾ (٢) (٣) .

فهو إذن الآن زيد بن محمد ، يوم يدعى لهذه المهمة ، وهو آثر رجالاته عنده ، رباه رسول الله ﷺ على عينه قبل النبوة خمسة عشر عامًا ، وبعدها إلى هذا اليوم خمسة عشر عامًا أخرى ، فهو ربيبه وحبيبه منذ ثلاثين عامًا ، وآن الأوان أن يتحمل مسؤولياته ، وبعث معه مائة راكب ،ليس بين يدينا أسماءهم. وكل الذى نعرفه أنهم من المهاجرين والأنصار ، من الجيل الذى تربى على يد الحبيب المصطفى ﷺ .

ونلاحظ منذ الآن وبعد بدر ، أن الأسماء التى تذكر ، والشخصيات التى تعرض ، إنما هى أسماء القيادات الفاعلة ، والنماذج الهامة ، فبعد إحصاء بدر - انتهت الإحصاءات فى السيرة النبوية - وبدأت الشخصيات الهامة تبرز فقط، إنما الذى يرد علينا فقط من الإحصاءات بعد بدر هم : شهداء أحد سبعون من سبعمائة .

مضى زيد رضي الله عنه ومعه مائة راكب فى هذه الفيافى المجهولة ، والصحراء المقفرة ، وليس لدينا أى تفصيلات عن المسيرة، وطريق السير ، وأحداث السرية ، إنما كل الذى بين يدينا: أن الهدف الرئيسى قد تحقق للسرية ، ووقعت قافلة قريش بيدى أسود محمد ﷺ ، فاعترضوا فأصابوا العير ، وأفلت أعيان القوم وأسروا رجلاً أو رجلين ، وقدموا بالعير على النبى ﷺ فخمسها .

إنها مهمة ضخمة ، حطمت هذا الشريان من جديد، وأعادت الطوق من جديد ،

---

(١) سير أعلام النبلاء ١/ ٢٢٣ ، وقال المحقق فيه : « إسناده منقطع » .

(٢) الأحزاب / ٥ .

(٣) المصدر نفسه ١/ ٢٢٤ ، وقال المحقق فيه : « أخرجه البخارى (٤٧٨٢) فى التفسير ، ومسلم (٢٤٢٥) وغيرهما » .

فأحكمته على رقبة قريش ، وأهم ما فى الأمر : أن كبير خبراء هذا الطريق ، فرات بن حيان العجلى تم أسره ، وعرض عليه الإسلام، فأسلم، وأصبحت هذه الخبرة الضخمة بين يدى المسلمين ، ولن تستطيع قريش أن تتحرك من جديد ، بعد أن انتقلت الخبرات التى تعاقدت معها إلى الصف الإسلامى: محمد بن مسلمة ، القائد الأنصارى الفذ وسريته من الخمسة الكبار، أعادوا الكيان اليهودى إلى الانصياع للإسلام ، وزيد بن حارثة القائد البطل من المهاجرين يحطم التحرك التجارى الجديد لقريش ، ويأسر القافلة بكل ما فيها من ثروة ، فقد بلغ خُمسها فقط عشرون ألف درهم ، وكان فى الأسرى فرات بن حيان ، فأُتى به فقيل له : أسلم ، إن تسلم نتركك من القتل فأسلم ، فتركه من القتل .

نحن أمام القائد الفذ زيد الذى وصفته عائشة ـ رضى الله عنها ـ بقولها : (ما بعث رسول الله ﷺ زيدًا فى جيش قط إلا أمرَّه عليهم ، ولو بقى بعده لاستخلفه). رواه النسائى [١] .

انتهى شهر جمادى الآخرة ، ورسول الله ﷺ يتابع انتصاراته وتحركاته على الساحة، لكنه لا ينسى البناء المستمر لجنده وأمته ، ورأى ـ عليه الصلاة والسلام ـ صفين من جنده يعانيان أزمة حادة منذ بدر ، فهذا عثمان رضي الله عنه وقد تأيم بعد فقدان رقية ـ رضى الله عنها ـ والتى كانت أنباء انتصارات بدر قد غزت المدينة ، والتراب يهال عليها ـ رضى الله عنها ـ وقد عزف عثمان عن الزواج بعد فقدانه بنت أحب خلق الله إليه ، وذلك عمر رضي الله عنه وقد تأيمت ابنته حفصة ـ رضى الله عنها ـ بعد وفاة زوجها خنيس بن حذافة متأثرًا بجراحة نالته يوم بدر ، ورسول الله ﷺ صامت يود أن يمسح جراح أحب الناس إليه ، بحيث لا تصرفه مواجهة العدو عن شفاء القلوب المكلومة .

وإن كان عثمان بقى صامتًا ، منطويًا على آلامه الدفينة . فقد تحرك عمر رضي الله عنه لشفاء قلب ابنته الحبيبة يعرضها على أحبابه الأدنين، بعد أن أنهت عدتها أربعة أشهر وعشرا ، وكان ذلك فى شهر ربيع الأول ، وها هو: عبد الله بن عمر رضي الله عنه ينقل لنا صورة هذا التحرك العمرى .

فعن سالم بن عبد الله بن عمر: أنه سمع عبد الله بن عمر ــ رضى الله عنهما ــ يحدث : أن عمر بن الخطاب حين تأيمت حفصة بنت عمر من خنيس بن حذافة السهمى ، وكان من أصحاب رسول الله فتوفى فى المدينة. قال عمر : فأتيت عثمان بن

(١) سير أعلام النبلاء ٢٢٨/١ ، وقال المحقق فيه : « أخرجه أحمد ٢٢٦/٦ ، ٢٢٧ وابن سعد فى الطبقات، وابن أبى شيبة ، وسنده حسن ».

عفان فعرضت عليه حفصة ، قال : قلت : إن شئت أنكحتك حفصة ، فقال : سأنظر في أمرى ، فمكث ليالى ثم لقينى . فقال : قد بدا لى ألا أتزوج يومى هذا ، قال عمر، فلقيت أبا بكر الصديق فقلت : إن شئت زوجتك حفصة . قال عمر : فصمت أبو بكر، فلم يرجع إلى شيئًا ، فكنت عليه أوجد منى على عثمان ، فمكثت ليالى ثم خطبها رسول الله ﷺ فأنكحتها إياه ، فلقينى أبو بكر فقال : لعلك وجدت علىَّ حين عرضت علىَّ حفصة فلم أرجع إليك شيئًا . قال عمر : فقلت : نعم ، قال أبو بكر : إنه لم يمنعنى أن أرجع إليك فيما عرضت إلا أنى قد كنت علمت أن رسول الله ﷺ قد ذكرها ، فلم أكن أفشى سر رسول الله ، ولو تركها رسول الله قبلتها (١) .

لم يكن يدور بخلد عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ يود الزواج، فهذه عائشة الفتاة البكر تملأ عليه حياته ووجوده ، وهى بنت الصديق رضي الله عنه وبجوارها سودة بنت زمعة ، ولم يمر عام بعد على بنائه بعائشة ـ رضوان الله عليها ـ وهو يشعر أنه ليس بمقام الصديق ، وأن حفصة ليست بمقام عائشة ، فقد جاء جبريل بعائشة ـ رضى الله عنها ـ بسرقة من حرير ليزوجه إياها كما رآها فى المنام ﷺ ، ومضى شاكيًا لحبيبه المصطفى ، صد أعز حبيبين له بعد رسول الله ﷺ عن الزواج من حفصة ، وكانت المفاجأة الخالدة عنده ، والتى أقرت عينه . يحدثنا عنها فيقول :

(لما توفى خنيس بن حذافة ، عرضت حفصة على عثمان فأعرض عنى ، فذكرت ذلك للنبى ﷺ فقلت : يا رسول الله ،ألا تعجب من عثمان ! إنى عرضت عليه حفصة فأعرض عنى ، فقال رسول الله ﷺ : « قد زوَّج الله عثمان خيرًا من ابنتك ، وزوَّج ابنتك خيرًا من عثمان » ، قالا : وكان عمر عرض حفصة على عثمان متوفى رقية بنت النبى ﷺ وعثمان يومئذ يريد أم كلثوم بنت النبى ﷺ ، فأعرض عثمان عن عمر لذلك، فتزوج رسول الله حفصة، وزوج أم كلثوم من عثمان بن عفان) (٢) .

لقد مسح ـ عليه الصلاة والسلام ـ جراح حبيبيه : عمر، وعثمان ، فزوج عثمان بغيته من أم كلثوم ، وأكرم حفصة ـ رضى الله عنها ـ بزواجه منها ، وبذلك أصبح رجالات الإسلام الأربعة ذوى قرابة وثيقة بالقائد الأعظم ﷺ ، فقد زوج ابنتيه لعلى وعثمان ، وتزوج ابنتى الصديق والفاروق .

إنه مجتمع يعيش قضية هذا الدين ، ولن يرتفع إلى عظمة هذه القضية إلا من تربى فى بيت هذه القمم الشامخة، فكان هذا التلاحم العظيم فى أعلى قياداته ، وكانت أفراح المسلمين متتالية . ففى جمادى الآخرة تم زواج عثمان رضي الله عنه من أم كلثوم، وفى

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٨/ ٨٢ .
(٢) المصدر نفسه ٨ / ٨٣ .

شعبان تم زواج حفصة من رسول الله ﷺ . كما روى ابن سعد : (تزوج رسول الله ﷺ حفصة فى شعبان على رأس ثلاثين شهراً قبل أحد)[1] .

وهذه أم كلثوم بنت سيد الخلق ـ رضى الله عنها ـ والتى عاشت محنة الدعوة منذ أيامها الأولى .

أم كلثوم بنت رسول الله ، وأمها خديجة بنت خويلد . . . تزوجها عتيبة بن أبى لهب بن عبد المطلب قبل النبوة ، فلما بُعث رسول الله ﷺ وأنزل الله : ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ . . . ﴾ [2] قال له أبوه أبو لهب : رأسى من رأسك حرام إن لم تطلّق ابنته ، ففارقها ولم يكن قد دخل بها ، فلم تزل بمكة مع رسول الله وأسلمت حين أسلمت أمها ، وبايعت رسول الله مع أخواتها حين بايعه النساء، وهاجرت إلى المدينة حين هاجر رسول الله ، وخرجت مع عيال رسول الله ﷺ إلى المدينة فلم تزل بها ، فلما توفيت رقية بنت رسول الله ﷺ خلف عثمان بن عفان على أم كلثوم بنت رسول الله وكانت بكرًا، وذلك فى شهر ربيع الأول سنة ثلاث من الهجرة ، وأُدخلت عليه فى هذه السنة فى جمادى الآخرة، فلم تزل عنده إلى أن ماتت ولم تلد له شيئًا. وماتت فى شعبان سنة تسع من الهجرة. فقال رسول الله ﷺ : « لو كُنَّ عشراً لزوجتهن عثمان » [3] .

إنهما نموذجتان خالدتان نسائيتان ، احتفت المدينة بزواجهما العظيم .

أم كلثوم ـ رضى الله عنها ـ التى طلّقت من عدو الله أذىً وحقدًا . فصبرت واحتسبت ، وتابعت طريقها مهاجرة مع المهاجرات تعيش للدعوة ، وفى الدعوة، وتحيا فى أعظم بيت أشرقت عليه الشمس بعد بيت الله تعالى ، تتلقى منه التربية ، والعناية والرعاية ، والتوجيه .

وحفصة ـ رضى الله عنها ـ التى افتتحت حياتها بالإسلام ، ومضت مهاجرة إلى الحبشة مع زوجها خنيس بن حذافة السهمى رضي الله عنه وذاقت آلام الغربة والوحدة والوحشة، وفارقت أباها الذى كان ألد أعداء الإسلام ، وعادت لتراه أعظم رجالاته ، وتمضى فى هجرتها الثانية إلى المدينة ، وترى أن قول القائل قد صدق فيها :

فألقت عصاها واستقر بها النوى ... كما قرَّ عينًا بالإياب المسافر

وآن لها أن تفرغ إلى سعادتها وبيتها وزوجها ، وعاشت أفراح بدر كما عاشها

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٨ / ٨٣ .
(٢) سورة المسد .
(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ٨ / ٣٧ ، ٣٨ .

المسلمون، لكنها اللحظة الحاسمة التى قدَّر الله تعالى عليها الترمل ، فيتوفى زوجها متأثرًا بجراحه فى بدر ، وتبقى وحيدة فى هذا الوجود لترى كرامة الله تعالى وقد سبقت إليها، فتغمر فى أعظم نعمة بعد أن عانت أعظم محنة وتنضم للبيت النبوى بجوار عائشة - رضى الله عنها - وتصبح زوجًا لسيد الخلق - صلوات الله عليه .

وكانت أفراح رمضان فى المسلمين ، وذكرى بدر وانتصاراتها تهل عليهم ، ليحمل شوال فى أجوائه الخطوب العظام بعد رمضان ، فتكون محنة أحد بعد هذا العام السعيد .

المدينة قبل أحد [1]

وخرجت قريش وهم ثلاثة آلاف بمن ضوى إليهم ، وكان فيهم من ثقيف مائة رجل ، وخرجوا بعدة وسلاح كثير ، وقادوا مائتى فرس ، وكان فيهم سبعمائة دارع وثلاثة آلاف بعير ، فلما أجمعوا السير كتب العباس بن عبد المطلب كتابًا وختمه ، واستأجر رجلاً من بنى غفار ، واشترط عليه أن يسير ثلاثًا إلى رسول الله ﷺ ، يخبره أن قريشًا قد أجمعت المسير إليك، فما كنت صانعًا إذا حلوا بك فاصنعه ، وقد توجهوا إليك وهم ثلاثة آلاف، وقادوا مائتى فرس ، وفيهم سبعمائة دارع ، وثلاثة آلاف بعير وأوعبوا من السلاح ، فقدم الغفارى فلم يجد رسول الله ﷺ بالمدينة ، ووجده بقباء؛ فخرج حتى يجد رسول الله ﷺ على باب مسجد قباء يركب حماره ، فدفع إليه الكتاب، فقرأه عليه أبى بن كعب ، واستكتم أبيًا ما فيه ، فدخل منزل سعد بن الربيع فقال : فى البيت أحد ؟ فقال سعد : لا فتكلم بحاجتك ، فأخبره بكتاب العباس بن عبد المطلب ، وجعل سعد يقول : يا رسول الله ، إنى لأرجو أن يكون فى ذلك خير ، وقد أرجفت يهود المدينة والمنافقون وقالوا : ما جاء محمدًا شىء يحبه ، فانصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة ، واستكتم سعدًا الخبر ، فلما خرج رسول الله ﷺ خرجت امرأة سعد بن الربيع إليه فقالت: ما قال لك رسول الله ؟ فقال: ما لك وذلك ؟ لا أمَّ لك ؟ قالت : قد كنت أسمع عليك ، وأخبرت سعدًا الخبر ، فاسترجع سعد وقال : لا أراك تستمعين علينا وأنا أقول لرسول الله ﷺ : تكلم بحاجتك ؟ ! ثم أخذ يجمع لبتّها(2) ثم خرج يعدو بها حتى أدرك رسول الله ﷺ بالمسير وقد بلحت (3) ، فقال : يا رسول الله إن امرأتى سألتنى عما قلت . فكتمتها ، فقالت : قد سمعت قول رسول الله ﷺ ، فجاءت بالحديث كله . فخشيت يا رسول الله أن يظهر من ذلك شىء ، فتظن أنى أفشيت سرك ، فقال رسول الله ﷺ : « خلِّ سبيلها » .

وشاع الخبر فى الناس بمسير قريش ، وقدم عمرو بن سالم الخزاعى فى نفر من خزاعة ، ساروا من مكة أربعًا ، فوافوا قريشًا وقد عسكروا بذى طوى ، فأخبروا رسول الله ﷺ الخبر ، ثم انصرفوا فوجدوا قريشًا ببطن رابغ ، فنكبوا عن قريش ،

---

(1) تحدثنا فى (المنهج التربوى للسيرة النبوية ـ التربية الجهادية ، الجزء الثانى ، بشكل واف ومستفيض عن غزوة أحد من خلال آيات آل عمران ، وأما هذه السرايا التى نستعرضها هنا فقد كان الحديث مقتضبًا عنها هناك، ونناقشه هنا تفصيلاً ، وعرضًا لجوانب أخرى تتناسب مع الهدف من هذا الكتاب) .

(2) لبتها : نحرها وموضع القلادة من الصدر .

(3) بلحت : انقطعت من الإعياء .

ورابغ على ليالٍ من المدينة .

وكان أبو عامر الفاسق قد خرج فى خمسين رجلاً من أوس الله، حتى قدم بهم مكة حين قدم النبى ﷺ المدينة ، فأقام مع قريش ، وكان دعا قومه فقال لهم : إن محمدًا ظاهر ، فاخرجوا بنا إلى قوم نوازرهم، فخرج إلى قريش يحرضها ، ويعلمها أنها على الحق ، وما جاء به محمد باطل ، فسارت قريش إلى بدر ، ولم يسر معها ، فلما خرجت قريش إلى أحد سار معها ، وكان يقول لقريش : إنى لو قدمت على قومى لم يختلف عليكم منهم رجلان ، وهؤلاء معى نفر من قومى وهم خمسون رجلاً. فصدقوه بما قال ، وطمعوا بنصره . . . وخرج سلمة بن سلامة بن وقش يوم الجمعة ، حتى إذا كان بأدنى العرض[1] إذا طليعة خيل المشركين عشرة أفراس، فركضوا فى أثره فوقف لهم على نشز[2] من الحرة، فراشقهم بالنبل مرة وبالحجارة مرة حتى انكشفوا عنه، فلما ولَّوا جاء إلى مزرعته بأدنى العِرض ، فاستخرج سيفًا كان له ، ودرع حديد كانا دفنا بالمزرعة ، فخرج بهما يعدو حتى أتى بنى عبد الأشهل ، فخبَّر قومه بما لقى منهم ، وكان مقدمهم يوم الخميس لخمس ليالٍ خلون من شوال ، وكانت الوقعة يومْ السبت لسبع ليال خلون من شوال .

وباتت وجوه الأوس والخزرج : سعد بن معاذ ، وأسيد بن حضير ، وسعد بن عبادة ، فى عدة ليلة الجمعة ، عليهم السلاح فى المسجد بباب النبى ﷺ خوفًا من بيات المشركين ، وحرست المدينة تلك الليلة حتى أصبحوا ، ورأى رسول الله ﷺ رؤيا ليلة الجمعة ، فلما أصبح رسول الله ﷺ ، واجتمع المسلمون خطب .

فعن محمود بن لبيد قال : ظهر النبى ﷺ على المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال : « أيها الناس ، إنى رأيت فى منامى رؤيا ، رأيت كأنى فى درع حصينة ، ورأيت كأن سيفى ذا الفقار انقصم من عند ظبته[3] ، ورأيت بقرًا تذبح ، ورأيت كأنى مردف كبشًا » فقال الناس : يا رسول الله : فما أوَّلتها ؟ قال : « أما الدرع الحصينة فالمدينة ، فامكثوا فيها ، وأما انقصام سيفى من عند ظُبته ، فمصيبة فى نفسى ، وأما البقر المذبح، فقتلى فى أصحابى، وأما مردف كبشًا ، فكبش الكتيبة نقتله إن شاء الله » .

وعن ابن عباس يقول : قال رسول الله ﷺ : « وأما انقصام سيفى ، فقتل رجل من أهل بيتى » .

---

(١) العرض ، أو العريض: ناحية من المدينة من طرف حرة واقم شملها اليوم العمران ما زالت معروفة .
(٢) نشز : مرتفع .
(٣) الظبة ـ بظاء مضمومة ـ حد السيف، وجمعه : ظُبات .

وعن المسور بن مخرمة قال : قال النبى ﷺ : « ورأيت فى سيفى فلاً (١) فكرهته» فهو الذى أصاب وجهه ﷺ .

وقال النبى ﷺ : « أشيروا على أيها الناس » ورأى رسول الله ﷺ الا يخرج من المدينة لهذه الرؤيا . . . فقام عبد الله بن أبى فقال : يا رسول الله ، كنا نقاتل فى الجاهلية فيها، ونجعل النساء والذرارى فى هذه الصياصى ، ونجعل معهم الحجارة ، والله لربما مكث الولدان شهراً ينقلون الحجارة إعداداً لعدونا ، ونشبِّك المدينة بالبنيان فتكون كالحصن من كل ناحية ، وترمى المرأة والصبى من فوق الصياصى والآطام ، ونقاتل بأسيافنا فى السكك ، يا رسول الله ، إن مدينتنا عذراء ما فُضَّت علينا قط ، وما خرجنا إلى عدو قط إلا أصاب منا ، وما دخل علينا إلا أصبنا منه ، فدعهم يا رسول الله ، فإنهم إن أقاموا أقاموا بشر محبس ، وإن رجعوا رجعوا خائبين مغلوبين ، لم ينالوا خيراً ، يا رسول الله أطعنى فى هذا الأمر ، واعلم أنى ورثت هذا الرأى من أكابر قومى وأهل الرأى منهم ، فهم كانوا أهل الرأى والتجربة .

وكان رأى رسول الله ﷺ مع رأى ابن أبى ، وكان ذلك رأى الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار ، فقال رسول الله ﷺ : « امكثوا فى المدينة ، واجعلوا النساء والذرارى فى الآطام ، فإن دخلوا علينا قاتلناهم فى الأزقَّة ، فنحن أعلم بها منهم ، وارموا من فوق الصياصى والآطام » .

فقال فتيان أحداث ـ لم يشهدوا بدراً وطلبوا من رسول الله ﷺ الخروج إلى عدوهم ورغبوا فى الشهادة ، وأحبوا لقاء العدو ـ : اخرج بنا إلى عدونا .

وقال رجال من أهل السن وأهل النية، منهم حمزة بن عبد المطلب ، وسعد بن عبادة ، والنعمان بن مالك بن ثعلبة ، فى غيرهم من الأوس والخزرج : إنا نخشى يارسول الله ، أن يظنَّ عدونا أنا كرهنا الخروج إليه جبنًا عن لقائهم ، فيكون هذا جرأة منهم علينا ، وقد كنت فى بدر ثلثمائة رجل فظفَّرك الله عليهم ، ونحن اليوم بشر كثير، وقد كنا نتمنى هذا اليوم ، وندعوا الله به ، وقد ساقه الله إلينا فى ساحتنا .

ورسول الله ﷺ لما يرى من إلحاحهم كاره ، وقد لبسوا السلاح يخطرون بسيوفهم يتسامون كأنهم الفحول ، وقال مالك بن سنان (أبو أبى سعيد الخدرى) : يا رسول الله ، نحن والله بين إحدى الحسنيين : إما أن يظفرنا الله بهم فهذا الذى نريد ، فيذلُّهم الله لنا فتكون وقعة كوقعة بدر ، فلا يبقى منهم إلا الشريد ، والأخرى يا رسول الله :

---

(١) الفل : الكسر .

يرزقنا الله الشهادة، والله يا رسول الله ما أبالى أيهما كان ؛ إن كلاً لفيه الخير !

فلم يبلغنا أن رسول الله رجع إليه قولاً ، وسكت . وقال حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه والذى أنزل عليك الكتاب لا أطعم اليوم طعامًا حتى أجالدهم بسيفى خارج المدينة، (وكان يقال : كان حمزة يوم الجمعة صائمًا، ويوم السبت صائمًا، فلاقاهم وهو صائم) قالوا : وقال النعمان بن مالك : يا رسول الله ، أنا أشهد أن البقر المذبح قتلى من أصحابك، وإنى منهم فَلِمَ تحرمنا الجنة ؟ فوالذى لا إله إلا هو لأدخلنها . فقال رسول الله ﷺ : « صدقت » فاستشهد يومئذٍ . وقال إياس بن أوس بن عتيك: يا رسول الله نحن بنو عبد الأشهل من البقر المذبح ، نرجو يا رسول الله أن نذبح فى القوم ويذبح فينا . فنصير إلى الجنة ، ويصيرون إلى النار ، مع أنى يا رسول الله لا أحب أن ترجع قريش إلى قومهم فيقولون : حصرنا محمدًا فى صياصى يثرب وآطامها فيكون هذا جرأة لقريش ، وقد وطئوا سعفنا ، وقد كنا يا رسول الله فى جاهليتنا والعرب يأتوننا ولا يطمعون بهذا منا حتى نخرج إليهم بأسيافنا حتى نذبهم عنا، فنحن اليوم أحق ؛ إذ أيدنا الله بك ، وعرَّفنا مصيرنا ، لا نحصر أنفسنا فى بيوتنا .

وقام خيثمة ـ أبو سعد بن خيثمة ـ فقال: إن قريشًا مكثت حولاً تجمع الجموع وتستجلب العرب فى بواديها ومن تبعها من أحابيشها ، ثم جاؤونا وقد قادوا الخيل، وامتطوا الإبل حتى نزلوا بساحتنا فيحصروننا فى بيوتنا وصياصينا ، ثم يرجعون وافرين لم يُكلموا ، فيجرئهم ذلك علينا حتى يشنوا الغارات علينا ، ويصيبوا أطرافنا ، ويضعوا العيون والأرصاد علينا مع ما صنعوا فى حروثنا، ويجترئ علينا العرب حتى يطمعوا فينا إذا رأونا لم نخرج إليهم، فنذبهم عن جوارنا ، وعسى الله أن يظفرنا بهم؛ فتلك عادة الله عندنا ، أو تكون الأخرى فهى الشهادة ، لقد أخطأتنى وقعة بدر ، وقد كنت عليها حريصًا ، لقد بلغ من حرصى أن ساهمت ابنى فى الخروج ، فخرج سهمه فرزق الشهادة ، وقد كنت حريصًا على الشهادة ، وقد رأيت ابنى البارحة فى النوم فى أحسن صورة يسرح فى ثمار الجنة وأنهارها وهو يقول : الحق بنا ترافقنا فى الجنة ، فقد وجدت ما وعدنى ربى حقًا ، وقد والله يا رسول الله أصبحت مشتاقًا إلى مرافقته فى الجنة ، وقد كبرت سنى ، ورق عظمى ، وأحببت لقاء ربى ، فادع الله لى يا رسول الله أن يرزقنى الشهادة، ومرافقة سعد فى الجنة . فدعا له ﷺ فقتل فى أحد شهيدًا . وقالوا : قال أنس بن قتادة : يا رسول الله ، هى إحدى الحسنيين : إما الشهادة ، وإما الظفر والغنيمة فى قتلهم ، فقال رسول الله ﷺ : « إنى أخاف عليكم الهزيمة » .

قالوا : فلما أبوا إلا الخروج صلى رسول الله ﷺ الجمعة بالناس ، ثم وعظ الناس

وأمرهم بالجد والجهاد ، وأخبرهم أن لهم النصر ما صبروا، ففرح الناس بذلك؛ حيث أعلمهم رسول الله ﷺ بالشخوص إلى عددهم ، وكره ذلك المخرج بشر كثير من أصحاب رسول الله ﷺ ، وأمرهم بالتهيؤ لعدوهم .

ثم صلى رسول الله ﷺ العصر بالناس ، وقد حشد الناس ، وحضر أهل العوالى، ورفعوا النساء فى الآطام ، فحضرت بنو عمرو بن عوف ولفُّها ، والنبيت ولفُّها، وتلبسوا السلاح ، فدخل رسول الله ﷺ ، ودخل معه أبو بكر وعمر - رضى الله عنهما - فعمماه ولبساه ،وصُفَّ الناس له ما بين حجرته إلى منبره ينتظرون خروجه.

فجاءهم سعد بن معاذ وأسيد بن حضير فقالا : قلتم لرسول الله ﷺ ما قلتم، واستكرهتموه على الخروج، والأمر ينزل عليه من السماء ، فردوا الأمر إليه. فما أمركم به فافعلوا ، وما رأيتم له فيه هوى أو رأى فأطيعوه .

فبينا القوم على ذلك الأمر . وبعض القوم يقول : القول ما قال سعد ! وبعضهم على البصيرة على الشخوص، وبعضهم للخروج كاره ؛ إذ خرج رسول الله ﷺ قد لبس لأمته ، وقد لبس الدرع فأظهرها وحزم وسطها بمنطقة من حمائل سيف من أدم... واعتم ، وتقلد السيف ، فلما خرج رسول الله ﷺ ندموا جميعًا على ما صنعوا ، وقال الذين يلحون على رسول الله ﷺ : يا رسول الله ، ما كان لنا أن نخالفك فاصنع ما بدا لك ، وما كان لنا أن نستكرهك ، والأمر إلى الله ثم إليك ، فقال : « قد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتم ، ولا ينبغى لنبى إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه ... انظروا ما أمرتكم به فاتبعوه ، امضوا على اسم الله فلكم النصر ما صبرتم ».

وكان مالك بن عمرو النجارى مات يوم الجمعة ، فلما دخل رسول الله ﷺ فلبس لأمته ثم خرج - وهو موضوع موضع الجنائز - صلَّى عليه ، ثم دعا بدابته فركب إلى أحد .

ثم دعا رسول الله ﷺ بثلاثة أرماح ، فعقد ثلاثة ألوية . فدفع لواء الأوس: إلى أسيد بن حضير ، ودفع لواء الخزرج: إلى الحباب بن المنذر - ويقال: إلى سعد بن عبادة، ودفع لواء المهاجرين: إلى على بن أبى طالب - عليه السلام - ويقال : إلى مصعب بن عمير - ثم دعا النبى ﷺ بفرسه فركبه، وأخذ النبى ﷺ القوس، وأخذ قناة بيده - زج الرمح يومئذ من شبه[1] - والمسلمون متلبسون السلاح قد أظهروا الدروع ،

---

(١) الشبه : ضرب من النحاس .

فيهم مائة دارع ، فلما ركب رسول الله ﷺ خرج السعدان أمامه يعدوان : سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة ، كل واحد منهما دارع ، والناس عن يمينه وعن شماله حتى سلك على البدائع(١) ، ثم زقاق الحسى(٢) ، حتى أتى الشيخين(٣) ، وهما أطمان. . . حتى انتهى إلى رأس الثنية ، التفت فنظر إلى كتيبة خشناء لها زجل خلفه . فقال : « ما هذه ؟ »قالوا : يا رسول الله ، هؤلاء حلفاء ابن أبى من يهود . فقال رسول الله ﷺ : « لا يستنصر بأهل الشركِ على أهل الشرك »، ومضى رسول الله ﷺ حتى أتى الشيخين فعسكر فيه ، وعرِض عليه غلمان : عبد الله بن عمر ، وزيد بن ثابت ، وأسامة بن زيد، والنعمان بن بشير ، وزيد بن أرقم ، والبراء بن عازب ، وأسيد بن ظُهير ، وعرابة بن أوس،وأبو سعيد الخدرى ، وسمرة بن جندب ، ورافع بن خديج ، فردهم، قال رافع ابن خديج ، فقال ظهير بن رافع : يا رسول الله، إنه رامٍ ، وجعلت أتطاول وعلىَّ خفان لى . فأجازنى رسول الله ﷺ . فلما أجازنى قال سمرة بن جندب لربيبه مُرى بن سنان الحارثى وهو زوج أمه: يا أبة ، أجاز رسول الله رافع بن خديج وردنى، وأنا أصرع رافع بن خديج ، فقال مرى بن سنان : يا رسول الله رددت ابنى وأجزت رافع بن خديج وابنى يصرعه . فقال رسول الله ﷺ : «تصارعا !» فصرع سمرة رافعًا فأجازه رسول الله ﷺ ، وكانت أمه امرأة من بنى أسد .

وأقبل ابن أُبى فنزل ناحية من العسكر ، فجعل حلفاؤه ومن معه من المنافقين يقولون لابن أبى : أشرت عليه بالرأى ونصحته ، وأخبرته أن هذا رأى من مضى من آبائك ، وكان ذلك رأيه مع رأيك فأبى أن يقبله ، وأطاع هؤلاء الغلمان الذين معه ، فصادفوا من أبى نفاقًا وغشًا .

فبات رسول الله ﷺ بالشيخين ، وبات ابن أبى فى أصحابه، وفرغ رسول الله ﷺ من عرض أصحابه ، وغابت الشمس فأذن بلال بالمغرب ، فصلى رسول الله ﷺ بأصحابه ، ثم أذن بالعشاء ، فصلى رسول الله ﷺ بأصحابه ، ورسول الله ﷺ نازل فى بنى النجار ، واستعمل رسول الله ﷺ على الحرس: محمد بن مسلمة فى خمسين رجلاً يطوفون بالعسكر حتى أدلج رسول الله ﷺ . . . ونام حتى أدلج ، فلما كان من السحر قال رسول الله ﷺ : « أين الأدلاء ، من رجل يدلنا على الطريق ، ويخرجنا على القوم من كثب؟ » . فقام أبو خيثمة الحارثى فقال : أنا يا رسول الله . . . فخرج رسول الله ﷺ فركب فرسه ، وسلك به فى بنى حارثة ، ثم أخذ فى الأموال حتى يمر

(١) البدائع : موضع من ديار خثعم . (٢) الحسى : ببطن الرمة .
(٣) الشيخان : موضع بين المدينة وجبل أحد على الطريق الشرقية مع الحرة إلى جبل أحد .

بحائط مربع بن قيظى ، وكان أعمى البصر منافقًا . فلما دخل رسول الله ﷺ وأصحابه حائطه قام يحثى التراب فى وجوههم وجعل يقول : إن كنت رسول الله ﷺ فلا تدخل حائطى، فيضربه سعد بن زيد الأشهلى بقوس فى يده ، فشجه فى رأسه ، فسال الدم، فغضب له بعض بنى حارثة ممَّن هو على مثل رأيه فقال : هى عداوتكم يا بنى عبد الأشهل، لا تدعوها أبدًا لنا ، فقال أسيد بن حضير : لا والله ولكنه نفاقكم . والله لولا أنى لا أدرى ما يوافق النبى ﷺ من ذلك لضربت عنقه ، وعنق من هو على مثل رأيه ! فأسكتوا .

ولبس رسول الله ﷺ من الشيخين درعًا واحدة حتى انتهى إلى أحد ، فلبس درعًا أخرى ومِغفرًا، وبيضة فوق المغفر ، فلما نهض رسول الله ﷺ من الشيخين، زحف المشركون على تعبية حتى انتهوا إلى موضع أرض بنى عامر اليوم ، فلما انتهى رسول الله ﷺ إلى أحد - إلى موضع القنطرة اليوم - جاء وقد حانت الصلاة وهو يرى المشركين أمر بلالاً فأذن وأقام وصلى بأصحابه الصبح صفوفًا وارتحل ابن أبى من ذلك المكان فى كتيبة كأن هيق [1] يقدمهم ، فاتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام فقال : أذكركم الله دينكم ونبيكم ، وما شرطتم له أن تمنعوه مما تمنعون منه أنفسكم وأولادكم ونساءكم ، فقال ابن أبى:

ما أرى أن يكون قتال ، ولئن أطعتنى يا أبا جابر لترجعنَّ ، فإن أهل الرأى والحجى قد رجعوا ، ونحن ناصروه فى مدينتنا ، وقد خالفنا وأشرت عليه بالرأى ، فأبى إلا طواعية الغلمان . فلما أبى على عبد الله أن يرجع، ودخلوا أزقة المدينة . قال لهم أبو جابر : أبعدكم الله ، إن الله سيغنى النبى والمؤمنين عن نصركم ! فانصرف ابن أبى وهو يقول :

أيعصينى ويطيع الولدان ؟ ! وانصرف عبد الله بن عمرو بن حرام يعدو حتى لحق برسول الله ﷺ وهو يسوى الصفوف[2] .

وعند البيهقى فى الدلائل من رواية موسى بن عقبة :

فخرج رسول الله ﷺ فسلكوا على البدائع وهم ألف رجل، والمشركون ثلاثة آلاف، فمضى رسول الله ﷺ حتى نزل بأحد ، ورجع عنه عبد الله بن أبى بن سلول فى ثلثمائة، فبقى رسول الله ﷺ فى سبع مائة فقال كعب بن مالك الأنصارى :

---

(١) الهيق : الذكر من النعام .

(٢) المغازى للواقدى ، مقتطفات من ١ / ٢٠٣ - ٢١٩ .

إنا بهـذا الجـذع لـو كان أهلـه — سوانا لقد ساروا بليل فأقشعوا
جلاد على ريب الحوادث لا ترى — على هالك عينا لنا الدهر تدمع
ثلاثــة آلاف ونحــن نصيــة(١) — ثــلاث مئين أن كثرنـا وأربــع
فراحـوا سراعـًا موجفين كأنهـم — غمام هراقت ماءها الريح تقلع
ورحــنا وأخرانـا بطـاء كأنــنا — أســود على لحــم ببيشة ظُلَّعُ

فلما رجع عبد الله بن أبى بالثلاث مائة ، سقط فى أيدى الطائفتين من المسلمين ، وهمتا أن تقتتلا (٢) وهما بنو حارثة، وبنو سلمة كما يقال ، وصفَّ رسول الله ﷺ المسلمين بأصل أحــد ، وصف المشركون بالسبخة التى قبـل أحــد، وتعبأ الفريقان للقتال(٣) .

وعند الصالحى فى السيرة الشامية :

لما بلغ رسول الله ﷺ الشوط(٤) انخزل عبد الله بن أبى بثلث الناس كافة كأنه هيق فقال : أطاع الولدان ومن لا رأى له وعصانى ، ما ندرى علام نقتل أنفسنا أيها الناس هاهنا ؟! فرجع بمن اتبعه من أهل النفاق والريب ، وتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام يقول : يا قوم أذكركم الله ألا تخذلوا نبيكم ، عندما حضر عدوهم، يا قوم تعالوا فقاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا ، فقالوا : لو نعلم قتالاً ما أسلمناكم ، لا نرى أن يكون قتال، ولئن أطعتنا لترجعن معنا ، فلما استعصوا عليه ، وأبوا إلا الانصراف قال: أبعدكم الله ، أعداء الله ، فسيغنى الله تعالى نبيه عنكم . وأنزل الله تعالى : ﴿ **مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ** ﴾ (٥) قال مجاهد : ميَّزهم يوم أحد وهم المرادون بقوله تعالى : ﴿ ... **وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ**﴾ (٦).

وذكر عروة وموسى بن عقبة أن بنى سلِمة ـ بكسر اللام ـ وبنى حارثة لما رجع

(١) النصية : الخيار من القوم .
(٢) رغم ورودها فى أكثر من مرجع (تقتتلا) فأعتقد أنها تصحيف عن كلمة (تفشلا) كما هو النص القرآنى ﴿ ... إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا ﴾ .
(٣) دلائل النبوة للبيهقى ٢٠٨/٣ ، ٢٠٩ وهى من رواية موسى بن عقبة .
(٤) الشوط : مكانها بين وادى قناة وبين المدينة من شرقى السبخة .
(٥) آل عمران / ١٧٩ .
(٦) آل عمران / ١٦٧ .

عبد الله بن أبى سقط فى أيديهما وهما أن يقتتلا، فثبتهما الله تعالى ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ (١).

وروى سعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، والشيخان ، والبيهقى عن جابر بن عبد الله قال : فينا نزلت هذه فى بنى حارثة وبنى سلمة : ﴿ إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلا . . . ﴾ وما يسرنى أنها لم تنزل؛ لقول الله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا ﴾ .

وروى الشيخان عن زيد بن ثابت ، وابن إسحاق عن البراء بن عازب - رضى الله عنهما - قالا: لما خرج رسول الله ﷺ إلى أحد خرج معه بأناس ، فرجعوا . فكان أصحاب رسول الله ﷺ فيهم فرقتين ، فقالت فرقة: نقتلهم ، وقالت فرقة : لا نقتلهم. فأنزل الله تعالى : ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا ﴾(٢) ردهم إلى كفرهم بما كسبوا بأعمالهم فقال رسول الله ﷺ : « إنها طيبة وإنها تنفى الخَبَثَ كما تنفى النار خبث الفضة » .

وذكر الزهرى أن الأنصار استأذنوا رسول الله ﷺ ؛لما رجع ابن أُبى فى الاستعانة بحلفائهم من يهود المدينة فقال رسول الله ﷺ : « لا حاجة لنا بهم » قال الجمهور : بقى رسول الله ﷺ فى سبعمائة وفرسه ، وفرسٍ لأبى بردة ، وقال ابن عُقبة : لم يكن مع المسلمين فرس ، ومضى رسول الله ﷺ حتى نزل الشعب من أحد فى عدوة الوادى إلى الجبل ، فجعل ظهره وعسكره إلى أحد ، واستقبل المدينة ، وجعل عينين ، الجبل عن يمينه، وصف المسلمون بأصل أحد ، وحانت الصلاة يوم السبت ، وصلى رسول الله ﷺ بأصحابه الصبح صفوفًا(٣) .

قال محمد بن عمرو الأسلمى ، ثم قام رسول الله ﷺ فخطب الناس فقال : «أيها الناس،أوصيكم بما أوصانى الله تعالى فى كتابه من العمل بطاعته والتناهى عن محارمه، ثم إنكم اليوم بمنزل أجر وذخر لمن ذكر الذى عليه، ثم وطّن نفسه له على الصبر واليقين ، والجِد والنشاط ، فإن جهاد العدو شديد ، شديد كربُه ، قليل من يصبر عليه إلا من عزم اللهَ رشده ، فإن الله مع من أطاعه ،وإن الشيطان مع من عصاه ، فافتتحوا أعمالكم بالصبر على الجهاد ،والتمسوا بذلك ما وعدكم الله ،وعليكم بالذى أمركم به، فإنى حريص على رشدكم ،فإن الاختلاف والتنازع والتثبيط من أمر العجز والضعف مما

---

(١) آل عمران / ١٢٢.
(٢) النساء/ ٨٨ .
(٣) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٤/ ٢٨٠، ٢٨١ .

لا يحب الله ، ولا يعطى عليه النصر ولا الظفر ، يا أيها الناس جُدِّد فى صدرى أنَّ من كان على حرام فرق الله بينه وبينه ، ومن رغب له عنه غفر الله ذنبه ، ومن صلى علىَّ صلى الله عليه وملائكته عشرا ، ومن أحسن من مسلم أو كافر وقع أجره على الله فى عاجل دنياه أو آجل آخرته ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فعليه الجمعة يوم الجمعة إلا صبيًا أو امرأة أو مريضًا أو عبدًا مملوكًا ، ومن استغنى عنها استغنى الله عنه ، والله غنى حميد ، ما أعلم من عمل يقربكم إلى الله إلا وقد أمرتكم به ، ولا أعلم من عمل يقربكم إلى النار إلا وقد نهيتكم عنه ، وإنه قد نَفَثَ فى روعى الروح الأمين ، أنه لن تموت نفس حتى تستوفى أقصى رزقها لا ينقص منه شىء وإن أبطأ عنها ، فاتقوا الله ربكم وأجملوا فى الرزق ، ولا يحملنكم استبطاؤه أن تطلبوه بمعصية ربكم ، فإنه لا يُقدر على ما عنده إلا بطاعته ، قد بين لكم الحلال والحرام ، غير أن بينهما شبهًا من الأمر لم يعلمها كثير من الناس إلا من عصم ، فمن تركها حفظ عرضه ودينه، ومن وقع فيها كان كالراعى إلى جنب الحمى أوشك أن يقع فيه ، وليس ملك إلا وله حمى، ألا وإن حمى الله محارمه ،والمؤمن من المؤمنين كالرأس من الجسد ، إذا اشتكى تداعى عليه سائر الجسد » . والسلام عليكم .

حدثنى ابن أبى سبرة، عن خالد بن رباح عن المطلب بن عبد الله قال : إن أول من أنشب الحرب بينهم أبو عامر ، طلع فى خمسين من قومه معه عبيد قريش ، فنادى أبو عامر ـ وهو عبد عمرو ـ : يا آل أوس ، أنا أبو عامر ! فقالوا : لا مرحبًا بك ولا أهلاً يا فاسق، فقال : لقد أصاب قومى بعدى شر ! ومعه عبيد أهل مكة فتراموا بالحجارة هم والمسلمون حتى تراضخوا بها ساعة ، حتى ولَّى أبو عامر وأصحابه ، ودعا طلحة بن أبى طلحة إلى البراز ، ويقال: إن العبيد لم يقاتلوا ، وأمروهم بحفظ عسكرهم[1] .

نحن أمام مرحلة جديدة كل الجدة لم تظهر آثارها تمامًا إلا فى غزوة أحد ، وإن كانت قد ابتدأت بعد غزوة بدر ، هذه المرحلة هى: ظهور النفاق الذى استشرى خطره فى قلب المجتمع الإسلامى ، وإن كان خلال العام الفائت لم يظهر هذا الخطر داخل المجتمع الإسلامى إلا بشكل جزئى من خلال موقف عبدالله بن أبى فى غزوة بنى قينقاع، غير أن حجمه وامتداده وتغلغله لم تبرز حادة جلية واضحة كما برزت فى أحد، وبرز ثقل هذا الحجم وضخامته ، حين وقع الخطر ، ووصل العدو إلى حدود المدينة ، حيث كان على النفاق وحزب النفاق أن يتحرك بكل طاقاته ، ليمد العدو فى اللحظة الحاسمة ، ويقوض المجتمع الإسلامى ، وبناءً على هذه النظرة ، فستبدأ مرحلة جديدة

(١) المغازى للواقدى ١/ ٢٢١ ـ ٢٢٣ .

من التربية تتناسب ونجوم النفاق ، وبروز معظم أشخاصه ورجالاته ، ونشهد فى هذه التربية خطوطًا عريضة جديدة لمعالجة هذا الحزب وتفتيته واحتوائه ، كما أن المستويات الإيمانية المتفاوتة قد برزت على أجلى ما يكون ، وأوضح ما يكون فى هذه الغزوة ، ونشهد الصراع المستمر بين حزب الله وحزب النفاق فى جزّ ضعاف الإيمان لهذا الصف أو ذاك . إننا فى هذه المرحلة نحتاج إلى كل جزئية فيها، وكل خطة من خطط التربية النبوية العظيمة؛ لأن النماذج التى توجد فى مجتمعاتنا المعاصرة ، تبدو نسخًا مكررة من المنافقين أو ضعاف الإيمان ، وهى أحوج ما تكون إلى التربية المستمرة على شرط وجود نماذج عالية قادرة على الجهاد والسلوك الإسلامى الرفيع الذى تتمثل به القدوة والأسوة لهذه المساحة العريضة من النفوس ، ونستطيع أن نقول : إننا قد انتقلنا الآن جليًا فى تاريخ السيرة من مرحلة : (السابقين الأولين) إلى مرحلة (الذين اتبعوهم بإحسان) وهى موضوع الجزء الثالث وما يليه من المنهج التربوى للسيرة النبوية فى التربية القيادية، وسنعالج بعد هذه التوطئة هذه المفاهيم على ضوء الواقع العملى للسيرة من خلال الأحداث والأشخاص المذكورين .

١ ـ تعبئة قريش للمواجهة :

تركنا الحديث فى الفصل السابق عن جو المدينة التى واجهت كل محاولات العداء، وتم غزو قريش فى طريقها التجارى الجديد فأُحكم الحصار الاقتصادى حولها .

كان هذا الجو هو الهدوء الذى يسبق العاصفة ، فقد كانت قريش تعد العدة لهجوم شامل صاعق ينهى الوجود الإسلامى للمدينة ،ووضعت أرباح تجارتها التى نجت كلها ، وفى رواية : رأسمالها وأرباحها ـ لتُنْفَق فى حرب محمد ﷺ ، ولم تكتف قريش فى هذه الجولة الجديدة أن تكون وحدها فى الساحة ، فهى لن تعبئ أكثر من ألف رجل ، وقد هُزِم الألف فى بدر ، فاستطاعت بتخطيطها ودعايتها الضخمة أن تعبئ ثلاثة أضعاف جيشها الذى عبأته فى بدر خلال عام كامل ، وكان كل جهدها منصبًا على دعوة أقرب المقربين لقريش وهم: عبد مناة بن كنانة .

(فلما أجمعوا السير قالوا : نسير فى العرب فنستنصرهم ، فإن عبد مناة غير متخلفين عنا، هم أوصل العرب لأرحامنا)؛ لأن قريشًا ينتهى نسبهم عند النضر بن كنانة ، وهو قريش نفسه ، وأخوه عبد مناة بن كنانة الذى أنجب بطونًا ضخمة كما فى جمهرة أنساب العرب : (ولد عبد مناة بن كنانة بكر بطن ضخم ، وعامر بطن ضخم ، ومرة بطن ضخم ، فولد بكر بن عبد مناة لبث بطن ، والدئل بطن ، وضمرة بطن ،

والتربح بطن . . .)[1] .

هؤلاء إذن: الحلف الجديد الذى انضم إلى قريش ، والحلف الثانى هم: الأحابيش كما فى نص الرواية : (فلما أجمعوا المسير قالوا : نسير فى العرب فنستنصرهم فإن عبد مناة غير متخلفين عنا ، هم أوصل العرب لأرحامنا ،من اتبعنا ومن الأحابيش) .

وهؤلاء الأحابيش كذلك من فروع عبد مناة بن كنانة البعيدة ، وكما يذكر ابن حزم فى الجمهرة .

وهؤلاء بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة ، هم بنو الرشد ، وكانوا يدعون بنو غُوى - وسماهم الرسول ﷺ بنى الرشد - وهم من بنى عوف بن الحارث بن عبد مناة، ومنهم الشماخ، وتيم ابنا عامر بن عوف بن الحارث بن عبد مناة، عقد الشماخ حلف الأحابيش مع قريش ، وعقد تيم حلف القارة معهم ، والحليس بن علقمة سيد الأحابيش يوم أحد من ولد عامر بن عوف بن الحارث بن عبد مناة ، وعمرة بنت علقمة التى رفعت اللواء يوم أحد لكفار قريش من ولد عامر بن عوف بن الحارث بن عبد مناة.

فإذن هذان الحليفان هما اللذان انضما إلى قريش، فأمكن تعبئة ثلاثة آلاف هم ثلاثة أضعاف جيش بدر ، وانضم من ثقيف فى الطائف مئة مثلت اشتراكًا رمزيًا معنويًا لقريش ضد رسول الله ﷺ .

أما وزراء الإعلام ، وأبطال التعبئة . فكانوا أربعة من قريش هم : عمرو بن العاص، وهبيرة بن أبى وهب ، وابن الزبعرى ، وأبو عزة الجمحى[2] ، وثلاثة منهم أكبر شعراء قريش ، والذين قادوا الحرب الإعلامية ضد رسول الله ﷺ طيلة السنوات العشر ، وأما عمرو فلفصاحته التى اشتهر بها فى العرب ولدهائه الذى كان يضرب به المثل ، وقع اختيار قريش عليه ليكون أحد هؤلاء الأربعة. ولا أدل على نجاح مهمتهم من تعبئة هذه الألوف فى الحرب ، وكان عمرو بن العاص، وابن الزبعرى من بنى سهم، وهبيرة بن أبى وهب من بنى مخزوم ، وأبو عزة من جمح .

يقول الواقدى : (فاجتمعوا على أن يبعثوا أربعة من قريش يسيرون فى العرب يدعونهم إلى نصرهم، فبعثوا عمرو بن العاص ، وهبيرة بن أبى وهب ، وابن الزبعرى، وأبا عزة الجمحى ، فأطاع النفر ، وأبى أبو عزة أن يسير ، وقال : منَّ علىَّ

(١) جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص١٨٠ .

(٢) وقدر الله أن يقع أبو عزة الجمحى أسيراً بين المسلمين بعد أحد ، فضربت عنقه ، حيث قال له عليه الصلاة والسلام : « لا تمسح عارضيك بمكة تقول : خدعت محمداً مرتين » ، ثم أمر به عاصم بن ثابت فضرب عنقه .

محمد يوم بدر ، ولم يمن على غيرى ، وحلفت لا أظاهر عليه عدوًا أبدًا . فمشى إليه صفوان بن أمية فقال : اخرج ، فأبى . فقال : عاهدت محمدًا يوم بدر لا أظاهر عليه عدوًا أبدًا ، وأنا أفى له بما عاهدته عليه ، منَّ علىَّ ولم يمن على غيرى حتى قتله أو أخذ منه الفداء ، فقال له صفوان : اخرج معنا ، فإن تسلم أعطك من المال ما شئت، وإن تُقتل كان عيالك مع عيالى ، فأبى أبو عزة حتى كان الغد جاءه صفوان بن أمية وجبير بن مطعم ، فقال له صفوان الكلام الأول فأبى ، فقال جبير : ما كنت أظن أن أعيش حتى يمشى إليك أبو وهب فى أمر نأبى عليه ! فأحفظه . فقال : فأنا أخرج قال: فخرج فى العرب يجمعها وهو يقول :

يا بنى عبد مناة الرزام [1] أنتم حماة وأبوكم حام

لا تسلمونى لا يحل إسلام لا تعدونى نصركم بعد العام

قال : وخرج معه النفر ، فألَّبوا العرب وجمعوها ، وبلغوا ثقيفًا فأوعبوا) [2] .

ولابد أن نشير إلى قوة تأثير هذا الفريق الإعلامى الذى استطاع أن يجمع هذه الجموع رغم الثارات السابقة التى كانت بين قريش وكنانة . فالثابت أن قريشًا فى بدر خافت أن تغادر مكة برجالاتها ، فتنقض عليها كنانة من خلفها، وتشعل القتل فيها، حتى جاءهم الشيطان بصورة سراقة بن مالك وطمأنهم كى يخرجوا (فلما أجمعت قريش المسير، ذكروا الذى بينهم وبين بنى بكر من العداوة ، وخافوهم على من تخلف، وكان أشدهم خوفًا: عتبة بن ربيعة فكان يقول : يا معشر قريش ، إنكم وإن ظفرتم بالذى تريدون ، فإنا لا نأمن على من تخلف ، إنما نخلف نساءً وذرية ، ومن لا طعم به فارتؤوا آراءكم ، فتصور لهم إبليس فى صورة سراقة بن جعشم المدلجى فقال : يا معشر قريش ، قد عرفتم شرفى ومكانى فى قومى ، أنا لكم جار أن تأتيكم كنانة بشىء تكرهونه ، فطابت نفس عتبة ، وقال أبو جهل : فما تريد ؟ فهذا سيد كنانة ، وهو لنا جار على من تخلَّف ، فقال عتبة : لا شىء ، أنا خارج)[3] .

فالانتقال ببنى كنانة من خوف غزوها لقريش، إلى أن تعبئ معها بضعفى أعدادها ، لا شك أمر يدل على مدى الجهد الدؤوب الذى بذلته قريش لهذه المواجهة ، وعبقرية

---

(١) الرزام : جمع رازم وهو الذى يثبت فى مكانه لا يبرحه ، أى: يثبتون ولا ينهزمون .

(٢) المغازى للواقدى ٢/ ٢٠١ .

(٣) المغازى للواقدى ١/ ٣٧ ، ٣٨ . وهو الذى ذكره القرآن بالنص : ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال : ٤٨] .

الفريق الإعلامى والسياسى الذى قادهم إلى هذه المواجهة .

ومع ذلك فالأمر هين من خلال التعبئة الخارجية ، لكن الخطر من الثغرة الداخلية المفتوحة داخل المجتمع الإسلامى ،(وكان أبو عامر الفاسق قد خرج فى خمسين رجلاً من أوس الله حتى قدم بهم مكة؛ حين قدم النبى ﷺ المدينة، فأقام مع قريش وكان دعا قومه فقال لهم : إن محمداً ظاهر فاخرجوا بنا إلى قوم نوازرهم ، فخرج إلى قريش يحرضها ، ويعلمها أنها على الحق ، وما جاء به محمد باطل ، فسارت قريش إلى بدر فلم يسر معها ، فلما خرجت قريش إلى أحد سار معها ، وكان يقول لقريش : إنى لو قدمت على قومى لم يختلف عليكم منهم رجلان ، وهؤلاء معى نفر من قومى وهم خمسون رجلاً ، فصدقوه بما قال ، وطمعوا بنصره) .

هذا هو جو التعبئة فى قريش ، على قلب واحد ، وقرار واحد فى المسير إلى محمد ﷺ ، ومعهم حلفاؤهم من بنى عبد مناة من كنانة ، ومعهم أبو عامر الفاسق من أوس الله من المدينة ، والذى سيحاول أن يشق الصف الإسلامى عند اللقاء ، ومعهم مائة من أبطال ثقيف وشجعانها ، وكان هذا الرأى الموحد ، مختلف تمامًا عما كان عليه وضعهم فى بدر؛ بين كاره للخروج، وراغب فيه ، ومتردد فيه ، واختلفت قياداتهم مرات قبل لقاء بدر .

وكانت المخابرات النبوية ترصد الحدث بدقة من قلب قريش ، والتى مثلها العباس ابن عبد المطلب رضي الله عنه حيث وافى الرسول ﷺ بالصورة كاملة ، كما جاءت الصورة من تقرير آخر قدمه وفد خزاعة الذين كانوا يتعاطفون مع المسلمين فى المدينة ، فماذا فعل سيد الخلق أمام هذا الحدث ؟ استدعى أولاً أبى بن كعب فقرأ له الكتاب، واستكتمه إياه ، واستشار سعد بن الربيع ـ أحد سادات الخزرج ـ واستكتمه الخبر، وكاد أن يفشو مضمونه عندما استمعت زوجة سعد له، وكيف كان الدرس قاسيًا لها من زوجها وجرَّها من لبتها حتى أتى بها رسول الله ﷺ ؛ليحكم فيها ، فأطلق رسول الله ﷺ سراحها ، بعد أن عرفت خطورة إفشاء هذا السر النبوى، وفى يوم الخميس لخمس خلون من شوال ، كانت طلائع الخيل تقرع أبواب المدينة .

وجمع رسول الله ﷺ أركان حربه من المهاجرين والأنصار ، وقصَّ عليهم نبأ الغزو الخارجى، فباتت وجوه الأوس والخزرج: سعد بن معاذ وسعد بن عبادة وأسيد ابن حضير ، فى عدة ليلة الجمعة عليهم السلاح فى المسجد بباب النبى ﷺ خوفًا من بيات المشركين ، وحرست المدينة تلك الليلة حتى أصبحوا .

٢ ـ رسول الله ﷺ يربى القيادات :

والشيء المألوف فى مثل هذه الحالة : أن يقتصر قرار الحرب على القيادات الكبرى، ولكن النبى ﷺ يريد أن يعيد للفرد المسلم كيانه بحيث لا يذوب ضمن إطار قبيلته أو عشيرته ، ويريد ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يبنى الإنسان الفاعل القائد، لا الإنسان الإمعة الفاقد للرأى ، يريد ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يبنى إنسانًا قياديًا قادرًا على المناقشة وتقليب وجوه الرأى .

هذا من جهة ، ومن جهة ثانية ، فالاستشارة هنا فى قضية الحرب والمواجهة مع العدو ، وعادة إنما تؤخذ هذه القرارات فى مجلس الوزراء ، والخطة فى أركان حرب الجيش، والمجالس النيابية والبرلمانات تشارك فى اتخاذ هذه القرارات، أما هنا فنجد رسول الله ﷺ يعرض الأمر على كل جنوده ويطلب منهم إبداء الرأى ؛ لأن هؤلاء الجنود هم الذى يبذلون أرواحهم فى سبيل الله ، هم يبذلون أعز ما يملكون فى هذا الوجود ، أفلا يحق لهم أن يشاركوا فى قرار الحرب والمواجهة ؟

إن العقلية التى تجعل أرواح الناس ودماءهم وأموالهم فى يد طاغية أيٍ كان هذا الطاغية : شيخ قبيلة ، أو رئيس حزب ، أو قائد جيش ، أو ملكًا مستبدًا ، أو رئيسًا قاهرًا، هذه العقلية ، يدرب رسول الله ﷺ جيشه وأمته على إلغائها ، وإعادة الثقة بكل فرد بذاته وبعينه ، فهو صاحب قرار فى اختيار المواجهة ؛ لأنه هو الذى ستحصده الحرب ، وهو الذى سيذبح فى المعركة لهذا كله ، وفى اليوم الثانى ، ظهر النبى ﷺ على المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أيها الناس إنى رأيت فى منامى رؤيا ، رأيت كأنى فى درع حصينة . . ورأيت كأن سيفى ذا الفقار انفصم من عند ظبته ، ورأيت بقرًا تذبح ، ورأيت كأنى مردف كبشًا ». فقال الناس: يا رسول الله ، فما أولتها؟ قال : « أما الدرع الحصينة فالمدينة فامكثوا فيها ، وأما انفصام سيفى من عند ظُبَّته فمصيبة فى نفسى ، وأما البقر المذبح ، فقتلى فى أصحابى ، وأما مردف كبشًا ، فكبش الكتيبة نقتله إن شاء الله » . وعن ابن عباس يقول : قال رسول الله ﷺ : « وأما انفصام سيفى فقتل رجل من أهل بيتى » ،وعن المسور بن مخرمة قال: قال النبى ﷺ : «ورأيت فى سيفى فُلاً فكرهته » فهو الذى أصاب وجهه ﷺ .

فالرؤيا يقصها ـ عليه الصلاة والسلام ـ على جميع أصحابه، ورؤيا رسول الله ﷺ وحى ، فلم ير رؤيا إلا وجاءت كفلق الصبح ، وهو الذى يأولها ـ عليه الصلاة والسلام ـ ويبدى رأيه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فى أن الدرع الحصينة هى المدينة، ويقول: « فامكثوا فيها » ، بكلام صريح وبين واضح .

وقال النبى ﷺ : « أشيروا على أيها الناس » ، ورأى رسول الله ﷺ ألا يخرج من المدينة لهذه الرؤيا .

وتقدم عبد الله بن أبى على الجميع يبدى رأيه ، خاصة ورأيه موافق لرسول الله ﷺ ، وبفصاحته وقوة شخصيته يقول : يا رسول الله ، كنا نقاتل فى الجاهلية فيها ، ونجعل النساء والذرارى فى هذه الصياصى ، نجعل معهم الحجارة ، والله لربما مكث الولدان شهرًا ينقلون الحجارة إعدادًا لعدونا ، ونشبِّك المدينة بالبنيان فتكون كالحصن من كل ناحية ، وترمى المرأة والصبى من فوق الصياصى والآطام ، ونقاتل بأسيافنا فى السكك ، يا رسول الله ، إن مدينتنا عذراء ما فضت علينا قط ، وما خرجنا إلى عدو قط إلا أصاب منا ، وما دخل علينا إلا أصبنا منه ، فدعهم يا رسول الله فإنهم إن أقاموا أقاموا بشر محبس ، وإن رجعوا رجعوا خائبين مغلوبين ، لم ينالوا خيرًا ، يا رسول الله أطعنى فى هذا الأمر ، واعلم أنى ورثت هذا الرأى من أكابر قومى ، وأهل الرأى منهم ، فهم كانوا أهل الرأى والتجربة .

وسندع الحديث عن عبد الله بن أبى إلى فقرة لاحقة ؛ خاصة وأن رأيه موافق لرأى رسول الله ﷺ ، لكننا نقول : إن حقه فى المشورة محفوظ رغم مواقفه السابقة المشبوهة ، فهو فرد فى الأمة ، وأحد الشخصيات القيادية فيها ، فلا نص يمنعه من إبداء الرأى ، ولا حجر على القناعات والمواقف فى الأمور المطروحة على الشورى .

لكن الموقف الأعجب والأروع هو موقف المستويين العظيمين اللذين عارضا رأى البقاء فى المدينة . هذان المستويان هما : فتيان أحداث لم يشهدوا بدرًا ، ورجال من أهل السن وأهل النية .

كيف يجرؤ هؤلاء على عرض رأيهم المخالف صراحة لرأى رسول الله ﷺ وهو الموحى إليه ، إننا نجد بعض المشعوذين الذين يوهمون الناس بأنهم أرباب من دون الله ، أو أنبياء أو ملهمون ، فتمسخ شخصية الأمة كلها أمامهم ، ويصبح الناس جميعًا يرون بهم الحكمة والعبقرية والعظمة ، وكثير من هؤلاء الذين تمسخ أشخاصهم أمامهم ؛ نتيجة إعجاب وفتنة وعبودية مذلة ، والبعض القليل يصمت خوفًا من سلطان الطاغية فيُمَالِئ وينافق ، لقد كان شيخ القبيلة يعلن حربًا ؛ لأن ماجنًا خليعًا فى القبيلة أحدث حدثًا ، أو قتل رجلاً من العدو ، فلا يجرؤ أحد على الوقوف أمام هذا الشيخ ، ولقد رأينا اليهودى الخبيث « كيسنجر » كما ذُكر عنه ، أنه عندما فكَّر أن يبيع الأمة العربية لليهود من خلال اتفاقية كامب ديفيد ، عرف المدخل لذلك وهو مبدأ شيخ القبيلة ،

حيث أقنع السادات وانتهى الأمر، فهو السلطان الحاكم بأمره،وهو قادر بعدها على أن يعلن رأيه ، فتأتى الموافقة الرسمية من البرلمان ، والجماهير الشعبية من كل مكان تنادى بعبقرية بطل الحرب وبطل السلام ، إننا نجد هذه النماذج فى القرن العشرين ، وتحت ستار الحرية والديمقراطية ، تباع الشعوب من خلالها ، وتذبح الشعوب من خلالها ، وتبقى فكرة الملهم والعبقرى ، والقائد الفذ تمسح وجود كل الناس حوله (١) .

وهنا ونحن بين يدى سيد ولد آدم ، والذى وضعت أمته كلها فى الميزان ، ووضع فى الكفة الثانية فرجح بها ، ومع ذلك يندفع الشباب والفتيان يعلنون رأيهم دون تهيب أو خوف ، فقد بنى - عليه الصلاة والسلام - رجالاً من طراز رفيع، يطلب منهم المشورة رغم الرؤيا الصادقة، ويطلب منهم الرأى رغم التفسير والتأويل الواضح كفلق الصبح، ومع ذلك يندفع إياس بن أوس بن عتيك ، الشاب المتوثب حماسة وحيوية فيقول : نحن بنو عبد الأشهل ، نحن البقر المذبح ، نرجو يا رسول الله أن نذبّح فى القوم ، ويذبَّح فينا ، فنصير إلى الجنة ، ويصيرون إلى النار ، مع أنى يا رسول الله لا أحب أن ترجع قريش إلى قومهم فيقولون: حصرنا محمداً فى صياصى يثرب وآطامها، فيكون هذا جرأة لقريش وقد وطئوا سعفنا،قد كنا يا رسول الله فى جاهليتنا ، والعرب يأتوننا ، ولا يطمعون بهذا منا حتى نخرج إليهم بأسيافنا حتى نذبهم عنا ، فنحن اليوم أحق ، إذ أيَّدنا الله بك ، وعرَّفَنا مصيرنا لا نحصر أنفسنا فى بيوتنا .

ويندفع أنس بن قتادة فيقول : يا رسول الله هى إحدى الحسنيين : إما الشهادة ، وإما الظفر والغنيمة فى قتلهم ، فقال رسول الله ﷺ: « إنى أخاف عليكم الهزيمة » .

ولو وقف الأمر عند حماس الشباب لهان الأمر ، فقد شارك فى الرأى المعارض شخصيات قيادية من المهاجرين والأنصار منهم : سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه والذى قال : والذى أنزل عليك الكتاب لا أطعم اليوم طعامًا حتى أجالدهم بسيفى خارج المدينة .

وشارك حمزة رضي الله عنه سيد الخزرج سعد بن عبادة ، وأحد قياداتها النعمان بن مالك فقالا : إنا نخشى يا رسول الله أن يظن عدونا أنا كرهنا الخروج إليه جبنًا عن لقائهم ، فيكون هذا جرأة منهم علينا ، وقد كنت فى بدر فى ثلثمائة رجل فظفرك الله عليهم، ونحن اليوم بشر كثير ، وقد كنا نتمنى هذا اليوم ، وندعو الله به ، وقد ساقه الله إلينا فى ساعتنا .

---

(١) خريف الغضب د . محمد حسنين هيكل .

وقال مالك بن سنان سيد بنى حذرة : يا رسول الله نحن والله بين إحدى الحسنيين: إما أن يظفرنا الله بهم فهذا الذى نريد ، فيذلهم الله لنا فتكون وقعة كوقعة بدر ، فلا يبقى منهم إلا الشريد ، والأخرى يارسول الله يرزقنا الله الشهادة ، والله يا رسول الله ما أبالى أيهما كان ، إن كلاً لفيه الخير. وقد مثل هذا الرأى قطاعًا عريضًا من الصحابة ، ومثل قناعة الشباب المتعطش للجهاد .

ورسول الله ﷺ كاره لهذا الرأى ، ولا تزال الرؤيا ماثلة أمام عينيه عن الدرع الحصينة ، والذين يرون البقاء فى المدينة هم الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ حيث يعرضون جوانب الخطة الحربية التى تكفل النصر فى عالم الأسباب .

ومع هذا كله يكتفى ـ عليه الصلاة والسلام ـ بما سمع ويقول لهم : « لكم النصر ما صبرتم » ، ويمضى ليلبس لأمة الحرب استجابة للرأى الآخر الذى يمثله جمهور الصحابة ، والذى يمثله عنصر الشباب الذى هو قرة عينه ، وقد رأى ـ عليه الصلاة والسلام ـ ثمرة التربية الدؤوبة التى مضى بها بأمر ربه ، حيث رأى حب الاستشهاد والموت فى سبيل الله قد غدا فى الصف المسلم لا يقل عن حب النصر .

ورأى الجيل أمامه يستعد بكل طاقاته ليتحمل مسؤولياته ، ويرغب فى المواجهة خارج المدينة ، ومراعاة هذه النماذج لتقاتل وهى مرتاحة قريرة العين ، غير قتالها وهى محبوسة داخل الآطام والحصون ، وبرز رأى فريق ثالث من خلال التربية النبوية ، هذا الفريق ينظر للأمر من خلال هوى قائده ـ عليه الصلاة والسلام ـ ورغبته ، حتى ولو لم يكن هناك أمر من السماء بذلك ، ومثل هذا الرأى قادة الأوس العظام : سعد بن معاذ، وأسيد بن حضير ، وطرحا هذا الرأى على المسلمين بعد أن غادر رسول الله ﷺ المسجد لبيته فقالا : قلتم لرسول الله ﷺ ما قلتم ، واستكرهتموه على الخروج ، والأمر ينزل عليه من السماء ، فردوا الأمر إليه ، فما أمركم به فافعلوا ، وما رأيتم له فيه هوىً ورأى فأطيعوه ، وقد أوضح هذه الآراء الثلاثة ما ذكره الواقدى : فبينا القوم على ذلك من الأمر ، وبعض القوم يقول : القول ما قال سعد ، وبعضهم على البصيرة على الشخوص ، وبعضهم للخروج كاره .

فى هذه الحالة ، فاجأ القوم رسول الله ﷺ ، وقد لبس لأمة الحرب الكاملة ، وكان الوقع النفسى أمام هذا المنظر العظيم لسيدهم وحبيبهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن أخذوا جميعًا برأى سعد :

إذ خرج رسول الله ﷺ قد لبس لأمته (١) ،وقد لبس الدرع فأظهرها،وحزم وسطها

(١) اللأمة : ثياب الحرب وعدته .

بمنطقة من حمائل سيفه من أدم ، واعتم ،وتقلد السيف ، فلما خرج رسول الله ﷺ ندموا جميعًا على ما صنعوا وقال الذين يلحون على رسول الله ﷺ: يا رسول الله ، ما كان لنا أن نخالفك فاصنع ما بدا لك ، وما كان لنا أن نستكرهك ، والأمر إلى الله ثم إليك .

وكانت فرصة سانحة لسيد الخلق ، وقد تراجع صحبه جميعًا وتركوا له الرأى أن يعود إلى رأيه ويقودهم وقد وافقوا رأيه ، لكن المربى الأعظم ﷺ ، يريد لهذا الجيل أن يقود العالم، ويريد أن يعلمه كل قواعد الشورى ، واحترام الرأى، ويريد لهذه الشعلة المتقدة من الحماس للمواجهة أن تبقى لاهبة متوهجة ، فقرار المواجهة قد صدر بناءً على رأى جمهور الشباب المسلم ، ولن يتغير القرار :

« قد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتم ، ولا ينبغى لنبى إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه ، انظروا ما أمرتكم به فاتبعوه،امضوا على اسم الله ، فلكم النصر ما صبرتم » .

ويتعلم كل فرد من هذا الجيش عندما يكون غدًا على رأس جيش ، أو خوض معركة ، يتعلم من هذا الدرس كيف تكون القيادة ، وكيف تكون الشورى ، وكيف تكون العزيمة .

وجاء القرآن الكريم بعد محنة أحد ، يقرر هذا الأمر ، ويقر نبيه بكل خطواته الأولى والثانية ، ويقر عينه بهذه العصبة العظيمة التى حوله ، ويقر عينها بنبيها فيقول :
﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (١) .

جاء الوحى الربانى ، ليقر لين نبيه المصطفى ﷺ لهذا الشباب المتحمس الوثاب ، ولو كان غير ذلك ، لانفصم جنده عنده ، وانفضوا من حوله ، وقرر خطأ رأيهم فى الإصرار على الخروج الذى قاد إلى أن يشج وجهه الشريف ، وتكلم شفته ، وتكسر ثناياه ﷺ ، فليعف عنهم ، وليستغفر لهم على ما اندفعوا به من الخروج .

وجاء ليقر وراء ذلك كله صحة الموقف بالأخذ برأى الشورى ، وصحة احترام رأيهم وأنهم لو أخطؤوا مرة، فسوف يصيبون مرات ، فهم أهل للمشورة، وأهل للأخذ بآرائهم . فاعف عنهم واستغفر لهم ، وشاورهم فى الأمر. ثم تكون مسؤولية القيادة بعد اتخاذ القرار ضمن الأطر الشورية بيد القائد الأعظم ﷺ .

---

(١) آل عمران / ١٥٩ .

﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ .

(إن السياق يتجه هنا إلى رسول الله ﷺ وفى نفسه شىء من القوم ؛ تحمسوا للخروج ، ثم اضطربت صفوفهم ، فرجع ثلث الجيش قبل المعركة ، وخالفوا ـ بعد ذلك ـ عن أمره ، وضعفوا أمام إغراء الغنيمة ، ووهنوا أمام إشاعة مقتله ، وانقلبوا على أعقابهم مهزومين ، وأفردوه فى النفر القليل ، وتركوه يثخن بالجراح ، وهو صامد يدعوهم فى أخراهم، وهم لا يلوون على أحد. . . يتوجه إليه ﷺ يطيِّب قلبه. وإلى المسلمين يشعرهم نعمة الله عليهم به ، ويذكرهم ويذكره رحمة الله الممثلة فى خلقه الكريم الرحيم ، الذى تتجمع حوله القلوب .. ذلك ليستجيش كوامن الرحمة فى قلبه ﷺ ، فتغلب على ما أثاره تصرفهم فيه ، وليحسوا هم حقيقة النعمة الإلهية بهذا النبى الرحيم ، ثم يدعوه أن يعفو عنهم ، ويستغفر الله لهم ، وأن يشاورهم فى الأمر كما كان يشاورهم غير متأثر بنتائج الموقف لإبطال هذا المبدأ الأساسى فى الحياة الإسلامية .

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ (١) .

فهى رحمة الله التى نالته ونالتهم ، فجعلته ﷺ رحيمًا بهم ، ليِّنًا معهم ، ولو كان فظًا غليظ القلب ما تألفت حوله القلوب ، ولا تجمعت حوله المشاعر . فالناس فى حاجة إلى كنف رحيم وإلى رعاية فائقة ، وإلى بشاشة سمحة ، وإلى ود يسعهم ، وحلم لا يضيق بجهلهم وضعفهم ونقصهم ، فى حاجة إلى قلب كبير يعطيهم ، ولا يحتاج منهم إلى عطاء ، ويحمل همومهم ، ولا يعنيهم بهمه ، ويجدون عنده دائمًا الاهتمام والرعاية والعطف والسماحة والود والرضا ،وهكذا كان قلب رسول الله ﷺ ، وهكذا كانت حياته مع الناس ، ما غضب لنفسه قط ، ولا ضاق صدره بضعفهم البشرى ، ولا احتجز لنفسه شيئًا من أعراض هذه الحياة، بل أعطاهم كل ما ملكت يداه فى سماحة ندية ، ووسعهم حلمه وبره وعطفه ووده الكريم ، وما من واحد منهم عاشره أو رآه إلا امتلأ قلبه بحبه ، نتيجة لما أفاض ـ عليه الصلاة والسلام ـ من نفسه الكبيرة الرحيمة .

وكان هذا كله رحمة من الله به وبأمته ، يذكرهم بها فى هذا الموقف ، ليرتب عليها ما يريده سبحانه لحياة هذه الأمة من تنظيم .

﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ﴾ (٢) .

(١، ٢) آل عمران / ١٥٩ .

وبهذا النص الجازم ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ﴾ يقرر الإسلام هذا المبدأ فى نظام الحكم ، حتى ومحمد رسول الله ﷺ هو الذى يتولاه ، وهو نص قاطع لا يدع للأمة المسلمة شكًا فى أن الشورى مبدأ أساسى لا يقوم نظام الإسلام على أساس سواه ، أما شكل الشورى ، والوسيلة التى يتحقق بها ، فهذه أمور قابلة للتحوير والتطوير وفق أوضاع الأمة وملابسات حياتها، وكل شكل وكل وسيلة تتم بها حقيقة الشورى - لا مظهرها - فهى من الإسلام .

ولم يكن رسول الله ﷺ يجهل النتائج الخطيرة التى تنتظر الصف المسلم من جراء الخروج، فقد كان لديه الإرهاص من رؤياه الصادقة التى رآها والتى يعرف مدى صدقها ، وقد تأولها قتيلاً من أهل بيته ، وقتلى من صحابته ، وتأول المدينة درعًا حصينة ، وكان من حقه أن يلغى ما استقر عليه الأمر نتيجة الشورى. . . ولكنه أمضاها وهو يدرك ما وراءها من الآلام والخسائر والتضحيات ؛ لأن إقرار المبدأ وتعليم الجماعة وتربية الأمة ، أكبر من الخسائر الوقتية .

ولقد كان من حق القيادة النبوية أن تنبذ مبدأ الشورى كله بعد المعركة ، أمام ما أحدثته من انقسام فى الصف فى أحرج الظروف (١) ، وأمام النتائج المريرة التى انتهت إليها المعركة ! ولكن الإسلام كان ينشئ أمة ويربيها ويعدها لقيادة البشرية ، وكان الله يعلم أن خير وسيلة لتربية الأمم وإعدادها للقيادة الرشيدة أن تربى بالشورى ، وأن تدرب على حمل التبعة ، وأن تخطئ مهما يكن الخطأ جسيمًا وذا نتائج مريرة ؛ لتعرف كيف تصحح خطأها ، وكيف تتحمل تبعات رأيها وتصرفها ، فهى لا تتعلم الصواب إلا إذا زاولت الخطأ ، والخسائر لا تهم إذا كانت الحصيلة هى إنشاء الأمة المدربة المقدرة للتبعات واختصار الأخطاء والعثرات ، والخسائر فى حياة الأمة ليس فى حياة الأمة فيها شيء من الكسب لها، إذا كانت نتيجة أن تظل هذه الأمة قاصرة كالطفل تحت الوصاية ، إنها فى هذه الحالة تتقى خسائر مادية ، وتحقق مكاسب مادية ، ولكنها تخسر نفسها ، وتخسر وجودها ، وتخسر تربيتها ، وتخسر تدريبها على الحياة الواقعية ، كالطفل الذى يمنع من مزاولة المشى - مثلاً - لتوفير العثرات والخبطات أو توفير الحذاء .

كان الإسلام ينشئ أمة ويربيها ويعدها للقيادة الراشدة ، فلم يكن بد أن يحقق لهذه الأمة رشدها ، ويرفع عنها الوصاية فى حركات حياتها العملية الواقعية كى تدرب عليها فى حياة الرسول ﷺ وبإشرافه ، ولو كان وجودُ القيادة الراشدة يمنع الشورى ، ويمنع تدريب الأمة عليها تدريبًا عمليًا واقعيًا فى أخطر الشؤون ؛ كمعركة أحد التى قد تقرر مصير الأمة المسلمة نهائيًا ، وهى أمة ناشئة تحيط بها العداوات والأخطار من كل

(١) هذا فى ظاهر الأمر ، لكن موقف عبد الله بن أبى وحزبه يهدف إلى ضرب الإسلام ، ولو أخذ الرسول ﷺ برأيه ، وقد تكون له مواقف خذلان وانقسام داخل المعركة حتى لو أخذت القيادة برأيه .

جانب ، ويحل للقيادة أن تستقل بالأمر وله كل هذه الخطورة ، لو كان وجود القيادة الراشدة فى الأمة يكفى ويسد مسد مزاولة الشورى فى أخطر الشؤون ؛ لكان وجود محمد ﷺ ـ ومعه الوحى من الله سبحانه وتعالى ـ كافيًا لحرمان الجماعة المسلمة يومها من حق الشورى ، وبخاصة على ضوء النتائج المريرة التى صاحبتها فى ظل الملابسات الخطيرة لنشأة الأمة المسلمة ، ولكن وجود محمد ﷺ رسول الله ومعه الوحى الإلهى ، ووقوع تلك الأحداث ، ووقوع تلك الملابسات ، لم يلغ هذا الحق ؛ لأن الله تعالى يعلم أن لابد من مزاولته فى أخطر الشؤون، ومهما تكن النتائج، ومهما تكن الخسائر ، ومهما يكن انقسام الصف ، ومهما تكن التضحيات المريرة ، ومهما تكن الأخطار المحيطة ؛ لأن هذه كلها جزئيات لا تقوم أمام إنشاء الأمة الراشدة، المدربة بالفعل على الحياة ، المدركة لتبعات الرأى والعمل ، الواعية لنتائج الرأي والعمل . ومن هنا جاء هذا الأمر الإلهى ، فى هذا الوقت بالذات ﴿ **فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ** ﴾ .

ليقرر المبدأ فى مواجهة أخطر الأخطار التى صاحبت استعماله ، وليثبت هذا القرار فى حياة الأمة المسلمة أيًا كانت الأخطار التى تقع فى أثناء التطبيق ، وليسقط الحجة الواهية التى تثار لإبطال هذا المبدأ فى حياة الأمة المسلمة ، كلما نشأ عن استعماله بعض العواقب التى تبدو سيئة ، ولو كان هو انقسام الصف ـ كما وقع فى أحد ـ والعدو على الأبواب ؛ لأن وجود الأمة الراشدة مرهون بهذا المبدأ ،ووجود الأمة الراشدة أكبر من كل خسارة أخرى فى الطريق .

على أن الصورة الحقيقية للنظام الإسلامى لا تكمل حتى نمضى مع بقية الآية ، فنرى أن الشورى لا تنتهى أبدًا إلى الأرجحة والتعويق ، ولا تغنى كذلك عن التوكل على الله فى نهاية المطاف .

﴿ **فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ** ﴾ (١).

إن مهمة الشورى هى : تقليب أوجه الرأى ،واختيار اتجاه من الاتجاهات المعروضة، فإذا انتهى الأمر إلى هذا الحد ، انتهى دور الشورى وجاء دور التنفيذ فى عزم وحسم ، وفى توكل على الله ، يصل الأمر بقدر الله ويدع المشيئة تصوغ العواقب كما تشاء .

وكما ألقى النبى ﷺ درسه النبوى الربانى ، وهو يعلم الأمة الشورى ، ويعلمها إبداء الرأى ، واحتمال تبعة تنفيذه فى أخطر الشؤون وأكبرها . . . ، كذلك ألقى درسه الثانى فى المضاء بعد الشورى ، وفى التوكل على الله ، وإسلام النفس لقدره على علم

---

(١) آل عمران / ١٥٩ .

بمجراه واتجاهه ، فأمضى الأمر فى الخروج ، ودخل بيته فلبس درعه ولأمته ، وهو يعلم إلى أين هو ماضٍ ، وما الذى ينتظره وينتظر الصحابة معه من آلام وتضحيات ، وحتى حين أتيحت فرصة أخرى بتردد المتحمسين ، وخوفهم من أن يكونوا استكرهوه ﷺ على ما لا يريد ، وتركهم الأمر له ليخرج أو يبقى ، حتى حين أتيحت له هذه الفرصة لم ينتهزها ليرجع ؛ لأنه أراد أن يعلمهم الدرس كله ، درس الشورى ، ثم العزم والمضى مع التوكل على الله والاستسلام لقدره ، وأن يعلمهم أن للشورى وقتها ، ولا مجال بعدها للتردد والتأرجح الذى لا ينتهى ... إنما هو رأى وشورى ، وعزم ومضاء ، وتوكل على الله يحبه الله ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (١).

والخلة التى يحبها الله ويحب أهلها هى : الخلة التى ينبغى أن يحرص عليها المؤمنون ، بل هى التى تميز المؤمنين ، والتوكل على الله، ورد الأمر إليه فى النهاية، هو خط التوازن الأخير فى التصور الإسلامى ، وفى الحياة الإسلامية ، وهو التعامل مع الحقيقة الكبيرة ، حقيقة أن مرد الأمر إلى الله ، وأن الله فعال لما يريد .

لقد كان هذا درسًا من دروس (أحد) الكبار ، هو رصيد الأمة المسلمة فى أجيالها كلها وليس رصيد جيل بعينه فى زمن من الأزمان) (٢) .

٣ ـ طبيعة الصف الإسلامى فى أحد :

لابد لنا من وقفة مستأنية لدراسة طبيعة الصف الإسلامى،وتركيبه قبيل غزوة أحد ، ومن خلال المقارنة مع طبيعة الصف الإسلامى قبيل غزوة بدر ، تتضح معالم هذا الصف أكثر وأكثر .

لقد رأينا رسول الله ﷺ قبيل بدر، ولم يعد الإعداد المادى الكافى للمواجهة؛ إذ أن خروج الجيش الإسلامى كان لمواجهة قافلة يقودها سبعون شخصًا ، ولم يكن خروجه لمواجهة جيش قوامه ألف رجل ، ومع هذا كله ، وبعد الاستشارات العديدة التى أقدم عليها رسول الله ﷺ فى مبدأ المواجهة مع العدو ، وخصَّ الأنصار بالذكر والرأى ،وحيث أجمعت القيادات الكبرى بعد التردد النفسى البشرى خوف المواجهة ، على لقاء العدو ، كان ذلك التوجه النبوى العظيم إلى الله رب العرش العظيم بطلب النصر .

صحيح أن العدة المادية لم تكن كاملة ولم تكن كافية ، والكثير من المسلمين فى المدينة ، وفيهم قيادات عظيمة كان يمكن أن تكون فى الصف لو عرفوا أن رسول الله

---

(١) آل عمران / ١٥٩ .

(٢) فى ظلال القرآن ١ / ٥٠٠ ـ ٥٠٣ بتصرف

ﷺ يلقى حربًا ، لكن النبى ﷺ مطمئن إلى الإعداد المعنوى ، مطمئن إلى سلامة صفه كله ، فليس منهم شخص دون المستوى الإيمانى المطلوب ، رغم قصر مدة التربية النبوية ، التى لم تبلغ لبعضهم سنتين فقط ، رغم هذا كله فهو مطمئن إلى أن النماذج التى معه فى بدر هى خيرة أهل الأرض ، وهذا هو أعظم إعداد فى البناء ، كان التوجه النبوى الكريم إلى رب العزة والجلال أن ينزل نصره ، وكان ذلك الإلحاح الشديد فى التذلل والتضرع إلى الله أن ينجز وعده حتى ليسقط رداؤه الشريف عن منكبيه وهو لا يشعر من عظمة التوجه إلى الله تعالى بتحقيق موعوده بالنصر ، ولا أدل على ثقته بهذا الصف من صيغة دعائه ـ عليه الصلاة والسلام ـ :

« اللهم إن تهلك هذه العصابة ، فلن تعبد فى الأرض » .

فهذه العصابة عنده هى خيرة أهل الأرض ، وهى المنوط بها الخلافة الراشدة فيها .

لكننا نجد فى أحد صورة معاكسة تمامًا ، ورغم مظاهر الحماس الطاغى من الشباب للمواجهة ، ومن الشيوخ الكبار ، خاصة الذين لم يتح لهم أن يشهدوا بدرًا ، فقد كانت نظرته ـ عليه الصلاة والسلام ـ لهذا الصف تختلف كثيرًا عن نظرته لصف بدر .

لقد انضم إلى الصف الإسلامى ثلاثة أضعاف أو ضعفين على أقل تقدير خلال عام واحد ،وهذا العام لم يكن كافيًا لإتمام التدريب والتربية ؛ لرفع هذه الأعداد الجديدة إلى المستوى الإيمانى المطلوب والموجود عند السابقين الأولين، ورغم أن الإعداد لم ينقطع خلال هذا العام من خلال الغزوات المستمرة للعدو، والسرايا العظيمة من الرجالات الكبار القدوة ، رغم هذا كله لم يكن الصف بعد قد غدا مؤهلاً لمثل هذه المواجهة ، ولم نجد هذا الإلحاح الشديد على رب العزة والجلال فى إنزال نصره ؛ لأن الإعداد المعنوى فى الصف لا يزال دون المستوى المطلوب للمواجهة ، ولا نتحدث هنا عن المنافقين إنما نتحدث عن ضعاف الإيمان داخل الصف الإسلامى الواحد .

وإن القائد العادى الذى يرى هؤلاء الجنود ليدرك بثاقب نظره تخلخل المستويات الإيمانية ، وضعف بعض النماذج داخل الصف ، فكيف بسيد الخلق ، وسيد القادة ، وسيد العباقرة فى الوجود لا يدرك أبعاد هذا الصف ، ونوعياته ، ومستوياته ؛ ولهذا كله كان جواب رسول الله ﷺ ، ليس إلحاحًا فى التضرع بإنزال النصر بمقدار ما كان تقريراً يتناسب مع واقع الصف الجديد : « ولكم النصر ما صبرتم » .

وهذا ما يقرره القرآن الكريم ابتداء : ﴿ **بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ** ﴾ (١) .

---

(١) آل عمران / ١٢٥ .

ولم يصبروا ويتقوا - أى كل الصف بكل أفراده - فلم يأت مدد الخمسة آلاف من الملائكة ، وكل الذى ورد عن نزول الملائكة فى نص صحيح ، وما ورد على لسان سعد رضي الله عنه عن نزول جبريل وميكائيل ؛ لحماية رسول الله ﷺ ، عندما استفرد وحده من العدو كما يقول سعد : (رأيت رسول الله ﷺ يوم أحد ، ومعه رجلان يقاتلان عنه عليهما ثياب بيض كأشد القتال ما رأيتهما قبل ولا بعد) (١) .

وقد نزل القرآن الكريم بعد الغزوة يعالج طبيعة هذا الصف .

ولابد من إيضاح كذلك فى هذا الصدد : أن هذه المعالجة كانت منصبة على السبعمائة الذين ثبتوا مع رسول الله ﷺ ، أما الحديث عن المنافقين ، فكان صريحًا عنهم بأسمائهم ومواقفهم ، بينما يأتى التعبير القرآنى ليصف الصف المسلم نفسه :

﴿ إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلا .... ﴾ (٢) .

﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ .... ﴾ (٣) .

﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ .... ﴾ (٤) .

﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ .... ﴾ (٥) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ .... ﴾ (٦) .

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ... ﴾ (٧) .

أما الحديث عن المنافقين ، فكان يأتى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لإِخْوَانِهِمْ .... ﴾ (٨) .

﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ

---

(١) البخارى ، ك ٦٤ ، باب إذ همت طائفتان ١٨ ، ٥ / ١٢٤ .
(٢) آل عمران / ١٢٢ .
(٣) آل عمران / ١٥٢ .
(٤) آل عمران / ١٥٣ .
(٥) آل عمران / ١٥٤ .
(٦) آل عمران / ١٥٥ .
(٧) آل عمران / ١٤٤ .
(٨) آل عمران / ١٥٦ .

بِمَا يَكْتُمُونَ . الَّذِينَ قَالُوا لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١) .

وكل ما فعله ـ عليه الصلاة والسلام ـ أمام هذا الجيش الذى عرف نوعياته ، وفقه مستوياته : أن خطب تلك الخطبة العظيمة التى تحث على الجهاد ، وتوضح العديد من الأسس والقواعد الإيمانية التى قد تغيب عن الذهن أثناء المعركة ، والتى تسوق العديد من الأحكام الشرعية التى تترى كل يوم من رب العالمين .

١ ـ فمناط الأمر كله هو طاعة الله ورسوله ، والبعد عن معصيته : « أيها الناس ، أوصيكم بما أوصانى الله تعالى فى كتابه من العمل بطاعته والتناهى عن محارمه » .

٢ ـ ولابد من الإيضاح لطبيعة هذه الحرب ، فقد انتهت حروب الذكر والشهرة والصيت ، حروب العصبية والقبلية المنتنة ، إنها بدء مرحلة جديدة لحرب جديدة قوامها الإيمان والكفر ، وهدفها الحرص على مرضاة الله ، وما أعد الله للمؤمنين فى الجنان ، وكثير من النماذج داخل هذا الصف ، لم تتبلور القضية فى نفوسهم بعد ، خلال هذه الأشهر القليلة : « ثم إنكم اليوم بمنزل أجر وذخر لمن ذكر الله عليه ، ثم وطّن نفسه على الصبر واليقين ، والجد والنشاط ، فإن جهاد العدو شديد كربُه ، قليل من يصبر عليه إلا من عزم الله رشده ، فإن الله مع من أطاعه ، والشيطان مع من عصاه ، فافتتحوا أعمالكم بالصبر على الجهاد ، والتمسوا بذلك ما وعدكم الله به » .

٣ ـ والقضية ليست قضية الجهاد فقط ، وإخلاص النية فى قلب المعركة ؛ إنما الجهاد حلقة من سلسلة مستمرة من الطاعات ،أو حلقة من سلسلة مستمرة من المعاصى: « وعليكم بالذى آمركم به ، فإنى حريص على رشدكم، فإن الاختلاف والتنازع والتثبيط من أمر العجز والضعف مما لا يحبه الله ، ولا يعطى عليه النصر والظفر » .

وكأنه كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يرى النتائج المرة رأى العين ، حين يأتى الاجتهاد الشخصى مكان الأمر النبوى ، ويقع الاختلاف والتنازع ، ويحال بين الجيش والنصر، وجاء القرآن الكريم بعد المعركة ليقول لهؤلاء السبعمائة : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ﴾ (٢) .

٤ ـ وها هو ـ عليه الصلاة والسلام ـ : يذكر أحكامًا شرعية بعينها،يعلمها هذا

(١) آل عمران / ١٦٧ ، ١٦٨ .
(٢) آل عمران / ١٥٢ .

الجيل ، فهو يدخل إلى أعماقه ليقول له فى معركة الضمير قبل معركة السلاح : إن الذى يُبيِّت غير الطاعة فالله تعالى سيكشفه ، فليؤوب إلى ربه قبل أن يفضح .

أ ـ « يا أيها الناس جدّد فى صدرى أنَّ من كان على حرام فرَّق الله بينه وبينه، ومن رغب له عنه غفر الله ذنبه » .

ب ـ وصلة الجيش بقائده ونبيه صلة روح وحب وتفان وتضحية : « ومن صلى عليَّ صلى الله عليه وملائكته عشرا » . إنها الصلاة التى تربط هؤلاء المؤمنين بالقلب المحرك لهم ، الذى منَّ به عليهم : ﴿ **لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ** ﴾ (١) .

جـ ـ والله تعالى يثيب على الإحسان ، ويعاقب على المعصية ، والذين هم داخل الجيش ووقفوا مع الصف الإسلامى ، ولم يعتنقوا عقيدته ، فسيأخذون أجرهم فى دنياهم ، أمثال قزمان وغيره : « ومن أحسن من مسلم أو كافر ، وقع أجره على الله فى عاجل دنياه أو آجل آخرته » .

د ـ وأهم معلم من معالم التربية العامة لهذا الصف المسلم هو : يوم الجمعة حيث يخطب ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى المسلمين ، يبلغهم أوامر ربهم ، ويصوغهم على هدى الله ، والذين تخلوا عن الجمعة فاتهم خير كبير ، ولم يعد الأمر فى الخيار بل على سبيل الوجوب والفرض : « ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فعليه الجمعة ـ يوم الجمعة ـ إلا صبيًا أو امرأة أو مريضًا أو عبدًا مملوكًا، ومن استغنى عنها استغنى الله عنه والله غنى حميد » .

هـ ـ وها هو ـ عليه الصلاة والسلام ـ : كأنه فى خطبة مودع، فقد أدى الأمانة، وبلغ الرسالة : « وما أعلم من عمل يقربكم إلى الله إلا وقد أمرتكم به ، ولا أعلم من عمل يقربكم إلى النار إلا وقد نهيتكم عنه » .

و ـ وأخطر قضية قبيل المعركة يجب أن يفقهها الجيل المجاهد هى : أن الأعمار والأرزاق بيد الله ، ولن تقدم الحرب أو المعركة أو تؤخر شيئًا فيها ،ففيم يكون الجبن ، فالموت لا يأتى إلا بقدر محدد ، ولو كان المقاتل على فراشه : ﴿ **قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ** ..... ﴾ ؟ ! (٢) .

---

(١) آل عمران / ١٦٤ . (٢) آل عمران / ١٥٤ .

والمغانم التى تتشوق بعض النفوس لها بعد النصر ، لن تطلب بمعصية الله ، ومعصية أوامره : « وإنه قد نفث فى روعى الروح الأمين ، أنه لن تموت نفس حتى تستوفى أقصى رزقها لا ينقص منه شىء ، وإن أبطأ عنها ، فاتقوا الله ربكم وأجملوا فى الطلب ، ولا يحملنكم استبطاء أن تطلبوه بمعصية ربكم، فإنه لا يقدر على ما عنده لا بطاعته » .

ز ـ ويبقى القلب المؤمن الحى هو الميزان الحساس فى الحلال والحرام بعد ما بينها الله تعالى فى كتابه وعلى لسان رسوله، وذلك فى الشبهات بين الحلال والحرام : « قد بينٍّ لكم الحلال والحرام ، غير أن بينهما شبهًا من الأمر لم يعلمها كثير من الناس إلا من عصم فمن تركها حفظ عرضه ودينه » .

وها نحن نجد هذه المعانى التى وردت فى الخطبة النبوية التربوية قبيل المعركة . قد جاء القرآن بعد المعركة ليحاسب الصف الإسلامى على ضوئها جميعًا ، ومدى التزامه بها من عدم التزامه .

٤ ـ النفاق وقادته :

لابد لنا من العودة قليلاً إلى الوراء ؛ لنشهد خريطة المدينة بعد دخول رسول الله ﷺ إليها ، وأهم شىء فى هذه الخريطة ، هو الحديث عن القيادات فى المدينة .

وقلت فيما مضى : إن القيادات الشابة انضوت كلها تحت الراية الإسلامية ، وتبنَّت الإسلام بروحها وقلبها وحياتها ، أما القيادات الكبيرة التى تقدم بها السن ، وأصبح حب الزعامة دينها ، فقد اختلف موقفها عن القيادات الشابة ، وسنعرض لثلاثة من الأوس والخزرج كانوا أكبر جيب معادٍ للإسلام فى الصف الإسلامى .

قبيل حرب بعاث انتهت القيادة فى يثرب إلى خمسة قادة كبار : اثنين من الخزرج ، وثلاثة من الأوس ، أكلت الحرب اثنين منهم هما ، القائد الأعلى للأوس : حضير بن سماك الأشهلى ، والقائد الأعلى للخزرج : النعمان بن عمرو البياضى ، وبقى من القيادات الكبرى ثلاثة : عبد الله بن أبى من الخزرج ، وأبو قيس بن الأسلت ، وأبو عامر الراهب من الأوس ، فماذا كان موقف هؤلاء الثلاثة من الدعوة ؟

ولابد قبل الإجابة على هذا السؤال من عرض الأرضية التى يقف عليها هؤلاء الثلاثة قبل حرب بعاث ، حيث تحددت مواقفهم بعدها على ضوئها .

(فاجتمع الملأ منهم ـ أى الأوس ـ واستحكم أمرهم ، وجدوا فى حربهم ، فلما سمعت الخزرج اجتمعوا حتى جاؤوا عبد الله بن أبى وقالوا له : قد كان الذى بلغك

من أمر الأوس،وأمر قريظة والنضير ، واجتماعهم على حربنا ، وإنا نرى أن نقاتلهم ، فإن هزمناهم لم يحرز أحد منهم معقله ولا ملجأه حتى لا يبقى منهم أحد . فلما فرغوا من مقالتهم قال لهم عبد الله : إن هذا بغى منكم على قومكم وعقوق ، والله ما أحب أن رجلاً من جراد (١) ألفيناهم ، وقد بلغنى أنهم يقولون : هؤلاء قومنا منعونا الحياة ، أفيمنعوننا الموت ؟ والله إنى أرى قومًا لا ينتهون أو يهلكوا عامتهم ، وإنى لأخاف إن قاتلوكم أن يُنصروا عليكم لبغيكم عليهم ، فقاتلوا قومكم كما كنتم تقاتلونهم ، فإذا ولوا فخلوا عنهم ، فإذا هزموكم فدخلتم أدنى البيوت خلوا عنكم ، فقال له عمرو بن النعمان البياضى : انتفخ والله سحرك (٢) يا أبا الحارث ، حين بلغك حلف الأوس وقريظة والنضير ، فقال عبد الله : والله لا حضرتكم أبدًا ولا أحد أطاعنى أبدًا ، ولكأنى أنظر إليك قتيلاً تحملك أربعة فى عباء .

وتابع عبدَ الله بن أُبى رجالٌ من الخزرج ، واجتمع كلام الخزرج على أن رأسوا عليهم : عمرو بن النعمان البياضى وولوه أمر حربهم ، ولبث الأوس والخزرج أربعين ليلة يتصنعون للحرب ، ويجمع بعضهم لبعض ، ويرسلون إلى حلفائهم من قبائل العرب . فأرسلت الخزرج إلى جهينة وأشجع ، وأرسلت الأوس إلى مزينة ، وذهب حُضَيْر الكتائب الأشهلى (ابن سماك) إلى أبى قيس بن الأسلت ، فأمره أن يجمع له أوس الله ، فجمعهم له أبو قيس ، فقام حضير ، فاعتمد على قوسه ، وعليه نمرة تشف عن عورته ، فحرَّضهم وأمرهم بالجد فى حربهم . . . فأجابته أوس الله بالذى يُحب من النصرة والمؤازرة والجد فى الحرب ، ثم اجتمعت الأوس مرة أخرى فأجالوا الرأى فقالوا : إن ظفرنا بالخزرج لم نبق منهم أحدًا ولم نقاتلهم كما كنا نقاتلهم ، فقال حضير : يا معشر الأوس ما سميتم الأوس إلا لأنكم تؤسون الأمور (٣) الواسعة .

يا قوم قد أصبحتم دوارا ... لمعشر قد قتلوا الخيارا

يوشك أن يستأصلوا الديارا

ثم طرحوا بين أيديهم تمرًا وجعلوا يأكلون ، وحضير الكتائب جالس وعليه بردة له قد اشتمل بها الصماء (٤) ، وما يأكل معهم ، ولا يدنو إلى التمر غضبًا وحنقاً . فقال : يا قوم ، اعقدوا لأبى قيس بن الأسلت ، فقال لهم أبو قيس : لا أقبل ذلك ، فإنى

(١) رجلاً من جراد : جماعة الجراد .
(٢) أصل السَّحْرِ : ما التصق بالحلقوم والمرىء ، ويقال للجبان : انتفخ سحره ، أى ملأ الخوف قلبه .
(٣) تؤسون الأمور : تعالجونها .
(٤) اشتمال الصماء : أن يرد الكساء من قبل يمينه على يده اليسرى وعلى عاتقه الأيسر ، ويرده ثانية من خلفه على يده اليمنى وعاتقه الأيمن فيغطيهما جميعًا .

لم أرأس على قوم فى حرب قط إلا هزموا وتشاءموا برياستى .

ثم جاءتهم أوس مناة ، وقدمت مزينة ، فانطلق حضير وأبو عامر الراهب إلى أبى قيس ،فقالوا: قد جاءتنا مزينة ، واجتمع إلينا من أهل يثرب ما لا قبل للخزرج به ، فما الرأى إن نحن ظهرنا عليهم ، الإنجاز أم البقية ؟ فقال أبو قيس: اقتلوهم حتى يقولوا : بزابز [1] ، ثم اختلفوا فى ذلك ، فأقسم حضير ألا يشرب الخمر ، أو يظهر ويهدم (مزاحمًا) أطمُ عبد الله بن أبى ، ثم لبثوا شهرين يعدون ويستعدون [2] .

انتهت حرب بعاث بهزيمة الخزرج هزيمة منكرة ، وقتل قائد جيشهم عمرو بن النعمان البياضى ، وثبت أن رأى عبد الله بن أبى كان أحكم وأصوب ، فأصبح ابن أبى القائد الوحيد فى الخزرج بلا منازع ، وحيث إن ابن أُبى لم يدخل الحرب ، فقد حفظ الأوس له هذا الموقف ، وصار من الممكن أن يوافقوا على توحيد كلمتهم تحت قيادته ، وقد برزت هذه الصورة الفريدة فى تاريخ المدينة ؛ حيث مضى وفدها يضم ثلاثمائة من الحجيج الأوس والخزرج ، حيث كان أقل من ثلثهم من الأوس، والباقى من الخزرج ، ذلك الوفد الذى تمت بيعة العقبة من خلالها ، وتم بروز اثنى عشر قائدًا جديدًا ليس فيهم أحد من القادة الثلاث من الأوس والخزرج ، وهم النقباء الاثنا عشر : ثلاثة من الأوس وتسعة من الخزرج ، وكانت هذه البيعة قاصمة الظهر لعبد الله بن أبى ؛ حيث فقد صوابه وفقد حكمته ، وفقد توازنه بعدها ، وانقلب كالحية الرقطاء ينفث سمًا على الإسلام والمسلمين طيلة حياته ، ورأى أن محمدًا ﷺ هو الذى أطاح بزعامته ، وقبل الاسترسال فى عرض موقف عبد الله بن أبى . نعرض لموقف الزعيمين الآخرين أبى قيس بن الأسلت ، وأبى عامر الراهب ، أما أبو قيس بن الأسلت ، فكما تذكر كتب السيرة أنه حجز قومه عن الإسلام فترة طويلة ، وعند ابن هشام : واستجمع له إسلام هذا الحى من الأنصار ، فلم يبق دار من دور الأنصار إلا أسلم أهلها ـ إلا ما كان من خطمة وواقف ووائل وأمية ـ وتلك أوس الله ، وهم حى من الأوس فإنهم أقاموا على شركهم [3] .

(فولد زيد بن قيس بن عامر بن مرة بن مالك بن الأوس أمية بطن،ووائل بطن ، وعطية بطن . فمن بنى وائل صيفى الشاعر ، وهو أبو قيس بن الأسلت، واسم الأسلت: عامر، وكان سيد قومه، فتأخر إسلامه إلى أن مضى يوم الخندق، وتأخر إسلام جمهور بنى خَطْمة ، وهم بنو جشم بن مالك بن الأوس ، وإسلام جمهور بنى

---

(1) بزابز : كلمة كانوا يقولونها إذا غلبوا .

(2) أيام العرب لجاد المولى وإخوانه ص ٧٤ ــ ٧٦ .

(3) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ١٦٦ .

واقف وهم بنو امرئ القيس بن مالك بن الأوس ، وإسلام أوس الله، وهم هؤلاء البطون وهم من ولد مرة بن مالك بن الأوس) (١) .

فقد حجز قومه قرابة ست سنوات عن الإسلام ، ثم أسلموا بإسلامه (٢) .

وذكر ابن سعد عن الواقدى بأسانيد متعددة قالوا : لم يكن أحد من الأوس والخزرج أوصف لدين الحنيفية ، ولا أكثر مسألة عنها من أبى قيس بن الأسلت، وكان يسأل من اليهود على دينهم فكان يقاربهم ، ثم خرج إلى الشام فنزل على آل جفنة فأكرموه ووصلوه ، وسأل الرهبان والأحبار ، فدعوه إلى دينهم فامتنع . فقال له راهب منهم: يا أبا قيس إن كنت تريد دين الحنيفية فهو من حيث خرجت،وهو دين إبراهيم ، فقال أبو قيس: أنا على دين إبراهيم ،ثم خرج إلى مكة معتمراً ،فبلغ زيد بن عمرو بن نفيل فكلمه فكان يقول : ليس أحد على دين إبراهيم إلا أنا وزيد بن عمرو ، وكان يذكر صفة النبى ﷺ وأنه يهاجر إلى يثرب وشهد وقعة بعاث ، وكانت قبل الهجرة بخمس سنين ، فلما قدم النبى ﷺ المدينة جاء إليه فقال : إلام تدعو ؟ فذكر له شرائع الإسلام ، فقال : ما أحسن هذا وأجمله ، فلقيه عبد الله بن أُبى بن سلول فقال: لقد لذت من حزبنا كل ملاذ ، تارة تخالف قريشًا ، وتارة تتبع محمداً فقال : لا جرم ، لا تبعته إلا آخر الناس ، فزعموا أنه لما حضره الموت أرسل النبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ يقول له :« قل: لا إله إلا الله أشفع لك بها » ، فسُمع يقول ذلك، وفى لفظ : كانوا يقولون : فقد سمع يوحد عند الموت (٣) .

وأما أبو عامر الراهب فكما ذُكِر آنفًا .

(وكان أبو عامر الفاسق قد خرج فى خمسين رجلاً من أوس الله حتى قدم بهم مكة حين قدم النبى ﷺ المدينة ، فأقام مع قريش ، وكان دعا قومه فقال لهم : إن محمداً ظاهر ، فاخرجوا بنا إلى قوم نوازرهم ، فخرج إلى قريش يحرضها ، ويعلمها أنها على الحق ، وما جاء به محمد باطل ، فسارت قريش إلى بدر ولم يسر معها ، فلما خرجت قريش إلى أحد سار معها وكان يقول لقريش : إنى لو قدمت على قومى لم يختلف عليكم منهم رجلان ، وهؤلاء معى نفر من قومى وهم خمسون رجلاً، فصدَّقوه بما قال وطمعوا بنصره) (٤) .

لكن الظواهر توحى أن خروجه لم يكن طفرة ، وكان بينه وبين عبد الله بن أبى

---

(١) جمهرة أنساب العرب لابن حزم : ٣٤٥ .
(٢) ويذكر الحافظ ابن حجر فى الإصابة أنه اختلف فى إسلامه .
(٣) الإصابة لابن حجر م ٤ ، ٧ / ١٥٨ . (٤) المغازى للواقدى ١/ ٢٠٥ ، ٢٠٦ .

مخطط رهيب مشترك تم الاتفاق سرًا عليه ، مع أن ابن أُبى زعيم الخزرج ، وأبا عامر الفاسق من قادة الأوس، وتشير الأمور إلى اتحاد الموقف ضد الإسلام بينهما منذ اللحظات الأولى ،وأبو قيس بن الأسلت وإن شارك فى الموقف والإصرار على الكفر ، لكنه لم يمض أبدًا فى طريق التآمر ، كما فعل هذين الرجلين من أكابر مجرميها ، وحتى تتم تغطية الصلات المشبوهة المستمرة بينهما : أقدما على عقد مصاهرة ، فزوج عبد الله بن أبى ابنته جميلة إلى حنظلة بن أبى عامر .

أما جميلة وحنظلة فقد أشرق قلبهما بالإسلام ، ولم يدنس بالشرك ، فأُسقط فى يد المجرمين ، وغادر أبو عامر المدينة إلى مكة ، وكان من الممكن أن نتصور انقطاع العلاقات بينهما ، لكن ما تم فى أحد يوحى بأن الرجلين كانا على خطة مشتركة موحدة فى حرب رسول الله ﷺ ، إذ تكفل عبد الله بن أبى بتنفيذ جريمته داخل الصف ، وشق الجيش الإسلامى والعودة بثلثه إلى المدينة ، وتكفل أبو عامر الراهب أن ينخذل بالأوس عن التقاء الصفين ، فتتم خلخلة الجيش وتحطيمه من فريقى الأوس والخزرج ؛ ولهذا كان أول من أشعل الحرب أبو عامر الراهب .

(إن أول من أنشب الحرب بينهم أبو عامر ، طلع فى خمسين من قومه معه عبيد قريش ، فنادى أبو عامر ـ وهو عبد عمرو ـ : يا آل أوس ، أنا أبو عامر ! فقالوا : لا مرحبًا بك ولا أهلاً يا فاسق ! فقال : لقد أصاب قومى بعدى شر ، ومعه عبيد أهل مكة ، فتراموا بالحجارة هم والمسلمون حتى تراضخوا بها ساعة حتى ولى أبو عامر وأصحابه) (١) .

وحين عجز أن يفعل شيئًا مع قومه ، حتى ولا ابنه حنظلة الذى بلغ من علو كعبه فى الإسلام أن يكون غسيل الملائكة فى الوقت الذى كان أبوه أبو عامر لعين الملائكة ، حيث حفر حفرًا وغطاها ووقع رسول الله ﷺ فى إحداها فى قلب المعركة .

ونأتى إلى عبد الله بن أبى ، أكبر المجرمين الثلاثة ، الذى لم يغسل سوأته بعد فى بنى قينقاع ، وبعد أن فضحه القرآن بأن من يتولى اليهود والنصارى فهو منهم ، لم يهز كيانه هذا كله ، وبقى له مقامه في قومه ، يتصدر المجالس ، خاصة وقد اعتنق الإسلام وراح يتكلم فيه بعد بدر مباشرة ؛ لأن بنى قينقاع تمت بعدها بخمسة عشر يومًا ، حيث قدَّم وساطته اللئيمة .

وها هو أول المتكلمين فى أحد . وإن كان فى الموقف الشورى قد التقى مع رسول

---

(١) المغازى للواقدى ١ / ٢٢٣ .

الله ﷺ ، لكنه كان يخطط لأن يكون بطل أحد ، وأن يكون الثغرة التى يدخل المشركون من خلالها المدينة ، فلم يكن شخص ابن أبى خافيا على قريش ، ولما خابت خطته الأولى فى إبقاء الجيش الإسلامى داخل المدينة ، وشاهد أن لابد من الخروج ، استدعى كتائب بنى النضير ، فجاءت مناصرة له لا لمحمد ﷺ .

(ثم ركب رسول الله ﷺ فرسه السَّكْب ، وتقلد القوس ، وأخذ قناة بيده ، والمسلمون عليهم السلاح بينهم مائة دارع ، وخرج السعدان أمامه يعدوان : سعد بن معاذ ، وسعد بن عبادة كل منهما دارع ، والناس عن يمينه وشماله، حتى إذا انتهى إلى رأس الثنية رأى كتيبة خشناء لها زجل فقال : « ما هذا ؟ » قالوا : هؤلاء حلفاء عبد الله ابن أبى من يهود ، فقال : « أسلموا ؟ » فقيل : لا ، فقال : « إنا لا نستنصر بأهل الشرك على أهل الشرك ») (١) .

ونتعرف على عدد هؤلاء من خلال رواية الطبرانى .

(وقد روى الطبرانى فى الكبير والأوسط برجال ثقات عن أبى حميد الساعدى : أن النبى ﷺ خرج يوم أحد ، حتى إذا جاوز ثنية الوداع ، فإذا هو بكتيبة خشناء فقال : « من هؤلاء ؟ » قالوا : عبد الله بن أبى فى ستمائة من مواليه من اليهود ، فقال: « وقد أسلموا ؟ » قالوا: لا يا رسول الله ، قال: « مروهم فليرجعوا ، فإنا لا نستعين بالمشركين على المشركين ») (٢) .

فابن أبى يريد أن يثبت أنه القائد الأول فى المدينة، فإذا انضم إلى الجيش الإسلامى ستمائة من اليهود بالإضافة إلى أنصاره المئات داخل الألف المسلمة ، فإن تحققت الهزيمة فسيكون هو الملك المتوج ولن ينازعه أحد، وقريش على تفاهم تام معه ، وإن كان النصر فهو الشريك الأول فيه .

هذا هو الجو الذى كانت المدينة تعج فيه من الصف المتخلخل ؛ إذ يحمى ابن أبى سبعمائة دارع وحاسر من بنى قينقاع من قبل . وها هو يستقدم ستمائة من بنى النضير من حلفائه ؛ لينضموا للجيش الإسلامى .

وها هو - عليه الصلاة والسلام - أمام هذه الأعداد الضخمة ، فقد انضم للجيش أكثر من نصفه ، فمن القائد فى هذه الجموع الغفيرة ؟! والمسلمون ينظرون إلى حبيبهم المصطفى ﷺ كيف يتصرف مع هذه الكتيبة الضخمة التى تفوق نصف الجيش الإسلامى ، ترى هل يستشير أصحابه فى ذلك ؟ وقد استشارهم فى أخطر وأهم من ذلك - فى

---

(١) سبل الهدى والرشاد ٤/٢٧٧ .

(٢) شرح المواهب اللدنية للزرقانى ٢ / ٢٥ .

استراتيجية المعركة وخطتها ـ لكنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ يتأكد فقط: «وقد أسلموا ؟» قالوا : لا .

ولم تنتظر هذه القضية عند المصطفى ﷺ لحظة من لحظات المشورة ، أو التردد، أو دراسة العواقب ، فهى لا تقبل مثل هذا الجدل ، وقوة اليهود المعلنة تضاهى وتقترب من قوة المسلمين ، وتجعلهم أصحاب شوكة ـ وشركاء فى النصر ـ وأصحاب شروط فى الحكم من جديد فى المدينة ، فكان الجواب النبوى الحاسم دون تردد ولا تلعثم ولا انتظار :« مروهم فليرجعوا ، فإنا لا نستعين بالمشركين على المشركين » .

لأنهم لا يقلون خطراً عن قريش داخل الصف،ولو كانت قريش خمسة أضعافهم . وكانت صدمة عنيفة لشخص عبد الله بن أبى ، ويدرك ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن مثل هذه الصدمة ستقع ، ويدرك أنه مقدم على انقسام خطير داخل صفه ، فلم يستشر أحداً فى ذلك ، وأصدر أمره بعودة اليهود ، وهل يجرؤ عبد الله بن أبى أمام الحلفاء الذين ردهم رسول الله ﷺ أن يسكت دون أن يقدم على جريمته الرهيبة ؟ إنه لا شك سيفقد هؤلاء الحلفاء .

واجتمعت القضيتان معًا ، فجعل منهما سبب إعلان العصيان المسلح ، ومبررًا للخروج على محمد ﷺ أمام قومه من الخزرج .

(فلما انتهى رسول الله ﷺ إلى أحد ـ إلى موضع القنطرة اليوم ـ جاء وقد حانت الصلاة وهو يرى المشركين، أمر بلالاً فأذن فأقام وصلى بأصحابه صفوفًا، وارتحل ابن أبى من ذلك المكان فى كتيبة كأنه هيق يقدمهم ، فاتبعهم عبد الله بن عمرو ابن حرام فقال : أذكركم الله دينكم ونبيكم ، وما شرطتم له أن تمنعوه مما تمنعون منه أنفسكم وأولادكم ونساءكم ، فقال ابن أبى : ما أرى أن يكون بينهم قتال ، ولئن أطعتنى يا أبا جابر لترجعن ، فإن أهل الرأى والحجى قد رجعوا ، ونحن ناصروه فى مدينتنا ، وقد خالفنا وأشرت عليه بالرأى ، فأبى إلا طواعية الغلمان ، فلما أبى على عبد الله أن يرجع ودخلوا أزقة المدينة ، قال لهم أبو جابر : أبعدكم الله ، إن الله سيغنى النبى والمؤمنين عن نصركم ، فانصرف ابن أبى وهو يقول : أيعصينى ويطيع الولدان ؟ وانصرف عبد الله بن عمرو بن حرام يعدو حتى لحق رسول الله ﷺ وهو يسوى الصفوف ،فلما أصيب أصحاب النبى ﷺ سر ابن أبى ،وأظهر الشماتة وقال: عصانى وأطاع من لا رأى له) (١) .

﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ (٢) .

---

(١) المغازى للواقدى ١/ ٢١٩ .

(٢) آل عمران / ١٧٩ .

لم يكن ـ عليه الصلاة والسلام ـ قادرًا على رفض هذا الخبيث من ابن أبى وصحبه المدخولين فى الجيش وهم يقولون : لا إله إلا الله ، ويتظاهرون بالإسلام، على أمل أن يتمكن الصف القوى من صهرهم مع الزمن وتربيتهم ، لكن عامًا واحدًا لا يكفى لمثل هذه التربية لمثل هذه الأعداد الهائلة ، وهذا الخبيث الذى انفصل مع عبد الله بن أبى ، وإن كان ابتداءً قد يفت فى عضد المسلمين ، لكنه عند الله تعالى رب السموات والأرض حكم ، وقد تم هذا الأمر بالتقدير الربانى فى أعنف لحظة ، وأشدها هولاً عندما التقى الصفان فى أحد ، وتراءى الجمعان ، وبعد صلاة الفجر حيث صلوا جميعًا صفوفًا .

وحتى تعرف قريش كذلك فضل ابن أبى ،وتعرف وزنه وحجمه ، وتعرف استقلال حزبه وشخصه عن محمد ﷺ أقدم على جريمته دون استئذان ،والذين مضوا معه ، إنما مضوا بقرار مبيت مدروس وليس بانفعال طارئ ، فكما تصفهم الرواية (ارتحل فى كتيبة كأنه هيق يقدمهم) .

فهؤلاء الثلاثمائة حزبه ورهطه وأتباعه ، إنما الذين كادوا أن يتأثروا به ، فريقان من المؤمنين : بنو سلمة ، وبنو حارثة .

أما بنو سلمة ، فهم من الخزرج ولا سلطان لابن أبى عليهم ، لكن قيادتهم قد آلت إلى منافق من عتاة المنافقين فى السنة الأولى فى المدينة ،مثل ربع عبد الله بن أبى، وهو الجد بن قيس ، فكما تقول الرواية :

(روى البخارى فى الأدب المفرد ، والسراج وأبو الشيخ فى الأمثال ، وأبو نعيم فى المعرفة من طريق حجاج الصواف ، عن أبى الزبير : حدثنا جابر قال لنا رسول الله ﷺ : « من سيدكم يا بنى سلمة ؟ » قالوا : الجد بن قيس على أنا نبجله، فقال بيده هكذا ، ومد يده :« وأى داء أدوأ من البخل . سيدكم عمرو بن الجموح ») (١) .

والجد بن قيس كان فى مكة ضمن الوفد يوم بيعة العقبة ، ولم يبايع رسول الله ﷺ ، ولم يدخل فى الإسلام آنذاك ، بينما شاركت قيادات بنى سلمة ، عبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر ، وكعب بن مالك شاعر الإسلام العظيم،والبراء بن معرور ، الذى كان أول من بايع رسول الله ﷺ .

فسيادة الجد بن قيس، والذى مر الزمن وبقى متهمًا على نفاقه حتى تبوك وبعدها ، ولم يثبت توبته وحسن إسلامه هذا من جهة ، ومن جهة ثانية ذهاب عبد الله بن عمرو ابن حرام رضي الله عنه فى محاولة مستميتة لصرف عبد الله بن أبى عن رأيه ، ووصوله المدينة معه ، أوهمت بعض بنى سلمة أن سيدهم انصرف مع ابن أبى ، لكن الله عصمهم من

---

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر م٢ ، ٤/ ٢٩٠ .

هذه اللوثة بشهادة القرآن نفسه : ﴿ إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (١) .

يقول جابر رضي الله عنه فينا نزلت : ﴿ إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلا ﴾ قال : نحن الطائفتان ، بنو حارثة وبنو سلمة ، وما نحب ، أو ما يسرنى أنها لم تنزل لقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا . . . ﴾ (٢) ، لكن جمهور بنى سلمة كان أكثر الناس حضوراً مع رسول الله ﷺ فى أحد،وأكثرهم جرحًا مع بنى النجار وبنى عبد الأشهل ، فكان أول قتيل فى أحد عبد الله بن عمرو رضي الله عنه الذى مضى ليصد ابن أبى عن جريمته .

قال جابر : كان أبى أول قتيل قتل من المسلمين ، قتله سفيان بن عبد شمس ، وهو والد أبى الأعور السلمى (٣) .

وأما بنو حارثة فهم من الأوس ، ولهم مواقف سابقة فى الضعف قبل الإسلام ، وكان بينهم وبين بنى عبد الأشهل توتر من أجل ذلك ، ففى يوم بعاث بين الأوس والخزرج (تخلف بنو حارثة فبعثوا إلى الخزرج : إنا والله ما نريد قتالكم ، فبعثوا لهم أن ابعثوا إلينا برهائن منكم يكونون فى أيدينا فبعثوا إليهم اثنى عشر رجلاً) (٤) .

ولقد شهدنا بعض هذا التوتر قبيل وصول رسول الله ﷺ على أحد وهو فى طريقه إليها (فلما كان السحر قال رسول الله ﷺ : « أين الأدلاء ؟ من رجل يدلنا على الطريق ، ويخرجنا على القوم من كثب ؟ » فقام أبو حثمة الحارثى فقال : أنا يا رسول الله . . . قال : فخرج رسول الله ﷺ فركب فرسه ،فسلك به فى بنى حارثة، ثم أخذ فى الأموال حتى يمر بحائط مربع بن قيظى ، وكان أعمى البصر منافقًا ، فلما دخل رسول الله ﷺ وأصحابه حائطه قام يحثى التراب فى وجوههم وجعل يقول : إن كنت رسول الله فلا تدخل حائطى ، فيضربه سعد بن زيد الأشهلى بقوسٍ فى يده فشجه فى رأسه فنزل الدم ، فغضب له بعض بنى حارثة ممن هو على مثل رأيه فقال : هى عداوتكم يا بنى عبد الأشهل لا تدعونها أبدًا لنا ، فقال أسيد بن حضير: لا والله ، ولكنه نفاقكم ، والله لولا أنى لا أدرى ما يوافق النبى ﷺ من ذلك لضربت عنقه وعنق من هو على مثل رأيه . فأسكتوا) (٥) .

---

(١) آل عمران / ١٢٢ .
(٢) فتح البارى ٧ / ٣٥٧ (٤٠٥١) .
(٣) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحى ٤ / ٣١٦ .
(٤) أيام العرب : لجاد المولى بك وزملائه ص ٧٦ .
(٥) المغازى للواقدى ١ / ٢١٨ .

وفى رواية : (فنهاهم النبى ﷺ عن الكلام فأسكتوا) [(١)] .

وبلغت القمة بالمنافق ما ذكر أنه أخذ حفنة من تراب فى يده ثم قال لرسول الله ﷺ : والله لو أعلم أنى لا أصيب غيرك فضربت بها وجهك ، فابتدره القوم ليقتلوه فقال رسول الله ﷺ : « لا تقتلوه فهذا الأعمى أعمى القلب أعمى البصر » ، وقد بدر إليه سعد بن زيد الأشهلى قبل نهى رسول الله ﷺ فضربه فى القوس فشجه ، فغضب له ناس من بنى حارثة وهم قومه وكانوا على مثل رأيه ، فهمٌ به أسيد بن حضير حتى أومأ إليه رسول الله ﷺ فكف [(٢)] .

هذا الجيل الأول الذى لـم يعد يرى فى الوجود غير شخص رسول الله ﷺ ، هاهو يجـد فى الصف وفى قلب من يزعم الإسلام ، من يقف هذه المواقف : (إن كنت رسول الله فلا تدخل حائطى) .

(لو علم أنى لا أصيب بها غيرك فضربت بها وجهك) كيف تصبر أعصاب هذا الجيل على أمثال هذه النماذج ، ولولا التربية النبوية العميقة العظيمة له لقُطعت رؤوس عن أجسادها خاصة ممن راحوا ينتصرون له ، لكن عظمة التربية أوقفتهم بالإيماء فتوقفوا ، وقلوبهم تغلى كالمرجل غضبًا لله ورسوله،ولكنها ستتحول إلى عصبية قبلية ، ورأينا آثارها مباشرة فى أن كان بنو حارثة قد هموا أن يرجعوا مع ابن أبى ، ثم عصمهم الله بدينهم ، لكنها لم تكن آخر سوآتهم ، فهم الذى تحدث عنهم القرآن كذلك يوم الخندق **﴿ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا . وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيراً ﴾** [(٣)] . قال العوفى عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : هم بنو حارثة قالوا : بيوتنا نخاف عليها السراق ، وكذا قال غير واحد ، وذكر ابن إسحاق أن القائل لذلك هو أوس بن قيظى [(٤)] .

لكن بنى حارثة بقى حسابهم ضمن المؤمنين ، وضمن الطيب الذى همٌ بالخطيئة ، وعصمه الله بإيمانه ، أما الذى انكشف بوقاحته وسوئه ، وفصله الله تعالى من الصف المؤمن ، فهم هؤلاء الثلاثمائة الذين قادهم عبد الله بن أبى ووصفهم القرآن فيما بعد فقال : **﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ**

---

(١) المغازى للواقدى ١ / ٢١٨ .

(٢) سبل الهدى والرشاد ٤/ ٢٧٩ .

(٣) الأحزاب / ١٣ ، ١٤ .

(٤) تفسير ابن كثير ٦/ ٤٣٥ .

بِمَا يَكْتُمُونَ . الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١) .

لقد ازدادت ثقة رسول الله ﷺ بالنصر عندما غادره المنافقون ، فهو يعلم أن الله تعالى لن ينزل نصره على صف ثلثه من المنافقين ، أو أدنى من ذلك بكثير، وبعد أن ميَّز الله تعالى الصف وطهره من النفاق ، كان التمحيص الثانى فى قلب المعركة بين الجيل الأول ، بين السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، وبين الذين اتبعوهم ، فبعضهم مضى صعدًا بإحسانه ليقف بجوارهم ، وبعضهم كان يسقط حينًا ويتعثر آخر ، وتتلقاه التربية القرآنية ثم التربية النبوية الدؤوبة المستمرة ، ليتابع خطاه على الطريق نفسه . لقد كان هذا الانفصال أضخم حدث شهدته الأمة المسلمة ، منذ أن قامت دولتها على الأرض ، وبعد عامين ونيِّفٍ من تأسيسها ، وكان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يحسب حساب مثل هذا الامتداد الأفقى ، ويعد له العدة المناسبة لامتصاصه وتنقيته .

لكن الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر ، لابد لهؤلاء من دخول الإيمان إلى قلوبهم ابتداءً ، ثم الحديث معهم فى جزئيات الإسلام بعد ذلك .

هذا التركيب الذى غدا بين يدى النبى ﷺ غداة أحد ،وهذا الانشقاق الذى حدث، ثم المعركة المصيرية الرهيبة التى وقعت بين المؤمنين والكافرين ، والنتائج الباهرة من الثبات والصمود ، وفشل العدو فى التقدم شبرًا نحو المدينة ، والنتائج المريرة من الضحايا والشهداء التى مضت إلى بارئها ، وفوات النصر العظيم الذى تحقق لمعصية قائدهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ كل هذه الأمور كانت مخبأة فى قدر الله إلى أن انتهت المعركة ، وبرز الإيمان كله ، والنفاق كله ، والكفر كله ، والعصيان كله ، جاء القرآن الكريم بعدها لعرض كل ما تم من خلال الآيات الستين من آل عمران ، والتى تمت معالجتها فى (التربية الجهادية) . ونتابع هنا خلاصة الموقف من النفاق بعد انتهاء المعركة ، والآثار العنيفة فى الصف لهذا الانشطار .

ولعل فرصة قليلة قبل اندلاع المعركة غضبت بها النفوس المسلمة لله ، ودعت إلى قتل أولئك المنافقين الثلاثمائة ، بينما كان فريق آخر يرى التريث معهم ، لما يقدم عليه المسلمون من الحرب ، وقد سجل القرآن لهم هذين الموقفين : **﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴾** (٢) .

---

(١) آل عمران / ١٦٧ ، ١٦٨ .
(٢) النساء / ٨٨ .

(فقد روى الشيخان عن زيد بن ثابت وابن إسحاق عن البراء بن عازب - رضى الله عنهما - قالا : لما خرج رسول الله ﷺ إلى أحد خرج معه بأناس فرجعوا ، فكان أصحاب رسول الله ﷺ فيهم فرقتين ، فقالت فرقة : نقتلهم ، وقالت فرقة: لا نقتلهم، فأنزل الله تعالى : ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا ﴾ ردهم إلى كفرهم بأعمالهم فقال رسول الله ﷺ : « إنها طيبة ، إنها تنفى الخَبَث كما تنفى النار خبث الفضة »)(١) .

إن أكبر القضايا التى كان رسول الله ﷺ يعانى منها فى صهر هذا الجيل الجديد بالإسلام هى : قضية العصبية القبلية ، إذ أن العرب كان دينهم أن ينصر أحدهم أخاه ظالمًا أو مظلومًا ، وجاء الإسلام ليجتث هذه القضية من جذورها ، لكن القرار النظرى شيء ، والممارسة والتدريب العملى على الخلوص منها شيء آخر ، وهذه الأفواج الجديدة التى انضمت إلى الإسلام ليست كلها مدخولة أو مشكوك فى عقيدتها ، لكن وجود عبد الله بن أبى فى هذا الموقع بصفته مركز قوة كبرى كان يجعل هذه الأرجحة فى صف الخزرج ، وبعد تميز صفه من المنافقين ، كان المؤمنون الصادقون من المهاجرين والأنصار فرقتين فى الموقع المناسب من هذا الحزب ورئيسه ، فرقة ترى قتالهم وألا يأخذ المسلمين فيهم لومة لائم ،وتطهير المجتمع الإسلامى منهم ، وفرقة ترى التريث والصبر عليهم على أمل أن يصلح حالهم ، ويفتضح أمر عبد الله بن أبى معهم . ولا شك أن الصادقين الأولين من الخزرج كان أكثرهم على هذا الرأى ، ففى المنافقين أقرباؤهم وإخوانهم وذووهم ، وحرصهم على أن تُطهَّر قلوب هؤلاء الأقارب من المنافقين ، وأن يُنقذوا من النار يحدوهم أن يطلبوا التمهل والتريث فى قتالهم ، قبل أن تراق الدماء ، وتتهيج العصبيات من جديد . وينتفش الباطل ثأرًا واندفاعًا عن ذاته ووجوده ، فيتمزق الصف الإسلامى ويتبعثر ، إضافة إلى تمزقه وخلله الذى ذكرناه من قبل .

ولنستمع إلى هذا الحوار بين رسول الله ﷺ وبين أكبر مستشاريه عمر الفاروق رضي الله عنه .

(... وجعل المنافقون يخذلون عن رسول الله ﷺ أصحابه ، ويأمرونهم بالتفرق عنه ويقولون : لو كان من قتل منكم عندنا ما قتل ، وسمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذلك فى أماكن ، فمشى إلى رسول الله ﷺ ، ليستأذنه فى قتل من سمع ذلك منه من

(١) فتح البارى ٨ / ٢٥٦ .

اليهود والمنافقين ، فقال ﷺ : « يا عمر إن الله تعالى مظهر دينه ، ومعز نبيه ، ولليهود ذمة فلا أقتلهم » قال : فهؤلاء المنافقون ؟ قال : « أليس يظهرون شهادة أن لا إله إلا الله ، وأنى رسول الله ؟ » قال : بلى يا رسول الله ، وإنما يفعلون ذلك تعوذًا من السيف ، فقد بان لنا أمرهم وأبدى الله تعالى أضغانهم عند هذه النكبة ، فقال : « إنى نهيت عن قتل من قال : لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله ، يا بن الخطاب ، إن قريشًا لن ينالوا منا مثل هذا اليوم حتى نستلم الركن ») (١) .

ها نحن بين يدى سيد القادة الذى رأى ببصيرته النافذة كل الآثار المترتبة على المواقف الخبيثة للمنافقين ، والضعيفة لضعاف الإيمان ، وحين تكون القضية قضية انتصار فى حرب ، أو هزيمة فى معركة ، فكثيرًا ما يلجأ القادة الكبار إلى محاكمات ميدانية ، وتصفيات جسدية ، وإعدامات لمن تسبب فى هذه المحنة وهذه الهزيمة ؛ لفرض الرهبة والقوة فى الدولة ، وامتصاص النقمة الشعبية بسبب فوات النصر العظيم المتوقع ، وقد تقتضى المصلحة مثل هذه الإعدامات عندما يتحرك الطابور الخامس ؛ ليكون معارضة ونقدًا جارحين عنيفين لقيادة المعركة .

وقد رأينا هذا الجو ينفث سمومه فى كل مكان ، فى داخل حزب النفاق الذى راح يؤلب الجو ضد المسلمين ، ويستغل الجراحات الفاشية ، والدماء المراقة ؛ لإثبات صحة موقفه ، وعمق تخطيطه ، كما بدا مثل هذه الروح كذلك بالتعاون مع اليهود ، العدو الداخلى الألد ، للتشكيك بقيادة المصطفى ﷺ ، والنيل من الخطة الحربية التى اختارها لمعركته .

إن الموقف البشرى الذى يتعامل مع ظواهر الأمور يقتضى موقفًا جادًا ، حازمًا ؛ لمواجهة هذه الاضطرابات ، ولفرض السيطرة على الموقف ، أما فى التقويم الربانى، وفى التربية النبوية ، فالأمر أبعد بكثير وأعمق بكثير من فرض القوة ، وأكبر بكثير من فرض الإرهاب ،ليبقى الإسلام هو الحاكم .

لقد نزل القرآن الكريم بالمنهج الفصل فى هـذا الموضوع بقوله ـ عز وجل ـ : **﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً . وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا﴾** (٢) .

---

(١) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحى ٤ / ٣٣٨ .
(٢) النساء / ٨٨ ، ٨٩ .

لقد كان موقفهم كفراً حين خذلوا نبيهم فى قلب المعركة، ولا يجوز التعامل معهم، أو ولايتهم حتى يعلنوا خطأهم وتوبتهم من هذا الكفر، فليحذر المؤمنون أن يقيموا معهم حزبًا عصبية أو ثأرًا، ولابد من عزلهم ومفاصلتهم، هذا من جهة، ومن جهة ثانية ما لم يعلنوا انضمامهم لصف اليهود أو صف قريش، أو ارتدادهم علنًا عن دينهم فلا داعى لقتلهم ومواجهتهم، ويكفى ضرب الحصار عليهم لمراقبة تصرفاتهم، وابتداء معالجتهم، أما عندما ينضمون للصف المشرك المعادى، ويعلنون خروجهم عن الإسلام ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً ﴾ .

هذا هو الخط القرآنى فى التربية، ومن روحه، ومن عبق النبوة كان الموقف الموائم والمتلائم معه، نرى رسول الله ﷺ يرد على أكبر مستشاريه رأيه فى قتالهم، ويحدد - عليه الصلاة والسلام - خطاً أصيلاً من خطوط التربية فى التعامل مع هذه النماذج، وهو خط عدم القتل لمن يقول: لا إله إلا الله، مع اليقظة التامة لكل ألاعيبهم وخططهم الخبيثة الماكرة: « إنى نهيت عن قتل من قال: لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله . يا بن الخطاب إن قريشًا لن ينالوا منا مثل هذا اليوم حتى نستلم الركن » .

لم تكن المعالجة فى القتل والقتال فى هذا الصف المضطرب المتزلزل، وفيه قلاع السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، وفيه ضعاف الإيمان، وفيه المنافقون المغموص عليهم فى النفاق، فكيف تكون المعالجة ؟ هذا ما نجيب عليه فى الفصل القادم بإذن الله .

---

(١) آل عمران / ١٤٠ .

الأيام الأربعة بعد أحد

ذكر دعائه ﷺ بعد الوقعة يوم أحد :

روى الإمام أحمد والنسائى ، والحاكم وقال : على شرط الشيخين ، وأقره الذهبى ومحمد بن عمر الأسلمى ، عن رفاعة بن رافع الزرقى رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ لما فرغ من دفن أصحابه ركب فرسه، وخرج المسلمون حوله ـ عامتهم جرحى ـ ولا مثل لبنى سلمة وبنى عبد الأشهل ، ومعه أربع عشرة امرأة ، فلما كانوا بأصل أحد قال: « اصطفوا حتى أثنى على ربى عز وجل »، فاصطف الرجال خلفه صفوفًا، خلفهم النساء، فقال: « اللهم لك الحمد كله، اللهم لا قابض لما بسطت ، ولا باسط لما قبضت ، ولا هادى لمن أضللت، ولا مضل لمن هديت، ولا معطى لمن منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرب لما باعدت، ولا مباعد لما قربت ، اللهم ابسط علينا من بركاتك وفضلك ورحمتك ورزقك ، اللهم إنا نسألك النعيم المقيم الذى لا يحول ولا يزول ، اللهم إنا نسألك النعيم يوم العيلة، اللهم إنا نسألك الأمن يوم الخوف ، والغنى يوم الفاقة ، اللهم إنى عائذ بك من شر ما أعطيتنا ، ومن شر ما منعتنا، اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه فى قلوبنا ، وكرّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان ، واجعلنا من الراشدين ، اللهم توفنا مسلمين ، وأحينا مسلمين ، وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مفتونين ، اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك ، ويصدون عن سبيلك ، واجعل عليهم رجزك وعذابك ، اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب ، إله الحق آمين » .

ذكر رحيل النبى ﷺ إلى المدينة :

لما فرغ رسول الله ﷺ من دفن أصحابه ـ رضى الله عنهم ـ ركب فرسه، وخرج المسلمون حوله راجعين إلى المدينة، فلقيته حمنة بنت جحش فقال لها رسول الله ﷺ : « يا حمْن احتسبى » قالت : من يا رسول الله ؟ قال: «خالك حمزة بن عبد المطلب » فقالت: إنا لله وإنا إليه راجعون غفر الله له، هنيئًا له الشهادة ، ثم قال لها : « احتسبى » قالت : من يا رسول الله ؟ قال : « أخوك عبد الله بن جحش » . قالت : إنا لله وإنا إليه راجعون غفر الله له ، هنيئًا له الشهادة ،ثم قال لها:« احتسبى » قالت: من يا رسول الله ؟ قال : « زوجك مصعب بن عمير » فقالت: واحزناه ، وفى لفظ : واعقراه ، وصاحت وولولت. فقال رسول الله ﷺ : « إن زوج المرأة منها لبمكان » لما رأى من

تثبتها على أخيها وخالها ، وصياحها على زوجها . ثم قال لها : « لم قلت هذا ؟ » قالت: يا رسول الله ذكرت يتم بنيه فراعنى ، فدعا لها رسول الله ﷺ ولولدها أن يحسن الله عليهم من الخَلف .

وروى ابن ماجه عن حمنة بنت جحش أنه قيل لها : قُتل أخوك ، فقالت : رحمه الله ، وإنا لله وإنا إليه راجعون . فقالوا : قتل زوجك ؟ فقالت : واحزناه ! فقال رسول الله ﷺ : « إن للزوج من المرأة لشغفة ما هى لشىء » .

وأقبل رسول الله ﷺ حتى طلع على بنى عبد الأشهل وهم يبكون على قتلاهم ، فذرفت عينا رسول الله ﷺ ثم قال : « لكن حمزة لا بواكى له ! » فخرج النساء ينظرن إلى سلامة رسول الله ﷺ . فقالت أم عامر الأشهلية : كل مصيبة بعدك جلل .

ومر رسول الله ﷺ بامرأة من بنى دينار قد أصيب أبوها وزوجها وأخوها مع رسول الله ﷺ بأحد ، فلما نعوا إليها قالت : ما فعل رسول الله ﷺ ؟ قالـوا : خيراً يا أم فلان هو بحمد الله كما تحبين ، قالت : أرونيه حتى أنظر إليه ، فأشير بها إليه ، فلما رأته قالت : كل مصيبة بعدك جلل .

وروى الطبرانى عن أنس بن مالك قال: لما كان يوم أحد حاص أهل المدينة حيصة ، وقالوا : قتل محمد ، حتى كثر الصراخ فى ناحية المدينة ، فخرجت امرأة من الأنصار محزمة ، فاستقبلت بأبيها وابنها وزوجها وأخيها - لا أدرى أيهم استقبلت بهم أولاً - فلما مرت على آخرهم قالوا: أبوك ، زوجك ، أخوك، ابنك . فتقول : ما فعل رسول الله ؟ يقولون : أمامك ،حتى دفعت إلى رسول الله ﷺ ،فأخذت بناحية ثوبه ، ثم قالت : بأبى أنت وأمى يا رسول الله : لا أبالى إذا سلمت من عَطَب !

وروى ابن أبى حاتم عن عكرمة مرسلاً قال : لما أبطأ الخبر على النساء خرجن يستخبرن ، فإذا رجلان مقتولان على دابة أو بعير ، فقالت امرأة من الأنصار : من هذان ؟ قالوا : فلان وفلان أخوها وزوجها ، أو زوجها وابنها ، فقالت : ما فعل رسول الله ﷺ ؟ قالوا : حى ، قالت : فلا أبالى يتخذ الله من عباده شهداء ، وأنزل الله تعالى على ما قالت : ﴿ . . وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ﴾ (١).

وجاءت أم سعد بن معاذ - وهى كبشة بنت رافع - تعدو نحو رسول الله ﷺ ، وقد وقف على فرسه ، وسعد بن معاذ آخذ بعنان فرسه ، فقال سعد : يا رسول الله ! أمى، فقال : « مرحبًا بها » فدنت حتى تأملت رسول الله ﷺ ، وقالت : أما إذا

(١) آل عمران / ١٢١ .

رأيتك سالمًا ، فقد أشوت المصيبة، فعزاها رسول الله ﷺ بعمرو بن معاذ ابنها ثم قال : « يا أم سعد أبشرى وبشرى أهليهم ، أن قتلاهم ترافقوا فى الجنة جميعًا ، وقد شفعوا فى أهليهم » قالت: رضينا يا رسول الله ، ومن يبكى عليهم بعد هذا ، ثم قالت: يا رسول الله، ادع إلى من خُلِّفوا . فقال : « اللهم اذهب حزن قلوبهم ، واجبر مصيبتهم ، وأحسن الخلف على من خُلِّفُوا » .

ثم قال : « خل يا أبا عمرو - يعنى سعد بن معاذ - الدابة »، فخلَّى سعد الفرس ، فتبعه الناس . فقال: « يا أبا عمرو إن الجراح فى أهل دارك فاشية، وليس منهم مجروح إلا يأتى يوم القيامة جرحه كأغزر ما كان، اللون لون دم ، والريح ريح مسك . فمن كان مجروحًا فليقر فى داره ، وليداو جرحه ولا يبلغ معى بيتى عزيمة منى » فنادى فيهم سعد : عزيمة من رسول الله ﷺ ألا يتبع رسول الله ﷺ جريح من بنى عبد الأشهل ، فتخلف كل مجروح ، فباتوا يوقدون النيران ، ويداوون الجرحى ، ومضى سعد مع رسول الله ﷺ حتى جاء بيته فما نزل رسول الله ﷺ عن فرسه إلا حملاً ، واتكأ على سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة حتى دخل بيته ، فلما انتهى رسول الله ﷺ إلى أهله ، ناول سيفه ابنته فاطمة فقال : « اغسلى عن هذا دمه ، فوالله لقد صدقنى اليوم » وناولها على بن أبى طالب سيفه . فقال : وهذا فاغسلى عنه دمه ، فوالله لقد صدقنى اليوم ، فقال رسول الله ﷺ : « لئن كنت صدقت القتال اليوم لقد صدقه معك سهل بن حنيف ، وأبو دجانة » .

وروى الحاكم بسند صحيح عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : جاء على بسيفه يوم أحد وقد انحنى، فقال لفاطمة: هاك السيف حميدًا ، فإنه قد شفانى اليوم ، فقال رسول الله ﷺ : « لئن أجدت الضرب بسيفك لقد أجاد سهل بن حنيف ، وأبو دجانة ، وعاصم بن ثابت ، والحارث بن الصمة » .

قال ابن هشام : وحدثنى ابن أبى نجيح قال : نادى مناد يوم أحد :

لا سيف إلا ذو الفقا ... ر ولا فتى إلا على

يعنى بذى الفقار : سيف رسول الله ﷺ ، وهو الذى غنمه يوم بدر ، وهو الذى رأى فيه الرؤيا يوم أحد .

ولما أذن بلال المغرب ، خرج رسول الله ﷺ وهو على تلك الحال ، يتوكأ على السعدين ، فصلى بهم ، ثم عاد إلى بيته ، ومضى سعد بن معاذ إلى نسائه ونساء قومه فساقهن حتى لم تبق امرأة إلا جاء بها إلى بيت رسول الله ﷺ يبكين حمزة بين المغرب والعشاء ، والناس فى المسجد يتكمدون بها من الجراح.

وأذّن بلال العشاء حين غاب الشفق الأحمر ، فلم يخرج رسول الله ﷺ حتى ذهب ثلث الليل ، ثم ناداه : الصلاة يا رسول الله ، فهبَّ رسول الله ﷺ من نومه وخرج ،فإذا هو أخف فى مشيته منه حين دخل ، وسمع البكاء فقال: « ما هذا ؟ » فقيل : نساء الأنصار يبكين على حمزة . فقال : « رضى الله عنكن وعن أولادكن » وأمر أن ترد النساء إلى منازلهن .

وذكر ابن هشام أنه ﷺ خرج عليهن وهنَّ يبكين على باب المسجد على حمزة فقال : « ارجعن رحمكن الله ـ لقد واسيتن ، رحم الله الأنصار ، فإن المواساة فيهم ما علمت قديمة » ، فرجعن بليل مع رجالهن .

وروى أبو يعلى برجال الصحيح عن ابن عمر وعن أنس ، والإمام أحمد وابن ماجه بسند صحيح عن ابن عمر، والطبرانى عن ابن عباس ـ رضى الله عنهم ـ أن رسول الله ﷺ لما رجع من أحد سمع نساء الأنصار يبكين على أزواجهن. فقال: « لكن حمزة لا بواكى له » ، فبلغ النساء ذلك فجئن ، فبكين على حمزة ، فانتبه من الليل فسمعهن وهن يبكين ، فقال : « ويحهن ما زلن يبكين منذ الليلة ، مروهن فليرجعن ، ولا يبكين على هالك بعد اليوم».

وصلى رسول الله ﷺ العِشاء ، ثم رجع إلى بيته ، وقد صُفَّ له الرجال ، ما بين بيته إلى مصلاه يمشى وحده حتى دخل ، وباتت وجوه الأوس والخزرج على بابه يحرسونه .

ذكر إظهار المنافقين واليهود الشماتة والسرور بما حصل للمسلمين :

ولما حصل لرسول الله ﷺ وأصحابه ما حصل ، جعل عبد الله بن أبى بن سلول، والمنافقون يشمتون ويُسرُّون بما أصاب المسلمين ، ويظهرون أقبح القول، فيقول ابن أبى لابنه عبد الله وهو جريح : قد بات يكوى الجراحة فى النار : ما كان خروجك معه إلى هذا الوجه برأى ، عصانى محمد وأطاع الولدان ، والله لكأنى كنت أنظر إلى هذا. فقال ابنه: الذى صنع الله تعالى لرسوله وللمسلمين خير. وأظهر اليهود القول السيئ ، فقالوا : ما محمد إلا طالب ملك ، ما أصيب هكذا نبى قط . أصيب فى بدنه ، وأصيب فى أصحابه ، وجعل المنافقون يخذلون عن رسول الله ﷺ وأصحابه ويأمرونهم بالتفرق عنه ويقولون : لو كان من قتل منكم عندنا ما قُتل .

ذكر إرادة عبد الله بن أبى الخطبة ومنع المسلمين له من ذلك :

قال ابن شهاب الزهرى : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة كان عبد الله بن أبى بن

سلول يقوم كل جمعة ، لا ينكر شيئًا قاله فى نفسه ولا فى قومه ، وكان شريفًا فيهم ، إذا جلس رسول الله ﷺ يوم الجمعة وهو يخطب الناس قام عبد الله فقال : أيها الناس هذا رسول الله بين أظهركم ، أكرمكم الله تعالى ، وأعزَّكم به ، فانصروه وعزِّروه ، واسمعوا له وأطيعوا ، ثم يجلس حتى إذا صنع يوم أحد ما صنع ، ورجع بالناس ، قام يفعل ذلك كما يفعل ، فأخذ المسلمون بثوبه من نواحيه وقالوا له : اجلس أى عدو الله ، لست لذلك بأهل ، وقد صنعت ما صنعت ، فخرج يتخطى رقاب الناس ويقول : والله لكأنما قلت بُجْرًا أن قمت لأشد أمره ، فلقيه رجل من الأنصار بباب المسجد فقال: ويلك، مالك ؟! قال : قمت أشد أمره ، فوثب رجال من أصحابه يجذبوننى ويعنفوننى ، لكأننى قلت بُجْرًا أن قمت أشد أمره . قال : ويلك ! ارجع يستغفر لك رسول الله ﷺ : فقال: والله ما أبتغى أن يستغفر لى .

ذكر ما نزل من القرآن فى شأن أحد :

قال ابن إسحاق : وكان مما أنزل الله تعالى فى يوم أحد من القرآن ستون آية من آل عمران ، فيها صفة ما كان فى يومهم ذلك .

وروى أبو يعلى وابن المنذر وابن أبى حاتم عن المِسور بن مخرمة قال : قلت لعبد الرحمن بن عوف : يا خال : أخبرنى عن قصتكم يوم أحد ، قال : اقرأ بعد العشرين ومائة من آل عمران تجد قصتنا ، أى من قوله تعالى : ﴿ **وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ** . . . ﴾ (١) إلى آخر الستين (٢) .

غزوة حمراء الأسد :

اختلفوا فى سببها ، فقال ابن إسحاق ومتابعوه : إنما خرج رسول الله ﷺ مرهبًا للعدو ، وليبلغهم أنه خرج فى طلبهم ، ليظنوا به قوة ، وأن الذى أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم .

وقال موسى بن عُقبة ، ومحمد بن عمر الأسلمى : السبب أن رسول الله ﷺ بلغه أن أبا سفيان ، وأكثر من معه يريدون أن يرجعوا ؛ ليستأصلوا من بقى من أصحاب رسول الله ﷺ ، فحينئذٍ حثَّ رسول الله ﷺ الناس على الخروج فى طلب العدو . ويؤيد هذا ما رواه الفريابىُّ والنسائى والطبرانى بسند صحيح ، عن ابن عباس قال : لما رجع المشركون عن أحد قالوا : لا محمدًا قتلتم ، ولا الكواعب أردفتم ،

---

(١) آل عمران / ١٢١ .

(٢) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحى ٤/ ٣٣٣ ـ ٣٣٩ .

بئسما صنعتم ، ارجعوا . فسمع بذلك رسول الله ﷺ ، فندب المسلمين فانتدبوا ، وذكر الحديث .

قال محمد بن عمر : لَمَّا رجع رسول الله ﷺ من أحد يوم السبت ، باتت وجوه الأوس والخزرج على بابه خوفًا من كرَّة العدو ، فلما طلع الفجر من يوم الأحد أذَّن بلال ، وجلس ينتظر خروج النبى ﷺ ،فأتى عبد الله بن عمرو بن عوف المُزنى يطلب النبى ﷺ ، فلما خرج قام إليه وأخبره أنه أقبل من أهله حتى إذا كان بملل[1] إذا قريش قد نزلوا ، فسمع أبو سفيان وأصحابه يقولون : ما صنعتم شيئًا ، أصبتم شوكة القوم وحدهم ثم تركتموهم ولم تُبيدوهم ، فقد بقى فيهم رؤوس يجمعون لكم ، فارجعوا نستأصل من بقى ، وصفوان بن أمية يأبى ذلك عليهم ويقول : يا قوم إن القوم قد حربوا ، وأخاف أنّ يجتمع عليكم من تخلف من الخروج ، فارجعوا والدولة لكم ، فإنى لا آمن إن رجعتم أن تكون الدولة عليكم،فقال رسول الله ﷺ:« أرشدهم صفوان وما كان برشيد ، والذى نفسى بيده لقد سوِّمت لهم الحجارة ولو رجعوا لكانوا كأمس الذاهب » .

ودعا رسول الله ﷺ أبا بكر وعمر ـ رضى الله عنهما ـ فذكر لهما ما أخبره به المزنى ، فقالا : يا رسول الله ، اطلب العدو ، ولا يقحمون على الذرية ، فلما انصرف رسول الله ﷺ من الصبح ندب الناس وأمر بلالاً ينادى : إن رسول الله ﷺ يأمركم بطلب عدوكم ، ولا يخرج معنا إلا من شهد القتال بالأمس ، وقال أسيد بن حضير ، وبه تسع جراحات وهو يريد أن يداويها لما سمع النداء : سمعاً وطاعة لله ولرسوله ، ولم يعرِّج على دواء جرحه ، وخرج من بنى سلمة أربعون جريحًا ، وبالطفيل بن النعمان ثلاثة عشر جرحًا ، وبخراش بن الصمة عشر جراحات ، وبكعب ابن مالك بضعة عشر جرحًا ، وبقطبة بن عامر بضع جراحات ، ووثب المسلمون إلى سلاحهم ، وما عرَّجوا على دواء جراحاتهم .

قال ابن عقبة : وأتى عبد الله بن أبى رسول الله ﷺ فقال : أنا راكب معك، فقال : « لا » .

قال ابن إسحاق وابن عمر:وأتى جابر بن عبد الله رسول الله ﷺ فقال:يا رسولُ الله ، إن مناديك نادى : ألا يخرج معنا إلا من حضر القتال بالأمس ، وقد كنتُ حريصًا على الحضور، ولكن أبى خلَّفنى على أخوات لى سبع ـ وفى لفظ : تسع وهو

(١) ملل : موضع فى طريق مكة بين الحرمين . وقال ابن السكيت : ملل على طريق المدينة إلى مكة عن ثمانية وعشرين ميلاً عن المدينة .

الصحيح ـ وقال : يا بني لا ينبغى لى ولا لك أن نترك هؤلاء النسوة ولا رجل معهن ، وأخاف عليهن وهنَّ نُسيَّات ضِعاف ، ولست بالذى أوثرك بالجهاد مع رسول الله ﷺ على نفسى ، فتخلَّف على إخوتك ، وأنا خارج مع رسول الله ﷺ ، لعل الله تعالى يرزقنى الشهادة ، وكنتُ رجوتُها ، فتخلَّف عليهن فاستأثر عليَّ بالشهادة ، فأذَن لى يا رسول الله أسر معك .

فأذن له رسول الله ﷺ ، وقال جابر :فلم يخرج معه أحد لم يشهد القتال بالأمس غيرى ، واستأذنه رجال لم يحضروا القتال فأبى ذلك عليهم ، ودعا رسول الله ﷺ بلوائه ، وهو معقود لم يحلّ من الأمس ، فدفعه إلى على بن أبى طالب ـ ويقال : دفعه إلى أبى بكر الصديق ـ واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم ، وخرج رسول الله ﷺ وهو مجروح،فى وجهه إثر الحلقتين ، وهو مشجوج فى جبهته فى أصول الشعر ، ورُباعيته قد شُظيت ، وشفته السفلى قد كُلِمت من باطنها، وهو متوهن منكبه الأيمن؛ لضربة ابن قمئة ـ لعنه الله تعالى ـ وركبتاه مجحوشتان ، فدخل ﷺ المسجد ، فركع فيه ركعتين ، والناس قد حشدوا ، كما نزل أهل العوالى حيث جاءهم الخبر .

ثم دعا رسول الله ﷺ بفرسه (السكب) على باب المسجد ، ولم يكن مع أصحابه ﷺ بحمراء الأسد فرس إلا فرس رسول الله ﷺ ، وتلقَّاه طلحة بن عبيدالله رضي الله عنه وقد سمع المنادى فخرج ينظر متى يسير رسول الله ﷺ ، فإذا رسول الله ﷺ عليه الدرع والمِغفَر، وما يُرى منه إلا عيناه، فقال: « يا طلحة أين سلاحك ؟ » قال : قريب يا رسول الله ، فخرج فأتى بسلاحه ، وإذا به فى صدره تسع جراحات ، قال : ولأنا أهَمُّ بجراح رسول الله ﷺ منى بجراحى ، ثم أقبل رسول الله ﷺ على طلحة، فقال: « أين تُرى القوم الآن ؟ » قال : هم بالسيالة (١) ، قال رسول الله ﷺ : « ذلك الذى ظننت ، أما إنهم يا طلحة لن ينالوا منا مثلها حتى يفتح الله تعالى مكة علينا » .

وكان دليله ﷺ إلى حمراء الأسد ثابت بن ثعلبة الخزرجى .

وبعث رسول الله ﷺ من أسلم طليعة فى آثار القوم : سليطًا ونعمان ابنى سفيان ابن طلق بن عوف بن دارم من بنى سهم،ومعهما ثالث من بنى عوير ـ بطن من أسلم ـ لم يسمَّ لنا ، فلحق اثنان منهم القوم بحمراء الأسد ، وللقوم زجل وهم يأتمرون بالرجوع ، وصفوان بن أمية ينهاهم عن ذلك فبُصروا بالرجلين ، فعطفوا عليهما فقتلوهما ومضوا .

---

(١) السيالة : قرية جامعة بينها وبين المدينة تسعة وعشرون ميلاً .

ومضى رسول الله ﷺ بأصحابه ، حتى عسكر بحمراء الأسد [1] ، فدفن الرجلين في قبر واحد ، وهما القرينان .

وذكر ابن إسحاق ومحمد بن عمر واللفظ له : أن عبد الله بن سهل ورافع بن سهل - من بنى عبد الأشهل - رجعا من أحد وبهما جراح كثيرة ، وعبد الله أثقلهما من الجراح ، فلما سمعا بخروج رسول الله ﷺ وأمره به . قال أحدهما لصاحبه :والله إن تركنا غزوة مع رسول الله ﷺ لغبن ،والله ما عندنا دابة نركبها، وما ندرى كيف نصنع ؟ قال عبد الله : انطلق بنا . قال رافع : والله ما بى مشى ، قال أخوه : انطلق بنا نتجارّ ونقصد رسول الله ﷺ ، فخرجا يتزاحفان ، فضعف رافع ، فكان عبد الله يحمله على ظهره عُقبة ، ويمشى الآخر عُقبة ، ولا حركة به حتى أتوا رسول الله ﷺ عند العشاء وهم يوقدون النيران،فأتى إلى رسول الله ﷺ ، وعلى حرسه تلك الليلة - عباد بن بشر - فقال : « ما حبسكما » ، فأخبراه بعلتهما،فدعا لهما بخير ،وقال : « إن طالت بكما مدة كانت لكما مراكب من خيل وبغال وإبل وليس ذلك بخير لكم ».

ويقال : إن هذين : أنس ومؤنس ابنا فضالة الظِفريين ، ولا مانع أن يكون حصل للأولَيْن والآخرين .

قال جابر بن عبد الله - رضى الله عنهما - : وكان عامة زادنا التمر ، وحمل سعد ابن عبادة رضي الله عنه ثلاثين بعيرًا حتى وافت حمراء الأسد،وساق جُزُرًا لتنحر ، فنحروا فى يوم اثنين وفى يوم ثلاثة .

وكان رسول الله ﷺ يأمرهم بالنهار بجمع الحطب ، فإذا أمسوا أمرهم أن توقد النيران ، فيوقد كل رجل نارًا ، فلقد أوقدوا خمسمائة نار حتى رؤيت من مكان بعيد ، وذهب ذكر معسكر المسلمين ونيرانهم فى كل وجه، وكان ذلك مما كبت الله به عدوّهم، فأقام بحمراء الأسد الإثنين والثلاثاء والأربعاء ، ولقى معبد بن أبى معبد وهو يومئذ مشرك - وجزم عمرو بن الجوزى فى التلقيح بإسلامه - وكانت خزاعة - مسلمهم وكافرهم - عيبة نصح لرسول الله ﷺ بتهامة، صفقتُهم معه ، لا يخفون عنه شيئًا كان بها . فقال : يامحمد ، والله لقد عزّ علينا ما أصابك فى أصحابك ، ولودِدنا أن الله تعالى أعلى كعبك ، وأن المصيبة كانت بغيرك .

ثم مضى معبد ورسول الله ﷺ بحمراء الأسد ، حتى أتى أبا سفيان بن حرب ، ومن معه بالروحاء ،وقد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله ﷺ وقالوا:أصبنا خير أصحابه

(1) حمراء الأسد : وهى على ثمانية أميال من المدينة على يسار الطريق إذا أردت (ذا الحليفة) .

وقادتهم وأشرافهم ، ثم نرجع قبل أن نستأصلهم ، لنكرَّن على بقيتهم فلنفرغنَّ منهم .
فلما رأى أبو سفيان معبدًا قال : هذا معبد وعنده الخبر : ما وراءك يا مَعْبد ؟ قال :

تركت محمدًا وأصحابه قد خرج بطلبكم فى جمع لم أر مثله قط ، يتحرقون عليكم تحرقًا ، وقد اجتمع معه من كان تخلَّف عنه بالأمس ، من الأوس والخزرج ، وتعاهدوا ألا يرجعوا حتى يلحقوكم فيثأروا منكم ، وغضبوا لقومهم غضبًا شديدًا ، وندموا على ما فعلوا ، وفيهم من الحنق عليكم شىء لم أر مثله قط، قال : ويلك ما تقول ! قال : والله ما أرى أن ترحل حتى ترى نواصى الخيل ، قال : فوالله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصل بقيتهم . قال : فإنى أنهاك عن ذلك ، ووالله لقد حملنى ما رأيت أن قلت فيهم أبياتًا من الشعر قال : وما قلت ، قال : قلت :

كادت تُهَدُّ من الأصوات راحلتى ... إذا سالت الأرض بالجرد[1] الأبابيل[2]
تَرْدِى[3] بأُسْد كرام لا تنابله ... عند اللقاء ولا مِيلٍ[4] معازيل[5]
فظلت عدْواً أظن الأرض مائلة ... لما سَمَوْا برئيس غير مخذول
فقلت : ويل ابن حرب من لقائكم ... إذا تَغَطْمَطَت[6] البطحاء بالجيل[7]
إنى نذير لأهل البَسْل ضاحية ... لكل ذى إربة منهم ومعقول
من جيش أحمد لا وَخْش تنابلة ... وليس يوصف ما أنذرت بالقيل

فثنى ذلك من كلام صفوان ، أبا سفيان ومن معه ، وفَتَّ أكبادهم ، فانصرفوا سراعًا خائفين من الطلب .

ومر ركب من عبد القيس بأبى سفيان، فقال : أين تريدون ؟ قالوا :نريد المدينة. قال: ولم ؟ قالوا : نريد الميرة ، قال:فهل أنتم مبلغون عنى محمدًا رسالة أرسلكم بها إليه ، وأوقر لكم أباعركم زبيبًا غدًا بعكاظ إذا وافيتموها . قالوا : نعم . قال :

إذا وافيتم محمدًا فأخبروه أنا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه ، لنستأصل بقيتهم ، وأنا فى آثاركم ، فانطلق أبو سفيان ، وقدم الركب برسول الله ﷺ بحمراء الأسد فأخبروه بالذى قال أبو سفيان وأصحابه ، فقال رسول الله ﷺ :

« حسبنا الله ونعم الوكيل » .

---

(١) الجرد : جمع أجرد ، وهو من الخيل ما رقَّ شعره وقصير .
(٢) الأبابيل : الجماعات ، واحدها إبيل .
(٣) تردى : تسرع .
(٤) جمع أميل ، وهو الذى لا رمح أو لا ترس معه .
(٥) المعازيل : الذين لا سلاح معهم .
(٦) تغطمطت : اهتزت وارتجت .
(٧) الجيل : الصنف من الناس .

وأخذ رسول الله ﷺ في وجهه ذلك قبل رجوعه إلى المدينة معاوية بن المغيرة بن أبى العاص بن أمية ، وكان لجأ إلى عثمان بن عفان ، فاستأمن له رسول الله ﷺ ، فأمنه على إن وجد بعد ثلاث قتل ، فأقام بعد ثلاث ، وتوارى ، فبعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة وعمار بن ياسر ـ رضى الله عنهما ـ وقال: «إنكما ستجدانه بموضع كذا وكذا » فوجداه فقتلاه .

وأخذ أيضًا أبا عزة الجمحى ، وكان رسول الله ﷺ أسره ببدر ، ثم منَّ عليه، فقال : يا رسول الله أقلنى ، فقال رسول الله ﷺ : « والله لا تمسح عارضيك بمكة وتقول : خدعت محمداً مرتين ، اضرب عنقه يا زبير » فضرب عنقه .

قال ابن هشام : وبلغنى عن سعيد بن المسيّب أن رسول الله ﷺ قال : « إن المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين »والحديث رواه البخارى وغيره عن سعيد عن أبى هريرة رضي الله عنه مرفوعًا ، وانصرف رسول الله ﷺ بعد أن أقام الإثنين والثلاثاء والأربعاء [1] .

اليوم الأول :

هذا هو وصف الجيش العظيم بعد انتهاء المعركة، والذى قدم سبعين شهيدًا قد خرجوا بدمائهم وصدوا الهجوم الشرس العاتى من الشرك ، والذى عجز أن يتقدم خطوة واحدة باتجاه يثرب ، ومضى وقد فشل هجومه فشلاً ذريعًا فى تحقيق أهدافه ، وخلخلة الصف المسلم والضعف الذى برز فى المعركة حال دون المحافظة على النصر المؤزر على قريش وحلفائها ، وأدى إلى هذه المحنة العظيمة من القتلى والجرحى .

(لما فرغ من دفن أصحابه، ركب فرسه، وخرج المسلمون حوله ، عامتهم جرحى، ولا مثل لبنى سلمة وبنى عبد الأشهل ، ومعه أربع عشرة امرأة) .

فقد استطاع بنو سلمة الذين هموا بالرجوع أن يغسلوا ذلك العار بدمائهم وشهدائهم وجرحاهم ، وسقط اثنان من أعظم قادتهم شهداء فى المعركة هما: عبد الله ابن عمرو بن حرام ، وعمرو بن الجموح .

هذا الجيش الجريح الذى أحبه رسول الله ﷺ ، وهو على رأس الجرحى فيه، وعلى رأس المجاهدين والمقاتلين فيه : هو أحب إليه من ذلك التجمع الذى بدا قبل يوم واحد ، وكان الخبيث من النفاق فيه لا يزال ضِمنَه ، مهما كبر عدده وضخم حجمه .

فهو اليوم مع هؤلاء الجرحى الستمائة يطلب منهم أن يقفوا وراءه ؛ ليؤدوا الثناء

(١) سبل الهدى والرشاد ٤/٤٣٨ - ٤٤٤ .

لخالقهم ومليكهم الذى منحهم هذا الثبات وأعطاهم هذه السكينة والطمأنينة حتى صدوا العدوان الشرس من المشركين فى الجزيرة .

« . . . اصطفوا حتى أثنى على ربى عز وجل » .

ولا ننسى فى هذا الصف العظيم أولئك المجاهدات العظيمات الأربع عشرة اللاتى أصررن على الانضمام إلى المعركة بجوار المئات من المجاهدين ، فكنّ ممثلات لمن وراءهن من المسلمات اللاتى عشن بقلوبهن وأرواحهن جو المعركة.

ويتوجه سيد خلق الله إلى ربه بهذا الثناء الخالص، والتجرد الخالص ، والتسليم الخالص ، والدعاء الخالص : « . . . اللهم لك الحمد كله ، اللهم لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادى لمن أضللت، ولا مضل لمن هديت، ولا معطى لمن منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرب لما باعدت، ولا مباعد لما قربت » .

وبعد هذا الثناء العظيم يتوجه بالتذلل والدعاء والتضرع إلى ربه العظيم:

« اللهم ابسط علينا من بركاتك وفضلك ورحمتك ورزقك ، اللهم إنا نسألك النعيم المقيم الذى لا يحول ولا يزول، اللهم إنا نسألك النعيم يوم العيلة، ونسألك الأمن يوم الخوف، والغنى يوم الفاقة ، اللهم إنى عائذ بك من شر ما أعطيتنا ، ومن شر ما منعتنا، اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه فى قلوبنا ، وكرّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان ، واجعلنا من الراشدين ، اللهم توفنا مسلمين ، وأحينا مسلمين ، وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مفتونين ، اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك ، واجعل عليهم رجزك وعذابك ، اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب ، إله الحق آمين » .

وحين نتحدث عن البطولة ، لا يفوتنا أن نذكر بطولة المرأة المسلمة التى برزت فى أُحُد وبذّت بطولة الرجال فى مجال اختصاصهم من قبل : أم عمارة ـ رضى الله عنها ـ والتى تلقت أربع عشرة جرحًا وهى تذود عن الحبيب المصطفى ـ صلوات الله عليه ـ إلى جانب تلك البطولة التى شهدناها من هؤلاء النسوة اللاتى خرجن من المدينة ، وقلوبهن متعلقات بالقائد الحبيب ـ عليه الصلاة والسلام ـ الذى أحببنه أكثر من كل شىء فى وجودهن ، أكثر من أزواجهن وأولادهن وآبائهن وإخوانهن ، فهو أولى بالمؤمنين من أنفسهم . و« لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده ومن الناس أجمعين » (١) .

وإذا كان أكثر الشهداء والجرحى من رجال بنى عبد الأشهل وبنى سلمة وبنى

---

(١) أحمد والنسائى وابن ماجه والبيهقى عن أنس وهو حديث صحيح .

النجار ، فهذا يعنى أن أكثر المفجوعات والأرامل والأكالى منهن كذلك .

لقد كانت هؤلاء النسوة على مستوى القضية،على مستوى الإسلام الذى عشن له ، فدفعن أزواجهن وأولادهن للاستشهاد فى سبيله ، وتلقين أخبار الشهادة والجراح بنفسيات سامية فوق الدنيا وهمومها ، وحين وقع ما وقع فى أحد ، اتجهت كل الأنظار إلى سلامة القائد الحبيب ـ عليه الصلاة والسلام ـ وانكبت كل القلوب لا تحس بفجيعة لها إلا أن تخسر قائدها .

فهذه أم عامر الأشهلية ـ من الأوس ـ خرجت مع النساء ينظرن إلى سلامة رسول الله ﷺ فقالت حين رأته : كل مصيبة بعدك جلل .

وهذه المرأة الدينارية من بنى النجار من الخزرج اللواتى أحببن رسول الله ﷺ حبًا تغلغل فى كل ذرة من كيانهن ، فهن أهل رسول الله ﷺ ، وهن اللاتى بعثن جواريهن الصغار فرحات مزغردات يغنين وينشدن :

نحن جوار من بنى النجار　　　يا حبذا محمد من جار

وتفاعل ـ عليه الصلاة والسلام ـ معهن ، فقال رسول الله ﷺ : « أتحببننى » . قلن: نعم يا رسول الله . وفى رواية الطبرانى فى الصغير فقال ـ عليه السلام ـ: « والله يعلم أن قلبى يحبكم ») (١) .

هؤلاء بنى النجار لا ننسى أن أم عمارة من بنى النجار، وأم سُليم من بنى النجار ، وهذه المرأة الدينارية من بنى النجار، والتى كلفها الحب ثمنًا باهظًا لم يدفعه أحد مثلها ، والتى فقدت صوابها حين بلغها الخبر بمقتل رسول الله ﷺ، كما روى أنس بن مالك رضي الله عنه :

لما كان يوم أحد : حاص أهل المدينة حيصة ، وقالوا : قُتِل محمد ، حتى كثر الصراخ فى ناحية المدينة فخرجت امرأة من الأنصار محزمة (وهى المرأة الدينارية النجارية أو ثانية من بنى النجار) فاستقبلت بأبيها وابنها وزوجها وأخيها، لا أدرى أيهم استُقبلت بهم أولاً حتى مرت على آخرهم قالوا : أبوك ، زوجك ، أخوك ، ابنك ، فتقول : ما فعل رسول الله ؟ يقولون : أمامك ، حتى دفعت إلى رسول الله ﷺ ، فأخذت بناحية ثوبه ثم قالت : بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، لا أبالى إذا سلمت من عَطب .

هذا هو الحب الحقيقى الذى لم تعرف له البشرية مثيلاً إلا فى هذا الجيل .

---

(١) شرح المواهب اللدنية للزرقانى ١ / ٤١٨ .

ونسلـمه حـتى نـصرع حـولـه ونـذهل عـن أبنـائنـا والحـلائـل

لقد ذهلت عن ابنها ، وذهلت عن حليلها ، وذهلت عن أبيها ، وذهلت عن أخيها ، ولا تحس بأحد ، إنما كل همها سلامة قائدها الحبيب ، سلامة نبيها المفدى ، ولا عجب فها هى تفديه بأعز ما فى وجودها ، بأبيها وأخيها وابنها وزوجها ، وما أن وقع نظرها عليه ، فما كادت لتصدق أنه سليم حى معافى ،حتى لمست ثيابه وصاحت من الفرح :

بأبى أنت وأمى يا رسول الله، لا أبالى إذا سلمت من عَطب .

وهؤلا نسوة بنى عبد الأشهل اللاتى نافسن بنى النجار ، وبنى سلمة فى الجراح والشهادة . نرى أم سعد بن معاذ ـ رضى الله عنها ـ تقف على القمة فيهن ، وتقدم لتستقبل حبيبها المصطفى بعد عودته من أحد، فقال سعد: يا رسول الله أمى ! (سعد ابن معاذ سيد الأوس) فقال: « مرحبًا بها » فدنت حتى تأملت رسول الله ﷺ . إنها تتأمل بأحب خلق الله إليها ، وتفرك عينيها هل صحيح أنه سالم معافى رغم جراحه الداميات، ورسول الله ﷺ يقدم العزاء لها فى ابنها الشهيد عمرو بن معاذ أخى سعد، فماذا تقول، أتصرخ وتولول ؟ إنها لا تصدق عينيها ، تقول له : أما إذا رأيتك سالمًا فقد اشتوت المصيبة .

قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: « يا أم سعد ، أبشرى وبشرى أهليهم أن قتلاهم ترافقوا فى الجنة جميعًا ، وقد شفعوا فى أهليهم » فقالت : رضينا يا رسول الله ، ومن يبكى عليهم بعد هذا . ثم قالت : يا رسول الله ، ادع إلى من خلفوا ،فقال : « اللهم اذهب حزن قلوبهم ، واجبر مصيبتهم ، وأحسن الخلف على من خلفوا » .

إن مصائب الحرب عندما تقع ، والجثث عندما تصل ، والنواح عندما يمتد، والعويل عندما يعوى فى المجتمعات العادية ، ينقلب سمًا ناقعًا على القائد الذى خسر المعركة ، والذى سبب الهزيمة ، والذى أفقد الأهل والولد ، أما فى مجتمع النبوة ، فيزداد الحب ، وتلتحم الأمة ، ويتبارى الرجال والنساء فى إبراز حب سيد من فى الوجود ، وأحب من فى الوجود إلى القلب .

وتلكم الصورة الأخرى لهند بنت عمرو بن حرام النجارية كذلك ، التى جاءت بجملها وقد حملت عليه جثة زوجها وأخيها وابنها لتقبرهم فى المدينة ، وتلتقى بوفد الفتيات المسلمات اللاتى لم يملكن عقلهن أن يصبرن فى المدينة، وقد سمعن بقتل رسول الله ﷺ ، وعلى رأس هذا الوفد ابنة الرابعة عشرة عائشة أم المؤمنين تسأل عن زوجها وحبيبها المصطفى ـ عليه الصلاة والسلام ـ مع صويحباتها اللاتى نسين وجودهن

وجئن يسألن عن رسول الله ﷺ ..

تقول هند وهى تسوق البعير بشهدائها الثلاثة: زوجها ، وابنها ، وأخيها ويسألونها : ما فعل رسول الله ؟ فتقول :

حى . ويسألونها عن حمل بعيرها ، فتحدثهم عن أحبابها الثلاثة، ثم تقول: فلا أبالى ، يتخذ الله من عباده شهداء.

وينزل وحى الله تعالى على لسان جبريل بكلمة هند - رضى الله عنها - : ﴿ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ﴾ (١) هذه قلوب نسوة المدينة ، وهن يستقبلن شهداءهن ، ويستقبلن جرحاهن فى اليوم الأول ، فأين قلوب الرجال ؟

قلوب الرجال من العصبة المؤمنة لا تزال تحوم حول قائدها وحبيبها ، فقد وصل الجيش المظفر الجريح إلى المدينة ، وهذا سعد بن معاذ سيد الأوس ، وسعد بن عبادة سيد الخزرج : يحفان بالقائد العظيم والسيد الحبيب وخلفهما المقاتلون الستمائة .

(ثم قال: « خل يا أبا عمرو » - يعنى سعد بن معاذ - فخلى سعد الفرس، فتبعه الناس فقال : « يا أبا عمرو ، إن الجراح فى أهل دارك فاشية ، وليس منهم مجروح إلا يأتى يوم القيامة جرحه كأغزر ما كان . اللون لون دم ، والريح ريح مسك ، فمن كان مجروحًا فليقر فى داره ، وليداو جرحه ولا يبلغ بيتى معى عزيمة منى » فنادى فيهم سعد : عزيمة من رسول الله ﷺ ألا يتبع رسول الله ﷺ جريح من بنى عبد الأشهل ، فتخلف كل مجروح) .

لقد غدا رسول الله ﷺ كل شىء فى حياتهم ورغم جراحهم التى تنزف الدم ، ورغم آلامهم فهم يودون أن يعيشوا كل لحظة من لحظات حياتهم مع قائدهم الجريح ، وألاَّ يدعوه فى لحظة من ليل أو نهار ، ولولا عزيمة رسول الله ﷺ عليهم وأمرهم ألا يتبعه جريح من بنى عبد الأشهل ؛ لمضوا جميعًا معه يقومون حيث يقوم ، ويدعونه ينام حين ينتظرونه فى المسجد . لقد أصبح القائد الأعظم - عليه الصلاة والسلام - كل شىء فى حياتهم ، وغدوا هم كل شىء فى حياته ، لقد وحدت الجراح القلوب أكثر وأكثر ، وعقدت الدماء التفانى فى الحب آكد وآكد ، وبشرهم - عليه الصلاة والسلام - قبل أن يغادرهم أن « ليس منهم مجروح إلا يأتى يوم القيامة جرحه كأغزر ما يكون ، اللون لون دم ، والريح ريح مسك » وما أحلاها من بشارة . فستشهد لهم هذه الدماء يوم القيامة أنهم جرحوا مع سيد الخلق محمد ﷺ أمام الخلق كافة ، وينسم لها ريحها

---

(١) آل عمران / ١٤٠ .

الخلائق يوم الحشر ، شهادة تزكية لهم على جهادهم مع حبيبهم العظيم، ولم يكن أمام الجرحى من خيار أن يستجيبوا لعزيمة قائدهم الحبيب فباتوا يوقدون النيران ويداوون الجرحى .

لكن حظ النساء من الحب والوفاء كان أعظم،ولئن بقى الجرحى يعالجون جراحهم ، قد رحلت نساء بنى عبد الأشهل كلهن إلى بيت رسول الله ﷺ ، لماذا ؟

لقد انتبه سيد الأوس ـ سعد ـ إلى قائده ـ عليه الصلاة والسلام ـ حين سمع بكاء الأنصار على قتلاهم فى ديار بنى عبد الأشهل ، سمعه يقول : « أما حمزة فلا بواكى له » .

وأسرَّها سعد فى نفسه ، فكيف يكون سيد الشهداء بطل الإسلام العظيم لا بواكى له ؟ وهو الذى فعل الأفاعيل بالمشركين فى بدر وأحد ، وهو الذى شج رأس أبى جهل فى مكة ، وهو أسد الله وأسد رسوله ، يسقط هكذا غريبًا شهيدًا لا بواكى له ، إلا صفية أخته !

سمع سعد بن معاذ كلمة قائده الحبيب فكوت قلبه كيًا بالنار ، فى كيف يكون حمزة لا بواكى. وصمت السيد العظيم الذى يعرف حق السيد العظيم،وتابع مع قائده محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى بيته ، فما نزل رسول الله ﷺ عن فرسه إلا حملاً، واتكأ على سعد بن معاذ وسعد بن عبادة حتى دخل بيته. . . ولما أذن بلال بصلاة المغرب خرج رسول الله ﷺ وهو يتوكأ على السعدين فصلى بهم ، ثم عاد إلى بيته .

ويطمئن سعد بن معاذ على قائده الحبيب (فمضى إلى نسائه ونساء قومه فساقهن حتى لم تبق امرأة إلا جاء بها إلى بيت رسول الله ﷺ يبكين حمزة بين المغرب والعشاء) .

هؤلاء النسوة الخالدات تركن جرحاهن ، وتركن شهداءهن ، وجئن إلى بيت رسول الله ﷺ يبكين حمزة ، فإن كان حمزة لا بواكى له من أهله فى المدينة ، فكل المدينة تبكيه شيبها وشبابها ورجالها ونساؤها وأطفالها وحجارتها ، وعلى من يبكى إن لم يبك على حمزة ! ولو راجعنا شعر المسلمين فى أحد لكاد يكون كله على حمزة البطل الفقيد الذى لم يحزن رسول الله ﷺ على أحد حزنه عليه ، وما بكى أحدًا ما بكى عليه . ويعرف سيد الأوس محبة رسول الله ﷺ لحمزة ، فيسوق كل نساء بنى عبد الأشهل يبكين عليه .

إنها التربية بالحب ، التى لم يعرف لها التاريخ مثيلا . (ما رأيت أحدًا يحب أحدًا

كحب أصحاب محمد محمداً) .

إنها شهادة العدو فى هذا الحب ، وإلا فكيف سقط الشهداء السبعون ذوداً عن قائدهم ودينهم؟! وكيف تقاتل المرأة ويقاتل العجوز ، ويقاتل المريض ، لولا الحب العظيم لرسوله ودينه ؟!

لقد اختلط الحب ،وتجاوز الأحياء إلى الجمادات إلى جبل أحد الذى كان يلقاه ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهو قادم منَ سفر ، فتغرورق عيناه بالدمع ويقول :

« أُحُد جبل يحبنا ونحبه » .

فقد اختلط بدماء المسلمين ، وتروى ثراه بنجيعهم الزكى ، وضم أجسادهم الطاهرة فى رفاته ، فكيف لا يحبهم ويحبونه ؟!

ولا نزال فى اليوم الأول ، حيث يشتد الألم برسول الله ﷺ ، وبعد الإعياء ينام ولم يخرج رسول الله ﷺ حتى ذهب ثلث الليل، ثم ناداه: الصلاة يا رسول الله ، فهبَّ رسول الله ﷺ من نومه وخرج .

رسول الله ﷺ ينام بعد الإعياء ، ونسوة بنى عبد الأشهل يبكين حمزة فى بيت رسول الله ـ صلوات الله عليه .

(فإذا هو أخف فى مشيته منه حين دخل ، وسمع البكاء . فقال : « ما هذا ؟ » فقيل : نساء الأنصار يبكين على حمزة فقال :

« رضى الله عنكن وعن أولادكن » وأمر أن ترد النساء إلى منازلهن قائلاً :

« ارجعن رحمكن الله ، لقد واسيتن ، رحم الله الأنصار ، فإن المواساة ما علمت فيهم قديمة » فرجعن بليلٍ مع رجالهن) .

لقد غدت المدينة أسرة واحدة ، وقلبًا واحدًا ينبض بالحب، وهذا كله فى الصف المؤمن، ضعيفه وقويه . أما المنافقون والكافرون ، فأين هم من هذا الصف ؟

إنهم مفصولون عنه روحيًا وجسديًا ونفسيًا . لقد ارتبط المنافقون باليهود من حيث الهوى ، ومن حيث الموقف ، ومن حيث المصلحة .

(ولما حصل لرسول الله ﷺ وأصحابه ما حصل ، جعل عبد الله بن أبى بن سلول والمنافقون يشمتون ، ويسـرون بما أصاب المسلمين ، ويظهرون أقبح القول) .

فعبد الزعامة ـ ابن أبى ـ يريد أن يغير الجو كله لصالحه بزعمه كما جرى عقب بعاث . فحين هزمت الخزرج ،ظهر حكيم المدينة ـ ابن أبى ـ أنه هو العاقل المجرب ،

ولو أطاعوه ما قتلوا ، ولم يصيحوا له فندموا ، ولم يسمعوا له فخسروا ، وبذلك تربع على عرش الملك في يثرب ، وراحوا يعقدون له التاج لحكمته وتجربته ، وهو يرى أنه سعيد الصورة نفسها ،فقد ظهر أنه الحكيم المجرب (عصانى محمد وأطاع الغلمان ، والله لكأنى أنظر إلى هذا) .

وتوقع أن يأتى المسلمون إليه ذرافات ووحدانا يثنون على عبقريته ، ويعيدون له التاج المسلوب ويندمون على مخالفته ، خاصة وقد خسروا الشهداء - حسب تصوره - ونالتهم الجراحات . وهذا هو ابنه أمامه ، لعله يرعوى حين خالف أباه، وجاء مضرجًا بدمائه ، قد بات يكوى جراحه فى النار فيقول لابنه مكبتًا ومؤنبًا :

ما كان خروجك معه إلى هذا الوجه برأى ، عصانى محمد وأطاع الولدان والله لكأنى أنظر إلى هذا .

فقال ابنه : الذى صنع الله تعالى لرسوله وللمسلمين خير .

وكان صفعة عنيفة له من ولده ، فمتى يرعوى ابنه إن لم يرعو وهو يكتوى بالجراح من النار ، ويصر أن ما أصابه والمسلمين خير ، فهو ينتسب إلى تلك العصبة المسلمة المؤمنة التى يحيا رسول الله ﷺ بقلبها ، وينفر من أبيه ومن قول أبيه أشد النفور ، لكنه يستحى أن يهينه لمقام الأبوة منه .

ويخرج ابن أبى هائمًا على وجهه ، يكاد يأكل بعضه من الغيظ ، فابنه عبدالله يحيا بروح محمد ﷺ ، وابنته جميلة بنت عبد الله بن أبى بن سلول ، وقد قتل زوجها حنظلة بن أبى عامر ، فبكى حبيبها الفقيد ، لكنها لا تنسى أنها تُوِّجت بتاج من العز يلبسها لآخر الدهر ، فغدت ليست فقط زوجة حنظلة بن أبى عامر الفاسق ، بل زوجة حنظلة غسيل الملائكة .

لقد أراد من مصاهرة أبى عامر الراهب أن يجعل بيت الزوجية هذا من ابنته جميلة وصهره حنظلة وكرًا للتآمر ضد النبى ﷺ ولكن هُشِّم وجهه بهذا الزواج.

فقد روى ابن شاهين بإسناد حسن إلى هشام بن عروة عن أبيه قال :

(استأذن حنظلة بن أبى عامر وعبد الله بن أبى بن سلول رسول الله ﷺ فى مقتل أبويهما فنهاهما عن ذلك) (١) . ولا شك أنه قد بلغ الأبوين مثل هذا الإذن .

ولم يكن حنظلة بن أبى عامر غسيل الملائكة ، وتفرَّد بهذ المجد ، وكيف تربى ابن عدو الله حتى ارتفع ليكون غسيل الملائكة فى التاريخ الإسلامى ؟ لقد فوجئ - عليه

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر م٢، ٤/ ٤٥ .

الصلاة والسلام ـ بذلك ، كما يحدثنا ابن إسحاق فى المغازى عن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عن جده قال :

كان حنظلة بن أبى عامر الغسيل التقى هو وأبو سفيان بن حرب ، فلما استعلى حنظلة رآه شداد بن شعوب ، فعلاه بالسيف حتى قتله ، وقد كاد يقتل أبا سفيان فقال النبى ﷺ: « إن صاحبكم تغسله الملائكة فاسألوا صاحبته » فقالت : خرج وهو جنب لما سمع الهامعة (١) . فقال النبى ﷺ : « بذلك تغسله الملائكة » (٢) .

خرج ابن أبىّ هائمًا على وجهه ، يتلظى حقدًا على ابنه وابنته ، وينظر فيمن حوله، فلا يرى من يروى حقده إلا اليهود، فهم الذين يعرفون قدره ، ويصيخون له فى كل ما يتلظى به من حقد على محمد ﷺ ، أو يرى بعض أتباعه الذين انفصلوا معه، فيحدثهم بالغيظ الذى يقتله، من هؤلاء المسلمين، وهكذا وصف الله تعالى طبيعة العلاقة بين ابن أبى وأتباعه وأنصاره وبين اليهود: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ. . .** ﴾ (٣) .

فهى الأخوة الحميمة بينهما ، وكذلك وصفهم الله تعالى فى موقع آخر : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ** ﴾ (٤) .

فعندهم يتنفس ابن أبىّ الصعداء ، ويتحدث بكل مكنون نفسه ، ولكنه خط خطًا فى دخوله فى حزب محمد . حيث يستطيع من خلاله أن يبقى ذا صلة وثيقة من الجميع خزرجهم وأوسهم ، وأراد أن يغطى عملية انفصاله عن الجيش، فبيت أمره للصلاة فى اليوم الثانى .

اليوم الثانى :

لقد كان ابن أبى يُعِّدُ حساباته على أمل ضعيف فى أن يستعيد موقعه بين الخزرج ، وقد ثبت صواب رأيه وحكمته فى عدم ملاقاة المشركين ، وهو لن يستطيع أن ينال من محمد ﷺ ، وقد جرَّب حظه مع ابنه وابنته فصُفِع من موقفهما على وجهه . فليتجاوز

(١) الهامعة : هكذا فى الإصابة ، لكنها عند ابن إسحاق: (الهائعة) ، وفسرها ابن هشام : الهيعة : الصيحة التى فيها الفزع .

(٢) الإصابة فى تمييز الصحابة م٢ ، ٤ / ٤٥ وهى فى السيرة عند ابن هشام ٣ / ١٠٧ ، وقال المحقق فيه : « ورواه ابن إسحاق معلقًا ، ورواه الحاكم فى المستدرك عن طريق ابن إسحاق وصرح فى السماع ، وسنده متصل وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، وأقره الذهبى فى التلخيص ، وقال الهيثمى عن رواية الطبرانى : إسناده حسن ، فيكون الحديث صحيحًا » (انظر: السيرة ٢ / ١٠٧) .

(٣) الحشر / ١١ .

(٤) آل عمرن / ١٥٦ .

الآن فكرة إثبات حكمته وعبقريته ، وليثبت ولاءه من جديد لمحمد ﷺ ، ليغطى سوأته فى انفصاله بثلث الجيش قبل يوم واحد قبل المعركة الفاصلة .

قال ابن إسحاق : (فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة ، وكان عبد الله بن أبى بن سلول كما حدثنى ابن شهاب الزهرى له مقام يقومه كل جمعة وهو يخطب الناس ، قام فقال :

أيها الناس ، هذا رسول الله ﷺ بين أظهركم ، أكرمكم الله وأعزكم به ، فانصروه وعزروه واسمعوا له وأطيعوه ، ثم يجلس . حتى إذا صنع يوم أحد ما صنع ورجع بالناس قام يفعل ذلك كما كان يفعله ، فأخذ المسلمون بثيابه من نواحيه وقالوا : اجلس أى عدو الله ، لست لذلك بأهل ، وقد صنعت ما صنعت ، فخرج يتخطى رقاب الناس وهو يقول : والله لكأنما قلت بُجراً (١) أن قمت أشدد أمره) (٢) .

وتأتى رواية الواقدى لتزيد الأمر جلاءً : فالذى قام لمواجهته هو أقرب الناس حلفًا إليه وهو زعيم من أكبر زعماء الخزرج ، إنه عبادة بن الصامت ، فمن حيث القرابة، كان عبد الله بن أبى من بنى غنم بن عوف بن عمرو بن عوف، وكان عبادة بن الصامت من بنى عنز بن عوف بن عمرو بن عوف ، وعبادة اكتفى فى بنى قينقاع بأن أنَّبه حين قال ابن أبى له:

تبرأت من حلف مواليك، فقال له : أبا الحُباب ، تغيرت القلوب ، ومحا الإسلام العهود ، أما والله إنك لمعصمٌ بأمر سترى غيَّه غداً .

وكان ابن أبى ، وعبادة بن الصامت منهم - من بنى قينقاع - بمنزلة واحدة فى الحلف (٣) . لكن عبادة هنا أقدم على خطوة جسورة لا يقدر عليها أحد غيره ؛ لأنه هو الذى يحميه لو تعرض لسوء بصفته أقرب الناس له فى النسب ، أخذ يدفع فى رقبته ، وأبو أيوب الأنصارى يجره من لحيته ، ويقولان له : لست لهذا المقام بأهل .

أما أبو أيوب فهو من سادة بنى النجار ، وابن أبى أقرب الناس جواراً لهم ، وكانت دارهم - أى بنى غنم بن عوف - بين دار بنى النجار وبين دار بنى ساعدة (٤) . وترك سعد بن عبادة سيد الخزرج ، وجار ابن أبى القوم يعنفونه ويجلسونه ، وكانت هذه أكبر إهانة وجهت له فى حياته ، وانزوى رهطه المنافقون خزايا لا يرفعون حراكًا ،

---

(١) بُجراً : وهو الأمر العظيم الداهى .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ١٥٣ .
(٣) المغازى للواقدى ١/ ١٧٩ .
(٤) جمهرة أنساب العرب : ٣٥٥ .

ولا يجرؤون على المواجهة . فالصف الإسلامى كله يمثله ابن الصامت . وأبو أيوب فى تعنيفه وإجلاسه ، والقول له: اجلس أى عدو الله لست لذلك بأهل .

يقول الواقدى : (فخرج بعدما أرسلاه ، وهو يتخطى رقاب الناس وهو يقول: كأنما قلت هُجْرًا قمت لأشد أمره ، فلقيه معوذ بن عفراء فقال : ما لك؟ قال: قمت ذلك المقام الذى كنت أقوم أولاً ،فقام إلىَّ رجال من قومى، فكان أشدهم علىَّ عبادة ، وخالد بن زيد ، فقال له : ارجع يستغفر لك رسول الله ، فقال : والله ما أبغى يستغفر لى،فنزلت هذه الآية : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ . . . . ﴾ الآية [(١)].

قال : ولكأنى أنظر إلى ابنه عبد الله جالس فى الناس ، ما يشد الطرف إليه . فجعل يقول : أخرجنى محمد من مريد سهل وسهيل) [(٢)] .

فعبد الله كان قد استأذن فى قتل أبيه فلم يأذن له ، وقرَّت عينه أن كان عبادة بن الصامت أقرب المقربين من أبيه وهو الذى يجلسه .

والرسول ﷺ القائد يشهد المشهد ، ويطمئن إلى أن ابن أبى ، والثلث الذين مضوا معه : هم أقل وأذل من أن يشقوا الصف الإسلامى المؤمن الموحد . فعبد الله ابن أبى أشد الناس ضد أبيه مع أنه أكثر الناس برًا به ، وعبادة بن الصامت حليفه الأول هو الذى تكفَّل بفضح نفاقه وتعريته وإجلاسه ، وأبو أيوب الأنصارى جاره الأقرب هو الذى يجره من لحيته ليجلس حتى تتم تعريته مع حزبه ، ومعوذ بن عفراء يشكو له ما ألمَّ به من قومه فيدعوه إلى أن يستسلم ويأتى لرسول الله ﷺ يستغفر له خطيئته فى خذلانه المسلمين يوم أحد ، فيجيب بعنجهيته :

والله ما أبتغى أن يستغفر لى . معلنًا إصراره على زعامته ، وتلقيه الإهانة وإصراره على موقفه ، وكان درسًا بليغًا للمنافقين أن يقبعوا فى جحورهم ، ويكتفوا بتبادل الهموم مع اليهود ، اليهود تقول : ما محمد إلا طالب ملك ، ما أصيب هذا نبى قط ، أصيب فى بدنه ،وأصيب فى أصحابه ،والمنافقون يخذلون عن رسول الله ﷺ أصحابه، ويقولون لهم : لو كان من قُتل منكم عندنا ما قتل .

وشهد اليوم الثانى استئذان الفاروق عمر رضي الله عنه فى قتل المنافقين ، فقد آن الأوان لتصفية الحساب معهم ، وقد خذلوا رسول الله ﷺ ، وهاهم الآن يظهرون فرحتهم وشماتتهم بالمسلمين . ورأينا كيف خط رسول الله ﷺ خطه التربوى الحاسم فى ألاَّ يقتل من يقول : لا إله إلا الله ، فلابد من العمل الدؤوب فى صفهم ؛ لإقناعهم

(١) المنافقون / ٥ .

(٢) المغازى للواقدى ١/ ٣١٨ ، ٣١٩ .

بالإسلام أولاً وانضمامهم إلى الصف المسلم ثانيًا كما قال القرآن عنهم :

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً . إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً ﴾ (١) . ويتجلى هذا الخط التربوى الذى يهدف إلى غزو صفهم ،دون اختلاطهم بالصف الإسلامى واندساسهم فيه من خلال أحداث اليوم الثانى يوم الأحد .

قال محمد بن عمر : لما رجع رسول الله ﷺ من أُحُد يوم السبت ، باتت وجوه الأوس والخزرج على بابه ؛خوفًا من كرة العدو ،فلما طلع الفجر يوم الأحد أذَّن بلال، وجلس ينتظر خروج النبى ﷺ ، فأتى عبد الله بن عمرو بن عوف المُزنى يطلب النبى ﷺ ، فلما خرج قام إليه وأخبره أنه أقبل من أهله حتى إذا كان بملل (٢) ، إذا قريش قد نزلوا فسمع أبو سفيان وأصحابه يقولون :ما صنعتم شيئًا ، أصبتم شوكة القوم وحدهم ثم تركتموهم ولم تبيدوهم ، فقد بقى فيهم رؤوس يجمعون لكم ، فارجعوا نستأصل من بقى ، وصفوان بن أمية يأبى ذلك عليهم ويقول : يا قوم إن القوم قد حربوا ، وأخاف أن يجتمع عليكم من تخلف من الخروج ، فارجعوا والدولة لكم ، فإنى لا آمن إن رجعتم أن تكون الدولة عليكم ، فقال رسول الله ﷺ : « أرشدهم صفوان وما كان برشيد،والذى نفسى بيده لقد سُوِّمت لهم الحجارة ولو رجعوا لكانوا كأمس الذاهب » .

تلقى رسول الله ﷺ النبأ فجر الأحد ، فاستدعى أركان حربه وأكبر قادته ومستشاريه استدعى ـ أبا بكر وعمر ـ رضى الله عنهما ، وذكر الرسول ﷺ « أنهما لو أجمعا على أمر ما خالفتهما » فهما اللذان يعتد بإجماعهما فقط .

(. . . فذكر لهما ما أخبره به المزنى ، فقالا : يا رسول الله ، أطلب العدو ، ولا يتقحمون على الذرية ، فلما انصرف رسول الله ﷺ من الصبح ندب الناس ، وأمر بلالاً ينادى : إن رسول الله ﷺ يأمركم بطلب عدوكم ، ولا يخرج معنا إلا من شهد القتال بالأمس) .

وأجمع الشيخان ـ أبو بكر وعمر ـ على طلب العدو ، فأصدر رسول الله ﷺ أمره لجيشه بالتحرك ، لكن أكثر ما يلفت الانتباه فى الطلب : « ألاَّ يخرج معنا إلا من شهد القتال بالأمس » .

وهذا يعنى : أن الثلاثمائة الذين خذلوا الجيش بالأمس وانفصلوا عنه ، لن

---

(١) النساء / ١٤٥ ، ١٤٦ .

(٢) ملل : مكان قريب من المدينة .

ينضموا إلى الجيش والمعركة اليوم . فلابد أن يستمر عزلهم ، وحاول ابن أبى أن يتلافى الأمر ، ويلتفت التفاتة بارعة ، بحيث يبدو أن أمر المدينة والخطورة التى تتعرض لها تهمه ، فجاء وكأنما ليس هناك شيء ذو بال فعله ، وكأن الخيانة التى أقدم عليها بالأمس قد أعفى عليها الزمن ، ولم يكن يشك لحظة أن يرفضه الرسول ﷺ وهو أحوج ما يكون له ولحزبه ؛ ليكونوا قوة معه ، ويفوّتوا على قريش شماتتها بالانقسام الذى تم ، وأن الصف الداخلى فى المدينة عاد فتوحد ، وهذا ابن أبى وحزبه بجوار محمد ﷺ ، وقد تجاوزوا خلافاتهم ، وقبل ابن أبى أن يعود فينضم تحت قيادة محمد ـ عليه الصلاة والسلام .

هكذا كان يفكر ابن أبى ولهذا جاء مسرعًا ، وقد تناسى القسط الذى ناله من الذل عقب الصلاة ليقول للقائد العظيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ:

ـ أنا راكب معك .

فقال : « لا » .

بهذه الصرامة وهذا الحسم الذى لا يقبل النقاش رفض ـ عليه الصلاة والسلام ـ ابن أبى وحزبه وهم يفوقون ثلث الجيش ، ورفض كل التصورات والتبريرات التى تقتضى قبوله فى هذا الجيش المؤمن ، رفض هذا كله ـ عليه الصلاة والسلام ؛ لأن الله تعالى قال له : ﴿ **مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ** . . . ﴾ (١).

وقد ماز الخبيث من الطيب ، وانفصل المنافقون فى اللحظات العصيبة الحرجة ، فلن تتكرر المأساة مرة ثانية ، ويختلط الخبيث بالطيب ، ويقبل التعامل مع ابن أبى بصفته رئيس حزب ، أو قائد معارضة ، لقد تلقى من قومه الدرس المناسب حين أراد أن يستخف بعقول المسلمين ويدعو قومه لنصرة رسول الله ﷺ وهو الذى خذله أمس ، وشمت به البارحة واليوم ، وتلقى الدرس الأبلغ يوم رفضه رسول الله ﷺ ، ورفض كل فرد من حزبه انفصل عن الجيش بالأمس . وحرصًا على استمرار التميز ، واستمرار المفاضلة ، كان النداء واضحًا لا يحتمل أى تأويل :

« ولا يخرج معنا إلا من شهد القتال بالأمس » .

وهكذا يتجلى الخط التربوى الحاسم فى طريقة التعامل مع المنافقين . فصحيح أنهم لم تنفذ بهم عقوبة الإعدام على الخيانة العظمى التى أقدموا عليها ، وفروا من

(١) آل عمران / ١٧٩ .

المعركة، وأعلنوا ولاءهم لليهود،لكن نفذت فيهم عقوبة الفصل من الجسم الإسلامى ، ولابد لكل فرد منهم أن يعاد النظر به بشكل شخصى بحيث يصبح مؤهلاً للانضمام للصف الإسلامى أو غير مؤهل لذلك . والوحيد الذى استثنى وانضم إلى الجيش هو ابن الشهيد الحى : عبد الله بن عمرو بن حرام - جابر بن عبد الله - والذى فرض عليه أبوه الإقامة على أخواته التسع يرعى شؤونهم ، وقبل رسول الله ﷺ انضمامه .

وحتى الصبيان الأربعة عشر الذين ردَّهم - عليه الصلاة والسلام - أمس من أحد، لم يسمح لهم بالمشاركة . إنه الجيش الجريح نفسه ولما يمر عليه أربعًا وعشرين ساعة ، يدعى من جديد للمواجهة والمعركة ، فكيف كان هذا الصف العظيم ؟!

(فوثبوا إلى سلاحهم ، وما عرَّجوا على جراحاتهم ،فخرج من بنى سلمة أربعون جريحًا . بالطفيل بن النعمان ثلاثة عشر جرحًا ، وبقطبة بن عامر بن حديدة تسع جراحات ، وبخراش بن الصمة عشر جراحات ، وبكعب بن مالك بضعة عشر جرحًا ، حتى وافوا النبى ﷺ ببئر أبى عِنبة إلى رأس الثنية - الطريق الأولى يومئذ - عليهم السلاح ، قد صفوا لرسول الله ﷺ ، فلما نظر رسول الله ﷺ إليهم والجراح فيهم فاشية قال : « اللهم ارحم بنى سلمة ») .

هؤلاء بنو سلمة الذين كادوا أن يفشلوا ويتأثروا بعبد الله بن أبى ، قد محوا تلك الصفحة وتولاهم الله برعايته ، وحاول سيدهُم عبد الله بن عمرو أن يثنى ابن أبى عن خذلان المصطفى - عليه الصلاة والسلام - فلم يفلح ، وخاضوا غزوة أحد ببسالة منقطعة النظير، وأبدوا من ضروب البسالة والشجاعة ما رفعهم إلى المقام الأول من المجاهدين ، وكانوا أكثر المؤمنين جراحًا فى أحد كما ذكرت الرواية السابقة (فخرج من بنى سلمة أربعون جريحًا) ، وما أن تلقاهم - عليه الصلاة والسلام - حتى قرَّت عينه بهذا الالتزام العجيب والطاعة العظيمة ، فقال : « اللهم ارحم بنى سلمة » .

ومن بنى سلمة وحدهم من سمح له أن ينضم للجيش ، ولم يكن فيه من قبل وهو : جابر بن عبد الله - رضى الله عنهما - وكان الأبطال الآخرون من الأوس هم بنو عبد الأشهل ، وفيهم سيد الأوس سعد بن معاذ .

(فخرج سعد بن معاذ راجعًا إلى داره ، يأمر قومه بالمسير ، قال : والجراح فى الناس فاشية ، عامة بنى عبد الأشهل جريح بل كلها ، فجاء سعد بن معاذ فقال : إن رسول الله ﷺ يأمركم أن تطلبوا عدوكم . قال : يقول أسيد بن حضير ، وبه سبع جراحات وهو يريد أن يداويها : سمعاً وطاعة لله ولرسوله ، فأخذ سلاحه ، ولم يعرِّج على دواء جراحه ،ولحق برسول الله ﷺ) .

وبالأمس كانت الأوامر عزيمة من النبى ﷺ لبنى عبد الأشهل ألاَّ يغادروا مرابعهم شفقة عليهم ، برفقة الرسول الله ﷺ ليداووا جرحاهم ، وها هم اليوم تتوجه إليه الأوامر، أن يتحركوا بجراحاتهم لملاحقة العدو ، فكان سعد وأسيد الجريح سيدا بنى عبد الأشهل على رأس قومهم يلتحقون برسول الله ﷺ .

وهذا سعد بن عبادة سيد الخزرج عامة وسيد بنى ساعدة خاصة يلتحق بالركب .

(وجاء سعد بن عبادة قومه بنى ساعدة فأمرهم بالمسير فتلبسوا ولحقوا . وجاء أبو قتادة أهل خربى وهم يداوون الجراح ، فقال : هذا منادى رسول الله ﷺ يأمركم بطلب عدوكم ، فوثبوا إلى سلاحهم، وما عرَّجوا على جراحاتهم) [1] .

لقد حمل هذا العام بعد بدر إلى الآن جيلاً جديداً أضيف إلى جيل بدر بعدده ، وهو يتربى ويصاغ على يد النبوة ، وكانت تجربة حمراء الأسد التى يدعى فيها القوم إلى المعركة الجديدة ،مع العدو الذى انتهوا بالأمس من مواجهته من أعسر وأشق التجارب ، ففى أقل من أربع وعشرين ساعة، وبجراحاتهم التى تنزف ، كان عليهم لا أن يعتصموا ببيوتهم لحماية المدينة ، بل عليهم أن يخرجوا بسلاحهم لملاحقة العدو الذى أوقع بهم الأمس أعنف ضرباته ، وصمدوا فى وجه تلك الضربات ، واليوم يطلب منهم هذه المواجهة الجديدة. يا لها من تربية لهذا الجيل تعرضه على الموت فى كل لحظة ، وتتحرك قياداته الجريحة ، فتنادى بالأمر بالملاحقة ، ويثب الجيش الجريح كله إلى سلاحه ، تاركًا جراحه وغير عابئ بها ، هذا فى الصف المؤمن الخالص .

ويقف الصف المنافق بمثاته الثلاث ومن وراءهم وهو سليم معافى ، فيحظر عليه أن يشارك ولو بشخص واحد فى هذه المواجهة .

لقد أثمر هذا العام جيلاً جديداً ارتفع الثلاثمائة وبضعة عشر فيه إلى الستمائة ونيف ، وسقط بقية السبعمائة شهداء فى سبيل الله . ولنشهد صورة من صور هذا الصف الجريح ، الذى استجاب للنداء فى بنى عبد الأشهل الذين جعل فيهم رسول الله ﷺ الخيرية الثانية : « خير دور الأنصار بنو النجار ، وبنو عبد الأشهل ، وبنو الحارث بن الخزرج ، وبنو ساعدة ، وفى كل دور الأنصار خير » لندع الحادثة تنطق عن هذين الأشهليين .

قال الواقدى : (وحدثنى عقبة بن جبيرة عن رجال من قومه قالوا : إن عبد الله ابن سهل ورافع بن سهل بن عبد الأشهل رجعا من أحد وبهما جراح كثيرة ، وعبد الله أثقلهما فى الجراح ، فلما أصبحوا وجاءهم سعد بن معاذ يخبرهم أن رسول الله ﷺ

---

(١) المغازى للواقدى ١/ ٣٣٥ .

يأمرهم بطلب عدوهم قال أحدهما لصاحبه : إن تركنا غزوة مع رسول الله لغبن ! والله ما عندنا دابة نركبها ، وما ندرى كيف نصنع ! قال عبد الله : انطلق بنا ! قال رافع : لا والله ! ما بى مشى . قال أخوه : انطلق بنا نتجارّ (١) ونقصد ، فخرجا يزحفان ، فضعف رافع ، فكان عبد الله يحمله على ظهره عُقبة ، ويمشى الآخر عُقبة حتى أتيا رسول الله ﷺ عند العشاء وهم يوقدون النيران ، فأُتى بهما إلى رسول الله ﷺ ، وعلى حرسه تلك الليل عبَّاد بن بشر ، فقال: « ما حبسكما ؟ » فأخبراه بعلتهما ، فدعا لهما بخير وقال : « إن طالت لكم مدة كانت لكم مراكب من خيل وبغال وإبل وليس ذلك بخير لكم ») (٢) .

فهذان الجريحان العظيمان يعطيانا صورة عن هذا الجيش الذى استجاب لقائده فى مواجهة عدوه ، وكيف لا يكون الجيش بهذه النفسية وهو يرى قائده على رأسه يتحرك بجراحه للمواجهة فكان كما وصفه رواة السيرة ﷺ :

(وخرج رسول الله ﷺ وهو مجروح ، فى وجهه أثر الحلْقتين ، وشجوج فى جبهته فى أصول الشعر، ورباعيته قد شظيت، وشفته قد كلمت من باطنها، وهو متوهن من منكبه الأيمن من ضربة ابن قميئة، وركبتاه مجحوشتان، فدخل رسول الله ﷺ المسجد فركع ركعتين ، والناس قد حشدوا، ونزل أهل العوالى حيث جاءهم الصريخ ، ثم ركع رسول الله ﷺ ركعتين فدعا بفرسه على باب المسجد) (٣) .

وذاك بطل أحد ـ طلحة بن عبيد الله ـ الذى قاتل قتال الأحد عشر وهو يذود عن رسول الله ﷺ ، وسقط مضرجًا بدمائه بين يدى قائده . طلحة الذى كان إذا ذكر يوم أحد قال أبو بكر رضي الله عنه فيه : (كان ذلك اليوم كله لطلحة) (٤) . طلحة الذى كان يقول فيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ على إثر أحد : « من سره أن ينظر إلى رجل يمشى على الأرض قد قضى نحبه فلينظر إلى طلحة » (٥) .

(وتلقاه طلحة رضي الله عنه وقد سمع المنادى ، فخرج ينظر متى يسير رسول الله ﷺ ، فإذا رسول الله ﷺ عليه الدرع والمِغفر وما يرى منه إلا عيناه ، فقال: « يا أبا طلحة ، سلاحك ! » فقلت : قريبًا . قال طلحة : فأخرج أعدو فألبس درعى، وآخذ سيفى ،

---

(١) نتجار : يجر بعضنا بعضاً .

(٢) المغازى للواقدى ١ / ٣٣٥ ، ٣٣٦ .

(٣) المصدر نفسه ١ / ٣٣٦ ، ٣٣٧ .

(٤) شرح المواهب اللدنية للزرقانى ٢ / ٣٩ .

(٥) مجمع الزوائد للهيثمى ١٤٨/٩ وقال فيه : « رواه أبو يعلى والطبرانى فى الأوسط وفيه صالح بن موسى وهو متروك » .

وأطرح درقتى فى صدرى ، وإن بى لتسع جراحات ، ولأنا أهم بجراح رسول الله ﷺ من جراحى) [1] .

اليوم الثالث :

(فأقام بحمراء الأسد [2] الإثنين والثلاثاء والأربعاء) .

فكيف كانت الإقامة ؟ وما هى تموينات الجيش ؟ وما هى مهماته فى هذا المقام ؟

يحدثنا جابر بن عبد الله ـ رضى الله عنهما ـ الجندى الجديد عن ذلك فيقول :

(وكان عامة زادنا التمر . وحمل سعد بن عبادة ثلاثين جملاً حتى وافت الحمراء، وساق جُزرًا فنحروا فى يوم اثنين ، وفى يوم ثلاثًا . وكان رسول الله ﷺ يأمرهم فى النهار بجمع الحطب ، فإذا أمسوا أمرنا أن توقد النيران ، فيوقد كل رجل نارًا ، فقد كنا تلك الليالى نوقد خمسمائة نار حتى ترى من المكان البعيد ، وذهب ذكر معسكرنا ونيراننا فى كل وجه حتى كان مما كبت الله تعالى عدونا) [3] .

فقد كان طعام الجيش التمر ، وكان الممون الأكبر له سيد الخزرج ، وفياضهم سعد ابن عباد ، فهو الذى حمل ثلاثين جملاً حتى وافت الحمراء ، وساق جزرًا ، فنحروا فى يوم اثنين وفى يوم ثلاثة .

أما المهمة اليومية لهذا الجيش فهو جمع الحطب ، وإيقاد النار فى الليل ، بحيث يوقد كل جندى فى الجيش نارًا مستقلة به ، وكلما كانت النار أكبر ، كلما كان تنفيذ المهمة أجدر ؛ وذلك لأن الحرب معنوية ، وإيقاد خمسمائة نار فى موقع من المواقع ، تراها مضارب القبائل العربية فى كل مكان فتكون حديث الركبان ، وقصص السمار عن هول هذا الجيش الذى يرعب ويخيف أن يقترب منه أحد بعداء . وهذا ما تم (وذهب ذكر معسكرنا ونيراننا فى كل وجه) . وكان من أهم أحداث هذا اليوم واليوم الذى يليه ما تمم مهمة النار فى الحرب المعنوية وهو ضد قريش ، وهو قدوم الحليف السرى لرسول الله ﷺ ، وهو معبد بن معبد الخزاعى ، الذى مثل قبيلته ، وقدَّم المواساة ، وتجديد الحلف والولاء للرسول ﷺ. وعبَّر عن المشاركة المعنوية فى أحداث أحد .

(وانتهى معبد بن أبى معبد الخزاعى وهو يومئذ مشرك ، وكانت خزاعة سِلْماً للنبى ﷺ فقال :

---

(1) المغازى للواقدى ١/٣٣٧ .

(2) حمراء الأسد : جبل أحمر جنوب المدينة على ٢٠ كيلاً إذا خرجت من ذى الحليفة تؤم مكة .

(3) المغازى للواقدى ١/٣٣٨ .

يا محمد لقد عزَّ علينا ما أصابك فى أصحابك ، ولوددنا أن الله أعلى كعبك ، وأن المصيبة كانت بغيرك) .

ومضى معبد بعد أن رأى الجيش الإسلامى مرابطًا على ثغر المدينة ، مستعدًا لمواجهة أى طارئ ، على رأسه سيد الجزيرة محمد بن عبد الله ﷺ ، مضى ليلقى قريشًا فى الروحاء وقد أزمعت العودة لاحتلال المدينة .

(ثم مضى معبد حتى يجد أبا سفيان وقريشًا بالروحاء وهم يقولون : لا محمدًا أصبتم ، ولا الكواعب أردفتم ، فبئس ما صنعتم ، فهم مجمعون على الرجوع ، ويقول قائلهم فيما بينهم : ما صنعنا شيئًا ، أصبنا أشرافهم ، ثم رجعنا قبل أن نستأصلهم ، قبل أن يكون لهم وفر ، والمتكلم بهذا عكرمة بن أبى جهل ، فلما جاء معبد إلى أبى سفيان قال : هذا معبد وعنده الخبر ، ما وراءك يا معبد ؟ . . . .)(1) .

وكانت الفرصة الذهبية الثمينة لمعبد أن يخوض حربه المعنوية ضد قريش ـ دون أن تشك قريش به فهو على شركه ، ويتمم رسالة النيران الملتهبة فى حمراء الأسد ، فقدَّم عرضًا لجيش محمد ﷺ . استطاع أن يحطم به أعصاب قريش ، ويُفتَّ فى عضدها ، ويغيِّر خطتها كاملة ، ويقذف الرعب فى قلبها ، قال :

تركت محمدًا وأصحابه خلفى يتحرقون عليكم بمثل النيران ، وقد أجمع من تخلف عنه بالأمس من الأوس والخزرج وتعاهدوا ألا يرجعوا حتى يلحقوكم فيثأروا منكم ، وغضبوا لقومهم غضبًا شديدًا ولمن أصبتم من أشرافهم .

وعند ابن هشام : فيهم من الحنق عليكم شىء لم أر مثله قط .

قال : ويلك ما تقول ! قال: والله ما أرى أن ترحل حتى ترى نواصى الخيل .

قال : فوالله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصل بقيتهم .

قال : فإنى أنهاك عن ذلك ، والله لقد حملنى ما رأيت أن قلت فيهم أبياتًا من الشعر . قال : وما قلت ؟ قال : قلت :

كادت تهد من الأصوات راحلتى   إذا سالت الأرض بالجرد الأبابيل
تردى بأسد كرام لا تنابلة   عند اللقاء ولا ميل معازيل
فقلت : ويل ابن حرب من لقائكم   إذا تَغَطْمَطَتْ البطحاء بالجيل

فانصرف القوم سراعًا خائفين من الطلب (2) .

(1) المغازى للواقدى 1/338 ، 339 .

(2) السيرة النبوية لابن هشام 3/149، 150 .

رسول الله ﷺ فى حمراء الأسد ، وحليفه السرى العبقرى فى الروحاء يخوض الحرب عنه ، فيثنى أبو سفيان عن وجهه ، ويعيد الجيش القرشى خائفًا كما أكدَّ القرآن الكريم ذلك :

﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴾ (١) .

اليوم الرابع :

وحاول أبو سفيان فيه أن يخوض حربًا معنوية جديدة ، فيرد الكرة على المسلمين من خبر معبد الخزاعى .

(ومرَّ ركبٌ من عبد القيس بأبى سفيان فقال : أين تريدون ؟ قالوا : نريد المدينة. قال : ولم ؟ قالوا : نريد الميرة ، قال : فهل أنتم مبلغون عنى محمدًا رسالة أرسلكم بها إليه ، وأوقر لكم أباعركم زبيبًا غدًا بعكاظ إذا وافيتموها ؟ قالوا : نعم . قال : إذا وافيتم محمدًا فأخبروه أنا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم، وأنا فى آثاركم ، فانطلق أبو سفيان . وقدم الركب برسول الله ﷺ بحمراء الأسد ، فأخبروه بالذى قال أبو سفيان وأصحابه ، فقال رسول الله ﷺ : « حسبنا الله ونعم الوكيل ») (٢) .

لقد كانت خطة ذكية وناجحة ولا شك من أبى سفيان فى حرب الأعصاب هذه . لكنَّ الجيل الذى تربى بالقرآن ، وصاغته يد النبوة ، ما كان لمثل هذه الأخبار أن تفت فى عضده كما فتت أخبار معبد فى جيش مكة ؛ وذلك لأنهم خرجوا أصلاً لملاقاة الجيش ، وهم يحسبون احتمال عودته ، ولأنهم ثانيًا يركنون إلى ركن ركين من التوكل على الله ـ عز وجل ، فكان جوابهم : حسبنا الله ونعم الوكيل . وكان هو جواب قائدهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ: « حسبنا الله ونعم الوكيل » .

ومالنا نصعَّد ونصوب ، وبين يدينا شهادة رب العالمين بهذا الجيل ، وذلك فيما رواه البخارى والنسائى وابن أبى حاتم والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : « حسبنا الله ونعم الوكيل » قالها إبراهيم حين أُلقى فى النار ، وقالها محمد حين قالوا : ﴿ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ (٣) .

---

(١) آل عمران / ١٥١ .

(٢) فتح البارى ٨ / ٢٢٩ برقم (٤٥٦٢) .

(٣) آل عمران / ١٧٣ .

ويتابع القرآن ثناءه على هذه العصبة .

﴿ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ (١) .

وبعد أن برز معدنهم الأصيل ، وجوهرهم النفيس بالصبر والاعتماد على الله ، جاءهم البشير برحيل القوم ، وذلك كما روى الواقدى فى مغازيه :

(وكان معبد قد أرسل رجلاً من خزاعة إلى رسول الله ﷺ يعلمه أن قد انصرف أبو سفيان وأصحابه خائفين وجلين ، ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة) (٢) .

ولم يعد رسول الله ﷺ إلى المدينة فى اليوم الخامس يوم الخميس ، إلا وقد ظفر بعدوين لدودين من قادة قريش قتلهما ثأرًا لأصحابه ، وكان هذان الزعيمان : أبا عزة الجمحى الشاعر ، ومعاوية بن المغيرة بن أبى العاص بن أمية، ولكل منهما قصته .

أما أبو عزة الجمحى ، فسبق أن تحدثنا عنه ، وكيف أنه أسر فى بدر ، ومنَّ عليه رسول الله ﷺ بالحرية دون فداء بعد أن عاهده ألاَّ يعبئ ضده جمعًا ، لكنَّ عصبيته وجاهليته تحركت بفعل قريش التى كانت بأمس الحاجة إليه وإلى شعره، واختارته واحدًا من أربعة ؛ ليكونوا وفدها الإعلامى إلى بنى عبد مناة والذين عبؤوا أكثر مما عبأت قريش عددًا وعُدة ، ومضى شعر أبى عزة الجمحى يسرى فى المضارب والمجالس ، يحث الناس على حرب محمد ـ صلوات الله عليه ، وشاء قدر الله تعالى أن يقع أبو عزة الجمحى أسيرًا مرة ثانية بيد محمد ﷺ عقب المعركة ، وبعد العودة من حمراء الأسد ، وبموقف نذل جبان ، عاد ثانية يتذلل لرسول الله ﷺ طالبًا منه أن يعفو عنه ويهب له الأمان ، والمسلمون يتحرقون غيظًا منه ، فكان الجواب النبوى الحاسم الذى أقر عين العصبة المؤمنة:

« والله لا تمسح عارضيك بمكة ، وتقول : خدعت محمداً مرتين ، اضرب عنقه يا زبير » .

أما معاوية بن المغيرة بن أبى العاص بن أمية فقد انهزم يومئذ فمضى على وجهه فنام قريبًا من المدينة ، فلما أصبح دخل المدينة فأتى منزل عثمان بن عفان بن أبى العاص ابن أمية رضي الله عنه فضرب بابه فقالت امرأته أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ : ليس هو هاهنا (٣) .

---

(١) آل عمران / ١٧٤ .

(٢) المغازى للواقدى ١/ ٣٤٠ .

(٣) المصدر نفسه ١/ ٣٣٣ .

ولا غرابة ألا يدرى معاوية بن المغيرة ما جرى من تطورات المعركة فقد انهزم مع من انهزم فى الجولة الأولى ، ولم يكن أمس رحمًا به من عثمان بن عفان فهو ابن عمه الأدنى ، ومشكلة عثمان رضي الله عنه الرجل الثالث فى الأمة أن عشيرته - بنى أمية - تكاد تكون كلها فى الصف المعادى ، فهو الذى يلجأ إليه رجالات بنى أمية جميعًا حين يطلبون الأمان من محمد ﷺ .

(فلما رآه قال: ويحك أهلكتنى وأهلكت نفسك ما جاء بك ؟ قال: يا ابن عم لم يكن أحد أقرب إلىَّ منك ولا أحق ، فأدخله عثمان فى ناحية البيت . . . واستأمن له رسول الله ﷺ ، فوهبه له وأمَّنه وأجَّلهُ ثلاثًا فإن وجد بعدهن قتل .

فخرج عثمان فاشترى له بعيراً وجهزه ثم قال : ارتحل ، فارتحل ، وسار رسول الله ﷺ إلى حمراء الأسد ، وخرج عثمان مع المسلمين إلى حمراء الأسد ، وأقام معاوية حتى كان اليوم الثالث ، فجلس على راحلته وخرج ، حتى إذا كان بصدور العقيق قال رسول الله ﷺ : « إن معاوية قد أصبح قريبًا فاطلبوه » ، فخرج الناس فى طلبه فإذا هو قد أخطأ الطريق فخرجوا فى أثره حتى أدركوه فى اليوم الرابع، وكان زيد بن حارثة ، وعمار بن ياسر أسرعا فى طلبه ، فأدركاه بالجماء (داخل المدينة) فضربه زيد بن حارثة وقال عمار : إن لى فيه حقًا فرماه عمار بسهم فقتلاه) [1] .

لقد تماهل واستخف ، فانتهى وقت أمانه ، وتلقى عقوبة الموت ، بصفته من كبار الشخصيات المحاربة للإسلام ، ولا تزال الدماء لم تجف بعد .

بقى علينا أن نذكر على آثار العودة إلى المدينة يوم الخميس ، وبعد الظفر بهاتين الشخصيتين القياديتين أن نذكر أن هذه المجموعة المؤمنة ، وهذا الجيش الفتى المسلم بكل مستوياته الإيمانية العالية والعادية والضعيفة ، قد دخل فى إطار الثناء الربانى العظيم ، حين استجاب للنداء النبوى العظيم بملاحقة المشركين ، وهذا يعنى : أن ما لقيه من عتاب شديد على مواقفه فى أحد ، لمن فرَّ يوم التقى الجمعان ، ولمن قال الله تعالى فيهم : ﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ ﴾ [2] ولمن أهمتهم أنفسهم ، ولمن قال الله تعالى فيهم : ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ﴾ [3] ولمن قال الله تعالى فيهم : ﴿ إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا ﴾ [4] .

---

(١) المغازى للواقدى ١/ ٣٣٥ .
(٢) آل عمران / ١٥٣ .
(٣) آل عمران / ١٥٢ .
(٤) آل عمران / ١٢٢ .

كان هذا الخروج لحمراء الأسد : قد مسح هذا الضعف كله من خلال هذه التجربة التربوية الجديدة التى لم تتجاوز الأربعة أيام ، لتعلن دخول هذا الصف كله فى إطار الثناء الربانى العظيم ، على أن يتابع خط الارتقاء الصعب العظيم الإحسان والتقوى فيمضى صعدًا نحو السابقين الأولين : ﴿ **الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ . الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ . فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ** ﴾ (١) .

ولابد عن الإشارة أخيرًا إلى ما ورد فى البخارى حول الذين استجابوا لله وللرسول من بعد ما أصابهم القرح .

(فعن هشام عن أبيه ـ عروة بن الزبير ـ عن عائشة ـ رضى الله عنهما ﴿ **الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ** ﴾ قالت لعروة : يا بن أختى كان أبواك منهم: الزبير وأبو بكر، لما أصاب رسول الله ﷺ ما أصاب يوم أحد وانصرف عنه المشركون ، خاف أن يرجعوا . قال : من يذهب فى أثرهم ، فانتدب منهم سبعون رجلاً، قال : كان فيهم أبو بكر والزبير) (٢) .

هذا هو نص عائشة ـ رضى الله عنها ـ فى البخارى ، فهل هؤلاء السبعون انتدبهم وحدهم رسول الله ﷺ وعادوا ؟ أم هم مقدمة الجيش الذى مضى لحمراء الأسد ، وذلك للجمع بين الروايات الواردة فى الحديث والسيرة ؟

يقول الصالحى فى ذلك : (قال فى البداية : هذا سياق غريب جدًا ، فإن المشهور عند أصحاب المغازى : أن الذين خرجوا مع رسول الله ﷺ إلى حمراء الأسد كل من شهد أحدًا ، وكانوا سبعمائة كما تقدم . قتل منهم سبعون وبقى الباقون . قلت : الظاهر ـ والله أعلم ـ ألاّ تخالف بين قول عائشة وما ذكره أصحاب المغازى ؛ لأن معنى قولها : فانتدب منهم سبعون : أنهم سبقوا غيرهم ثم تلاحق الباقون ، ولم ينبه على ذلك الحافظ فى الفتح) (٣) .

كما أورد الصالحى ملاحظته الثانية بقوله :

(الثانى : كان خروج النبى ﷺ إليها ـ أى أُحُد ـ صبيحة يوم الأحد لست عشرة

---

(١) آل عمران / ١٧٢-١٧٤ .

(٢) فتح البارى ٧/ ٣٧٣ رقم (٤٠٧٧) .

(٣) سبل الهدى والرشاد ٤/ ٤٤٦ .

مضت من شوال ـ عند ابن إسحاق ـ وعند ابن سعد لثمان خلون منه ، والخلاف عندهم فى أحد كما سبق) (١) . ولا ندرى إن كانت الآيات القرآنية عن أحد قد نزلت قبل حمراء الأسد أو بعدها ، وإن كنا نرجح أنها بعدها ؛ لأن حمراء الأسد فى اليوم الثانى بعد أحد ؛ ولأن التربية الربانية تدع الصف المسلم يعمل ويجاهد ، ثم يأتى عرض المواقف والحكم عليها والتوجيه الربانى بعد ذلك (٢) .

وقفة عند أحد وشهدائها :

حين نذكر أحد : نذكر عظمة سيد القادة الذى استطاع رغم الخلل العظيم فى جيشه أن يعيد ترتيب هذا الجيش ، ويواجه أعنف هجوم قاده أحد عظماء قادة التاريخ : خالد بن الوليد ، ويصد هذا الهجوم بعبقرية التخطيط ، وعظمة الثبات ، والتضحية بالعصبة المؤمنة التى برزت فى ساعة المحنة ، وأسقطت هجومًا كان من الممكن أن ينهى الإسلام ودولته إلى الأبد .

إن عظمة هذا الانتصار ، وتجاوز هذه المحنة ، وملاحقة العدو ، وقذف الرعب فى قلبه ، وإحباط المخطط الرهيب الذى عبئ له ثلاثة آلاف ليواجه بسبعمائة فقط، وعجز هذا العدو أن يتقدم شبرًا واحدًا من الأرض الإسلامية المقدسة؛ لهو فى مفهوم الحروب انتصار من أكبر الانتصارات فى التاريخ ، وذلك حين يقارن بما يمكن أن تكون النتيجة عليه لو انهزم المسلمون ، واحتُلت المدينة ، وتحطمت المقاومة .

وحين نذكر سيد القادة فى الوجود ، وقد واجه بشخصه ، ثم بالعصبة معه ، حيث مرت فترة حرجة كان يواجه العدو وحده ، ثم انضم إليه خمسة من العشرة المبشرين فى اللحظة الحاسمة ، وهم : طلحة ، وسعد ، وأبو بكر ، وأبو عبيدة عامر ابن الجراح ، وعبد الرحمن بن عوف ، بينما كان الخمسة الآخرون يصدون الهجوم فى مواقع أخرى ، ثم انضمت عصبة الأنصار كأبى طلحة ، وأبى دجانة ، ومالك بن سنان ، حيث ارتفع العدد لثلاثين ، ثم اقتحام صفوف العدو للوصول إلى جيشه المحاصر ، ثم صد الهجوم الشرس وإعادته على أعقابه ؛ لهو بطولة وعبقرية عز نظيرها فى التاريخ كله. وفى الأزمان والمحن تظهر البطولة والعظمة الفذة . إن كل الذى تم فى أحد هو الخسائر البشرية ـ فى المفهوم البشرى ـ ولم تقوَّم معركة أبدًا فى التاريخ من خلال عدد الخسائر بمقدار ما تقوَّم بتحقيق الأهداف.

---

(١) سبل الهدى والرشاد ٤/٤٤٦ .

(٢) تم استعراض التربية القرآنية من خلال آيات أحد ، تفصيلا فى المنهج التربوى للسيرة النبوية جـ ١ . فيمكن العودة إليه هناك .

لقد كانت المرحلة الأولى صداً للعدوان دون خسائر قبل أن يبرز الخلل فى الجيش ، ثم كانت المرحلة الثانية صداً للعدوان كذلك بسبعين من الشهداء ومئات من الجرحى فى الجيش الإسلامى العظيم ، وعجز العدو أن يحقق شيئًا من أهدافه فى اقتحام المدينة ، واستئصال شأفة المسلمين ، واستباحة بيضتهم .

وقد انتبه فقهاؤنا لهذا الجانب، فقد ذكر القسطلانى فى المواهب اللدنية ذلك بقوله :

(تنبيه : ذكر القاضى عياض فى الشفاء عن القاضى أبى عبد الله بن المرابط من المالكية أنه من قال : إن النبى ﷺ هزم يستتاب ، فإن تاب وإلا قتل ؛ لأنه تنقص ، إذ لا يجوز ذلك عليه فى خاصيته ﷺ ، وهذا موافق لمذهبنا ـ أى الشافعية . لكن قال العلامة البساطى من المالكية : هذا القائل إن كان يخالف فى أصل المسألة ـ أعنى حكم السباب ـ فله وجه ، وإن وافق على أن السابَّ لا تقبل توبته فمشكل؛ لمخالفته نص مالك وأصحابه) (١) .

وحين يتحدث علماؤنا عن أحد يقولون :

(وقد كان فى قصة أحد وما أصيب به المسلمون من الفوائد والحكم الربانية أشياء عظيمة ، منها : تعريف المسلمين سوء عاقبة المعصية ، وشؤم ارتكاب النهى لما وقع من ترك الرماة موقعهم الذى أمرهم رسول الله ﷺ ألا يبرحوا منه . ومنها : أن عادة الرسل أن تبتلى وتكون لهم العاقبة ـ كما قاله هرقل لأبى سفيان ـ والحكمة فى ذلك : أن لو انتصروا دائمًا لدخل فى المسلمين من ليس منهم ، ولم يتميز الصادق من غيره ، ولو انكسروا دائمًا لم يحصل المقصود من البعثة ، فاقتضت الجمع بين الأمرين ؛ ليتميز الصادق من الكاذب ، وذلك أن نفاق المنافقين كان مخفيًا عن المسلمين ، فلما جرت هذه القصة ، وأظهر أهل النفاق ما أظهروه من التحول والفعل ، عاد التلويح تصريحًا، وعرف المسلمون أن لهم عدوًا فى دورهم فاستعدوا لهم ، وتحرزوا منهم .

ومنها : أن فى تأخير النصر فى بعض المواطن هضمًا للنفس ، وكسرًا لشماختها. فلما ابتلى المسلمون صبروا وجزع المنافقون .

ومنها : أن الله تعالى هيأ لعباده المؤمنين منازل فى دار كرامته لا تبلغها أعمالهم ، فقيَّض لهم أسباب الابتلاء والمحن ليصلوا إليها .

ومنها : أن الشهادة هى أعلى مراتب الأولياء فساقهم إليها .

ومنها : أنه أراد هلاك أعدائه فقيَّض لهم الأسباب التى يستوجبون بها ذلك من

---

(١) المواهب اللدنية للقسطلانى ١ / ٩٨ ، ٩٩ .

كفرهم وبغيهم وطغيانهم فى أذى أوليائه ، فمحَّص قلوب المؤمنين ومحق بذلك الكافرين) [1] .

ونقف عند الشهداء العظام ، الذين جاءهم من ربهم هذا الثناء : ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ . فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ . يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [2] .

لقد صدق الشهداء وعدهم من ربهم سبحانه ، فأولئك الذين بايعوا فى العقبة على أن يحموا رسول الله ﷺ مما يحمون منه نساءهم وأولادهم ، عندما جد الجد ؛ قدموا سبعين شهيدًا مع مئات الجرحى ، ولم يخذلوا نبيهم فى اللحظة الحاسمة ، فإن كان المبايعون من الأنصار سبعون ، فالشهداء فى أحد سبعون .

لقد ضحى القادة بأنفسهم حين لم يكن الحل إلا نفوسهم ، فسقط ثلاثة من النقباء الاثنى عشر شهداء فى المعركة ، أى : ربعهم على أقل تقدير ، وسقط حوالى خمسة عشر من المبايعين السبعين شهداء فى المعركة ، أى قرابة الخمس منهم ، وسقط من الجيل الرائد من أهل بدر ما ينوف عن العشرة . فكان هذا الحى من الأنصار قد صدق الله ما وعده ، فكان القياديون منهم ينوفون عن ثلاثين . بينما كان الأربعون الآخرون من الطاقات الشبابية المعطاءة ، ومن الجيل الجديد الذى انضم للإسلام ، ودفع الثمن مباشرة من دمه وروحه .

أما ذلك الحى من المهاجرين فقد قدم سيد الشهداء على الإطلاق فى هذا الوجود ـ حمزة بن عبد المطلب ، أسد الله وأسد رسوله ـ الذى كان أعظم هدفٍ حققه المشركون ، فهو الذى فعل بهم الأفاعيل فى بدر وفى أحد ، فكان يمشى بين الصفين كالأسد الهائج ، لا يقف فى وجهه أحد من العدو . وقتل غيلة وغدرًا لا مواجهة ومبارزة . وأحس رسول الله ﷺ بفقده حتى إنه لم ير فى حياته كلها أشد بكاء وتأثرًا منه يوم فقد عمه حمزة ، فهو الذى كان بين يديه رجل المهمات وبطل الساحة ، وهو عمه الحبيب وأخوه الأحب ، فقد رضعا معًا من ثدى واحد ، كما فقد بطلاً آخر من بنى هاشم يوم بدر وهو : ابن عمه عبيدة بن الحارث .

وفقد ـ عليه الصلاة والسلام ـ قائدًا فذًا من قادته وأهله وهو : عبد الله بن

---

(1) المواهب اللدنية للقسطلانى ١ / ٩٩ .

(2) آل عمران / ١٦٩ ـ ١٧١ .

جحش، أول أمير للمؤمنين فى الوجود الإسلامى ، وأصبر القادة على الجوع والعطش. وهو ابن عمته وسند مكين كان يدخره للصعاب والأهوال، وفقد سيدًا عظيما من السادات عنده ، وقائدًا عبقريًا فى الحرب والسلم وهو : مصعب بن عمير رضي الله عنه الذى تجمع صفحة الأنصار كلها فى ملف حسناته . فله القدح المعلى فى انضمام المدينة إلى الإسلام، أو بتعبير أدق فى انضمام الإسلام إلى المدينة : « إن الإيمان ليأزر إلى المدينة كما تأزر الحية إلى جحرها » (١) .

وفقد قائدًا رابعًا من أهله ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهو : شماس بن عثمان المخزومى . قال الزبير بن بكار عنه : كان من أحسن الناس وجهًا . وقال حسان يرثيه ويعزى فيه أخته :

أقنى حياءك فى ستر وفى كرم ... فإنما كان شماس من الناس
قد ذاق حمزة سيف الله فاصطبرى ... كأسى رواءً لكأس المرء شماس (٢)

وأما أكبر قادة الأنصار الذين افتقدهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ فكانوا سيد بنى الحارث بن الخزرج ونقيبهم فى العقبة : سعد بن الربيع ، الذى افتقده ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأرسل الرسل يبحثون عنه وهو يقول : « من ينظر لى ما فعل سعد بن الربيع ؟ أفى الأحياء هو أم فى الأموات ؟ » فقال رجل من الأنصار: أنا أنظر لك يا رسول الله ما فعل سعد . فنظر فوجده جريحًا فى القتلى وبه رمق . فقلت له : إن رسول الله ﷺ أمرنى أن أنظر فى الأحياء أنت أم فى الأموات ؟ قال: أنا فى الأموات ، و أبلغ رسول الله ﷺ عنى السلام ، وقل له : إن سعد بن الربيع يقول لك : جزاك الله عنا خير ما جزى نبيًا عن أمته ، وأبلغ قومك عنى السلام وقل لهم : إن سعد بن الربيع يقول لكم : إنه لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى نبيكم ﷺ ومنكم عين تطرف . قال : ثم لم أبرح حتى مات ، قال: فجئت رسول الله ﷺ فأخبرته خبره(٣) .

والقائد الثانى هو : عبد الله بن عمرو بن حرام سيد بنى سلمة ونقيبهم ، الذى قال فيه رسول الله ﷺ لولده جابر : « ما كلم الله أحدًا قط إلا من وراء حجاب، وأحيا أباك فكلمه كفاحًا (٤) فقال: ياعبدى! تمنَّ علىَّ أعطك. قال: يا رب تحيينى فأقتل فيك ثانية. قال الرب ـ عز وجل ـ: إنه قد سبق القول منى وأنهم إليها لا يرجعون .

---

(١) البخارى ، ومسلم ، وأحمد ، وابن ماجه .

(٢) الإصابة فى تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر م٢ ، ٣ / ٢١٢ .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٣ / ١٦٣ . وقد رواه الحاكم ٣ / ٢٠١ وصححه ، ووافقه الذهبى وقال عنه : «صحيح » .

(٤) كفاحاً : مواجهة .

قال: وأنزلت هذه الآية ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا ﴾ (١) » (٢) .

والقائد الثالث من بنى سلمة ، كذلك وهو : عمرو بن الجموح الذى قلَّده رسول الله ﷺ سيادة بنى سلمة ، وذلك كما روى ابن المنكدر: أن رسول الله ﷺ قال: « يابنى سلمة ، من سيدكم ؟ » قالوا : الجد بن قيس ، وإنا لنبخله . قال : « وأى داء أدوأ من البخل ، بل سيدكم الجعد الأبيض ، عمرو بن الجموح » (٣) .

وعن أبى الضحى: أن عمرو بن الجموح قال لبنيه : أنتم منعتمونى الجنة يوم بدر ، والله لئن بقيت لأدخلنَّ الجنة . فلما كان يوم أحد ، قال عمر : لم يكن لى هم غيره . فطلبته ، فإذا هو فى الرعيل الأول (٤) .

وبلغ من حب رسول الله ﷺ هؤلاء الشهداء جميعًا : أن تمنى أنه كان واحدًا منهم ومعهم ، فعن جابر رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول إذا ذكر أصحاب أحد : « أما والله ، لوددت أنى غودرت مع أصحاب فحص(٥) الجبل » (٦) .

---

(١) آل عمران / ١٦٩ .

(٢) رواه الترمذى وقال : « حديث حسن غريب » .

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبى ١/ ٢٥٤ . وقال المحقق عنه : « رجاله ثقات ولكنه مرسل » ، وأخرجه البخارى فى الأدب المفرد عن جابر بسند قوى .

(٤) سير أعلام النبلاء للذهبى وقال المحقق فيه : « رجاله ثقات لكنه منقطع » .

(٥) فحص : سفح .

(٦) سير أعلام النبلاء للذهبى ١/ ١٨٤ ، وقال المحقق فيه : « إسناده قوى » ، وهو فى المسند ٣/ ٣٧٥ .

تحريم الخمر

شهد شهر شوال حدثًا لا يقل أثرًا عن غزوة أحد فى خط البناء الداخلى للأمة ؛ ألا وهو : التحريم النهائى للخمر الذى كان جزءًا لا يتجزأ من حياة العربى فى الجاهلية وفى الإسلام ، حتى تم تحريمه ، إلا بعض الأشخاص النوادر الذين يعدون على الأصابع ممن حرَّم على نفسه الخمر فى الجاهلية وفى الإسلام ، ونحن فى صدد الحديث عن المنهج التربوى للسيرة النبوية نستمع إلى صاحب الظلال ـ رحمه الله ـ يحدثنا عن هذا المنهج بمناسبة الحديث عن تحريم الخمر وأشباهه من المحرمات فيقول :

(وفى سياق قضية التشريع بالتحريم والتحليل ، وفى خط التربية للأمة المسلمة فى المدينة ، وتخليصها من جو الجاهلية ، وأسسها وتقاليدها الشخصية والاجتماعية . يجىء النص القاطع الأخير فى تحريم الخمر والميسر مقرونين إلى تحريم الأنصاب والأزلام ، أى إلى الشرك بالله) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ . وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ . لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَّآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوا وَّآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوا وَّأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١) .

لقد كانت الخمر والميسر والأنصاب والأزلام من معالم الحياة الجاهلية ، ومن التقاليد المتغلغلة فى المجتمع الجاهلى ، وكانت كلها حزمة واحدة ذات ارتباط عميق فى مزاولتها ، وفى كونها من سمات ذلك المجتمع وتقاليده ، فقد كانوا يشربون الخمر فى إسراف ، ويجعلونها من المفاخر التى يتسابقون فى مجالسها ويتكاثرون ، ويديرون عليها فخرهم فى الشعر ومدحهم كذلك ! وكان يصاحب مجالس الشراب نحر الذبائح واتخاذ الشواء منها للشاربين وللسقاة ولأحلاس هذه المجالس ، ومن يلوذون بها ويلتفون حولها ، وكانت هذه الذبائح تنحر على الأنصاب وهى : أصنام لهم كانوا يذبحون عليها ذبائحهم وينضحونها بدمها (كما كانت الذبائح التى تقدم لها تذبح عليها) ، وفى ذبائح

(١) المائدة / ٩٠ ـ ٩٣ .

مجالس الخمر وغيرها من المناسبات الاجتماعية التى تشبهها : يجرى الميسر على طريق الأزلام ، وهى قداح كانوا يستقسمون بها الذبيحة ، فيأخذ كل منهم نصيبه منها بحسب قدحه ، فالذى قدحه المعلى يأخذ النصيب الأوفر ، وهكذا حتى يكون من لا نصيب لقدحه ، وقد يكون هو صاحب الذبيحة فيخسرها كلها.

وهكذا يبدو تشابك العادات والتقاليد الاجتماعية ، ويبدو جريانها كذلك وفق حال الجاهلية وتصوراتها الاعتقادية .

ولم يبدأ المنهج الإسلامى فى معالجة هذه التقاليد أول الأمر ؛ لأنها إنما تقوم على جذور اعتقادية فاسدة،فعلاجها من فوق السطح قبل علاج جذورها الغائرة جهد ضائع . حاشا للمنهج الربانى أن يفعله ! إنما بدأ الإسلام من عقدة النفس البشرية الأولى ، عقدة العقيدة ، بدأ باجتثاث التصور الجاهلى الاعتقادى جملة من جذوره ، وإقامة التصور الإسلامى الصحيح ، إقامته من أعماق القاعدة المرتكزة إلى الفطرة . . . بيّن للناس فساد تصوراتهم عن الألوهية ، وهداهم إلى الإله الحق ، وحين عرفوا إلههم الحق بدأت نفوسهم تستمع إلى ما يحبه منهم هذا الإله الحق ، وما يكرهه ، وما كانوا قبل ذلك ليسمعوا أو يطيعوا أمرًا ولا نهيًا ، وما كانوا ليقلعوا عن مألوفاتهم الجاهلية مهما تكرر لهم النهى وبذلت لهم النصيحة . . . إن عقدة الفطرة البشرية هى : عقدة العقيدة،وما لم تحل هذه العقدة أولاً فلن يثبت فيها شىء من خلق أو تهذيب أو إصلاح اجتماعى. . . إن مفتاح الفطرة البشرية هاهنا . وما لم تفتح بمفتاحها فستظل سراديبها مغلقة ، ودروبها ملتوية ، وكلما كشف منها زقاق انبهمت أزقة ، وكلما ضاء منها جانب أظلمت جوانب ، وكلما حلت منها عقدة تعقدت عقد، وكلما فتح منها درب سدت دروب ومسالك. . . إلى ما لا نهاية .

لذلك لم يبدأ المنهج الإسلامى فى علاج الجاهلية وانحرافاتها من هذه الرذائل . والانحرافات إنما بدأ من العقيدة. . . بدأ من شهادة أن لا إله إلا الله، وطالت فترة إنشاء لا إله إلا الله هذه فى الزمن حتى بلغت ثلاثة عشر عامًا ، لم يكن فيها غاية إلا هذه الغاية : تعريف الناس بإلههم الحق ، وتعبيدهم له ، وتطويعهم لسلطانه . . . حتى إذا خلصت نفوسهم له ، وأصبحوا لا يجدون لأنفسهم خيرة إلا ما يختاره الله . . . عندئذ بدأت التكاليف ـ بما فيها الشعائر التعبدية ـ وعندئذ بدأت عملية تنقية رواسب الجاهلية الاجتماعية والاقتصادية والنفسية والأخلاقية والسلوكية . . . بدأت فى الوقت الذى يأمر الله فيطيع العباد بلا جدال ؛ لأنهم لا يعلمون لهم خيرة فيما يأمر الله به أو ينهى عنه أيًا كان .

أو بتعبير آخر : بدأت الأوامر والنواهى بعد (الإسلام) بعد الاستسلام ، بعد أن لم يعد للمسلم فى نفسه شىء ، بعد أن لم يعد يفكر فى أن يكون له إلى جانب الله رأى أو اختيار ، أو كما يقـول الأستاذ أبو الحسن الندوى فى كتابه: (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) تحت عنوان : انحلت العقدة الكبرى . . . انحلت العقدة الكبرى عقدة الشرك والكفر . . . فانحلت العقد كلها ، وجـاهدهم رسول الله ﷺ جهاده الأول ، فلم يحتج إلى جهاد مستأنف لكل أمر أو نهى ، وانتصر الإسلام على الجاهلية فى المعركة الأولى ، فكان النصر حليفه فى كل معركة ، وقد دخلوا فى السلم كافة ، بقلوبهم ، وجوارحهم ، وأرواحهم كافة ، لا يشاقون الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى ، ولا يجدون فى أنفسهم حرجًا مما قضى ، ولا يكون لهم الخيرة من بعد ما أمر أو نهى . حدثوا الرسول عما اختانوا به أنفسهم ، وعرضوا أجسادهم للعذاب الشديد ، إذا فرطت منهم زلة استوجبت الحد . نزل تحريم الخمر ، والكؤوس المتدفقة على راحاتهم ، فحال أمر الله بينها وبين الشفاة المتلمظة ، والأكباد المتقدة ، وكسرت دنان الخمر فسالت فى سكك المدينة) (١) .

ونستأذن صاحب الظلال ـ رحمه الله ـ فى هذه الإضافة .

فلا شك أن التربية اتجهت ابتداءً إلى معالجة العقيدة، حتى دخل الناس فى الإسلام، وبقى الأمر فى المجتمع المكى ثلاثة عشر عامًا ينصب على بناء العقيدة ، دون أن تستغرق هذه المرحلة التشريعات الكبرى فى بناء الدولة ، ولكننا نسأل : هل احتاج بناء العقيدة فى نفوس العصبة المسلمة الأولى هذا الزمن كله ؟ ما أعتقد ذلك ، فالمسلم الذى ينضم إلى الدين الجديد مؤهل لتنفيذ كل ما يطلب منه بعد لحظة إيمانه الحق ، ولطالما طُلبت روحه فأداها وترك أرضه وأهله ووطنه فى سبيل الله ، وهاجر فى سبيل الله ، وأوذى فى سبيل الله ، ولم يكن العربى فى ذلك الوقت ليجهل مفهوم الألوهية والتوحيد والرسالة، فهو يعرف أن إيمانه برسالة محمد ﷺ يعنى تخليه عن شخصه وذاته وأهوائه واتباع النبى الموحى إليه فى كل شىء . لقد كان التركيز ابتداءً فى القرآن المكى على نقض عقائد المجتمع الجاهلى كله .

وحين ينضم المسلم إلى الإسلام أو يدخل دار الأرقم ، فهو يعرف أنه وضع روحه على كفه ، وهو جاهز لتنفيذ كل ما يطلب منه منذ اللحظات الأولى لإسلامه . لقد كان الجهاد كله ليس لإقناع المسلمين فى عقيدتهم الحقة بعد أن دخلوا فى الإسلام ، إنما كان الجهاد كله منصبًا على النقلة للرجل من الجاهلية إلى الإسلام ، وانضمامه إلى العصبة

(١) فى ظلال القرآن ٢/ ٩٧٤ .

المسلمة التى لا تملك أرضًا ولا تملك مجتمعًا تعيش فيه، فهى ملاحقة مضطهدة مطاردة ، إلى أن أذن الله - عز وجل - بتكوين العصبة المسلمة الكافية عددًا ؛ لتكون نواة لمجتمع مسلم ، وأذن الله بتكوين القاعدة الصلبة التى أشرق الإسلام فى قلبها فملأ عليها حياتها ووجودها ، عندئذ انتقلت هذه القاعدة إلى المدينة حيث قام المجتمع الإسلامى الأول .

ولا أدل على ذلك من أن السابقين الأولين من الأنصار ، والذين اتبعوهم بإحسان لم يحتاجوا إلى ثلاثة عشر عامًا جديدة لتثبت العقيدة فى قلوبهم ، فحين نزل تحريم الخمر نزل فى أواخر السنة الثالثة للهجرة ، أى أنه : مر على أكثرهم ثلاثة أعوام فقط فى هذا الدين ، ويمكن أن يكون أكثرهم لم يمر عليه عام واحد ، كما رأينا من تضاعف عدد المسلمين من ثلاثمائة ونيف إلى سبعمائة ونيف فى شوال فى السنة الثالثة ، ومع ذلك لم يسجل تاريخ الإسلام مخالفة واحدة لمن مر عليه فى الإسلام ساعات أو أيامٌ أو سنين بعد أن انضم إلى المجتمع الإسلامى الجديد ، ولا يغيب عن ذهننا مجتمع المنافقين الذى حاول أن يكوِّن وجودًا له ، وقيادة خاصة له ، وسقطت هذه المحاولة .

وكان شخص رسول الله ﷺ على رأس دولة الإسلام وهو إمام المربين فى الوجود ، وهو القدوة والأسوة ، وهو الحب والحياة والوجود للمسلم . له دور كبير جدًا فى تغلغل العقيدة وتشربها فى النفوس ، وكان لقيام المجتمع الإسلامى والدولة الإسلامية دور كبير فى اختصار الزمن للانتقال من طور العقيدة إلى طور التحليل والتحريم والتشريع ، بحيث إن المسلم يسلم اليوم ، ويدخل لتوه فى تنفيذ ما أحل وما حرم عليه من قبل ، ولديه الجاهزية الكاملة لتنفيذ ما يطلب منه فى كل لحظة عن طريق قائده العظيم - عليه الصلاة والسلام.

وأجدنى مضطرًا لعرض هذه الصورة من خلال هذا المثال .

قال ابن هشام : وحدثنى أن فضالة بن عمير بن الملوح الليثى أراد قتل النبى ﷺ وهو يطوف بالبيت عام الفتح، فلما دنا منه، قال رسول الله ﷺ : «أفضالة ؟ » قال : نعم فضالة يا رسول الله ، قال : « ماذا كنت تحدث به نفسك ؟ » . قال : لا شيء كنت أذكر الله . قال : فضحك النبى ﷺ ثم قال: « أستغفر الله » ، ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه ، فكان فضالة يقول : والله ما رفع يده عن صدرى حتى ما من خلق الله شيء أحب إلىَّ منه . قال فضالة : فرجعت إلى أهلى فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها ، فقالت : هلم إلى الحديث ، فقلت لا . وانبعث فضالة يقول :

قالت هلم إلى الحديث فقلت لا   يأبى عليك الله والإسلام
لو ما رأيت محمداً وقبيله   بالفتح يوم تكسر الأصنام
لرأيت دين الله أضحى بيننا   والشرك يغشى وجهه الأظلام (١)

فالمثال يوضح لنا الجوانب الثلاثة معًا :

يوضح لنا أولا : انهيار الأصنام وزيفها يوم كسرت وتحطمت ، لكن هذا عكس فى نفسه حقداً جديداً رغم وضوح الرؤية فى عقله ، فقرر قتل النبى ﷺ وحاول ذلك .

ويوضح لنا ثانيًا : عظمة سيد ولد آدم وهو يهز هذا الكيان بالسؤال أولا عن مكنون القلب ، ثم وضع يده الشريفة على صدر فضالة ليسكن قلبه من الخوف أولا ، وليتغير الكيان كله مع دعوة رسول الله ﷺ مع هذه اللمسة العظيمة والدعاء العظيم التى لا يملكها فى هذا الوجود من خلق الله إلا رسول الله ﷺ ، فينبعث إنسانًا آخر يقول :

والله ما رفع يده عن صدرى حتى ما من خلق الله شىء أحب إلىَّ منه .

ويوضح لنا ثالثًا: الاستجابة المباشرة الحية لهذه العقيدة ، فلم يمر عليه ساعة بعد ، حين التقى بالمرأة التى يحبها ويحدثها ، فتدعوه إلى الحديث فيأبى، ويرى النور الآن بعد العمى السابق ، يرى الأصنام قد كسرت ؛ لأنها باطل ، ويرى الشرك وقد أغشى وجهه الإظلام ودين الله أضحى حاجزاً يحول بينها وبينه،ولما يمر على إسلامه ساعة واحدة .

ونعود بعدها إلى الخمر وتحريمها ، وهى التى كانت أهم مقومات العربى فى الجاهلية ، وذلك حين تلخص حياته كلها بالثالوث المقدس عنده من شهواته وبطولته : (خمر ،وسيف،ونساء) فهذه هى خلاصة لذة الحياة عنده كما لخصها طرفة بن العبد :

ولولا ثلاث هنَّ من عيشة الفتى   وحقك لم أحفل متى قام عودى
فمنهن سبقى العاذلات بشربة   كميت متى ما فعل بالماء تزيد (٢)
وتبكير يوم الدجن والدجن معجب   ببهكنة تحت الفراش المورد (٣)
وكرى إذا نادى المضاف محنياً   كسيد الفضا نبهته المتورد (٤) (٥)

ولأن الخمر من التغلغل والتأثير فى النفس البشرية التى اعتادت عليها وأدمنت شربها ، لا يمكن أن يتم التخلى عنها فى لحظة واحدة ، فقد كان منهج التربية القرآنى

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٤/ ٨٤ ، ٨٥ .   (٢) يصف شربه للخمر الذى اختلط بالماء .
(٣) يصف لذته الجنسية مع خليلة له وقد اختلى بها .   (٤) يصف اندفاعه للقتال وإجابته لمناديه .
(٥) من معلقة طرفة بن العبد ص ٨٢ ، ٨٣ شرح المعلقات السبع للزوزنى ، ط . المكتبة الفيصلية .

يعرض هذا التحريم على مراحل متلاحقة .

ونعود إلى صاحب الظلال مرة ثانية :(كانت المرحلة الأولى مرحلة إطلاق سهم في الاتجاه حين قال الله سبحانه في سورة النحل المكية : ﴿ **وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ والأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا** .... ﴾ (١) فكانت أول ما يطرق حس المسلم من وضع (السكر) وهو المخمر في مقابل الرزق الحسن فكأنما هو شيء والرزق الحسن شيء آخر .

ثم كانت الثانية بتحريك الوجدان الديني عن طريق المنطق التشريعي في نفوس المسلمين حين نزلت التي في سورة البقرة : ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا** ... ﴾ (٢) وفي هذا إيحاء إلى أن تركهما هو الأولى ما دام الإثم أكبر من النفع ؛ إذ قلما يخلو شيء من نفع ، ولكن حلّه أو حرمته إنما ترتكز على غلبة الضر والنفع .

ثم كانت الثالثة بكسر عادة الشراب وإيقاع التنافر بينها وبين فريضة الصلاة حين نزلت التي في النساء : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ** ... ﴾ (٣) .

والصلاة في خمسة أوقات معظمها متقارب، ولا يكفي ما بينها للسكر ثم للإفاقة ، وفي هذا تضييق لغرض المزاولة العملية لعادة الشراب ، وخاصة عادة الصبوح في الصباح ، والنبوق بعد العصر أو المغرب كما كانت عادة الجاهليين، وفيه كسر لعادة الإدمان التي تتعلق بمواعيد التعاطي ـ وفيه أمر له وزنه في نفس المسلم ـ ذلك التناقض بين الوفاء لفريضة الصلاة في مواعيدها بعادة الشراب في مواعيدها .

ثم كانت الرابعة الحاسمة والأخيرة ، وقد تهيأت النفوس لها تهيؤًا كاملاً ، فلم يكن إلا النهي حتى تتبعه الطاعة الفورية والإذعان .

ولما نزلت آية التحريم في سنة ثلاث بعد وقعة أحد ، لم يحتج الأمر إلى أكثر من منادٍ في نوادي المدينة : « ألا أيها القوم ، إن الخمر قد حرمت » فمن كان في يده كأس حطّمها ، ومن كان في فمه جرعة مجّها ، وشقّت زقاق الخمر ، وكسرت قنانيه ،

---

(١) النحل / ٦٧ .
(٢) البقرة / ٢١٩ .
(٣) النساء / ٤٣ .

وانتهى الأمر كأن لم يكن سكر ولا خمر) (١) .

لقد كانت الآيات تتنزل منفرة من الخمر دون أن تشير إلى تحريمه . كما روى أصحاب السنن من طريق أبى ميسرة عن عمر أنه قال : اللهم بيِّن لنا فى الخمر بيانًا شافيًا فنزلت الآية التى فى البقرة : ﴿ ... **قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ** ... ﴾ (٢) فقرئت عليه فقال : اللهم بيِّن لنا فى الخمر بيانًا شافيًا ، فنزلت التى فى النساء :﴿ ... **لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ** ... ﴾ (٣) فقرئت عليه فقال : اللهم بيِّن لنا فى الخمر بيانًا شافيًا، فنزلت التى فى المائدة : ﴿ **فَاجْتَنِبُوهُ** ﴾ إلى قوله : ﴿ **مُنتَهُونَ** ﴾ (٤) فقال عمر : انتهينا انتهينا ، وصححه على بن المدينى ، والترمذى (٥) .

لقد كونت الآيات الحس النفسى عند المسلمين ضد الخمر ، وقد استجاب لهذا التوجيه الكثير من المسلمين فابتعدوا عن الخمر لهذا الوصف الذميم لها ، ولكن الأكثر بقى يتعامل معها ؛ لشدة تأثيرها فى نفسه ولعدم التنويه بحرمتها ، لكن الحدث الذى تم أثناء الصلاة كوَّن جواً عنيفًا ضد الخمر ، وهيأ هذه النفوس للتفاعل مع تحريم الخمر أثناء الصلاة .

أخرج أحمد من حديث أبى هريرة قوله :(... عند نزول آية البقرة قال الناس : ما حرِّم علينا ، فكانوا يشربون حتى أمَّ رجل أصحابه فى المغرب فخلط فى قراءته ، فنزلت الآية التى فى النساء ، فكانوا يشربون ولا يقرب الرجل الصلاة حتى يفيق ، ثم نزلت آية المائدة فقالوا : يا رسول الله ، ناس قتلوا فى سبيل الله وماتوا على فرشهم وكانوا يشربونها فأنزل الله تعالى : ﴿ **لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا** ... ﴾ الآية (٦) ، فقال النبى ﷺ : « لو حرم عليهم لتركوه كما تركتموه » . وفى مسند الطيالسى من حديث ابن عمر نحوه وقال : فى الآية الأولى : قيل : حرمت الخمر فقالوا : دعنا يا رسول الله ننتفع بها ، وفى الثانية فقيل: حرمت الخمر ، فقالوا : لا . إنا لا نشربها قرب الصلاة . وقال فى الثالثة . فقالوا : يا رسول الله حرمت الخمر) (٧) .

ولهذا كان عمر رضي الله عنه يدعو بعد كل آية تتعلق فى الخمر: اللهم أنزل لنا فى الخمر

---

(١) فى ظلال القرآن ٢ / ٩٧٤ ، ٩٧٥ .
(٢) البقرة / ٢١٩ .
(٣) النساء / ٤٣ .
(٤) المائدة / ٩٠ ، ٩١ .
(٥) فتح البارى فى شرح صحيح البخارى ٨/ ٢٧٩ .
(٦) المائدة / ٩٣ .
(٧) فتح البارى للحافظ ابن حجر ٨ / ٢٨٠ والحديث عند أحمد .

بيانًا شافيًا ، وأصبح المسلمون يتوقعون فى كل وقت نزول بيان شافٍ فى الخمر ولو أنهم لم يمتنعوا عنها ، لكن عملية التخفيف منها نمت بالتأكيد خاصة بعد الآية الثالثة فى النساء ﴿ ... **لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ** ... ﴾ (١) كما ذكر سيد ـ رحمه الله .

ثم كانت الثالثة بكسر عادة الشراب وإيقاع التنافر بينها وبين فريضة الصلاة حين نزلت التى فى النساء ... والصلاة فى خمسة أوقات معظمها متقارب ، ولا يكفى ما بينها للسكر ثم للإفاقة ، وفى هذا تضييق لفرص المزاولة العملية لعادة الشراب ، وخاصة عادة الصبوح فى الصباح ، والنبوق عند العصر أو المغرب كما كانت عادة الجاهليين ، وفيه كسر لعادة الإدمان التى تتعلق بمواعيد التعاطى وفيه ـ وهو أمر له وزنه فى نفس المسلم ـ ذلك التناقض بين الوفاء بفريضة الصلاة فى مواعيدها ، والوفاء بعادة الشراب فى مواعيدها .

وكانت الآية الأخيرة التى أنهت موضوع الخمر من حياة المجتمع المسلم بآية واحدة .

لم يشهد تاريخ الأمم والشعوب على امتداد التاريخ حدثًا تربويًا يعدل هذا الحدث فى مدى الالتزام بالنص فى عادة مستأصلة متغلغلة فى أعماق وحنايا النفس البشرية ، ولا تزال البشرية تعانى إلى اليوم من هذا البلاء الفتاك ، وتعجز عن معالجته ، وستبقى عاجزة عن معالجته رغم كل الأبحاث الطبية والتوعية الإعلامية على خطره ، وحين تكتب عشرات الملايين من الصفحات فى التحذير من الخمر وأخطاره ، وعشرات الألوف من الكتب والمقالات فى محاربته ، تكفى آية واحدة لاجتثاث هذه العادة المستأصلة فى هذا المجتمع المسلم الجديد من جذوره ، كما يروى لنا أنس رضي الله عنه بقوله :

(كنت ساقى القوم فى منزل أبى طلحة ، فنزل تحريم الخمر ، فأمر مناديًا فنادى ، فقال أبو طلحة : اخرج فانظر ما هذا الصوت . قال : فخرجت فقلت : هذا منادٍ ينادى : ألا إن الخمر قد حرمت . فقال لى : اذهب فاهرقها . قال : فجرت فى سكك المدينة . قال : وكان خمرهم يومئذ الفضيخ (٢) . فقال بعض القوم : قتل قوم وهى فى بطونهم . قال : فأنزل الله تعالى : ﴿ **لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا** ... ﴾ (٣)) (٤) .

---

(١) النساء / ٤٣ .

(٢) الفضيخ : شراب يتخذ من البسر دون أن تمسه النار .

(٣) المائدة / ٩٣ .

(٤) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٨ / ٢٧٨ برقم (٤٦٢٠) .

وفى رواية أخرى عن أنس : (ما كان لنا خمر غير فضيخكم هذا الذى تسمونه الفضيخ . فإنى لقائم أسقى أبا طلحة وفلانًا وفلانًا ؛ إذ جاء رجل فقال : وهل بلغكم الخبر ؟ فقالوا : وما ذاك ؟ قال : حرمت الخمر . قالوا : أهرق هذه القلال يا أنس . قال : فما سألوا عنها ولا راجعوها بعد خبر الرجل) (١) .

ويجمع الحافظ ابن حجر بين الحديثين فيقول : (وظاهرهما التعارض ؛ لأن الأول يشعر بأن المنادى بذلك شافههم ، والثانى يشعر بأن الذى نقل لهم ذلك غير أنس . فنقل ابن التين عن الداودى أنه قال: لا اختلاف بين الروايتين ؛ لأن الآتى أخبر أنسًا ، وأنس أخبر القوم . وتعقبه ابن التين : بأن نص الرواية الأولى أن الآتى أخبر القوم مشافهة بذلك . قلت : فيمكن الجمع بوجه آخر ، وهو أن المنادى غير الذى أخبرهم ، أو أن أنسًا لما أخبرهم عن المنادى جاء المنادى أيضًا فى أثره فشافههم) (٢) .

إنها المعجزة حقًا أن يصل المجتمع الإسلامى إلى هذا المستوى من الانضباط والتلاحم والثقة ، فيكفى أن يسأل أبو طلحة رضي الله عنه عن النداء ، ويعود أنس ليقول : إن المنادى يذكر أن الخمر قد حرمت ، حتى يستجيب الجالسون المعاقرون للخمرة لخبر ابن الثالثة عشر من العمر ، ذلك الصبى المراهق ، فيصدر أمر أبى طلحة لأنس : اذهب فأهرقها ، وأبو طلحة زوج أم سليم ، أم أنس بن مالك ، فأنس يسقى القوم فى بيته ، وتسارع الناس فى إهراقها حتى جرت بها سكك المدينة ، دون أن ينتظروا حتى سماع الآية القرآنية ، فقد يكون التحريم بأمر نبوى دون نزول آية قرآنية ، فهو المصدق عن ربه فيما يحدث عنه .

هذا الخمر الذى كانوا يقضون عامهم فى تموينه؛ ليكون خمرًا معتقًا يشربون منه طيلة العام ، فمؤونة العام كلها تخرج وترمى خارج البيوت ، ولم يخطر بذهنهم أن يحتفظوا بها ليبيعوها ، وقد كلفتهم ثمنًا غاليًا حتى حصلوا عليها ، فتحريم الخمر لا يقتضى مباشرة إهراقها ولا نص بذلك ، ويمكن أن يتريثوا حتى يسألوا رسول الله ﷺ أن يبيح لهم بيعها ، لكنه الحس العجيب الذى كوّن لديهم هذا الفقه من قوله تعالى : ﴿ **فَاجتَنِبوه** ﴾ والاجتناب يقتضى : البعد عنه والتخلى عنه والنبذ له ، وليس اجتناب شربه فقط ؛ ولهذا سارعوا إلى ذلك حتى قبل وصول النص لجواب أنس أو لقول الرجل : حرِّمت الخمر ، فكما يقول النص : فما سألوا عنها ، ولا راجعوها بعد خبر الرجل .

---

(١) المصدر السابق (٤٦١٧) .

(٢) فتح البارى ٨ / ٢٨٠ .

ولكن الذى أقلقهم هو : خوفهم على إخوانهم الذين سبقوهم بإحسان ومضوا إلى ربهم ، والخمرة رجس ، والرجس فى بطونهم ، فهل هذا يحبط عملهم ؟ إنه التواد والتراحم بين الأحياء والشهداء الذين لا تزال آثار دمائهم لم تجف بعد .

(فعن جابر رضي الله عنه قال : صبح ناس غداة أحد الخمر ، فقتلوا من يومهم جميعًا شهداء وذلك قبل تحريمها) (١) .

والنص الآخر (قتل قوم وهى فى بطونهم) وفى رواية أحمد : (يا رسول الله ، قتلوا فى سبيل الله وماتوا على فرشهم وكانوا يشربونها) ، فجاء الجواب النبوى الذى أقرَّ عيونهم ونفوسهم : « لو حُرِّم عليهم لتركوه كما تركتموه ». وأنزل الله تعالى شفاءً لما فى الصدور فى قوله ـ عز وجل ـ : ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَّآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَّآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَّأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٢) .

ويحدثنا سيد ـ رحمه الله ـ عن الأثر النفسى للآيات القرآنية من خلال منهج التربية القرآنى فيقول :

والآن ننظر فى صياغة النص القرآنى والمنهج الذى يتجلى فيه منهج التربية والتوجيه ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ . وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴾ (٣) .

إنه يبدأ بالنداء المألوف فى هذا القطاع : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ لاستجاشة قلوب المؤمنين من جهة ، ولتذكيرهم بمقتضى هذا الإيمان من الالتزام والطاعة من جهة أخرى ، يلى هذا النداء الموحى تقرير حاسم على سبيل القصر والحصر ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ﴾ ، فهى دنسة لا ينطبق عليها وصف الطيبات التى أحلها الله ، وهى من عمل الشيطان ، والشيطان عدو الإنسان القديم ، ويكفى أن يعلم المؤمن أن شيئًا ما من عمل الشيطان حتى ينفر منه حسه ، وتشمئز منه نفسه ، ويجفل منه كيانه ، ويبعد عنه من خوف ويتقيه .

---

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٨ / ٢٧٧ برقم (٤٦١٨) .

(٢) المائدة / ٩٣ .

(٣) المائدة / ٩٠ ـ ٩٢ .

وفى هذه اللحظة يصدر النهى مصحوبًا كذلك بالإطماع في الفلاح ، وهى لمسة أخرى من لمسات الإيحاء النفسى العميق ﴿ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ثم يستمر السياق فى كشف خطة الشيطان من وراء هذا الرجس : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ .

بهذا ينكشف لضمير المسلم هدف الشيطان، وغاية كيده ، وثمرة رجسه . . . إنها إيقاع العداوة والبغضاء فى الصف المسلم ـ فى الخمر والميسر ـ كما أنها هى صد ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ عن ذكر الله وعن الصلاة ويا لها إذن من مكيدة !

وهذه الأهداف التى يريدها الشيطان أمور واقعة يستطيع المسلمون أن يروها فى عالم الواقع بعد تصديقها من خلال القول الإلهى الصادق بذاته ، فما يحتاج المسلم إلى طول بحث حتى يرى أن الشيطان يوقع العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر بين الناس ، فالخمر بما تُفقد من الوعى ، وبما تثير من عرامة اللحم والدم ، وبما تهيج من نزوات ودفعات ، والميسر الذى يصاحبها وتصاحبه بما يتركه فى النفوس من خسارات وأحقاد ؛ إذ المقمور لابد أن يحقد على قامره الذى يستولى على ماله أمام عينيه ، ويذهب به غانمًا وصاحبه مقمور مقهور . . . إن من طبيعة هذه الأمور أن تثير العداوة والبغضاء مهما جمعت بين القرناء فى مجالات من العربدة والانطلاق اللذين يخيل للنظرة السطحية أنها سعادة .

وأما الصد عن ذكر الله وعن الصلاة فلا يحتاجان إلى نظر ، فالخمر تنسى، والميسر يلهى ، وغيبوبة الميسر لا تقل عن غيبوبة الخمر عند المقامرين ، وعالم المقامر كعالم السكير، لا يتعدى الموائد والأقداح والقداح .

وهكذا عندما تبلغ هذه الإشارة إلى هدف الشيطان من هذا الرجس غايتها فى إيقاظ القلوب ـ قلوب ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ وتحفزها ـ يجيء السؤال الذى لاجواب له عندئذ إلا جواب عمر رضي الله عنه وهو يسمع : ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ ؟ فيجيب لتوه : انتهينا انتهينا .

ولكن السياق يمضى بعد ذلك يوقع إيقاعه الكبير : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ .

إنها القاعدة التى يرجع إليها الأمر كله ، طاعة الله وطاعة الرسول . . . الإسلام

الذى لا يبقى منه إلا الطاعة المطلقة لله والرسول ، والحذر من المخالفة ، والتهديد الملفوف : ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ . وقد بلَّغ وبيَّن فتحددت التبعة على المخالفين بعد البلاغ المبين .

إنه التهديد القاصم فى هذا الأسلوب الملفوف ، الذى ترتعد له فرائص المؤمنين ! إنهم حين يوصون ولا يطيعون ، لا يضرون أحدًا إلا أنفسهم ، لقد بلَّغ الرسول ﷺ وأدى ، ولقد نفض يديه من أمرهم ، إذن فما هو مسؤول عنهم ، وما هو بدافع عنهم عذابًا ـ وقد عصوه ولم يطيعوه ـ ولقد صار أمرهم كله إلى الله سبحانه وهو القادر على مجازاة العصاة المتولين .

إنه المنهج القرآنى يطرق القلوب ، فتنفتح له مغاليقها ، وتتكشف له فيها المسالك والدروب) [1] .

ولعل الصورة الواقعية التى تمت فى المدينة من جراء الخمر وأثره فى تهييج النفوس ، وإغاظة القلوب : تعطينا جوابًا شافيًا على فعل الخمر فى إثارة البغضاء فى النفوس ، وهى الصورة التى نقلها لنا على رضي الله عنه مع عمه ـ وأحب الناس له بعد رسول الله ـ حمزة بن عبد المطلب :

(كان لى شارف [2] من نصيبى من المغنم يوم بدر . . . فبينما أنا أجمع لشارفى من الأقتاب والغرائر والحبال ،وشارفاى مناخان إلى جنب حجرة رجل من الأنصار حتى جمعت ما جمعت ، فإذا أنا بشارفىَّ قد أُجبَّت [3] أسنمتهما ،وبُقرت خواصرهما، وأخذ من أكبادهما، فلم أملك عينىَّ . حين رأيت المنظر قلتُ : من فعل هذا ؟ قالوا : فعله حمزة بن عبد المطلب ، وهو فى هذا البيت فى شَرب [4] من الأنصار ، وعنده قينة وأصحابه . فقالت فى غنائها : « ألا يا حمز للشرف النِّواء » فوثب حمزة إلى السيف فأجبَّ أسنمتهما ، وبقر خواصرهما ، وأخذ من أكبادهما . قال على : فانطلقت حتى أدخل على رسول الله ﷺ وعنده زيد بن حارثة . وعرف النبى ﷺ الذى لقيت . قال : « مالك؟ » قلت : يا رسول الله ، ما رأيت كاليوم ، عدا حمزة على ناقتىَّ ، فأجب أسنمتهما ، وبقر خواصرهما ، وها هو ذا فى بيت معه شرب . فدعا النبى ﷺ بردائه فارتدى ، ثم انطلق يمشى ، واتبعته أنا وزيد بن حارثة ، حتى جاء البيت الذى فيه حمزة ، فاستأذن عليه ، فأذن له ، فطفق النبى ﷺ يلوم حمزة

(١) فى ظلال القرآن ٢ / ١٧٦ .
(٢) الشارف : الجمل .
(٣) أجبت : قطعت .
(٤) شرب ـ بفتح الشين ـ : قوم يشربون .

فيما فعل. فإذا حمزة ثمل محمرة عيناه من الشراب ، فنظر حمزة إلى النبى ﷺ ثم صعَّد النظر . فنظر إلى ركبته ، ثم صعَّد النظر ، فنظر إلى وجهه ، ثم قال حمزة: وهل أنتم إلا عبيد لأبى ؟ فعرف النبى ﷺ أنه ثمل ، فنكص رسول الله ﷺ على عقبيه القهقرى ، فخرج وخرجنا معه) (١) .

ولو أن هذا الأمر وقع فى الجاهلية ؛ لما انتهى دون عددٍ من القتلى ، فلطالما وقعت حروب لأتفه من ذلك . وما حرب البسوس عنا بسر ، ولو كان الحاكم فى الجاهلية وقال له أحد رعاياه : إن أنتم إلا عبيد أبى ، لأصدر أوامره بقط رأسه عن جسده ، فلا شىء يقطع الأرحام ، ويثير العداوة والبغضاء كالخمر والميسر ، ولعل الميسر بالذات ذا أثر أكبر من إثارة العداوة والبغضاء والحقد ، حين يتحكم الحظ فيه ، ويخسر المقامر على موائد القمار حاله دون ذنب إلا حمقه .

وإذا كان الخمر والميسر لا يزال حتى الآن هو الداء العضال ، والبلاء القاتل للأمم رغم مرور القرون تلو القرون ، وعجزت الأمم وفلاسفتها ومفكروها عن العلاج ، فنذكر بذلك عظمة هذا الدين الذى بنى هذه النفوس،ورباها وعافاها من تلك الأدواء .

ختام السنة الثالثة :

إننا ونحن فى شهر شوال من السنة الثالثة للهجرة ، لا نشهد حدثًا يذكر فى السيرة خلال هذين الشهرين : ذى القعدة وذى الحجة ، ولكن التقدير ـ والله أعلم ـ أن هذين الشهرين قد كان فيهما الحساب الختامى للعام ، كان فيهما نزول آيات آل عمران ، التى عرضت المسلمين الذين مضوا إلى أحد عرضًا شاملاً وافيًا من داخل قلوبهم ومنحنيات نفوسهم ، وسلوكهم المنطلق من تلك النفوس ، وعاش المسلمون بين يدى ربهم سبحانه ، يستمعون إلى قول الله تعالى فيهم ، وفى المحنة التى نزلت بهم وعرض أسبابها القريبة والبعيدة .

ابتدأت الآيات بمسح الجراح والهدهدة على الآلام بعد عرض يسير للماضى(٢) : **﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾** (٣) .

---

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧ / ٣١٦ برقم (٤٠٠٣) .
(٢) إذ أن آيات أحد ابتدأت من قوله تعالى : **﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ ... ﴾** .
(٣) آل عمران / ١٣٩ ، ١٤٠ .

وانتهت بعرض المفاصلة التامة بين المؤمنين والمنافقين :

﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (١) .

وانكب المؤمنون على كتاب الله يتلونه ويتمعنون فى معانيه ، ويعرضون أنفسهم على ضوئه (٢) . وينظرون من جهة ثانية إلى هذا الحزب الجديد الذى انبعث من بين ظهرانيهم ، من آبائهم وإخوانهم وأبنائهم ، وقد التف حول عنق عبد الله بن أبى ؛ ليقوم كل مؤمن بمحاولاته فى انتزاع هذا القريب من هذا الحزب الدنس ، الذى أسماه الله تعالى الخبيث ، وميزه عن الطيب .

ولئن كان التمييز بين الخبيث والطيب فى بدر هو تمييز بين المؤمنين والكافرين ، فإن التمييز بين الخبيث والطيب فى أحد هو بين المؤمنين والمنافقين.

إن مراجعة الحساب عقب أحد كانت ذات أهمية قصوى ، يرعاها رسول الله ﷺ، ويدفع بها إلى تجاوز المحنة ، وتجاوز الأخطاء ، والارتفاع إلى القمة العليا التى برزت فى أحد من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار .

وجاءت سورة النساء لتعالج مرحلة جديدة بعد أحد ، وتكمل البناء فتكاد تكون آياتها علاجًا لآثار غزوة أحد ، فيما نشأ فى المجتمع من أرامل ويتامى وأيامى، وما لهن من حقوق ، وفى عمليات الزواج وحقوق المرأة التى فقدت المعيل والناصر ، إلى معالجة موضوع النفاق تفصيلاً ، ومواجهته إلى الحث على الجهاد ومتابعة الدرب الصعب الشاق ، إلى مواجهة اليهود والنصارى الموجودين بين ظهرانى المسلمين ، وتفنيد دعاواهم وعقائدهم . لنبدأ مع بداية السنة الجديدة من الهجرة ، فى رؤية آثار هذه التربية القرآنية والنبوية وكيف فعلت فى هذه النفوس المتعبة الصابرة .

---

(١) آل عمران / ١٧٩ .

(٢) راجع الآيات وآثارها تفصيلاً فى: المنهج التربوى ، التربية الجهادية ج١ .

انتصارات المحرم
فـى السنــة الرابعــة

سرية أبى سلمة إلى بنى أسد :

قال الواقدى : حدثنى عمر بن عثمان بن عبد الرحمن بن سعيد بن يربوع ، عن سلمة بن عبد الله بن عمر بن أبى سلمة بن عبد الأسد ، وغيره . . . وعماد الحديث عن عمر بن عثمان عن سلمة قالوا :

شهد أبو سلمة بن عبد الأسد أحدًا ، وكان نازلاً فى بنى أمية بن زيد بالعالية حين تحول إلى قباء ومعه زوجته أم سلمة بنت أبى أمية ، فجرح بأحد جرحًا على عضده فرجع إلى منزله ، فجاءه الخبر أن رسول الله ﷺ سار إلى حمراء الأسد، فركب حماراً ، وخرج يعارض رسول الله ﷺ حتى لقيه حين هبط من العصبة [1] بالعقيق ، فسار مع النبى ﷺ إلى حمراء الأسد ، فلما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة انصرف مع المسلمين ورجع من العصبة ، فأقام شهراً يداوى جرحه حتى رأى أنه قد برأ ، ودمل الجرح على بغى[2] لا يدرى به، فلما كان هلال المحرم على رأس خمسة وثلاثين شهراً من الهجرة ، دعاه رسول الله ﷺ فقال : « اخرج فى هذه السرية فقد استعملتك عليها » ، وعقد له لواءً وقال: « سر حتى ترد أرض بنى أسد فأغِر عليهم قبل أن تلاقى عليك جموعهم » ، وأوصاه بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً ، فخرج معه فى تلك السرية خمسون ومائة .

والذى هاجه أن رجلاً من طيئ قدم المدينة يريد امرأة ذات رحم به من طيئ متزوجة رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ ، فنزل على صهره الذى هو من أصحاب رسول الله ﷺ ، فأخبره أن طليحة وسلمة ابنى خويلد تركهما قد سارا فى قومهما ومن أطاعهما بدعوتهما إلى حرب رسول الله ﷺ ؛ يريدون أن يدنوا للمدينة وقالوا : نسير إلى محمد فى عقر داره ، ونصيب من أطرافه ، فإن له سرحًا يرعى جوانب المدينة ، ونخرج على متون الخيل ، فقد أربعنا خيلنا [3] ونخرج على النجائب المخبورة [4] ، فإن

---

(١) العصبة : منزل بنى جحجبا غربى مسجد قباء . (٢) على بغى : على فساد .

(٣) أربعنا خيلنا : رعيناها فى الربيع . (٤) النجائب المخبورة : النياق الغزيرة اللبن .

أصبنا نهبًا لم ندرك ، وإن لاقينا جمعهم كنا قد أخذنا للحرب عدتها ، معنا خيل ولا خيل معهم ، ومعنا نجائب أمثال الخيل، والقوم منكوبون قد أوقعت بهم قريش حديثًا ، فهم لايستبلون (١) دهرًا، ولا يثوب لهم جمع (٢) ، فقام فيهم رجل منهم يقال له : قيس بن الحارث بن عمير فقال : ياقوم ، والله ما هذا برأى ! مالنا قِبَلَهم وتر وماهم نهبة لمنتحب ، إن دارنا لبعيدة من يثرب ، وما لنا جمع كجمع قريش ، مكثت قريش دهرًا تسير فى العرب تستنصرها ، ولهم وتر يطلبون ، ثم ساروا وقد امتطوا الإبل ، وقادوا الخيل ، وحملوا السلاح مع العدد الكثير ـ ثلاثة آلاف مقاتل سوى أتباعهم ـ وإنما جهدكم أن تخرجوا فى ثلاثمائة رجل إن كملوا ، فتغرون بأنفسكم ، وتخرجون من بلدكم ، ولا آمن أن تكون الدائرة عليكم ، فكاد ذلك أن يشككهم فى المسير ، وهم على ما هم عليه بعد .

فخرج به الرجل الذى من أصحاب رسول الله ﷺ إلى النبى ﷺ ، فأخبره ما أخبر الرجل ، فبعث رسول الله ﷺ أبا سلمة ، فخرج فى أصحابه ، وخرج معه الطائى دليلاً ، فأغذوا السير(٣) ، ونكب بهم عن سنن الطريق (٤)، وعارض الطريق ، وسار بهم ليلاً ونهارًا فسبقوا الأخبار ، وانتهوا إلى أدنى قطن(٥) ـ ماء من مياه بنى الأسد ـ هو الذى كان عليه جمعهم ، فيجدون سرحًا ، فأغاروا على سرحهم فضموه ، وأخذوا رعاءً لهم ـ مماليك ثلاثة ـ وأفلت سائرهم ، فجاؤوا جمعهم فخبروهم الخبر ، وحذروهم جمع أبى سلمة ، وكثروه عندهم ، فتفرق الجمع فى كل وجه ، وورد أبو سلمة الماء فيجد الجمع قد تفرق ، فعسكر وفرّق أصحابه فى طلب النعم والشاء ، فجعلهم ثلاث فرق ، فرقة أقامت معه ، وفرقتان أغارتا فى ناحيتين شتى ، وأوعز إليهم ألا يمعنوا فى طلب ، وألاّ يبيتوا إلا عنده إن سلموا ، وأمرهم ألاّ يفترقوا ، واستعمل على كل فرقة عاملاً منهم، فآبوا إليه جميعًا سالمين ، قد أصابوا إبلاً وشاءً ولم يلقوا أحدًا ، فانحدر أبو سلمة بذلك كله إلى المدينة راجعًا ، ورجع معه الطائى ، فلما ساروا ليلة قال أبو سلمة : اقتسموا غنائمكم ، فأعطى أبو سلمة الطائى الدليل رضاه من المغنم، ثم أخرج صفيًا (٦) لرسول الله ﷺ عبدًا ، ثم أخرج الخمس ، ثم قسم ما

(١) لايستبلون : لا يصحون أو تتحسن أحوالهم .

(٢) لا يثوب لهم جمع : لايرجع ويجتمع لهم جمع .

(٣) أغذوا السير : أسرعوا .

(٤) نكب بهم عن سنن الطريق : ترك الطريق الواضحة إلى طرق غير مطروقة .

(٥) قطن : جبل مازال معروفًا على الضفة اليسرى من وادى الرمة يمر به الطريق من المدينة إلى القصيم على قرابة ٣٣٠ كيلاً من المدينة .

(٦) الصفى : الذى يصطفيه الأمير لرسول الله ﷺ وهو غير الخمس .

بقى بين أصحابه فعرفوا سهما منهم ، ثم أقبلوا بالنعم والشاء يسوقونها حتى دخلوا المدينة .

قال عمرو بن عثمان : فحدثنى عبد الملك بن عمير عن عبد الرحمن بن سعيد عن عمر بن أبى سلمة قال : كان الذى جرح أبا سلمة أبو أُسامة الجُشمى، رماه يوم أحد بمعبلة (١) فى عضده ، فمكث شهراً يداويه فبرأ فيما نرى ، وبعثه رسول الله ﷺ فى المحرم على رأس خمسة وثلاثين شهراً إلى قطن، وغاب بضع عشرة ، فلما قدم المدينة انتفض الجرح ، فمات لثلاث ليالٍ بقين من جمادى الآخرة ، فغسل من العسيرة - بئر بنى أمية بين القرنين - ثم حمل من بنى أمية فدفن بالمدينة .

قال أبو عبد الله الواقدى : فحدثت عمر بن عثمان الجحشى ، فعرف السرية ومخرج أبى سلمة إلى قطن وقال :أما سمى لك الطائى ؟ قلتُ : لا . قال : هو الوليد بن زهير بن ذريف عم زينب الطائية ، وكانت تحت طليب بن عمير، فنزل الطائى عليه فأخبره خبره ، فذهب به طليب إلى النبى ﷺ فأخبره خبر بنى أسد ، وما كان من همومهم بالمسير ،ورجع معهم الطائى دليلاً وكان خرِّيتًا (٢)،فسار معهم أربعًا إلى قطن ، وسلك بهم غير الطريق لأن يُعمَّى الخبر على القوم ، فجاؤوا القوم وهم غارّون على صرمة (٣) فوجدوا الصرم قد نذِروا (٤)، وخافوهم فهم معدون ، فاقتتلوا فكانت بينهم جراحة وافترقوا ، ثم أغار الطائيون بعد ذلك على بنى أسد فكان بينهم أيضًا جراح ، وأصابوا لهم نعماً وشاءً ، فما تخلصوا منهم شيئًا حتى دخل الإسلام .

وفى رواية عن أيوب بن عبد الرحمن بن أبى صعصعة قال :

فوجدوا القوم قد جمعوا جمعًا فأحاط بهم أبو سلمة فى غماية الصبح ، وقد وعظ القوم - وأمرهم بتقوى الله - ورغبَّهم فى الجهاد وحضهم عليه ، وأوعز إليهم فى الإمعان فى الطلب ، وألف بين كل رجلين ، فانتبه الحاضر قبل حملة القوم عليهم ، فتهيؤوا وأخذوا السلاح - أو من أخذه منهم - وصفوا للقتال ، وحمل سعد بن أبى وقاص على رجل منهم فضربه فأبان رجله،ثم ذفَّف عليه(٥) ،وحمل رجل من الأعراب على مسعود بن عروة،فحمل عليه بالرمح فقتله،وخاف المسلمون على صاحبهم أن يسلب من ثيابه فحازوه إليهم، ثم صاح سعد : ما ينتظر ؟! فحمل أبو سلمة ،

---

(١) المعبلة : النصل العريض يجعله فى السهم . (٢) خرِّيتًا : دليلاً حاذقًا .

(٣) الصرمة : القطعة من الإبل ما بين العشرين إلى الخمسين .

(٤) نذِروا : علموا . (٥) ذفف عليه : أجهز عليه وقتله .

فانكشف المشركون على حاميتهم ، وتبعهم المسلمون ثم تفرق المشركون فى كل وجه ، وأخذوا ما خفَّ لهم من متاع القوم ، ولم يكن فى المحلة ذرية ، ثم انصرفوا راجعين إلى المدينة ، حتى إذا كانوا من الماء على مسيرة ليلة أخطؤوا الطريق فهجموا على نعم لهم فيهم رعاؤهم،وإنما نكبوا عن السنن ، فاستاقوا النعم ، واستاقوا الرعاء ، فكانت غنائمهم سبعة أبعرة .

فحدثنى ابن أبى سبرة عن الحارث بن الفُضَيل قال : قال سعد بن أبى وقاص : فلما أخطأنا الطريق استأجرنا رجلاً من العرب دليلاً يدلنا على الطريق ، فقال : أنا أهجم بكم على نعم ، فما تجعلون لى منه ؟ قالوا : الخمس . قال : فدلَّهم على النعم وأخذ خمسه .

١ ـ هذا الخط التربوى سبق أن تحدثنا عنه وهو اختيار الكفاءات العالية للمهمات الصعبة ، وهو يختلف عن الخط السابق الذى شهدناه كذلك فى عرض المهمة الصعبة ليتقدم إليها الرجال العظام ، ونجدنا هنا مع الخط الأول الذى تم فيه اختيار أبى سلمة ابن عبد الأسد رضي الله عنه لمواجهة بنى أسد ـ القبيلة العربية الكبيرة ـ المتمرسة بالقتال والخبيرة فيه ـ فشخص طليحة بن خويلد الأسدى وزعامته فى قومه ، والمعارك التى خاضها بهم ضد خصومهم: جعلت شهرته تتجاوز البيئة المحلية إلى البيئة العربية .

أما قائدنا أبو سلمة ، فلم يتح له فى العهد المكى أكثر من المسارعة للهجرة إلى الحبشة وإلى المدينة ، وأكثر من التحدى للمشركين فى عقر دارهم بعد عودته من الحبشة ، لم تكن هناك الدولة التى يتحرك فيها لتبرز طاقاته وعبقريته ، إنما كانت التربية النبوية تعده لمثل ذلك ، ويكفيه فى نصاعة شخصيته ابتداء : أن اختار الإسلام على الشرك تاركًا مواقع قبيلته ، منضمًا إلى محمد ﷺ وبنى هاشم ، وإن كان له فى بنى هاشم جذر ونسب ، فأمّه : برة بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ ، ولنشهد هذا التحدى ابتداءً لنأخذ من خلاله معالم شخصيته ، والتى كانت محط ثقة قائده لهذه المهمة الصعبة .

فكان أول من هاجر إلى المدينة من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين من قريش من بنى مخزوم : أبو سلمة بن عبد الأسد ، هاجر إلى المدينة قبل بيعة أصحاب العقبة بسنة ، وكان قدم على رسول الله ﷺ مكة من أرض الحبشة ، فلما آذته قريش وبلغه إسلام من أسلم من الأنصار خرج إلى المدينة مهاجراً .

قال ابن إسحاق : فحدثنى أبى إسحاق بن يسار عن سلمة بن عبد الله بن عمر بن أبى سلمة عن جدته أم سلمة زوج النبى ﷺ قالت :

لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة رحل لى بعيره ، ثم حملنى عليه ، وحمل معى ابنى سلمة بن أبى سلمة فى حجرى ، ثم خرج بى يقود بى بعيره، فلما رأته رجال بنى المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم قاموا إليه فقالوا : هذه نفسك غلبتنا عليها ، أرأيت صاحبتك هذه ؟ علام نتركك تسير بها فى البلاد ؟ فنزعوا خطام البعير من يده فأخذونى منه، قالت: وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد رهط أبى سلمة فقالوا : لا والله لا نترك ابننا عندها ؛ إذ نزعتموها من صاحبنا ، فتجاذبوا ابنى سلمة حتى خلعوا يده ، وانطلق به بنو عبد الأسد [1].

فهو يتحدى قومه فى هجرته وقد يئسوا من السيطرة عليه ومنعه من الهجرة ، لكنهم منعوا زوجته من ذلك ، وها هو يتحرك بجراحه بعد أحد فركب حماراً وخرج يعارض رسول الله ﷺ حتى لقيه حين هبط من العصبة بالعقيق ، فسار مع النبى ﷺ إلى حمراء الأسد .

٢ ـ ونعود إلى الحديث عن أسد فى البيئة العربية ، فقد اعتبرها رسول الله ﷺ واحدة من كبريات القبائل العربية الأربعة التى يعتد بها والتى تعتبر ذات خطر ونفوذ فى الأرض العربية آنذاك وهى : أسد وتميم وغطفان وهوازن ـ أو عامر بن صعصعة ـ وكلاهما واحد تقريبًا فعامر أضخم فروع هوازن .

يقول عليه الصلاة والسلام فيما يرويه عنه أبو هريرة رضي الله عنه : « أسلم وغِفار وشىء من مزينة وجهينة خير عند الله من أسد وتميم وهوازن وغطفان » [2] .

وفى رواية أخرى عن أبى بكرة رضي الله عنه : « أسلم وغِفار ومزينة خير من تميم وأسد وغطفان وعامر بن صعصعة » [3] .

ورسول الله ﷺ يجد نفسه الآن فى مواجهة هذه القبيلة .

ونشير ثانية إلى أن عددًا كبيرًا من الصحابة المهاجرين من الرعيل الأول هم أصلاً من أسد بن خزيمة وقد حالفوا بنى أمية ، فهم من قريش ولاءً ومن أسد نسبًا ، ذُكر عنهم :

كان ممن خرج فى الهجرة إلى المدينة فأوعبوا رجالهم ونساءهم ، وغلقوا دورهم فلم يبق منهم أحد إلا خرج مهاجراً : دار بنى غنم بن دودان بن أسد بن خزيمة ،

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ١٣٢ ، وقال المحقق فيه : « لم أجده عند غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع وسند رجاله ثقات » .

(٢) أحمد والبخارى ومسلم .

(٣) الترمذى ، وقال فيه : « هذا حديث حسن صحيح ». م ٥ باب المناقب (٣٩٥٢) .

ودار بنى أبى البكير ، ودار بنى مظعون [١] . ونذكر من أسمائهم: عبد الله بن جحش ، ويزيد بن رقيش ،وعكاشة بن محصن ، وأبو سنان بن محصن ، وسنان بن أبى سنان، وشجاع بن وهب ، وأخوه عقبة بن وهب ، وربيعة بن أكثم ، ومُحرِز بن نضلة ، وأربد بن حميرة . فهم عشرة وكلهم بدريون من جيل الاصطفاء الأول ، ولا ننسى أبا أحمد بن جحش والى رسول الله ﷺ على المدينة فى أكثر من غزوة ، الضرير العظيم .

ويذكر دائمًا علماء السير : أن بنى أسد هم ثُمْن المهاجرين يوم بدر [٢] .

فإذن رغم وجود هذا العدد الضخم من بنى أسد فى الصف الإسلامى ، فقد اختار رسول الله ﷺ أبا سلمة بن عبد الأسد لهذه المهمة الضخمة ، ولهذه المواجهة الخطيرة مع قائد من أكبر القادة العرب المشهورين آنذاك : طليحة بن خويلد الأسدى[٣] . ولما تندمل جراح أبى سلمة بعد ، فكم هى ثقة النبى ﷺ بأبى سلمة ابن عمته ، ولعل من أهم أسباب اختياره لذلك :هو هذه القرابة القريبة . فقد كان يعد لمثل هذه المهمات عمه حمزة رضي الله عنه الذى افتقده فى أحد وابن عمته عبد الله بن جحش الذى افتقده أيضاً فى أحد ، وعبيدة بن الحارث ابن عمه الذى افتقده فى بدر أيضًا ، وأما على رضي الله عنه فلم يضعه ـ عليه الصلاة والسلام ـ على رأس سرية حتى الآن وهو أقرب المقربين إليه لا لأنه أقل كفاءة من هؤلاء ، فهو كرَّم الله وجهه يرجح على الكثير منهم فضلاً وطاقة وخبرة ـ لكن سنه فى الخامسة والعشرين ربيعًا لا يحب ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يجعله أميرًا على الكثير من الصحابة الذين هم أكبر سنًا منه ، فقيادة السرية هنا إضافة إلى الجانب الخطير فيها ، فقد تبرز تشريفًا وتكريمًا لمن اصطفاه رسول الله ﷺ وهى كذلك ، ولا يريد عليه الصلاة والسلام أن يقدم لمواقع التشريف أقرب الناس وأحبهم إليه وهو دونهم سنا رغم أنه من أقدمهم سابقة وخبرة وقدَمًا فى الإسلام ، لكن عندما كان الأمر والخطورة والتضحية والموت ، فقد أعدَّه لذلك ـ عليه الصلاة والسلام ـ وتركه وحده فى الهجرة ينام فى فراشه ، وتركه وحده فى مكة يواجه الأهوال والأخطار، ويوزع الأمانات إلى أصحابها ، ويعود وحده مهاجرًا إلى المدينة كذلك ، وهو ابن الحادية والعشرين من عمره رضي الله عنه .

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣ / ٩٠ ، وفى السيرة لابن هشام ١٢٦/٢ .

(٢) كان عدد المهاجرين فى بدر خمسًا وثمانين رجلاً .

(٣) وصفه ابن الأثير فى أسد الغابة (٣ / ٦٥ ، ٦٦) بأنه كان من أشجع العرب ويعد بألف فارس . وكان عمر ابن الخطاب يقدر مزاياه العسكرية بدليل أنه كتب إلى النعمان بن مقرن : أن استعن فى حربك بطليحة ، وعمرو بن معدى كرب ، واستشرهما فى الحرب ، ولاتولهما من الأمر شيئًا ، فإن كل صانع أعلم بصناعته .

وعامل آخر من عوامل اختيار أبى سلمة بن عبد الأسد رضي الله عنه يبرز فى هذا الجانب: هو أنه شريف بنى مخزوم وسليلهم ، وخالد بن الوليد المخزومى، هو الذى قاد الهجوم المضاد فى أحد ، وقلب موازين المعركة ، وأوقع المحنة فى المسلمين ، وانتشر اسمه علمًا ضخمًا عسكريًا من أعلام القيادات فى الأرض العربية ، فليكن الذى يقود الهجوم على بنى أسد مخزوميًا كذلك ، ومن قبيلة خالد بن الوليد رضي الله عنه ويعرف العرب جميعًا أن بنى مخزوم فى قريش هم قادة المواجهة ضد الإسلام ، ولا ينسون على رأسهم الوليد بن المغيرة وحيد قريش ، وعمرو بن هشام فرعون هذه الأمة ، فبروز أبى سلمة فى الصف الإسلامى ، دفع لكل من يراود الإسلام قلبه من أبناء القبائل العربية أن يسارع إلى الانضمام إلى الصف الإسلامى ، ولو كانت قبيلته تحمل المواجهة ضد الإسلام ، كما هو حال أبى سلمة المخزومى - رضوان الله عليه - فهو المنهج التربوى النبوى فى الاصطفاء ، حيث تكون كل العوامل مدروسة ويتم الترجيح والتغليب بينها فى حسن اختيار القائد من صاحب البصيرة النافذة ، ومن النظرة الواحدة للمصطفى - عليه الصلاة والسلام - إمام المربين فى الوجود .

ونشير فى هذه السرية إلى اشتراك كثير من أعظم قيادات المهاجرين والأنصار تحت لواء أبى سلمة رضي الله عنه .

فعلى رأس جنوده من المهاجرين اثنان من العشرة المبشرين بالجنة وهما : سعد بن أبى وقاص ، وأبو عبيدة بن الجراح . وبقية الخيار من جيل بدر .

(فخرج معه فى تلك السرية خمسون ومائة منهم أبو سبرة بن أبى رهم - وهو أخو أبى سلمة لأمه ، أمه برة بنت عبد المطلب - وعبد الله بن سهيل بن عمرو ، وعبد الله ابن مخرمة العامرى، ومن بنى مخزوم معتب بن الفضل بن حمراء الخزاعى حليف فيهم، وأرقم بن أبى الأرقم من أنفسهم ، ومن بنى فهر : أبو عبيدة بن الجراح وسهيل ابن بيضاء (١) . وفيهم سعد بن أبى وقاص ، وأبو حذيفة بن عتبة ، وسالم مولى أبى حذيفة (٢) . ومن الأنصار : أسيد بن الحضير ، وعبّاد بن بشر ، وأبو نائلة ، وأبو عبس ، وقتادة بن النعمان ، ونضر بن الحارث الظفرى ، وأبو قتادة ، وأبو عياش الزرقى ، وعبد الله بن زيد ، وخبيب بن يساف ومن لم يسم لنا) (٣) .

---

(١) المغازى للواقدى ١/ ٣٤٣ . (٢) المصدر نفسه ١/ ٣٤٥ .

(٣) بمراجعة الأسماء التى ذكرت آنفًا من المهاجرين واشتركت فى السرية : ظهر أنهم جميعًا بدريون شاركوا فى غزوة بدر ، بينما برزت وجوه جديدة شابة من الأنصار لم تحضر بدرًا مثل : أبى نائلة وأبى قتادة وأبى عياش الزرقى .

فالسيد الثانى والثالث فى الأوس بعد سعد بن معاذ رضي الله عنه وهما أسيد بن حضير ، وعباد بن بشر ، كانا من جنود أبى سلمة رضي الله عنه فى هذه السرية إضافة إلى سادات الخزرج المشاركين فيها ، ونستطيع القول : إن خيرة الطاقات والخبرات المسلمة العسكرية والحربية انضمت تحت لواء أبى سلمة رضي الله عنه لتواجه خيرة الطاقات والخبرات العسكرية والحربية عند بنى أسد تحت لواء طليحة بن خويلد الأسدى ، ونعود إلى صورة المسلمين فى البيئة العربية بعد أحد من خلال النقاش فى القيادة العليا لبنى أسد حول موضوع التحرك لمواجهة المسلمين :

انقسم قيادة بنى أسد إلى رأيين فى موضوع المواجهة مع المسلمين :

الرأى الأول يقول : القوم منكوبون قد أوقعت بهم قريش حديثًا ، فهم لا يستبلون دهراً ، ولا يثوب لهم جمع .

الرأى الثانى يقول : ما هم نهبة لمنتهب ، مكثت قريش دهراً تسير فى العرب تستنصرها ولهم وتر يطلبونه ، ثم ساروا وقد امتطوا الإبل ، وقادوا الخيل وحملوا السلاح مع العدد الكثير ـ ثلاثة آلاف مقاتل سوى أتباعهم ـ وإنما جهدكم أن تخرجوا فى ثلاثمائة رجل إن كملوا فتفرون بأنفسكم وتخرجون من بلدكم،ولا آمن أن تكون الدائرة عليكم .

والرأيان متفاوتان فى الحكم على قوة المسلمين ، لكن بنى أسد حين رجح عندهم الرأى الأول فى المواجهة ليس من قبيل الحرب الشاملة بين القوتين ، فهذا لم يكن طليحة يحلم به ، لكن من باب حرب العصابات فى النيل من أطراف المدينة ، أو استلاب النعم والشاء عندهم ، كما فعل أبو سفيان بن حرب بعد بدر حين غزا ظاهر المدينة وأخذ بعض نعمها وقتل راعيها .

وتطالعنا سرعة المبادرة العجيبة التى نشهدها لدى سيد القادة ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى التحرك السريع الخاطف والاستفادة من خبرة الطائى الذى نقل الخبر ، ومعرفته بأرض بنى أسد جيران طيئ ، وبين طيئ وأسد ثارات سابقة وأيام ملاحم قديمة ـ يريد الطائى من خلالها أن يثأر لقبيلته بالمسلمين ، ولذلك اختار ـ عليه الصلاة والسلام ـ نخبة منتقاة من صفه ، وجعل أميرها أبا سلمة بن عبد الأسد ؛ لتضرب العدو فى مواقعه قبل أن يتحرك ، وتجهز عليه وهو يعد الخطة للهجوم على المسلمين .

وكان أبو سلمة رضي الله عنه عند مستوى ثقة قيادته به ، فهو لم يكتف أن يرد قطن ماء بنى أسد ويعسكر حيث كان الجمع وتفرق ، ويعود ظافراً إلى المدينة ، فقد اقتضى وجوده فى أعماق البادية أن يغامر فى ملاحقة العدو داخل أرضه ، والرجال العظام هم

الذين يفكرون بهذا المستوى ، فالجندى الكفء هو الذى ينفذ الأوامر الحرفية الملقاة عليه من قائده ، أما القائد الفذ فهو الذى يدرس الموقف بصفته القيادية ، ويضع الخطة المناسبة حسب مقتضيات الظروف ، ويسعى إلى تحقيق هدف عسكرى معين وراء هذه الخطة وهذا التحرك . ،فطبيعة الأوامر الصادرة له من قيادته النبوية تجعل مهمته قد انتهت من خلال تفرق جمع بنى أسد .

كان الأمر النبوى الأول : « اخرج فى هذه السرية فقد استعملتك عليها » .

وكان الأمر النبوى الثانى : « سر حتى ترد أرض بنى أسد فأغر عليهم قبل أن تلاقى عليك جموعهم » .

وكان التوجيه النبوى الثالث : أوصاه بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً .

فإذن هى قيادة تفويض مطلقة ضمن الهدف العام ، وهو يقدِّر حدود تنفيذ هذا الهدف ، ورأى ﷺ أن هذا الأمر غير كافٍ بتفرق الجمع قبل لقاء المسلمين، ولو أخذنا بالرواية الثانية أنهم صفوا للقتال فنعالج تلك الرواية فيما بعد ؛ لأن لها من الخطة ما يناسبها ، فنحن إذن الآن مع الرواية الأولى: فتفرق الجمع فى كل وجه ، وورد أبو سلمة الماء ، فوجد الجمع قد تفرق . . .

إنه الانتقال من الخطة الدفاعية إلى الخطة الهجومية . ففى مفهوم الحرب العربية ، لم يحقق أبو سلمة من هدفه شيئًا ، ولابد من النيل من العدو بأى شكل حتى يذوق طعم قوة المسلمين،ويتجرع غصص الهزيمة أمامهم ،فماذا فعل ﷺ ؟ وما هى خطته ؟

فرَّق أصحابه فى طلب النعم والشاء ، فجعلهم ثلاث فرق :

- فرقة أقامت معه .

- وفرقتان أغارتا فى ناحيتين شتى .

وكانت الأوامر الموجهة للفرقتين المغيرتين محددة :

١ ـ أوعز إليهما ألا يمعنا فى الطلب .

٢ ـ ألا يبيتوا إلا عنده إن سلموا .

٣ـ ألا يفترقوا .

ونُفِّذت الخطة كاملة ، فآبوا إليه جميعًا سالمين ، قد أصابوا إبلاً وشاء ولم يلقوا أحدًا ، فليس الهدف مواجهة العدو ، إنما الهدف الإغارة على نعمه وشائه ، وبث الذعر والخوف فى صفه ، وقد تحقق الهدف .

أما الرواية الأخرى : فتشير إلى الصدام ووقوع القتلى بين الطرفين ، فحمل سعد ابن أبى وقاص على رجل فضربه فأبان رجله ، ثم ذفَّف عليه ، وحمل رجل من الأعراب على مسعود بن عروة فحمل عليه بالرمح فقتله ، وخاف المسلمون على صاحبهم أن يسلب من ثيابه فحازوه إليهم ، ثم صاح سعد : ماينتظر ؟ فحمل أبو سلمة، فانكشف المشركون على حاميتهم وتبعهم المسلمون ، ثم تفرَّق المشركون فى كل وجه . . . ثم انصرفوا راجعين إلى المدينة حتى إذا كانوا من الماء على مسيرة ليلة أخطؤوا الطريق ، فهجموا على نَعَم لهم فيهم رعاؤهم ، وإنما نكبوا عن سننهم فاستاقوا النعم واستاقوا الرعاء ،وكانت غنائمهم سبعة أبعرة .

والرواية الأولى: تؤكد الغنائم ضمن خطة وتصميم ، والرواية الثانية : تتحدث عنها نتيجة خطأ تم فى الطريق ، لكن النتيجة فى كلتا الروايتين : أن كان نصيب كل صحابى سبعة أبعرة بعد فرز صفى رسول الله ﷺ ، وفرز الخمس له، وفرز نصيب للطائى الذى دلَّهم على الطريق .

وبدلاً من أن تتناقل الركبان آثار هجوم بنى أسد على المدينة ، فتسارع القبائل الأخرى للغزو والإغارة عليها ، وراحت تتناقل وصول المسلمين إلى أعماق البادية ، ومضارب بنى أسد حوالى ثلاثمائة وعشرين كيلاً بعيدًا عن المدينة باتجاه القصيم ، والعودة بالغنم والشاء منها دون أن ينال المسلمين سوء أو مكروه ، فتقلب تفكير قيادات القبائل كله فى هذا المجال .

ونعود مع قائدنا المظفر أبى سلمة بن عبد الأسد رضي الله عنه إلى المدينة ، لنودعه إلى مثواه الأخير ، فينضم إلى قافلة الشهداء الكبار فى أحد ،فعن عمر بن أبى سلمة قال :

(كان الذى جرح أبا سلمة بن عبد الأسد أبو أسامة الجشمى رماه يوم أحد بمعبلة فى عضده ، فمكث شهرًا يداويه فبرأ فيما نرى ، وبعثه رسول الله ﷺ فى المحرَّم على رأس خمسة وثلاثين شهرًا إلى قطن ، وغاب بضع عشرة ، فلما قدم المدينة انتقض الجرح ، فمات لثلاث بقين من جُمادى الآخرة ، فغُسِّل من اليسيرة - بئر بنى أمية - بين القرنين . . . ثم حمل من بنى أمية فدفن بالمدينة) (١) .

فقد كتب الله هذا النصر على يديه قبل أن يلقى وجه ربه متأثرًا بجراحه .

قال الواقدى : (وأصحابنا يقولون : أبو سلمة من شهداء أحد للجرح الذى جُرح يوم أحد ثم انتقض به،وكذلك أبو خالد الزرقى من أهل العقبة ،جرح باليمامة جرحًا ،

---

(١) المغازى للواقدى ١ / ٣٤٣ .

فلما كان فى خلافة عمر انتقض به الجرح فمات فيه ، فصلى عليه عمر وقال : هو من شهداء اليمامة ؛ لأنه جرح فى اليمامة) (١) .

سرية عبد الله بن أنيس :

(. . . فى بعثه ﷺ عبد الله بن أنيس بن أسعد الجهنى القضاعى الأنصارى السَّلَمى ـ بفتحتين ـ حليف بنى سلمة من الأنصار رضي الله عنه إلى سفيان بن خالد بعُرَنَة(٢)) .

روى أبو داود بسند حسن والبيهقى وأبو نعيم عن عبد الله بن أنيس رضي الله عنه ومحمد ابن عمر عن شيوخه ، والبيهقى وأبو نعيم عن موسى بن عُقبة عن ابن شهاب ، وعن عروة قال شيوخ محمد بن عمر :

خرج عبد الله بن أنيس من المدينة يوم الإثنين لخمسٍ خلون من المحرم على رأس خمسة وثلاثين شهراً من مهاجر رسول الله ﷺ. قالوا : واللفظ لمحمد بن عمر:

قال عبد الله بن أنيس رضي الله عنه: دعانى رسول الله ﷺ : فقال : « إنه بلغنى أن سفيان بن خالد بن نبيح يجمع لى الناس ليغزونى وهو بنخلة أو عُرَنة فأته فاقتله » فقلت : يارسول الله : صفه لى حتى أعرفه . فقال : « آية ما بينك وبينه أنك إذا رأيته هبته وفرقت منه ، ووجدت له قشعريرة ، وذكرت الشيطان » قال عبد الله : وكنت لا أهاب الرجال فقلت : يا رسول الله ، ما فرِقت من شيء قط . فقال : « بلى آية ما بينك وبينه ذلك أن تجد له قشعريرة إذا رأيته » . قال : واستأذنت رسول الله ﷺ أن أقول . فقال : « قل ما بدا لك » وقال : « انتسب لخزاعة » فأخذت سيفى ، ولم أزد عليه ، وخرجت أعتزى لخزاعة ، حتى إذا كنت ببطن عرنة ، لقيته يمشى ووراءه الأحابيش ، فلما رأيتُه هبتُه وعرفته بالنعت الذى نعت لى رسول الله ﷺ . فقلت : صدق رسول الله ، وقد دخل وقت العصر ، فصليت وأنا أمشى أومئ برأسى إيماء ، فلما دنوت منه قال : من الرجل ؟ فقلت : رجل من خزاعة ، سمعت بجمعك لمحمد فجئت لأكون معك عليه .قال : أجل إنى لفى الجمع له ، فمشيت معه وحدَّثته فاستحلى حديثى وأنشدته وقلت:عجبًا لما أحدث محمد من هذا الدين المحدث ، فارق الآباء وسفَّه أحلامهم ، قال : لم ألق أحدًا يشبهنى ولا يُحسِن قتاله ، وهو يتوكأ على عصا يهد الأرض ، حتى انتهى إلى خبائه ، وتفرق عنه أصحابه إلى منازل قريبة منه ، وهم يطيفون به فقال : هلم يا أخا خزاعة ، فدنوت منه. فقال: اجلس، فجلست معه

(١) المصدر السابق ١/ ٣٤٣ ـ ٣٤٥ .

(٢) عُرَنة : هو وادى بحزاء عرفات ، وبطن عرفة هو بطن الوادى الذى فيه مسجد عَرَفَة .

حتى إذا هدأ الناس ونام اغتررته ، وفى أكثر الروايات أنه قال : فمشيت معه حتى إذا أمكننى حملت عليه السيف فقتلته وأخذت رأسه ثم أقبلت فصعدت جبلاً ، فدخلت غارًا ، وأقبل الطلب من الخيل ، والرجال تمعج [1] فى كل وجه وأنا مكتمن[2] فى الغار ، وضربت العنكبوت على الغار ، وأقبل رجل معه إداوته ونعله فى يده وكنت خائفًا . فوضع إداوته ونعله ، وجلس يبول قريبًا من فم الغار ، ثم قال لأصحابه : ليس فى الغار أحد ، فانصرفوا راجعين ، وخرجت إلى الإداوة فشربت ما فيها ، وأخذت النعلين فلبستهما . فكنت أسير الليل وأكمن النهار حتى جئت المدينة، فوجدت رسول الله ﷺ فى المسجد . فلما رآنى قال : « أفلح الوجه » فقلت : وأفلح وجهك يارسول الله ،فوضعت الرأس بين يديه ،وأخبرته خبرى ،فدفع إلىَّ عصا وقال : « تخصَّر بها فى الجنة فإن المتخصرين فى الجنة قليل » ، فكانت العصا عند عبد الله بن أنيس حتى إذا حضرته الوفاة أوصى أهله أن يدرجو العصا فى أكفانه ، ففعلوا ذلك . قال ابن عقبة : فيزعمون أن رسول الله ﷺ أُخبِر بقتل عبد الله بن أنيس سفيان بن خالد قبل قدومه . عبد الله بن أنيس رضي الله عنه [3] . وكانت غيبته ثمان عشرة ليلة وقدم يوم السبت لسبع بقين من المحرم [4] .

فى الشهر نفسه الذى تم فيه اختيار أبى سلمة بن عبد الأسد رضي الله عنه لمواجهة أسد فى أرضهم وباديتهم،وبعد خمسة أيام فقط يتم اختيار عبد الله بن أنيس رضي الله عنه لقتل سفيان ابن خالد الهذلى على مشارف مكة . والهدف من السريتين واحد ، إذ أن كليهما لضرب تجمعات العدو قبل تحركها ، وتفريقها فى مهدها ، وإذا كان الهدف واحدًا من السريتين ، لكن خطة تحقيق الهدف اختلفت اختلافًا جذريًا لكليهما كذلك ، فبينما اقتضى إنهاء جموع بنى أسد سرية تحمل نخبة من أكبر القياديين والفدائيين قوامها مائة وخمسون رجلاً ، اقتضى إنهاء جموع هذيل ، والأحابيش معهما سرية قوامها بطل واحد فقط هو : عبد الله بن أنيس ، وفى الوقت الذى حدد فيه عليه الصلاة والسلام مهمة السرية الأولى بالإغارة على ديار بنى أسد وتفتيت جموعهم والظفر بنعمهم وشائهم ، حدَّد فيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ مهمة عبد الله بن أنيس بقتل سفيان بن خالد الهذلى فقط ، وكلتا الخطتين تحققان الهدف المذكور آنفًا من تفريق تجمعات العدو، وبث الرعب فى صفوفه.

---

(1) معج البحر معجة أى : ماج واضطرب.
(2) مكتمن : مختبئ .
(3) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦/ ٥٧ ـ ٥٩ .
(4) المواهب اللدنية للقسطلانى ١/ ١٠٠ .

ولابد أن نشير أن مهمة عبد الله بن أنيس رضي الله عنه فى قتل سفيان، ليست لأن ابن أنيس خارق فى قوته لا مثيل له فى الصف الإسلامى ، فكل الرعيل الأول وجيل بدر، والرجال العظام الذين انضموا بعدها وبرزوا فى أحد ، يعتبر ابن أنيس واحداً من طبقتهم وفى مستواهم ، ويمكن أن يقوم بمهمته أى واحد منهم. ونعود بعدها لابن أنيس رضي الله عنه .

(هو عبد الله بن أنيس الجهنى أبو يحيى المدنى حليف بنى سلمة من الأنصار ، وقال ابن الكلبى ،والواقدى : هو من ولد البرك بن وبرة من قضاعة ، واسم جده أسعد بن حرام بن .... بن كعب بن تيم ، وقد دخل ولد البرك فى جهينة ، فقيل له: الجهنى والقضاعى والأنصارى والسَّلَمى) (١) .

وأعظم مناقبه التى نعرفها عنه من قبل : هو أنه من رعيل العقبة الأول ، ومن السبعين الذين بايعوا رسول الله ﷺ على حرب الأحمر والأسود من الناس ، ولم يتح له أن يحضر بدراً ، إذ أن بدراً فاتت الكثير من فضلاء الصحابة .

(ومن بنى نابى بن عمرو بن سواد بن غنم بن كعب بن سَلَمة : ثعلبة بن غنمة ابن عدى بن نابى شهد بدراً ، وقتل بالخندق شهيداً ... وعبد الله بن أنيس حليف لهم من قضاعة ...) (٢) .

وكل ما نعرفه عنه ماعدا بيعة العقبة : أنه كان مع الشباب المسلم المتحمس من بنى سلمة ، والذين كانوا يكسرون أصنام بنى سلمة ، وذلك قبل قيام الدولة المسلمة ، فكان من طراز معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن جبل ، وكلاهما علمان عظيمان من أعلام بنى سلمة .

يقول الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ عنه فى الإصابة : (وكان أحد من يكسر أصنام بنى سلمة من الأنصار) (٣) .

فهو لا يحمل إذن تاريخاً عريقاً من الحرب والجهاد والخبرة القتالية ، ولا ندرى إن كان برز فى حرب بعاث أو شارك فيها ، لكن عظمة القيادة النبوية هى التى تفرست فيه هذه القدرة العظيمة على مثل هذه المهمة ، وعلى منهج الخط التربوى الموازى من خلال اختيار الطاقات ، لامن خلال بروزها ، وكما اختار ـ عليه الصلاة والسلام ـ أبا سلمة المهاجر ، اختار ابن أنيس الأنصارى لمهمة مكافئة .

---

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة م ٢ ، ج ٤ / ٣٧ ت(٤٥٥٠) .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ١١٧ .

(٣) الإصابة م ٢ . ج ٤ / ٣٧ .

وحين نلج فى الحديث عن المهمة العظيمة تُطالعنا هذه المحادثة التالية بين القائد الأعظم ﷺ وبين جنديه القيادى عبد الله بن أنيس .

قال عبد الله : دعانى رسول الله ﷺ فقال : « إنه بلغنى أن سفيان بن خالد بن نبيح يجمع لى الناس ليغزونى وهو بنخلة أو بعرنة فأته فاقتله ». فقلت : يارسول الله صفه لى حتى أعرفه . فقال : « آية ما بينك وبينه أنك إذا رأيته هبته ، وفرِقت منه ، ووجدت له قشعريرة وذكرت الشيطان » .

قال عبد الله : وكنت لا أهاب الرجال ، فقلت: يارسول الله ، ما فرقت من شىء قط . قال : « بلى آية ما بينك وبينه ذلك أن تجد له قشعريرة إذا رأيته » .

فقد اختاره ـ عليه الصلاة والسلام ـ دون مقدمات ، ودون تمهيد مسبق ، وذكر له كل ما يحتاجه لتنفيذ مهمته ، حدَّد له مكانها بنخلة أو بعُرَنة ، وحدَّد له أسبابها ،وهو جمع سفيان بن خالد الهذلى الجموع لحرب محمد ﷺ، وحدَّد له هدفها ، وهو قتل سفيان .

ويقف الجندى العظيم،والعبقرى القائد أمام هذه المهمة ، يسأل سؤلاً واحدًا فقط، هو الذى يحتاجه لمهمته ، كيف يقتله وهو لا يعرفه ، لحكمة عظيمة أجَّل ـ عليه الصلاة والسلام ـ الإجابة على هذا السؤال ، وكان من الممكن أن يتابع حديثه بقوله :« وآية ما بينك وبينه. . . » لكنه وقف ـ عليه الصلاة والسلام ـ قاصدًا يؤجل هذه المعلومة المهمة.

قال ابن أنيس : صفه لى يارسول الله حتى أعرفه، فقال : « آية ما بينك وما بينه أنك إذا رأيته هبته ، وفرِقت منه، ووجدت له قشعريرة وذكرت الشيطان » .

فالعنصر النفسى هو الذى اختاره ـ عليه الصلاة والسلام ـ علامة له ، ولم يصف له صفاته الجسدية أو المعنوية ، إنما كان الوصف أعماق عبد الله بن أنيس وأغواره فى مهمة أول ما تحتاج إلى نفس شجاعة مقدامة ، ورباطة جأش عالية تنفذ داخل أرض العدو ، وليست مهمة تجسس وانتهى الأمر ، بل مهمته قتل القيادة العليا عنده .

وهنا يرد الحديث عن عظمة هذا الاصطفاء النبوى لهذا الطراز الرفيع من الرجال ، فعبد الله بن أنيس يعلم نفسه من هى ، ويعلم أنه لايهاب الرجال ، ويعلم أنه لايخاف شيئًا قط ، لكن كيف عرفها رسول الله ﷺ فيه ، فهو معدن النبوة أشرف المعادن فى الوجود وأعلاها وأغلاها ، فهو خيار الله من خلقه جميعًا .

ولكن عظمة التربية من جهة أخرى هى التى تعنينا فى هذا المقام ، فرسول الله ﷺ يريد أن يطامن من اعتداد ابن أنيس وثقته ، ويريد أن ينزله إلى أرض الواقع فى ملاقاة سفيان « إذا رأيته، هبته ، وفرِقت منه ، ووجدت له قشعريرة . . . ». فليس هيبة

وانتهى الأمر ، كما يهاب المرء من الإقدام على أمر جديد لايعرف أبعاده ، أو هيبة الوهلة الأولى ثم تزول هذه الهيبة ، لكن فَرِقت منه ، أى خِفتَ ، وكيف ذلك وهو لايخاف شيئًا قط ؟! وليس خوفًا عاديًا فقط ، بل وجدت له قشعريرة . إنه الخوف الذى يصل لحد الرعب والفزع ، فرسول الله ﷺ يتحدث عن صفاتٍ هى أبعد ما تكون عن نفس عبد الله بن أنيس رضي الله عنه ولأول وهلة ، استفطم ابن أنيس هذا الوصف لشخصه ، مع أنه يعدُّ لمهمة ضخمة تتناسب مع شجاعته وكفاءته ، ويقول للمصطفى ـ عليه الصلاة والسلام ـ: يارسول الله ما فرِقت من شىء قط . ويعود ـ عليه الصلاة والسلام ـ ليؤكد له المعنى نفسه ، ولكنه لاينفى شجاعته ، ولاينفى بطولته ، ولاينفى إقدامه ، ولو لم يكن كذلك ما وقع الاختيار عليه ، ولكنه التوجيه الربانى والتوجيه النبوى الذى يمضى دائمًا فى توازن عجيب بين تفجير الطاقات ودفع الإبداع من جهة ،وبين كسر العُجب ، وتحطيم الغرور والاعتداد بالطاقات من جهة ثانية .

ولايسأل ابن أنيس بعدها عن شىء ، وأتاه توجيه نبوى واحد أن انتسب لخزاعة، واستأذن قائده شىء واحد فقط أن يقول . فقال: « قل ما بدا لك » .

فأخذت سيفى ولم أزد عليه فمثل هذه المهمة لاتحتمل أن يثقل نفسه بالنبل أو الرمح ، وكيف يستطيع أن يتحرك بعدها بمهمتة الخاطفة ، ورفقة السيف للمسافر أمر مألوف عند الناس ، وهذا لا يجعله مقاتلاً أو محاربًا ، ودليل ذلك أن قريشًا اشترطت على محمد ﷺ فى الحديبية ألايدخل مكة إلا بسلاح المسافر : السيوف فى القرب .

وإنما اشترطوا ذلك ليكون علمًا وأمارة للسلم ؛ إذ كان دخولهم صلحًا (١) .

(وخرجت أعتزى لخزاعة حتى إذا كنت ببطن عُرَنَة لقيته يمشى وراءه الأحابيش ، فلما رأيتُه هبته وعرفته بالنعت الذى نعت لى رسول الله ﷺ فقلت: صدق الله ورسوله ، وقد دخل وقت العصر حين رأيته ، فصليت وأنا أمشى أومئ برأسى إيماء . . .) .

وابن أنيس ذو قدم راسخة فى الفقه فى دين الله ،ولا غرو فهو من الرعيل الأول من الأنصار الذين شهدوا العقبة،وهو لاينسى فى أشد حالات خوفه وفزعه صلاة العصر ، ويصليها إيماء برأسه حفاظًا على سرية المهمة التى جاء من أجلها ،وألا يكشف أحد أنه على دين محمد فيُقتل قبل أن يقتل .قال :من الرجل ؟ قلت:رجل من خزاعة سمعت بجمعك لمحمد فجئت لأكون معك عليه ، قال : أجل إنى لفى الجمع له .

ولا يكفى لمثل هذه المهمة الشجاعة الفائقة فقط ، ولايكفى لها القدم الراسخة فى الفقه فقط ، فلابد لها من الإضافة إلى ذلك اللباقة وحسن الحديث والقدرة على التأثير

---

(١) المواهب اللدنية للقسطلانى ١/ ١٣١ .

على الخصم ، حتى يتمكن الفدائى من الوصول إلى المواقع الأولى للعدو ، وإلا لو فقد العنصر الثالث؛لبقى فى مؤخرة القوم،وحيل بينه وبين الوصول إلى قيادة العدو ، بَلْه أن يؤثر عليه بسحر حديثه وحلاوة منطقه (فمشيت معه وحدثته ، فاستحلى حديثى وأنشدته وقلت : عجبًا لما أحدث محمد من هذا الدين المحدث ، فارق الآباء وسفَّه أحلامهم . قال : لم ألق أحدًا يشبهنى ولا يحسن قتاله) .

فقد ارتفع فى ذهن سفيان إلى مستواه فى الشجاعة والذكاء والعبقرية ، فلم يستطع أن يكبح جماح نفسه من طلب الخلوة مع هذا الخزاعى اللبيب الأريب،والشجاع الفذ .

(وهو يتوكأ على عصا يهد الأرض حتى انتهى إلى خبائه ، وتفرَّق عنه أصحابه إلى منازل قريبة منه ، وهم يطيفون به . فقال : هلم يا أخا خزاعة فدنوت منه . فقال : اجلس . فجلست معه حتى إذا هدأ الناس ونام اغتررته) وفى أكثر الروايات أنه قال : (فمشيت معه حتى إذا أمكننى حملت عليه السيف فقتلته وأخذت رأسه) .

إنه لو كشف أمره بعد القتل وقبض عليه فقُتِل ومُثل به ، لكانت المهمة ناجحة مائة فى المائة ؛ لأن الهدف هو قتله ، لكن هذه الشخصية العظيمة التى نفَّذت مهمتها فى خباء القائد نفسه وبين حراسه وحجابه الذين يطيفون به ؛ من المهارة والتدريب بحيث استطاع أن يأخذ الرأس ، وأخذ الرأس وحده مع السيف معيق لحركته ، ولكن ليس على الأبطال وصناديد الرجال الذى استطاع أن ينقذ من بين حراب العدو المشهورة ، وسيوفهم المتلمظة .

(حتى إذا أمكننى حملت عليه السيف فقتلته وأخذت رأسه ، ثم أقبلت فصعدت جبلاً فدخلت غارًا ، وأقبل الطلب من الخيل ، والرجال تمعج فى كل وجه ، وأنا مكتمن فى الغار ، وضربت العنكبوت على الغار) .

وأى عجب فى ذلك وهو فى مهمة رسول الله ﷺ ، وقد اجتمع عليه الكفر يريده ليقطعه إربًا إربًا ، وعين الله ساهرة ترمقه وترعاه ، أى عجب أن تكلف العنكبوت فتنسج بيتها فى فم الغار ، وكل هذه المخلوقات أمم أمثالنا .

وإذا عرفت النملة بمهمة سليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ فخطبت قومها قائلة : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ (١) فلا غرابة أن تعرف العنكبوت بمهمة رسول رسول الله ﷺ ، فتضرب بنسجها على فم الغار بأمر ربها سبحانه ، هو الحى له ما فى السموات وما فى الأرض .

---

(١) النمل / ١٨ .

وإذا خاف الصدِّيق الأعظم رضي الله عنه على رسول الله ﷺ في الغار، وقال لصاحبه : لو نظـر أحدهم إلى خلل قدميه لرآنا ، فأجابه سيد الوجود ﷺ : « لا تحزن إن الله معنا » وأنزل الله سكينته على أبى بكر ، وأيده بجنود لم تروها ، فلا عجب أن يخاف ابن أنيس الذى لايهاب الرجال ولايخاف شيئًا قط ، فهو ليس بأكمل من أبى بكر - رضوان الله عليه .

وأقبل رجل معه إدواته ونعله فى يده وكنت خائفًا ، فوضع إداوته ونعله ، وجلس يبول قريبًا من فم الغار ، ثم قال لأصحابه : ليس فى الغار أحد . فانصرفوا راجعين .

(وخرجت إلى الإداوة فشربت ما فيها وأخذت النعلين فلبستهما) وما أحوجه إلى النعلين فى مهمة شاقة قرابة أربعمائة كيل على الأقدام (فكنت أسير الليل وأكمن النهار حتى جئت المدينة) .

قدرة فى التنفيذ ، وسرعة فى الأداء ، ولطالما سمع بقصة الهجرة وقصة الغار مع رسول الله ﷺ ، فغدت هذه جزءًا من ثقافته وخبرته العسكرية والفدائية ، ومن أجل هذا كمن فى الغار حتى هدأ الطلب، واطمأن أن القوم قد انصرفوا راجعين عن الغار ، كان ذلك المسير الليلى ، والاختباء فى النهار ، إذ يتناقل القوم خبره ويضعوا الجوائز لمن يأتى برأسه حتى جئت المدينة ، فلما رآنى قال : « أفلح الوجه » .فقلت : وأفلح وجهك يا رسول الله .

فوضعت الرأس بين يديه وأخبرته خبرى .

وكانت الفراسة النبوية فى ابن أنيس ، وقدرته الفائقة لهذه المهمة درسًا لكل القادة فى الأرض فى حسن اختيار الطاقات والكفاءات للمسؤوليات المناسبة .

وكان الوسام الخالد الذى أهداه رسول الله ﷺ لجنديه العظيم من أرفع الأوسمة فى الأرض ؛ لأنه أخذ إجازة الخلود فى الجنة .

فدفع إلىَّ عصا وقال : « تخصر بها فى الجنة فإن المتخصرين فى الجنة قليل » .

لقد كانت البشارة فى الجنة ثمنًا لهذه المهمة الكبرى ، وكانت العصا التى ترافقه فى الجنة علامة بينه وبين رسول الله ﷺ فى دار الخلود ، ومن أجل هذا لم ينس أبدًا أن يأخذها معه إلى الدار الآخرة .

فكانت العصا عند عبد الله بن أنيس حتى إذا حضرته الوفاة أوصى أهله أن يدرجوا العصا فى أكفانه ففعلوا ذلك .

واهتزت مكة للنبأ الرعيب ، فقد وصل محمد ﷺ إلى جوارها فى عرفة ، وقتل

فتاكًا طاغية ، حليفًا لها ، كانت تقيم على غزوه لمحمد ﷺ الوزن الكبير.

وسنرى فيما بعد آثار مقتل هذا الجبار العنيد الذى يذكر الشيطان من يراه ، فهو أحد شياطين الإنس فى دنيا العرب آنذاك .

محنتا صفر

« سريتا بئر معونة والرجيع (١) »

روى البخارى عن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال :

(بعث النبى ﷺ سرية عينًا ، وأمَّر عليهم عاصم بن ثابت ـ وهو جد عاصم بن عمر بن الخطاب ـ فانطلقوا حتى إذا كان بين عُسفان ومكة ذُكروا لحى من هذيل يقال لهم : بنو لحيان ، فتبعوهم بقريب من مائة رام فاقتصوا آثارهم، حتى أتو منزلاً نزلوه ، فوجدوا فيه نوى تمر تزودوه من المدينة فقالوا : هذا تمر يثرب ، فتبعوا آثارهم حتى لحقوهم ، فلما انتهى عاصم وأصحابه لجؤوا إلى فدفد ،وجاء القوم فأحاطوا بهم فقالوا: لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا ألا نقتل منكم رجلاً . فقال عاصم أما أنا فلا أنزل فى ذمة كافر، اللهم أخبر عنا نبيك ، فقاتلوهم حتى قتلوا عاصمًا فى سبعة نفر بالنبل ، وبقى خبيب وزيد ورجل آخر فأعطوهم العهد والميثاق ، فلما أعطوهم العهد والميثاق نزلوا إليهم ، فلما استمكنوا منهم ، حلوا أوتار قسيهم فربطوهم بها ، فقال الرجل الثالث الذى معهما : هذا أول الغدر ، فأبى أن يصحبهم ، فجروه وعالجوه على أن يصحبهم فلم يفعل فقتلوه ، وانطلقوا بخبيب وزيد حتى باعوهما بمكة ، فاشترى خبيبًا بنو الحارث بن عامر بن نوفل ، وكان خبيب هو الذى قتل الحارث يوم بدر ، فمكث عندهم أسيرًا حتى إذا أجمعوا قتله، استعار موسى من بعض بنات الحارث ليستحد بها ، فأعارته . قالت : فغفلت عن صبى لى ، فدرج إليه حتى أتاه فوضعه على فخذه ، فلما رأيته فزعت فزعة عرف ذلك منى وفى يده الموسى ، فقال : أتخشين أن أقتله ، ما كنت لأفعل ذلك إن شاء الله ، وكانت تقول : ما رأيت أسيرًا قط خيراً من خبيب ، لقد رأيته يأكل من قطف عنب وما بمكة يومئذ ثمرة ، وإنه لموثق بالحديد ، وما كان إلا رزق رزقه الله ، فخرجوا به من الحرم ليقتلوه قال : دعونى أصلى ركعتين، ثم انصرف إليهم فقال : لولا أن تروا ما بى جزع من الموت لزدت . فكان أول من سنَّ الركعتين عند القتل هو . ثم قال : اللهم احصهم عددًا ثم قال :

ما أن أبالى حين أقتل مسلما ... على أى شقٍ كان فى الله مصرعى
وذلك فى ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شِلو ممزع

---

(١) الرجيع : ماء لهذيل على سبعة أميال من الهدأة ، انظر :فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧ / ٣٧٨ ، ٣٧٩ ح (٤٠٨٦) .

ثم قام إليه عقبة بن الحارث فقتله ، وبعثت قريش إلى عاصم ليؤتوا بشىء من جسده كانوا يعرفونه ، وكان عاصم قتل عظيما من عظمائهم يوم بدر ، فبعث الله عليه مثل الظلة من الدبر فحمته من رسلهم ، فلم يقدروا منه على شىء . وعن سفيان عن عمروٍ سمع جابراً يقول : الذى قتل خبيبًا هو أبوسروعة) (١) .

١ ـ تناقلت الركبان مقتل سفيان بن خالد الهذلى ، وصار حديث السُّمَّار، وأدركت هذيل أن مقتل قائدها على يد رجل من أصحاب محمد ﷺ سيلحق بها العار إن لم تثأر لذلك .

وحين أورد البخارى أن سبب سرية الرجيع هو إرسالها عيونًا إلى مكة ليأتوا رسول الله ﷺ بخبر قريش . ذكر أئمة المغازى مثل ابن عقبة وابن إسحاق وابن سعد ومحمد ابن عمر الواقدى سببًا آخر لها . ذا صلة وثيقة بمقتل سفيان بن خالد . هو أقرب احتمالاً من السبب الأول وذلك كما رواه الواقدى :

(مشت بنو لحيان من هذيل بعد مقتل سفيان بن خالد بن نبيح الهذلى إلى عضل والقارة ـ وهما حيَّان ـ (٢) فجعلوا لهم فرائض(٣) أن يقدموا على رسول الله ﷺ فيكلموه،فيخرج لهم نفراً من أصحابه يدعونهم إلى الإسلام، قالوا : فنقتل من أردنا ، ونسير بهم إلى قريش بمكة فنصيب منهم ثمنًا فإنه ليس شىء أحب إليهم من أن يؤتوا بأحد من أصحاب محمد يمثلون به ويقتلونه بمن قتل منهم ببدر ، فقدم سبعة نفر من عضل والقارة مقرِّين بالإسلام فقالوا : يارسول الله ، إن فينا إسلامًا فاشيًا فابعث معنا نفرًا من أصحابك يقرئوننا القرآن ، ويفهموننا الإسلام فبعث معهم رسول الله ﷺ سبعة نفر ، وأمَّر عليهم مرثد بن أبى مرثد ، ويقال: عاصم بن ثابت بن أبى الأقلح ، قلت: وهو الصحيح فقد رواه البخارى عن أبى هريرة . . . .) (٤) .

وعملية الانتساب إلى الإسلام بنية الغدر تبرز لأول مرة فى الأرض العربية ، ولم تكن بالحسبان ، وأراد الله تعالى لهذه السرية أن تلقى الشهادة . ولم يعلم الله تعالى نبيه نية الغدر عند هؤلاء ، فمضوا دعاة إلى الله تعالى ، واصطفاهم الله شهداء عنده .

٢ ـ ونقف عند أمير السرية عاصم بن ثابت بن أبى الأقلح رضي الله عنه فهو بطل معلم وعبقرى مجرب .

---

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧/ ٣٧٨ ، ٣٧٩ (٤٠٨٧) .

(٢) حيَّان : بطنان من بنى الهون بن خزيمة بن مدركة . وبنو لحيان من هذيل بن مدركة .

(٣) فرائض: جميع فريضة وهو البعير المأخوذ فى الزكاة ، ثم اتُّبع حتى سمى البعير فريضة فى غير الزكاة.

(٤) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦/ ٦٤ .

فقد روى الحسن بن سفيان لما كان ليلة العقبة ـ أو ليلة بدر ـ قال ﷺ لمن معه : «كيف تقاتلون؟» فقام عاصم بن ثابت فأخذ القوس والنبل وقال : إذا كان القوم قريبًا من مائتى ذراع كان الرمى ، وإذا دنوا حتى تنالهم الرماح كانت المداعبة حتى تقصفت. فإذا تقصفت وضعناها وأخذنا السيوف ، وكانت المجالدة ، فقال ﷺ : « هكذا نزلت الحرب ،من قاتل فليقاتل كما يقاتل عاصم » شهد العقبة وبدرًا وأحدًا (١) .

وإذا كان قتلى أحد ثلاثة وعشرين قتيلاً من المشركين . فقد ظفر عاصم بثلاثة منهم على الأقل . أما الاثنان فهما من حملة لواء المشركين يوم أحد وهما أخوان :

(وقاتل عاصم بن ثابت بن أبى الأقلح . فقتل مسافع بن طلحة وأخاه الجلاس بن طلحة كلاهما يشعره سهمًا (٢) ، فيأتى أمه سُلافة (٣) ، فيضع رأسه فى حجرها فتقول: يابنى ، من أصابك ؟ فيقول : سمعت رجلاً يقول حين رمانى : خذها وأنا ابن أبى الأقلح . فنذرت إن أمكنها الله من رأس عاصم أن تشرب فيه الخمر ، وجعلت لمن جاء برأسه مائة ناقة) (٤) .

أما القتيل الثالث : فكان أبا عزة الجمحى الذى قتله عاصم بأمر رسول الله ﷺ ، وكان عاصم هو الذى أسره . (وكان الذى أخذه عاصم بن ثابت فأمره النبى ﷺ فضرب عنقه) (٥) . وبلغ من شدة عاصم فى الله تعالى أنه نذر أن لايمس مشركًا ولا يمسَّه مشرك . وستشهد فيما بعد كيف رعى الله تعالى عبده عاصم فى هذا النذر بعد موته . كما رعاه فى حياته .

(ويكنى عاصم أبو سليمان،وآخى رسول الله ﷺ بينه وبين عبد الله بن جحش ، وشهد عاصم بدرًا وأحدًا ، وثبت يوم أحد مع رسول الله ﷺ حين ولى الناس ، وبايعه على الموت ، وكان من الرماة المذكورين من أصحاب رسول الله ﷺ ، وقتل يوم أحد من أصحاب اللواء من المشركين الحارث ، ومسافعًا ابنى طلحة بن أبى طلحة ، وأمهما سلافة بنت سعد بن الشهيد من بنى عمرو بن عوف ، فنذرت أن تشرب فى قحف رأس عاصم الخمر ، وجعلت لمن جاء برأسه مائة ناقة) (٦) .

وسلافة بنت الشهيد أوسية من بنى عمرو بن عوف ، وعاصم بن ثابت أوسى من

---

(١) شرح المواهب اللدنية للزرقانى ٣/ ٦٤ .

(٢) يشعره سهمًا : أى يصيبنه فى جسده .

(٣) سلافة بنت الشهيد : أنصارية أوسية زوج طلحة بن أبى طلحة ، أسلمت يوم فتح مكة .

(٤) المواهب اللدنية للقسطلانى ١/ ١٠٣ وأورده عن الطبرى .

(٥) المغازى للواقدى ١/ ٣٠٩ .

(٦) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣/ ٤٦٢ .

بنى عمرو بن عوف ، فقد كانت المصيبة عندها أكثر فجاعة ، وأشد ضراوة ؛ لأنها تعرف عاصمًا وهو من رهطها .

(فحمل إلى أمه سلافة بنت سعد بن الشهيد وهى مع النساء فقالت: من أصابك ؟ قال: لا أدرى سمعته يقول: خذها وأنا ابن أبى الأقلح! قالت سلافة: أقلحى والله ، أى من رهطى) [1] .

هذا البطل العظيم هو أمير سرية الرجيع .

٣ ـ أما الستة الذين معه فهم : مرثد بن أبى مرثد الغنوى ، وعبد الله بن طارق حليف بنى ظفر ، وخبيب بن عدى من بنى عمرو بن عوف ، وزيد بن الدثنة البياضى ، وخالد بن البكير الليثى ، ومعتِّب بن عبيد ، فكلهم بدريون من الجيل الرائد ، فيهم اثنان من المهاجرين من الرعيل الأول وهما : مرثد بن أبى مرثد الغنوى حليف حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه وخالد بن البكير الليثى حليف بنى عَدى .

أما مرثد (فقد آخى رسول الله ﷺ بينه وبين أوس بن الصامت وشهد مرثد يوم بدر على فرس يقال له : السبل [2] .قال محمد بن عمر: وشهد أحدًا وقتل يوم الرجيع شهيدًا وكان أميرًا [3] فى هذه السرية وذلك فى صفر على رأس ستة وثلاثين شهرًا من مهاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة) [4] .

وأما خالد بن البكير فقد استشهد أخوه فى الإسلام معه وهما فى السرية نفسها وهو زيد بن الدثنة رضي الله عنه البياضى الخزرجى .

أما الأخوان الآخران فى هذه السرية ، واللذان استشهدا فيها كذلك فهما عبد الله ابن طارق حليف بنى ظفر من الخزرج ، ومعتِّب بن عبيد حليف بنى ظفر كذلك وهو أخو عبد الله بن طارق لأمه .

وسابعهم خبيب بن عدى رضي الله عنه الأنصارى الأوسى شهد بدرًا ، وذكره ابن سعد فيمن شهد أحدًا . فهم من غُرَّة الصحب وأكرمهم على الله تعالى . هذا وتدل الروايات على أنهم كانوا عشرة (والظاهر أن الثلاثة كانوا تبعًا فلم يحصل الاعتناء بتسميتهم) [5] .

---

(١) المغازى للواقدى ١/٢٢٨ .

(٢) والصحيح أنه لم يكن فى بدر إلا فرسين للمقداد بن عمرو وللزبير بن العوام .

(٣) وهو مخالف لما فى صحيح البخارى من أن أمير السرية هو عاصم بن ثابت .

(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣/٤٨ .

(٥) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦/٦٣ .

٤ ـ وعندنا روايتان حول الغدر الذى تم بهم ،الأولى : ما قاله أبو هريرة وعروة وابن عقبة (فغدروا بهم فنفروا لهم ،وفى لفظ: فاستصرخوا عليهم قريبًا من مائة رام، وفى رواية فى الصحيح فى الجهاد : فنفروا لهم قريبًا من مائتى رجل) والجمع واضح بأن تكون المائة الأخرى غير رماة .

وأما الثانية : فهى التى رواها أبو معشر فى مغازيه : (أن الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ نزلوا بالرجيع سحرًا ، فأكلوا تمر عجوة نواه فى الأرض ، وكانوا يسيرون الليل ويكنون النهار فجاءت امرأة من هذيل ترعى غنمًا فرأت النوى فأنكرت صفرهن،وقالت: هذا تمر يثرب ، فصاحت فى قومها : قد أتيتم . فاقتصوا آثارهم حتى نزلوا منزلاً فوجدوا فيه نوى تمر تزودوه من المدينة فجاؤوا فى طلبهم فوجدوهم قد ركنوا إلى الجبل) (١) . (فلم يرع القوم إلا بالرجال قد غشوهم بأيديهم السيوف . فلما أحس بهم عاصم وأصحابه لجؤوا إلى فِدفد (٢) بواد يقال له : غِران (٣)) (٤) .

ولابد من الإشارة إلى أن هذا الغدر مرفوض فى البيئة العربية بين قبيلتين ليس بينهما حرب ولاثارات،وليس بين عضل والقارة وبين المسلمين ثارات أو دماء أو حرب . فهى خيانة لا تألفها البيئة العربية آنذاك ، وكان غدر هؤلاء المرافقين أنهم : استصرخوا عليهم هذيلاً فى ديارهم حسب المؤامرة المبيتة بين الفريقين ؛ ليأخذوا ثأرهم بمقتل سفيان بن خالد .

٥ ـ وانقسمت السرية إلى موقفين تجاه العهد والميثاق الذى أعطاه لهم المشركون.

أما عاصم بن ثابت أمير السرية ومرثد بن أبى مرثد وخالد بن البكير ، فقد رفضوا العهد بلسان أميرهم عاصم قائلين : والله لا نقبل من مشرك عقدًا ولا عهدًا أبدًا . وأخذوا سيوفهم وراحوا يقاتلون عدوهم ، وعاصم أميرهم يرتجز :

ما علتى وأنا جلد نابل (٥) ... والقوس فيها وتر عنابل (٦)
تزل عن صفحتها المعابل (٧) ... الموت حق والحياة باطل

(١) المصدر السابق ٦/ ٦٤ ، ٦٥ .
(٢) فدفد وفى لفظ قردد : وهو المرتفع من الأرض .
(٣) وغِران : واد بناحية عسفان .
(٤) سبل الهدى والرشاد ٦/ ٦٤ ، ٦٥ .
(٥) النابل : صاحب النبل ، ومن رواه باذل أى قوى .
(٦) عنابل : غليظ شديد .
(٧) المعابل : جمع معبل وهو نصل عريض طويل .

وكل ما حمٌّ (١) الإله نازل   بالمرء والمرء إليه آيل (٢)

إن لم أقاتلكم فأمى هابل (٣)

وقال كذلك وهو يقاتلهم ويرتجز :

أبو سليمان ومثلى رامى   وكان قومى معشراً كراما

ثم قاتل القوم حتى قتل وقُتِل صاحباه(٤) .

وكان لعاصم رضي الله عنه عند ربه رجاءان دعاهما قبل أن يلقاه .

قال : أما أنا فلا أنزل فى ذمة كافر ، اللهم إنى أحمى لك اليوم دينك . فاحم لى لحمى ، اللهم أخبر عنا رسولك .

فهو يريد رضي الله عنه : أن يطمئن قائده إلى أنه لم يخن العهد ، ولم يقصّر فى الأمانة ، ولم ينكل عن الميثاق ، وإنما مضى غدرًا وغيلة ، ورفض أن ينزل فى ذمة كافر ، هذا ما يريده من دنياه قبل أن يودعها ، وليس له إلا ربه جل وعلا أن يبلغه لرسوله فى هذه الصحراء المهلكة ، وكان طلبه الثانى : أن يعينه على الوفاء بنذره فلا يمس مشركًا ، ولا يمسَّه مشرك أبدًا « اللهم إنى أحمى لك اليوم دينك ، فاحم لى لحمى » .

ولنشهد نذر سلافة بنت سعد أن تشرب فى قحف عاصم الخمر ، ونذر عاصم بن ثابت ألا يمس مشركًا ولا يمسَّه مشرك ، ولنشهد كذلك دعوته الحرَّى أن يبلغ ربُه رسوله ما جرى .

(قال إبراهيم بن سعد كما رواه أبو داود الطيالسى: «فاستجاب الله تعالى لعاصم ، فأخبر رسول الله ﷺ خبره وخبر أصحابه بذلك يوم أصيبوا » وفى حديث أبى هريرة رضي الله عنه كما فى الصحيح : « وأُخبر رسول الله ﷺ يوم أصيبوا خبرهم . فقاتلوهم فرَمَوْهم حتى قتلوا عاصمًا فى سبعة نفر بالنبل ، وبقى خبيب وزيد وعبد الله بن طارق. كما عند ابن إسحاق . قال ابن إسحاق وغيره : فلما قتل عاصم أرادت هذيل أخذ رأسه ليبيعوه من سلافة بنت سعد بن شهيد ـ وأسلمت بعد ذلك ـ وكانت قد نذرت حين قتل ابنها مسافع والجلاس ابنى طلحة لئن قدرت لتشربن الخمر فى

---

(١) حمَّ : قدَّر .

(٢) آيل : راجع .

(٣) هابل : فاقد .

(٤) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٢٤٤ .

قحفه . . . وفى حديث أبى هريرة فى الصحيح : وبعثت قريش إلى عاصم ليؤتوا بشىء من جسده يعرفونه، وكان عاصم قتل عظيمًا من عظمائهم يوم بدر ـ قال الحافظ : لعله عقبة بن أبى معيط ، فإن عاصمًا قتله صبراً بإذن رسول الله ﷺ بعد أن انصرفوا من بدر ـ وكأن قريشًا لم تشعر بما جرى لهذيل من منع الدَّبْر [1] لها من أخذ رأس عاصم . فأرسلت من يأخذه أو عرفوا بذلك ، ورجوا أن تكون الدبر تركته فيتمكنوا من أخذه) انتهى .

(فبعث الله تعالى عليه مثل الظلة من الدَّبْر يطير فى وجوههم ويلدغهم فحمته من رسلهم فلم يقدروا منه على شىء ، انتهى . فلما حالت بينهم وبينه قالوا : دعوه حتى يمسى . فتذهب عنه فنأخذه ، فبعث الله تبارك وتعالى الوادى فاحتمله فذهب به ، وكان عاصم رضي الله عنه قد أعطى الله عهدًا ألا يمس مشركًا ولا يمسه مشرك ، فبرَّ الله ـ عز وجل ـ قسمه ، فلم يروه ولم يصلوا منه إلى شىء .

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول حين بلغه خبره : يحفظ الله تبارك وتعالى العبد المؤمن بعد وفاته كما يحفظه فى حياته) (٢) .

لقد أصبح حديث عاصم ونذره،وحديث سلافة ونذرها ، وحديث سرية الرجيع . تتناقله الركبان فى مضارب البادية العربية ، وأصبح الحديث عن رسول الله ﷺ وجيشه ودعوته وجنده وسراياه هو الخبر الأول الذى يتصدر الجزيرة العربية من أقصاها لأقصاها . فهو الذى هزَّ ركام القرون ، وطغى على كل الأحاديث عن أيام العرب وثاراتهم .

٦ ـ وبمقدار ما شهدنا روعة عاصم رضي الله عنه وبطولته فى رفضه عهد المشركين ، وقتاله العدو ، بمقدار ما نشهد عظمة خبيب بن عدى وزيد بن الدثنة وهما أسيران فى العدو ، ونشهد سريان روح محمد ﷺ فى كل ذرة من ذراة كيانهما ، وذلك من خلال مقتلهما. سريان الحب والتفانى والتضحية،الذى تجسد بهذه المواقف .

قتل زيد بن الدثنة :

قال ابن إسحاق وابن سعد : فاشترى زيدًا صفوان بن أمية ـ وأسلم بعد ذلك ـ ليقتله بأبيه ـ أمية بن خلف ـ وحبسه عند ناسٍ من بنى جمح ، ويقال : عند نسطاس غلامه . فلما انسلخت الأشهر الحرم بعثه صفوان مع غلامه نسطاس إلى التنعيم

---

(١) الدَّبْر : اسم لجماعة النحل .

(٢) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحى ٦/ ٦٥ ، ٦٦ .

وأخرجه من الحرم ليقتله ، واجتمع رهط من قريش ، منهم أبو سفيان بن حرب . فقال أبو سفيان حين قُدِّم ليُقتل : أنشدك الله يازيد أتحب أنَّ محمداً عندنا الآن مكانك تضرب عنقه وأنك فى أهلك ؟ قال : والله ما أحب أن محمداً الآن فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه ، وأنى جالس فى أهلى ، فقال أبو سفيان : ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً . ثم قتله نسطاس ، وأسلم بعد ذلك .

وذكر ابن عقبة أن زيداً وخُبيبًا قتلا فى يوم واحد ، وأن رسول الله ﷺ سمع يوم قتلا وهو يقول : « وعليكما السلام ورحمة الله » (١) .

قالوا : وكان زيد بن الدثنة عند آل صفوان بن أمية محبوسًا فى حديد ، وكان يتهجد بالليل ويصوم بالنهار ، ولا يأكل شيئًا مما أتى به من الذبائح فشقَّ ذلك على صفوان ، وكانوا قد أحسنوا إساره فأرسل إليه صفوان : فما الذى تأكل من الطعام ؟ قال : لست آكل مما ذبح لغير الله ، ولكنى أشرب اللبن ، فأمر له صفوان بعسٍ من لبن عند فطره فيشرب منه حتى يكون مثلها فى القابلة ، فلما خرج به وبخُبيب فى يوم واحد التقيا ، ومع كل واحد منهما فئام من الناس ، فالتزم كل منهما صاحبه ، وأوصى كل واحد منهما صاحبه بالصبر على ما أصابه . . . ثم جعلوا يقولون لزيد : ارجع عن دينك المحدث ، واتبع ديننا ونرسلك !قال : لا والله لا أفارق دينى أبداً (٢) .

مقتل خبيب بن عدى :

(قال أبو هريرة كما فى الصحيح : فاشترى خبيباً بنو الحارث بن عامر بن نوفل ، وقال ابن عقبة : واشترك فى ابتياع خبيب ، زعموا أبا إهاب بن عزيز ، وعكرمة بن أبى جهل ، والأخنس بن شريق ، وعبيدة بن حكيم ، وأمية بن أبى عتبة ، وصفوان ابن أمية وبنو الحضرمى ، وهم أبناء من قتل من المشركين يوم بدر ، وقال ابن إسحاق: فابتاع خبيباً حجير بن أبى إهاب التميمى حليف بنى نوفل وكان أخا الحارث بن عامر لأمه . . . فجلس خبيب فى بيت امرأة يقال لها : ماوية مولاة حجير بن أبى إهاب ـ وأسلمت بعد ذلك ـ فأساؤوا إساءة فقال لهم : ما يصنع القوم الكرام هنا بأسيرهم فأحسنوا إليه بعد .

وروى ابن سعد عن موهب مولى الحارث أنهم جعلوا خبيباً عنده ، فكأنه زوج ماوية . قالت ماوية كما عند محمد بن عمر ، وهب كما عند ابن سعد أنهما قالا لخبيب: ألك حاجة ؟ فقال : نعم لا تسقونى إلا العذب ، ولا تطعمونى ما ذبح على النصب ، وتخبرونى إذا أرادوا قتلى .

(١) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحى ٦/ ٦٧ .
(٢) المغازى لمحمد بن عمر الواقدى ١ / ٣٦٢ .

وروى البخارى عن بعض بنات الحارث بن عامر - قال : خلف فى الأطراف : اسمها زينب - وابن إسحاق ومحمد بن عمر عن ماوية قالت زينب: ما رأيت أسيراً قط خيراً من خبيب ، لقد رأيته يأكل من قطف عنب وما بمكة يومئذ ثمرة ، وإنه لموثق فى الحديد ، وما كان إلا رزقًا رزقه الله تعالى خبيبًا ، وقالت ماوية : اطلعت عليه من صير الباب وإنه لفى الحديد ، وإن فى يده لقطفًا من عنب مثل رأس الرجل يأكل منه ، وما أعلم فى أرض الله تعالى عنبًا يؤكل . زاد محمد بن عمر : كان خبيب يتهجد بالقرآن فكان يسمعه النساء فيبكين ويرفقن عليه .

فلما انسلخت الأشهر الحرم ، وأجمعوا على قتله قالت ماوية - كما عند محمد بن عمر - : فأتيته فأخبرته فوالله ما اكترث بذلك وقال:ابعثى بحديدة أستصلح بها . قالت: فبعثت إليه بموسى مع أبى مسين بن الحارث . . . فلما ولى الغلام قلت : والله أدرك الرجل ثأره ، أى شىء صنعت ؟ بعثتُ هذا الغلام بهذه الحديدة فيقتله ويقول رجل برجل ، فلما ناوله الحديدة أخذها من يده ثم قال : لعمرك ما خافت أمك غدرى حين بعثتك بهذه الحديدة ؟ ثم خلى سبيله . فقلت : ياخبيب إنما أمنتك بأمانة الله ، فقال خبيب : ما كنت لأقتله وما يستحل فى ديننا الغدر .

فأخرجوه من الحديد حتى انتهوا به إلى التنعيم وخرج معه النساء والصبيان والعبيد وجماعة من أهل مكة فلم يتخلف أحد؛إما موتور فهو يريد أن يشتفى بالنظر إلى وتره . وإما غير موتور فهو مخالف للإسلام وأهله ، فلما انتهوا إلى التنعيم أمروا بخشبة طويلة فحفروا لها . فلما انتهوا بخبيب إليها قال : هل أنتم تاركى فأصلى ركعتين ؟ قالوا : نعم . فركع ركعتين أتمهما من غير أن يطوِّل فيهما ، ثم أقبل على القوم فقال : أما والله لولا أن تظنوا أنى إنما طوَّلت جزعًا من القتل لاستكثرت من الصلاة .

وذكر ابن عقبة - رحمه الله - أنه صلى الركعتين فى موقع مسجد التنعيم . قال أبو هريرة كما فى الصحيح : فكان خبيب رضي الله عنه أول من سنّ هاتين الركعتين عند القتل، انتهى . ثم قال خبيب : اللهم احصهم عددا واقتلهم بددا ولا تغادر منهم أحدا. قال معاوية بن أبى سفيان : لقد حضرت مع أبى سفيان فلقد رأيتنى وإن أبا سفيان ليضجعنى إلى الأرض فرقًا من دعوة خبيب ، وكانوا يقولون : إن الرجل إذا دعى عليه فاضطجع لجنبه زالت عنه. وقال حويطب بن عبد العزى - وأسلم بعد ذلك -: لقد رأيتنى أدخلت إصبعى فى أذنى وعدوت هاربًا فرقًا أن أسمع دعاءه ، وكذلك قال جماعة منهم . فلما صلى الركعتين جعلوه على الخشبة ثم وجهوه إلى المدينة وأوثقوه رباطًا ، ثم قالوا له : ارجع عن الإسلام نخل سبيلك . قال : ألا والله ما أحب أنى

رجعت عن الإسلام وأن لى ما فى الأرض جميعًا . . . فجعلوا يقولون: ارجع ياخبيب. فقال: لا أرجع أبدا . قالوا: أما واللات والعزى لئن لم تفعل لنقتلنك . فقال : إن قتلى فى الله قليل . ثم قال : اللهم إنى لا أرى إلا وجه عدو ، اللهم إنه ليس هنا أحد يبلغ رسولك عنى السلام فبلغه أنت عنى السلام .فلما رفع على الخشبة استقبل الدعاء. وروى محمد بن عمر عن أسامة بن زيد ـ رضى الله تعالى عنهما ـ أن رسول الله ﷺ كان جالسًا فى أصحابه ، فأخذته غمية كما كانت تأخذه ، فلما نزل عليه الوحى سمعناه يقول : « وعليه السلام ورحمة الله وبركاته » ،ثم قال: « هذا جبريل يقرئنى من خبيب السلام » وفى رواية أبى الأسود عن عروة. فجاء جبريل عليه السلام فأخبره ، فأخبر أصحابه بذلك . . . ثم دعا المشركون أربعين ولدًا ممن قتل آباؤهم ببدر كفارًا فأعطوا كل غلام رمحًا وقالوا : هذا الذى قتل آباءكم . فطعنوه برماحهم طعنًا خفيفًا . فاضطرب على الخشبة فانقلب فصار وجهه إلى الكعبة . فقال : الحمد لله الذى جعل وجهى نحو قبلته التى رضى لنفسه ، ثم قتلوه ـ رحمه الله ـ وروى ابن إسحاق بسند صحيح عن عقبة بن الحارث قال : لأنا كنت أضعف من ذلك ، ولكن أبا ميسرة العبدرى أخذ الحربة فجعلها فى يدى ثم أخذ بيدى وبالحربة ، ثم طعنته بها حتى قتلته . وذكر محمد ابن إسحاق ومحمد بن عمر وغيرهما أن خبيبًا رضي الله عنه حين رأى ما صنعوا به قال :

لقد جمع الأحزاب حولى والبو ... قبائلهم واستجمعوا كل مجمع
وكلهم مبدى العداوة جاهد ... علىَّ لأنى فى وثاق بمضيع
وقد جمعوا أبناءهم ونساءهم ... وقُرِّبت من جذع طويل ممنَّع
وقد خيرونى الكفر والموت دونه ... وقد هملت عيناى من غير مجزع
وما بى حذار الموت إنى لميت ... ولكن حذارى جحم نار ملفع
إلى الله أشكو غربتى ثم كربتى ... وما أرصد الأحزاب لى عند مصرعى
فذا العرش صبّرنى على ما يراد بى ... فقد بضّعوا لحمى وقد ياس مطعمى
وذلك فى ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شلو ممزع
لعمرك ما آسى إذا مت مسلماً ... على أى جنب كان فى الله مصرعى
فلست بمبد للعدو تخشعاً ... ولا جزعاً إنى إلى الله مرجعى

وروى البخارى عن أبى هريرة رضي الله عنه أن خبيبًا رضي الله عنه قال :

فلست أبالى حين أُقتل مسلماً ... على أى جنب كان فى الله مصرعى
وذلك فى ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شلو ممزع

وذكر القيروانى فى حُلى العلى : أن خبيبًا لما قتل جعلوا وجهه إلى غير القبلة ، فوجدوه مستقبلاً لها ، فأداروها مرارًا ثم عجزوا فتركوه . وروى ابن إسحاق عن ابن عباس ـ رضى الله تعالى عنهما ـ قال : لما أصيبت السرية التى كان فيها مرثد وعاصم بالرجيع قال رجال من المنافقين ياويح هؤلاء المقتولين الذين هلكوا هكذا ، لاهم قعدوا فى أهليهم ، ولاهم أدوا رسالة صاحبهم . فأنزل الله ـ عز وجل ـ فى ذلك فى قول المنافقين : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ . . . ﴾ وهو مخالف لما يقوله بلسانه: ﴿ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴾ أى : ذو جدال إذا كلمك وراجعك : ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ ﴾ أى : خرج من عندك ﴿ سَعَىٰ فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴾ أى : لايحب عمله ولا يرضاه ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ (١) .

ولنا مع مقتل هذين الشهيدين العظيمين هذه الوقفات :

أ ـ لقد طغت أخبار خبيب وزيد على أخبار عاصم وصحبه ، فهما رسولان حيان داخل مكة ، وهما يمثلان رسول الله ﷺ ، وهذه أول مواجهة حية بين أسيرين من المدينة وبين قيادات قريش .

ب ـ لقد أرسل رسول الله ﷺ هذه السرية من القيادات العالية عنده ، وهو مطمئن كل الاطمئنان إليها ، وإلى قدرتها على تمثيله ، وتمثيل هذه الدعوة ، وقدرتها على مواجهة الأحداث الكبار بالحكمة البالغة ، ولئن اختلف الموقفان ابتداء ؛ بين من استجاب للعهد ونزل عليه ، وبين من رفضه ، لكن كلا الفريقين مثَّل الصورة العالية المشرقة لهذا الدين ، ولم تكن الدعوة من خلال الكلام كما كان مقررًا لهم ، بل كانت الدعوة من خلال السلوك والممارسة ، فخبيب وزيد ـ رضوان الله عليهما ـ رغم أن كل واحد منهما قد أسر فى مكان منعزلاً عن الآخر ، لكنهما برزا نموذجين خالدين كأنما يصدران عن مشكاة واحدة .

جـ ـ زيد يرفض أن يأكل مما ذبح على النصب (ولا يأكل شيئًا مما أتى به من الذبائح . . .) ويجد صفوان بن أمية حرجًا فى ضيفه الأسير (فشق ذلك على صفوان وكانوا قد أحسنوا إساره فأرسل إليه صفوان ، فما الذى تأكل من الطعام ؟ قال : لست آكل مما ذبح لغير الله ، ولكنى أشرب اللبن) لقد كان خارجًا عن سلطان بطنه ، وكانت التربية النبوية قد صاغته تلك الصيانة العالية ، فهو يمثل شريعة الله فى هذه الأرض ، ومن شريعة الله ألا يأكل مما لم يذكر اسم الله،أو ذكر عليه غير اسم الله، وإذا خبيب

---

(١) البقرة / ٢٠٤ ، ٢٠٥ .

ﷺ يقف الموقف نفسه ، ويتعرض للمحنة نفسها ، فيرتفع نفس الارتفاع ، ويسمو السمو نفسه ، وذلك حين تأثرت النساء بـــه فقلن له : ياخبيب ! هل لك من حاجة ؟ قال : (لا ، إلا أن تسقينى العذب ، ولا تطعمينى ما ذبح على النصب ، وتخبرينى إذا أرادوا قتلى) .

د ـ وهما يقفان الموقف نفسه بصفتهما دعاة إلى الله ـ عز وجل ـ وسط هذا الوحل من الشرك . فهم فى الليل صافين أقدامهم بين يدى ربهم ـ عز وجل ـ يناجونه ويتضرعون إليه ، ويصومون نهارهم قربى إلى الله ، إنهما نموذجان حيان للإنسان المسلم الداعية (وكان خبيب يتهجد بالقرآن ، وكان يسمعه النساء فيبكين ويرفقن عليه . . .) (وكان زيد بن الدثنة عند آل صفوان بن أمية محبوسًا فى حديد ، وكان يتهجد بالليل ويصوم بالنهار) .

لقد كان زيد وخبيب هما حديث قريش ، وحديث نسائها وأطفالها ، فهما طراز لا مثيل له عندهم ، وقد فرضا احترامهما رغم العداوة والحقد ، وكانت فرصة طيبة ، ومناسبة ثمينة ليحقق الأسيران هدفهما فى الدعوة إلى الله ، وذلك بانتظار انصرام الأشهر الحرم ، ليقتلا خارج الأشهر ، وخارج الحرم ، وأن تدع مسلمًا داعية قائدًا ، وسط بيت من الشرك ـ حتى ولو كان أسيرًا ـ مثل هذا الأمر : كفيل أن يغزو قلوب هذا البيت ، ويكون الحديث عنه ملء أفئدة رجاله ونسائه وأطفاله ، (وكان يسمعه النساء فيبكين ويرفقن عليه . . .) .

هـــ ويلتقى الأخوان الحبيبان يوم خروجهما للقتل . مثل يتيمين فى المدينة فتتعانق أرواحهما قبل تعانق أجسادهما ، وإذا هما روح واحدة ، يوصى كل واحد منهما أخاه بالصبر والثبات على الدين أمام جموع مكة الحاشدة ، والتى خرجت لتحقق ثأرها من محمد ﷺ .

وخرج معه النساء والصبيان والعبيد وجماعة من أهل مكة ، فلم يتخلف أحد ، إما موتور فهو يريد أن يتشافى بالنظر من وتره ، وإما غير موتور فهو مخالف للإسلام وأهله .

و ـ وأمام هذه الحشود الجامعة تتجسد بين يدينا من جديد قصة أصحاب الأخدود فى حزب محمد ﷺ ، وإذا الغلام المؤمن يكبر ليكون الرجل المؤمن ، وتأتى قصة كتابة تاريخ هذا الدين بالدم الزكى ، والدعوة إلى الله بالشهادة فى سبيله ، وتأتى مغريات الدنيا ، فإما الموت ، والصلب ، وإما الحياة الرغيدة الهنيئة، لهذين البطلين القرمين .

(ثم قالوا ـ لزيد ـ ارجع عن الإسلام نخل سبيلك . قال : لا والله ما أحب أنى

رجعت عن الإسلام وأن لى ما فى الأرض جميعًا) .

وخلَّد خبيبٌ لكل مسلم فى الوجود هذا المعنى بشعره الحى فى قلب الموت.

وقد خيرونى الكفر والموت دونه ... وقد هملت عيناى من غير مجزع
وما بى حذار الموت إنى لميت ... ولكن حذارى جحم نار ملفع

وخلَّد خبيبٌ موقفه من الموت فى سبيل الله ، واستشهاده على هدى هذا الدين ولو قطعت أوصاله ، وغدا أشلاءً ممزقة .

إلى الله أشكو غربتى ثم كربتى ... وما أرصد الأحزاب لى عند مصرعى
فلست أبالى حين أقتل مسلماً ... على أى جنب كان فى الله مصرعى
وذلك فى ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شلو ممزع

وهو هو الموقف نفسه عند زيد بن الدثنة ﷺ (ثم جعلوا يقولون لزيد : ارجع عن دينك المحدث ، واتبع ديننا ونرسلك قال : لا والله لا أفارق دينى أبدًا) .

ز - ويقف العظيمان الموقف نفسه وهما يخرجان مخبوء قلبيهما ومكنون صدريهما نحو قائدهما الحبيب صلوات الله وسلامه عليه ، علاقة الحب والتفانى فى الحب .

قالوا - لخبيب - : أيسرك أن محمداً فى أيدينا مكانك وأنت فى بيتك ؟ قال : ما يسرنى أن محمدًا أشيك بشوكة وأنى فى بيتى،فجعلوا يقولون : ارجع ياخبيب . قال : لا أرجع أبدًا ! قالوا : أما واللات والعزى ، لئن لم تفعل لأقتلنك . فقال : إن قتلى فى الله قليل .

فقال له أبو سفيان حين قُدِّم ليقتل : أنشدك الله يازيد ، أتحب أن محمداً عندنا الآن فى مكانك تضرب عنقه، وأنك فى أهلك ؟ قال : والله ما أحب أن محمدًا الآن فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنى جالس فى أهلى .

ح - وأنطق الحق أبا سفيان بن حرب . قائد الشرك آنذاك كلمة مضت مثلاً فى التاريخ وهزت كيان مكة كله . وغزت قلوب المحتشدين شيبهم وشبابهم ونسائهم :

يقول أبو سفيان : ما رأيت من الناس أحدًا يحب أحدًا كحب أصحاب محمد محمداً .

لقد سطرً هذان العظيمان بدمهما أنصع صفحات التاريخ الإسلامى ، وأعظم دعوة إلى الله - عز وجل - لهذا الدين ، فهذا الطراز الرفيع من الرجال هو الذى يحاربه قريش فكيف ينتصرون عليه .

ط ـ ولئن مضى زيد رضي الله عنه صامتًا إلى ربه فقد مضى خبيب وأضاف سنة لكل مسلم فى الأرض . (فلما انتهوا بخبيب إلى خشبته قال : هل أنتم تاركيَّ فأصلى ركعتين ؟ قالوا : نعم فركع ركعتين أتمهما من غير أن يطوِّل فيهما . فحدثنى معمر عن الزهرى عن عمرو بن أبى سفيان عن أبى هريرة قال : أول من سن الركعتين عند القتل خبيب . قالوا ثم قال : أما والله لولا أن تروا أنى جزعت من الموت لاستكثرت من الصلاة) .

ى ـ وشاءت إرادة الله تعالى أن تظهر كرامة خبيب خاصة ، كما تحدثنا ماوية التى غزا قلبها ـ رضى الله عنها ـ فتقول عنه فى إسارة :

(والله ما رأيت أحد خيرًا من خُبيب ، والله لقد اطلعت عليه من صير الباب ، وإنه لفى الحديد ما أعلم فى الأرض حبة عنب تؤكل ، وإن فى يده لقطف عنب مثل رأس الرجل يأكل منه ، وما هو إلا رزق رزقه الله) .

﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (١) .

فهما من مدرسة واحدة . مدرسة أولياء الله تعالى الذين لاخوف عليهم ولاهم يحزنون ، **﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ . نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾** (٢) .

وظهرت الكرامة الأكبر أمام الحشد كله (فاضطرب على الخشبة فانقلب فصار وجهه إلى الكعبة فقال : الحمد لله الذى جعل وجهى نحو قبلته التى رضى لنفسه ولنبيه وللمؤمنين) .

ك ـ ورغم كل مظاهر الحقد والعداوة فى قتل خبيب (ثم دعوا أبناءً من أبناء من قتل ببدر فوجدوهم أربعين غلامًا ، فأعطوا كل غلام رمحًا ، ثم قالوا: هذا الذى قتل آباءكم ، فطعنوه برماحهم طعنًا خفيفًا . . . وكان عقبة بن الحارث بن عامر ممن حضر وكان يقول : والله ما أنا قتلت خبيبًا إن كنت يومئذ لغلامًا صغيراً ، ولكن رجلاً من بنى عبد الدار يقال له : أبو ميسرة بن عوف أخذ بيدى فوضعها على الحربة ثم أمسك بيدى ثم جعل يطعن بيده حتى قتله ، فلما طعنه بالحربة أفلتُ فصاحوا : يا أبا سروعة بئس ما طعنه أبو ميسرة ، فطعنه أبو سروعة حتى أخرجها من ظهره . فمكث ساعة

---

(١) آل عمران / ٣٧ . (٢) فصلت / ٣٠ ـ ٣٢ .

يوحد الله ويشهد أن محمداً رسول الله .

رغم مظهر الحقد هذا ، والذى يربون عليه أولادهم عليه ، فقد تزلزل كيان الأخنس بن شريق أمام ذكر خبيب لحبيبه المصطفى وهو يقتل . فقال :

لو تَرَكَ ذكر محمد على حالٍ لتركه على هذه الحال ، ما رأينا قط والداً يجد(١) بولده ما يجد أصحاب محمد بمحمد ﷺ) .

ورغم كل مظاهر الحقد هذه . فقد تكشف ضعف المجتمع الجاهلى كله ، أمام دعوة خبيب رضي الله عنه وهو على خشبته تلك الدعوة التى صعقت قادة مكة . كما يصفها من حضر تلك الدعوة : (... ثم قال : اللهم احصهم عدداً ، واقتلهم بددا ، ولا تغادر منهم أحداً) .

فقال معاوية بن أبى سفيان : لقد حضرت دعوته ولقد رأيتنى وإن أبا سفيان ليضجعنى إلى الأرض فرقًا من دعوة خبيب ، ولقد جبذنى يومئذ أبو سفيان جبذة ، فسقطت على عجب ذنبى فلم أزل أشتكى السقطة زمانًا .

وقال حويطب بن عبد العزى : لقد رأيتنى أدخلت إصبعى فى أذنى ، وعدوت هربًا ، فرقًا أن أسمع دعاءه .

وقال حكيم بن حزام : لقد رأيتنى أتوارى بالشجر فرقًا دعوة خبيب .

فحدثنى عبد الله بن يزيد قال : حدثنى سعيد بن عمرو قال سمعت جبير بن مطعم يقول : لقد رأيتنى يومئذ أتستر بالرجال فرقًا من أن أُشرف لدعوته .

وقال الحارث بن برصاء : (والله ما ظننت أن تغادر دعوة خبيب منهم أحداً)(٢) .

وحدثنى عبد الله بن جعفر عن عثمان بن محمد الأخنسى قال : استعمل عمر بن الخطاب رضي الله عنه سعيد بن عامر بن جذيم الجُمحى على حمص، وكانت تصيبه غشية وهو بين ظهرى أصحابه . فذُكِر ذلك لعمر بن الخطاب فسأله فى قِدمة قدم عليه من حمص فقال: ياسعيد ما الذى يصيبك ؟ أبك جِنَّة ؟ قال : لا والله يا أمير المؤمنين ، ولكنى كنت فيمن حضر خبيبًا حين قتل ، وسمعت دعوته فوالله ما خطرت على قلبى وأنا فى مجلسٍ إلا غُشى علىَّ . قال : فزادته عند عمر خيراً (٣) .

إنهم فى حقيقة أمرهم يعرفون مقام خبيب عند الله ، ويعرفون أنه على الحق

---

(١) يجد : من الوجد وهو زيادة الحب .

(٢) المغازى للواقدى ١/ ٣٥٩ .

(٣) المغازى للواقدى ١/ ٣٦٠ .

الأملقِ ، ولا أدلَّ على ذلك من خشيتهم من دعوته ، وإن ثباته ، وتحديه ، وصلاته ، وسلوكه ، قد غزاهم فى قلوبهم جميعًا . فكانت خيوط النور الأولى التى تسللت إلى قلوبهم من خلاله ، وما منهم من أحد إلا أكرمه الله بالإسلام بعد ذلك .

ل ـ أما المأفونون من المنافقين الذين يتحركون فى الظلام فراحوا يتهامسون بينهم بالنقد والتشفى ويقولون : ياويح هؤلاء المقتولين الذين هلكوا . لاهم قعدوا فى أهليهم ، ولاهم أدوا رسالة صاحبهم ، ويتمسحون فى الحرص على الإسلام وأهله . فنزل القرآن عليهم كالصواعق ليفضحهم ، ويفضح ملمسهم الناعم النجس :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ . وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ . وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ (١) .

م ـ ومضت سرية الرجيع رمزًا من رموز هذه الأمة ، وسجلاً من سجلات صمودها ، ومضى خبيب خاصة علمًا على الصبر ، والثبات والتضحية ، حتى لينشد المسلمون فيه الأشعار وخاصة : مِلك البيان فى عهد النبوة حسان بن ثابت فمما قاله :

ما بال عينك لا ترقا (٢) مدامعها ... سُحاً(٣) على الصدر مثل اللؤلؤ القلق (٤)
على خبيب فتى الفتيان قد علموا ... لافشل (٥) حين تلقاه ولا نزق(٦)
فاذهب خبيب جزاك الله طيبة ... وجنة الخلد عند الحور فى الرُّفُق (٧)
ماذا تقولون إن قال النبى لكم ... حين الملائكة الأبرار فى الأفق
فيم قتلتم شهيد الله فى رجلٍ ... طاغ قد أوعث(٨) فى البلدان والرُّفق(٩)(١٠)

وقال حسان رضي الله عنه كذلك :

لو كان فى الدار قرم (١١) ماجد بطل ... ألوى (١٢) من القوم صقر خاله أنس
إذن وجدت خُبَيباً مجلساً فسحاً ... ولم يُشَدَّ عليه السجن والحرس

---

(١) البقرة / ٢٠٤ ـ ٢٠٦ .
(٢) لا ترقا مدامعها : لا تنقطع .
(٣) السُحُّ : الصَبُّ .
(٤) القلق : المتحرك الساقط .
(٥) الفشل : الجبان الضعيف .
(٦) النزق : السيئ الخلق .
(٧) الرُّفُق : جمع رفيق .
(٨) أوعث : اشتد فساده .
(٩) الرفق : جمع رُفقة .
(١٠) السيرة النبوية لابن هشام ٣ / ٢٥٢ ، ٢٥٣ .
(١١) القرم : الرجل السيد : وأصله الفحل من الإبل .
(١٢) ألوى : شديد الخصومة .

ولم تسقك إلى التنعيم زعنفة (١) من القبائل منهم من نفت عُدَس (٢)
دلوك(٣) غدراً وهم فيها أولو خُلُفٍ(٤) وأنت ضيم(٥) لها فى الدار محتبس (٦)

سرية بئر معونة :

أ- روى البخارى عن أنس رضي الله عنه قال : (بعث النبى ﷺ سبعين رجلاً لحاجة يقال لهم : القراء ، فعرض لهم حيَّان من بنى سُلَيم : رعل وذكوان عند بئر يقال له : بئر معونة . فقال القوم : والله ما إياكم أردنا ، وإنما نحن مجتازون فى حاجة النبى ﷺ . فقتلوهم فدعا النبى ﷺ عليهم شهراً فى صلاة الغداة وذلك بدء القنوت وما كنا نقنت) (٧) .

ب- وفى رواية أخرى عن أنس رضي الله عنه : (أن رعلا وذكوان وعصبة وبنو لحيان استمدوا رسول الله ﷺ على عدو ، فأمدهم بسبعين من الأنصار كنا نسميهم القراء فى زمانهم كانوا يحتطبون بالنهار ، ويصلون بالليل حتى كانوا ببئر معونة قتلوهم وغدروا بهم، فبلغ النبى ﷺ فقنت شهراً يدعو فى الصبح على أحياء من أحياء العرب ، على رعل وذكوان وعُصبة وبنى لحيان. قال أنس: فقرأنا فيهم قرآناً ثم إن ذلك رفع : (بلغوا عنا قومنا أنا لقينا ربنا فرضى عنا وأرضانا) (٨) .

جـ- وروى ابن إسحاق عن المغيرة بن عبد الرحمن وعبد الله بن أبى بكر وغيرهما، ومحمد بن عمر عن شيوخه قالوا : قدم عامر بن مالك بن جعفر - أبو براء - ملاعب الأسنة العامرى على رسول الله ﷺ فأهدى إليه فرسين وراحلتين. فقال رسول الله ﷺ: « لا أقبل هدية من مشرك » ،وفى رواية : « إنى نهيت عن زبْد المشركين » وعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام فلم يسلم ولم يبعد وقال : يامحمد إنى أرى أمرك هذا حسناً شريفاً ، وقومى خلفى فلو أنك بعثت معى نفراً من أصحابك لرجوتُ أن يتبعوا أمرك فإنهم إن اتبعوك فما أعز أمرك . فقال رسول الله ﷺ : « إنى أخاف عليهم أهل نجد » فقال عامر: لا تخف إنى لهم جار أن يعرض لهم أحد من أهل نجد ،وخرج عامر بن مالك إلى ناحية نجد فأخبرهم أنه قد أجار أصحاب محمد ﷺ فلا تعرضوا

(١) الزعنفة : الذين ينتمون إلى القبائل ويكونون أتباعًا لهم .
(٢) عُدَس : هنا قبيلة من تميم . (٣) دلوك : عزوك .
(٤) أولو خُلُف : بضم اللام للاتباع .
(٥) الضيم : الذل وأراد ذو ضيم فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه .
(٦) السيرة النبوية ٣/ ٢٥٣ ، ٢٥٤ .
(٨،٧) فتح البارى فى شرح صحيح البخارى م ٧ ص ٣٨٥ .

لهم، وكان من الأنصار سبعون رجلاً شببة يُسمُّون: القراء. كانوا إذا أمسوا أتوا ناحية من المدينة إلى معلِّم لهم فتدارسوا القرآن وصلوا ، حتى إذا كان وجه الصبح استعذبوا من الماء وحطبوا من الحطب فجاؤوا به إلى حُجر أزواجِ النبى ﷺ ، وفى رواية :(يحتطبون فيبيعون ويشترون به الطعام لأهل المسجد والفقراء ، وفى رواية : ومن كان عنده سعة اجتمعوا واشتروا الشاة فأصلحوها ، فيصبح ذلك معلقًا بحجر أزواج رسول الله ﷺ فكان أهلوهم يظنون أنهم فى المسجد ، وكان أهل المسجد يظنون أنهم فى أهليهم . . .) فبعثهم رسول الله ﷺ وبعث معهم كتابًا ، وأمرَّ عليهم المنذر بن عمرو الساعدى .

فخرج المنذر بن عمرو بدليل من بنى سُليم يقال له : المطلِب (السلمى) فخرجوا حتى إذا كانوا على بئر معونة عسكروا بها وسرحوا ظهرهم مع عمرو بن أمية الضمرى، والحارث بن الصمة فيما ذكره أبو عمر .

وذكر ابن إسحاق وتبعه ابن هشام بدل الحارث المنذر بن محمد بن عقبة بن أحيحة ابن الجلاح ، وبعثوا حرام بن ملحان بكتاب رسول الله ﷺ إلى عامر بن الطفيل فى رجال من بنى عامر . فلما انتهى حرام إليهم لم يقرؤوا الكتاب ، ووثب عامر بن الطفيل فى رجال من بنى عامر على حرام فقتلوه .

وفى الصحيح عن أنس : فتقدمهم خالى حرام بن ملحان ورجل أعرج . . . فتقدم فأمنوه . فبينما هو يحدثهم عن رسول الله ﷺ إذ أومؤوا إلى رجل منهم فأتى من خلفه فطعنه فأنفذه فقال : الله أكبر فزت ورب الكعبة . ثم قال بالدم هكذا ، فنضحه على وجهه ، ونجا كعب بن زيد ـ الأعرج ـ لأنه كان فى جبل ، واستصرخ عامر بن الطفيل عليهم ببنى عامر فأبوا أن يجيبوه إلى مادعاهم إليه وقالوا : لن نخفر جوار أبى براء وقد عقد لهم عقدًا و جواراً .

فلما أبت بنو عامر أن تنفر مع عامر بن الطفيل استصرخ عليهم قبائل من بنى سُلَيم عُصية ورِعل وذكوان وزِعب فنفروا معه ورأسوه عليهم . فقال عامر بن الطفيل ، أحلف بالله ما أقبل هذا وحده فاتبعوا أثره حتى وجدوا القوم . فلما استبطؤوا صاحبهم أقبلوا فى أثرهم فلقيهم القوم والمنذر بن عمرو معهم فأحاطوا بهم فى رحالهم . فلما رآهم المسلمون أخذوا سيوفهم ثم قاتلوهم حتى قتلوا عن آخرهم . قال ابن إسحاق إلا كعب بن زيد أخا بنى دينار بن النجار فإنهم تركوه وبه رمق . فارتُث من بين القتلى . فعاش حتى قتل فى الخندق شهيداً .

وقال محمد بن عمر : وبقى المنذر بن عمرو فقالوا له : إن شئت أمناك فقال : لن أعطى بيدى ، ولن أقبل لكم أمانًا حتى آتى مقتل حرام ثم برئ من جواركم . فآمنوه حتى أتى مصرع حرام ثم برئوا إليه من جوارهم ، ثم قاتلهم حتى قتل ، فذلك قول رسول الله ﷺ : « أعتق ليموت » ، وأقبل المنذر بن محمد بن عقبة كما ذكره ابن إسحاق وغيره ، وقال ابن عمر : الحارث بن الصمة ، وعمرو بن أمية بالسرح ، وقد ارتابا بعكوف الطير على منزلهم ، أو قريبًا من منزلهم . فجعلا يقولان : قتل والله أصحابنا ، فأوفيا على نشز من الأرض ، فإذا أصحابهما مقتولين ، وإذا الخيل واقفة فقال المنذر - أو الحارث - لعمرو بن أمية : ماترى ؟ قال : أرى أن نلحق برسول الله ﷺ فنخبره الخبر ، فقال الآخر : ما كنت لأتأخر عن موطن قتل فيه المنذر ، ما كنت لتخبرنى عنه الرجال . فأقبلا فلقيا القوم فقاتلهم الحارث فقتل منهم اثنين ، ثم أخذوه فأسروه وأسروا عمرو بن أمية وقالوا للحارث : ما تحب أن نصنع بك فإنا لا نحب قتلك . قال : أبلغونى مصرع المنذر بن عمرو وحرام بن ملحان ثم برئت من ذمتكم . قالوا نفعل . فبلغوا به ثم أرسلوه فقاتلهم فقتل منهم اثنين ثم قتل ، وما قتلوه حتى شرعوا له الرماح فنظموه فيها ، وأخبرهم عمرو بن أمية وهو أسير فى أيديهم أنه من مضر ولم يقاتل . فقال عامر ابن الطفيل : إنه قد كان على أمى نسمة فأنت حر عنها وجزّ ناصيته .

وروى البخارى من طريق هشام بن عروة قال : أخبرنى أبى قال : لما قتل الذين قتلوا ببئر معونة ، وأسر عمرو بن أمية قال عامر بن الطفيل لعمرو : من هذا ؟ وأشار إلى قتيل . فقال : هذا عامر بن فهيرة ، فقال : قد رأيته بعدما قتل رفع إلى السماء حتى أنى لأنظر إلى السماء بينه وبين الأرض ثم وضع .

وروى البيهقى عنه أنه قال : هل تعرف أصحابك ؟ قال : نعم فطاف فيهم يعنى فى القتلى وجعل يسأله عن أنسابهم . قال : هل تفقد منهم من أحد ؟ قال : أفقد مولى لأبى بكر يقال له : عامر بن فهيرة ، قال : كيف كان فيكم ؟ قلت : كان من أفضلنا . قلت : ألا أخبرك خبره ، وأشار له إلى رجل فقال : هذا طعنه برمحه ثم انتزع رمحه فذهب الرجل علوًا فى السماء حتى والله ما أراه . قال عمرو : فقلت ذلك عامر بن فهيرة ، وكان الذى قتله رجل من كلاب يقال له : جبار بن سلمى ذكر أنه لما طعنه سمعته يقول : فزت والله . فقلت فى نفسى ما قوله : فزت ، فأتيت الضحاك بن سفيان الكلابى فأخبرته بما كان وسألته عن قوله : فزت والله ، قال : الجنة ، وعرض علىّ الإسلام فأسلمت ، ودعانى إلى الإسلام ما رأيت من مقتل عامر بن فهيرة ، ومن رفعه إلى السماء علوًا . وكتب الضحاك إلى رسول الله ﷺ يخبره بإسلامى ، وما رأيت

من مقتل عامر بن فهيرة فقال رسول الله ﷺ: « بأن الملائكة وارت جثته وأنزل عليين».

قلت : يحتمل أنه رفع ثم وضع ثم فقد بعد ذلك بأن وارت الملائكة جثته ، فقد روينا فى مغازى موسى بن عُقبة ، فى هذه القصة قال : فقال عروة بن الزبير: لم يوجد جسد عامر يرون أن الملائكة وارته (١) .

(... فدعا رسول الله ﷺ أربعين صباحًا على رعِل وذكوان وبنى لحيان وبنى عُصيَّة الذين عصوا الله ورسوله. وفى رواية الإمام أحمد: قال أنس رضي الله عنه : فما رأيت رسول الله ﷺ وَجَدَ على شيء وَجْدَهُ عليهم ، فلقد رأيت رسول الله ﷺ كلما صلى الغداة رفع يده فدعا عليهم ، فلما كان بعد ذلك ، إذا أبو طلحة يقول : هل لك فى قاتل حرام ؟ قلت : ما له ؟ فعل الله تعالى به وفعل ؟ قال : مهلاً فإنه قد أسلم) (٢) .

١ - رأينا من قبل كيف ذكر رسول الله ﷺ القبائل الأربعة الكبرى التى يتفاخر العرب بها ، وأنها أسد وتميم وغطفان والرابعة هوازن أو عامر بن صعصعة ، كما هو نص الحديث : « أسلم وغفار ومزينة خير من تميم وأسد وغطفان وعامر بن صعصعة » (٣) .

وحين يذكر ابن حزم القبائل الكبرى فى عدنان وقحطان يقول :

(فإذا كان ذلك وجب أن ننظر قبائل هؤلاء بنظرائها من قبائل هؤلاء ، فوجدنا القبائل العظام من عدنان ثلاثًا ؛ وهم : تميم بن مر ، وعامر بن صعصعة، وبكر بن وائل . ووجدنا قبائل اليمن العظام ثلاثًا أيضًا وهى : الأزد بعد إسقاط الأنصار ، وملوكهم من كندة ولخم وغسان ، وحمير بعد إسقاط ملوكهم ، ومذحج فتعارض كل قبيلة من هذه قبيلة من تلك ... فتعارض كل قبيلة بنظيرها يظهر البون حينئذ فى كل ما ذكرنا . الأولى : تميم للأزد ، بنو عامر لحمير ، بكر بن وائل لمذحج) (٤) .

وإذا كان أبو سلمة البطل المخزومى رضي الله عنه قد واجه بنى أسد وفضّ جموعهم ، وفيهم أبطال بنى أسد طليحة بن خويلد وأخوه . فبنو عامر لم يفكر - عليه الصلاة والسلام - بمواجهتهم .

٢ - ونعيد إلى الذاكرة لقاء رسول الله ﷺ مع وفدهم فى منى قبل خمس سنين حين عرض رسول الله ﷺ نفسه على القبائل ، كما وردت فى السيرة لابن هشام :

---

(١) دلائل النبوة للبيهقى ٣ / ٣٥٣ ، والسيرة النبوية لابن هشام ٣ / ٢٦٠ - ٢٦٣ ، ومغازى الواقدى ١/ ٣٤٦ - ٣٥٠ . والإمام أحمد .

(٢) سبل الهدى والرشاد ٦/ ٦٧ .

(٣) الترمذى وقال : حديث حسن صحيح .

(٤) جمهرة أنساب العرب لابن حزم ٤٨٨ ، ٤٨٩ .

قال ابن إسحاق: (وحدثني الزهري : أنه أتى عامر بن صعصعة فدعاهم إلى الله ـ عز وجل ـ وعرض عليهم نفسه . فقال له رجل منهم يقال له : بيحرة بن فراس : والله لو أني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب ثم قال له: أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك أيكون لنا الأمر من بعدك؟ قال: « الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء » . قال : فقال له : أفنهدف نحورنا للعرب دونك ، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا لا حاجة لنا بأمرك . فأبوا عليه .

فلما صدر الناس رجعت بنو عامر إلى شيخ لهم قد كانت أدركته السن ، حتى لايقدر أن يوافي معهم المواسم ، فكانوا إذا رجعوا إليه حدثوه بما يكون في ذلك الموسم. فلما قدموا عليه ذلك العام سألهم عما كان في موسمهم فقالوا: جاءنا فتى من قريش ثم أحد بني عبد المطلب يزعم أنه نبي ، يدعونا إلى أن نمنعه ونقوم معه ونخرج به إلى بلادنا . قال : فوضع الشيخ يديه على رأسه ثم قال : يابني عامر هل لها من تلاف، هل لذناباها من مطلب ، والذي نفس فلان بيده، ما تقوَّلها إسماعيلي قط ، وإنها لحق، فأين رأيكم كان عنكم) (١) .

هؤلاء بنو عامر طلبة زعامة وقيادة يرون أنفسهم أهلاً لذلك ، وكل ما كانوا يريدونه من رسول الله ﷺ أن يجعل الأمر لهم بعده ، وفي أشد لحظات الضعف والحاجة رفض رسول الله ﷺ ذلك العرض قائلاً : « الأمر لله يضعه حيث يشاء » .

ونزعة الصلف والاعتداء عندهم أصيلة . ففي رواية الواقدي : أن رسول الله ﷺ لما قام عن بني عامر وانصرف إلى راحلته ليركبها أتاه بيحرة ورجلان معه فنخسوا به راحلته حتى سقط عنها فقامت امرأة منهم يقال : لها ضُباعة بنت قُرط وصاحت : يابني عامر أيؤذى محمد وأنا شاهدة . فقام إليهم غطيف وغطفان ابنا سهيل وعذرة بن عبد الله بن سلمة بن قشير فضربوهم حتى هزموهم فقال رسول الله ﷺ : « اللهم بارك على هؤلاء ، والعن هؤلاء الآخرين » . فأسلم الذين بارك الله عليهم جميعًا ومات الذين لعن وهم كفار . وذكر الواقدي من حديث جهم بن أبي جهم : أن رسول الله ﷺ وقف على بني عامر يدعوهم إلى الله ، فقام رجل منهم فقال له : عجبًا لك والله أعياك قومك ، ثم أعياك أحياء العرب كلها حتى تأتينا وتردد علينا مرة بعد مرة : والله لأجعلنك حديثاً لأهل الموسم . ونهض إلى رسول الله ﷺ وكان جالساً فكسر الله ـ عز وجل ـ ساقه ، فجعل يصيح من رجله ، وانصرف رسول الله ﷺ عنه (٢).

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٧٦ ، ٧٧ .

(٢) الاكتفاء في مغازي المصطفى للكلاعي الأندلسي ١ / ٤٠٤ .

وقد خاضوا حروبًا عنيفة فى الجاهلية ، وتمرسوا بالقتال وفنونه ، وبرزت منهم قيادات ضخمة أشهرها أبو براء بن عامر بن مالك ملاعب الأسنة ، وابن أخيه عامر بن الطفيل ، وجبار بن سلمى ، وغيرهم .

فخرجوا سائرين وخرج عامر وطفيل وعبيدة ومعاوية وهم بنو أم البنين ــ وبنو مالك ـ وسلمى بن مالك وحنظلة بن عامر ابنا طفيل ولبيد بن ربيعة ، ونزلت بنو جعفر فى ناحية أرض قشير ، ثم قصدوا إلى بنى أبى بكر يريدون مالك بن كعب بن عبيد ، فوجدوه يميح (١) ركيًا (٢) فنزلوا حتى خرج منها ، فلما رآهم رحَّب بهم ودعا بلقحة (٣) ثم أمر حالبًا فحلبها فقال : اسق سيد بنى عامر. فسقى عامر بن مالك ـ أبو براء ـ ثم قال : اسق سيد بن عامر فسقى بعده طفيلاً (والد عامر بن الطفيل)، ثم قال: اسق سيد بنى عامر فسقى معاوية (٤). وكان ثلاثتهم إخوة انتهت إليه زعامة بنى عامر .

٣ ـ ومن خلال هذا الإيضاح ندلف إلى سرية بئر معونة . فأبو البراء عامر بن مالك سيد بنى عامر وسيد أهل الوبر هو الذى قدم المدينة ، كما روى ابن إسحاق يريد أن يفتح صفحة مع رسول الله ﷺ بعيدة عن المواجهة والحرب ، وكان قد تقدَّمت به السن وحنَّكته التجارب ، وأدرك مدى القوة والنفوذ لمحمد ﷺ فى المدينة وهو أشبه ما يكون بشيخ بنى عامر الذى صاح عندما سمع بخبر محمد ﷺ : يابنى عامر هل لها من تلاف ، هل لذناباها من مطلب ، والذى نفسى بيده ما تقوَّلها إسماعيلى قط ، فأين رأيكم كان عنكم . ولعل أثر هذا الموقف حدا بأبى البراء ملاعب الأسنة أن يمضى بنفسه إلى محمد ﷺ ، ويختبر دعوته وقوته .

(قدم عامر بن مالك بن جعفر أبو براء ملاعب الأسنة (٥) العامرى على رسول الله ﷺ فأهدى إليه فرسين وراحلتين. فقال رسول الله ﷺ: « لا أقبل هدية من مشرك » ، وفى رواية : « إنى نهيت عن زبْد المشركين » ، وعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام فلم يسلم ولم يبعد وقال : يامحمد : إنى أرى أمرك هذا حسنًا شريفًا وقومى خلفى ، فلو أنك بعثت معى نفرًا من أصحابك لرجوت أن يتبعوا أمرك ، فإنهم إن اتبعوك فما

(١) الميح : أن تدخل البئر فتملأ الدلو لقلة مائها .
(٢) الركية : البئر . (٣) لقحة : الناقة الحلوب .
(٤) أيام العرب لجاد المولى بك وزملائه ٣٠٢ ، ٣٠٣ .
(٥) لقبه بذلك درار بن عمر القيسى وهو يحاربه فى يوم السور ، وهو يوم من أيام العرب بين بنى عامر، وبين تميم وخبة . فقال درار : ما هذا إلا ملاعب الأسنة ؛ وذلك لطعن عامر ولدى درارا . ثم غلبت عليه . انظر : الإصابة لابن حجر م ٢ / ج ٤ ص ١٧ .

أعز أمرك . فقال رسول الله ﷺ : « إنى أخاف عليهم أهل نجد » . فقال عامر : لاتخف إنى لهم جار أن يعرض لهم أحد من أهل نجد) .

وكان ذلك المدخل عن بنى عامر فى غاية الأهمية لندرك سر حرص رسول الله ﷺ على هداية بنى عامر ، وهذا سيدهم هو الذى يطلب الدعاة لقومه . فدخول بنى عامر ابن صعصعة فى الإسلام يعتبر من أكبر الأحداث فى الأرض العربية ، ويعتبر نقطة تحول كبرى فى تاريخ الإسلام خاصة بعد محنة أحد ، ولكن خشية رسول الله ﷺ من مجاهيل الأعراب والبادية ، وغدر الأعراب لم يخفها أمام سيد بنى عامر ، فكان جواب أبى براء حاسمًا : لاتخف إنى لهم جار أن يعرض لهم أحد من أهل نجد .

ومن يجرؤ على أن يخفر ذمة أبى براء عامر بن مالك ملاعب الأسنة ، وقانون الإجارة فى قبائل العرب قانون يدين به العرب جميعًا ، ولعل من مصلحة الإسلام ألايعلن أبو البراء إسلامه أو أن يسلم ؛ لأن القانون يخرق آنذاك ولا يعتد به ، وكما تقول الرواية :

فلم يسلم ولم يبعد وقال : يا محمد ، إنى أرى أمرك هذا حسنًا شريفًا وقومى خلفى ، إن صورة أبى طالب سيد بنى هاشم ـ تتجسد من جديد ـ الذى تبنى دعوة رسول الله ﷺ ووراءه الحزب الهاشمى مستعد للموت عن آخر فرد فيه لحماية المصطفى ﷺ ، إن الذى أراده رسول الله ﷺ من بنى عامر فى منى قبل سبع سنين ، إنه الآن يتحقق على يد سيد بنى عامر الذى يقول :

(فلو أنك بعثت معى نفرًا من أصحابك لرجوت أن يتبعوا أمرك فإنهم إن اتبعوك فما أعز أمرك) . وصدق أبو البراء . فلو اتبعت بنو عامر الإسلام ، فما أعز الإسلام فى جزيرة العرب .

٤ ـ ولأهمية الأمر وخطورته ، اختار له رسول الله ﷺ قرة عينه من أصحابه، واختار سبعين منهم لهذه المهمة الخطيرة ، ونأتى على وصف هذه المجموعة العظيمة . ففى رواية البخارى : (فبعث إليهم سبعين رجـلاً من الأنصار يقال لهم : القراء) . فمن هؤلاء القراء ؟ نجد وصفهم فى رواية أخرى : ... سبعون رجلاً شببة يسمون القراء ، كانوا إذا أمسوا أتوا ناحية من المدينة إلى معلم لهم فتدارسوا القرآن وصلوا ، حتى إذا كان وجه الصبح استعذبوا من الماء وحطبوا من الحطب فجاؤوا به إلى حجر أزواج رسول الله ﷺ ، وفى رواية : يحتطبون فيبيعونه ويشترون به الطعام لأهل الصفة والفقراء ، وفى رواية : ومن كان عنده سعة اجتمعوا واشتروا الشاة فأصلحوها فيصبح ذلك معلقًا بحجر أزواج رسول الله ﷺ ، فكان أهلهم يظنون أنهم فى المسجد،

وكان أهل المسجد يظنون أنهم فى أهليهم .

إنهم من خيار هذه الأمة،ومن الجيل الجديد الذى تربى بالقرآن ، وبرحيق النبوة ، فرَّغ نفسه لطاعة الله ورسوله ، فليلهم علم وعبادة ، إنهم أحلاس الليل ورهبانه يتعلمون القرآن ويصلون به يناجون ربهم جل شأنه،وفى النهار تكفلوا بمسؤولية الضيافة النبوية . مسؤولية الدولة فى إطعام الفقراء ، فيستعذبون الماء ، ويحتطبون ويشترون الطعام لله، ولمرضاته ، لايؤويهم سقف ، ولا يطمئنون لأهل، فنهارهم جد وجهد وكفاح ، ليسدوا ثغرة الدولة وحاجتها لإخوانهم الفقراء وأهل الصفة ، وليلهم جلساء الله تعالى مع كتابه ، وعبادته .

هذه هى سمة الجيل الجديد الذى يربيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ ويدخره للدعوة ، ويعده لحمل الإسلام إلى كل صقع ، فلما لمحت بارقة بنى عامر ،وحاجتهم إلى الدعاة، كان هذا المدخور عنده ، وكان هذا الكنز بين يديه ، فوجههم جميعًا للدعوة إلى الله فى الصحراء المترامية الأطراف ، وقد تمرسوا بالعمل والكفاح ، وتمرسوا حياة الخشونة والعمل ، فهم يحتطبون ويبيعون ، ويستعذبون الماء ، وهم الجيل المثقف الذى عمر قلبه بالقرآن ، وعاش فيه وله . مع الإشارة إلى أن رسول الله ﷺ أضاف إليهم عددًا من الشخصيات القيادية ؛ لتكون معهم فى هذه المهمة الضخمة الدعوية .

إننا أمام خط تربوى جديد فى المنهج التربوى للسنة النبوية ، هذا الخط هو : تربية الدعاة على الجهاد وعلى الكفاح وإرسالهم فى مهمات دعوية خالصة ، ليتمثل بهم الإسلام ، ويكوِّنون القدوة الحية المتحركة فى المجتمع ، إنهم رجال النظام الخاص عند رسول الله ﷺ ، وقد رأينا الطراز الرفيع لسرية الرجيع ، وها نحن نرى هذا الطراز الرفيع كذلك .

يدلنا على هذا الدمج بين الشباب والقيادات الكبرى ما ذكره الصالحى فى تعليل الخلاف بين السبعين والأربعين فى الروايات الواردة عنهم نقلاً عن الحافظ ابن حجر .

(الثانى : فى الصحيح أن القراء كانوا سبعين رجلاً ، وعند ابن إسحاق أربعين . قال الحافظ : وهم من قال : إنهم ثلاثون ، وما فى الصحيح هو الصحيح . ويمكن الجمع بأن الأربعين كـانوا رؤساء ، وبقية العدة كانوا أتباعًا ، وجرى على ذلك فى الغرر) (١) .

وسنرى ونحن نستعرض الأسماء التى ذكرت منهم فيما بعد هذه النماذج القيادية

---

(١) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحى ٦/ ١٠٢ ، ١٠٣ .

التى أطلق الحافظ عليها لفظ الرؤساء . ويكفى أن نعلم أن على رأسهم المنذر بن عمرو الساعدى الشخص الثانى فى الخزرج بعد سعد بن عبادة ؛ إذ كان كلاهما سعد والمنذر نقباء بنى ساعدة من الخزرج ليلة العقبة ، ونذكر أن المنذر بن عمرو هو الذى أعجز قريشاً هرباً يوم كشفت البيعة ،وأسر سعد بن عبادة ، وقال شاعرهم يتحسر على ما فاته من إدراك المنذر بن عمرو :

تـداركت سعـداً عنـوة فأخـذته   وكـان شـفاء لـو تداركـت منـذراً
ولـو نـلته طـلَّت هـناك جراحه   وكـان حـرياً أن يـهان ويهـدراً (١)

٥ - وحيث ألقينا الضوء على سيد بنى عامر - أبى البراء - فلابد من إلقاء الضوء على عامر بن الطفيل بن مالك - وهو ابن أخى أبى البراء - وكان ينازع عمه الزعامة والشرف فى بنى عامر وكان (من أشهر فرسان العرب بأسًا ونجدة ، وأبعدها إسمًا وشهرة ، أدرك الإسلام ولكنه لم يسلم ، ولما مات نصبت له بنو عامر أنصابًا ميلاً فى ميل حمى على قبره ، لا تنتشر فيه راعية ، ولا يرعى ولا يسلكه راكب ولا ماشى ، وله وقائع مشهورة فى مذحج وخثعم وغطفان) (٢) .

وحين كان عمه قد هوى الإسلام ولم يسلم ، أما هو فلا يزال عبد الزعامة والشهرة ، وكما يروى البخارى فى صحيحه عن مقدمه على رسول الله ﷺ يريد أن يتقاسم معه زعامة العرب : (وكان رئيس المشركين عامر بن الطفيل خيَّر بين ثلاث خصال فقال : يكون لك أهل السهل ولى أهل المدر ، أو أكون خليفتك ، أو أغزوك بأهل غطفان بألف وألف . . .) (٣) .

ويفسِّر لنا الحافظ ابن حجر هذا النص ،فمما يقوله فيه : (وكان رئيس المشركين عامر بن الطفيل) أى : ابن مالك بن جعفر بن كلاب وهو ابن أخى أبى براء عامر بن مالك ، وقوله : (خيرً) بفتح أوله وحذف المفعول أى:خير النبى ﷺ، وبيَّنه البيهقى فى الدلائل من رواية عثمان بن سعيد عن موسى بن إسماعيل شيخ البخارى فيه ولفظه: وكان أتى النبى ﷺ فقال له : أخيرك بين ثلاث خصال ، فذكر الحديث . قوله : (بألف وألف) ،فى رواية عثمان بن سعيد : بألف أشقر وألف شقراء (٤) . . . وبيَّن الطبرانى قدوم عامر بن الطفيل على النبى ﷺ : وأنه قال فيه : لأغزونك بألف أشقر وألف شقراء . وأن النبى ﷺ أرسل أصحاب بئر معونة بعد عامر ، وأنه غدر بهم

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ١٠٥ .   (٢) أيام العرب لجاد المولى بك وزملائه ٢٧٨ .
(٣) فتح البارى فى شرح صحيح البخارى ٧/ ٢٨٦ (٤٠٩١) .
(٤) الألف أشقر وألف شقراء : كناية عن الخيل .

وأخفر ذمة عمه أبى براء ، وأن النبى ﷺ دعا عليه فقال : « اللهم اكفنى عامراً »[1].

فإذن نحن أمام جو متوتر فى المدينة بين بنى عامر ، والمسلمين من خلال قدوم عامر بن الطفيل الذى جاء إلى رسول الله ﷺ ، وعرض زعامة الصحراء له وزعامة المدينة لرسول الله ﷺ ، وعرض كذلك أن يكون الخليفة فى الزعامة العربية بعد رسول الله ﷺ ، كما عرض قومه قبل سبع سنين (أرأيت إن نحن منعناك أيكون لنا الأمر من بعدك ؟) فبنو عامر بن صعصعة لايقرون بالزعامة لأحد ، ورفض رسول الله ﷺ عروض عامر ، فهدد عندها بغزو المدينة بألف فارس وألف فرس شقراء ، ولكن الغريب فى العرض والتهديد هو أن يغزو بغَطفان وهو من سيد بنى عامر ، لكنه يعلم أن سيادة عمه تحول دون ذلك ، ولعله كان من عمه بمثابة أبى لهبٍ من أبى طالب ، فقد غذَّى الحقد قلبه حين رفض رسول الله ﷺ مساومته ، وأراد أن يغزو المدينة لكن قومه لن يستجيبوا له بوجود عمه أبى البراء الذى صادق محمداً ﷺ ، وأرسل له الهدايا ، ثم كان أن زار بشخصه المدينة بعد زيارة ابن أخيه ، ودعا رسول الله ﷺ لإرسال الدعاة الهداة إلى قومه ، وأعلن إجارته لهؤلاء الدعاة فى فيافى نجد وقِفارها .

٦ ـ وكان أن مضى حرام بن ملحان بخطاب رسول الله ﷺ إلى عامر بن الطفيل، لتبدأ مهمة الدعاة فى مضارب بنى عامر ، وفقد عامر بن الطفيل صوابه ، وفقد قيمه وتحدى جوار عمه أبى البراء لهؤلاء الدعاة ، وقام بالمجزرة الأولى بقتل حرام بن ملحان غدرًا وغيلة وهو يقرأ كتاب رسول الله ﷺ . (فبينما هو يحدثهم إذا أومؤوا إلى رجلٍ منهم فأتى من خلفه فطعنه فأنفذه) فقال :(الله أكبر ،فزت ورب الكعبة) ثم قال بالدم هكذا فنضحه على وجهه .

وطالما أن عامرًا قد تورَّط وأخفر ذمة عمه . فليتابع غدرته. فاستصرخ عامر بن الطفيل عليهم بنى عامر فأبوا أن يجيبوه إلى ما دعاهم وقالوا: لن نخفر جوار أبى براء ، وقد عقد لهم عقدًا وجوارًا ، فلما أبت بنو عامر أن تنفر مع عامر بن الطفيل استصرخ عليهم قبائل من بنى سُليم عَصية ورِعل وذكوان ، وزِعْب فنفروا معه ورأسوه عليهم ، فقال عامر بن الطفيل: أحلف بالله ما أقبل هذا وحده ،فاتبعوا أثره حتى وجدوا القوم ، فأحاطوا بهم فى رحالهم ، فلما رآهم المسلمون أخذوا سيوفهم ثم قاتلوهم حتى قتلوا عن آخرهم .

ونفَّذ عامر بن الطفيل مجزرته الكبرى بسبعين من الأنصار هم من زهرة الأنصار وخيرتهم ، ولم تجف بعد دماء السبعين فى أحد ، فبين المحنتين أقل من أربعة أشهر .

---

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧ / ٣٨٧ .

ولابد أن نشير أن سُليم ، هى من أقرب القبائل لبنى عامر بن صعصعة ، فعامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة ، وسُلَيم بن منصور بن عكرمة ، وفروع سُليم التى أجرمت بحق أصحاب رسول الله ﷺ هى :

أ- بنو عصبة بن خفاف بن امرئ القيس بن بهتة بن سُلَيم .

ب- بنو رعل بن مالك بن عوف بن مالك بن امرئ القيس بن بهثة بن سُلَيم .

جـ- وبنو ذكوان بن رفاعة بن الحارث بن بهثة بن سليم ، ولبنى سُلَيم حروب وثارات ، فلا ننسى صخراً ومعاوية أخوى الخنساء والحروب التى خاضاها وهما من بنى عصية من سُلَيم ، لقد كنَّى عامر بن الطفيل بغطفان ، واستمد سُلَيما ، وخانته عامر فلم تخفر ذمة سيدها أبى البراء .

٧- وهذا سيد المسلمين من الأنصار فى بئر معونة وقائد السرية يعرض عليهم الأمان فيرفض ، فقالوا له : إن شئت أمناك . فقال : لن أعطى بيدى ولن أقبل لكم أمانًا حتى آتى مقتل حرام ثم برئ من جواركم ، فأمنوه حتى أتى مصرع حرام ، ثم برئوا إليه من جوارهم ثم قاتلهم حتى قتل ، وذاك عامر بن فهيرة سيد المهاجرين فى بئر معونة ، والذى دعا إلى الله تعالى بدمه وجسده بدل أن يدعو بلسانه حتى أسلم قاتله .

فروى البيهقى عن جبار بن سلمى بن مالك (ابن عم عامر بن الطفيل بن مالك) أنه قال لما طعنته : فزت وربِّ الكعبة ، قلت فى قلبى : ما معنى قولِه : فُزت . أليس قد قتلته ؟ قال: فأتيت الضحاك بن سفيان الكلابى فأخبرته بما كان وسألته عن قوله: فزت . فقال : فى الجنة . فقلت : فاز لعمرو الله قال: وعرض علىَّ الإسلام فأسلمت، ودعانى إلى الإسلام ما رأيت من مقتل عامر بن فهيرة ومن رفعه إلى السماء علواً . وكما قال عنه ﷺ : « إن الملائكة وارت جُثته وأنزل عليين » .

وهذا الحارث بن الصمة (أو المنذر بن محمد) وقد نجا من القتل ؛ إذ كان مع عمرو بن أمية الضمرى فى رعاية ظهرهم بعيداً عن الخطر . قال : ما كنت لأتأخر عن موطن قتل فيه المنذر بن عمرو ، وماكنت لتخبرنى عنه الرجال ، فأقبلا فلقيا القوم فقاتلهم الحارث حتى قَتَل منهم اثنين ، ثم أخذوه فأسروه وأسروا عمرو بن أمية ، وقالوا للحارث : ما تحب أن نصنع بك ؟ فإنا لانحب قتلك ؟ قال : أبلغونى مصرع المنذر بن عمرو وحرام بن ملحان ، ثم برئت من ذمتكم . قالوا : نفعل . فبلغوا به ثم أرسلوه فقاتلهم، فقتل منهم اثنين ثم قُتِل وما قُتل حتى شرعوا له الرماح فنظموه فيها .

ولا غرو أن يفعل الحارث بن الصمة ذلك ، فيقتل أربعة من المشركين ، فهو من الأبطال المعدودين فى أحد ، الذين شهد لهم رسول الله ﷺ بذلك . فقد روى الحاكم

بسند صحيح عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : جاء على يوم أحد بسيفه وقد انحنى ، فقال لفاطمة: هاكِ السيف حميدًا فإنه قد شفانى اليوم ، فقال رسول الله ﷺ : « لئن أجدت الضرب بسيفك لقد أجاد سهل بن حنيف ، وأبو دجانة ، وعاصم بن ثابت ، والحارث بن الصمة »(1) .

٨ ـ ولئن رأينا خبيبًا رضي الله عنه يستأسر فى سرية الرجيع فيصنع الكرامات والمعجزات بإساره ، فها نحن نرى عمرو بن أمية الضميرى يستأسر ، وهو الأسد الهصور ، (وأخبرهم عمرو بن أمية وهو أسير فى أيديهم إنه من مضر ولم يقاتل) ، فقال عامر ابن الطفيل : إنه قد كان على أمى نسمة فأنت حر عنها ، وجزَّ ناصيته .

ها هو عمرو يحدثنا عن أعماق الفاتك المجرم عامر بن الطفيل ، والذى أذهله ما رأى من عامر بن فهيرة ، فعن عروة أن عامر بن الطفيل قال لعمرو بن أمية : هل تعرف أصحابك ؟ قال : نعم ، قال : فطاف فى القتلى وجعل يسأله عن أنسابهم فقال : هل تفقد منهم أحدًا ؟ قال : أفقد مولى لأبى بكر يقال له : عامر بن فهيرة . فقال : كيف كان فيكم ؟ قلت : كان من أفضلنا ومن أول أصحاب نبينا . فقال : ألا أخبرك خبره ؟ وأشار إلى رجل فقال : هذا طعنه برمحه ثم انتزع رمحه فذُهِبَ بالرجل علواً فى السماء حتى والله ما أراه .

وهو الذى مضى بخبر مصاب القوم إلى المدينة ، فأقبل عمرو بن أمية حتى قدم على النبى ﷺ سار على رجليه أربعًا . فلما كان بصدور قناة لقى رجلين من كلاب قد كانا قدما على رسول الله ﷺ فكساهما ولهما منه أمان ، ولم يعلم بذلك عمرو ، فقابلهما فلما ناما وثب عليهما فقتلهما للذى أصابت بنو عامر من أصحاب بئر معونة ، ثم قدم على النبى ﷺ فأخبره بقتل أصحاب بئر معونة ، فقال :أنت من بينهم ، وأخبر عمرو النبى ﷺ بمقتل العامريين فقال: «بئس ما صنعت قتلت رجلين كان لهما منى أمان وجوار لأدينهما » ، فكتب إليه عامر بن الطفيل وبعث نفرًا من أصحابه يخبره : إن رجلاً من أصحابك قتل رجلين من أصحابى ولهما منك أمان وجوار فأخرج رسول الله ﷺ ديتهما ، دية حرين مسلمين فبعث بها إليهم .

ولنا عودة إلى البطل العظيم عمرو بن أمية عقب انتهاء الحديث عن بئر معونة .

٩ ـ وكان من بين القتلى عروة بن الصلت . فهو من بنى سُلَيم وهو حليف للأنصار، وقد حرص المشركون بعروة بن الصلت أن يؤمنوه فأبى ، وكان ذا خُلة بعامر ،

---

(1) المستدرك على الصحيحين للحاكم ٣/ ٢٤ .

مع أن قومه من بنى سُلَيم حرصوا على ذلك فأبى وقال : لا أقبل لكم أمانًا ولا أرغب بنفسى عن مصرع أصحابى .

إنها النماذج الفردية كل فرد بعينه رباه رسول الله ﷺ ، لم يخضع أحد منهم لرابطة دم كما رأينا من عروة بن الصلت ، أو يأخذ بريق الدنيا والحياة بقلبه ، كما رأينا المنذر بن عمرو والحارث بن الصمة ، ولم يتراجع أو ينكل واحد من السبعين إذ أقضوا جميعًا شهداء ، رفعوا راية الإسلام بدمائهم الذكية، وعرف العرب أنهم يقاتلون قومًا لا عهد لهم بقتالهم ، فلا يعرفون الفرار أو يعرفون الجبن أو يعرفون الخوف ، بل رأوا ما أذهل قلوبهم ،ورأوهم يهتفون حين يشرع الرمح فيهم،وحين تقطر الدماء من أجسادهم يقولون : فزتُ ورب الكعبة . وهؤلاء المقاتلون وهم يرون هذه النماذج ، لاشك أن الإيمان يغزو قلوبهم فيقاوموه ، ثم يغزوهم فيقاوموه أمام ضغط القرابة ، وضغط قيم القبيلة إلى أن يأتى الوقت الذى يهزم هذه القيم.فيستجيبون لداعى الهدى ، وينضمون إلى ركب الإيمان .

١٠ ـ وتكفَّل الله تعالى بإخبار نبيه بمحنتى الرجيع وبئر معونة بعد أن عقد الآمال العظام على هاتين السريتين ، وذلك فى ليلة واحـدة من أواخر صفر ، (فلما جاء رسول الله ﷺ خبر بئر معونة ، جاء معها فى ليلة واحدة مصابهم ومصاب مرثد بن أبى مرثد . فجعل رسول الله ﷺ يقول : « هذا عمل أبى براء، قد كنت لهذا كارهًا » ، ودعا رسول الله ﷺ على قتلتهم بعد الركعة من الصبح ، فى صبح تلك الليلة التى جاءه الخبر فلما قال : سمع الله لمن حمده ، قال : « اللهم اشدد وطأتك على مضر ، اللهم عليك ببنى لحيان ـ الذين غدروا بسرية الرجيع ـ وزعب ورعل وذكوان وعصية ، فإنهم عصوا الله ورسوله ، اللهم عليك ببنى لحيان وعضل والقارة ، اللهم انج الوليد ابن الوليد ، وسلمة بن هشام ، وعياش بن أبى ربيعة ، والمستضعفين من المؤمنين، غِفار غفر الله لها ، وأسلم سالمها الله » ، ثم سجد .فقال ذلك خمس عشرة ، ويقال: أربعين يومًا حتى نزلت هذه الآية : ﴿ **لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ** ﴾ (١) ولم يجد (٢) رسول الله ﷺ على قتلى ما وجد على قتلى بئر معـونة ، وكان أنس بن مالك يقول : أنزل الله فيهم قرآنًا قرأناه حتى نسخ (بلغوا قومنا أنا لقينا ربنا فرضى عنا ورضينا عنه) (٣) .

---

(١) آل عمران / ١٢٨ .

(٢) يجد : من الوجد والألم والأسى .

(٣) المغازى للواقدى ١/ ٣٥٠ وهى فى الصحيح .

لقد جاءت أخبار المحنتين بدماء الشهداء الذكية فى أواخر صفر بعد انتصارات المحرم العظيمة . ليبدأ رسول الله ﷺ جولة جديدة يواجه فيها آثار هاتين المحنتين ، وفى الوقت الذى كان يعانى فيه أعظم الآلام على فقدان مائة وخمسين من أصحابه خلال أقل من أربعة أشهر ، فإن هذا لم يمنع أبدًا من متابعة خوض المعركة مع العدو فى كل جانب ، ولم يمنعه من جهة ثانية غدر عامر بن الطفيل ، من قبول الغدر بالعامريين اللذين قتلهما عمرو ، بل سارع فدفع ديتهما كدية حرين مسلمين ، كما لم يدفعه ﷺ ما رأى من غدر عامر بن الطفيل أن يتهم أبا براء بالغدر ، حتى أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم يدع على بنى عامر . إنما دعا على قبائل سُليم الغادرة وقال عن بنى عامر: « اللهم اهد بنى عامر واطلب خفرتى من عامر بن الطفيل » .

إنه الرحمة المهداة ، وإنه رسول البشرية كافة ، وإنه الرحمة للعالمين جميعًا . فلا يمكن أن يؤخذ إنسان بجريرة آخر فى شريعة الله ـ عز وجل ـ وحين نفَّث رسول الله ﷺ عن روعه ، ونفَّس عن كربه ـ وهو الرسول البشر ـ لما ألَمَّ بصحبه أربعين صباحًا. جاءه جبريل ـ عليه الصلاة والسلام ـ ليقول له : إن هذه القبائل قد يتوب الله عليها ، ولابد أن تنال منه الرحمة ، رغم ما عصت به الله ورسوله.

جاء القرآن الكريم ليقول له : ﴿ **لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ** ﴾ (١) .

١١ ـ ولم يمر غدر عامر بن الطفيل بدون ثمن ، فقد كان أبو براء يحرص على صداقة محمد ﷺ،ويحرص على وده ، لكن تقدم السن به حالت دون تحقيق أهدافه .

أقبل أبو براء سائرًا وهو شيخ كبير همٌّ (٢) ، فبعث من العيص (٣) ابن أخيه لبيد ابن ربيعة ـ الشاعر ـ بهدية، فردَّه النبى ﷺ وقال:« لا أقبل هدية مشرك » فقال لبيد : ما كنت أظن أن أحدًا من مضر يرد هدية أبى براء . فقال النبى ﷺ: « لو قبلت هدية مشرك لقبلت هدية أبى براء » قال : فإنه بعث يستشفيك من وجع به ، وكانت به الدبيلة (٤) ، فتناول النبى ﷺ جبوبة (٥) من الأرض فتفل فيها ثم ناوله وقال : « دفها بماء ثم اسقها إياه » ففعل فبرئ . ويقال : إنه بعث إليه بعكة (٦) عسل فلم يزل يلعقها حتى برئ ، فكان أبو براء يومئذ سائرًا فى قومه يريد أرض بلى ، فمر بالعيص فبعث

(١) آل عمران / ١٢٨ .
(٢) همٌّ : الشيخ الفانى .
(٣) العيص : وادٍ لجهينة بين المدينة والبحر .
(٤) الدبيلة : داءٌ فى الجوف .
(٥) جبوبة : ما نبت على ظهر الأرض .
(٦) العكة : وعاء من جلد مستدير يختص بالسمن والعسل .

ابنه ربيعة مع لبيد يحملان طعامًا فقال رسول الله ﷺ لربيعة: « ما فعلت ذمة أبيك ؟ » قال ربيعة : نقضتها ضربة بسيف أو طعنة برمح ! فقال رسول الله ﷺ : « نعم » .

فخرج ابن أبى براء فخبَّر أباه ، فشقَّ عليه ما فعل عامر بن الطفيل ، وما صنع بأصحاب النبى ﷺ ولا حركة به من الكِبَرِ والضعف فقال : أخفرنى ابن أخى من بين بنى عامر ، وسار حتى كانوا على ماءٍ من مياه بلى يقال لها : الهدم . فيركب ربيعة فرسًا له ويلحق عامرًا وهو على جمل له فطعنه بالرمح فأخطأ مقاتله ،وتصايح الناس . فقال عامر بن الطفيل : إنها لم تضرنى ! إنها لم تضرنى ،وقال : قُضيت ذمة أبى براء، وقال عامر بن الطفيل : قد عفوت عن عمى ، هذا فعله !

وعند ابن هشام : فحمل ربيعة بن عامر بن مالك على عامر بن الطفيل فطعنه بالرمح فوقع فى فخذه فأشواه (١) ، ووقع عن فرسه ، فقال : هذا عمل أبى براء ، إن أمت فدمى لعمى فلا يُتبعنَّ به ، وإن أعش فسأرى رأيى فيما أتى إلى (٢) .

١٢ ـ ولابد لنا من وقفة أخيرة مع شهداء بئر معونة ، أولئك القراء من خيرة صحب محمد ﷺ الذين ذهبوا ضحية الغدر عند الأعراب من قبائل سُلَيم. كان بين الشهداء ثلاثة من قريش ، وعلى رأسهم:

عامر بن فهيرة رضي الله عنه : الذى أخذت الملائكة جثته ، ووارته فى عليين ، ونتساءل عن عظمة عامر بن فهيرة وفضله من أين جاءته ، ولايعنينا الجواب . فهو مولى الصدِّيق رضي الله عنه لكنه فاز بصحبة المصطفى ﷺ أيامًا متتالية وكان وحده مع الصديق رضي الله عنه وهم فى طريق الهجرة إلى المدينة ، وإذا ذكر فضل الصديق بالقرآن: ﴿ **ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا** ﴾ (٣) فبعد أن غادر الرسول ﷺ وصاحبه الغار انضم عامر إليهم حتى وصل ثلاثتهم المدينة ، فقد اغترف من هذا الكنز فى لحظات الوحدة والصفاء هذه ، ما جعل نظرة السبعين إليه أنه أفضلهم .

الحكم بن كيسان : وهو الذى أسر فى غزوة عبد الله بن جحش فى شعبان قبل بدر. وعوضًا عن أن يلتحق بالمشركين التحق بالإسلام ، وشرح الله صدره له ، ثم أكرمه الله تعالى بالشهادة فى بئر معونة وهو حليف لبنى مخزوم .

نافع بن بديل بن ورقاء : وهو ابن سيد خزاعة . كان قديم الإسلام من الرعيل الأول ، ورثاه عبد الله بن رواحة بقوله :

---

(١) أشواه : لم يصب مقتله .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٣ / ٢٦٥ .

(٣) التوبة / ٤٠ .

رحـم الله نـافـع بـن بـديـل رحـمة المبتـغى ثـواب الجهاد
صـابراً صـادق الحـديث إذا ما أكـثر القـوم قـال قـول السداد

هؤلاء الثلاثة من المهاجرين ، أما الأنصار : فقد اكتفت المصادر بذكر القيادات أو الرؤساء منهم كما عبَّر الحافظ ابن حجر عن ذلك ، والأسماء التى تبرز بين يدينا من الآن ، هى الأسماء ذات الطاقات العالية ، والشخصيات القيادية ، فكل من ذكرته المصادر من السبعين قرابة خمس وعشرين ذكرنا المهاجرين الثلاثة منهم ، ونعرض الباقين من أنصار الله ورسوله .

البدريون : وهم اثنى عشر : المنذر بن محمد بن عقبة، والحارث بن الصمة، وأبى بن معاذ ، وأنس بن معاذ ، وعامر بن فهيرة ، وحرام بن ملحان ، وسليم بن ملحان ، والمنذر بن عمرو ، ومعاذ بن ماعص ، وعائذ بن ماعص ، ومسعود بن سعد ابن قيس ـ أبو شيخ بن ثابت ـ وبقى اثنان أحياء هما عمرو بن أمية ، وكعب بن زيد .

الأحديون : اثنان وهم : سفيان بن حاطب بن أمية ، وسعد بن عمرو بن ثقف .

فالنصف من الخمس والعشرين قُدِّر لهم أن يكونوا فى الصف الأول الجهادى . والنصف الثانى لانعرف عنهم إلا أنهم استشهدوا ببئر معونة وهم : ١٥ـ عمرو بن محصن ، ١٦ـ سفيان بن ثابت ، ١٧ـ عروة بن أسماء بن الصلت ، ١٨ـ قطبة بن عبد عمرو ، ١٩ـ خالد بن ثابت بن النعمان ، ٢٠ـ الطفيل بن سعد بن عمرو ، ٢١ـ سهل ابن عامر بن سعد ، ٢٢ـ عبد الله بن قيس بن صرمة ، ٢٣ـ نافع بن بديل بن ورقاء ، ٢٤ـ الحكم بن كيسان ، وبقيت بقية الأسماء تسرح فى أبهاء الجنة عند ربها سبحانه ولا يضيرها ألا نعرف عنها إلا الشهادة ، فشهادة الله تعالى لها فيما قرئ ونسخ كما فى الصحيح :(بلغوا عنا قومنا أنا لقينا ربنا فرضى عنا وأرضانا) .

ربيع الأول
وإخراج بنى النضير

قال الحافظ ابن حجر فى الفتح : وروى ابن مردويه قصة بنى النضير بإسناد صحيح إلى معمر عن الزهرى : أخبرنى عبد الله بن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن رجل من أصحاب النبى ﷺ قال : كتب كفار قريش إلى عبد الله بن أبى وغيره ممن يعبد الأوثان قبل بدر يهددونهم بإيوائهم النبى وأصحابه ، وتوعدوهم أن يغزوهم بجميع العرب ، فهمَّ ابن أبى ومن معه بقتال المسلمين ، فأتاهم النبى ﷺ فقال : « ما كادكم أحد بمثل ما كادتكم قريش يريدون أن تلقوا بأسكم بينكم » فلما سمعوا ذلك عرفوا الحق فتفرقوا ، فلما كانت وقعة بدر كتبت كفار قريش بعدها إلى اليهود إنكم أهل الحلقة والحصون ، يتهددونهم. فأجمع بنو النضير على الغدر ، فأرسلوا إلى النبى ﷺ: أخرج إلينا فى ثلاثة من أصحابك يلقاك ثلاثة من علمائنا ، فإن آمنوا بك اتبعناك . ففعل ، فاشتمل اليهود الثلاثة على الخناجر ، فأرسلت امرأة من بنى النضير إلى أخٍ لها من الأنصار مسلم تخبره بأمر بنى النضير، فأخبر أخوها النبى ﷺ قبل أن يصل إليهم ، فرجع ، وصبحهم بالكتائب فحصرهم يومه ، ثم غدا على بنى قريظة ، فحاصرهم فعاهدوه ، فانصرف عنهم إلى بنى النضير فقاتلهم حتى نزلوا على الجلاء ، وعلى أن لهم ما أقلت الإبل إلا السلاح ، فاحتملوا حتى أبواب بيوتهم ، فكانوا يخربون بيوتهم بأيديهم فيهدمونها ، ويحملون ما يوافقهم من خشبها ، وكان جلاؤهم ذلك أول حشر الناس إلى الشام ، وكذا أخرجه عبد بن حميد فى تفسيره عن عبد الرزاق ، وفى ذلك رد على ابن التين فى زعمه أنه ليس فى هذه القصة حديث بإسناد .

قلتُ : فهذا أقوى مما ذكر ابن إسحاق أن سبب غزوة بنى النضير : طلبه ﷺ أن يعينوه فى دية الرجلين ، لكن وافق ابن إسحاق جلُّ أهل المغازى (١) ، وإذا ثبت أن سبب إجلاء بنى النضير ما ذكر من همهم بالغدر به ﷺ ، وهو إنما وقع عندما جاء إليهم ليستعين بهم فى دية قتيلى عمرو بن أمية ، تعين ما قال ابن إسحاق ؛ لأن بئر معونة كانت بعد أحد بالاتفاق (٢) .

---

(١) أى : أن غزوة بنى النضير بعد أحد وليست بعد بدر كما هى فى البخارى عن الزهرى عن عروة . أما رواية أبى الأسود عن عروة فهى بعد أحد .

(٢) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧ / ٣٣١ ، ٣٣٢ .

وفى رواية أبى الأسود عن عروة قال : خرج رسول الله ﷺ فى نفر من أصحابه إلى بنى النضير يستعينهم فى عقل الكلابيين ، وكانوا قد دسُّوا إلى قريش حين نزلوا بأحد لقتال رسول الله ﷺ وأصحابه ، فحضوهم على القتال ودلُّوهم على العورة ، فلما كلَّمهم فى عقل الكلابيين ، قالوا : اجلس أبا القاسم حتى تُطعَم وترجع بحاجتك التى جئت لها ـ وتقوم ـ فنشاور ونصلح أمرنا فيما جئت له ، فجلس رسول الله ﷺ ومن معه من أصحابه إلى ظل جدار ينتظر أن يصلحوا أمرهم ، فلما دخلوا ومعهم الشيطان لا يفارقهم،ائتمروا بقتله وقالوا :لاتجدونه أقرب منه الساعة ، استريحوا منه ، تأمنوا فى دياركم ويرفع عنكم البلاء ، قال رجل منهم : إن شئتم رقيت على الجدار الذى هو تحته ، فدليت عليه حجراً فقتلته ، فأوحى الله ـ عز وجلَّ ـ إليه ، فقام رسول الله ﷺ كأنه يريد أن يقضى حاجة ، وترك أصحابه مكانهم ، وأعداء الله فى نجيّهم، فلما فرغوا وقضوا حاجتهم ، وأمرهم فى محمد ، أتوا فجلسوا مع أصحاب رسول الله ﷺ ينتظرونه ، فأقبل رجل من المدينة بعد أن راث عليهم ، فسألوا عنه، فقال : لقيته عامد المدينة قد دخل فى أزقَّتها ، فقالوا : عجَّل أبو القاسم أن نقيم أمرنا فى حاجته التى جاء لها ، ثم قام أصحاب رسول الله ﷺ ونزل القرآن على رسول الله ﷺ بالذى أراده أعداء الله به فقال : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ** ﴾ (١) .

وأمر رسول الله ﷺ بإجلائهم،لما أرادوا برسول الله ﷺ ، فلما أخذهم بأمر الله ، وأمرهم أن يخرجوا من ديارهم فيسيروا حيث شاؤوا ، قالوا :أين تخرجنا ؟ قال:« إلى الحشر » (٢) .

فلما سمع المنافقون ما يراد بإخوانهم وأوليائهم من أهل الكتاب أرسلوا إليهم فقالوا لهم : إنا معكم محيانا ومماتنا إن قوتلتم فلكم علينا النصر ، وإن خرجتم لن نتخلف عنكم ، وسيد اليهود أبو صفية حيى بن أخطب ، فلما وثقوا بأمانى المنافقين عظمت غرَّتهم ومنَّاهم الشيطان الظهور،فنادوا النبى ﷺ إنا والله لانخرج ولئن قاتلتنا لنقاتلك ، فمضى النبى ﷺ لأمر الله تعالى ، فأخذوا السلاح ، ثم مضى إليهم ، وتحصنت اليهود فى دورهم وحصونهم ، وحفظ الله ـ عز وجل ـ له أمره ، وعزم على رشده ، فأمر بالأدنى فالأدنى من دورهم أن تهدم ، وبالنخل أن تحرَّق وتقطع ، وكفَّ الله تعالى أيديهم وأيدى المنافقين ، فلم ينصروهم ، وألقى الله ـ عز وجل ـ فى قلوب الفريقين كلاهما الرعب ، ثم جعلت اليهود كلما خلص رسول الله ﷺ من هدم ما يلى مدينته ،

---

(١) المائدة / ١١ .

(٢) مغازى رسول الله ﷺ لعروة بن الزبير تحقيق د . محمد مصطفى الأعظمى ١٦٤ ، ١٦٥ .

ألقى الله - عز وجل - فى قلوبهم الرعب ، فهدموا الدور التى هم فيها من أدبارها ، ولم يستطيعوا أن يخرجوا على النبى وأصحابه يهدمون ما أتوا عليه الأول فالأول، فلما كادت اليهود أن تبلغ آخر دورها ، وهم ينتظرون المنافقين وما كانوا منوهم ، فلما يئسوا مما عندهم سألوا رسول الله ﷺ الذى كان عرض عليهم قبل ذلك فقاضاهم رسول الله ﷺ على أن يجليهم ولهم ما استقلت به الإبل من الذى كان لهم إلا ما كان من حلْقة أو سلاح ، فطاروا كل مطيَّر ، وذهبوا كل مذهب ، ولحق بنو أبى الحقيق طيَّر معهم آنية كثيرة من فضة قد رآها النبى ﷺ وأصحابه والمسلمون حين خرجوا بها، وعمد حيى ابن أخطب حين قدم مكة على قريش فاستغواهم على رسول الله ﷺ واستنصرهم ، وبيَّن الله - عز وجل - لرسول الله ﷺ حديث أهل النفاق وما بينهم وما بين اليهود ، وكانوا قد عيَّروا المسلمين حين يهدمون الدور ويقطعون النخيل فقالوا : ما ذنب شجرة وأنتم تزعمون أنكم مصلحون ؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿ **سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ **مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ** [١] **أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ** ﴾[٢] ثم جعلها نفلاً لرسول الله ﷺ ولم يجعل فيها سهمًا لأحد غيره فقال : ﴿ **وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾[٣] . فقسمها رسول الله ﷺ فيما أراه الله - عز وجل - من المهاجرين الأولين ، وأعطى منها الأنصار رجلين: سماك بن أوس بن خرشة - وهو أبو دجانة - وسهل بن حنيف ، وأعطى - زعموا - سعد بن معاذ سيف بن أبى الحقيق [٤] .

ونعرض صورتين متقابلتين على أعقاب الحديث عن بنى النضير تمثلان صورة المجتمع الإسلامى ، وصورة المجتمع اليهودى :

الأولى :

حدثنى معمر عن الزهرى عن خارجة بن زيد عن أم العلاء [٥] قالت :

صار[٦] لنا عثمان بن مظعون فى القرعة ، وكان فى منزلنا حتى توفى ، وكان

---

(١) اللينة : النخلة .
(٢) الحشر / ١ ــ ٥ .
(٣) الحشر / ٦ .
(٤) دلائل النبوة للبيهقى ٣/ ١٨٠-١٨٣ . وقال البيهقى بعدها : « هذا لفظ موسى بن عقبة ، وحديث ابن لهيعة بمعناه إلى إعطاء سعد بن معاذ سيف بن أبى الحقيق » .
(٥) سند الواقدى المتصل بأم العلاء - رضى الله عنها - جميعهم ثقات ومن رجال الصحيح .
(٦) الوارد فى البخارى : طار بدل صار .

المهاجرون فى دورهم وأموالهم ، فلما غنم رسول الله ﷺ بنى النَضير دعا ثابت بن قيس بن شماس فقال : « ادع لى قومك » قال ثابت : الخزرج يارسول الله ؟ قال رسول الله ﷺ : « الأنصار كلها » فدعا له الأوس والخزرج فتكلم رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم ذكر الأنصار وما صنعوا بالمهاجرين ، وإنزالهم إياهم فى منازلهم ، وأثرتهم على أنفسهم ثم قال : « إن أحببتم قسمت بينكم وبين المهاجرين مما أفاء الله علىَّ من بنى النضير ، وكان المهاجرون على ما هم عليه من السُكنى فى مساكنكم وأموالكم ، وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دوركم » ، فتكلم سعد بن عبادة ، وسعد بن معاذ فقالا : يارسول الله ، بل نقسمه للمهاجرين ، ويكونون فى دورنا كما كانوا، ونادت الأنصار: رضينا وسلَّمنا يارسول الله . قال رسول الله ﷺ : « اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار ! » فقسم رسول الله ﷺ على ما أفاء الله عليه ، وأعطى المهاجرين ولم يعط أحدًا من الأنصار من ذلك الفىء شيئًا إلا رجلين كانا محتاجين ـ سهل بن حنيف ، وأبا دِجانة ـ وأعطى سعد ابن معاذ سيف بن أبى الحقيق ، وكان سيفًا له ذكر عندهم (١) .

(وذكر البلاذرى فى كتاب فتوح البلدان أن رسول الله ﷺ قال للأنصار : « ليس لإخوانكم من المهاجرين أموال ، فإن شئتم قسمتم هذه وأموالكم بينكم وبينهم جميعًا ، وإن شئتم أمسكتم أموالكم، وقسمتُ هذه فيهم خاصة» قالوا: بل قسم هذه فيهم، واقسم لهم من أموالنا ما شئت فنزلت: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ (٢) .

قال أبو بكر رضي الله عنه : جزاكم الله يامعشر الأنصار خيرًا ، فوالله ما مثلنا ومثلكم إلا كما قال الغَنَوِىُّ :

جزى الله عنا جعفراً حين أزلفت ... بنا نَعْلُنا فى الواطئين فزلَّت
أبوْا أن يملّونا ولو أن أمَّنا ... تلاقى الذى يلقون منا لملَّتَ

قلت : روى الآجرى فى كتاب الشريعة عن قيس بن أبى حازم : قال أبو بكر رضي الله عنه فذكر نحو ما تقدم) (٣) .

الثانية :

وتمثل صورة المجتمع اليهودى الآسن .

---

(١) المغازى للواقدى ١/٣٧٩ . (٢) الحشر / ٩ .

(٣) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحى ٤/ ٤٦٣ .

روى البيهقى بسنده عن إبراهيم بن جعفر عن أبيه قال : لما خرجت بنو النضير من المدينة أقبل عمرو بن سعدى فأطاف بمنازلهم فرأى خرابها ،وفكرّ ثم رجع إلى بنى قريظة فوجدهم فى الكنيسة ، فنفخ فى بوقهم فاجتمعوا فقال الزبير بن باطا : يا أبا سعيد ! أين كنت منذ اليوم لم نرك؟ وكان لا يفارق الكنيسة ، وكان يتأله فى اليهودية . قال :

رأيت اليوم عبراً قد عبِّرنا بها ، رأيت منازل إخواننا خالية بعد ذلك العز والجلد والشرف الفاضل والعقل البارع ، قد تركوا أموالهم ، وملكها غيرهم ، وخرجوا خروج ذل ، ولا والتوراة ما سُلِّط هذا على قومٍ لله بهم حاجة ، وقد أوقع قبل ذلك بابن الأشرف ذى عِزِّهم ، ثم بيَّته فى بيته آمنًا ، وأوقع بابن سنينة سيدهم ، وأوقع فى بنى قينقاع فأجلاهم وهم أهل جد يهود ، كانوا أهل عِدةً وسلاح ونجدة فحصرهم ، فلم يُخرج إنسان منهم رأسه حتى سباهم فكُلِّم فيهم فتركهم على أن أجلاهم عن يثرب ، ياقوم ! قد رأيتم ما رأيت فأطيعونى ، وتعالوا نتبع محمدًا ، فوالله إنكم لتعلمون أنه نبى ، وقد بُشِّرنا به ، وبأمرهم ابن الهيبان أبو عمير ، وابن حراش وهما أعلم يهود جاءا من بيت المقدس يتوكفان قدومه ، وأمرانا باتباعه، وأمرانا أن نقرئه منهما السلام ، ثم ماتا على دينهما ودفنا هما بحرتنا هذه .

فأسكت القوم ، فلم يتكلم منهم متكلم، فأعاد هذا الكلام وخوَّفهم بالحرب والسباء والجلاء ، فقال الزبير بن باطا : قد والتوارة قرأت صفته فى كتاب باطا التوراة التى أنزلت على موسى، ليس فى المثانى الذى أحدثنا . قال : فقال له كعب بن أسد : ما يمنعك يا أبا عبد الرحمن من اتباعه ؟ قال : أنت . قال كعب : ولِمَ والتوراة ما حُلتُ بينك وبينه قط . قال الزبير : أنت صاحب عقدنا وعهدنا ، فإن اتبعته اتبعناه ، وإن أبيت أبينا ، فأقبل عمرو بن سعدى على كعب فقال (١) :

أما والتوراة التى أنزلت على موسى يوم طور سينا إنه للعز والشرف فى الدنيا، وإنه لعلى منهاج موسى ، وينزل معه وأمته غدًا فى الجنة .

قال كعب : نقيم على عهدنا وعقدنا فلا يخْفِر لنا محمد ذِمَّة ، وننظر ما يصنع حيى ، فقد أُخرج إخراج ذل وصغار ، فلا أراه يقرٌّ حتى يغزو محمدًا ، فإن ظفر بمحمد فهو ما أردنا ، وأقمنا على ديننا ، وإن ظفر بحيى فما فى العيش خير ، وتحولنا من جواره .

قال عمرو بن سعدى : ولم تؤخِّر الأمر وهو مقبل ؟ قال كعب : ما على هذا فوق ، متى أردت هذا من محمد أجابنى إليه . قال عمرو : والتوراة إن عليه لغوثًا إذا

---

(١) دلائل النبوة للبيهقى ، وقد رواه عن الواقدى ٣/ ٣٦١ ، ٣٦٢ .

سار إلينا محمد فتخبأنا فى حصوننا هذه التى قد خدَعَتْنا فلا نفارق حصوننا حتى ننزل على حكمه ، فيضرب أعناقنا .

قال كعب بن أسد : ما عندى من أمره إلا ما قلت ، ما تطيب نفسى أن أصبر تابعًا لقول هذا الإسرائيلى، ولا يعرف فضل النبوة ولا قدْر الفعال . قال عمرو بن سعدى : بل لعمرى ليعرفن ذلك [1] ، وعن المِسوَر بن رفاعة قال : وقبض رسول الله ﷺ الأموال وقبض الحلْقة ، فوجد من الحلقة خمسين درعًا وخمسين بيضة ، وثلثمائة سيف وأربعين سيفًا ، ويقال : غيبوا بعض سلاحهم وخرجوا به [2] .

١ ـ شخص رسول الله ﷺ هو الهدف الرئيسى عند المشركين وأهل الكتاب وعند معسكر الكفر وحزب الشيطان ، فهم يعلمون أن القضاء على رسول الله ﷺ قضاء على الإسلام حسب تصورهم ، ونلاحظ هذا من خلال المخططات التالية :

أ ـ إبليس ـ لعنه الله ـ هو الذى يقود الحرب فى أحد ، ويشارك فيها ، ويعرف عظمة شخص النبى وأثره فى أمته ، وهو الذى أتمَّ خطة خالد بن الوليد انقض على المسلمين من الخلف :

قال ابن إسحاق : وحدثنى يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عباد عن عبد الله بن الزبير عن الزبير أنه قال : والله لقد رأيتنى أنظر إلى خدم[3] هند بنت عتبة وصواحبها مشمرات هوارب ، ما دون أخذهن قليل ولا كثير ، إذْ مالت الرماة إلى العسكر حين كَشَفَنا القوم عنه ، وخلوا ظهورنا للخيل فأُتينا من خلفنا وصرخ صارخ : ألا إن محمداً قد قُتِل ، فانكفأنا وانكفأ علينا القوم بعد أن أصبنا أصحاب اللواء حتى ما يدنو منه أحد من القوم [4] .

وقد نعى القرآن الكريم على الأمة المسلمة انهيارها لخبر مقتل رسول الله ﷺ، ورباها على أن ترتبط بالله وحده لا برسول الله ولو كان أحب خلق الله إلى الله، لكنه الأمر الواقع .

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ [5] .

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٤/ ٤٦٣ ـ ٤٦٥ . (٢) المغازى للواقدى ١/ ٣٧٧ .

(٣) الخدم : جمع خدْمة وهى الخلخال .

(٤) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ١١٢ وقال المحقق فيه : «صرح ابن إسحاق بالسماع ، وسنده متصل ، ورجاله ثقات . فيكون الحديث صحيحًا » .

(٥) آل عمران / ١٤٤ .

ب ـ ولقناعة معسكر الشرك بعظمة المصطفى ﷺ ودوره فى هذه الدعوة فهو رسول الله وهو قائد الأمة ، فقد كان الهدف الرئيسى عندهم قتله .

(وكان أربعة من قريش قد تعاهدوا أو تعاقدوا على قتل رسول الله ﷺ وعرفهم المشركون بذلك : عبد الله بن شهاب ، وعتبة بن أبى وقاص ، وابن قُميئة ، وأبى بن خلف . . . وأقبل ابن قُميئة وهو يقول : دلونى على محمد ، فوالذى يحلف به لئن رأيتُه لأقتلنه ! فعلاه بالسيف ، ورماه عتبة بن أبى وقاص مع تجليل السيف ، وكان عليه ﷺ درعان ، فوقع رسول الله ﷺ فى الحفرة التى أمامه فجحشت ركبتاه ، ولم يصنع سيف بن قميئة شيئًا إلا وهن الضربة بثقل السيف . . .) (١) .

(ولما أسند رسول الله ﷺ فى الشعب أدركه أبى بن خلف وهو يقول : أى محمدًا لانجوت إن نجا . فقال القوم : يارسول الله أيعطف عليه رجل منا ؟ فقال رسول الله ﷺ : « دعوه » ! فلما دنا تناول رسول الله ﷺ الحربة من الحارث بن الصمة . فلما أخذها رسول الله ﷺ انتفض بها انتفاضة تطايرنا عنه تطاير الشَّعْراء (٢) عن ظهر البعير إذا انتفض ، ثم استقبله فطعنه فى عنقه طعنة تدأدأ (٣) بها عن فرسه مرارًا)(٤) .

وعن نافع بن جبير قال : سمعت رجلاً من المهاجرين يقول : شهدت أحدًا فنظرت إلى النبل تأتى من كل ناحية ورسول الله ﷺ وسطها كل ذلك يصرف عنه ، ولقد رأيت عبد الله بن شهاب الزهرى يقول يومئذ : دلونى على محمد فلا نجوت إن نجا ، وإن رسول الله ﷺ إلى جنبه ما معه أحد ، ثم جاوزه ، ولقى عبد الله بن شهاب صفوان ابن أمية فقال صفوان : ترجت ، ألم يمكنك أن تضرب محمدًا فتقطع هذه الشأفة فقد أمكنك الله منه ؟ قال : وهل رأيته ؟ قال: نعم ، أنت إلى جنبه . قال : والله ما رأيته أحلف بالله إنه ممنوع ، خرجنا أربعة تعاهدنا وتعاقدنا على قتله ، فلم نخلص إلى ذلك (٥) .

وهذا غير المحاولات الجانبية الأخرى لقتله ﷺ مثل محاولة عبد الله بن زهير، وعثمان بن عبد الله بن المغيرة المخزومى واللذين لقيا مصرعهما على يد أبى دجانة رضي الله عنه وعلى بن أبى طالب رضي الله عنه .

جـ ـ وها هو قائد جيش المشركين يتحدث عن هدفه الأعلى بقتل محمد ﷺ فى نهاية المعركة :

---

(١) المغازى للواقدى ١/ ٢٤٤ .

(٢) الشعْراء : ذباب له لدغ .

(٣) تدأدأ : مال أو تقلّب عن فرسه فجعل يتدحرج . كما فسرها ابن هشام .

(٤) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ١٢١ ، ١٢٢ .

(٥) المغازى للواقدى ١/ ٢٣٧ ، ٢٣٨ .

(وأشرف أبو سفيان فقال : أفى القوم محمد ؟ فقال : « لاتجيبوه ». فقال : أفى القوم ابن أبى قحافة ؟ قال : « لاتجيبوه » . فقال : أفى القوم ابن الخطاب ؟ فقال : إن هؤلاء قتلوا ، فلو كانوا أحياء لأجابوا . فلم يملك عمر نفسه فقال : كذبت ياعدو الله أبقى الله عليك ما يخزيك) (١) . وعند ابن إسحاق فى السيرة :

(قال له أبو سفيان : هلمَّ إلىَّ ياعمر ، فقال رسول الله ﷺ : « ائته فانظر ما شأنه » فجاءه فقال له أبو سفيان : أنشدك الله ياعمر ، أقتلنا محمداً ؟ قال عمر: اللهم لا ، وإنه ليسمع كلامك الآن . قال : أنت أصدق عندى من ابن قَمِيئة وأبر ، لقول ابن قَمِيئة لهم : إنى قتلت محمداً) (٢) .

د ـ وحين فشل أبو سفيان فى تحقيق هدفه الأعلى ؛ رأينا كيف تواطأ مع الأعرابى وبعثه لاغتيال محمد ﷺ فى المدينة بعد أحد وبئر معونة ، وكيف باءت المحاولة بالفشل الذريع ، وأسلم الأعرابى .

هـ ـ وهذه محاولة اليهود الجديدة التى بين أيدينا سيان على رواية الصحيح التى تقول : (فاشتمل اليهود الثلاثة على الخناجر ، فأرسلت امرأة من بنى النضير إلى أخ من الأنصار مسلم تخبره بأمر بنى النضير ، بأمر تبييت الغدر برسول الله ﷺ أثناء المقابلة) أو فى رواية أصحاب المغازى : (فلما دخلوا ومعهم الشيطان لايفارقهم ؛ ائتَمروا بقتله وقالوا : لاتجدونه أقرب منه الساعة ، استريحوا منه تأمنوا فى دياركم ، ويرفع عنكم البلاء . قال رجل منهم : إن شئتم رقيت على الجدار الذى هو تحته ، فدليت عليه حجراً فقتلته . فأوحى الله تعالى إليه ، فقام رسول الله ﷺ كأنما يريد أن يقضى حاجة وترك أصحابه مكانهم) (٣) .

وباءت جميع المحاولات بالفشل ؛ لأن الله تعالى عصمه من الناس : ﴿ **وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ** ﴾ (٤) فيهيئ من يحميه من الملائكة حين ينتهى الناس أو يتقاصرون كما قال سعد رضي الله عنه : (رأيت رسول الله ﷺ رجلان يقاتلان عنه عليهما ثياب بيض كأشد القتال ، ما رأيتهما قبل ولابعد ، هما جبريل وميكائيل ، كما وقع فى مسلم من طريق أخرى عن مسعر ، وفى آخره يعنى : جبريل وميكائيل)(٥) .

---

(١) فتح البارى للحافظ ابن حجر فى شرح البخارى ج ٧ ص٣٤٩ (٤٠٤٣) .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ١٣٦ .

(٣) مغازى رسول الله ﷺ لعروة بن الزبير ١/ ١٦٤، ١٦٥ .

(٤) المائدة / ٦٧ .

(٥) فتح البارى شرح البخارى ج ٧ ص٣٥٨ (٤٠٥٤) .

٢ ـ وحيث إنا ناقشنا بإسهاب غزوة بنى النضير فى (التربية الجهادية) فنتحدث هنا عن : صورة المدينة وقد رحل عنها بنو النضير كما شهدنا وصف عمرو بن سعدى لها حين طاف بمنازلهم ، فرأى خرابها وقال لبنى قريظة: البقية الباقية من اليهود فى المدينة.

رأيت منازل إخواننا خالية بعد ذلك العز والجلد والشرف الفاضل والعقل البارع ، قد تركوا أموالهم وملكها غيرهم ، خرجوا خروج ذل ، لا والتوراة ما سُلِّط هذا على قوم قط لله بهم حاجة ، وقد أوقع قبل ذلك بابن الأشرف ذى عِزِّهم ثم بيَّته فى بيته آمنًا ، وأوقع بابن سنينة سيدهم .

هؤلاء بنو النضير الذين تحركت عقارب الغدر عندهم بعد أحد والرجيع وبئر معونة ، وحسبوا أن الفرصة كانت مواتية للانقضاض على محمد ﷺ ، وبدؤوا يدبرون بالخفاء المؤامرات لمواجهة رسول الله ﷺ يحسبون أنهم قادرون الآن على النيل منه ، واعتمدوا على الحزب الهش ـ حزب المنافقين ـ ليكون لهم سندًا وملاذًا .

(فأرسل حيى أخاه جُدَىًّ بن أخطب إلى رسول الله ﷺ : إنا لانبرح من دارنا وأموالنا فاصنع ما أنت صانع ، وأمره أن يأتى ابن أبىّ فيخبره برسالته إلى محمد وأمر بتعجيل ما وعد من النصر . . وخرج جدى حتى دخل على ابن أبىّ وهو جالس فى بيته مع نفير من حلفائه ، وقد نادى منادى رسول الله ﷺ يأمرهم بالمسير إلى بنى النضير . فيدخل عبد الله بن عبد الله بن أبى على عبدالله أبيه وعلى النفر معه ، وعنده جُدى بن أخطب ، فلبس درعه ، وأخذ سيفه وخرج يعدو ، فقال جدى : لما رأيت ابن أبى جالسًا فى ناحية البيت ، وابنه عليه السلاح يئست من نصره ، فمزجت أعدو إلى حُيى فقال : ما وراءك؟ قلت : الشر . ساعة أخبرتُ محمدًا بما أرسلت به إليه أظهر التكبير وقال: « حاربت يهود » . فقال : هذه مكيدة منه . قال : وجئت ابن أبى فأعلمته ، ونادى منادى محمدٍ بالمسير إلى بنى النضير . قال : وما ردَّ عليك ابن أبى . فقال جُدَىًّ :لم أر عنده خيراً .قال:أنا أرسل إلى حلفائى فيدخلون معكم)(١) .

وقد كان ابن أبىّ وعدهم بقوله : لاتخرجوا من دياركم وأموالكم وأقيموا فى حصونكم ، فإن معى ألفين من قومى وغيرهم من العرب يدخلون معكم حصنكم فيموتون من آخرهم قبل أن يوصل إليكم ، وتمدكم قريظة فإنهم لن يخذلوكم ، ويُمدُّكم حلفاؤكم من غطفان .

---

(١) المغازى للواقدى ١/ ٣٧٠ .

٣ ـ وفضح القرآن الكريم هذا التآمر كله بعد الهزيمة الشنيعة ، والجلاء الكبير الذى تم بقوله عز وجل : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ . لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُـــدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ . لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ (١) .

هذه المدينة قد خلت من بنى النضير ، فقال عنهم رسول الله ﷺ وقد شقوا سوق المدينة ، والنساء فى الهوادج عليهن الحرير والديباج ، وقُطف الخز الخضر والحمر ، وقد صفَّ لهن الناس ، فجعلوا يمرون قطاراً فى أثر قطار ، فحملوا على ستمائة بعير ، يقول رسول الله ﷺ : « هؤلاء فى قومهم بمنزلة بنى المغيرة فى قريش . . » ولقى المنافقون عليهم يوم خرجوا حزنًا شديدًا ،لقد لقيتُ زيد بن رفاعة بن التابوت ،وهو مع عبد الله بن أبى،وهو يناجيه فى بنى غنم وهو يقول:توحشت يثرب لفقد بنى النضير، ولكنهم يخرجون إلى عز وثروة من حلفائهم وإلى حصون منيعة شامخة فى رؤوس الجبال ليست كما هاهنا . فاستمعت عليهما ساعة وكل واحدٍ منهما غاش لله ولرسوله.

وانهد أكبر ركن من أركان حزب المنافقين الذى كانوا يلوذون به ، ويتآمرون عليه ، فقد فَقَدَ عبد الله بن أبى الركن الأول من بنى قينقاع ، وهم كانوا أصحاب الجد والسلاح ، ثم فقد ركنه الأخير بجلاء بنى النضير ، يوم خار وعجز عن نصرتهم ، وأصبح بلا جناح ، فبنو قريظة ليسوا حلفاءه إنما هم حلفاء خصومه الأوس ، وانكمش حزبُ النفاق بعد انتفاشة وانتفاجه ، واعتماده ولاء اليهود رغم ادعائه الإسلام وزعمه إياه ، وكانت آيات فضح المنافقين تتنزل فى هذه المرحلة تلهبهم كالسياط وتلذعهم كالنار، فلا يقومون من مطب ، إلا ويقعون فى غيره ، وبدأ كثير من الناس يتخلون عن ابن أبىٍّ وحزبه ، وقد هتكت الأستار ، وتكشفت العورات ، وهُدِم الولى والنصير بجلاء بنى النضير ، والمجتمع الإسلامى يفتح ذراعيه وبحذر ،لكل من عاد إليه وعيه ، أو أفاق من سكرته ، أو صحا من جنونه ، وفتح الحق مغاليق قلبه .

٤ ـ لقد انتهت معركة أحد ، وانتهى التعقيب عليها فى آيات آل عمران ، ولكن أيامًا لا تنهى قصة التربية ، وآثار المعركة لم تنته بعد بل بقى جو محنة أحد قرابة ثلاثة أعوام ، والقرآن الكريم يتنزل ليعالج الموقف ، ونلحظ هذه المعالجة فى سورة النساء ،

---

(١) الحشر / ١١ـ ١٤ .

وهى تتفرغ للحديث عن الصف الإسلامى ، والبناء الداخلى فيه تتناول موضوع الجهاد والحث عليه ، كما تتحدث عن المنافقين ومواقفهم ومواصفاتهم ، وتمضى فى تنظيم المجتمع المسلم فى المدينة بكل أوضاعه الفكرية والاجتماعية والسياسية والعبادية والعسكرية وغير ذلك سواءً بسواء .

وحيث إن الحديث عن المنافقين أخذ أشواطًا كبيرة فى سورة النساء ، وخضرت شوكة يهود بعد رحيل بنى النضير ، اتجه المنافقون بخطة جديدة فى محاولة للاختلاط والانضمام للصف الإسلامى ، بعد أن أصبحوا فى العراء وحيدين ، وفى مثل هذه الحالة ، قد يختلط الصادق الذى اعتصم بالله وانضم لجماعة المؤمنين مع الكاذب المراوغ الذى يريد أن يدخل الصف لتنفيذ جريمة من جرائمه ، أو بث فتنة داخل هذا الصف القوى ، غير أن الوعى العظيم للقيادة النبوية ، وسمات الإيمان التى تكشف الناس ، والمواقف الحاسمة ، يمكنها أن تميز بين الدخيل والأصيل المنضم لهذا الصف ، وعلى أثر ذل يهود وانكسار شوكتهم ، أراد المنافقون أن يتسلقوا على هذه الشجرة ، وذلك بتحقيق بعض المكاسب والمنافع على ظهر بعض أفراد يهود الذين يعيشون فى المجتمع الإسلامى ، والمنافقون من خلال رفعهم شارة الإسلام يستطيعون أن يصلوا إلى داخل الصف ، ومن خلال وجودهم بين إخوانهم وأهليهم من المسلمين الصادقين ، وحِرْص هؤلاء المسلمين على إسلامهم وطهرهم من لوثة النفاق قد يندفع هؤلاء الأهل للدفاع عنهم وعن مواقفهم قبل أن يتجلى الأمر بوحى ناطقٍ من الله تعالى أو رسوله ، خاصة وقد نزلت الآيتان بجوار بعضهما فيمن اعتُبر منافقًا فهو فى الدرك الأسفل من النار ، وفيمن استثنى منهم فهو مع جماعة المؤمنين .

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً . إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيمًا ﴾ (١) .

٥ ـ وكنوعٍ من رد الثأر والتشفى والانتقام بعد فضيحة المنافقين وموقفهم فى سورة الحشر ، أخذ هذا الحقد عند عبد الله بن أبىّ ينشر ويأخذ أبعاده ، ورأى أعضاء هذا الحزب المنافق أن يستغلوا ظروف هذا العداء ضد اليهود ، وظروف البغض لهم فيتسللون من خلال ذلك لتحقيق بعض أهوائهم والوصول إلى شهوات ضعيفة منحطة من خلال انتسابهم إلى هذا المجتمع المسلم .

ومثَّل هذه الصورة بنو أبيرق كما يقول قتادة بن النعمان رضي الله عنه :

---

(١) النساء / ١٤٥ ، ١٤٦ .

(كان أهل بيت منا يقال لهم : بنو أبيرق بشر وبشير ومبشر ، وكان بشير رجلاً منافقًا يقول الشعر يهجو به أصحاب رسول الله ﷺ ، ثم ينحله لبعض العرب ، ثم يقول : قال فلان : كذا وكذا ، وقال فلان :كذا وكذا ، فإذا سمع أصحاب رسول الله ﷺ ذلك الشعر قالوا:والله ما يقول الشعر إلا هذا الرجل الخبيث أو كما قال الرجل ، وقالوا:ابن الأبيرق قالها .قالوا:وكانوا أهل فاقة وحاجة فى الجاهلية والإسلام) (١) .

أراد هؤلاء أن يبتزوا بعض الأموال من الرقيق والسلاح ، وهذا الابتزاز يسهل فى أن يُرمى به أحد يهود،فينكل به، ويُخسف به فى هذا الجو المشحون بالبغضاء والحقد .

فيتابع لنا قتادة رضي الله عنه الحديث عن هؤلاء بقوله :

وكان الناس إنما طعامهم بالمدينة التمر والشعير ، وكان الرجل إذا كان له يسار فقدمت ضافطة(٢) من الشام من الدرمك ابتاع الرجل منها فخصّ بها نفسه ، وأما العيال فإنما طعامهم التمر والشعير ، فقدمت ضافطة من الشام فابتاع عمى رفاعة بن زيد حِملاً من الدرمك ، فجعله فى مشربة له ، وفى المشربة سلاح ودرع وسيف ، فعُدى عليه من تحت البيت فنُقبت المشربة وأخذ الطعام والسلاح ، فلما أصبح أتانى عمى رفاعة فقال : يابن أخى إنه قد عُدى علينا فى ليلتنا هذه ،فنقبت مشربتنا ، فذُهب بطعامنا وسلاحنا . قال : فتحسسنا فى الدار وسألنا فقيل لنا : قد رأينا بنى أبيرق استوقدوا فى هذه الليلة ، ولا نرى فيما نُرى إلا على بعض طعامكم . قال :

وكان بنو أبيرق قالوا : ونحن نسأل فى الدار : والله ما نرى صاحبكم إلا لبيد بن سهل رجل منا له صلاح وإسلام . فلما سمع لبيد اخترط سيفه وقال : أنا أسرق ؟! فوالله ليخالطنكم هذا السيف أو لتبينن هذه السرقة ، قالوا : إليك عنا أيها الرجل فما أنت بصاحبها ، فسألنا فى الدار حتى لم نشك أنهم أصحابها (٣) .

وفى هذه الأجواء ، وحيث حامت الشبهات حولهم ، رموا بالسرقة على رجل شريف من المسلمين ، فلم يتمالك حين رمى بذلك إلا أن يخترط سيفه ليذود عن شرفه أمام هؤلاء الذين رموه زورًا وبهتانًا .

إنه نموذج من هذا الغثاء الذى انضم مع ابن أبىّ إلى هذا الدين ، يرغبون أن يحققوا من خلاله المكاسب ، ويتسلقون على شجرته ومبادئه لتحقيق أطماعهم

---

(١) الجامع الصحيح للترمذى ٥/ ٢٤٤ (٣٠٣٦) .

(٢) الضافطة : الضفاط:القوم الذين يجلبون الميرة والطعام إلى المدن ، وكانوا يومئذ قوماً من الأنباط يحملون إلى المدينة الدقيق والزيت . والدرمك : الدقيق .

(٣) الجامع الصحيح للترمذى ٥ /٢٤٤ ، ٢٤٥ .

وأهدافهم ، وحين ووجهوا بالقوة ، تراجعوا مذعورين من السيف ـ هذه النماذج العارية التى لم يخالط قلبها بشاشة الإسلام بعد ، أو لاتزال تعيش جاهليتها دون أن يتناول الإسلام بناءها من الجذور .

ولعل بشير بن أبيرق هو الذى انضم إلى الركب بين أخويه بشر ومبشر ، دون قناعة بهذا الدين ، لكن أخويه لم يدركا هذا الجانب منه ، وعندما وقعت الجريمة ، راحا يدافعان عنه ، وبشير هذا الذى لايجد حرجًا من هجاء الإسلام والمسلمين سرًا ، ثم يرمى بهذا الشعر رجلاً آخر، لايجد حرجًا فى أن يقذف بالسرقة فى عنق رجل آخر ، لكنه أخطأ الهدف ، وكاد يقط رأسه عن جسده ، فوجد أن رمى يهودى بها أجدى ، واليهود قد ذلت بعد مقتل ابن الأشرف ، واليهود أعداء هذا الدين ، فلا يصدَّق لهم قول ، ولايسمع لهم رأى ، وخطَّط كما فى الرواية الأخرى بحيث يرمى السرقة فى بيت اليهودى المتهم .

وهذا السلوك هو سلوك يهودى بحت ، فهم قوم بهت كما وصفهم عبد الله بن سلام ، وجاء من تعلم من مدرستهم واستعمل أسلوبهم نفسه معهم ، ووضع السرقة فى بيت أحدهم وجعل الجريمة تحيق به، كما يفعل مع الدعاة إلى الله فى الأرض اليوم ، بحيث تلفق التهم والأحكام الجائرة من الطواغيت جاهزة، وكل مسلم متهم ومدان ، ومهدور الدم من أصحاب سلطته ، ووسائل الإعلام كلها تحت يدهم، تعرض على الشعب جرائمهم المصاغة من حكامهم، ومن يستطيع أن يذود عنهم أو يدافع عنهم فهو متهم معهم .

هذه الصورة التى راح بشير بن أبيرق يتحرك من خلالها فى قذف هذا اليهودى المهيض الجناح بالجريمة وراح يطالب بشرفيته من الذين اتهموه بالسرقة ، تعطينا وضع الدَّخل والدخن الذى بدأ يتسلل لهذا المجتمع النقى الذى كان قبل بدر لا يشوبه إلا النفاق اليهودى المكشوف ، وأما فى هذا العام الجديد، وبعد انتهاء معسكر الشرك برحيل قائده ابن أبىّ إلى الصف الإسلامى، بدأ بعض الخلل يظهر فى هذا البناء الضخم ، والذى رأينا صورة منه من خلال بشير المنافق ، واندفاع قومه معه يطلبون براءته ، دون وعى لما يحمل فى صفهم من سم .

وندع الحديث هنا لصاحب الظلال يبرز هذا الخلل ، ويبرز عظمة القرآن الكريم ، وعظمة هذا الدين الإلهى الخالد فى المعالجة :

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا . وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا . وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ

لا يُحبُ مَن كَانَ خوَّانًا أثيمًا . يَسْتخفُونَ منَ النَّاسِ ولا يسْتخفُونَ منَ اللّه وَهُو مَعهُم إذْ يُبيّتُون مَا لا يرْضَىٰ منَ القَوْلِ وكَانَ اللّهُ بمَا يعْملُون مُحيطًا . هَا أنتُمْ هَؤُلاء جادلْتُمْ عنْهُمْ في الْحيَاة الدُّنْيا فَمن يُجادلُ اللّهَ عنهُم يوْمَ القيَامة أم مَّن يكُونُ عليْهِمْ وكيلاً . ومَن يعْمَلْ سُوءًا أوْ يظْلمْ نفْسهُ ثُمَّ يسْتغْفرِ اللّهَ يجد اللّهَ غفُوراً رَّحيمًا . ومَن يكْسبْ إثْمًا فإنَّمَا يكْسبُهُ علَىٰ نفْسه وكَانَ اللّهُ عليمًا حكيمًا . ومَن يكْسبْ خطيئَةً أوْ إثْمًا ثُمَّ يرْمِ به بريئًا فقد احتَملَ بُهْتانًا وإثْمًا مُّبينًا . ولَوْلا فَضْلُ اللّه علَيْكَ ورحْمتُهُ لهمَّت طَّائفةٌ مِّنْهُمْ أن يُضلُّوكَ ومَا يُضلُّونَ إلاَّ أنفُسَهُمْ ومَا يضُرُّونكَ من شيْءٍ وأنزلَ اللّهُ عليْكَ الكتَابَ والْحكْمَةَ وعلَّمَكَ مَا لَمْ تكُن تعْلَمُ وكَانَ فضْلُ اللّه علَيْكَ عظيمًا ﴾(١).

هذه الآيات تحكى قصة لا تعرف لها الأرض نظيرًا ، ولا تعرف لها البشرية شبيهًا ، وتشهد وحدها بأن هذا القرآن وهذا الدين لابد أن يكون من عند الله ؛ لأن البشر مهما ارتفع تصورهم ، ومهما صفت أرواحهم ، ومهما استقامت طبائعهم لايمكن أن يرتفعوا بأنفهسم إلى هذا المستوى الذى تشير إليه هذه الآيات إلا بوحى من الله . هذا المستوى الذى يرسم خطًا على الأفق لم تصعد إليه البشرية - إلا فى ظل هذا المنهج - ولا تملك الصعود إليه أبداً إلا فى ظل هذا المنهج كذلك إنه فى الوقت الذى كان اليهود فى المدينة يطلقون كل سهامهم المسمومة التى تحويها جعبتهم اللئيمة على الإسلام والمسلمين ، والتى حكت هذه السورة وسورة البقرة ، وسورة آل عمران جانبًا منها ومن فعلها فى الصف المسلم .

فى الوقت الذى كانوا فيه ينشرون الأكاذيب ويؤلبون المشركين ، ويشجعون المنافقين ، ويرسمون لهم الطريق ، ويطلقون الإشاعات ، ويضللون العقول ، ويطعنون فى القيادة النبوية ، ويشككون فى الوحى والرسالة ، ويحاولون تفسيخ المجتمع المسلم من الداخل ، وفى الوقت الذى يؤلبون عليه خصومه ليهاجموه من الخارج ،والإسلام ناشئ فى المدينة ،ورواسب الجاهلية ما يزال لها آثارها فى النفوس ، ووشائج القربى والمصلحة بين بعض المسلمين وبعض المشركين والمنافقين واليهود أنفسهم ، تمثل خطرًا حقيقيًا على تماسك الصف المسلم وتناسقه .

فى هذا الوقت الحرج ، الخطير الشديد الخطورة . . كانت هذه الآيات تتنزل على رسول الله ﷺ ، وعلى الجماعة المسلمة ، لتنصف رجلاً يهوديًا اتهم ظلمًا بسرقة ، ولتدين الذين تآمروا على اتهامه ، وهم بيت من الأنصار فى المدينة ، والأنصار يومئذ

(١) النساء / ١٠٦-١١٣ .

هم عدة الرسول ﷺ وجنده ، فى مقاومة هذا الكيد الناصب حوله ، ومن حول الرسالة والدين والعقيدة الجديدة ، أى مستوىً هذا من النظافة والعدالة والتسامى! ثم أى كلام يمكن أن يرتفع ليصف هذا المستوى ! وكل كلام ،وكل تعليق ،وكل تعقيب ، يتهاوى دون هذه القمة السامقة التى لا يبلغها البشر وحدهم ، بل لايعرفها البشر وحدهم ، إلا أن يقادوا بمنهج الله ، إلى هذا الأفق العلوى الكريم الوضىء ؟!

والقصة التى رويت من عدة مصادر فى سبب نزول هذه الآيات. أن نفرًا من الأنصار: قتادة بن النعمان وعمه رفاعة،غزوا مع رسول الله ﷺ فى بعض غزواته، فسرقت درع لأحدهم (رفاعة).فحامت الشبهة حول رجل من الأنصار من أهل بيت يقال لهم: بنو أبيرق ،فأتى صاحب الدرع رسول الله ﷺ فقال: إن طعمة بن أبيرق سرق درعى (وفى رواية : إنه بشير بن أبيرق . .وفى هذه الرواية : أن بشيرًا هذا كان منافقًا يقول الشعر فى ذم الصحابة وينسبه لبعض العرب) فلما رأى السارق ذلك عمد إلى الدرع فألقاها فى بيت رجل من اليهود (اسمه زيد بن السمين) وقال لنفر من عشيرته:

إنى غيَّبت الدرع ، وألقيتها فى بيت فلان ، وستوجد عنده . فانطلقوا إلى رسول الله ﷺ . فقالوا : يانبى الله ! إن صاحبنا برىء . وإن الذى سرق الدرع فلان ، وقد أحطنا بذلك علما ، فاعذر صاحبنا على رؤوس الأشهاد ، وجادل عنه ، فإن لم يعصمه الله بك يهلك. . . ولما عرف رسول الله ﷺ أن الدرع وجدت فى بيت اليهودى ؛ قام فبرأ ابن أبيرق ، وعذره على رؤوس الناس ، وكان أهله قد قالوا للنبى ﷺ قبيل ظهور الدرع فى بيت اليهودى ، إن قتادة بن النعمان وعمه عمدا إلى أهل بيت منا أهل إسلام وصلاح يرمونهم بالسرقة من غير بينة ولا ثبت! قال قتادة : فأتيت رسول الله ﷺ فكلمته ، فقال : «عمدت إلى أهل بيت يذكر منهم إسلام وصلاح وترميهم بالسرقة على غير ثبت ولابينة ؟ » قال : فرجعت ، ولوددت أنى خرجت من بعض مالى ، ولم أكلم رسول الله ﷺ فى ذلك ، فأتانى عمى رفاعة فقال : يا ابن أخى ما صنعت ؟ فأخبرته ما قال لى رسول الله ﷺ فقال : الله المستعان .

فلم تلبث أن نزلت : ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا** ﴾ أى بنى أبيرق . وخصيمًا : أى محاميًا ومدافعًا ومجادلاً عنهم ﴿ **وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ** . . . ﴾ أى مما قلت لقتادة ﴿ **إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا** ﴾ ، ﴿ **وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ** ﴾ إلى قوله : ﴿ **إِثْمًا مُّبِينًا** ﴾ ، ﴿ **وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ** . . . ﴾ إلى قوله : ﴿ **فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا** ﴾ (١) فلما نزل القرآن أتى رسول الله ﷺ بالسلاح فردَّه إلى رفاعة . . قال قتادة : لما أتيت عمى بالسلاح ، وكان

(١) النساء / ١٠٥ ــ ١١٤ .

شيخًا قد عمى أو عشى فى الجاهلية ، وكنت أرى إسلامه مدخولاً ، فلما أتيته بالسلاح قال : يا ابن أخى هى فى سبيل الله ، فعرفت أن إسلامه صحيحًا ، فلما نزل القرآن لحق بشير بالمشركين ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا . إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا** ﴾ (1) .

إن المسألة لم تكن مجرد تبرئة برىء تآمرت عليه عصبة لتوقعه فى الاتهام ـ وإن كانت تبرئة برىء أمرًا هائلاً ثقيل الوزن فى ميزان الله ـ إنما كانت أكبر من ذلك . كانت هى إقامة الميزان الذى لايميل مع الهوى ، ولا مع العصبية ، ولا يتأرجح مع المودة والشنآن أيًا كانت الملابسات والأحوال . وكانت المسألة هى تطهير هذا المجتمع الجديد ، وعلاج عناصر الضعف البشرى فيه مع علاج رواسب الجاهلية والعصبية فى كل صورها حتى فى صورة العقيدة ، إذا تعلق الأمر بإقامة العدل بين الناس ، وإقامة هذا المجتمع الجديد الفريد فى تاريخ البشرية ، على القاعدة الطيبة النظيفة الصلبة المتينة ، التى لا تدنسها شوائب الهوى والمصلحة والعصبية ، والتى لا تترجرج مع الأهواء والميول والشهوات !

ولقد كان هـناك أكثر من سبب لو كانت الاعتبارات الأرضية هى التى تتحكم وتحكم ، ولو كانت موازين البشر ومقاييسهم هى التى يرجع إليها هذا المنهج .

كان هناك سبب واضح عريض .. أن هذا المتهم « يهودى » من « يهود » .. يهود التى لاتدع سهمًا مسمومًا إلا أطلقته فى حرب الإسلام وأهله ، يهود التى يذوق المسلمون الأمرين فى هذه الحقبة (ويشاء الله أن يكون ذلك فى كل حقبة) يهود التى لاتعرف حقًا ولاعدلاً ولا نَصفَة ، ولا تقيم اعتبارًا لقيمة واحدة من قيم الأخلاق فى التعامل مع المسلمين على الإطلاق .

وكان هنالك سبب آخر ، وهو : أن الأمر فى الأنصار ، الأنصار الذين آووا ونصروا ، والذين قد يوجد هذا الحادث بين بعض بيوتهم ما يوجد من الضغائن، بينما أن اتجاه الاتهام إلى يهودى ، يبعد شبح النفاق !

وكان هناك سبب ثالث هو : عدم إعطاء اليهود سهمًا جديدًا يوجهونه إلى الأنصار، وهو أن بعضهم يسرق بعضًا ، ثم يتهمون اليهود ! وهم لايدعون هذه الفرصة تفلت للتشهير بها والتغرير ولكن الأمر كان أكبر من هذا كله ، كان أكبر من كل الاعتبارات

---

(1) النساء / ١١٥ ، ١١٦ .

الصغيرة ، الصغيرة فى حساب الإسلام . كان أمر تربية هذه الجماعة الجديدة لتنهض بتكاليفها فى خلافة الأرض ، وفى قيادة البشرية وهى لاتقوم بالخلافة فى الأرض ، ولا تنهض بقيادة البشرية حتى يتضح لها منهج فريد متفوق على كل ما تعرف البشرية ، وحتى يثبت هذا المنهج فى حياتها الواقعية ، وحتى يمحص كيانها تمحيصًا شديدًا ، وتنفض عنه كل خبثة من ضعف البشر ، ومن رواسب الجاهلية ، وحتى يقام فيها ميزان العدل ، لتحكم به بين الناس ـ مجردًا من جميع الاعتبارات الأرضية، والمصالح القريبة الظاهرة، والملابسات التى يراها الناس شيئًا كثيرًا لايقدرون على تجاهله !

واختار الله سبحانه هذا الحادث بذاته فى ميقاته . . . مع يهودى . . من يهود التى يذوق منها المسلمون الأمرين إذ ذاك فى المدينة ، والتى تؤلب عليهم المشركين ، وتؤيد بينهم المنافقين ، وترصد كل ما فى جعبتها من مكر وتجربة وعلم لهذا الدين ! وفى فترة حرجة من حياة المسلمين فى المدينة ، والعداوات تحيط بهم من كل جانب ، ووراء كل هذه العداوات يهود !

اختار الله هذا الحادث فى هذا الظرف ليقول فيه سبحانه للجماعة المسلمة ما أراد أن يقول ، وليعلمها به ما يريد أن تتعلم .

ومن ثم لم يكن هناك مجال للباقة، ولا للكياسة، ولا للسياسة، ولا للمهارة فى إخفاء ما يحرج ، وتغطية ما يسوء .

ولم يكن هناك مجال لمصلحة الجماعة المسلمة الظاهرية ؛ ومراعاة الظروف الوقتية المحيطة بها ، هنا كان الأمر جدًا خالصًا ، لايحتمل الدهاء ولا التمويه ! وكان هذا الجد أمر هذ المنهج الربانى وأصوله وأمر هذه الأمة التى تعد لتنهض بهذا المنهج وتنشره ، وأمر العدل بين الناس ، العدل فى هذا المستوى الذى لا يرتفع إليه الناس ، بل لا يعرفه الناس ، إلا بوحى من الله ، وعون من الله .

وينظر الإنسان من هذه القمة السامقة على السفوح الهابطة ـ فى جميع الأمم على مدار الزمان ـ فيراها هنالك . . . هنالك فى السفوح . . . ويرى بين تلك القمة السامقة والسفوح الهابطة صخورًا متردية هنا وهناك، من الدهاء ، والمراء ، والسياسة ، والكياسة ، والبراعة ،والمهارة ومصلحة الدولة،ومصلحة الوطن،ومصلحة الجماعة إلى آخر الأسماء والعنوانات. فإذا دقق الإنسان فيها النظر رأى من تحتها . . . الدود . . . ! وينظر الإنسان مرة أخرى فيرى نماذج الأمة المسلمة ـ وحدها ـ صاعدة من السفح إلى القمة تتناثر على مدار التاريخ، وهى تتطلع إلى القمة ، التى وجهها إليه المنهج الفريد .

أما العفن الذى يسمونه ـ العدالة ـ فى أمم الجاهلية الغابرة والحاضرة ، فلا يستحق أن نرفع عنه الغطاء فى مثل هذا الجو النظيف الكريم) [1] .

ويعقب ـ رحمه الله ـ على الآيات الواردة بهذا الصدد بقوله :

(ثم هو حلقة من حلقات المنهج التربوى الحكيم فى إعداد هذ الجماعة ؛ لتكون الأمة التى تقود البشرية بتفوقها التربوى والتنظيمى ، وليعالج فيها مواضع الضعف البشرى ، ورواسب المجتمع الجاهلى وليخوض بها المعركة فى ميادينها كلها ، وهو الهدف الذى تتوخاه السورة بشتى موضوعاتها ، ويتولاه المنهج القرآنى كله) [2] .

٦ ـ ونعرض أخيرًا صورة المستوى الفائق من التربية ، والتى بلغها مجتمع السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار كما ورد من قبل حين استشار رسول الله ﷺ الأنصار فى غنائم بنى النضير: « إن أحببتم قسمت بينكم وبين المهاجرين مما أفاء الله على من بنى النضير،وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكنى فى مساكنكم وأموالكم، وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دوركم » .

فتكلم سعد بن عبادة وسعد بن معاذ فقالا : يارسول الله ، بل تقسمه للمهاجرين، ويكونون فى دُورنا كما كانوا ، ونادت الأنصار : رضينا وسلمنا يارسول الله . فقال رسول الله ﷺ : « اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار » .

وقال سيد المهاجرين أبو بكر رضي الله عنه :

جزاكم الله يامعشر الأنصار خيرًا ، فوالله ما مثلنا ومثلكم إلا كما قال الغنوى :

جزى الله عنا جعفراً حين أزلفت ... بنا نعلنا فى الواطئين فزلت
أبوا أن يملونا ولو أنَّ أمَّنا ... تلاقى الذى يلقون منا لملَّت

إنه مجتمع يبنى على غير طراز سبق فى تاريخ البشرية ، مجتمع التحم فيه أغنياؤه وفقراؤه ، وأصبح يمثل مجتمع الإيثار فى الأرض ، لقد تم التآخى بدافع ذاتى ، لابقوة السلاح وإرهاب السلطان ،وقاسم الأنصار إخوانهم المهاجرين أرضهم وديارهم وأموالهم بطواعية ومروءة عجيبين فى تاريخ البشرية ، وها قد مر عام واثنان وثلاثة على هذا الوضع . سنحت فرصة للمهاجرين بأن توزَّع عليهم ثروة ضخمة من فىء بنى النضير ، وتمت التجربة الفائقة بنجاح ، وآن الأوان لأن يعود للأنصارى ماله وداره وأرضه ، ورسول الله ﷺ الذى قال من قبل : « تآخوا فى الله أخوين أخوين » هو الذى قال

(١) فى ظلال القرآن ٢/ ٧٥١ـ٧٥٣ .
(٢) المصدر نفسه ٢ / ٧٥٨ .

الآن : « وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دوركم » أو يشتركوا فى الفىء سواء ، وكان الأمر معروضًا على سيدى الأوس والخزرج .

إن ضيفًا ينزل على الرجل أكثر من ثلاثة أيام يتناول الطعام عنده والمبيت ، يبدأ الإحساس لدى المضيف بالثقل والتبرم ، وينتظر الفرصة السانحة ليتحول عنه .

وهذه التجربة ليست ثلاثة أيام ، بل ثلاث سنوات، والمشاركة فى شطر الأموال والأراضى والبيوت ، ويستمع سيدا الأوس والخزرج للتخيير النبوى ، فينطلقان عن موقف موحد :(يارسول الله بل تقسمه للمهاجرين ، ويكونون فى دورنا كما كانوا) .

ولم يكن الموقف موقف زعامة مفروضة فحسب. لقد كان الموقف أبعد من ذلك ، وأعمق من ذلك : كان موقف الأنصار جميعًا هو التأييد المطلق لموقف قيادتهم ؛ لأنهم لم يقولوا فقط : (سلَّمنا يا رسول الله) ، إنما قالوا: (رضينا وسلمنا يارسول الله) .

هذا المجتمع بهذه المواصفات ، وبهذه المعايير ، وبهذا المستوى من البناء فى الحب والتفانى والود ؛ حقٌ له أن يُثنى رب العزة جل جلاله عليه ، وأن يصبح هذا الثناء قرآنًا يتلى فى الأرض، ويُتعبد به فى الوجود ، فجاء قول الله ـ عز وجل ـ يصف المهاجرين الذين ضحوا بدنياهم فى سبيل الله : ﴿ **لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ** ﴾ (١) .

(وجاء قول الله عز وجل يصف الأنصار الذين ضحوا بدنياهم لإخوانهم فى سبيل الله : ﴿ **وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ (٢)) (٣) .

---

(١) الحشر / ٨ . (٢) الحشر / ٩ .

(٣) من كتاب المنهج التربوى للسيرة النبوية ـ التربية الجهادية ـ للمؤلف ٢/ ١٠٢-١٠٤ .

غزوة ذات الرقاع

قال ابن إسحاق :ثم أقام رسول الله ﷺ بالمدينة بعد غروة بنى النضير شهر ربيع الآخر ، وبعض جُمادى [١] ، ثم غزا نجدًا يريد بنى محارب وبنى ثعلبة من غَطفان ، واستعمل على المدينة أبا ذر الغفارى ، ويقال : عثمان بن عفان فيما قال ابن هشام .

قال الحافظ ابن حجر : هذه الغزوة اختلف فيها متى كانت ؟ واختلف فى سبب تسميتها بذلك ، وقد جنح البخارى إلى أنها كانت بعد خيبر ، واستدل لذلك فى هذا الباب بأمور سيأتى الكلام عنها مفصلاً ، ومع ذلك فقد ذكرها قبل خيبر ، فلا أدرى هل تعمد ذلك تسليمًا لأصحاب المغازى أنها كانت قبلها كما سيأتى ، أو أن ذلك من الرواة عنه ، أو إشارة إلى احتمال أن تكون ذات الرقاع اسمًا لغزوتين مختلفتين كما أشار إليه البيهقى ؟ على أن أصحاب المغازى مع جزمهم بأنها كانت قبل خيبر مختلفون فى زمانها ، فعند ابن إسحاق أنها بعد بنى النضير ، وقبل الخندق سنة أربع .. وعند ابن سعد وابن حبان أنها كانت فى المحرم سنة خمس ، وأما أبو معشر فجزم بأنها كانت بعد بنى قريظة والخندق وهو موافق لصنيع المصنف [٢] .

وعند البخارى : قال ابن إسحاق : سمعت وهب بن كيسان سمعت جابرًا (خرج النبى ﷺ إلى ذات الرقاع من نخل فلقى جمعًا من غطفان فلم يكن قتال ، وأخاف الناس بعضهم بعضًا ، فصلى النبى ﷺ ركعتى الخوف) [٣] .

صلاة الخوف :

(عن صالح بن خوات عمن شهد مع رسول الله ﷺ يوم ذات الرقاع صلاة الخوف أن طائفة صفَّت معه ، وطائفة وُجاهَ العدو ، فصلى بالتى معه ركعة ، ثم ثبت قائمًا ، وأتموا لأنفسهم ، ثم انصرفوا فصفُّوا وجاه العدو ، وجاءت الطائفة الأخرى فصلى بهم الركعة التى بقيت من صلاته ثم ثبت جالسًا ، وأتموا لأنفسهم ثم سلَّمَ بهم) [٤] .

(وقال معاذ : حدثنا هشام عن ابن الزبير عن جابر قال : كنا مع النبى ﷺ بنخل

---

(١) أوردها الواقدى لعشر خلون من المحرم على رأس سبعة وأربعين شهرًا من بداية السنة الخامسة .

(٢) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧/٤١٧ . (٣) المصدر نفسه ح (٤١٢٧) .

(٤) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧/٤١٧، (٤١٢٩ ، ٤١٣٠) .

فذكر صلاة الخوف قال مالك : وذلك أحسن ما سمعت فى صلاة الخوف) (١) .

محاولة الاغتيال :

عن جابر بن عبد الله ـ رضى الله عنهما ـ أخبره :(أنه غزا مع رسول الله ﷺ قبل نجد ، فلما قفل رسول الله ﷺ قفل معه فأدركتهم القائلة فى وادٍ كثير العضاة ، فنزل رسول الله ﷺ ، وتفرَّق الناس فى العضاة يستظلون بالشجر ، ونزل رسول الله ﷺ تحت ظل سمرة فعلَّق بها سيفه. قال جابر : فنمنا نومة فإذا رسول الله ﷺ يدعونا ، فجئناه ، فإذا عنده أعرابى جالس ، فقال رسول الله ﷺ : « إن هذا اخترط سيفى وأنا نائم ، فاستيقظت وهو فى يده صلتًا ، فقال لى : من يمنعك منى ؟ قلت : الله . فها هو ذا جالس » ثم لم يعاقبه رسول الله ﷺ) (٢) .

جمل جابر :

عن جابر رضي الله عنه قال : كنت مع النبى ﷺ فى غزاة فأبطأ بى جملى وأعيا ، فأتى علىَّ النبى ﷺ فقال : « جابر ؟ » فقلت : نعم . قال : «ما شأنك ؟» قلت : أبطأ بى جملى وأعيا فتخلفت . فنزل بمحجنه ثم قال : « اركب » فركبته ، فلقد رأيته أكفه عن رسول الله ﷺ قال : « تزوجت ؟ » قلت : نعم. قال: « بكرًا أم ثيبًا ؟ » قلت : بل ثيبًا . قال : « أفلا جارية تلاعبها وتلاعبك ؟ » قلت : إن لى أخوات فأحببت أن أتزوج امرأة تجمعهن وتمشطهن ، وتقوم عليهن . قال : « أما إنك قادم ، فإذا قدمت فالكيس الكيس » ثم قال : « أتبيع جملك ؟ » قلت : نعم . فاشتراه منى بأوقية . ثم قدم رسول الله ﷺ قبلى وقدمت بالغداة . فجئنا إلى المسجد ، فوجدته على باب المسجد . قال : « الآن قدمت ؟ » قلت : نعم، قال : « فدع جملك فادخل فصل ركعتين » ، فدخلت فصليت . فأمر بلالاً أن يزن له أوقية فوزن لى بلال فأرجح فى الميزان،فانطلقت حتى ولّيت. فقال : « ادعو لى جابرًا » . قلت : الآن يرد علىَّ الجمل . ولم يكن شىء أبغض إلىَّ منه ، قال: « خذ جملك ، ولك ثمنه » (٣) .

وقال ابن إسحاق : (حدثنى وهب بن كيسان عن جابر بن عبد الله قال :

خرجت مع رسول الله ﷺ إلى غزوة ذات الرقاع من نخل على جمل لى ضعيف، فلما قفل رسول الله ﷺ قال : « جعلت الرفاق تمضى » ، وجعلت أتخلف ،

---

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧ / ٤١٧ ((٤١٢٩ ، ٤١٣٠) .
(٢) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧ / ٤٢٦ (٤١٣٥) .
(٣) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧ / ٤٢٦ (٢٠٩٧) .

حتى أدركنى رسول الله ﷺ فقال : « مالك ياجابر ؟ » قلت : أبطأ بى جملى هذا ؛ قال : « أنخهُ » ؛ قال : فأنخته،وأناخ رسول الله ﷺ ثم قال:« أعطنى هذه العصا من يدك ، أو اقطع لى عصًا من شجرة » . قال : ففعلت . قال : فأخذها رسول الله ﷺ فنخسه بها نخسات ،ثم قال : « اركب » فركبت ، فخرج والذى بعثه بالحق ، يواهق ناقته مواهقة (١).

قال :وتحدثت مع رسول الله ﷺ فقال لى: « أتبيعنى جملك هذا يا جابر؟» قال : قلت : يا رسول الله ، بل أهبه لك ، فقال : « لا ،ولكن بعنيه » قال :قلت : فسمينه يا رسول الله ، قال :« قد أخذته بدرهم » ، قال: قلت:لا، إذن تغبننى يا رسول الله ! قال : « فبدرهمين » قال : قلت : لا . قال : فلم يزل يرفع لى رسول الله فى ثمنه حتى بلغ الأوقية . قال: فقلت: أفقد رضيت يا رسول الله ! قال:« نعم». قلت : فهو لك ؛ قال : « قد أخذته » قال : ثم قال : « ياجابر : هل تزوجت بعد ؟ » قال : قلت: نعم يا رسول الله ؛ قال : «أثيبًا أم بكرًا ؟ » قال : قلت: لا ، بل ثيبًا ، قال : « أفلا جارية تلاعبها وتلاعبك ! » قال : قلت : يارسول الله إن أبى أصيب يوم أحد وترك بنات له سبعًا ،فنكحت امرأة جامعة ، تجمع رؤوسهن وتقوم عليهن ، قال : «أصبت إن شاء الله ، أما إنا لو قد جئنا صرارًا ، أمرنا بجزور فنحرت ، وأقمنا عليها يومنا ذاك ، وسَمِعْت بنا فنفضت نمارقها » ، قال : قلت : يارسول الله ما لنا من نمارق قال : « إنها ستكون ، فإذا أنت قدمت فاعمل عملاً كيِّسًا » . قال : فلما جئت صرارًا أمر رسول الله ﷺ بجزور فنحرت ، وأقمنا عليها ذلك اليوم . فلما أمسى رسول الله ﷺ دخل ودخلنا: قال : فحدثت المرأة الحديث ، وما قال لى رسول الله ﷺ . قالت : فدونك ، فسمع وطاعة . قال : فلما أصبحت أخذت برأس الجمل فأقبلت به حتى أنخته على باب رسول الله ﷺ ، ثم جلست فى المسجد قريبًا منه . قال : وخرج رسول الله ﷺ فقال : « ما هذا؟» قالوا : يارسول الله هذا جمل جاء به جابر . قال : « فأين جابر ؟ » قال: فدعيت له قال : فقال : « يا ابن أخى خــذ برأس جملك فهو لك » ، ودعا بلالاً فقال له : « اذهب بجابر فأعطه أوقية » قال : فذهبت معه فأعطانى أوقية . وزادنى شيئًا يسيرا . قال : فوالله ما زال ينمى عندى ، ويُرى مكانه من بيتنا حتى أصيب أمس فيما أصيب لنا ، يعنى يوم الحرة) (٢) .

حارسا الثغر :

قال ابن إسحاق : وحدثنى عمى صدقة بن يسار عن عقيل بن جابر عن جابر بن

(١، ٢) السيرة النبوية لابن هشام ٣ / ٢٢٨ ـ ٢٩٠ ، ورجال الحديث ثقات .

عبد الله الأنصارى قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ فى غزوة ذات الرقاع من نخل ، فأصاب رجل امرأة رجلٍ من المشركين ، فلما انصرف رسول الله ﷺ قافلاً أتى زوجُها، وكان غائبًا . فلما أخبر الخبر حلف لاينتهى حتى يهريق فى أصحاب محمد ﷺ دمًا . فخرج يتبع أثر رسول الله ﷺ ، فنزل رسول الله ﷺ منزلاً . فقال : « من رجل يكلؤنا ليلتنا هذه ؟ » قال : فانتدب رجل من المهاجرين ورجل آخر من الأنصار ، فقالا: نحن يارسول الله ؛ قال : « فكونا بضم الشِّعب » . قال : وكان رسول الله ﷺ وأصحابه قد نزلوا إلى شعب فى الوادى ، وهما عمار بن ياسر ، وعباد بن بشر فيما قاله ابن هشام .

قال ابن إسحاق : فلما خرج الرجلان إلى فم الشِّعب قال الأنصارى للمهاجرى : أى الليل تحب أن أكفيه : أوله أم آخره ؟ قال : بل اكفنى أوله . قال : فاضطجع المهاجرى فنام ، وقام الأنصارى يصلى . قال : وأتى الرجل ، فلما رأى شخص الرجل عَرَف أنه ربيئة (١) القوم . فرمى بسهم ، فوضعه فيه . قال : فنزعه فوضعه ، وثبت قائمًا . قال : ثم رماه بسهم آخر فوضعه فيه ، قال: فنزعه فوضعه، وثبت قائمًا ، ثم عاد له بالثالث فوضعه فيه قال : فنزعه فوضعه، ثم ركع وسجد ثم أهبَّ صاحبه(٢) فقال : اجلس فقد أُثبِتَ (٣). قال : فوثب. فلما رآهما الرجل عرف أن قد نذرا به . فهرب . قال : ولما رأى المهاجرى ما بالأنصارى من الدماء ،قال : سبحان الله ، أفلا أهببتنى أول ما رماك ؟ قال:كنت فى سورة أقرؤها، فلم أحب أن أقطعها حتى أُنفذَها ، فلما تتابع علىَّ الرمى ركعت فآذنتك ، وايم الله لولا أضيِّع ثغرًا أمرنى رسول الله ﷺ بحفظه ، لقطع نفسى قبل أن أقطعها أو أُنفِذها (٤) .

١ ـ أما الغزوة ونتائجها وأسبابها والجانب العسكرى فيها ، فلم يكن هذا كله ذا بال،إنما كان الجانب التربوى ، والبناء العقيدى والنفسى هو صاحب الشأن الأكبر فيها .

ونتحدث ابتداء عن الجانب الحربى والعسكرى فى الغزوة فلا يفوتنا أن نشير إلى أن غطفان تنضم إلى سلك القبائل الكبرى فى جزيرة العرب ، وقد كانت الاصطدامات معها مبكرة ، وكانت تحارب على طريق البدو فى الصحراء من حيث الكر والفر ، فتصادم إذا أملت بالنصر ، ويَفِرُّ إذا خافت من الهزيمة ، وتتمنع فى رؤوس الجبال

---

(١) الربيئة : الطليعة الذى يحرس القوم . (٢) أهبَّ صاحبه : أيقظه من نومه .

(٣) أثبت : أُصيبتُ ، ومن رواه أُثبِتُ فمعناه : جرحت جرحًا لايمكن التحرك معه .

(٤) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٢٩٠،٢٩١ ، وقد أخرجه أبو داود عن محمد بن إسحاق ولم يذكر فيه عمى، ورواه البخارى فى كتاب الوضوء ١/ ٢٨٠ .

خوفًا من المواجهة ، وغزوة ذات الرقاع لم تكن معركة شاملة مع غطفان كلها ، إنما كانت مع فصيلتين من فصائل غطفان هما : محارب وثعلبة ، وعند الواقدى : بنى أنمار وثعلبة ، وعند الحافظ ابن حجر أن محارب هم أبناء عم غطفان وليسوا منهم . والذى يعنينا هو : أن هذه الاشتباكات الجزئية هيأت المجال فيما بعد للحرب الشاملة، ونستمع إلى الواقدى يعرض لنا أسباب الغزوة ونتائجها عسكريًا وسياسيًا بما يسد ثغرة هذا الجانب ، كما روى عن شيوخه قالوا :

(قدم قادم بجلَب له فاشترى بسوق النَّبط وقالوا : من أين جلبت جلَبك ؟ قال : جئت من نجد وقد رأيت أنماراً وثعلبة قد جمعوا لكم جموعًا ، وأراكم هادين عنهم ، فبلغ النبى ﷺ قوله ، فخرج فى أربعمائة من أصحابه ، وقال قائل : كانوا سبعمائة أو ثمانمائة ، وخرج رسول الله ﷺ من المدينة ، حتى سلك على المضيق ، ثم أفضى إلى وادى الشفرة ، وأقام بها يومًا ، وبثَّ السرايا فرجعوا إليه مع الليل ، وخبره أنهم لم يروا أحدًا وقد وطئوا آثارًا حديثة ، ثم سار رسول الله ﷺ فى أصحابه حتى أتى محالهم ، فيجدون المحال ليس فيها أحد ، قد ذهبت الأعراب إلى رؤوس الجبال ، وهم يُطِلُّون على النبى ﷺ ، وقد خاف الناس بعضهم بعضًا . والمشركون منهم قريب وخاف المسلمون أن يغيروا عليهم وهم غارون ، وخافت الأعراب ألا يبرح رسول الله ﷺ حتى يستأصلهم) (١) .

والذى حدا بمحارب وثعلبة أن يهموا بغزو رسول الله ﷺ عقب أجواء أحد وبئر معونة والرجيع ، ولا ننسى أن عامر بن الطفيل قد هدَّد بنى غطفان حين جاء المدينة قبل قتل أصحاب بئر معونة وما جرى بهم ليس بعيدًا عن أعينهم ، ومن أجل هذا ـ وحسب طبيعة الأعراب فى الغزو والنهب والسلب ـ لاعجب أن نجدهم يفكرون فى غزو المدينة كما فكَّر قبلهم جيرانهم أسد فى غزوها ، وعلى رأسهم طلحة بن خويلد ؛ إذن لقد شهدت هذه الشهور هذه التوترات بين المسلمين وبين هذه القبائل الثلاث الكبرى والتى يمكن أن تهدِّد المدينة فى كل وقت ،وهذه القبائل هى: بنو غطفان ، وبنو أسد ، وبنو عامر ، وبنو سليم ، إنه احتكاك ذو أهمية كبرى يمكن من خلاله عرض العضلات وسبر القوات ، ويقظة القائد الأعظم ﷺ هى التى تحطم مثل هذه المحاولات الطامعة ، وتجعل العدو يعيد الحساب كثيرًا قبل تفكيره فى الغزو ، إضافة إلى هذه الصورة ، نجد القبائل المجاورة الصغيرة بدأت تقترب من الإسلام بأعداد كبيرة ، فأسلم التى أسلم منها دفعة واحدة سبعون صحابيًا عند الهجرة ، وعلى رأسهم : بريدة بن الحصيب الأسلمى،

(١) المغازى للواقدى ٢٩٥ ، ٢٩٦ .

وبدأت وفود عديدة ترد منها إلى المدينة ، وتنضم إلى سلك المهاجرين ، وغفار التى كانت معملاً لتفريخ الإسلام يقوم على رأسه أبو ذر الغفارى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ويرسل الوفود لتنضم إلي الإسلام ، وقد جعل هذا الداعيان العظيمان قبيلتيهما بؤرة من بؤر النور ، ومعقلاً من معاقل الإسلام العظيمة ، ولهذا نجد رسول الله ﷺ حين دعا على عصبة وذكوان وعضل والقارة ، لم ينس أن يدعو لهذين المعملين العظيمين من معامل تفريخ المسلمين فقال: « غفار غفر الله لها ،وأسلم سالمها الله ،وعُصبة عصت الله ورسوله » .

وعن خفاف بن إيماء بن رحضة الغفارى قال : صلى بنا رسول الله ﷺ الفجر ، فلما رفع رأسه من الركعة الأخيرة قال : « لعن الله لحيان ورعلاً وذكوان ، عصية عصت الله ورسوله ، أسلم سالمها الله، وغفار غفر الله لها » ثم خر ساجداً ، فلما قضى الصلاة أقبل على الناس ، فقال : « إنى لست أنا قلت هذا ، ولكن الله عز وجل قاله » (١) .

٢ ـ وتطالعنا صلاة الخوف فى هذه المعركة ، ولعلها المرة الأولى التى صلى فيها المسلمون صلاة الخوف ، على اعتبار أن غزوة ذات الرقاع تمت فى جمادى من السنة الرابعة كما ذكر ابن إسحاق ، والمسلمون لا يأمنون انقضاض الأعراب عليهم من رؤوس الجبال ، لو مضوا جميعًا فى صلاتهم ، فأخذوا أهبتهم ، وأنزل الله تعالى على نبيه ﷺ صلاة الخوف ، ليبقى الجيش الإسلامى يقظًا من أى هجوم مفاجئ (٢) ودلَّت هذه القضية من جانب آخر، وكانت فقهًا عظيمًا لكل جندى فى الجيش على أهمية الصلاة ، فحتى فى قلب المعركة لايمكن التساهل فيها ، ولايمكن التنازل عنها ، وكانت فقهًا عظيمًا للجيش كله كذلك قضية صلاة الجماعة وأهميتها ، فيصلى كل فريق ركعة مع رسول الله وركعة وحده ، فينال شرف الاقتداء بالمصطفى ـ صلوات الله عليه ـ وينال الفريق الأول شرف افتتاح الصلاة مع رسول الله ﷺ فى التكبير ، وينال الفريق الثانى شرف اختتام الصلاة معه عليه الصلاة والسلام فى التسليم ، وبذلك تندمج الصلاة والعبادة بالجهاد والدم فى لحظة واحدة ، ويتكون الجيل الربانى الذى لاينسى ربه فى أى لحظة من لحظات حياته ، بل يكون أكثر ما يكون ذكرًا لله وهو يشتجر فى رماحه مع العدو ، وهذا الجيل هو الذى قال الله تعالى له عقب بدر : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٣) .

---

(١) متفق عليه ، ورواه أحمد والترمذى عن ابن عمر، وهو فى البخارى ٦/ ٥٤٢ .

(٢) فضائل الصحابة للإمام أحمد ٢/ ٨٨٠ ، وقال المحقق فيه : « إسناده صحيح ، وأخرجه أحمد والبخارى ومسلم وغيرهم ».

(٣) الأنفال / ٤٥ .

وهو الذى قال له عقب أحد وعقب محنة الرجيع ومعونة : ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا . وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا . فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴾ (١) .

هذا الجيل الذى تربى من معين النبوة يقوم على صياغته رسول الله ﷺ بالقرآن الكريم أشرف كتب الله اختارها لخلقه ، فلم نجد لحظة واحدة أى انفصال أو انفصام بين العبادة والجهاد ، لنرى الجيل النكد فى حياتنا المعاصرة والذى يرى العبادة والصلاة والذكر خاصة بالدراويش وأهل الله ـ كما يزعمون وكذبوا فى ذلك ـ الذين يسالمون الطغاة ويدعون لهم بطول العمر ، ونجد حاكما طاغية من العتاة الذين يحكمون المسلمين يفتى بقتل الإسلاميين الذين يحملون السلاح فى وجه العدو ووجه الطغاة ، ولايتسع عقله لأن يلتقى الداعية بالبندقية فهذا خروج عن الإسلام فى زعمه ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ (٢) .

٣ ـ حارسا الثغر :

ونشهد التطبيق العملى لهذا الفهم من خلال الصورة الخالدة التى عمرت بها كتب الحديث والتاريخ ، نشهد هذا الفهم للتلاحم بين العبادة والجهاد من خلال قصة عمار ابن ياسر رضي الله عنه المهاجرى ، وعباد بن بشر الأنصارى رضي الله عنه حيث نشهد تفصيلاً أوضح فى مغازى الواقدى لذلك :

(. . . فبينا رسول الله ﷺ فى مسيرة عشية ذات ريح ، فنزل فى شعب استقبله فقال : « من رجل يكلؤنا الليلة ؟ » ، فقام رجلان : عمار بن ياسر وعباد بن بشر ،

---

(١) النساء / ١٠١ـ١٠٣ .

(٢) الكهف / ٥ .

فقالا : نحن يارسول الله نكلؤك ، وجعلت الريح لاتسكن ، وجلس الرجلان على فم الشعب . فقال أحدهما لصاحبه: أى الليل أحب إليك أن أكفيك، أوله فتكفينى آخره ؟ قال : اكفنى أوله . فنام عمار بن ياسر ، وقام عباد بن بشر يصلى) .

هكذا يفقه الجيل المتوازن كيف يزجى فراغه ويملأ وقته ، أمَّا حراس جيلنا النكد، فيأخذ السيجارة ليشعلها من عقب السيجارة الثانية ، وينفث الدخان والسم، أو يجلسون معًا على ورق اللعب ، والنرد ، يقامرون بمالهم وأمتهم ومحرسهم، لكن جيل النبوة ، ينتظر لحظة يخلو فيها لنفسه ، حتى يخلو بربه فهو فى شوق لمناجاته .

وأقبل عدو الله يطلب غِرة وقد سكنت الريح ، فلما رأى سواده من قريب : قال: يعلم الله أن هذا لربيئة القوم ، ففوَّق له سهمًا فوضعه فيه ، فانتزعه فوضعه ، ثم رماه بآخر فوضعه فيه ، فانتزعه فوضعه ، ثم رماه الثالث فوضعه فيه ، فلما غلب عليه الدم ركع وسجد ، ثم قال لصحابه : اجلس فقد أُثبت .

إن عبَّادًا رضي الله عنه فى عالم من الأنس بالله يجعله ينسى أن سهمًا قد غُرز فى جلده وأسال دمه ، وهو يريد أن ينزع هذا الشاغل الذى يشغله عن ربه . ويتابع حديثه بين يدى ربه ـ عز وجل ـ وجاء السهم الثانى الذى يناسبه أن تند منه صرخة توقظ الجيش كله ، وأن يحمل من أقرانه ليعالج مرضه ، لكن صاحبنا فى عالمه الربانى الحالم جاء ما يشجى حلمه،فرمى بسهمه الثانى وانتزعه والدم ينسكب غزيرًا منه، ودمعه ينسكب غزيرًا خشية لله ـ عز وجل ـ ويتابع جلسته مع ربه وكتاب ربه ـ عز وجل ـ وجاء السهم الثالث الذى قد يكون به أجله ، ورمى بسهمه الثالث ، لكن صحا وذكر أنه حارس على ثغرٍ من ثغور المسلمين ، وقد يؤتى الثغر من قبله ، ونزلت دمعات الحسرة والشجى فى حلقه أن حيل بينه وبين متابعة السورة التى يناجى بها ربه ، فقطعها وركع وسجد وأيقظ صاحبه عمار بن ياسر قائلاً له : اجلس فقد أتيت ـ أو قد أثبتُ ـ أى أصابتنى الجراحة،هذا القلب العامر بالإيمان كالجبال الرواسى العامر بالشجاعة كالصخور الصم. لم يرتعب ،ولم يرتعد،ولم يرتجف، ، بل كل ما حركه هو خوفه على ثغر المسلمين ، أما جسده ، وأما دمه ، وأما روحه ، فما له ولهم إن كان يناجى ربه .

ومهما حاولنا أن نصف تلك الحالة ، فنحن أعجز عن وصفها ، أمام وصفه العظيم الذى يقطع كل قول ويغنى عن كل تعليق .

(فقال عمار: أى أخى ، ما منعك أن توقظنى به فى أول سهم رمى به ؟ ، قال : كنت فى سورة أقرؤها وهى سورة الكهف ، فكرهت أن أقطعها حتى أفرغ منها ، ولولا أنى خشيت أن أضيِّع ثغرًا أمرنى به رسول الله ﷺ ما انصرفت ولو أُتى على نفسى) .

وفى الرواية الأخرى :

وايم الله لولا أن أضيِّع ثغرًا أمرنى رسول الله بحفظه ، لقطع نفسى قبل أن أقطعها أو أنفذها .

ونحن نقطع السور أحيانًا لطرق خفيف على الباب ، أو لطارق يخطر على بالنا فننسى كل ما نقرأ ، وصاحبنا حارس الثغر رضي الله عنه تطرقه السهام الثلاثة ، فتنغرز فى جسده ، وتخرج الدم الفوار منه فلا يستجيب لهذا الطارق ، ولا يطرق قلبه لحظة خوف خاطفة وهو أنيس بربه ومناجاة ربه .

وبقى أن نعرف أن عبَّاد بن بشر هو أحد الأبطال الخمسة الذين ذبحوا كعب بن الأشرف فى عقر داره . . وأن نعلم أنه قائد حرس المسلمين فى المعارك الضخام وقائد خيالتهم، وأن نعلم أنه واحدا من الكُمَّل الثلاثة من الأوس والذين قالت عائشة ـ رضى الله عنها ـ فيهم :

ثلاثة من الأنصار لم يكن أحد يعتد عليهم فضلاً ، كلهم من بنى عبد الأشهل : سعد بن معاذ ، وأسيد بن حضير ، وعباد بن بشر[1] .

ابن الشهيد والمدرسة التربوية : جابر بن عبد الله ـ رضى الله عنهما ـ الذى طرَّ شارباه ، وبدأت ملامح لحيته تظهر ، فاز بأكبر نصر فى حياته حيث عرض أمره على قائده الأعظم ورسوله الحبيب ، بعد أحد فقال : يا رسول الله ، إن مناديًا نادى ألا يخرج معنا إلا من حضر القتال بالأمس ، وقد كنت حريصًا على الخروج ، ولكنّ أبى خلفنى على أخوات لى ،وقال :يا بنى لا ينبغى لى ولك أن ندعهن ولا رجل عندهن ، وأخاف عليهن وهنَّ نُسيات ضعاف ، وأنا خارج مع رسول الله ﷺ ، لعل الله يرزقنى الشهادة ، فتخلَّفتُ عليهنَّ فاستأثره الله بالشهادة ،وكنت رجوتها، فأذن لى يا رسول الله أن أخرج معك،فأذن له رسول الله ﷺ وكان الفائز الوحيد فى حضور هذه الغزوة .

وها هو اليوم يمضى مع رسول الله ﷺ فى هذه الغزوة الثانية وهو سعيد أن يكون جنديًا بين هؤلاء المئات ، وكان وهو فى فورة شبابه يحرص ما استطاع أن يقترب من رسول الله ﷺ علَّه يفوز منه بنظرة،أو كلمة عابرة تسعده ،وكأنما قد ملك الوجود كله .

ومن هو ، حتى يهتم به رسول الله ﷺ بين السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، وكل الرصيد الذى يملكه أنه ابن الشهيد عبد الله بن عمرو بن حرام سيد قومه ونقيبهم.

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبى ١/٣٣٨ ، وقال المحقق فيه : «أخرجه الحاكم ٣/٢٢٩ ووافقه الذهبى ، وذكره الحافظ فى الإصابة ١/٧٦ عن ابن إسحاق ، وقد صرح فيه بالتحديث » .

وها نحن الآن مع هذا الفتى يعرض علينا صورة حية فى لقطات أخاذة عاشها مع قائده الحبيب هى كل ما نعرفه من معالم هذه الغزوة :

أ ـ اللقطة الأولى: إنا لمع رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل من أصحابه بفرخ طائر ورسول الله ﷺ ينظر إليه ، فأقبل أبواه أو أحدهما حتى طرح نفسه فى يدى الذى أخذ فرخه ، فرأيت الناس عجبوا من ذلك. فقال رسول الله ﷺ:

« أتعجبون من هذا الطائر؟ أخذتم فرخه فطرح نفسه رحمة لفرخه! والله لربكم أرحم بكم من هذا الطائر بفرخه! ».

ما أروعها من مناسبة تربوية، وقد شهدوا هذا الطائر وهو يخاطر بنفسه حنوًا على فرخه وقد شدت أنظارهم به، وتعلقت عيونهم وعقولهم وقلوبهم فيه فى هذا الجو الشاعرى المؤثر، وفى هذا الاهتمام الآخذ بالألباب تأتى كلمة سيد المربين لتزرع معنى من معانى العقيدة بحيث يكون جزءًا من الشعور ، بل تحيل الشعور كله ولا يكون كما ملقى فى ركن من أركان الذهن البارد؛ بل شعلة تتوقد حيث الكينونة الإنسانية كلها متجهة لهذا المنظر الأخاذ ، يأتى أمام المربين ليقول لهم فى هذه الحالة: « والله لربكم أرحم بكم من هذا الطائر بفرخه » وإذ بكينونة كل فرد من هذا الجمع ، يضاف إلى رصيده وإلى علمه وإلى كيانه عظمة رحمة الله تعالى بعباده وسعة هذه الرحمة وكان هذا هو الدرس التربوى الأول من لقطة جابر.

ب ـ اللقطة الثانية : قال جابر: فإنا لفى منصرفنا آتانا رسول الله ﷺ وأنا تحت ظل شجرة فقلت: هلم إلى الظل يا رسول الله. فدنا إلى الظلِّ فاستظل. فذهبت لأقرّب إليه شيئًا فما وجدت إلا جِروًا من قثاء فى أسفل الغرارة (١) . قال : فكسرته كِسرًا ثم قربته إليه فقال رسول الله ﷺ : « من أين لكم هذا ؟» فقلنا: شىء فضل من زاد المدينة فأصاب منه رسول الله ﷺ.

إنه ما إن استسلم للظل حتى راح غارقًا فى تفكيره وهمومه وزوجه التى سيفد إليها، وما راعه إلا رسوله الحبيب يقترب منه باحثًا عن الظل، فقفز كأنما أفاق من غيبوبة، ترى أيستطيع أن يستضيف سيد الخلق عنده فى ظل هذه الشجرة؟ وحتى لا تفوت فرصة عمره سارع، فقال: هلم إلى الظل يا رسول الله ، وجاءه سيد الخلق ضيفًا يستظل معه فى ظل شجرته ، وبم يكرم حبيبه المصطفى؟ ماذا يقدم له من طعام شهى يؤدى به حق الضيافة لرسول رب العالمين؟!

يقول: فما وجدت إلا جِروًا من قِثاء فى أسفل الغرارة فكسرته كِسرًا ثم قربته إليه.

---

(١) الغرارة : وعاء من الخيش يوضع فيه القمح ونحوه .

ويبتسم سيد ولد آدم لجذبه الفتى قائلا: « من أين لكم هذا؟» يؤانسه ويهدئ من انفعاله له فقلنا: شيء فضل من زاد المدينة.

لكن في هذا السؤال إضافة معنى جديد وتربية جديدة، هذا المعنى هو السؤال عن الطعام من أين جاء ؟ أمن حلال أمن حرام؟ ولم يذقه عليه الصلاة والسلام حتى تأكد من أنه حلال فضل من زاد المدينة ، ففي كل همسة بناء، وفي كل كلمة تربية، وفي كل لحظة تعليم للكتاب والحكمة.

جـ ـ **اللقطة الثالثة**: وقد جهزنا صاحبًا لنا يرعى ظهرنا وعليه ثوب متخرّق. فقال رسول الله ﷺ: « أما له غير هذا؟» فقلنا : بلى يا رسول الله ، إن له ثوبين جديدين في العيبة [1] فقال له رسول الله ﷺ :« خذ ثوبيك » فأخذ ثوبيه فلبسهما ، ثم أدبر فقال رسول الله ﷺ: « أليس هذا أحسن؟ ما له ضرب الله عنقه؟ » فسمع ذلك الرجل فقال: في سبيل الله يا رسول الله؟ فقال :« في سبيل الله ». قال جابر : فضربت عنقه بعد ذلك في سبيل الله، وهي تربية من نوع جديد حتى للراعي الممعن في الصحراء الذي لا يراه أحد، وهو الذي يلبس الثوب المتخرّق فيتسائل ـ عليه الصلاة والسلام ـ:« أما له غير هذا؟» فإن كان هذا اللباس عن فاقة فلا شيء فيه. ولم يكن الفقر عارًا في يوم من الأيام، لكن إن كان يملك غيره أجود منه ثم يصر على لبس هذا الثوب المتخرق، فهو الذي لا يرضاه ـ عليه الصلاة والسلام ـ لراعي المسلمين ،ويأمره ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يأخذ ثوبيه الجديدين. إنها تربية للجيش كله، فإن كان جابر رضي الله عنه قد نقلها لأجيال المسلمين في ضرورة الحرص على إبداء النعمة على المسلم، فقد تناقلها كل أفراد الجيش المسلم آنذاك، وعرفوا حكمًا جديدًا ممن هو أغلى عليهم من أنفسهم الذي بُعث فيهم من أنفُسهم ، ليزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، إنهم قبل هذا التوجيه النبوي كانوا في ضلال مبين ، واليوم هم في بؤرة النور ،ومع مصدر النور في هذا الوجود محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ وحتى لا يكون التوجيه نظريًا بحتًا إذ به ينطلق من واقع شخصي مع هذا الراعي الذي لم نعرف اسمه بعد ولن نعرفه. لكن ـ عليه الصلاة والسلام ـ يحرص على أن يبني في نفس هذا الراعي حياة مرتبطة مع التوجيه والتربية فيقول له ـ عليه الصلاة والسلام : « خذ ثوبيك » وما إن يدبر حتى يقول عنه بحيث يسمعه القول:

« أليس هذا أحسن ؟ ما له ضرب الله عنقه؟ ».

وبهذا الدعاء نعرف بما يعمُرُ قلب هذا الراعي العظيم، إن حب الشهادة والموت في

---

(١) العيبة : زنبيل من أدم يوضع فيه الثياب .

سبيل الله غدا جزءا من ذرات كيان المسلم ، فسارع راعينا العظيم بقوله: فى سبيل الله يا رسول الله ، فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: « فى سبيل الله » .

وهكذا يمضى راعينا كأنما هو أسعد خلق الله، فقد بُشّر بالشهادة من رسول الله ﷺ ، فما له وللدنيا بعد هذه البشارة العظيمة.

ولجابر الصحفى المسلم والإذاعى المسلم والتلفزيونى المسلم رضي الله عنه الفضل الكبير فى هذه اللقطات ، فكأنما هو عرض لكل جزئية صغيرة وكبيرة لمدرسة النبوة نحمد الله ـ عز وجل ـ على أن حضرها جابر فنقلها لنا مع كل ما فيها من جوٍ محيط بها. وتفاعل نفسى رافقها ،وزمان ومكان العرض المناسب فهو لا ينسى أن يقول لنا : إن هذا الراعى قد ضربت عنقه فى سبيل الله.

د ـ اللقطة الرابعة : فبينما رسول الله ﷺ يتحدث عندنا إلى أن جاءنا علبة بن زيد الحارثى بثلاث بيضات أداحى فقال: يا رسول الله ، وجدت هذه البيضات فى مفحص نعام فقال رسول الله ﷺ:« دونك يا جابر، ما عمل هذه البيضات! » فوثبت فعملتهن ثم جئت بالبيض فى قصعة ،وجعلت أطلب خبزاً فلا أجده. قال:فجعل رسول الله ﷺ وأصحابه يأكلون من ذلك البيض بغير خبز. قال جابر: فرأيت رسول الله ﷺ قد أمسك يده وأنا أظن أنه قد انتهى إلى حاجته، والبيض فى القصعة كما هو، قال: ثم قام رسول الله ﷺ وأكل منه عامة أصحابنا ، وهذه حفلة غداء على شرف المصطفى ﷺ ؛ لأن بيض النعام الذى جاء به علبة بن زيد الحارثى رضي الله عنه لا يكفى إلا لرجلين أو ثلاثة. أما الطاهى فهو أشب القوم ـ جابر بن عبد الله ـ ويكاد يطير عقله من الفرح أن يكون هو خادم رسول الله ﷺ ، وقد قدَّم البيضات لكن آلمه ألا يجد الخبز ليطعم حبيبه المصطفى ، وطفق الأصحاب يغدون حيث رسول الله ﷺ ويدناح البيض، ويأكل الصحب والبيض على ما هو عليه إنها دعوة ربانية ووليمة نبوية يرى المسلمون فيها المعجزة ،وتشهد أعماق قلوبهم ، بالإيمان برسول الله ﷺ ،وتكون للجيل الجديد الذى انضم للإسلام نوراً جديداً يتدفق إلى قلوبهم وتمتد التربية فى كل شيء ، حتى فى الطعام الشهى والملبس الهنى، والحديث الرضى ، إنه النور الذى يغمر هذه القلوب الظمأى للهدى فتغدو قلوبًا جديدة عامرة بالإيمان مترعة باليقين.

هـ ـ اللقطة الخامسة: ثم رحنا مبردين. قال جابر : وإنا لنسير إلى أن أدركنى رسول الله ﷺ فقال: مالك ياجابر؟ فقلت: أى رسول الله ،جرى أن يكون لى بعير سوء وقد مضى الناس وتركونى قال: فأناخ رسول الله ﷺ بعيره فقال: «أمعك ماء؟» فقلت: نعم فجئته بقعب من ماء. فنفث فيه ثم نضح على رأسه وظهره وعلى عجزِه ،

ثم قال: « أعطنى عصا » فأعطيته عصا معى ـ أو قال :قطعت به غصنًا من شجرة. قال: ثم نخسه ثم قرعه بالعصا، ثم قال :« اركب يا جابر» . قال: فركبت، فخرج، والذى بعثه بالحق يواهق[1] ناقته مواهقة ما تفوته ناقته، مضى الفصل الأول،ونحسب أن اللقطات انتهت ،فقد انتهت الجلسة النبوية وانتهى تناول الطعام وراح القوم مبردين، وحاول جابر أن يمضى مع رفاقه. لكن جمله النكد العاجز يكلّ من السير ويعجز عن المتابعة ورفاقه يسبقونه وهو يعانى من جمله ذى الحظ العاثر فلا يجارى أحدًا من إخوانه الأنصار ، إنهم يمرون وهو يتخلف ، ورأى قائده يجرى من بعيد ؛ ليطمئن على جنوده ، ويتأكد من أوضاعهم وأحوالهم ، فإذا هو بجابر يعانى المرارة من جمله النكد والرسول العظيم ﷺ لا يدع أمر جنده لأحد فيوَد أن يطمأن بشخصه على كل جندى من جنوده ،ولا يصدر أوامره لحل مشكلة جابر؛ بل يأتى ـ عليه الصلاة والسلام ـ مباشرة لهذا الجندى المتخلف الذى أرهقه التعب وأضناه المسير ، وخانه جمله فى المسير، ووافانا جابر باللقطة حية كاملة بالماء الذى نفث فيه ثم نضح على رأسه وظهره وعلى عجزه وبالعصا التى أعطاه إياها فنخس بها الجمل وقرعه ، ثم بتوجيه الأمر له بالركوب فكأنما نشط الجمل من عِقاله وغدا ناقة ذلولاً نجيبه ، فهو يواهق ناقة رسول الله ﷺ ويسابقها ، وأى عجب فى ذلك.

فقبل سبعة وخمسين عامًا ورسول الله ﷺ طفل فى المهد ابن أيام فقط حلَّت بركته على بيت حليمة السعدية كما روت لنا:

فخرجت على أتانٍ لى قمراء [2] معنا شارف [3] لنا والله ما تبض بقطرة [4] ولا ننام ليلنا أجمع من صبينا الذى معنا من بكائه من الجوع ما فى ثديى ما يغنيه، وما فى شارفنا ما يغديه ـ ولكنا كنا نرجو الغيث والفرج. فخرجت على أتانى تلك فقد أدمت [5] بالركب حتى شقّ ذلك عليهم ضعفًا وعجفا [6] ،حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء فما منَّا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله ﷺ فتأباه إذا قيل لها : إنه يتيم ، وذلك أنا إنما كنا نرجو المعروف من أبى الصبى فكنا نقول: يتيم! وعسى أن تصنع أمه وجده. فكنا نكرهه لذلك. فما بقيت امرأة قدمت معى إلا أخذت رضيعًا غيرى ، فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبى : والله إنى لأكره أن أرجع من بين صواحبى ولم آخذ رضيعًا

(١) يواهق: يباريها فى السير ويماشيها.
(٢) أتان قمراء: حمارة ذات لون قريب من الخضرة أو بياض فيه كدرة.
(٣) الشارف: الناقة المسنة. (٤) ما تبض بقطرة: ما ترشح بشىء .
(٥) أذمت: أطالت عليها المسافة لتمهلهم عليها. (٦) العجف: الهزال.

والله لأذهبنَّ إلى ذلك اليتيم فلآخذنه قال: لا عليك أن تفعلى عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة. قالت :فذهبت إليه فأخذته ، وما حملنى على أخذه إلا أنى لم أجد غيره ، قالت: فلما أخذته رجعت به إلى رحلى فلما وضعته فى حجرى أقبل علىَّ ثدياى بما شاء من لبن، فشرب حتى روى، وشرب معه أخوه حتى روى ثم ناما ،وما كنا ننام قبل ذلك ،وقام زوجى إلى شارفنا تلك فإذا إنها لحافل (١) فحلب منها وشرب وشربت معه حتى انتهينا ريا وشبعا فبتنا بخير ليلة. قالت : يقول صاحبى حين أصبحنا: تعلَّمى والله يا حليمة لقد أخذت نسمة مباركة. قالت: فقلت: والله إنى لأرجو ذلك. قالت: ثم خرجنا وركبت أنا أتانى ، وحملته عليها معى ، فو الله لقطعت بالركب ما يقدر عليها شىء من حمرهم ، حتى إن صواحبى ليقلن لى: يا ابنة أبى ذؤيب ويحك أربعى(٢) علينا أليست هذه أتانك التى خرجت عليها؟ فأقول لهن: بلى والله إنها لهى هى. فيقلن: والله إن لها لشأنًا. . . (٣).

فقد حلت البركة على آل حليمة وربعها وأتانها وشارفها وثديها، وهو لا يزال فى المهد فكيف به ـ عليه الصلاة والسلام ـ وقد جاءه الوحى وهو ينفث الماء ، ويقرع الجمل بالعصا ! إنه النبى المبارك الذى عمَّت بركته إلى الخافقين فلا غرو أن ينشط جمل جابر من عِقاله ، ويسابق ناقته.

و- اللقطة السادسة : وجعلت أتحدث مع رسول الله ﷺ ثم قال: « يا أبا عبد الله، أتزوجت؟ » قلت: نعم. قال: « بكرا أم ثيِّبًا ؟» فقلت: ثيِّبًا . فقال: « ألا جارية تلاعبها وتلاعبك ! » فقلت: يا رسول الله ، بأبى أنت وأمى. إن أبى أصيب يوم أحد وترك تسع بنات ، وتزوجت امرأة جامعة تلم شعثهن وتقوم عليهن. قال: « أصبت ». ثم قال: « إنا لو قدمنا صراراً أمرنا بجزور فنحرت ، وأقمنا عليها يومنا ذلك وسمعت بنا فنفضت نمارقها ». قال: قلت: والله يا رسول الله ما لنا من نمارق. قال: « أما إنها ستكون ، فإذا قدمت فاعمل عملاً كيِّسا ». قال: قلت: أفعل ما استطعت .

هذا هو الجيش صاحب المسؤولية والذى لا يجد غذاءه ولا كساءة ولا ركوبة ويرفع راياته كما فى بعض الروايات ، ويعانى من صعوبات الحياة ومشاقها فلا يصده ذلك عن هدفه ولا ينسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى غمرة هذه المهام الصعبة التى يواجه بها أعتى القبائل وأشرسها لا ينسى وهو فى هذا الخضم الوضع البائس لفتى من الفتيان فى جيشه العظيم ، وهو فى مقتبل العمر يود أن يعف نفسه بالزواج. فيسأله عنه ويكرمه

---

(١) حافل : ممتلئة . (٢) أربعى : أقيمى وانتظرى .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ١ / ١٨٧ ـ ١٨٩ ، وقد رواه ابن إسحاق عن جهم بن أبى جهم مولى الحارث بن حاطب عن عبد الله بن جعفر .

فيكنيه ويناديه بكنيته يا أبا عبد الله ،ليضعه على قمة مسؤوليته ليكون رجلاً مع الأحداث وكان يمكن أن ينتهى الحديث بجواب نعم ، لكن حديث القلب لا ينتهى ورسول الله ﷺ مع فتاه جابر يود أن يغوص إلى أعماقه كلها فيعالج همومه وغمومه فيسأل: « أبكرا أم ثيبًا؟ » فيقول : ثيبًا ، فقال: « ألا جارية تلاعبها وتلاعبك؟ » فهو يريد له أن يسعد وهو فى مقتبل عمره بزوج حلوة ملاحة تأخذ بلبه وتقر عينه ، وتملأ حياته سعادة وحبورًا ، لكن جابر دخل معترك الأحداث وهمومها ، ولما تقم قناته بعد، وهو غض طرى فتحدث جابر الذى راح يفدى حبيبه بأبيه وأمه، وسعادته الآن الغامرة أن رسول الله ﷺ يتحدث معه، وهذا أكبر شرف يحصل عليه فتى فى سنه. فقد فاز وحده بهذه الخلوة ، وهذا الحديث الخاص ، وهذا الاهتمام الكبير فيقول له: وتزوجت امرأة جامعة تلم شعثهن وتقوم عليهن فمسؤولية البنات التسع فى عنقه، ويعرف ـ عليه الصلاة والسلام ـ جنديه ومعاناته. فيبتسم ويقول له :« أصبت » ثم يدعوه إلى أن يفرح بشبابه ، ويذكره بزوجه التى تاق للقائها بعد فراق استمر خمسة عشر يومًا ، هو الفراق الأول بعد زواجها منه فيعيده إلى تلك النفسية الصبورة العظيمة التى تنتظر قدومه « إنا لو قدمنا صرارًا أمرنا بجزور فنحرت ، وأقمنا عليها يومنا ذلك. وسمعت بنا فنفضت نمارقها » قلت: والله يا رسول الله ، ما لنا نمارق. قال: « أما إنها ستكون » ويدعوه إلى أن يمارس شهوته فى الحلال حين يلقى زوجه ، ويبشره أن سيكون له نمارق، وتنتهى أزمته المستعصية.

إنها مناجاة بين صديقين حميمين أكثر منها تنازل من قائد يبتسم فى وجه جنديه ويسأله: « كيف حالك ؟ » إن ذلك الجندى الذى يبلغ من قائده بسمة أو كلمة ليفرح بها ويفخر بها على أقرانه ، فكيف إذا كان هو سيد ولد آدم وسيد الوجود كله ، إنا لنذكر فى تلك السن النظرة التى يلقيها لنا قائد الدعوة أو الكلمة العابرة أو الخطوات المعدودة معه، إنا لنفخر بها أنا تحدثنا مع هذا القائد ، وخطا معنا ذلك الزعيم وتكون لنا دفعًا قويا فى حبه والتمسك به.

بما يقارن هذا كله مع هذا الحديث الشجى الهنى بين جابر ـ ابن السبعة عشر ربيعًا ـ وبين رسول رب العالمين وإمام المرسلين؟! ورضى الله عن جابر وهو يسعدنا بهذه اللقطات ويدخلنا إلى ذلك الجيش ، وكأنما نحن هناك بجوارهم نختلس النظر إليهم ويُعرَض علينا بالتلفاز حديثهم.

ز ـ **اللقطة السابعة**: ثم قال: « بعنى جملك هذا يا جابر ». قلت: بل هو لك يا رسول الله. قال: « لا ، بل بعنيه» . قال: قلت: نعم سمنى به. قال: « فإنى آخذه بدرهم». قال: قلت: تغبننى يا رسول الله. قال: « لا لعمرى! » قال جابر : فما زال

يزيدنى درهمًا درهماحتى بلغ أربعين درهما ـ أوقية ـ فقال: « أما رضيت؟ » فقلت: هو لك. قال: « فظهره لك حتى تقدم المدينة ». فلما قدمنا صراراً أمر بجزور فنُحرت فأقام به يومه ، ثم دخلنا المدينة .

إننا ندعو قادة الدنيا ليأتوا ويشهدوا هذا الحديث بين جابر ورسول الله ﷺ ويتعلموا كيف تكون صلة القادة بجنودهم ، وكيف تتم تربية هؤلاء الجنود ،وكيف تُبنى شخصياتهم وتعدّ مواهبهم وطاقاتهم ها هو ـ عليه الصلاة والسلام ـ يساوم جابرًا على جمله البغيض ، وجابر رضي الله عنه الذى لا يملك رأس مال له إلا هذا الجمل يعرف أدب الحديث مع قائده ، فيقول له:هو لك يا رسول الله ، فقال: «لا، بل بعنيه» ويعرض ـ عليه الصلاة السلام ـ درهمًا ثمنا لهـذا البعير الأعجف ،فيقول: « جابر» قلت: تغبننى يا رسول الله. «قال: لا، لعمرى »، فالجمل بهذا الثمن ليس غبنًا ،ودرهم رسول الله ﷺ يطرح به الله تعالى البركة فيعادل آلاف الدراهم غير أن جابرًا رضي الله عنه السعيد بحديث قائده يرفض الدرهم ، ويطالب بالزيادة حتى يبلغ بها أربعين درهما ! إن الذى يهمه أن يسعد بكل لحظة تزيد البيع درهمًا فتزيد من عمره نماء وبركة وهو يحدث قائده ،فلمن كان هذا الحظ السعيد أن ينال من رسول الله ﷺ هذا الوقت كله، وليكن حتى فى المساومة درهمًا درهمًا لأنه يخشى أن ينتهى الحديث مع قائده. وننظر إلى عظمة نفسية المصطفى الذى يداعب جنديه ويساومه فيرفع له السعر درهمًا درهمًا يؤنسه ، ويسعده حتى يبلغ به أربعين درهمًا ـ أوقية ـ ثم يقول له: « فظهره لك حتى تقدم المدينة » ، ولا غرو فهو يذكر بجابر أباه العظيم الشهيد الذى كان على رأس المبايعين له فى العقبة فهو سيد بنى سلمة وكادت اللقطات أن تفوتنا لكن رحمة الله بنا تنتقل إلى الفصل الثالث من هذه المحادثات العظيمة.

ح ـ **اللقطة الثامنة**: (قال جابر: فقلت للمرأة: قد أمرنى النبى ﷺ أن أعمل عملاً كيسًا قالت: سمعًا وطاعة لأمر رسول الله ﷺ فدونك فافعل. قال: ثم أصبحت فأخذت برأس الجمل فانطلقت حتى أنخته عند حجرة رسول الله ﷺ وجلست حتى خرج فلما خرج ، قال: «أهذا الجمل؟ » قلت: نعم يا رسول الله الذى اشتريت. فدعا رسول الله ﷺ فقال: « اذهب فأعطه أوقية، وخذ برأس جملك يا بن أخى فهو لك »، فانطلقت مع بلال ، فقال بلال: أنت ابن صاحب الشُعب؟ فقلت: نعم. فقال: والله لأعطينك ولأزيدنك فزادنى قيراطًا أو قيراطين . قال: فما زال ذلك يثمر ويزيدنا الله به ونعرف موضعه حتى أصيب ها هنا قريبًا عندكم بعينى الجمل).

ويمضى جابر يعطينا صورة كاملة عن الساعات القادمة التى أمضاها بعد وصوله

المدينة. فقد أمره رسول الله ﷺ أن يجامع زوجه بالأسلوب النبوى الرفيع: « فإذا قدمت فاعمل عملاً كيِّسًا » وهذا الأسلوب الرفيع من الأدب يتربى عليه الجيل المسلم بشيبه وشبابه، ورجاله ونسائه، فزوج جابر - رضى الله عنها - يقول لها زوجها الحبيب التى لقيته بعد حرقة وشوق: قد أمرنى النبى ﷺ أن أعمل عملاً كيِّسًا .

قالت: سمعًا وطاعة لأمر رسول الله ﷺ، فدونك فافعل.

إنها الشهوة والمتعة الحالمة تتم على كتاب الله وسنة رسوله، وبأمر رسوله - صلى الله عليه تعالى وآله وسلم.

وقبل الفجر يمضى جابر رضي الله عنه ليأخذ ثمرة صفقته مع رسول الله ﷺ الأوقية ثمن جمله ، وكله خشية أن يبقى معه جمله ولا تتم صفقته. فكما فى رواية البخارى فقال: « ادعو لى جابرًا ». قلت : الآن يرد علىَّ الجمل، ولم يكن شيئًا أبغض إلىَّ منه . ونجد فى رواية البخارى إضافة نفسية: فجئنا إلى المسجد، فوجدته على باب المسجد قال: «الآن قدمت؟» قلت: نعم. قال: « فدع جملك وصلِّ ركعتين». فدخلت فصليت، فأمر بلالاً أن يزن له أوقية. فوزن لى بلال فأرجح فى الميزان فانطلقت ،حتى وليت.

لقد مضى جابر رضي الله عنه يسابق الريح. بهذه الأوقية، التى لم يملك مثلها فى حياته، وانتهى من هذا البعير الأعجف البغيض. إذ جاءه النداء، فذهبت فرحته قلت : الآن يرد علىَّ الجمل ،ولم يكن شىء أبغض إلى منه . قال: «خذ جملك ولك ثمنه».

وها هو قد عاد بالسعد كله، بأوقية الذهب، وبالجمل يقضى عليه حاجته، على بغضه له ، فلو أراد أن يشترى جملاً فقد يفقد نصف رأسماله ولا غنى له عنه.

لكن الجمل، وقد مسته يد النبوة، ونفث - عليه الصلاة والسلام - على صدره وعجزه ووجهه، قد قد غدا جملاً آخر فى قوته ، ولين عريكته ، وأثمر خيرًا وبركة للبيت كله كما يقول جابر رضي الله عنه.

فما زال ذلك يثمر ويزيدنا الله به ونعرف موضعه حتى أصيب ها هنا قريبًا عندكم.

بقى علينا أن نعرف أن هذا الجمل قد ملأ بيت جابر بركة وثمرة ورفعة خمسين عامًا بعد ذلك اليوم. لقد كان حديث الجمل فى السنة الرابعة من الهجرة، أو الخامسة على الروايات الأخرى، وأصيب هذا الجمل فى وقعة الحرة سنة أربع وستين ، وهى التى أوقعها يزيد بن معاوية بأهل المدينة.

ط - **اللقطة التاسعة**: قال الواقدى: وحدثنى إسماعيل بن عطية عن عبد الله بن

أنيس عن أبيه عن جابر قال: لما انصرفنا راجعين فكنا بالشغرة. قال لى رسول الله ﷺ: « يا جابر ما فعل دين أبيك؟ » فقلت: انتظرت عليه يا رسول الله أن يَجُذَّ نخله. قال رسول الله ﷺ: « إذا جذذت فأحضرنى». قال: قلت: نعم، ثم قال: « من صاحب دين أبيك؟» فقلت: أبو الشحم اليهودى، له على أبى سِقة[1] تمر فقال لى رسول الله ﷺ: «فمتى تجذها؟ » قلت: غداً. قال: « يا جابر فإذا جذذتها فاعزل العجوة على حدتها وآلوان التمر على حدتها » .

وأربعون درهما ثمن جمل جابر يمكن أن تكفيه مؤونته. لكنها لا تحل مشكلة جابر الكبرى، مشكلة دين أبيه. فقد كان جابر عندما لقيه رسول الله ﷺ مهمومًا ، فقال لى: « يا جابر مالى أراك منكسرًا؟ » قلت: يا رسول الله استشهد أبى قتل يوم أحد، وترك دنًا وعيالًا. قال: « أفلا أبشرك بما لقى الله به أباك؟ » قال: قلت: بلى يا رسول الله قال: «ما كلَّم الله أحداً قط إلا من وراء حجاب، وأحيا أباك فكلمه كفاحًا[2] فقال: يا عبدى تمنَّ علىَّ أعطِك. قال: يارب تحيينى فأقتل فيك ثانية، . قال الرب عز وجل: إنه قد سبق منى إنهم إليها لا يرجعون » قال: وأنزلت هذا الآية : ﴿ **وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا** . . ﴾الآية[3][4] .

وشَهِد عظمة أبيه يوم أحد كما حدثنا بقوله: لما قُتل أبى جعلت أبكى وأكشف الثوب عن وجهه، فجعل أصحاب النبى ﷺ ينهوننى والنبى ﷺ لم ينه، وقال النبى ﷺ: « لا تبكه مازالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفع »[5] .

وسمع ما قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى شهداء أحد وأبيه على رأسهم:

« لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خضر، ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها ،وتأوى إلى قناديل من ذهب فى ظل العرش، فلما وجدوا طيب مشربهم ومأكلهم وحسن مقيلهم. فقالوا: يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا لئلا يزهدوا عن الجهاد، ولا ينكلوا عن الحرب، فقال الله تعالى: فأنا أبلغهم عنكم»[6]. فأنزل

---

(١) السقة: جمع وسق وهو الحمل ، ويقدره الشرع بستين صاعًا.
(٢) كفاحًا: مواجهة بدون حجاب. (٣) آل عمران / ١٦٩ .
(٤) الجامع الصحيح للترمذى ٥ / ٢٣٠ح(٣٠١٠) ، وقال فيه :«هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه ».
(٥) فتح البارى شرح صحيح البخارى ح ٤٠٨٠ ج ٧ ص ٣٧٤ .
(٦) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ١٧٠ ، وقال المحقق فيه: « صرح ابن إسحاق بالسماع وسنده متصل ، ورجاله ثقات فيكون الحديث صحيحاً » .

الله على رسوله ﷺ هذا الآيات: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ »(١) .

سمع هذا كله، وهو سعيد بهذا كله، لكن ما يفعل بدين أبيه. إنه الهم الذى بقى يلاحقه، فقد حلَّ مشكلة أخواته البنات فتزوج الثيب التى ترعاهن كما فى رواية البخارى: إن أبى قتل يوم أحد ،وترك تسع بنات كنَّ لى تسع أخوات فكرهت أن أجعل لهن جارية خرقاء مثلهن ،ولكن امرأة تمشطهن وتقوم عليهن. قال: « أصبت »(٢) .

وبقيت قضية الدين ليست فى أعماق جابراً ،بل ذلك فى أعماق الحبيب المصطفى ﷺ ، فكان لابد أن يطرح مع جنديه وضع هذا الهم الثقيل الجاثم على صدره. فسأله: « ما فعل دين أبيك؟ » فقلت: يا رسول الله ،انتظرت أن يجذ نخله. وقال: « إذا جذذت فأحضرنى» .

إنه لم يدعه إلى الغرماء، فسيكون معه لعلهم يقبلونه أو ينظرونه ،فكل النخل لا يكفى لوفاء الدين ، ولعل موسم هذا العام يفى به، فلا يبقى يعانى منه إلى الموسم القادم ، وطمح رضي الله عنه بحضوره ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن تنتهى قضية دين أبيه ،وفى رواية البخارى:

وإنى أحب أن يراك الغرماء. فقال: « اذهب فبيدر كل تمرٍ على ناحية » .

ومضى جابر والآمال العراض فى صدره أن تنتهى قضية الدين كما انتهت قضية العيال، ولا شىء أحب على قلبه وأشهى من حضور رسول الله ﷺ هذا المشهد.

ى ـ اللقطة العاشرة والأخيرة: إنه الفصل الأخير من المشاهد الرائعة التى نقلها لنا جابر رضي الله عنه نقلاً حيا هو ينقلنا الآن إلى حائط النخيل فى المدينة، وذلك فى الفصل الرابع من القصة المثيرة ففعلت فجعلت الصيحانى على حدة ،وأمهات الجرادين على حدة ، والعجوة على حدة، ثم عمدت إلى جُماعٍ من التمر مثل نخبة وقرْن وشقحة وغيرها من الأنواع ،وهو أقل التمر فجعلته حبلاً واحداً ثم جئت رسول الله ﷺ فخبَّرته. فانطلق رسول الله ﷺ ومعه علِية أصحابه فدخلوا الحائط وحضر أبو الشحم، قال: فلما نظر رسول الله ﷺ إلى التمر مصنفًا قال: « اللهم بارك له » ثم انتهى إلى العجوة فمسها بيده وأصناف التمر ، ثم جلس وسطها، ثم قال: « ادع غريمك » فجاء أبو الشحم ، فقال: « اكتل» .

---

(١) آل عمران / ١٦٩ .

(٢) فتح البارى شرح صحيح البخارى: ٤٠٥٣ ج ٧ ص ٣٥٧ .

وعند البخارى صورة نفسية أخرى وإنى أحب أن يراك الغرماء ،فقال:« اذهب فبيدر كل تمر على ناحية » ثم دعوته فلما نظروا إليه كأنهم أغروا بى تلك الساعة (١).

كأن الغرماء طمعوا أكثر وهم يرون هذه البيادر من التمر.

فلما رأى ما يصنعون أطاف حول أعظمها بيدرًا ثلاث مرات ثم جلس عليه ،ثم قال: « ادع لى أصحابك ».

إن جابرًا يرضى بل ويطمح أن يكفى التمر وفاء الدين كما عند البخارى (وأنا أرضى أن يؤدى الله أمانة والدى ولا أرجع إلى أخواتى بتمرة) .

وكما أمرع الله تعالى مرابع حليمة السعدية ببركة رسول الله ﷺ وهو طفل فى المهد ابن الأيام الأولى من عمره .

(ثم قدمنا منازلنا من بلاد بنى سعد وما أعلم أرضًا من أرض الله أجدب منها، فكانت غنمى تروح علىَّ حين قدمنا به معنا شِباعا لبُنًا (٢)، فنحلبُ ونشرب، وما يحلب إنسان قطرة لبن ولا يجدها فى ضِرعٍ. حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم: ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعى بنت أبى ذؤيب. فتروح أغنامهم جياعًا ما تبضّ بقطرة لبن، وتروح غنمى شباعًا لُبنًا. فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير. .)(٣) .

أقول :كما أمرعت مرابع حليمة لرسول الله ﷺ فى مهده، فلا غرو أن يبارك الله تعالى بثمر جابر بركة تحفظ له كل ثمر نخيله:

(. . . قال:« اللهم بارك له» ، ثم انتهى إلى العجوة فمسها بيده وأصناف التمر ثم جلس وسطها ثم قال: « ادع غريمك » فجاء أبو الشحم فقال: اكتل! فاكتال حقه كله من جبل واحد وهو العجوة وبقية التمر كما هو، ثم قال: « يا جابر، هل بقى على أبيك من شىء؟ » قال: قلت: لا. قال: وبقى سائر التمر، فأكلنا منه دهرًا، وبعنا منه حتى أدركت الثمرة من قابل(٤) ولقد كنت أقول: لو بعتُ أصلها ما بلغت ما كان على أبى من الدين، فقضى الله ما كان على أبى من الدين).

وفى رواية البخارى: (. . . فقلت : ثم دعوته فلما نظروا إليه (أى الغرماء)

---

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى: ٤٠٥٣ ج ٧ ص ٣٥٧ .

(٢) لُبناً : ممتلئة لبناً فى ضروعها .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ١ / ١٥١ ، ١٥٢ دار الجيل .

(٤) من قابل : من العام الذى يليه .

كأنهم أغروا بى تلك الساعة. فلما رأى ما يصنعون أطاف حول أعظمها بيدراً ثلاث مرات. ثم جلس عليه ثم قال: « ادع لى أصحابك » فما زال يكيل لهم حتى أدَّى الله عن والدى أمانته. وأنا أرضى أن يؤدى الله أمانة والدى ولا أرجع إلى أخواتى بتمرة: فسلَّم الله البيادر كلها، حتى إنى أنظر إلى البيدر الذى كان عليه النبى ﷺ كأنها لم تنقص تمرة واحدة [1])[2] .

وكانت هذه الرحلة الميمونة المباركة برفقة رسول الله ﷺ قد غرست فى قلبه ونفسه معانى وأبعاداً وآماداً فى تفجر ينابيع الهدى والخير عنده، ليكون أحد القادة الأعلام للأمة فيما بعد ، وخاصة فى الجانب العلمى والثقافى ينقل عن رسول الله ﷺ هذا الهدى للأمة لأن الأنصار قد تركوا الجانب السياسى والقيادى لإخوانهم المهاجرين.

فكان السادس فى الترتيب فى عدد الأحاديث المروية عن رسول الله ﷺ. فهو بعد (أبى هريرة وعبد الله بن عمرو وأنس بن مالك وعائشة وعبد الله بن عباس. فقد روى عن رسول الله ﷺ ألف حديث وخمسمائة حديث وأربعين حديثاً)[3] .

ولا عجب أن يقدم لنا هذه الروايات. وقد أصبح المرافق الدائم لرسول الله ﷺ. (فقد روى البخارى فى تاريخه بإسناد صحيح عن أبى سفيان عن جابر قال: كنت أمنح لأصحابى الماء يوم بدر وعن أبى الزبير أن جابراً حدثهم قال: غزا رسول الله ﷺ إحدى وعشرين غزوة بنفسه شهدت منها تسع عشرة غزوة)[4] .

ولئن أمضى عمره غازياً مع رسول الله ﷺ ،فقد بقى علينا أن نقول: إن الفوز الأكبر الذى حققه فى هذاه الرحلة خاصة هو دعوة رسول الله ﷺ له بالمغفرة خمس وعشرين مرة .

(فلقد رأيتنى والنبى ﷺ ليقول :« ما فعل دين أبيك ؟ » ،فقلت: قد قضاه الله ـ عز وجل ـ فقال :« اللهم اغفر لجابر »،فاستغفر لى فى ليلة خمسا وعشرين مرة)[5]. وفى رواية أحمد :(استغفر لى رسول الله ﷺ ليلة الجمل خمسا وعشرين مرة).فأى فوز لصاحب اللقطات العشر يعدل هذا الفوز،وأى بناء نفسى يفوق هذا البناء؟!.

---

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى: ٤٠٥٣ ج ٧ ص ٣٥٧ .
(٢) اللقطات العشر أخذت تفصيلاتها ومقاطعها من رواية المغازى للواقدى ١/ ٣٩٨- ٤٠٢ .
(٣) جوامع السيرة لابن حزم/ ٢٧٥ ، ٢٧٦ . (٤) الإصابة فى تمييز الصحابة ١ / ٢٢٢١ .
(٥) الواقدى فى المغازى ١/ ٤٠٣ ،وقد رواه أحمد كما ذكر الحافظ ابن حجر فى الإصابة ١/ ١/ ٢٢٢ .

غزو بنى لحيان

انفرد الحافظ الذهبى ـ رحمه الله ـ من بين رواة السير جميعا فى عرض غزوة بنى لحيان بعد غزوة بنى النضير ، واعتمد على نص لابن إسحاق ، رغم أن ابن إسحاق أورد غزوة بنى لحيان فى جمادى الأولى سنة ست ، والذى يدفعنا للأخذ بقول الحافظ المحقق الذهبى هو : تآلفها مع طبيعة الأحداث والأشياء ، فليس من الطبيعى أبداً أن يمضى رسول الله ﷺ إلى الأخذ بثار خبيب بعد سنتين ، ويترك هؤلاء المجرمين دون عقوبة ، والمعهود به ﷺ أن يبادر مباشرة للثأر حتى لا تنقض القبيلة ثانية وتتجرأ على المسلمين .فموقعها الطبيعى إذن بعد شهرين من سرية الرجيع ، وعند بلوغه خبر الغدر، ونعود بعد هذا إلى رواية الذهبى ـ رحمه الله .

قال ابن إسحاق : خرج رسول الله ﷺ فى جمادى الأولى على رأس ستة أشهر من صلح بنى قريظة إلى بنى لحيان يطلب بأصحاب الرجيع خبيب وأصحابه ، وأظهر أنه يريد الشام ليصيب من القوم غرة .

وقال يونس عن ابن إسحاق عن عبدالله بن أبى بكر بن محمد بن حزم وغيره . قالوا :

(لما أصيب خبيب وأصحابه ، خرج رسول الله ﷺ طلباً لدمائهم ليصيب من بنى لحيان غِرَّة ، فسلك طريق الشام ، وورَّى على الناس أنه لا يريد بنى لحيان ، حتى نزل أرضهم ـ وهم من هُذيل ـ فوجدهم قد حذروا فتمنعوا فى رؤوس الجبال . فقال رسول الله ﷺ : « لو أنا هبطنا عُسفان[1] لرأت قريش أنا قد جئنا مكة » فخرج رسول الله ﷺ فى مائتى راكب حتى نزل عسفان . ثم بعث فارسين حتى نزلا كراع الغميم ، ثم انصرفا إليه)[2] .

فذكر أبو عياش الزرقى أن رسول الله ﷺ صلى بعسفان صلاة الخوف[3] .

---

(١) عُسفان بلدة على ثمانين كيلاً من مكة شمالاً على الجادة إلى المدينة (معجم المعالم الجغرافية للبلاذرى) .

(٢) السيرة النبوية من تاريخ الإسلام للحافظ الذهبى / ٢٤٥ ، ٢٤٦ .

(٣) الأرجح أن هذه الصلاة كانت بعسفان قبيل صلح الحديبية كما روى خالد بن الوليد رضي الله عنه وليس فى هذه الغزوة ،وهى التى أخرجها أبو داود فى كتاب الصلاة ح١٢٣٦ ، عن أبى عياش الزرقى رضي الله عنه .

وقال بعض أهل المغازى : إن غزوة بنى لحيان كانت بعد قريظة (١) .

وتتمة الرواية فى سيرة ابن هشام :

فخرج من المدينة ﷺ واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم فيما قاله ابن هشام . قال ابن إسحاق :

فسلك على غراب جبل بناحية المدينة على طريقه إلى الشام ، ثم على محيص ثم على البتراء ، ثم صفَّق(٢) ذات اليسار فخرج على بين(٣) ثم على صخيرات اليمام(٤) ، ثم استقام به الطريق على المحجة من طريق مكة . فأغزَّ السير سريعا حتى نزل على غُران(٥) وهى منازل بنى لحيان ،وغران واد بين أمج وعسفان إلى بلد يقال له: ساية(٦) فوجدهم قد حذروا وتمنعوا فى رؤوس الجبال ،فلما نزلها رسول الله ﷺ ، وأخطأه من غِرتهم ما أراد. قال: « لو أنا هبطنا عُسفان لرأى أهل مكة أنا قد جئنا مكة » . فخرج فى مائتى راكب من أصحابه حتى نزل عسفان ، ثم بعث فارسين من أصحابه حتى بلغا كراع الغميم(٧) ، ثم كرّ وراح رسول الله ﷺ قافلاً . فكان جابر بن عبدالله يقول :

سمعت رسول الله ﷺ يقول حين وجّه راجعا : « آيبون تائبون إن شاء الله لربنا حامدون ، أعوذ بالله من وعثاء السفر وكآبة المنقلب ، وسوء المنظر فى الأهل والمال » .

(والحديث فى غزوة بنى لحيان عن عاصم بن عمر بن قتادة ، وعبدالله بن أبى بكر

---

(١) من الواضح أن البيهقى ـ رحمه الله ـ فى دلائل النبوة هو الذى أثبت نص ابن إسحاق عن الغزوة ، ولا شك أن هناك روايتين عن ابن إسحاق فى الغزوة . فالرواية الأولى التى رواها البكائى عن ابن إسحاق والمثبتة فى سيرة ابن هشام تقول : (ثم أقام رسول الله ﷺ بالمدينة ذا الحجة والمحرم وصفرا وشهرى ربيع ، وخرج فى جمادى الأولى على رأس ستة أشهر من فتح قريظة إلى بنى لحيان يطلب بأصحاب الرجيع) ، وعلى هذه الرواية فغزوة بنى لحيان سنة ست بعد غزوة بنى قريظة التى كانت فى نهاية السنة الخامسة .

أما الرواية الثانية لابن إسحاق فقد رواها سلمة ويونس بن بكير عنه،وكما هى عند البيهقى فى الدلائل: أخبرنا أبو الحسين بن الفضل القطان قال : أخبرنا عبدالله بن جعفر قال : حدثنا يعقوب بن سفيان قال: حدثنا عمار قال : حدثنا سلمة عن محمد بن إسحاق قال : وخرج فى جمادى الأولى على رأس ستة أشهر من صلح بنى قريظة إلى بنى لحيان يطلب بأصحاب الرجيع خبيب وأصحابه) ٣/ ٣٦٤ . فاتفق رواية سلمة وابن بكير عن ابن إسحاق ، وبها أخذ الذهبى والبيهقى ـ رحمهما الله ـ أوردها بعد بنى النضير بعد صلح بنى قريظة وحرب بنى النضير . وأخذ الباقون قوله فى الرواية الثانية .

(٢) صفَّق : عدَلَ ومال .

(٣) بين : موضع يبعد حوالى خمس وأربعين كيلاً جنوب المدينة .

(٤) صخيرات اليمام : على بعد خمسين كيلاً عنها . (٥) غران : يبعد سبعا وثمانين كيلاً عن المدينة .

(٦) سابة : واد يبعد مائة وعشرين كيلاً شمالى مكة .

(٧) كراع الغميم : على الطريق بين مكة والمدينة ، وتبعد عن مكة أربعة وستين كيلاً .

عن عبدالله بن كعب بن مالك . فقال كعب بن مالك فى غزوة بنى لحيان :

لــو أن بنــى لحيــان كانــوا تناظروا [١] لقـوا عُصا [٢] فى دارهم ذات مصدق
لقـوا سرعاناً[٣] يملأ السرب[٤] روعه[٥] أمام طحون[٦] كالمجـرة[٧] فيلـــق)[٨]

لقد كان رسول الله ﷺ حريصا على أن يفاجئ القوم فى أرضهم ، ويأخذهم على غِرة كما أخذوا خبيبا وأصحابه ،فالمحاربون لله ورسوله لا يحتاجون إلى إنذار بالغزو بل الأصل أن يهاجموا ويُبيتوا دون إعلان لذلك،ولهذا مضى ـ عليه الصلاة والسلام ـ قاصداً الشام حتى من دون أن يُعلم أصحابه أنه يقصد القوم ، ومضى قرابة خمسين كيلاً فى طريق الشام ثم عَدَل بعدها إلى بنى لحيان .

غير أن القوم يعرفون رسول الله ﷺ ، ويعرفون أنهم بغدرتهم هذه لن ينالوا أمناً بعدها أبداً ، فمحمد لا ينام على ثأر ، ولا يسكت على ضيم ، ويعرفون أن بنى عمهم من هذيل قد قُتِل قائدهم سفيان وهو يُعِدُّ العدة لغزو محمد ﷺ ، اغتيل وهو يهم بالغزو ، فكيف يسكت محمد ﷺ على قتل أصحابه والغدر بهم ، فكلما بدا غبار : حل الرعب فى قلوبهم ، وتوقعوا غزو محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ لهم ومن أجل هذا تمنعوا فى رؤوس الجبال ، وفات رسول الله ﷺ ضربهم .

وهى حكمة ربانية . ألا ينال منهم رسول الله ﷺ ، ولا يقتل منهم ، ولا يدرك منهم ثأراً فلعل الله تعالى أراد بهم الخير ، ليدخلوا فى دين الله فيما بعد دون أن يدخلوا على ضغينة وحقد .

غير أن الحرب المعنوية قد حققت أهدافها ، وشعر بنو لحيان أنهم فى قبضة محمد ﷺ فى أى وقت ، والذى غزاهم مرة يمكن أن يغزوهم ثانية ، وشعروا أن الصورة التى انتقلت إليهم عن ضعف محمد غير صحيحة ، فها هم يرون جيشه يملأ أرضهم ، وينزل بمياههم ، فلزموا حدهم والخوف يملأ قلوبهم أن تعود الكرة ثانية عليهم .

وقرَّر رسول الله ﷺ هدفاً آخر ، وهو فى أرض بنى لحيان :

قرَّر أن ينقل الحرب المعنوية إلى قريش ذاتها . فقد غدا فى منتصف الطريق بين

---

(١) تناظروا : انتظر بعضهم بعضا .
(٢) العصب : الجماعات .
(٣) السرعان : أول القوم .
(٤) السَّرب : النفس .
(٥) الروع : الفزع .
(٦) الطحون : كتيبة تطحن كل ما تمر به .
(٧) المجرة : مجرة السماء .
(٨) السيرة النبوية لابن هشام ٣/٣٨٨ ، ٣٨٩ .

مكة والمدينة ، فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ لصحبه : « لو أنا هبطنا عسفان لرأت قريش أنا قد جئنا مكة » .

وعُسفان بجوار مكة ، وهى أقرب من الطائف لها ، فلابد من أن تعلم قريش أن رسول الله ﷺ قادر على أن يتحرك فى الجزيرة ، ويصبح فى جوار مكة، ولا يقف له أحد من قادة العرب وأبطالها ، بل خطا الخطوة الأبعد حين بعث الصديق رضي الله عنه فى عشر فوارس إلى كراع الغميم ، وليس بينها وبين مكة إلا قرابة الستين كيلاً دون أن يخشى أحداً ، وبعث أبى بكر رضي الله عنه مقصود . فهو عَلَم عند أهل مكة وما جاورها، فلابد أن ترتج مكة للخبر ،وها هى رواية الواقدى تحدثنا عن آثار هذه الغزوة فى ربوع مكة :

(فأقام يوماً أو يومين وبعث السرايا من كل ناحية ، فلم يقدروا على أحد ، ثم خرج حتى أتى عُسفان ، فقال رسول الله ﷺ لأبى بكر: « إن قريشاً قد بلغهم مسيرى ، وأنى قد وردت عسفان ، وهم يهابون أن آتيهم ، فاخرج فى عشرة فوارس » .

فخرج أبو بكر فيهم حتى أتوا الغميم ، ثم رجع أبو بكر إلى رسول الله ﷺ ولم يلق أحداً ، فقال رسول الله ﷺ : « إن هذا يبلغ قريشاً فيذعرهم ، ويخافون أن نكون نريدهم » .

وخبيب بن عدى يومئذ فى أيديهم .فبلغ قريشاً أن رسول الله ﷺ قد بلغ الغميم، فقالت قريش : ما أتى محمد الغميم إلا يريد أن يخلِّص خبيباً . وكان خبيب وصاحبه فى حديد موثقين ، فجعلوا فى رقابهم الجوامع وقالوا : قد بلغ محمد ضجنان ، وهو داخل علينا فدخلت ماوية على خبيب فأخبرته الخبر ، وقالت: هذا صاحبك قد بلغ ضجنان يريدكم .فقال خبيب :وهل ؟ قالت:نعم.قال خبيب: يفعل الله ما يشاء ! قالت :والله ما ينتظرون بك إلا أن يخرج الشهر الحرام ،ويخرجوك فيقتلوك ويقولون: أترى محمدا غزانا فى الشهر الحرام،ونحن لا نستحل أن نقتل صاحبه فى الشهر الحرام؟ وكان مأسورا عندهم ، وخافوا أن يدخلها عليهم رسول الله ﷺ .

فانصرف رسول الله ﷺ الى المدينة وهو يقول : « تائبون ، آيبون ، عابدون ، لربنا حامدون اللهم أنت الصاحب فى السفر ، والخليفة على الأهل ، اللهم إنى أعوذ بك من وعثاء السفر ، وكآبة المنقلب وسوء المنظر فى الأهل والمال. اللهم بلغنا بلاغا صالحا يبلغ إلى الخير ، مغفرة منك ورضوانا » وغاب رسول الله ﷺ عن المدينة أربع

عشرة ليلة . وكان استخلف على المدينة ابن أم مكتوم)[1] .

ما هى الأهداف التى تحققت وراء هذه الغزوة ؟

١ـ بث الذعر والخوف فى نفوس بنى لحيان ، وإشعارهم لجريمتهم النكراء، وابتعادهم عن مواجهة النبى ﷺ فيما بعد لما رأوا من بأسه وقوة جيشه الذى غزاهم فى عقر دارهم .

٢ـ بث الذعر والخوف فى القبائل المجاورة الذين بلغهم الخبر أن شوكة محمد قد خضدت، وأن قوته قد انتهت على يد قريش وأنه لم يفلت من جيشه إلا القليل . وبذلك تعيد القبائل حساباتها، وتفكر كثيرا قبل أن تقدم على غزو المدينة .

٣ـ بث الذعر والخوف فى قريش بحيث تعرف مدى قوة محمد ﷺ وجرأته أن يأتى إلى حمى مكة وينزل فيها بل نتوقع أن يغزوها فى عقر دارها .

٤ـ ولعل أبعاد هذه المغامرة الجريئة الفريدة بعد أحد قد حطمت نفسية قريش وكان لها المدى الأكبر فى ثنى عزيمتها عن مواجهة رسول الله ﷺ فى بدر الموعد ، وهو الموعد الذى ضربه بعد عام من أحد ، وقد بقى على الموعد قرابة ثلاثة أشهر فقط .

٥ـ رفع معنويات خبيب وزيد ـ رضى الله عنهما ـ بحيث يرون أن محمدا ﷺ لن يرخص دمهم أو يتهاون فى أسرهم ، بل يقترب من مكة من أجلهم أو إنقاذهم، كما يغزو لحيان وينتقم لهم من الغدر الذى وقع بهم .

٦ـ التدريب والتربية للجيل القائد كى يتعلم كيف يثأر ، وكيف يقاتل، وكيف يباغت فى هذه المدرسة الحربية العليا التى لا نظير لها فى الوجود كله .

سرية عمرو بن أمية الضمرى :

١ـ نشير ابتداء إلى أنه بعد بدر بدأ أفراد من القبائل المجاورة للمدينة ينضمون للمجتمع الإسلامى ويقيمون فيه فيزيدون من عدد المهاجرين، ولم يعد المهاجرون من قريش فقط ،بل أصبحوا من نزاع القبائل، ينصهرون بالمجتمع الإسلامى الجديد بأشخاصهم ، ويكون ولاؤهم مباشرة لله ولرسوله . ويحملون اسم المهاجرين مثل السابقين الأولين منهم ،وكان من أبرز من دخل فى الإسلام بعض من قاتل بأحد وأبلى بلاء الرجال الأبطال : المزنيان وهب بن قابوس ،وابن أخيه الحارث بن عقبة: ونعرض هنا جهادهما العظيم دون تعليق :

---

(١) المغازى للواقدى ٢ / ٥٣٦ ، ٥٣٧ .

(وأقبل وهب بن قابوس المزنى ، ومعه ابن أخيه الحارث بن عقبة بن قابوس بغنم لها من لهما من جبل مزينة فوجدا المدينة خلوفا فسألا : أين الناس ؟ فقالوا : بأحد خرج رسول الله ﷺ يقاتل المشركين من قريش ، فقالا : لا نبتغى أثرا بعد عين فخرجا حتى أتيا النبى ﷺ بأحد فيجدان القوم يقتتلون والدولة لرسول الله ﷺ وأصحابه ، فأغارا مع المسلمين فى النهب، وجاءت الخيل من ورائهم ؛ خالد بن الوليد، وعكرمة ابن أبى جهل ، فاختلطوا فقاتلا أشدا القتال. فانفرقت فرقة من المشركين ، فقال رسول الله ﷺ :« من لهذه الفرقة؟ » فقال وهب بن قابوس: أنا يا رسول الله، فقام فرماهم بالنبل حتى انصرفوا ثم رجع فانفرقت فرقة أخرى فقال رسول الله ﷺ : «من لهذه الكتيبة ؟ » فقال المزنى : أنا يا رسول الله ، فقام فذبها بالسيف حتى ولوا ثم رجع المزنى ،ثم طلعت كتيبة أخرى فقال:« من يقوم لهؤلاء؟» فقال المزنى: أنا يا رسول الله، فقال : قم وأبشر بالجنة، فقام المزنى مسرورا يقول : والله لا أقيل ولا أستقيل، فقام فجعل يدخل فيهم فيضرب بالسيف، ورسول الله ﷺ ينظر إليه والمسلمون حتى خرج من أقصاهم ورسول الله ﷺ يقول :« اللهم ارحمه » ثم يرجع فيهم فما زال كذلك ، وهم محدقون به ، حتى اشتملت عليه أسيافهم ورماحهم فقتلوه ، فوجد به يومئذ عشرون طعنة برمح ، كلها قد خلصت إلى مقتل ومثل به أقبح المثل يومئذ ، ثم قام ابن أخيه فقاتل كنحو قتاله حتى قتل، فكان عمر بن الخطاب يقول: إن أحب ميتة أموت عليها لما مات عليها المزنى .

وكان بلال بن الحارث المزنى يحدث فيقول : شهدنا القادسية مع سعد بن أبى وقاص ،فلما فتح الله علينا قسمت بيننا غنائمنا ،فأسقط فتى من آل قابوس من مزينة ، فجئت سعدا حين فرغ من نومه فقال :بلال ؟ قلت : بلال ! قال: مرحبا بك من هذا معك؟ قلت : رجل من قومى من آل قابوس ، قال سعد : ما أنت يا فتى من المزنى الذى قتل يوم أحد ؟ قال : ابن أخيه . قال سعد : مرحبا وأهلا ، ونعم الله بك عينا ذلك الرجل شهدت منه يوم أحد مشهدا ما شهدته من أحد . لقد رأيتنا ، وقد أحدق بنا المشركون من كل ناحية ، ورسول الله ﷺ وسطنا، والكتائب تطلع من كل ناحية ، وإن رسول الله ﷺ ليرمى ببصره فى الناس يتوسمهم يقول: « من لهذه الكتيبة ؟ » كل ذلك يقول المزنى : أنا يا رسول الله ، كل ذلك يردها، فما أنسى آخر مرة قامها فقال رسول الله ﷺ :« قم وأبشر بالجنة »،قال سعد : وقمت على أثره ، يعلم الله أنى أطلب مثل ما يطلب يومئذ من الشهادة ، فخضنا حومتهم حتى رجعنا فيهم الثانية، وأصابوه ـ رحمه الله ـ ووددت والله أنى كنت يومئذ أصبت يومئذ معه ، ولكن أجلى استأخر ، ثم دعا سعد من ساعته بسهمه فأعطاه وفضله وقال: اختر فى المقام عندنا أو

الرجوع إلى أهلك . فقال بلال: إنه يستحب الرجوع فرجعنا .وقال سعد: أشهد لرأيت رسول الله ﷺ واقفا عليه وهو مقتول وهو يقول : رضى الله عنك فإنى عنك راض ثم رأيت رسول الله ﷺ قام على قدميه ،وقد نال النبى ﷺ من الجراح ما ناله ، وإنى لأعلم أن القيام ليشق عليه ـ على قبره حتى وضع فى لحده وعليه بردة لها أعلام خضر، فمد رسول الله ﷺ البـردة على رأسه فخمره فأدرجه فيها طولا وبلغت نصف ساقيه، وأمرنا فجعلنا الحرمل . فجعلناه على رجليه وهو فى لحده ، ثم انصرف فما حال أموت عليها أحب إلى من أن ألقى الله تعالى على حال المزنى) (١) .

٢ ـ وهذا بطلنا العظيم عمرو بن أمية الضمرى من بنى ضمرة ، والذى أسلم حين انصرف المشركون من أحد، وكان شجاعا ، وكان أول مشاهده بئر معونة، وله ذكر فى عدة مواطن ، وكان من رجال العرب جوداً ونجدة وعاش إلى خلافة معاوية)(٢) .

وقد تعددت مهمته التى انفرد بها وحده كانفراد عبد الله بن أنيس المتخصر بالعصا فى الجنة فى قتله سفيان بن خالد الذى كان يجمع الجموع من هذيل وغيرها لغزو المدينة، وأن يقوم رجل مقام جيش هو أمر نراه يتكرر كثيرا فى دولة النبوة ،والهدف الآن هو قائد المشركين أبو سفيان بن حرب الذى يراد اغتياله بعد أن دبر محاولة اغتيال الرسول ﷺ بالمدينة ،وليشعر أبو سفيان أن العيون الساهرة المسلمة قادرة على رد المحاولة مباشرة بعد محاولته . وقد أوردها البيهقى بسنده عن رجاله فقال : (كان أبوسفيان بن حرب قد قال لنفر من قريش بمكة : ما أحد يغتال محمداً فإنه يمشى فى الأسواق فندرك ثأرنا، فأتاه رجل من العرب فدخل عليه منزله ، وقال له : إن أنت قويتنى خرجت إليه حتى أغتاله، فإنى هاد بالطريق خرِّيت ومعى خنجر مثل خافية النسر. قال : أنت صاحبنا . فأعطاه بعيرا ونفقة وقال : اطو أمرك فإنى لا آمن أن يسمع هذا أحد فينمه إلى محمد . قال العربى : لا يعلم به أحد . فخرج ليلا على راحلته ، فسار خمسا وصبح ظهر الحرة صبح سادسة . ثم أقبل يسأل عن رسول الله ﷺ حتى أتى المصلى، فقال له قائل : قد توجه إلى بنى عبد الأشهل ، فخرج يقود راحلته حتى انتهى إلى بنى عبد الأشهل . فعقل راحلته ثم أقبل يؤم رسول الله ﷺ ، فوجده فى جماعة من أصحابه يحدث فى مسجدهم فدخل ، فلما رآه رسول الله ﷺ قال لأصحابه : « إن هذا الرجل يريد غدراً . والله حائل بينه وبين ما يريد» .

---

(١) المغازى للواقدى ١ / ٢٧٥ ـ ٢٧٨ .

(٢) الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر م٢ج٤ص٢٨٥ ت(٥٧٦٠) .

فوقف فقال : أيكم ابن عبد المطلب ؟ فقال رسول الله ﷺ: « أنا ابن عبد المطلب » فذهب ينحنى على رسول الله ﷺ كأنه يسارُه . فجبذه أسيد بن الحضير وقال له: تنح عن رسول الله ﷺ ، وجبذ بداخلة إزاره فإذا الخنجر. فقال رسول الله ﷺ : « هذا غادر » وسقط فى يدى العربى وقال : دمى دمى يا محمد ، وأخذ أسيد بلببه . فقال رسول الله ﷺ : « اصدقنى : ما أنت وما أقدمك ؟ فإن صدقتنى نفعك الصدق ، وإن كذبتنى فقد اطلعت على ما هممت به» ، قال العربى: فأنا آمن ؟ قال: « فأنت آمن ». فأخبره بخبر أبى سفيان وما جعل له . فأمر به فحبس عند أسيد. ثم دعا به من الغد. فقال : « قد أمنتك فاذهب حيث شئت، أوخير لك من ذلك ». قال: وما هو؟ قال: «تشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله » قال: فإنى أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله ، والله يا محمد ، ما كنت أفرق الرجال فما هو إلا أن رأيتك فذهب عقلى، وضعفت نفسى، ثم اطلعت على ما هممت به مما سبقت به الركبان ولم يعلمه أحد، فعرفت أنك ممنوع ، وأنك على حق، وأن حزب أبى سفيان حزب الشيطان . فجعل النبى ﷺ يبتسم ، وأقام أياما ثم استأذن النبى ﷺ ، فخرج من عنده فلم يسمع له بذكر . فقال رسول ﷺ لعمرو بن أمية الضمرى ولسلمة بن أسلم بن حريش : «اخرجا حتى تأتيا أبا سفيان بن حرب ، فإن أصبتما منه غرة فاقتلاه » قال عمرو: فخرجت أنا وصاحبى حتى أتينا بطن يأجج فقيدنا بعيرنا فقال لى صاحبى : يا عمرو هل لك فى أن نأتى مكة ونطوف بالبيت سبعا ونصلى ركعتين ؟ فقلت : إنى أعرف مكة إنهم إذا أمسوا انفجعوا بأفنيتهم ، فأبى أن يطيعنى. فأتينا مكة فطفنا سبعا ، وصلينا ركعتين ، فلما خرجت لقينى معاوية بن أبى سفيان فعرفنى وقال: عمرو بن أمية واحزناه. فأخبر أباه، فنيد بنا أهل مكة . فقالوا: ما جاء عمرو فى خير - وكان رجلا فاتكا فى الجاهلية - فحشد أهل مكة وتجمعوا وهرب عمرو وسلمة ، وخرجوا فى طلبهما ، واشتدوا فى الجبل . قال عمر : فدخلت غارا فتغيبت عنهم حتى أصبحت وباتوا يطلبون فى الجبل ، وعمى الله عليهم طريق المدينة أن يهتدوا لراحلتنا ، فلما كان الغد ضحوة أقبل عثمان بن مالك بن عبيد الله التيمى يختلى لفرسه حشيشا فقلت لسلمة بن أسلم : إن أبصرنا أشعر بنا أهل مكة وقد أقصروا عنا ، فلم يزل يدنو من باب الغار حتى أشرف علينا وخرجت فطعنته طعنة تحت الثدى بخنجرى فسقط وصاح وأسمع أهل مكة، فأقبلوا بعد تفرقهم ، ودخلت الغار فقلت لصاحبى : لا تحرك ، وأقبلوا حتى أتوا عثمان بن مالك . فقالوا : من قتلك ؟ قال : عمرو بن أمية . قال أبو سفيان : قد علمنا أنه لم يأت بعمرو خير ، ولم يستطع أن يخبرهم بمكاننا كان بآخر رمق فمات. وشغلوا عن طلبنا بصاحبهم يحملونه . فمكثنا ليلتين فى مكاننا ثم خرجنا،

فقال صاحبى : يا عمرو بن أمية هل لك فى خبيب بن عدى ننزله ؟ فقلت له : أين هو؟ قال : هو ذاك ، مصلوب حوله الحرس ، فقلت : أمهلنى وتنح عنى فإن خشيت شيئا فانج إلى بعيرك ، فاقعد عليه وائت رسول الله ﷺ فأخبره الخبر . ودعنى فإنى عالم بالمدينة ، ثم اشتددت عليه حتى مللته ، فحملته على ظهرى ، فما مشيت به إلا عشرين ذراعا حتى استيقظوا فخرجوا فى طلب أثرى ، فطرحت الخشبة فما أنسى وقعها دب (يعنى صوتها) ثم أهلت عليه من التراب برجلى فأخذت بهم طريق الصفراءُ فأعيوا فرجعوا ، وكنت لا أدرك مع بقاء نفسى . فانطلق صاحبى إلى البعير فركبه ، وأتى النبى ﷺ فأخبره ، وأقبلت حتى أشرفت على الغليل . غليل ضجنان (١) فدخلت فى غار فيه معى قوسى وأسهم وخنجر، فبينا أنا فيه إذ أقبل رجل من بنى بكر من بنى الذئل أعور طويل يسوق غنما ومعزى .فدخل علىَّ الغار . فقال : من الرجل ؟ فقلت: من بنى بكر . فقال : أنا من بنى بكر، ثم : اتكأ فرفع عقيرته يتغنى يقول:

فلست بمسلم ما دمت حيا ولست أدين دين المسلمينا

فقلت فى نفسى : والله إنى لأرجو أن أقتلك ، فلما نام قمت إليه فقتلته شر قتلة قتلتها أحد قط ، ثم خرجت حتى هبطت ، فلما أسهلت فى الطريق إذا رجلان بعثتهما قريش يتجسسان الأخبار فقلت : استأسرا فأبى أحدهما فرميته فقتلته . فلما رأى ذلك الآخر استأسر فشددته وثاقا ثم أقبلت به إلى النبى ﷺ . فلما قدمت المدينة رآنى صبيان وهم يلعبون وسمعوا أشياخهم يقولون : هذا عمرو . فاشتد الصبيان إلى النبى ﷺ فأخبروه ، وأتيته بالرجل قد ربطت إبهاميه بوتر قوسى ، فلقد رأيت النبى ﷺ يضحك ثم دعا لى بخير كان قدوم سلمة قبل قدوم عمرو بثلاثة أيام)(٢) .

١ـ انتهت غزوة أحد . وكانت آمال أبى سفيان تترنح فى مقتل محمد ﷺ ، ولنقف أمام هذه المناظرة بين أبى سفيان بن حرب وعمر بن الخطاب ـ رضى الله عنهما ـ بعيد المعركة فيما رواه البخارى عن البراء بن عازب ـ رضى الله عنهما :

(وأشرف أبو سفيان فقال : أفى القوم محمد؟ : فقال : « لا تجيبوه ». فقال : أفى القوم ابن أبى قحافة ؟ قال : « لا تجيبوه » قال : أفى القوم ابن الخطاب ؟ فقال : إن هؤلاء قتلوا ،فلو كانوا أحياء لأجابوا فلم يملك عمر نفسه فقال : كذبت يا عدو الله، أبقى الله عليك ما يخزيك) (٣) .

---

(١) ضجنان : حرة شمالى مكة يمر الطريق بنصفها الغربى على مسافة ٥٤ كيلاً على طريق المدينة .
(٢) دلائل النبوة للبيهقى ٣/ ٣٣٣ـ٣٣٧ ، وهو فى السيرة النبوية لابن هشام ٤/ ٣٧٢ ـ ٣٧٥ .
(٣) فتح البارى شرح صحيح البخارى : ٧ / ٣٤٩ (٤٠٤٣).

وفى حديث ابن عباس عند الطبرانى والحاكم فقال عمر : (كذبت يا عدو الله . قد أبقى الله لك ما يخزيك . إن الذين عددت لأحياء كلهم)(١) وفى السيرة النبوية لابن هشام (قال ابن إسحاق . . . فلما أجاب عمر أبا سفيان قال له أبو سفيان :هلم إلى يا عمر. فقال رسول الله ﷺ لعمر: ائته فانظر ما شأنه ، فجاءه فقال له أبو سفيان: أنشدك الله يا عمر. أقتلنا محمداً؟ قال عمر:اللهم لا،إنه ليسمع كلامك الآن. قال: أنت أصدق عندى من ابن قمئة وأبر - لقول ابن قميئة لهم: إنى قتلت محمدا) (٢).

وفى حديث ابن عباس عند الإمام أحمد:

(فإذا أبو سفيان يصيح فى أسفل الجبل : أعل هبل مرتين - يعنى آلهته - أين ابن أبى كبشة ؟ أين ابن أبى قحافة ؟ أين ابن الخطاب ؟ فقال عمر: يا رسول الله ألا أجيبه؟ قال : « بلى » . فلما قال : اعل هبل ، قال عمر : الله أعلى وأجل ؟ فقال أبو سفيان : يا ابن الخطاب : إنه قد أنعمت فعال ، فقال : أين ابن أبى كبشة ؟ أين ابن الخطاب ؟ أين ابن أبى قحافة ؟ فقال عمر : هذا رسول الله ﷺ وهذا أبو بكر ، وها أنذا عمر)(٣) .

فمقتل رسول ﷺ له الأولوية الأولى فى أهداف الحرب ، ومقتل أبى بكر وعمر له الأولوية الثانية . وكما يقول الإمام الصالحى : (ولم يسأل عن هذه الثلاثة إلا لعلمه وعلم قومه أن قيام الإسلام بهم)(٤) .

ومن أجل ذلك كان الهم الأكبر لأبى سفيان هو: قتل رسول الله ﷺ . فكان ذلك العربى الفدائى الذى عرض على أبى سفيان القيام بأخطر مهمة فى دنيا العرب آنذاك .

٢ - وتعود إلى أذهاننا قصة عمير بن وهب الجمحى الذى جاء يغتال رسول الله ﷺ بعد بدر بتآمر سرى بينه وبين سيد قومه من بنى جمح صفوان بن أمية ، وكلا البطلين فاتكان : عمير شيطان قريش ، وهذا العربى الذى لم نتعرف على اسمه ، وكلاهما وقعت الشبهة فيه ، قبل الإقدام على الاغتيال ، وكلاهما فوجئا بأن رسول الله ﷺ هو الذى يقص عليهما خبر المؤامرة كاملاً ، وكلاهما لا يتمالك أن يسلم خالصاً بقلبه أمام هذه المعجزة ، وإنما الذى نجده عند هذا العربى زيادة عما لدى عمير رضي الله عنه هو ذلك الخوف والرعب الذى ملأ قلبه (والله يا محمد ما كنت أفرق الرجال . فما هو أن رأيتك ، فذهب عقلى ، وضعفت نفسى ، ثم اطلعت على ما هممتُ به مما سبقتُ به الركبان ، ولم يعلمه أحد ، فعرفت أنك ممنوع) .

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٤/ ٣٢٤ .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ١٣٦ .
(٣) مسند أحمد ١/ ٢٨٨ .
(٤) سبل الهدى والرشاد ٤/ ٣٢٤ .

وهذا هو حد البطولة فى دنيا العرب آنذاك لمن يجرؤ أن يدخل مدينة العدو ، ويصل إلى قيادة هذا العدو ، فإما أن ينجح بمهمته ثم يقتل ، وإما أن يفشل ويقتل ، وإذا بهذا الفاتك يتحول جندياً فى جيش النبوة ، وحرص رسول الله ﷺ على هداية الفاتك القادم لقتله يعنينا كثيراً .

ويهمنا أن يبقى دائماً حياً فى أذهاننا ، فرسول الله ﷺ هو للناس كافة ، وهو رحمة للعالمين لهؤلاء الذين يحاربونه ، ويقاتلونه ، ويتلمظون لدمه ، ويتلذذون بسفك هذا الدم ، هو رحمة لهم ،فلابد أن يقدم هذا الدين لهم،فى لحظات تزول الغشاوة فيها عن قلوبهم .فهذا العربى أخذ الأمان قبل أن يسلم،وكان بإمكانه أن يمضى إلى قومه وقد بُهت لعظمة رسول الله ﷺ،ثم يُترك نهباً للشيطان يؤلبه ويمنعه عن الإسلام،لكن رسول الهدى والرحمة ، يريد له بعد أن يحصل على أمانه . أن تنفتح عيناه لهذا النور، وينزاح الركام عن هذا القلب،فتمس شغافه آيات الله تعالى وهدى رسوله. (« أو خير من ذلك ؟ » قال : ماهو ؟ قال : « تشهد أن لا إله الله وأنى رسول الله ») . لقد كان هذا العربى . ينتظر هذه اللمسة الحانية ، وهذه اللفتة الفاعلة فى أعماقه ونفسه ليعلن دخوله فى هذا الدين ، ومن هنا نشهد عظمة الصحبة لسيد ولد آدم ، الذى يعرف اللحظات الحاسمة فى النفس البشرية فيعطيها وقود الإضاءة لها، ويتصل التيار بالمنبع الأعظم ويشرق الإيمان فيها ، فتغدو إنسانا آخر، ﴿ **هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ** ﴾(١) .

٣ـ ونعود إلى هذا العربى الفاتك الجديد : عمرو بن أمية الضمرى الذى لم يمر عليه فى دنيا الاسلام أربعة أشهر، فقد أسلم منصرف الناس من أحد ، ولعظمة معدنه أن يسلم فى هذه المرحلة ، يوم يكفر ضعاف الإيمان لهول المحنة التى عانوها فى هذه المرحلة ، وبعد المحنة أشرق قلبه بالإسلام فإذا به يمضى جنديا فى بئر معونة ، ويكون وحده من دون السبعين هو الذى يقدم إلى رسول الله ﷺ متجاوزا كل مخاطر العدو ، لينقل لرسوله محمد ﷺ أنباء المحنة الجديدة فى بئر معونة ،ونظر ـ عليه الصلاة والسلام ـ بهذه الطاقة الجديدة الضخمة التى انضمت لصفه ،فإذا به يعده لأخطر مهمة فى دنيا العرب كذلك آنذاك،يعده لقتل قائد جيش العدو فى مكة.وزعيم المحاربين له.ويرسل معه مرافقا من الرعيل الأول من أهل بدر وهو :سلمة بن أسلم رضي الله عنه وذلك ليتعاونوا معا فى تنفيذ المهمة ، وعمرو بن أمية رضي الله عنه ثعلب الصحراء وأسدها

(١) الجمعة / ٢ .

الهصور كما يحدث عن نفسه أنه أدرى بمكة من أهلها يدعوة سلمة رضي الله عنه لدخولها فى قلب النهار للطواف والصلاة فيقول : (إنى أعرف مكة إنهم إذا أمسوا انفجعوا إليها بأفنيتهم) وهو الوقت المناسب بحيث لايراهم أحد ، وهو الوقت الأنسب لتنفيذ المهمة. فيقول بعدها رضي الله عنه :فأبى أن يطيعنى ، يا لعظمة التربية ! وما أحوج المجاهدين فى سبيل الله بهذا الدرس ، وعدم فقه هذا الدرس حطم ثورات إسلامية . وقضى عليها. فالبطل عمرو ،والخبير عمرو ، يأبى صاحبه البدرى أن يطيعه وهما اثنان ، فلا يمكن أن يختلفا ، فأطاع عمرو سلمة، إن الأمر لايحتمل أن يسير كل واحد منهما باجتهاده ، وحين أصر سلمة على رأيه رغم قلة خبرته فما كان من عمرو إلا أن أطاعه ومضى معه للطواف والصلاة فى الكعبة المشرفة ، ولو كان مثل هذه الحادثة فى غير القيم الإسلامية، لفتك عمرو بصاحبه سلمة، ومضى لتنفيذ مهمته ، لكن تربية الأشهر الخمسة هذه فى حضن الإسلام العظيم علمته مفهوم الطاعة ، رغم أن ليس هناك ما يوحى بإمرة سلمة رضي الله عنه لكن عمرو الوافد الجديد على الإسلام يدرك فضل سلمة، وقدمه فى الإسلام ، وبلاءه فيه فيتصرف التصرف المناسب للجنود القادة لا القادة الجنود ، ويمضى مع عمرو إلى الطواف والصلاة .

٤ـ ووقع ما كان يخشاه عمرو ، حيث رآه معاوية بن أبى سفيان ، وقد سبقت أخبار عمرو إليهم ، إذ تناقلت الركبان خبر سلامة عمرو بن أمية الضمرى من جيش محمد ، وأنه وحده الذى نجى من الموت ، ومهمة الفدائى المسلم ليس هى أن يقتل ، أو أن يستشهد . إن مهمته تنفيذ ما يحمل من مهمات ،ومهمته خدمة هذا الإسلام والذود عنه والجهاد فى سبيله ، إلى آخر لحظة من حياته وفى أى لحظة يأتيه الأجل فلن يخافه لأنه مقدر، وعاش عمرو رضي الله عنه هذه التربية عقب أحد . والتى نزلت لتعميق مفهوم القدر والآجال والأرزاق فى النفوس . ﴿ ... **قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ** ﴾ (١) .

وعرف معاوية عمرو بن أمية وأنه ما جاء إلا لشر ، وهذا يعنى: أن عمور وسلمة بين خيارين ، إما أن يسلما أنفسهما رخيصة لتقتل ويتشفى بهم المشركون ، وإما أن يفوتا هذا الهدف على المشركين خاصة وقد بدأ الصريخ بمكة يطالب بالقبض عليهما ،

(١) آل عمران / ١٥٤ .

وخرجت مكة لذلك (فقالوا : ما جاء عمرو فى خير ،وكان رجلا فاتكاً فى الجاهلية ، فحشد أهل مكة وتجمعوا وهرب عمرو وسلمة ، وخرجوا فى طلبهما ، واشتدوا فى الجبل) .

والقدرة الفائقة للتخلص من المآزق ، وأن يعجز القوم هربا ، ويفشلوا فى القبض عليه هى من سمات الفدائى اليقظ ، كما أن قدرة التخطيط فى قلب الأزمة سمة أساسية ثانية له ، فكان اللجوء إلى الغار هو الذى عمى على قريش الخبر وعمى عليهم كذلك البحث فى طريق المدينة لاستلاب الراحلتين الغريبتين على الطريق ، وإلى هنا لو عاد عمرو بن أمية وصاحبه سلمة لكانا قمة فى العمل الفدائى أن استطاعا الخلوص من براثن العدو الذى وصلا بين يديه وأفلتا منه ، لكن أى طراز هذا عمرو بن أمية ؟ فهل يمضى إلى رسول الله ﷺ وقد نجا بروحه وانتهى الأمر ؟ وأين إذن طاقاته الهجومية فى الفتك بعدوه ؟ ولم لا يستعملها ؟ آن الأوان لاختبار هذه الطاقة الثالثة (فلما كان الغد ضحوة أقبل عثمان بن مالك بن عبيد الله التيمى يختلى لفرسه حشيشا . فقلت لسلمة ابن أسلم : إذا أبصرنا أشعر بنا أهل مكة وقد أقصروا عنا ، فلم يزل يدنو من باب الغار حتى أشرف علينا . إنها لحظة التصرف الحاسمة إما أن يرى عثمان عمرا وسلمة ، ثم يركض ويصرخ بأهل مكة بالقبض عليهما ، وإما أن يقتل فى التو واللحظة . قبل أن ينفذ مهمته . وكانت سرعة المبادرة العظيمة من عمرو فلا يحتمل الموقف التلعثم ولا التلجلج ولا التردد، لا يحتمل إلا تصرفاً واحدا ينقذ الموقف . فكان هذا التصرف (وخرجت فطعنته طعنة تحت الثدى بخنجرى فسقط ، وصاح وأسمع أهل مكة، فأقبلوا بعد تفرقهم ، ودخلت الغار فقلت لصاحبى : لا تحرك وها نحن نلحظ منذ الآن عظمة سلمة رضي الله عنه فبعد أن بان له خطأ رأيه فى ذلك الطواف نجده يصبح الجندى المطواع لعمرو ينفذ كل ما يوجهه إليه ، ولايناقشه . فقد أدرك سلمة أنه أمام بطل مغوار وعبقرى عظيم وخبير مجرب ، فأصبح هو الذى يطيع ولا يعصى .

إنهما جنديان من مدرسة محمد ﷺ قديم العهد بالإسلام وأحد أهل بدر ، وحديث العهد بالإسلام ، تلقيا ما يمكن من التربية فى هذه المدرسة ، وها نحن نشهدهما فى مهمتهما وهما فى أرض العدو ، ورسول الله ﷺ قد تعلق قلبه بهما ينتظر أى خبر عنهما .

وقدر عمرو أن عثمان بعد أن سقط بعيدا قتيلا فلن يكون علامة على وجودهما فى الغار لكن التقدير دخل فى باب المغامرة حين وصلت قريش إلى القتيل عثمان . وأدركته قبل الموت ليؤكد لهم أن عمرو بن أمية قد قتله ، ويتدخل لطف الله الربانى بهذين

الصاحبين فى الغار حين فاضت روح القتيل قبل أن تخبر قريشا بمكانهما ، ولئن لطف الله تعالى بمحمد ﷺ سيد الوجود وصاحبه الصديق فأعمى عنهم الأبصار وقدروا من خلال وجود العنكبوت على باب الغار أنه لم يدخله أحد من قبل ميلاد محمد فجنديا رسوله ترعاهم عين الله ، ويكون هذا اللطف الربانى بأن تفيض روح عثمان التيمى قبل أن يتمكن من دلالة قريش على موقع عمرو وصاحبه ـ رضوان الله عليهما ـ وتعلم عمرو وسلمة ـ رضى الله عنهما ـ من درس الهجرة النبوية فن التخفى عن العدو، فمكثا فى الغار يومين حتى سكن عنهما الطلب ، وأيست قريش منهما، كما فعل ـ عليه الصلاة والسلام . حيث أقام ثلاثة أيام فى الغار وتأكد أن الطلب قد سكن عنه وعن صاحبه ، وإذا عاد الفدائيان إلى المدينة ، وقد نجيا بأنفسهما ، وقتلا رجلا من العدو فهى بطولة كبرى تسجل فى تاريخهما ، لكن هدفهما أكبر من ذلك .

٥ ـ تركنا جثة خبيب رضي الله عنه على خشبتها وكما تقول رواية أخرى نعرضها فيما بعد: (روى أن المشركين تركوا خبيبا على الخشبة ليراه الوارد والصادر فيذهب بخبره إلى الأطراف . .)[١] ، وهم يريدون بذلك إشعار العرب بقوتهم وإثارة الرعب فى صدور المسلمين من جهة ثانية ،وبقيت الخشبة رمزا لغدر الجبان ، ورمزاً لعظمة خبيب الذى انتشرت أخبار دعوته فى الآفاق ، وبقيت غصة فى حلق المسلمين أن يبقى خبيب مصلوبا على خشبته رضي الله عنه تبجحاً بالنصر الأجوف ، وكما تقول روايتنا هذه:(فقال صاحبى : يا عمرو بن أمية ،هل لك فى خبيب بن عدى ننزله . فقلت له: أين هو ؟ قال : هو ذاك مصلوب حوله الحرس. فقلت له : امهلنى وتنح عنى فإن خشيت شيئا فانج إلى بعيرك ، فاقعد عليه وائت رسول الله ﷺ فأخبره الخبر، ودعنى فإنى عالم بالمدينة) .

ولا نستبعد أن تكون هذه المهمة السرية قد أبلغها عمرو رضي الله عنه إضافة إلى مهمة قتل أبى سفيان لنجمع بينها وبين رواية الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ عن عمرو بن أمية والتى يقول فيها : (عن عمرو بن أمية أن رسول الله ﷺ بعثه وحده عينا على قريش ، قال: فجئت إلى خشبة خبيب وأنا أتخوف العيون فرقيت فيها ، فحللت خبيباً فوقع إلى الأرض ، فانتبذت غير بعيد ثم التفتُ فلم أر خبيباً ولكأنما ابتلعته الأرض ، فلم ير لخبيب أثراً حتى الساعة)[٢] .

أما روايتنا هذه عند البيهقى ففيها (ثم اشتددت عليه حتى حللته ، فحملته على ظهرى ، فما مشيت به إلا عشرين ذراعاً حتى استيقظوا فخرجوا فى طلب أثرى ،

---

(١) تاريخ الخميس للديار بكرى ٤٥٨/١ .

(٢) مسند أحمد ١٣٩/٤ ، ٢٨٧/٥ .

فطرحت الخشبة ، فما أنسى وقعها دبًّ ـ يعنى صوتها ـ ثم أهلت عليه من التراب برجلى) .

المهم أن صاحبينا افترقا ، وغدا سلمة رضي الله عنه الجندى المطيع لعمرو ، حيث نفَّذ توجيهاته كاملة . (فانطلق صاحبى إلى البعير فركبه ، وأتى النبى ﷺ فأخبره) ، وبقيت عملية اقتحام مكة والوصول إلى جثة خبيب الحبيب رضي الله عنه مغامرة جديدة لا يقدر عليها إلا عمرو بن أمية الضميرى ، الذى يملك من الجرأة والنباهة وسرعة البديهة وخفة الحركة ما يجعله مؤهلاً لهذه المهمة الخطيرة الثانية ، ونجحت المهمة ، وأخذ خبيباً رضي الله عنه وحمله على ظهره ، أو أنه وقع بعد أن فك وثاقه عن الخشبة أو رمى الخشبة ، وكانت الأرض قد صدرت إليها أوامر الله تعالى أن تحتضن عبده الحبيب خبيباً وتواريه دون أن يقوم بمواراته أحد ، ولئن قامت الملائكة بحمل عامر بن فهيرة رضي الله عنه إلى السماء ووارته فى عليين ، وقامت الدبر بحماية رأس عاصم بن ثابت رضي الله عنه من العدو ، ونفذ السيل المهمة المكلف بها من ربه فمضى بعاصم ورأسه بحيث لا يمس مشركاً ولا يمسه مشرك ، فقد قامت الأرض بتنفيذ أمر ربها سبحانه فابتلعته ؛لأن الوقت لا يحتمل لمواراته ودفنه ، فعمرو بن أمية الضميرى مبعوث رسول الله ﷺ قد يكون مصلوباً عوضاً عن خبيب لو قبضوا عليه ، وقد قتل عثمان بن عبيد الله التيمى ، فلهم ثارات عنده، غير أن ابن الصحراء الضميرى ، مضى أسرع من الريح ، وأنى لهم أن يدركوه.(فأخذت بهم طريق الصفراء فأعيوا فرجعوا) .

ونفّذ عمرو رضي الله عنه المهمة الثانية من مواراة جثة خبيب وقتل فارساً من فرسان المشركين ومضى عائداً إلى المدينة .

٦ ـ ولم يكتف رضي الله عنه بهذا الصيد الثمين ، إنما رزقه الله صيداً آخر سيق له . ذاك البكرى الذى يرفع عقيرته قائلاً :

ولست مسلم مادمت حياً ولست أدين دين المسلمينا

إنه حاقد جديد بين يديه . من أعداء الله فى الأرض .

(فقلت : والله إنى لأرجو أن أقتلك . فلما نام قمت إليه فقتلته شر قتلة قتلتها أحد) .

وإذ أراد الشرك أن يؤدب العرب بجثة خبيب رضي الله عنه فعمرو بن أمية الضميرى يود أن يؤدب الشرك والمشركين بكل مجاهر بالعداوة لله ولرسوله ، فأصبحت حصيلته قتيلين ، ومواراة جثة خبيب الحبيب رضي الله عنه .

٧ ـ وكانت المفاجأة الجديدة : رجلان من قريش بعثتهما قريش يتحسسان الأخبار ، إنهما رجلان وهو رجل واحد . أى شكيمة هذه ؟ وأى قوة هذه ،أن يتحدى الرجلين ، وليس معه إلا قوسه وخنجره ؟ فيقول لهما : استأسرا ، (فأبى أحدهما فرميته فقتلته . فلما رأى ذلك الآخر استأسر) ، وارتفعت الغنيمة عند عمرو إلى ثلاثة قتلى ، مع أسير ، ومواراة جثة خبيب فى المهمة السرية التى مضى بها من قتل أبى سفيان ، واستنقاذ جثة خبيب رضي الله عنه وكل الذى يعرفه صاحبه سلمة عنه أنه تركه يعالج خشبة خبيب ، فإذا به يقود أسيراً ويخلف خلفه ثلاثة قتلى فقط ، وعلمه بواحد منهم وهو القرشى التيمى .

٨ ـ وتجاوبت المدينة كلها بمقدم عمرو الذى كان بحكم المفقود بعد وصول صاحبه قبله بثلاثة أيام ، وتركه داخل مكة ، وليس أشياخ مكة فقط يعرفون فارس الصحراء عمر رضي الله عنه فأشياخ المدينة كذلك يعرفونه ،وأصبح لصبيان المدينة رمزاً للبطولة والشجاعة والتضحية . فما أن سمعوا من أشياخهم بقدوم عمرو حتى مضوا يشتدون إلى الحبيب المصطفى ﷺ يقرون عينه بقدوم فارسه الحبيب وبين يديه الأسير القرشى ، وكانت لحظة السعادة الكبرى ، وقد مثل عمرو بين يدي رسول الله ﷺ ، ومعه الأسير الذي ربط إبهاميه بسية قوسه،والنبي ﷺ يضحك لعودة فارسه إليه ، ولتحقيق تلك المهمات الجسام ، ولعودة هذه الطاقات الضخمة إليه لتكون فى خدمة الإسلام من جديد ،ولتكون الأسوة والقدوة للأجيال التى تتربى على هذه الشجاعة وهذه الجرأة وهذه النجدة ،ومضى حديث عمرو بن أمية يملأ الآفاق فى خدمة الإسلام العظيم ، وكان حسرة وكمدا وغيظا فى قلوب أعدائه .

غزوة بدر الموعد

١ـ قال ابن إسحاق: ثم خرج فى شعبان إلى بدر لميعاد أبى سفيان حتى نزله. قال ابن هشام : واستعمل على المدينة عبد الله بن عبد الله بن أبى بن سلول الأنصارى قال: ابن إسحاق : فأقام عليه ليال ينتظر أبا سفيان ، وخرج أبو سفيان فى أهل مكة حتى نزل مجنة من ناحية ظهران وبعض الناس يقول : قد بلغ عسفان ثم بدا له فى الرجوع ،فقال : يا معشر قريش ، إنه لا يصلحكم إلا عام خصيب ترعون فيه الشجر ، وتشربون فيه اللبن ، وإن عامكم هذا عام جدب ،وإنى راجع فارجعوا .فرجع الناس ، فسماهم أهل مكة جيش السويق يقولون : إنما خرجتم تشربون السويق

وأقام رسول الله ﷺ على بدر ينتظر أبا سفيان لميعاده فأتاه مخشى بن عمرو الضمرى، وهو الذى كان وادعه على بنى ضمرة فى غزوة ودان ، فقال : يا محمد ، أجئت للقاء قريش على هذا الماء ؟ قال : « نعم يا أخا بنى ضمرة ، وإن شئت مع ذلك رددنا إليك ما كان بيننا وبينك ثم جالدناك حتى يحكم الله بيننا وبينك » قال : لا والله يا محمد ، ما لنا بذلك من حاجة .

فأقام رسول الله ﷺ ينتظر أبا سفيان ، فمر به معبد بن أبى معبد الخزاعى فقال ، وقد رأى مكان رسول الله ﷺ وناقته تهوى به :

قد نفرت من رفقتى محمد　　وعجوة من يثرب كالعنجد
تهوى على دين أبيها الأتلد　　قد جعلت ماء قديد موعدى
وماء ضجنان لها ضحى الغد

وقال عبدالله بن رواحة فى ذلك ، قال ابن هشام : أنشدنيها أبو زيد الأنصارى لكعب بن مالك :

وعدنا أبا سفيان بدراً فلم نجد　　لميعاده صدقاً وماكان وافياً
فأقسم لو وافيتنا فلقيتنا　　لأبت ذميماً وافتقدت المواليا
تركنا به أوصال عتبة وابنه　　وعمراً أبا جهل تركناه ثاوياً

عصيتم رسول الله أف لدينكم   وأمركم السيئ الذى كان غاويا
فإنى وإن عنفتمونى لقائل أطعناه   فدىً لرسول الله أهلى وماليا
أطعناه لـم نعدلـه فينـا بغيـره   شهاباً لنا فى ظلمة الليل هاديا[1]

٢ ـ وأما رواية موسى بن عقبة كما ذكرها البيهقى :

(عن موسى بن عقبة عن ابن شهاب ، وهذا لفظ حديث إسماعيل عن عمه موسى قال :

ثم إن رسول الله استنفر المسلمين لموعد أبى سفيان بدراً ، وكان أهلاً للصدق والوفاء ﷺ .فاحتمل الشيطان أولياءه من الناس ، فمشوا فى الناس يخوفونهم وقالوا : قد أخبرنا وأنتم أن قد جمعوا لكم مثل الليل من الناس يرجون أن يوافقوكم فينتهبونكم، فالحذر الحذر لا تغدو . فعصم الله ـ عز وجل ـ المسلمين من تخويف الشيطان ، فاستجابوا لله ورسوله ، وخرجوا ببضائع لهم ، وقالوا : إن لقينا أباسفيان فهو الذى خرجنا له ، وإن لم نلقه ابتعنا ببضائعنا ، وكان بدر متجراً يوافى فى كل عام. فانطلقوا حتى أتوا موسم بدر فقضوا منه حاجتهم ، وأخلف أبو سفيان الموعد ، فلم يخرج هو ولا أصحابه ، وأقبل رجل من بنى ضمرة بينه وبين المسلمين حلف ، فقال : والله إن كنا لقد أخبرنا أنه لم يبق منكم أحد فما أعملكم إلى أهل هذا الموسم ؟ فقال رسول الله ﷺ وهو يريد أن يبلغ ذلك عدوه من قريش : « أعملنا إليه موعد أبى سفيان وأصحابه وقتالهم ، وإن شئت مع ذلك نبذنا إليك وإلى قومك حلفكم ثم جالدناكم قبل أن نبرح منزلنا هذا » . فقال الضمرى : معاذ الله بل نكف أيدينا عنكم ونمسك بحلفكم ، وزعموا أنه مر عليهم ابن حُمام . فقال : من هؤلاء ؟ فقالوا : رسول الله وأصحابه ينتظرون أبا سفيان ومن معه من قريش ، فخرج يرتجز :

تهـوى علـى ديـن أبيها الأتلد   إذ نفـرت مـن رُفقتـى محمـد
وعجـوة موضوعـة كالجلمـد   إذ جعلـت مـاء قديـد موعـد
وصَنّجـت مياهـا ضحـى الغد

فذكروا أن ابن الحُمام قدم على قريش فقال : هذا محمد وأصحابه ينتظرونكم لموعدكم . فقال أبو سفيان: قد والله صدق ، فنفروا وجمعوا الأموال ، فمن نشط منهم قووه ، ولم يُقبل من أحد منهم دون أوقية ثم سار حتى أقام بمجنة من عُسفان

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٢٩٢ ـ ٢٩٤ .

ماشاء الله أن يقيم ، ثم ائتمر هو وأصحابه فقال أبو سفيان: ما يصلحكم إلا عام خصب ترعون فيه السَّمُر، وتشربون من اللبن. ثم رجع إلى مكة وانصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة بنعمة من الله وفضل . فكانت تلك الغزوة تدعى غزوة جيش السويق)(١) .

١ ـ لقد كان موعد بدر الموعد موطن خلاف مثل ذات الرقاع . فقد ذهب الواقدي إلى أنها في ذي القعدة ، (وكانت لهلال ذي القعدة على رأس خمسة وأربعين شهراً ، وغاب رسول الله ﷺ فيها ست عشرة ليلة ، ورجع إلى المدينة لأربع عشرة بقيت من ذي القعدة ، واستخلف على المدينة ابن رواحة)(٢).

لكن الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ :رجّح أنها في شعبان كما ذهب إلى ذلك ابن إسحاق وموسى بن عقبة أئمة المغازي ، فقال : (والصحيح قول ابن إسحاق :أن ذلك في شعبان من السنة الرابعة ووافق قول موسى بن عقبة ، أنها في شعبان ، لكن قال: في سنة ثلاث وهذا وهم . .) .

ورجح البيهقي كذلك قول الإمامين : ابن إسحاق وابن عقبة فقال :

(وزعم الواقدي : أنه انتهى في هذه الغزوة إلى بدر هلال ذي القعدة على رأس خمسة وأربعين شهراً ، وخرج في ألف وخمسمائة من أصحابه ،وقول موسى بن عقبة: أنها كانت في شعبان أصح والله أعلم) (٣) .

ولئن لم نأخذ بقول الواقدي بموعد الغزوة . لكن أجواء هذه الغزوة لا نجدها إلا عنده حيث يقول :

(لما أراد أبو سفيان أن ينصرف يوم أحد نادى موعد بيننا وبينكم بدر الصفراء رأس الحول. نلتقي فيه فنقتتل .فقال رسول الله ﷺ ،لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: « قل نعم إن شاء الله » فافترق الناس على ذلك. ورجعت قريش فخبّروا مَن قِبلهم بالموعد، وتهيؤوا للخروج وأجلبوا ، وكان هذا عندهم أعظم الأيام لأنهم رجعوا من أحد والدولة لهم ، طمعوا في بدر الموعد أيضاً بمثل ذلك الظفر ، وكانت بدر الصفراء مجمعاً يجتمع فيه العرب وسوقاً تقوم لهلال ذي القعدة إلى ثمان ليال خلون منه ، فإذا مضت ثمان ليال منه تفرق الناس إلى بلادهم . فلما دنا الموعد كره أبو سفيان الخروج إلى رسول الله ﷺ وجعل يحب أن يقيم رسول الله ﷺ في المدينة ولا يوافقون الموعد. فكان كل من ورد عليه مكة يريد المدينة أظهر له : إنا نريد أن نغزو محمداً في جمع كثيف ، فيقدم

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٣٨٤ ـ ٣٨٦ .

(٢) المغازي للواقدي ١/ ٣٨٤ .

(٣) دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٣٨٨ .

القادم على أصحاب رسول الله فيراهم على تجهز فيقول : تركت أبا سفيان قد جمع الجموع وسار فى العرب ليسير إليكم لموعدكم ، فيكره ذلك المسلمون ، ويهيبهم ذلك .

٢ ـ لقد كانت الأرض العربية والقبائل المجاورة تتربص نتيجة المعركة بين محمد ﷺ وبين قريش ، ولئن عجز أهل مكة عن إنهاء محمد ﷺ فى أحد كما خططوا . فموعد بدر الموعد الذى عرفته العرب . كان العرب يترقبونه ليروا عم ينكشف، وإن كان هوى القبائل المجاورة كلها مع قريش لكنها أدركت ومن خلال الاحتكاك المباشر وغير المباشر أنها غير قادرة على النيل من محمد ﷺ وكتائب المهاجرين والأنصار حوله ، وانتشرت فى الآفاق أخبار حب أصحاب محمد لمحمد ﷺ فى قصة خبيب وزيد ، وفى مقتل عاصم وإخوانه ، وفى مقتل أصحاب الرجيع ، وأنه لن يصل أحد إلى محمد ، وفى المؤمنين قلب يخفق أو عين تطرف ، ورسخت هذه المعانى فى قلوبهم وعقولهم .

ويدرك أبو سفيان أنه المعنِىُّ الأول فى المعركة ، وأنه هو الذى حدّد موعد اللقاء . وهذا الموعد قد أزف ، ولا خيار له فى المواجهة ، ويستذكر أحداً وما حشد لها من قُوى ويستذكر الفشل الذى عاد به دون استئصال شأفة المسلمين ، فتحرك أبو سفيان على خطين :

الخط الأول : هو التعبئة للمواجهة (فنفروا وجمعوا الأموال ، فمن نشط منهم قوَّده ، ولم يُقبل من أحد منهم دون أوقية ثم سار حتى أقام بمجنة من عُسفان ماشاء الله له أن يقيم)[١] .

الخط الثانى : وهو الحرب الدعائية والتخذيل للصف الإسلامى على أمل تحطيم أعصاب المسلمين والحيلولة دون قدومهم لبدر الموعد ؛ لأنه أدرك ببعد نظره الحربى ، وهو القائد المجرب . أنه عاجز عن تحقيق أى نصر ، ولن ينشط معه أحد للمواجهة ، ومضى فى الحرب السياسية أبعد خطى مما مضى فى الحرب العسكرية .

فكان كل من ورد عليه مكة يريد المدينة أظهر له : إنا نريد أن نغزو محمداً فى جمع كثيف ، فيقدم القادم على أصحاب رسول الله ﷺ فيراهم على تجهيز فيقول : تركت أبا سفيان قد جمع الجموع وسار فى العرب ليسير إليكم لموعدكم ، فيكره المسلمون ذلك ويهيبهم ذلك .

وكان نعيم بن مسعود سيد بنى أشجع يمسك العصا من الوسط . فهو يحاول أن يحافظ على صداقة قريش وصداقة محمد ﷺ ،وقد مثل النموذج الذى ذكر فى القرآن

---

(١) المغازى للحافظ الذهبى من كتاب تاريخ الإسلام / ٢٥٠ .

عن هذا النوع من النفاق : ﴿ إلاَّ الَّذينَ يَصلُونَ إلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وبَيْنَهم مِيثَاقٌ أوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أن يُقَاتِلُوكُمْ أوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ ولَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً ﴾(١).

وكان نعيم بن مسعود من هذا الطراز ، وقد رأى قوة محمد وشدة شكيمته ، فليس له مصلحة فى مواجهة أحد ، وجاء زائراً لمكة . فالتقى بأبى سفيان بن حرب زعيم قريش . فأفضى أبو سفيان له بذات نفسه بطبيعة الصداقة بينهما .

(يا نُعيم ، إنى وعدت محمداً وأصحابه يوم أحد أن نلتقى نحن وهو ببدر الصفراء على رأس الحول وقد جاء ذلك . فقال نعيم : ما أقدمنى إلا ما رأيت محمداً وأصحابه يصنعون من إعداد السلاح والكراع وقد تجلَّب إليه حلفاء الأوس من بلىٍ وجهينة وغيرهم . فتركت المدينة أمس وهى كالرمانة .

فقال أبو سفيان : أحقاً ما تقول ؟ قال : إى والله .

فجزوا نعيم خيراً ووصلوه وأعانوه . فقال أبوسفيان: أسمعك تذكر ما تذكر ، ما قد أعدوا وهذا عام جدب .

فيقول نعيم مقاطعاً أبا سفيان فى حديثه : الأرض مثل ظهر الترس ليس فيها لبعير شىء .

فيتابع أبوسفيان حديثه قائلاً :

إنما يصلحنا عام خصب غيداق ترعى فيه الظهر والخيل ونشرب اللبن ،وأنا أكره أن يخرج محمد وأصحابه ولا أخرج فيجترئون علينا ، ويكون الخُلف من قبلهم أحب إلىّ .

كان أبو سفيان يتكلم ، وقد أعد فى ذهنه الخطة السياسية المناسبة فى حرب الأعصاب بين الفريقين . فقال لنُعيم :

نجعل لك عشرين فريضة(٢) ، عشراً جذاعاً (٣) ، وعشراً حقاقاً (٤)، وتوضع لك على يدى سهيل بن عمرو .

---

(١) النساء / ٩٠ .
(٢) الفريضة : النوق التى تعطى .
(٣) الجذاع : جمع جذعة وهو من الإبل ما دخل فى السنة الخامسة .
(٤) الحقاق : جمع حِقَّة وهو من الإبل ما دخل فى السنة الرابعة إلى آخرها وسمى بذلك لأنه استحق الركوب.

ويضمنها لك . قال نُعيم :رضيت ـ وكان سهيل صديقاً لنعيم ـ فجاء سهيلاً . فقال: يا أبا يزيد ، أتضمن لى عشرين فريضة على أن أقدم المدينة فأخذل أصحاب محمد ؟ قال : نعم . قال : فإنى خارج .

٣ ـ ولنمض مع سهيل ، ومع خطة أبى سفيان فى حربه السياسية ، ودورها فى الصف الإسلامى : (فخرج على بعير حملوه عليه ، وأسرع السير فقدم وقد حلق رأسه معتمراً .فوجد أصحاب رسول الله ﷺ يتجهزون .فقال أصحاب رسول الله ﷺ: من أين يا نُعيم ؟ قال : خرجت معتمراً إلى مكة . فقالوا : ألك علم بأبى سفيان ؟ قال : نعم تركت أبا سفيان قد جمع الجموع ، وأجلب معه العرب ، فهو جاء بما لا قبل لكم به . فأقيموا ولا تخرجوا ، فإنهم قد أتوكم فى داركم وقراركم . فلن يفلت منكم إلا الشريد ، وقُتلت سراتكم ، وأصاب محمداً فى نفسه ما أصابه من الجراح . فتريدون أن تخرجوا إليهم فتلقوهم فى موضع من الأرض ؟! بئس الرأى رأيتم لأنفسكم ، والله ما أرى أن يفلت منكم أحد ، وجعل يطوف بهذا القول فى أصحاب رسول الله ﷺ حتى رعّبهم ، وكرّه إليهم الخروج ، حتى نطقوا بتصديق قول نُعيم أو من نطق منهم . فاستبشر بذلك المنافقون واليهود وقالوا :محمد لا يفلُتُ من هذا الجمع ! واحتمل الشيطان أولياءه من الناس لخوف المسلمين حتى بلغ رسول الله ﷺ ذلك ، وتظاهرت به الأخبار عنده ، حتى خاف رسول الله ﷺ ألا يخرج معه أحد) .

وحيث أنا لا نستطيع بناء هذا الوضع النفسى على رواية الواقدى .لكنا نجد عرضاً له فى القرآن الكريم نفسه الذى يعرض هذه المرحلة من الخوف عند المسلمين،حيث يقول ـ عز وجل ـ واصفاً الوضع النفسى الذى آل إليه المسلمون ، ودور المنافقين فى نشره وبث الرعب وتثبيط الهمم :

﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً . فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلاً ﴾(١) .

ويتحدث سيد ـ رحمه الله ـ عن هذا الجو النفسى قائلاً تعقيباً على هذه الآية :

ومن خلال هذه الآية بالإضافة إلى ما قبلها تبرز لنا ملامح كثيرة فى الجماعة

---

(١) النساء / ٨٣ ، ٨٤ .

المسلمة يومذاك ، كما تبرز لنا ملامح كثيرة فى النفس البشرية فى كل حين :

أ ـ يبرز لنا مدى الخلخلة فى الصف المسلم ، وعمق آثار التبطئة والتعويق والتثبيط فيه حتى لتكون وسيلة الاستنهاض والاستجاشة هى تكليف النبى ﷺ أن يقاتل فى سبيل الله ولو كان وحده . ليس عليه إلا نفسه مع تحريض المؤمنين ، غير متوقف مضيه فى الجهاد على استجابتهم أو عدم استجابتهم ، ولو أن عدم استجابتهم جملة أمر لا يكون ، ولكن وضع المسألة بهذا الوضع يدل على ضرورة إبراز هذا التكليف على هذا النحو ، واستجاشة النفوس له هذه الاستجاشة ، فوق ما يحمله النص ـ طبعاً ـ من حقيقة أساسية فى التصور الإسلامى ، وهى أن كل فرد لا يكلَّف إلا نفسه .

ب ـ كما يبرز لنا مدى المخاوف والمتاعب فى التعرض لقتال المشركين يومذاك ، حتى ليكون أقصى ما يعلق الله به رجاء المؤمنين أن يتولى هو سبحانه كف بأس الذين كفروا . فيكون المسلمون ستاراً لقدرته فى كف بأسهم عن المسلمين ، مع إبراز قوة بأس الذين كفروا يومذاك ، والمخاوف المبثوثة فى الصف المسلم ، وربما كان هذا بين أحد والخندق ، فهذه أحرج الأوقات التى مرَّت بها الجماعة المسلمة فى المدينة بين المنافقين ، وكيد اليهود ، وتحفز المشركين ، وعدم اكتمال التصور الإسلامى ووضوحه وتناسقه بين المسلمين .

جـ ـ كذلك تبرز لنا حاجة النفس البشرية ، وهى تدفع إلى التكاليف التى تشق عليها : إلى شدة الارتباط بالله ، وشدة الطمأنينة إليه ، وشدة الاستعانة به ، وشدة الثقة بقدرته وقوته . فكل وسائل التقوية غير هذه لا تجدى حين يبلغ الخطر قمته ، وهذه كلها حقائق يتسخدمها المنهجٍ الربانى ، والله هو الذى خلق هذه النفوس ، وهو الذى يعلم كيف تُربَّى ، وكيف تُقوَّى ، وكيف تُستجاش وكيف تستجيب (١) .

ولا شك أن دور نعيم بن مسعود كان دوراً سيئاً فى تخذيل الصف المسلم ، ولا ننسى أن المنافقين المبثوثين فى الصف ، قد حملوا هذه الدعوة ، ونشطوا فى تضخيم قوة قريش .

ونقف عند الصف الإسلامى . الذى لم يمر عام له على غزوة أحد ، ولا تزال آثار الجراح فاشية فيه ، ولا تزال دماء الشهداء ساخنة فى القلوب والنفوس ، ولا تزال آثار المحنة والنكبة والقتل تملأ الجو ، فيأتى هذا التثبيط ليجد بعض الأذان الصاغية ، ويجد بعض النفوس تتجاوب معه . فكانت التربية القرآنية من السماء فى قطع دابر الفتنة أولاً من الجذور : ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ . . ﴾ .

(١) فى ظلال القرآن م٢ / ج ٥ / ٧٢٥ .

وإذا كان المنافقون هم الذين يشيعون ذلك فلا عجب فهى مهمتهم ، وهى طبيعتهم لكن النص يوحى بتجاوب الكثير من أفراد الصف المؤمن وتناقله لهذا الأمر دون العودة فيه إلى أولى الأمر عامة وإلى النبى ﷺ خاصة .

لابد أن ندرك نقاط الضعف فى الصف الإسلامى ، لنشهد طريقة المعالجة القرآنية وطريقة التربية النبوية فى اجتثاث هذا الضعف وحربه . فلم يكن المسلمون كمّلاً ، خُلَّصاً ، إنما هم بشر من البشر ينالهم الضعف البشرى ، وينالهم الخوف البشرى ، وينالهم التأثر والرعب البشرى فيأتى سيد الخلق إلى هذا الضعف ،فيعالجه بيده الحانية ، وبحكمته البالغة .

ولنتصور قائداً تزعزع صفه هذا التزعزع : (حتى خاف رسول الله ﷺ ألا يخرج معه أحد) وجاءه القرآن الكريم ، وجاءه جبريل ـ عليه السلام ـ ليقول له : ﴿ **فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ لا تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ** ﴾ .

ثم تكون الخطوة الثانية ﴿ . . . **وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ** . . ﴾ .

وفى هذه المرحلة العصيبة . تبدو كذلك عظمة تربية جيل القادة .

(فجاء أبو بكر بن أبى قحافة رضي الله عنه وعمر بن الخطاب رضي الله عنه وقد سمعا ما سمعا فقالا : يا رسول الله ، إن الله مظهر دينه ، ومُعز نبيه ، وقد وعدنا القوم موعداً ونحن لا نحب أن نتخلف عن القوم فيرون أن هذا جُبن منا عنهم ، فسِر لموعدهم ، فوالله إن فى ذلك لخير) .

هذه هى هيئة أركان حرب النبى ﷺ ، التى قال عنها ـ عليه الصلاة والسلام ـ : «لو اتفقتما على أمر ما خالفتكما » .

وحتى هذه اللحظة تبدو خطة أبى سفيان ، وقد نجحت مائة فى المائة وحققت أهدافها فى تخذيل أصحاب محمد ﷺ عن الخروج للمواجهة .

لكن سيد القادة فى الوجود ، وهو يرى صفه الذى سيقاتل به ، ويعرف مدى تأثيره فيه ، وتفاعله معه ، وقد رأى ابتداءً رأى هيئة أركان حربه فى الإصرار على المواجهة .

فسر رسول الله ﷺ بذلك ثم قال : « والذى نفسى بيده لأخرجن وإن لم يخرج معى أحد » ، وسرت هذه الكلمة فى الصف الإسلامى سريان النار فى الهشيم فأحرقت كل مواقف التردد والرعب والخوف ، وكسرت الحاجز النفسى من مواجهة قريش ،

خصوصاً ،وقد وعدهم الله تعالى بقوله: ﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلا ﴾ .

وذلك بعد تحريض المؤمنين ،ويتابع لنا الواقدى وصفه فى رواية عن عثمان رضي الله عنه حيث يقول :

(لقد رأيتنا وقد قُذف الرعب فى قلوبنا . فما أرى أحداً له نية فى الخروج. . .) .

وأمام تحريض رسول الله ﷺ المؤمنين ، وأمام قولة المصطفى ﷺ : « لأخرجن وإن لم يخرج معى أحد » ، وأمام استجاشة هذه القلوب المؤمنة من الله عز وجل أعظم استجاشة ﴿ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

أمام هذه الأجواء العظيمة من تربية النفوس ومعالجة الضعف والخلخلة فيها سرت روح جديدة فى الصف الإسلامى وصفها عثمان رضي الله عنه بقوله :

(حتى نهج الله تعالى للمسلمين بصائرهم ، وأذهب عنهم تخويف الشيطان ، فخرجوا) . ومن خلال عظمة القائد ، وعظمة تربيته ، وقدرته على التأثير فى صفه ، والتحريض المستمر للجهاد ، أحبطت خطة أبو سفيان وباءت بالفشل الذريع .

وحسب أبو سفيان أنه قد حقق كل آماله التى صبا بها ، وأن نعيم بن مسعود سوف يخذل أصحاب محمد ﷺ ، فعاد راجعاً إلى مكة .

فماذا كانت آثار هذه المسيرة العسكرية ، وآثار استعراض القوة النبوية فى أعظم مواسم العرب ؟

(وكان رسول الله ﷺ قد خرج فى ألف وخمسمائة من أصحابه ، وكانت الخيل عشرة أفراس ، فرس لرسول الله ﷺ ، وفرس لأبى بكر ، وفرس لعمر ، وفرس لأبى قتادة ، وفرس لسعيد بن زيد ، وفرس للمقداد ، وفرس للحباب ، وفرس للزبير ، وفرس لعباد بن بشر .

لقد تضاعف العدد ، وتضاعفت الأفراس خلال أقل من عام ، واستعاد المسلمون قوتهم ، ووحدة صفهم ، وانطلقوا نحو بدر الصفراء ، حيث يحدثنا المقداد رضي الله عنه عن جانب من هذا الخروج ، وآثاره فى الصف المسلم ، والصف المشرك .

(فحدثنى على بن زيد ، عن أبيه قال : قال المقداد : شهدت بدر الموعد على فرسى سَبْحَة ، أركب ظهرها ذاهباً وراجعاً ، فلم يلق كيداً) .

ثم قال أبو سفيان : يا معشر قريش ، قد بعثنا نُعيم بن مسعود لأن يخذل أصحاب محمد عن الخروج وهو جاهد ، ولكن نخرج نحن فنسير ليلة أو ليلتين ، ثم نرجع . فإن كان محمداً لم يخرج ، بلغه أنا خرجنا ، فرجعنا لأنه لم يخرج فيكون هذا لنا عليه، وإن كان خرج أظهرنا أن هذا عام جدب ولا يصلحنا إلا عام عشب . قالوا : نعم ما رأيت ، فخرجت قريش وهم ألفان ، ومعهم خمسون فرساً ، حتى انتهوا إلى مجنة، ثم قال : ارجعوا) .

٤ ـ ونعرض صورتين متقابلتين للصف الإسلامى عقب بدر وعقب أحد :

فبعد بدر بعام ، وحين قدم المشركون غزاة للمسلمين ، وحيث كانت أجواء نصر بدر هى التى ترفرف عليهم رأينا إصرار الشباب المسلم على الخروج للمواجهة ، وكيف كانوا يتسابقون للخروج ، مع أن رسول الله ﷺ كان يدعوهم إلى البقاء فى الدرع الحصينة المدينة ، وننقل صورة تلك الحماسة المتأججة للمواجهة والخروج (فقال فتيان أحداث لم يشهدوا بدراً وطلبوا من رسول الله ﷺ الخروج إلى عدوهم ورغبوا فى الشهادة وأحبوا لقاء العدو : اخرج بنا إلى عدونا .وقال رجال من أهل السن وأهل النية منهم: حمزة بن عبد المطلب ، وسعد بن عبادة : إنا نخشى يارسول الله ،أن يظن العدو أنا كرهنا الخروج إليهم جبناً عن لقائهم فيكون هذا جرأة منهم علينا ، وقد كنت يوم بدر فى ثلثمائة رجل فظفرك الله عليهم ، ونحن اليوم بشر كثير ، قد كنا نتمنى هذا اليوم وندعو الله به فقد ساقه الله إلينا فى ساحتنا ،ورسول الله ﷺ لما يرى من إلحاحهم كاره، وقد لبسوا السلاح يخطرون بسيوفهم يتسامون كأنهم الفحول)(١) .

كانت هذه صورتهم عقب بدر بعام ، وعقب انتصارات بدر الساحقة ، وكيف كان القائد العظيم يكفكف من غلوائهم ويضعهم فى صورة خطورة الأمر ويعدهم بالنصر إن صبروا .

أما الصورة اليوم وعقب أحد بعام ، وعقب محنة أحد ، وآثار الدماء والجراح والشهداء، وآثار التخذيل الذى خطط له أبو سفيان . نجد صورة معاكسة تماماً.

(واحتمل الشيطان أولياءه من الناس لخوف المسلمين ، حتى بلغ رسول الله ﷺ ذلك وتظاهرت به الأخبار عنده حتى خاف رسول الله ﷺ ألا يخرج معه أحد)(٢) .

ومقالة عثمان رضي الله عنه (لقد رأيتنا وقد قُذف الرعب فى قلوبنا ، فما أرى أحداً له نية فى الخروج) .

---

(١) المغازى للواقدى ١/ ٢١٠ ، ٢١١ .

(٢) المصدر نفسه ١/ ٣٨٦ ، ٣٨٧ .

هاتان الصورتان المتقابلتان للصف الإسلامى . عالجهما ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهو سيد القادة ، وإمام المربين فى الوجود . ففى الوقت الذى كان يكفكف من غلواء واندفاع الشباب نحو الموت فى أحد ، كان يبصرهم بخطورة الموقف آنذاك ، نجده هنا يحرك هذا الصف نحو المواجهة بصورة انقلابية كاملة ، فيضع فيهم القنبلة التى فجرت عنصر الخوف والرعب كله من قلوبهم بقوله : « والذى نفسى بيده لأخرجن وإن لم يخرج معى أحد » .

وبهذين الموقفين استطاع ـ عليه الصلاة والسلام ـ كسب المعركة .

٥ ـ وكما رأينا فى رواية الحافظ الذهبى : أنهم أقاموا بمجنة بعسفان ماشاء الله لهم أن يقيموا ! وذلك تحقيقاً لخطة أبى سفيان الآمنة ، وقد أخفوا أنهم لن يخرجوا لأن العام جدب،لكن عندما تناهت لهم الأخبار بخروج محمد ﷺ وأصحابه. قال أبو سفيان فى اختيار البديل الثانى :

ارجعوا لا يصلحنا إلا عام خصب غيداق ، نرعى فيه الشجر ، ونشرب فيه اللبن ، وإن عامكم هذا عام جدب ، وإنى راجع فارجعوا . فسمى أهل مكة ذلك الجيش جيش السويق . يقولون : خرجوا يشربون السويق .

وحين رجع جيش قريش مهزوزاً خائراً إلى مكة . كان الجيش الإسلامى يتحرك إلى بدر وكان يحمل لواء رسول الله ﷺ الأعظم يومئذ على بن أبى طالب ، وأقبل رجل من بنى ضمرة يقال له : مخشى بن عمرو ـ وهو الذى حالف رسول الله ﷺ على قومه فى غزوة رسول الله ﷺ الأولى إلى ودان ـ والناس مجتمعون فى سوقهم وأصحاب رسول الله ﷺ أكثر أهل ذلك الموسم . فقال : يا محمد ، لقد أخبرنا أنه لم يبق منكم أحد فما أعملكم إلى أهل الموسم ؟

فقال رسول الله ﷺ ـ ليرفع ذلك إلى عدوه من قريش ـ :

« ما أخرجنا إلا موعد أبى سفيان وقتال عدونا ، وإن شئت مع ذلك نبذنا إليك وإلى قومك العهد ثم جالدناكم قبل أن نبرح من منزلنا هذا » .

فقال الضمرى : بل نكف أيدينا عنكم ونتمسك بحلفك ، وسمع بذلك معبد بن أبى معبد الخزاعى فانطلق سريعاً ، وكان مقيماً ثمانية أيام ، وقد رأى أهل الموسم ورأى أصحاب رسول الله ﷺ وسمع كلام مخشى ، فانطلق حتى قدم مكة . فكان أول من قدم بخبر موسم بدر فسألوه ،وأخبرهم بكثرة أصحاب محمد ،وأنهم أهل ذلك الموسم، وما سمع من قول رسول الله ﷺ للضمرى وقال :وافى محمد فى ألفين من أصحابه ،

وأقاموا ثمانية أيام حتى تصدَّع أهل الموسم . فقال صفوان بن أمية لأبى سفيان : قد والله نهيتك يومئذ أن تعد القوم ، وقد اجترؤوا علينا ورأوا أن قد أخلفناهم ، وإنما خلَّفنا الضعف عنهم . . . وقال معبد : لقد حملنى ما رأيت أن قلت شعراً :

تهـوى على ديـن أبيهـا الأتلـد إذ جعلـت مـاء قديـد[1] موعـدى
وماء ضجنان لهـا ضحـى الغـد إذ نفـرت مـن رفقتـى محمـد
وعجـوة موضوعـة كالعنجـد [2]

لقد كان أبو جهل يقامر على زعامة العرب من خلال بدر نفسها ، وذلك يوم عُرِض عليه أن يرجع فأقسم قائلاً :

والله لن نرجع حتى نرد بدراً ، فنقيم عليها ثلاثاً فنشرب الخمر،ونضرب الدفوف ، وتعزف علينا القيان ويسمع العرب بنا وبمسيرنا هذا فلا يزالون يهابوننا أبداً .

وكان قد قاد يومها ألفاً من قومه ، وهذه بدر اليوم والمسلمون هم سادة أهل الموسم وغلبة أهله ولم يقيموا ثلاثاً فقط ، إنما أقاموا ثمانية أيام ، وجاؤوا يتحدون قريشاً فى موعدها الذى ضربته وطلبته ، وقريش قابعة فى مكة ، خنست بالوعد ، وتراجعت عنه .

وكان هذا تحولاً ضخماً فى الساحة السياسية . فلم تكن كل أخبار المعارك الجانبية تصل إلى العرب . أما موعد بدر فهو موسم حافل يرده العرب من كل موطن ، وآخر الصورة فى أذهانهم عن أحد ، ومن خلال دعاية قريش وحلفائها ، وهو ما قاله حليف محمد ﷺ مخشى بن عمرو الضمرى ، الذى تأثر بالأجواء المتسممة وقال :

لقد أُخبرنا أنه لم يبق منكم أحد .

هكذا سرت الدعاية بعد أحد فى أنحاء الأرض العربية ،حتى عند حلفاء النبى ﷺ، وإذا بهم وبالعرب جميعاً يفاجؤون بحشد قوامه ألف وخمسمائة من الأبطال . ينتظرون لقاء قريش فى معركة طاحنة ، وتخاذلت قريش عن ذلك اللقاء .

وكما رأينا نُعيم بن مسعود الأشجعى من قبل وهو صديق للفريقين محمد ﷺ وقريش إلا أن هواه مع قريش فهو من غطفان التى تتحرش دائماً بالمسلمين فى المدينة ، وتلقى التأديب المناسب ، نرى معبد بن معبد الخزاعى الذى هو صديق الفريقين محمد ﷺ وقريش ، إلا أن هواه مع رسول الله ﷺ ، وقد رأيناه بعد أحد ، وفى غزوة

(١) القديد : قرية جامعة بين مكة والمدينة كثيرة المياه . (٢) العنجد : حب الزبيب أو الزبيب الأسود .

حمراء الأسد أنه هو الذى فت فى عضد قريش ، وحطّم أعصابها حين صممت على العودة إلى المدينة ، وتحدَّث لقريش عن الجمع الذى خرج من المدينة لملاقاتها قائلاً :

تركت محمداً وأصحابه خلفى يتحرقون عليكم تحرقاً ، قد اجتمع معه من كان تخلف معه فى يومكم ، وندموا على ما صنعوا فيهم من الحنق عليكم شيء لم أر مثله قط . قال : ويلك ما تقول ؟ قال : والله ما أرى أن ترتحل حتى ترى نواصى الخيل . قال : فوالله لقد أجمعنا الكرة عليهم نستأصل بقيتهم . قال : فإنى أنهاك عن ذلك . والله لقد حملنى مارأيت أن قلت فيهم أبياتاً . قال : وما قلت ؟ قال :

كادت تهد من الأصوات راحلتى ... إذا سالت الأرض بالجرد الأبابيل
تردى بأسد كرام لا تنابلة ... عند اللقاء ولا ميل معازيل (١)

وكان هذا آخر عهدهم بمعبد الخزاعى - وهو يومئذ مشرك - وهاهو اليوم يعود إليهم بعد عام ليخبرهم عن قوة الجيش الإسلامى ، وأعداده الضخمة ، ويقول شعراً كما قال من قبل ، وكان الموقف الثانى الحاسم فى الحرب النفسية : جوابه ﷺ لحليفه سيد بنى ضمرة ، مخشى بن عمرو :

« وإن شئت مع ذلك نبذنا إليك وإلى قومك العهد ، ثم جالدناكم قبل أن نبرح من منزلنا هذا » .

فقال الضمرى : بل نكف أيدينا عنكم ونتمسك بحلفك .

وفى إطار الحرب النفسية والإعلامية أرسل كعب بن مالك رضي الله عنه أشعاره تملأ الفجاج العربية ؛ إذ هى التى تُحفظ وتحفظ الصورة العسكرية والسياسية للفريقين فى الأذهان :

وعدنا أبا سفيان بدراً فلم نجد ... لميعاده صدقاً وماكان وافياً
فأقسم لو وافيتنا فلقيتنا ... رجعت ذميماً وافتقدت المواليا
تركنا به أوصال عتبة وابنه ... وعمراً أبا جهل تركناه ثاوياً
عصيتم رسول الله أفٍ لدينكم ... وأمركم السيئ الذى كان غاوياً
فإنى وإن عنفتمونى لقائل ... فدىً لرسول الله أهلى وماليا
أطعناه لم نعدله فينا بغيره ... شهاباً لنا فى ظلمة الليل هاديا

---

(١) المغازى من تاريخ الإسلام للحافظ الذهبى / ٢٢٥ ، ٢٢٦ .

أما الروح المعنوية عند المسلمين فقد ارتفعت للأوج ، ووجدوا بأعينهم صدق موعود الله لهم يوم حرَّضهم رسول الله ﷺ على الخروج والجهاد فى سبيل الله ، وكف الله بأس الذين كفروا فجبنهم عن اللقاء . كما أن الوضع الاقتصادى الصعب الذى يعانون منه قد انفرج انفراجاً كبيراً من خلال تجارات موسم بدر . يحدثنا عن ذلك عثمان رضي الله عنه فيقول :

(فلقد خرجت ببضاعة إلى موسم بدر فربحت للدينار ديناراً ، فرجعنا بخير وفضل من ربنا) .(فسار رسول الله ﷺ فى المسلمين ، وخرجوا ببضائع لهم ونفقات ، فانتهوا إلى بدر ليلة هلال ذى القعدة ، وقام السوق صبيحة الهلال فأقاموا ثمانية أيام والسوق قائمة)[1] ،وآبوا بأعظم فخر وأجر وثناء من الله العظيم عليهم: ﴿ **الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ . فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ** ﴾[2].

(١) المغازى للواقدى ، والمقتطفات السابقه كلها منه ١ / ٣٨٤ ـ ٣٨٩ .
(٢) آل عمران / ١١٣ ، ١١٤ ، وقد ورد أنها نزلت فى غزوة حمراء الأسد ولا تعارض فى تعدد النزول .

عودة إلى بيت النبوة

زينب بنت خزيمة زواجًا ووفاة:

كان أعظم من فقد - عليه الصلاة والسلام - فى بدر ابن عمه عبيدة بن الحارث شيخ المسلمين من بنى هاشم.

(فأما حمزة فلم يمهل شيبة أن قتله ، وأما على فلم يمهل الوليد حتى قتله ، واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين كلاهما أثبت صاحبه وكر حمزة وعلى بأسيافهما على عتبة فذففا عليه واحتملا صاحبهما، فحازاه إلى أصحابه)(١) .

ولما جاؤوا به رسول الله ﷺ أضجعوه إلى جانب موقف النبى ﷺ فأفرشه رسول الله ﷺ قدمه الشريفة. وقال عبيدة: يا رسول الله لو أن أبا طالب حىٌ لعلم أنى أحق بقوله:

كذبتم وبيت الله نُبزى محمداً ... ولَمَّا نطاعن دونه ونناضل
ونُسلِمهُ حتى نُصرَّع حوله ... ونذهل عن أبنائنا والحلائل

فقال رسول الله ﷺ : « أشهد أنك شهيد » رواه الإمام الشافعى(٢) .

وبالصفراء توفى عبيدة بن الحارث من مصاب رجله فقالت هند بنت أثاثة بن عباد ابن عبد المطلب ترثيه:

لقد ضُمِّن الصفراء مجداً وسؤدداً ... وحلماً أصيلاً وافر اللب والعقل
عبيدة فابكيه لأضياف غربة ... وأرملة تهوى لأشعث كالجذل
وبكيه للأقوام فى كل شتوة ... إذا احمر آفاق السماء من المحل(٣)

أما أرملته زينب بنت الحارث فقد ذُهِل عَنها وهو يذود عن رسول الله ﷺ وحقق نبوءة عمه أبى طالب :

ونُسلمهُ حتى نصرَّع حوله ... ونذهل عن أبنائنا والحلائل

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣١٩ .
(٢) سبل الهدى والرشاد ٤/ ٥٨ .
(٣) المصدر نفسه ٤/ ٩٦ .

فعند فداء رسول الله ﷺ يذهل الفدائيون عن الزوج والولد، لكن رسول الله ﷺ القائد العظيم ، وأبا الأسرة الهاشمية لا يمكن أن ينسى أرملة عبيدة بن الحارث زينب بنت خزيمة أو يذهل عنها، فقد أصبح همها يملأ قلبه وكيانه، وانتظر عامًا كاملاً حتى رقأت دموعها ، وهان مصابها فتقدم إليها خاطبًا ـ عليه الصلاة والسلام ـ وانتقلت من أن تكون أرملة عبيدة رضي الله عنه لتحظى بأعظم إكرام فى الوجود فتكون زوجًا لرسول الله ﷺ، وتعيش فى كنفه. إنها السعيدة التى حظت بهذا الفخر، ولو لثمانية أشهر فقط، فقد غدت أمًّا للمؤمنين فى الأرض، وكانت وفاتها فى ربيع الآخر من العام الرابع للهجرة .

(وفيها توفيت أم المؤمنين زينب بنت خزيمة بن الحارث بن. . . .هلال بن عامر ابن صعصعة القيسية الهوازنية العامرية الهلالية ـ رضى الله عنها ـ وكانت تسمى أم المساكين لإحسانها إليهم ، تزوجت أولاً بالطفيل بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف، ثم طلقها فتزوجها أخوه عبيدة بن الحارث، فاستشهد يوم بدر، ثم تزوجها رسول الله ﷺ فى رمضان سنة ثلاث ، ومكثت عنده على الصحيح ثمانية أشهر. وقيل : كانت وفاتها فى آخر ربيع الآخر ، وصلى عليها النبى ﷺ ودفنها بالبقيع ولها نحو ثلاثين سنة ـ رضى الله عنها [(١)] .

وانضمت إلى السلف الصالح عثمان بن مظعون رضي الله عنه وابنة رسول الله ﷺ رقية التى غيبها المسلمون تحت الثرى، ومنادى رسول الله ﷺ يملأ المدينة بنصر بدر .

سيدا شباب أهل الجنة :

أما شهر زواجها رمضان من السنة الثالثة. فقد شهد عرسًا آخر هو ولادة الحسن ابن على ـ رضى الله عنهما [(٢)] .

ولم يخف ـ عليه الصلاة والسلام ـ فرحه بهذا الوليد الجديد . فعن علي قال: لما ولد الحسن جاء رسول الله ﷺ فقال: « أرونى ابنى ما سميتموه » . قلتُ :سميته حربًا قال: « بل هو حسن »[(٣)] .

وكان شبيهًا بالمصطفى ـ عليه الصلاة والسلام ـ كما قال أنس بن مالك: لم يكن

(١) المغازى من تاريخ الإسلام للحافظ الذهبى ١/ ٢٥٥ .
(٢) المصدر نفسه ١/ ١٦٤ .
(٣) فضائل الصحابة ٢/ ٧٧٣ وقال المحقق فيه: « إسناده صحيح ».

فيهم أحد أشبه برسول الله ﷺ من الحسن بن على عليهما السلام(١) .

ولم يخف عليه الصلاة والسلام حبه له. فعن البراء بن عازب ـ رضى الله عنهما ـ قال: رأيت رسول الله ﷺ واضعًا الحسن بن على على عاتقه وهو يقول: « اللهم إنى أحبه فأحبه » .

وأصبح الحسن حبيب المسلمين جميعًا فهم يرونه ،وكأنما يرون رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ (فعن عقبة بن الحارث قال: خرجت مع أبى بكر من صلاة العصر بعد وفاة النبى ﷺ بليال وعلى يمشى إلى جنبه ، فمر بحسن بن على يلعب مع غلمان فاحتمله على رقبته وهو يقول : وا بأبى شبه النبى ، ليس شبيهًا بعلى، وعلى يضحك)(٢) .

ودعا رسول الله ﷺ لمن يحب حسنًا أن يحبه الله فعن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال لحسن: « اللهم إنى أحبه فأحبه،وأحب من يُحبه » (٣) .

وها هو ـ عليه الصلاة والسلام ـ يحمله على المنبر،وينقل لنا أبو بكرة هذا المنظر الآسر فيقول:رأيت رسول الله ﷺ على المنبر وحسن معه،وهو يقبل على الناس مرة وعليه مرة ويقول:« إن ابنى هذا سيد،ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين»(٤).

وها هو ـ عليه الصلاة والسلام ـ يحمله فى الطريق، فعن أبى هريرة قال: رأيت النبى ﷺ حامل الحسن بن على على عاتقه ولعابه يسيل عليه .

وكان هذا درسًا عظيمًا فى التربية. يتعلم المسلمون منه كيف يعاملون أبناءهم.

ولم تتم الفرحة النبوية. فهذا عبد الله بن رقية رضي الله عنه يحبو فى حضن خالته أم كلثوم ويدرج فيها حتى يبلغ السادسة من عمره ، لكنه سرعان ما يذبل، ويرى فيه رسول الله ﷺ اصفراراً هاله.

إنها السنة الرابعة التى أزفت (وفيها توفى عبد الله بن رقية بنت رسول الله ﷺ وأبوه عثمان رضي الله عنه عن ست سنين، ونزل أبوه فى حفرته) .

لقد وعى على يتم أمه رقية ـ رضى الله عنها ـ وكانت خالته أم كلثوم هى الأم الثانية له، ولم يكن عند عثمان أحظى من هذين النورين، حيث رزق من رقية بولد

---

(١) فضائل الصحابة ٢/ ٧٧٥ وقال المحقق فيه: « إسناده صحيح ».

(٢) المصدر نفسه ٢/ ٧٦٧، ٧٦٨ وقال المحقق فيه:« إسناه صحيح وهو فى المسند ١/ ٨ » .

(٣) فضائل الصحابة للامام أحمد ٢/ ٧٦٨ وقال المحقق فيه: « إسناده صحيح ».

(٤) المصدر نفسه ١/ ٧٦٨ وقال المحقق فيه: « إسناده صحيح ».

تقوم أم كلثوم علي تربيته، لكن إرادة الله تعالى شاءت أن ينتقل عبد الله إلى جوار الله، وينقطع نسل عثمان من رسول الله ﷺ، ولا راد لقضاء الله.

وعادت الفرحة إلى البيت النبوى من جديد. فهذه فاطمة - رضى الله عنها - ولما يمر عام على ولادة الحسن - رضوان الله عليه - إلا وهى تضع وليدًا جديدًا. حدثنا على رضي الله عنه عن ولادته:

(فلما وُلِدَ الحسين قال: « أرونى ابنى ما سميتموه؟ » قلت: سميته حربًا. قال: « بل هو حسين ») (١).

(وفيها وفى شعبان ولد الحسين بن على - رضى الله عنهما)(٢).

وهو الشهر الذى حمل أفراح بدر الموعد للمسلمين حيث انقلبوا بنعمة من الله وفضل. وانضم الحسين رضي الله عنه إلى الحسن، ليكونا زهرة النبى ﷺ فى حياته من الولد، بعد فقد وليده عبد الله بن رقية. « فعن عروة بن الزبير - رضى الله عنهما - قال: إن رسول الله ﷺ قبَّل حسينًا وضمَّه إليه وجعل يشمه، وعنده رجل من الأنصار فقال الأنصارى: إن لى إبنًا قد بلغ ما قبلته قط فقال رسول الله ﷺ: « أرأيت إن كان الله نزع الرحمة من قلبك فما ذنبى؟ »(٣).

لقد كان العار على الرجال أن يظهروا هذا الحب للأطفال الصغار حسب تقاليد الجاهلية وأعرافها، بل أن يظهروه فى بيوتهم، وجاء إمام المربين - عليه الصلاة والسلام - ليقبل ويضم ويشم على الملأ، لتفتح هذه القلوب الجاسية على الحب الدافئ الذى ينهل الصبى منه ويترعرع عليه.

وكان - عليه الصلاة والسلام - يريد أن يكسر تلك القيود الحديدية من الأعراف الجاهلية على الملأ وأمام الناس جميعًا ليتجولوا إلى بؤرة النور هذه.

(فعن عبد الله بن بريدة قال: سمعت أبى بريدة يقول: كان رسول الله ﷺ يخطبنا فجاء الحسن والحسين وعليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران فنزل رسول الله ﷺ عن المنبر، فحملهما، فوضعهما بين يديه ثم قال: « صدق الله ورسوله ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ (٤) نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثى ورفعتهما »)(٥).

(١) فضائل الصحابة للإمام أحمد ١/ ٧٧٦ وقال المحقق فيه: « إسناده صحيح ».
(٢) المغازى من تاريخ الإسلام للحافظ الذهبى ١/ ٣٥٢.
(٣) فضائل الصحابة للإمام أحمد ٢/ ٧٦٩ وقال المحقق فيه: « مرسل رجاله ثقات ».
(٤) التغابن / ١٧.
(٥) المصدر السابق ٢ / ٧٧٠، ٧٧١ وقال المحقق فيه: « إسناده صحيح ».

وربط رسول الله ﷺ حب هاتين الزهرتين بحبه وبغضهما ببغضه.

فعن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « من أحبهما فقد أحبنى، ومن أبغضهما فقد أبغضنى » يعنى حسن وحسين [(١)] .

وينقل لنا أبو هريرة رضي الله عنه منظرًا آخر فيقول: خرج علينا رسول الله ﷺ ومعه حسن وحسين هذا على عاتقه وهذا على عاتقه وهو يلثم هذا مرة ويلثم هذا مرة حتى انتهى إلينا فقال له رجل: يا رسول الله إنك لتحبهما قال: «من أحبهما فقد أحبنى، ومن أبغضهما فقد أبغضنى »[(٢)] .

وفاز هذان الطفلان بأعظم فخر فى الوجود، حدثنا عنه رسول الله ﷺ فيما رواه أبو سعيد الخدرى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة »[(٣)] .

وهذه صورة ثالثة ينقلها لنا يعلى العامرى : أنه خرج مع رسول الله ﷺ - يعنى إلى طعام دعوا إليه. قال: فاستمثل رسول الله ﷺ أمام القوم وحسين مع غلمان يلعب فأراد رسول الله ﷺ أن يأخذه، فطفق الصبى يفر هنا مرة وهاهنا مرة فجعل النبى ﷺ يضاحكه حتى أخذه . قال :فوضع إحدى يديه تحت قفاه، والأخرى تحت ذقنه ووضع فاه على فيه وقبَّلهُ وقال : « حسين منى وأنا من حسين، اللهم أحب من أحب حسينًا ، حسين سبط من الأسباط » .

وإذا كانت سيادة الحسن رضي الله عنه فى الدنيا قبل الآخرة قد ارتبطت بأن يصلح الله به بين فئتين من المسلمين، فإن سيادة الحسين كانت بشهادته ومقتله. كما روى عن عائشة أو أم سلمة (شك وكيع) أن النبى ﷺ قال لإحداهما: « دخل علىَّ البيت مَلَكُ لم يدخل علىَّ قبلها فقال لى: إن ابنك هذا حسين مقتول. فإن شئت آتيك من تربة الأرض التى يقتل بها. قال: فأخرج لى تربة حمراء »[(٤)] ، وتمر السنون عقب السنين، ويثور الحسين رضي الله عنه لله ويشهد رسول الله ﷺ مقتله. كما يحدثنا ابن عباس - رضى الله عنهما - فيقول : (رأيت النبى ﷺ فيما يرى النائم بنصف النهار أشعث أغبر بيده

---

(١) فضائل الصحابة ٢/ ٧٧١ وقال المحقق فيه: « إسناده صحيح » .

(٢) المصدر نفسه ٢/ ٧٧٧ وقال المحقق فيه: « عبد الرحمن بن مسعود اليشكرى لم أجد من وثقة ولا جرحه. ولكن صحح الحاكم حديثه ووافقه الذهبى. وقال فى مجمع الزوائد ٨/ ١٧٩ : رواه أحمد ورجاله ثقات وفى بعضهم خلاف ».

(٣) فضائل الصحابة للإمام أحمد ٢/ ٧٧٩، ٧٨٠ وقال المحقق فيه: « إسناده صحيح ».

(٤) المصدر نفسه ٢/ ٧٧٢ وقال المحقق فيه: « إسناده حسن وسعيد بن راشد صدوق ».

قارورة فيها دم فقلت: بأبى أنت وأمى يا رسول الله ما هذا؟ فقال: « دم الحسين وأصحابه » ، فلم أزل ألتقطه منذ اليوم فأحصينا ذلك اليوم فوجدوه قتل فى ذلك اليوم عليه السلام)[1] .

أم سلمة زوج لرسول الله ﷺ :

والذى يقرأ صفحة حب النبى ﷺ للطفولة يحسب أنها هى كل حياته ـ عليه الصلاة والسلام ـ وها نحن ننتقل إلى صفحة جديدة . فإذا كان الوفاء لعبيدة بن الحارث رضي الله عنه الذى ذهل عن حليلته وقتل فى سبيل الله. أن تزوج حليلته بعد عام من وفاته، فلا غرو أن يهتم رسول الله ﷺ بأرملة أبى سلمة بن عبد الأسد. ابن عمته برة بنت عبد المطلب، وأخوه من الرضاعة.

فإن كان قد فقد عبيدة فى بدر، فقد فقد أحب الخلق إليه، عمه حمزة فى أحد، وأخاه من الرضاعة، وها هو يفقد ابن عمته أبا سلمة بعد أحد .

(وكان أخا النبى من الرضاعة أرضعتهما وحمزة ثويبة مولاة أبى لهب، ويقال: إنه كان أسلم بعد عشرة أنفس، وكان أول من هاجر إلى الحبشة، ثم كان أول من هاجر إلى المدينة، ولما عبَر إلى الله كان الذى أغمضه رسول الله ﷺ، ثم دعا له، وكان قد جرح بأحد جرحًا ثم انتقض عليه، فمات منه فى جمادى الآخرة. فلما توفى تزوجها رسول الله ﷺ حين حلَّت فى شوال، وكانت من أجمل النساء، وهى آخر نسائه وفاة)[2] .

ولنمض مع أم سلمة ـ رضى الله عنها ـ خطوة خطوة حتى دلفت إلى بيت النبوة.

ها هى فى حياة زوجها الحبيب تناجيه فتقول (فيما رواه زياد بن أبى مريم) قالت أم سلمة لأبى سلمة: بلغنى أنه ليس امرأة يموت زوجها وهو من أهل الجنة، ثم لم تُزوَّج، إلا جمع الله بينهما فى الجنة فتعال أعاهدك ألا تزوَّج بعدى، ولا أتزوج بعدك. قال: أتطيعيننى؟ قالت: نعم. قال: إذا مت تزوجى، اللهم ارزق أم سلمة بعدى رجلاً خيرًا منى، لا يُحزنها ولا يؤذيها. فلما مات قلت: من خير من أبى سلمة؟ فما لبثت وجاء رسول الله ﷺ. فقام على الباب فذكر الخطبة إلى ابن أخيها، أو ابنها. فقالت: أرد على رسول الله ﷺ، أو أتقدم عليه بعيالى، ثم جاء الغد فخطب [3] .

---

(١) فضائل الصحابة ٢/ ٧٧٠ وقال المحقق فيه: « إسناده صحيح ».

(٢) المغازى من تاريخ الإسلام للحافظ الذهبى ١/ ٢٥٥، ٢٥٦ .

(٣) سير أعلام النبلاء ٢/ ٢٠٣ وقال المحقق فيه: « أخرجه ابن سعد ورجاله ثقات ».

وكانت المحنة التى هدَّتها بوفاة زوجها الحبيب أبى سلمة. فجاءت إلى النبى ﷺ فزعة ولهى تستفتيه فيما تقول فى هذه المصيبة :

عن أم سلمة قالت : لما توفى أتيت النبى ﷺ فقلت :كيف أقول ؟ قال:«قولى : اللهم اغفر لنا وله، وأعقبنى منه عقبة صالحة». فقلتها، فأعقبنى الله محمداً ﷺ (١) .

ومرت أيام عدتها ثقيلة الوطأة عليها، لا تدرى ما أكن الله تعالى لها فى غيبه، ولا تزال ذكرى زوجها الشهيد تملأ عليها كل حياتها.

وما هى إلا أيام قلائل حتى تقدَّم لها الصديق - رضوان الله عليه - خاطبًا. ولم تتردد. فاعتذرت برفق عن الزواج من أعلى أصحاب رسول الله ﷺ كعبا .

وحين علم عمر رضي الله عنه الوزير الثانى لرسول الله ﷺ أن أم سلمة ردَّت أبا بكر لم يجد حرجًا أن يتقدم إليها خاطبًا. فهى من كرام نساء بنى المغيرة. وهى بنت أبى أمية بن المغيرة زاد الركب ، وإن من إكرام أبى سلمة رضي الله عنه أن يتقدم هؤلاء القادة الأكفاء لها لتعيش فى كنفهم ورعايتهم ، وازداد الأمر صعوبة ، وتذكرت أبا سلمة رضي الله عنه وأيام الجهاد معه وأيام الغربة والوحشة، وهى تحس أن جرحها لم يجف بعد. فاعتذرت من عمر رضي الله عنه.

وكان ما لم تكن تحلم به بنت أبى أمية. جاءها رسول الله ﷺ خاطبًا بعد صاحبيه أبى بكر وعمر :

(فعن ثابت قال: حدثنى ابن عمر بن أبى سلمة عن أبيه قال:

إن أم سلمة لما انقضت عدتها خطبها أبو بكر فردته، ثم خطبها عمر فردته، فبعث إليها رسول الله ﷺ. فقالت مرحبًا: أخبر رسول الله أنى غيرى(٢) وأنى مُصبية(٣) وليس أحد من أوليائى شاهد.

فبعث إليها : « أما قولك: إنى مصبية؛ فإن الله سيكفيك صبيانك، وأما قولك: إنى غيرى فسأدعوا الله أن يُذهب غيرتك ، وأما الأولياء فليس أحد منهم إلا سيرضى بى» قالت: يا عمر ، قم فزوج رسول الله ﷺ .

وقال رسول الله: « أما أنى لا أنقصك مما أعطيت فلانة رحيين وجرتين ووسادة من أدم حشوها ليف » . وكان رسول الله ﷺ يأتيها فإذا جاء أخذت زينب فوضعتها فى

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢/ ٢٠٦ وقال المحقق فيه: « إسناده صحيح وأخرجه أحمد ومسلم والترمذى وابن ماجة ».

(٢) غيْرى: كثيرة الغيرة.

(٣) مُصبية: ذات صبيان وأولاد صغار.

حجرها لترضعها، وكان رسول الله ﷺ حييًا كريمًا يستحى فيرجع ففعل ذلك مرارًا ففطن عمار بن ياسر لما تصنع، قال :فأقبل ذات يوم وجاء عمار وكان أخاها لأمها فدخل عليها فانتشطها من حجرها وقال: دعى هذه المقبوحة المشقوحة التى آذيت بها رسول الله ﷺ. فدخل، فجعل يُقلِّب بصره فى البيت يقول :« أين زُناب؟ ما فعلت زُناب ؟ » قالت: جاء عمار فذهب بها. قال: فبنى رسول الله ﷺ بأهله ثم قال:« إن شئت أن أسبع لك سبعت للنساء » (١) .

(ولابد من الإشارة إلى بعض الملاحظات فى هذا الزواج النبوى العظيم:

١ـ لقد استجاب الله دعوة أبى سلمة وهو يحتضر: اللهم اخلفنى فى أهلى بخير، ومضى إلى ربه شهيداً فكان كافل أيتامه وراعى أهله رسول الله ﷺ ،ويحسن ألا ننسى أن أبا سلمة هو ابن عمة رسول الله ﷺ، فهو أولى الناس برعاية أهله وولده.

٢ـ واستجاب الله دعوة أم سلمة أن يبدلها الله خيرًا من مصيبتها فى نفسها كانت أقل من أن تكون زوجًا لرسول الله ﷺ (إنى امرأة قد أدبر سنى وإنى امرأة أم أيتام وأنا امرأة شديدة الغيرة) لكن سيد الخلق لن يدعها لسنها أو لأيتامها أو لغيرتها. فقد جبر خاطرها، ورعى حقها، وأعلمها بكرامتها عنده وعند أهلها.

٣ـ ويحسن ألا ننسى كذلك أن أم سلمة من بنى مخزوم أعز بطون قريش، وهى التى كانت تحمل لواء الحرب والمواجهة لرسول الله ﷺ. ووراء هذا الزواج تفتيت حقد هذه القبيلة وتقريب قلوب أبنائها، وتوطئة وتحبب إليهم ليدخلوا فى الاسلام بعد أن صاروا أصهار رسول الله ﷺ.

٤ـ ويحسن ألا ننسى ذلك الأثاث البيتى البسيط الذى كان رسول الله ﷺ يقدمه لأهله رحيين وجرتين ووسادة. أما الرحى فلطحن الشعير، وأما الجرة فللشرب، وأما الوسادة فللنوم، ونقف إجلالاً أما هذا الأثاث، ونحن نرى عشرات الألوف التى تصرف فى الأثاث هذه الأيام، ومن خلاله يقيِّم الأزواج فى كثير من الأحيان)(٢) .

وقد استفادت ـ رضى الله تعالى عنها ـ من هذا الأثاث :فعن المطلب بن عبد الله ابن حنطب قال: دخلت أيِّم العرب على سيد المسلمين أول العشاء عروسًا وقامت آخر الليل تَطحن ـ يعنى أم سلمة (٣) .

(١) سير أعلام النبلاء ٢/ ٢٠٣، ٢٠٤وإسناده صحيح كما قال الحافظ ابن حجر : وأخرجه ابن سعد وأحمد والنسائى.

(٢) من كتاب (فقه السيرة النبوية) للمؤلف.

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبى ٢/ ٢٠٥ .

٦ـ *وزينب هذه التى تُرضعها أم سلمة هى رضيعة الشهر الأول من عمرها كما تقول* أم سلمة ـ رضوان الله عليها ـ (فلما وضعتُ زينب جاءنى رسول الله ﷺ فخطبنى).

وقد راعى ـ عليه الصلاة والسلام ـ مشاعر الأمومة العظيمة لدى زوجه أم سلمة. فكان يكتفى برؤية زينب ترضع، ويعود من حيث أتى. لولا أن عمار بن ياسر رضي الله عنه أخذ زينب إليه فهو خالها وهيأ الجو للزوجين السعيدين، حيث تحدثنا أم سلمة ـ رضوان الله عليها ـ عن هذه الليلة السعيدة فتقول: فجاء النبى ﷺ، فقال: « أين زُناب ؟ » فقيل: أخذها عمار. فقال: « إنى آتيكم الليلة » قالت: فوضعت ثِفالى[1] وأخرجت حبات من شعير كانت فى جرتى، وأخرجت شحمًا، فعصدته له ثم بات ثم أصبح فقال: « إنَّ بك على أهلك كرامة، إن شئت سبَّعت لك وإن أسبّع لك أسبّع لنسائى »[2].

فكان التلطف النبوى العظيم: « أين زُناب ؟» فى اسم التدليل لها واسم التحبب. ثم ترك لزوجه ـ رضى الله عنها ـ دون أن يفاجئها بأن تتهيأ لأسعد يوم مر عليها منذ أن رأت النور، وكان الاحتفال العظيم والوليمة الضخمة التى أعدتها لزوجها سيد ولد آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ حبات من شعير، وأخرجت شحمًا فعصدته له.

ولا بد أن نشهد أثر هذا الوافد الجديد على بيت النبوة، أيم العرب وعقيلة بنى مخزوم تدخل ضرة على عائشة وحفصة ـ رضوان الله عليهما ـ فتحدثنا الصِّديقة بنت الصِّديق عن ذلك فتقول:

(لما تزوَّج النبى ﷺ أم سلمة، حزنت حزنًا شديدًا لما ذكروا لنا من جمالها، فتلطفت حتى رأيتها، فرأيتها والله أضعاف ما وُصِفَت لى من الحسن فذكرت ذلك لحفصة، وكانتا يدًا واحدة. فقالت: لا والله إنْ هذه إلا الغيرة ما هى كما تقولين، وإنها لجميلة، فرأيتها بعد، فكانت كما قالت حفصة. ولكنى كنت غَيْرَى.

إنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ يخوض معركة البناء الداخلى على كل الصعد، تربية الطفل، وتربية المرأة، وتربية الرجال، وعائشة أحب خلق الله من النساء لرسول الله ﷺ لا يمنعه هذا الحب من أن يؤدى حق الرجالات العظام فى أزواجهن، وحق الدعوة فى الزواج، وحق هذه الزوجات من أن ينهلن من نور النبوة ما يشاء الله أن ينهلن كما تنهل عائشة، ولو أدى ذلك إلى حزن أحب النساء إليه فى الأرض، وتبدو عظمة عائشة التى مر عليها ثلاثة أعوام عروسًا فى بيت النبوة ولا تزال ابنة الثلاثة عشر ربيعًا. حيث تفقه حدودها، وتلتزم أدبها مع المصطفى الحبيب ـ عليه الصلاة والسلام. لكن هذا

---

(١) ثِفالى: ما وقيت به الرحى من الأرض.

(٢) سير أعلام النبلاء للحافظ الذهبى ٢/٢٠٦ وقال المحقق فيه: « إسناده صحيح ».

لا يمنعها أبدًا من أن تحافظ على عرينها فى فوزها بالحب الأول بقلب المصطفى ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى أرفع أدب بشرى، تخاطب به حبيبها بعد زواجه من أم سلمة لتتأكد من أن عرين حبها الأول لم يقتحم بعد .

فعن فاطمة الخزاعية قالت : سمعت عائشة تقول يوماً : دخل عليّ رسول الله ﷺ يوماً فقلت : أين كنت منذ اليوم ؟ قال : « يا حميراء كنت عند أم سلمة » فقلت : ما تشبع من أم سلمة ؟ قالت : فتبسم . فقلت : يارسول الله ألا تخبرنى عنك لو أنك نزلت بعدوتين إحداهما لم تُرع والأخرى قد رُعيت أيهما كنت ترعى ؟ قال : « التى لم تُرع» . قلت : فأنا لست كأحد من نسائك كل امرأة من نساءك قد كانت عند رجل غيرك. قالت: فتبسم رسول الله ﷺ)[1] .

ويكفى عائشة ـ رضى الله عنها ـ أن تحظى بهذه الابتسامة .

زينب بنت جحش وزيد بن حارثة :

ومن زوج ابن عمته أم سلمة إلى ابنة عمته زينب بنت جحش الأسدية : وكان من أهم عمليات البناء للأمة التى يريدها ـ عليه الصلاة والسلام ـ والتى وجّه الله تعالى لها نبيه عملية تذويب الفوارق الطبقية فى مجتمع تسوده العصبية القبلية والنزعة العشائرية ، ولابد أن يتم تنفيذ هذه المهمة من القمة ، حيث تكون القدوة المحتذاة ، وأن يتحدث الناس عن إلغاء الفروق بين أفراد الأمة الواحدة هو شىء سهل ، لكن أن يعيشوا هذا الإلغاء هو الامتحان الصعب ، لقد كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يرفع من قدر مولاه زيد بن حارثة إلى درجة القيادة العليا ، وعاش الجيل الأول هذا الإلغاء ، ومضوا جنوداً تحت إمرته فى أكثر من موقعة ، وأكثر من معركة ، وتحدث عن حبّه العظيم له ، وعن كفاءته القيادية فقال فى حق ابنه أسامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وفى حقه: « إن تطعنوا فى إمارته فقد طعنتم فى إمارة أبيه،وايم الله إن كان لخليقاً بالإمارة، وإن كان لمن أحب الناس إلىّ وإن ابنه هذا لمن أحب الناس إلىّ بعده » [2] .

وعرف المسلمون كفاءة زيد وعظمته القيادية . فعن ابن إسحاق قال :

(مابعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة فى سرية إلا هو أميرها)[3] .

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٨ / ٨٠ .

(٢) فضائل الصحابة للإمام أحمد ، وقال المحقق فيه : « إسناده صحيح » .

(٣) المصدر نفسه ٢/ ٨٣٥ ، وقال المحقق فيه : « إسناده صحيح إلى أبى إسحاق . ورواه ابن سعد عن عائشة بإسناد حسن وزاد فيه : ولو بقى بعد استخلفه » .

وهذه زينب بنت جحش عريقة النسب أماً وأباً . فأمها عقيلة بنى هاشم . أميمة بنت عبد المطلب . وأبوها سيد من سادات بنى أسد ، من أعرق القبائل العربية ، وقومها بنو أسد فى مكة حلفاء بنى أمية بن عبد شمس بن عبد مناف . تحدثنا عن المحنة الكبرى التى خاضتها عقب وصولها إلى المدينة .

(أخرج الطبرانى والبيهقى فى سننه ،وابن عساكر من طريق الكميت بن يزيد الأسدى قال : حدثنى مذكور مولى زينب بنت جحش قالت :

خطبنى عدة من أصحاب النبى ﷺ فأرسلت إليه أخى يشاوره فى ذلك قال : « فأين هى ممن يعلمها كتاب ربها وسنة نبيها ؟ » قالت : من ؟ قال : « زيد بن حارثة » فغضبت وقالت : تزوج بنت عمتك مولاك ! ثم أتتنى وأخبرتنى بذلك . فقالت : أشد من قولها وغضبت ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ** ﴾ (١). فأرسلتُ إليه : زوجنى من شئت ، فزوجنى منه . .)(٢) .

ولعل رواية ابن عباس تلقى إضاءة أكثر :

قال العوفى عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قوله تعالى : ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ** ﴾ الآية ، وذلك أن رسول الله ﷺ انطلق ليخطب على فتاه زيد بن حارثة رضي الله عنه فدخل على زينب بنت جحش الأسدية ـ رضى الله عنها ـ فخطبها ، فقالت : لست بناكحته ، فقال رسول الله ﷺ : « بلى فانكحيه » ، قالت : يا رسول الله ، أؤامر فى نفسى . فبينما هما يتحدثان أنزل الله هذه الآية على رسول الله ﷺ : ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا** ﴾ الآية قالت : قد رضيته لى يارسول الله ، منكحاً . قال لها رسول الله ﷺ : « نعم » . قالت : إذن لا أعصى رسول الله ﷺ ، قد أنكحته نفسى »(٣) .

وقال ابن لهيعة عن أبى عمرة عن عكرمة عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : خطب رسول الله ﷺ زينب بنت جحش لزيد بن حارثة ـ رضى الله عنهما ـ فاستنكفت منه وقالت : أنا خير منه حسباً ، وكانت امرأة فيها حدة .فأنزل الله تعالى : ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ** ﴾ الآية كلها . وهكذا قال مجاهد وقتادة ومقاتل بن حيان. أنها نزلت

---

(١) الأحزاب / ٣٦ .

(٢) الدر المنثور فى التفسير بالمأثور للحافظ السيوطى ٦/ ٦١٥ .

(٣) تفسير الحافظ ابن كثير ٥/ ٤٦٣ .

في زينب بنت جحش ـ رضى الله عنها ـ حين خطبها رسول الله ﷺ على مولاه زيد بن حارثة رضي الله عنه فامتنعت ثم أجابت(1).

لقد كان هذا الزواج هزة عنيفة لمجتمع المدينة كله ، ورسول الله ﷺ وهو المربى الأعظم ابتدأ بتنفيذ إلغاء هذه الفوارق فى النسب من ابنة عمته ، وأقرب الناس إليه ، ولم يبتدئ بها من الأنصار ، أو من القبائل الأخرى ، ولا شك أن زينب ـ رضى الله عنها ـ عانت أعظم محنة فى حياتها يوم تستيقظ فتجد نفسها زوجاً لمولى ، ولم تكن ترى لها كفئاً إلا رسول الله ﷺ أو علية أصحابه ، وقد كان زيد من علية أصحابه ، وكان لها من قرع الإيمان قلبه من الموالى . لكن الحس الشعورى أنه مولى ، ولن يرتفع المولى إلى مستوى الحر .

وفى رواية للبزار عن أسامة بن زيد رضي الله عنه تعطينا صورة عن المهر ، والمدة التى عاشتها زينب ـ رضوان الله عليها ـ زوجاً لزيد لا نجدها إلا عنده :

فقد أخرج البزار عن عمرو بن أبى سلمة عن أبيه قال : حدثنى أسامة بن زيد ـ رضى الله عنهما ـ قال : كنت فى المسجد ، فأتانى العباس وعلى بن أبى طالب ـ رضى الله عنهما ـ فقالا : يا أسامة استأذن لنا على رسول الله ﷺ . قال : فأتيت رسول الله ﷺ فقلت : على والعباس يستأذنان . فقال رسول الله ﷺ : « أتدرى ما حاجتهما ؟ » قلت : لا، يا رسول الله . قال : « ولكنى أدرى » قال: « فأذن لهما » . قالا : يا رسول الله جئناك لتخبرنا أى أهلك أحب إليك ؟ قال ﷺ : « فاطمة بنت محمد » ، قالا : يا رسول الله ما نسألك عن فاطمة . قال : « فأسامة بن زيد بن حارثة الذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه ».

وكان رسول الله ﷺ قد زوّجه بابنة عمته زينب بنت جحش الأسدية ـ رضى الله عنها ـ وأمها أميمة بنت عبد المطلب ، وأصدقها عشرة دنانير وستين درهما ، وخماراً وملحفة ودرعاً وخمسين مداً من طعام ، وعشرة أمداد من تمر . قاله مقاتل بن حيان ، فمكثت عنده قريباً من سنة أو فوقها ثم وقع بينهما ، فجاء زيد يشكوها إلى رسول الله ﷺ (2) .

لم يكن لمثل هذه التجربة الرائدة أن تقع فى زواج حرة قرشية من مولى لو لم يشرف عليها رسول الله ﷺ ، وكان الأمر قد ازداد تعقيداً عندما نزل قول الله عز وجل : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ

---

(1) تفسير الحافظ ابن كثير ٥/ ٤٦٣ .

(2) تفسير ابن كثير ٥/ ٤٦٦ .

أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ . ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾(١) .

فلم تعد زوجاً لزيد بن محمد ، إنما غدت زوجاً لزيد بن حارثة ، وقد أُبطل التبنى فى الإسلام ، وأقرت الموالاة ﴿ **فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ** ﴾ ، ولكن المجتمع الإسلامى راى أول تجربة فعلية له فى حرب الفوارق الطبقية ، وينفذها أعلى الناس حسباً ،وأقرب الناس إلى رسول الله ﷺ ابنة عمته زينب بنت جحش ـ رضى الله عنها.

ولم يكن العام عاماً سهلاً ، فقد كانت بوادر عدم الوفاق قائمة، لأن زينب ـ رضى الله عنها ـ قبلت الزواج امتثالاً ولم تقبله قناعة شعورية . فكان المد الشعورى عندها يدفعها بالحدة التى عندها لأن تنال من زيد بلسانها ، ويصمت الحب العظيم مرة ومرة ، ويفضى أخرى ولكن الأمر لم يكن أمر لقاء عابر ، إنما هو أمر عشرة دائمة وحياة يومية. ويأتى زيد رضي الله عنه يشكو رسول الله ﷺ زينب . فيقول ـ عليه الصلاة والسلام ـ: « أمسك عليك زوجك ، واتق الله » وكان المجتمع الإسلامى قد حدث فيه أمرمواز لزواج زينب بزيد ، فقد نزل القرآن الكريم بتحريم التبنى : ﴿ **ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ** ﴾ ،لكن هذا التحريم جعل المجتمع ينفذ الأمر امتثالاً فيمتنع الناس عن التبنى من جديد ، ويدعو الأبناء بآبائهم الذين انتسبوا إليهم ، أو بأخوتهم فى الدين ، لكن العرف يتغلغل فى أعماق هذا المجتمع ، وهو عرف التبنى ، ونشأ المجتمع كله يعرف زيد بن محمد ﷺ ، ويتعامل معه على هذا الأساس .

وإذا كان رسول الله اختار ابنة عمته لتقضى على عملية فوارق النسب عملياً بعد حربها نظرياً ، فقد اختار الله تعالى رسوله ﷺ ليقضى على عملية التبنى عملياً بعد تحريمها نظرياً فى كتاب الله ، والمد الشعورى المتغلغل فى أعماق هذا المجتمع يرى زواج رجل من مطلقة متبناه مثل زواجه من مطلقة ابنه فهى من المحرمات عليه ، ومن العسير جداً أن تُخلع هذه القناعة من جذورها من خلال النص القرآنى مالم يقم على تطبيقه عبدالله ورسوله محمد ـ عليه الصلاة والسلام .

لقد كانت زينب ـ رضى الله عنها ـ هى النموذج التضحية لإلغاء فوارق النسب .

---

(١) الأحزاب / ٤ ، ٥ .

وكان رسول الله ﷺ هو النموذج التضحية لإلغاء موضوع التبنى فى المجتمع ، ولن يطالب أحد بهذا التنفيذ قبل رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ بعد أن أعلن أن زيداً مولاه وليس ابنه ، ولن يستطيعه أحد غير رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى هز كيان هذا المجتمع كله واستئصال عاداته الباطلة من خلال التنفيذ العملى والإقدام على الزواج من مطلقة متبناه ، وكان يحس ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنه هو المرشح لهذا الأمر . ويخشى وقوعه فى كل لحظة فلا يملك إلا أن يطيل أمد زواج زينب بزيد ويقول له كلما شكا له زينب . « أمسك عليك زوجل واتق » ، ويخفى فى نفسه ـ عليه الصلاة والسلام ـ مايحس أنه واقع لا محالة . ويخشى الناس فى هذه المواجهة ، وهذا التغيير ، والله أحق بالخشية .

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ . . . ﴾ .

وترتفع وتيرة الخلاف بين زينب وزيد ـ رضوان الله عليهما ـ وترتفع خشية النبى ﷺ من وقوع الأمر ، ويحس بالحرج الشديد بتنفيذ زواج الأدعياء ، لو فصم الزواج ، ووقع الطلاق وصدر الأمر .

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا . مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا . الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾(١) .

وحين يتجاوز المصطفى ﷺ هذا الحرج أمام المجتمع كله فى زواج مطلقة متبناه امتثالاً لأمر الله سبحانه ، وينفذه من أعماقه شعوراً ولا يجد فى صدره حرج منه ، فسيقدم المؤمنون عند ذلك على هذا الزواج أسوة برسول الله ـ عليه الصلاة والسلام .

إننا بحاجة إلى الوقوف ملياً أمام عمليات البناء هذه ، والتى تعتبر من أعسر العمليات على الإطلاق ، وهى عمليات استئصال فوارق النسب والاعتداد بها ، وعمليات إبطال التبنى الذى يغزو المجتمع آنذاك ويملأ فجاجه .

وندع بعض النصوص الآن تحدثنا عن كيفية التطبيق العملى لهذا التغيير .

---

(١) الأحزاب / ٣٧ ـ ٣٩ .

أ- روى ابن أبى حاتم عن على بن زيد بن جدعان قال : سألنى على بن الحسين - رضى الله عنهما -:

ما يقول الحسن فى قوله تعالى : ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾ فذكرت له . فقال : لا ، ولكن الله تعالى أعلم نبيه أنها ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها . فلما أتاه زيد رضي الله عنه ليشكوها إليه قال : « اتق الله وأمسك عليك زوجك » . فقال : قد أخبرتك أنى مزوجكها وتخفى - فى نفسك ما الله مبديه ، وهكذا رُوِىَ عن السدى أنه قال ذلك(١) .

وعلى ضوء هذه الرواية فالأمر أمر يقين وليس حدساً نفسياً أو تخوفاً شعورياً ، بل هو إعلام ربانى أن زينب هى من أزواجه عليه الصلاة والسلام .

ب - وقوله تعالى : ﴿ لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ﴾ أى : إنما أبحنا لك تزويجها وفعلنا ذلك لئلا يبقى حرج على المؤمنين فى تزويج مطلقات الأدعياء .

وذلك أن رسول الله ﷺ كان قبل النبوة قد تبنى زيد بن حارثة رضي الله عنه فكان يقال له: زيد بن محمد . فلما قطع الله تعالى هذه النسبة بقوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ .. ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ﴾ ثم زاد ذلك بياناً وتأكيداً بوقوع تزويج رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش - رضى الله عنها - لما طلقها زيد ابن حارثة رضي الله عنه ولهذا قال الله تعالى فى آية التحريم : ﴿ وَحَلائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ ﴾ (٢) ليحترز من الابن الدعى. فإن ذلك كان كثيراً فيهم وقوله تعالى :﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولا ﴾ أى وكان هذا الأمر الذى وقع قد قدره الله تعالى وحتّمه ، وهو كائن لا محالة ، وكانت زينب - رضى الله عنها - فى علم الله ستصير من أزواج النبى ﷺ (٣) .

لقد مضى فى أول السورة إبطال تقليد التبنى ورد الأدعياء إلى آبائهم ، وإقامة العلاقات العائلية على أساسها الطبيعى : ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ . ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ

(١) تفسير ابن كثير ج٥ ص٤٦٧ وهو عن على بن هاشم بن مرزوق (صدوق) عن ابن عيينة (ثقة فقيه) عن على بن زيد (ضعيف روى له مسلم والبخارى فى الأدب المفرد) عن على بن الحسين (ثقة فقيه إمام) .
(٢) النساء / ٢٣.
(٣) تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير ٥/ ٤٦٨ .

تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً . . ﴾ ، ولكن نظام التبنى كان له آثار واقعية فى حياة الجماعة العربية ، ولم يكن إبطال هذه الآثار الواقعية فى حياة المجتمع ليمضى بالسهولة التى يمضى بها إبطال تقليد التبنى ذاته ، فالتقاليد الاجتماعية أعمق أثراً فى النفوس ، ولابد منس وابق عملية مضادة ،ولابد من سوابق أن تستقبل هذه السوابق أول أمرها بالاستنكار ، وأن تكون شديدة الوقع على الكثيرين ، وقد مضى أن رسول الله ﷺ زوّج زيد بن حارثة الذى كان متبناه ، وكان يدعى زيد بن محمد ، ثم دعى إلى أبيه ـ من زينب بنت جحش ابنة عمة رسول الله ﷺ ليحطم بهذا الزواج فوارق الطبقات الموروثة ، ويحقق معنى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾[1] ويقرر هذه القيمة الإسلامية الجديدة بفعل عملى واقعى .

ثم شاء الله أن يحمّل نبيه بعد ذلك ـ فيما يُحَمَّل من أعباء الرسالة ـ مؤنة إزالة آثار نظام التبنى ، فيتزوج من مطلقة متبناه زيد بن حارثة ، ويواجه المجتمع بهذا العمل الذى لا يستطيع أحد أن يواجه المجتمع به ، على الرغم من إبطال عادة التبنى ذاتها .

وألهم الله نبيه ﷺ أن زيداً سيطلّق زينب ، وأنه هو سيتزوجها للحكمة التى قضى الله بها ، وكانت العلاقات بين زينب وزيد قد اضطربت ، وجاءت توحى بأن حياتهما لن تستقيم طويلاً ،وجاء زيد مرة بعد مرة يشكو إلى رسول الله ﷺ اضطراب حياته مع زينب ، وعدم استطاعته المضى معها ، ورسول الله ﷺ على شجاعته فى مواجهة قومه فى أمر العقيدة دون لجلجة ولا خشية يحس ثقل التبعة فيما ألهمه الله من أمر زينب ، ويتردد فى مواجهة القوم بتحطيم ذلك التقليد العميق فيقول لزيد الذى أنعم الله عليه بالإسلام ، والذى أنعم عـليه رسـول الله ﷺ بالعتق والتربية والحـب ، يقول له : « أمسك عليك زوجك واتق الله » ويؤخر بهذا مواجهة الأمر العظيم الذى يتردد فى الخروج به على الناس كما قال الله تعالى : ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ ﴾ [2]،وهذا الذى أخفاه رسول الله ﷺ فى نفسه وهو يعلم أن الله مبديه هو ما ألهمه الله أن سيفعله ، ولم يكن أمراً صريحاً من الله ، وإلا ما تردد فيه ولا أخّره ولا حاول تأجيله ، ولجهر به فى حينه مهما كانت العواقب التى يتوقعها من إعلانه ولكنه ﷺ كان أمام إلهام يجده فى نفسه ، ويتوجس فى الوقت ذاته من مواجهته، ومواجهة الناس به . حتى أذن الله بكونه . فطلّق زيد زوجه فى النهاية ،

---

(١) الحجرات / ١٣ .

(٢) الأحزاب / ٣٧ .

وهو لا يفكر لا هو ولا زينب فيما سيكون بعد لأن العرف السائد كان يعد زينب مطلقة ابن لمحمد لا تحل له ، حتى بعد إبطال عادة التبنى ، ولم يكن قد نزل بعد إحلال مطلقات الأدعياء ، إنما كان حادث زواج النبى بها فيما بعد هو الذى قرّر هذه القاعدة بعدما قوبل هذا القرار بالدهشة والمفاجأة والاستنكار .

وفى هذا ما يهدم كل الروايات التى رويت عن هذا الحادث ، والتى تشبّث بها أعداء الإسلام قديماً وحديثاً وصاغوا حولها الأساطير والمفتريات .

إنما كان هذا الأمر كما قال الله تعالى : ﴿ **فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا** ﴾ وكانت هذه إحدى ضرائب الرسالة الباهظة حملها رسول الله ﷺ فيما حمل ، وواجه بها المجتمع الكاره لها كل الكراهية حتى ليتردد فى مواجهته بها ، وهو الذى لم يتردد فى مواجهته بعقيدة التوحيد ،وذم الآلهة والشركاء وتخطئة الآباء والأجداد : ﴿ **وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا** ﴾(١)، لا مرد له ، ولا مفر منه. واقعاً محققاً لا سبيل إلى تخلفه ولا الحيدة عنه)(٢) .

جـ - ونعود إلى زينب - رضى الله عنها - وقد غدت مطلقة من زيد ، ولم يؤذها ذلك فقد استحالت الحياة بينهما على عظم تقديرها له ، لكنها كانت تنتظر الغيب المجهول، فهى لا تدرى نصيب من تكون ، وزوج من تكون بعد انقضاء عدتها ، وقد خطر بذهنها الكثير الكثير ، أما رسول الله ﷺ فهى مطلقة ابنه من قبل . فلا يمكن أن يقع هذا الزواج ، لكنها لا تعلم ما ادخره الله تعالى لها من الخير ، مكافأة لها على امتثال أمر نبيها فى زواجها من زيد رضي الله عنه .

فعن أنس رضي الله عنه قال :(لما انقضت عدة زينب بنت جحش قال رسول الله ﷺ لزيد ابن حارثة :« ما أجد أحد آمن عندى أو أوثق فى نفسى منك . ائت إلى زينب فاخطبها علىّ » .

قال : فانطلق زيد فأتاها وهى تخمر عجينها . فلما رأيتها عظمت فى صدرى فلم أستطع أن أنظر إليها حين عرفت أن رسول الله ﷺ قد ذكرها . فوليتها ظهرى ، ونكصت على عقبى وقلت : يا زينب أبشرى ، إن رسول الله ﷺ يذكرك . قالت : ما أنا بصانعة شيئاً حتى أؤامر ربى . فقامت إلى مسجدها ، ونزل القرآن : ﴿ **فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا** ﴾ قال : فجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن)(٣) .

---

(١) الأحزاب / ٣٧ .

(٢) فى ظلال القرآن لسيد قطب م٥ ج٢٢ ص٢٨٦٨ ، ٢٨٦٩ .

(٣) الإمام أحمد (٣/ ١٩٥) ومسلم .

وأول مؤامرة لربها أن تخر ساجدة شكراً لله على طلب رسول الله ﷺ لها .

فعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : لما أُخبرت زينب بتزوج رسول الله ﷺ لها سجدت(١) .

وكانت تود أن تعطى جواباً بعد استخارة الله - عز وجل - بهذا الأمر كما علّمها الحبيب المصطفى ﷺ الاستخارة فى الأمور كلها . فحتى وقد طلبها سيد ولد آدم لتكون زوجاً له كان جوابها : ماكنت بصانعة شيئاً حتى أؤامر ربى .

وانتهت صلاتها ، وأحست أنها ملكت الدنيا بأسرها ، فأى خير فى هذا الوجود يعدل هذا الخير ؟ ورأت قلبها يخفق من السرور والفرحة والرضا مالم تحس به إلا عند إسلامها ، فنذرت لله تعالى أن تصوم شهرين شكراً لله على هذه الخطوبة .

فعن إبراهيم بن محمد بن عبدالله بن جحش يقول : (قالت زينب بنت جحش : لما جاءنى الرسول بتزويج رسول الله ﷺ إياى جعلت لله علىّ صوم شهرين . .)(٢) .

وبينما هى فى هذه الحالة لا تدرى أهى فى اليقظة أم فى المنام ، وقد غمرتها السعادة ؛ إذ بها تفاجأ برسول الله ﷺ فوق رأسها وهى متبذلة قد برز شعرها وصدرها، ففوجئت وقالت : يا رسول الله بلا خطبة ولا شهادة .

قال : « الله المزوج ، وجبريل الشاهد » .

وذلك كما ورد فى رواية الطبرانى والبيهقى وابن عساكر عن الكميت بن زيد الأسدى :

(. . . فطلقنى فبتّ طلاقى ، فلما انقضت عدتى لم أشعر إلا والنبى ﷺ يدخل علىّ وأنا مكشوفة الشعر ، فقلت : هذا أمر من السماء . فقلت : يارسول الله بلا خطبة ولا شهادة . قال : « الله المزوج وجبريل الشاهد »)(٣) .

وصدق الله ورسوله ، فلعل الخطوبة التى أرسل بها زيداً كانت قبل نزول الآية ، وراح - عليه الصلاة والسلام - يتلو عليها القرآن العظيم من رب السموات والأرض يستعرض قصتها مع زيد وزواج رسول الله ﷺ منها .

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا

(١ ، ٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٨/١٠٢ .

(٣) الدر المنثور فى التفسير بالمأثور للحافظ السيوطى ٦/٦١٥ .

لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً ﴾(١) .

وكل الذى كان يعنيها من الآية : ﴿ زَوَّجْنَاكَهَا ﴾ .

لقد زوجها الله تعالى نبيه من السماء ، ويالها من مكرمة لم يصل إليها مخلوق تعرفه : أن ينزل أمر زواجها فى آية قرآنية يتلوها المؤمنون فى الأرض إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وحمدت ربها أن أطاعت نبيها ، وامتثلت أمره ، وتزوجت متبناه ومولاه ، ولولا تلك المحنة لما كانت تلك المكرمة ، ولم تجد فى الآية ما يقرعها و يؤنبها على حدتها مع زيد ، لكنها رأت مقام زيد رضي الله عنه عند الله عز وجل ، حتى ليذكر باسمه فى كتاب الله .

وكان لابد لهذا الزواج الذى عقده رب العزة جل جلاله وشهد عليه الرسول الأمين جبريل من وليمة يتداعى إليها المسلمون فرحاً بهذ الزواج ، (فما أولم رسول الله ﷺ على امرأة من نسائه ما أولم عليها ، وذبح شاة)(٢) .

وفى رواية الإمام أحمد ومسلم :(فقامت إلى مسجدها ، ونزل القرآن ، وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن ، ولقد رأيتنا حين دخلت على رسول الله ﷺ وأطعمنا عليها الخبز واللحم .

والله تعالى هو الذى زوجها رسوله ﷺ ، وهو الذى أطعم المسلمين بهذا الزواج كما يحدثنا أنس رضي الله عنه فهو زواج من السماء وطعام من السماء .

فعن ثابت البنانى قال : قلت لأنس بن مالك ، كم خدمت رسول الله ﷺ؟ قال : عشر سنين فلم يغيّر علىّ فى شىء أسأت ولا أحسنت . قلت : فأخبرنى بأعجب شىء رأيت منه فى هذه العشر سنين ماهو ؟ قال :

لما تزوّج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش ، وكانت تحت مولاه زيد بن حارثة ، قالت أم سُلَيم : يا أنس ، إن رسول الله ﷺ أصبح اليوم عروساً ، وما أرى عنده من غداء ، فهلُم تلك العكّة فناولتها فعملت له حيساً من عجوة فى تور من فخار قدر ما يكفيه وصاحبته ، وقالت: اذهب به إليه فدخلت عليه وذلك قبل أن تنزل آية الحجاب، فقال :« ضعه » فوضعته بينه وبين الجدار . فقال لى:« ادع أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً» وذكر ناساً من أصحابه سماهم ، فجعلت أعجب من كثرة من أمرنى أن أدعوه وقلة

---

(١) الأحزاب / ٣٦ .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٨/ ١٠٣ .

الطعام ، إنما هو طعام يسير ، وكرهت أن أعصيه ، فدعوتهم فقال : « انظر من كان فى المسجد فادعه » فجعلت آتى الرجل وهو يصلى أو هو نائم فأقول : أجب رسول الله ﷺ فإنه أصبح اليوم عروساً ، حتى امتلأ البيت . فقال لى : « هل بقى فى المسجد أحد ؟» فقلت : لا . قال : « انظر من كان فى الطريق فادعهم » . قال : فدعوت حتى امتلأت الحجرة . فقال : هل بقى من أحد ؟ قلت : لا يا رسول الله . قال : « هلُمّ التور[1] » . فوضعته بين يديه ، فوضع أصابعه الثلاثة فيه وغمزه وقال للناس : « كلوا باسم الله » فجعلت أنظر إلى التمر يربو وإلى السمن كأنه عيون تنبع حتى أكل كل من فى البيت ، وكل من فى الحجرة ، وبقى فى التور قدر ما جئت به ، فوضعه عند زوجته ، ثم خرجت إلى أمى لأعجبها مما رأيت . فقالت : لا تعجب ، لو شاء الله أن يأكل منه أهل المدينة كلهم لأكلوا ، فقلت لأنس : كم تراهم بلغوا ؟ قال : أحداً وسبعين رجلاً ، وأنا أشك فى اثنين وسبعين)[2] .

وفى رواية لابن أبى حاتم :(فقلت : يا أبا عثمان كم كانوا ؟ فقال : كانوا زهاء ثلاثمائة)[3] .

وكانت دعوة رسول الله ﷺ هذا الجم الغفير مقصودة ، لأن الزواج لم يعلن فى مجتمع المدينة من خلال خطبة مسبقة أو حدث عام فلابد أن يشهد أكثر المؤمنين هذا الحدث العظيم الذى تم بلا خطوبة ولا مهر وبلا شهود ويكونوا هم الشهود فيه .

وكانت المدينة تستعد لحدث أكبر يرتبط بهذا الزواج الخالد وكان هذا الحدث كثيراً ما أقلق الوزير الثانى فى الأمة عمر رضي الله عنه بالنسبة لأزواج رسول الله ﷺ جميعاً.

لقد كان عمر يغار على نساء رسول الله ﷺ وتذكر عائشة ـ رضوان الله عليها ـ فتقول: كنت آكل مع النبى ﷺ حيسا فى قعب ـ فمر عمر فدعاه فأكل فأصابت أصبعه إصبعى فقال : جس أو أوه لو أطاع فيكن ما رأتكن عين [4] .

(وقد قال البخارى : حدثنا مسعود عن يحيى بن حميد عن أنس بن مالك قال: قال عمر بن الخطاب يا رسول الله : يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين

---

(١) التور : وعاء الفخار الذى وضع فيه الحيس .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٨ / ١٠٤ ، ١٠٥ ، وقد رواه سعيد بن منصور (ثقة مصنف) عن محمد بن عيسى العبدى (صدوق) عن ثابت البنانى (ثقة عابد) عن أنس رضي الله عنه .

(٣) تفسير ابن كثير ٥/ ٤٩٠ وهى رواية مسلم عن أنس ح٩٤ ، ج٣ ص١٠٥١ .

(٤) النسائى .

بالحجاب فأنزل الله آية الحجاب (١) وكان وقت نزولها فى صبحية عرس رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش التى تولى الله تعالى تزويجها بنفسه .يحدثنا أنس رضي الله عنه عن ذلك فيقول :

بُنى على النبى ﷺ بزينب بنت جحش بخبز ولحم فأرسلت على الطعام داعياً فيجىء قوم فيألكلون ويخرجون، ثم يجىء قوم فيأكلون ويخرجون فدعوت حتى ما أجد أحداً أدعو فقلت : يا نبى الله ،ما أجد أحداً أدعوه فقال : «فارفعوا طعامكم» وبقى ثلاثة رهط يتحدثون فى البيت فخرج النبى ﷺ فانطلق إلى حجرة عائشة فقال : « السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله » فقالت :وعليك السلام ورحمة الله ، كيف وجدت أهلك بارك الله لك فتقرى حجر نسائه كلهن يقول لهن كما يقول لعائشة ويقلن له كما قالت عائشة ثم رجع النبى ﷺ فإذا ثلاثة من رهط فى البيت يتحدثون ، وكان النبى ﷺ شديد الحياء ، فخرج منطلقا نحو حجرة عائشة فما أدرى أخبرته أو أخبر أن القوم قد خرجوا ، فخرج حتى إذا وضع رجله فى أسكفة الباب داخله وأخرى خارجه أرخى الستر بينى وبينه وأنزلت آية الحجاب . (٢) فأنزل الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا** ﴾(٣).

(وزاد الإسماعيلى عن طريق جعفر بن مهران عن عبد الوارث فيه قال : وزينب جالسة فى جانب البيت قال:وكانت امرأة قد أعطيت جمالاً وبقى فى البيت ثلاثة) (٤).

ونعود إلى رواية مسلم (قال: قلت لأنس : عدد كم كانوا ؟ قال: زهاء ثلاثمائة. وقال لى رسول الله ﷺ : « يا أنس هات التور » قال : فدخلوا حتى امتلأت الصفة والحجرة فقال رسول الله ﷺ :« ليتحلق عشرة عشرة وليأكل كل إنسان مما يليه » قال : فأكلوا حتى شبعوا فخرجت طائفة ودخلت طائفة حتى أكلوا كلهم فقال لى : « يا أنس

(١) فتح البارى للحافظ ابن حجر ح ٤٧٩٠ ج ٨ ص ٥٢٧ .

(٢) المصدر نفسه ج ٨ ص ٥٢٧ ح ٤٧٩٣ . (٣) الأحزاب / ٥٤ .

(٤) فتح البارى للحافظ ابن حجر ٨ / ٥٢٩ وقد وفق رحمه الله بين الأحاديث الصحيحة الواردة وخاصة بين (حيس) أم سلمة ، وشبع الخبز واللحم . واحتمال أن هذا كان جميعا فى الوليمة .

ارفع » قال : فرفعت فما أدرى حين وضعت كان أكثر أم حين رفعت قال : وجلس طوائف منهم يتحدثون فى بيت رسول الله ﷺ ورسول الله جالس وزوجته مولية وجهها إلى الحائط فثقلوا على رسول الله ﷺ فخرج رسول الله فسلم على نسائه ثم رجع فلما رأوا رسول الله ﷺ قد رجع ظنوا أنهم قد أثقلوا عليه . قال : فابتدروا الباب فخرجوا كلهم وجاء رسول الله ﷺ حتى أرخى الستر ودخل وأنا جالس فى الحجرة فلم يلبث إلا قليلا حتى خرج على وأنزلت هذه الآية فخرج رسول الله ﷺ وقرأهن على الناس ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ** ﴾ إلى آخر الآية [1]. قال الجعد : قال أنس بن مالك : أنا أحدث الناس عهداً بهذه الآيات وحجبن نساء النبى ﷺ)[2] .

ونعود إلى القلب المكلوم قلب عائشة ـ رضى الله عنها ـ وقد جاءها فى شهر واحد أثقل ضرتين على الإطلاق: أم سلمة بنت أبى أمية المخزومية ، وزينب بنت جحش الأسدية وابنة عمة النبى ﷺ فى احتفال سماوى بهذا الزواج وهى ابنة الثلاثة عشر ربيعاً من عمرها لا تقوى على هذه الهموم العضال ، وإن كانت قد تأدبت بالأدب النبوى العظيم فقد سلم عليها ـ عليه الصلاة والسلام ـ أول ما سلم فقالت ـ رضى الله عنها ـ وعليك السلام ورحمة الله ، كيف وجدت أهلك بارك الله لك . يقول الحافظ الذهبى ـ رحمة الله ـ : وفيها ـ أى السنة الرابعة ـ تزوج النبى ﷺ أم المؤمنين هند بنت أبى أمية . . . ثم تزوج بعدها بأيام يسيرة بنت عمته أم الحكم زينب بنت جحش بن رئاب الأسدى . . . وفيها نزلت آية الحجاب [3] ولم يمر على شوال الذى دخل رسول الله ﷺ بعائشة فيه إلا سنتان فإذا بشوال السنة الرابعة وذى القعدة محملان هاتين العظيمتين إلى البيت النبوى.

---

(١) الأحزاب / ٥٤ .

(٢) مسلم ح ٩٤ ج ٢ ص ١٠٥١ .

(٣) المغازى من تاريخ الإسلام للحافظ الذهبى ١/ ٢٥٥ ، ٢٥٦ .

تربية وجهاد
مع إطلالة السنة الخامسة

غزوة دومة الجندل :

(قيل: سميت بدومى بن إسماعيل - عليه السلام - لكونها كانت منزله ، ودَوْمة بالفتح موضع آخر. وهذه الغزوة كانت فى ربيع الأول . ورجع النبى ﷺ قبل أن يصل إليها ولم يلق كيداً.

وقال المدائنى: خرج رسول الله ﷺ فى المحرم يريد أكيدر دومة ، فهرب أكيدر وانصرف النبى ﷺ)(١) .

(قال ابن إسحاق :ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة فأقام بها أشهراً حتى مضى ذو الحجة ، وولى تلك الحجة المشركون وهى سنة أربع من مقدم رسول الله ﷺ المدينة ثم غزا رسول الله ﷺ دُومة الجندل .

قال ابن هشام: واستعمل على المدينة سباع بن عرفطة الغفارى.

قال ابن اسحاق: ثم رجع رسول الله ﷺ قبل أن يصل إليها، ولم يلق كيداً فأقام فى المدينة بقية سنته)(٢).

الغريب ألا نجد فى كتب السيرة الرئيسية تفصيلات عن هذه الغزوة التى تعتبر من أشق الغزوات التى تحرك بها - عليه الصلاة والسلام - نحو دومة الجندل، وذلك فى وسط وشمال الجزيرة العربية . وتكاد تكون من الحدود المتاخمة للشام ، والسلطة فيها لقيصر . فأكيدر دومة نصرانى يحكم دولة باسم قيصر . ولم يمض - عليه الصلاة والسلام - هذه المسافات الشاسعة فى الأرض بجيش لجب ، والعدو يحف به من كل جانب ، ودومة الجندل تبعد عن دمشق خمس ليالٍ بينما تبعد عن المدينة أكثر من عشر ليالٍ ، وهكذا يزداد التساؤل عن هذه الغزوة العجيبة ولا نجد إجابات تلقى الإضاءات المناسبة عليها إلا من خلال رواية الواقدى .

ويتفق الواقدى مع ابن إسحاق على تاريخها فيقول:

---

(١) المغازى من تاريخ الإسلام للحافظ الذهبى ١/ ٢٥٧ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٩٧ .

غزوة دومة الجندل فى ربيع الأول على رأس تسعة وأربعين شهراً .

ويحدثنا عن فترة الغياب الطويلة عن المدينة فيها فيقول:

خرج رسول الله ﷺ لخمس ليالٍ بقين من ربيع الأول ، وقدم لعشر بقين من ربيع الآخر ، وهذا يعنى: أنه غاب عن المدينة خمسًا وعشرين ليلة ، ولا غرابة فى ذلك . فبعد دومة الجندل الشاسع الضارب فى الصحراء يحتاج هذا الزمن الطويل للخروج والعودة.

ثم ينقل لنا الأسباب الموجبة للغزوة فيقول كما يروى عن شيوخه:

(أراد رسول الله ﷺ أن يدنو إلى أدنى الشام، وقيل له : إنها طرف من أفواه الشام، فلو دنوت منها كان ذلك مما يُفزع قيصر، وقد ذكر له أن بدومة الجندل جمعًا كثيرًا ، وأنهم يظلمون من مرَّ بهم من الضافطة . وكان بها سوق عظيم وتجار ، وضوى إليهم قوم من العرب كثير، وهم يريدون أن يدنوا من المدينة).

لقد كانت خطة الرسول القائد ﷺ ترمى إلى أهداف عديدة وراء هذه الغزوة، فهى غزوة ،وحرب استطلاعية تمسح الجزيرة العربية، وتتعرف على مراكز القوى فيها ، وهى حرب إعلامية تأتى على أعقاب بدر الموعد، وتستثمر انتصاراتها، فبعد وجود ذلك الجيش القوى فى بدر والذى أثبت أنه سيد أهل الموسم، وقلب الصفحة الإعلامية التى ربحتها قريش بعد أحد، أنه لم يبق من المسلمين أحد ، فتأتى هذه الغزوة لتعطى أبعاداً أضخم، وآمالاً أوسع للقوة النبوية المتوافرة فى الساحة العربية .

وهى حرب عسكرية تريد أن تصد هجومًا محتملاً على المسلمين حيث ضوى إليها قوم من العرب كثير يريدون أن يدنوا من المدينة، فندب رسول الله ﷺ الناس ، وهى حرب سياسية، تريد أن تجهض من تحركات القبائل المحتمل أن تتحرك بعد أنباء غزوة أحد لتقصد المدينة وتستبيحها.

وهى فوق هذا كله، وأهم من هذا كله، دورة تربوية رائعة وقاسية وشاملة على رأسها رسول الله ﷺ، وبين يديه ألف من أصحابه، فيتلقون فيها فى كل لحظة دروسًا فى الطاعة والانضباط، ودروسًا فى التدريب الجسمى والعسكرى والتحمل لمشاق الحياة وصعوباتها، وأحكامًا وفقهًا فى الحلال والحرام، وعمليات صهر وتذويب لقواعد الجيش الإسلامى فى بوتقة واحدة خارج إطار العشيرة، وخارج كيان القبيلة ؛حيث أخذت تفد إلى المدينة عناصر كثيرة من أبناء القبائل المجاورة، والتخلى عن الأطر القبلية وعصباتها

للانصهار فى بوتقة الأمة الواحدة التى تجعل الولاء لله ورسوله ، وفوق هذا كله تتيح الفرصة لجيل بدر الرائد أن يقوم بمهمة التربية للوافدين الجدد وتعليمهم وتثقيفهم، كما تتيح الفرصة لكشف ضعاف النفوس، ومن له صلة بمعسكر النفاق من خلال مراقبة تصرفاته وكلامه وسلوكه. إنها ليست ساعات محدودة أو أيامًا معدودة، بل هى دورة قرابة شهر، لا يمكن إلا أن تبرز فيها كل الطبائع وكل النوازع وكل المعارك، فيتلقاها ـ عليه الصلاة والسلام ـ ليصوغها برفق وتؤدة وحكمة على ضوء الإسلام، ويعلم الجيل الرائد فن القيادة، وعظمة السياسة ؛ لأنه سيكون كل فرد منه فيما بعد على رأس جيش فى صحارى الأرض وفيافيها ماضيا فى نشر الإسلام، وتقديمه واقعًا حيًا للناس قبل تقديمه فكرًا خالصًا لهم ؛ لهذه الأهداف مجتمعة كانت هذه الغزوة العظيمة، والتى نشهد بعض تفصيلاتها ينقلها لنا المؤرخ الواقدى الإمام فى التاريخ والتراجم :

(فندب رسول الله ﷺ الناس ، فخرج فى ألف من المسلمين ، فكان يسير بالليل ويكمن النهار، ومعه دليل له من بنى عذرة يقال له : مذكور ، هاد خرّيت، فخرج رسول الله ﷺ مفذاً للسير ونكّب عن طريقهم ، ولما دنا رسول الله ﷺ من دومة الجندل، وكان بينه وبينها يوم أو ليلة سير الراكب المعتِق قال له الدليل: يا رسول الله ، إن سوائمهم ترعى فأقم لى حتى أطّلع لك، قال رسول الله ﷺ: «نعم» ، فخرج العذرى طليعة حتى وجد آثار النعم والشاء وهم مغربون ثم رجع إلى النبى ﷺ فأخبره، وقد عرف مواضعهم، فسار النبى ﷺ حتى هجم على ماشيتهم ورعائهم، فأصاب رسول الله ﷺ من أصاب، وهرب من هرب فى كل وجه، وجاء الخبر أهل دومة الجندل فتفرقوا، ونزل رسول الله ﷺ بساحتهم، فلم يجد بها أحدًا، فأقام بها أيامًا ، وبث السرايا وفرقها حتى غابوا عنه يومًا ثم رجعوا إليه، ولم يصادفهم منهم أحدًا، وترجع السرية بالقطعة من الإبل، إلا أن محمد بن مسلمة أخذ رجلاً منهم ، فأتى به النبى ﷺ فسأله عن أصحابه فقال: هربوا أمس حيث سمعوا بأنك قد أخذت نعمهم، فعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام أيامًا فأسلم ، فرجع النبى ﷺ إلى المدينة ، وكان استعمل على المدينة سباع بن عرفطة الغفارى.

لقد كانت معركة صامتة، وتربية هادئة ، وكان الجيش مع قائده يقطع ما ينوف عن ألف ميل فى هذه الصحراء يتربى ويتثقف ويتدرب، ويمتحن ويقوَّم ليكون هذا استعدادًا لمعركتين قادمتين من أعنف معارك هذه المرحلة، وهى : غزوة بنى المصطلق ، وما تلاها من آثار إيجابية وسلبية ، ثم غزوة الخندق التى مثَّلت قمة التخطيط المعادى للإسلام، وكان الهُوى بعدها إلى المنحدر ، ولم تكن غزوة دومة الجندل إلا إعدادًا عسكريًا نفسيًا وتربويًا لهذه المواجهة .

ومن مخططات التربية كذلك أن يكون والى المدينة سباع بن عرفطة الغفارى فى تجربة جديدة من نوعها لأول مرة ، فهو ليس أوسيًا ولا خزرجيًا ولا قرشيا بل من غفار التى كانت تعتبر من سراق الحجيج عند العرب ، فلابد لهذا الجيل أن يتربى على الطاعة والانضباط للأمير أيا كان شأن هذا الأمير ، ولابد أن تذوب الفوارق الطبقية فى القبيلة والعشيرة ، ويخضع الأوس والخزرج والقرشيون لأمير من غفار ، ولاشك أن الكثير من المنافقين لا يزالون فى المدينة ، وقد يكون عبد الله بن أبى على رأسهم ، وهم أعجز من أن يشكّلوا استعصاء أو مواجهة للأمير الذى ولاه الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ والمؤمنون الموجودون قادرون على أن يكبحوا جماح هذا الاستعصاء ، ولولا ثقة الرسول ﷺ بكفاءة أميره وعبقريته وقدرته على الإدارة الحازمة ،ولولا ثقته بالجيل الذى رباه ؛ لما أقدم على هذه الإمارة ، إنه يربى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهو غائب عن المدينة فى تحويل أبناء العشائر والقبائل إلى أبناء الأمة الواحدة المسلمة التى تسمع وتطيع ، ولو كان عليها عبد حبشى كأن رأسه زبيبة ما أقام فيهم كتاب الله .

غزوة المريسيع
مدرســـة تربــويــة

قال ابن إسحاق: (فحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة وعبد الله بن أبى بكر ومحمد ابن يحيى بن حبان كل قد حدثنى بعض حديث بنى المصطلق قالوا:

بلغ رسول الله ﷺ أن بنى المصطلق يجمعون له، وقائدهم الحارث بن أبى ضرار أبو جويرية بنت الحارث زوج رسول الله ﷺ. فلما سمع رسول الله ﷺ بهم خرج إليهم، حتى لقيهم على ماء لهم يقال له : المريسيع من ناحية قُدَيد إلى الساحل، فتزاحف الناس واقتتلوا فهزم الله بنى المصطلق، وقتل من قتل منهم، ونفَّل رسول الله ﷺ أبناءهم ونساءهم وأموالهم فأفاءهم عليه) (١).

وعن سفيان بن عيينة قال: سمع عمرو جابر بن عبد الله يقول: كنا مع النبى ﷺ فى غزاة فكسع(٢) رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار. فقال الأنصارى : ياللأنصار! وقال المهاجرى : ياللمهاجرين! فقال رسول الله ﷺ : « ما بال دعوى الجاهلية؟ » قالوا: يا رسول الله ؛ كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار. فقال: « دعوها فإنها منتنة » فسمعها عبد الله بن أبى فقال: قد فعلوها ، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، قال عمر: دعنى أضرب عنق هذا المنافق فقال: « دعه ، لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه »(٣) .

وعن جابر قال: اقتتل غلامان؛ غلام من المهاجرين وغلام من الأنصار ، فنادى المهاجر أو المهاجرون: ياللمهاجرين ، ونادى الأنصارى ياللأنصار ، فخرج رسول الله ﷺ فقال: « ما هذا ؟ أدعوى أهل الجاهلية ؟! » قالوا: لا يا رسول الله ، إلا أن غلامين اقتتلا فكسع أحدهما الآخر. قال: « فلا بأس ، ولينصر الرجل أخاه ظالمًا أو مظلومًا، إن كان ظالمًا فلينهه فإنه له نصر ، وإن كان مظلومًا فلينصره »(٤) .

وعن زيد بن أرقم قال: كنت فى غزاة فسمعت عبد الله بن أبى يقول: لا تنفقوا

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٣ / ٤٠٢ .

(٢) كسع أحدهما الآخر : ضرب دبره ، وعجيزته بيد أو رجل أو سيف .

(٣) مسلم ٥ / ١٩٩٨(٦٣) .

(٤) المصدر نفسه ٥ / ١٩٩٨ (٦٢) .

على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله ، ولئن رجعنا من عنده ليخرجن الأعز منها الأذل ،فذكرت ذلك لعمى أو لعمر فذكره للنبى ﷺ، فدعانى فحدثته ، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عبد الله بن أبى وأصحابه فحلفوا ما قالوا ، فكذبنى رسول الله ﷺ وصدَّقه. فأصابنى هم لم يصبنى مثله قط ، فجلست فى البيت ،فقال لى عمى: ما أردت إلى أن كذَّبك رسول الله ﷺ ومقتك، فأنزل الله تعالى: ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ﴾(١) فبعث إلىَّ النبى ﷺ فقرأ فقال : « إن الله قد صدَّقك يا زيد » (٢) .

وفى رواية عنه قال: خرجنا مع النبى ﷺ فى سفر أصاب الناس فيه شدة فقال عبد الله بن أبى لأصحابه :لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله . وقال: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. فأتيت النبى ﷺ فأخبرته. فأرسل إلى عبد الله بن أبى فسأله فاجتهد يمينه ما فعل، قالوا: كذب زيد رسول الله ﷺ. فوقع فى نفسى مما قالوا شدة حتى أنزل الله ـ عز وجل ـ تصديقى فى: ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ ﴾ فدعاهم النبى ﷺ ليستغفر لهم فلوَّوا رؤوسهم ، وقوله : ﴿ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ﴾(٣) قال: كانوا رجالاً أجمل شىء (٤) .

وفى رواية ثالثة عن جابر ـ رضى الله عنهما: (....وكانت الأنصار أكثر من المهاجرين حين قدموا المدينة ثم إن المهاجرين كثروا بعد)(٥) .

يقول الحافظ ابن حجر فى تعقيبه على بعض هذه الروايات: (ووقع عند الطبرى من وجه آخر عن عمرو بن دينار عن جابر: أن رجلاً من المهاجرين كسع رجلاً من الأنصار برجله ، وذلك عند أهل اليمن شديد ،والرجل المهاجرى هو: مهبجاة بن قيس ـ ويقال ابن سعيد ـ الغفارى وكان مع عمر بن الخطاب يقود له فرسه ، والرجل الأنصارى هو : سنان بن وبرة الجهنى حليف الأنصار، وفى رواية عبد الرزاق عن معمر عن قتادة مرسلاً : أن الأنصارى كان حليفا لهم من جهينة، وأن المهاجرى كان من غفار، وسماهما ابن إسحاق فى المغازى عن شيوخه ، وأخرج ابن أبى حاتم من طريق عقيل عن الزهرى عن عروة بن الزبير وعمرو بن ثابت أنهما أخبراه أن رسول الله ﷺ غزا غزوة المريسيع وهى التى هدم فيها رسول الله ﷺ مناة الطاغية التى كانت بين قفا المشلل وبين البحر فاقتتل رجلان، فاستعلى المهاجرى على الأنصارى ، فقال حليف

(١) المنافقون / ١ .
(٢) فتح البارى شرح صحيح البخارى للحافظ ابن حجر ٨ ص ٦٤٤ ح (٤٩٠٠) .
(٣) المنافقون / ٨ .
(٤) فتح البارى شرح صحيح البخارى للحافظ ابن حجر ٨ص ٦٤٧/ح (٤٩٠٣) .
(٥) المصدر نفسه ح (٤٩٠٥) .

الأنصار: يا معشر الأنصار، فتداعوا إلى أن حُجز بينهم. فانكفأ كل منافق إلى عبد الله ابن أبى فقالوا : كنت تُرجى وتَدفع، فصرت لا تضُر ولا تنفع ، فقال: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. فذكر القصة بطولها، وهو مرسل جيد . . .وقوله: (فعلوها؟) هو استفهام بحذف الأداة . أى أفعلوها؟ أى الأثرة، أى .شركناهم فيما نحن فيه فأرادوا الاستبداد به علينا، وفى مرسل قتادة: فقال رجل منهم عظيم النفاق: ما مثلنا ومثلهم إلا كما قال القائل: (سمِّن كلبك يأكلك). وعند ابن إسحاق.. فقال عبد الله بن أبى: أو قد فعلوها؟ نافرونا وكاثرونا فى بلادنا ، والله ما مثلنا وجلابيب قريش هذه إلا كما قال القائل: (سمِّن كلبك يأكلك) . قوله: (فقام عمر فقال: يارسول الله ، دعنى أضرب عنقه) فى مرسل قتادة: مر معاذًا أن يضرب عنقه. وإنما قال ذلك ؛ لأن معاذًا لم يكن من قومه.قوله : « دعه ، لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه»:أى أتباعه ، وفى مرسل قتادة: « لا والله لا يتحدث الناس » زاد ابن إسحاق فقال: مر معاذ بن بشر بن وقش فليقتله. فقال:« لا. ولكن آذن بالرحيل »، فراح فى ساعة ما كان يرحل فيها. فلقيه أسيد بن حضير فسأله عن ذلك فأخبره. فقال: فأنت يارسول الله الأعز وهو الأذل، قال :وبلغ عبد الله بن عبد الله بن أبى ما كان من أمر أبيه فأتى النبى ﷺ فقال: بلغنى أنك تريد قتل أبى فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلاً فمرنى به فأنا أحمل إليك رأسه. فقال: « بل تُرفق به وتُحسن صحبته » . قال: فكان بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين ينكرون عليه، فقال النبى ﷺ لعمر: «كيف ترى؟» ووقع فى مرسل عكرمة عند الطبرى:أن عبد الله بن عبد الله بن أبى قال للنبى ﷺ: إن والدى يؤذى الله ورسوله، فذرنى حتى أقتله ، قال :« لا تقتل أباك ». قوله :ثم إن المهاجرين كثروا بعد هذا مما يؤيد تقدم القصة. . . والله أعلم)(١) .

قوله : (باب ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ﴾ الآية (٢). كذا لأبى ذر ، وساق غيره الآية إلى :﴿. . .يعملون ﴾ ذكر فيه حديث جابر الماضى. . . ولعله أشار بالترجمة إلى ما وقع فى آخر الحديث المذكور ، فإن الترمذى لما أخرجه عن ابن أبى عمر عن أبى سفيان بإسناد حديث الباب قال فى آخره وقال : غير عمرو بن دينار فقال له ابنه عبد الله بن عبد الله بن أبى: والله لا ينقلب أبى إلى المدينة حتى يقول : إنك أنت الذليل ورسول الله ﷺ العزيز. ففعل، وهذه الزيادة أخرجها ابن إسحاق فى المغازى عن شيوخه، وذكرها أيضًا الطبرى من طريق عكرمة)(٣) .

---

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى للحافظ ابن حجر ٨/ ٦٤٩ ، ٦٥٠ .

(٢) المنافقون / ٨.

(٣) فتح البارى شرح صحيح البخارى للحافظ ابن حجر ٨/ ٦٤٩ ، ٦٥٢ .

على آثار غزوة بدر الموعد، حيث كان المنافقون يراهنون على انتهاء الإسلام والمسلمين فيها وهم يقولون: محمد لا يفلت من هذا الجمع ، والمفاجأة الصاعقة التى أذهلتهم بعودة الجيش سالمًا غانمًا مظفرًا من هناك فكانوا كما وصفهم الله تعالى:

﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا . وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ .

وكان يمكن أن يشاركوا فى غزوة دومة الجندل، لكن بعد الشقة والمسافة الشاسعة أقعدتهم عن المشاركة ، وعاد الجيش ثانية بالأسلاب والغنائم وقد غزا جنود قيصر فى عقر دارهم ولم يمسسه سوء ، عاد حزب النفاق ليراجع موقفه، وخاصة بعد أن فقد أنصاره من بنى قينقاع وبنى النضير، وسمع بجمع بنى المصطلق من خزاعة ، وتحرك المسلمين لمواجهته، فسارعوا إلى المشاركة فى هذه الغزوة طمعًا فى الغنائم، ومحاولة لضرب الصف الإسلامى من الداخل ، أما المؤمنون: فهم مدعوون للجهاد ابتغاء مرضاة الله تعالى فقط : **﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾** .

ويجعل الله تعالى القتال فى سبيل الله تحرير للمستضعفين فى الأرض : **﴿ وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾** .

ويبقى فى النهاية سبيلان للجهاد: سبيل الله ، وسبيل الطاغوت : **﴿ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾** (١) .

قالوا: وخرج مع رسول الله ﷺ بشر كثير من المنافقين لم يخرجوا فى غزاة قط مثلها، ليس لديهم رغبة فى الجهاد إلا أن يصيبوا من عرض الدنيا ، وقرب عليهم السفر .

وحديثنا فى المريسيع يقدم ذروة مخططات حزب النفاق فى ضرب الصف الإسلامى ، ويبين كذلك دور التربية وعظمتها فى مواجهة هذه المخططات . هذا وإن مثلّت غزوة الخندق ذروة مخططات المشركين واليهود فى حرب الإسلام وأهله ، وابتدأ الانحدار من هذه الذروة فكذلك الأمر بالنسبة لحزب النفاق فى المريسيع ، ومتابعة

---

(١) النساء / ٧٢ ـ ٧٦ .

المخططات خطوة خطوة ،ومتابعة كيفية مواجهة هذه المخططات،وحربها لتعطينا نقاطًا علامة فى خط السير على عظمة المنهـج التربـوى الذى يمضى به ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى هذه الأمة الوسط، وأن هذا البناء لم يأت دفعة واحدة، ولم يأت بمعجزة خارقة إنما جاء من معالجة واقعية كان يمكن أن تودى بالأمة كلها لولا عبقرية المواجهة الخالدة لسيد ولد آدم ، وأن العدو الذى واجه الإسلام ليس عدواً ساذجًا ولا مغفلاً ولا سهلاً ، إنما مثل كذلك عبقرية نادرة فى قيادة الباطل.

ونعود بعد هذه الملاحظات إلى الوقوف مع كل خطوة :

١ ـ وكما كانت غزوة دومة الجندل دورة تدريبية صامتة استمرت قرابة شهر، وكان الصف الإسلامى الخالص هو الذى يتلقى هذه التربية جاءت غزوة المريسيع سهلة المنال بالنسبة لهذا الصف الذى مضى بعيداً ، وأمعن فى الصحراء قبل ثلاثة أشهر أو أقل.

(فى سنة خمس خرج رسول الله ﷺ يوم الإثنين لليلتين خلتا من شعبان ، وقدم المدينة لهلال رمضان وغاب شهراً إلا ليلتين) .

ويحدثنا الواقدى عن شيوخه عن خطوات السير الأولى فيقول:

(إن بنى المصطلق من خزاعة كانوا ينزلون ناحية الفُرع وهم حلفاء فى بنى مدلج ، وكان رأسهم وسيدهم الحارث بن أبى ضرار ، وكان قد سار فى قومه ومن قدر عليه من العرب فدعاهم إلى حرب رسول الله ﷺ وجعلت الركبان تقدم من ناحيتهم فيخبرون بمسيرهم) ولأن خزاعة بشكل عام عيبة نصح لرسول الله ﷺ مسلمهم ومشركهم ، فقد كان هذا التجمع خروجًا عن المألوف فى فرع من فروع خزاعة. فأراد ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يتثبت من الأمر ويتأكد من صحته (فبعث بريدة بن الحصيب الأسلمى يعلم علم ذلك ، واستأذن النبى ﷺ أن يقول فأذن له. فخرج حتى ورد عليهم ماءهم فوجد قوما مغرورين قد تألبوا وجمعوا الجموع. فقالوا: من الرجل؟ فقال: رجل منكم. قدمت لما بلغنى من جمعكم لهذا الرجل فأسير فى قومى ومن أطاعنى فنكون يداً واحدة حتى نستأصله قال الحارث بن أبى ضرار: فنحن على ذلك فعجِّل علينا قال بريدة: أركب الآن فآتيكم بجمع كثيف من قومى ومن أطاعنى فسروا بذلك منه ورجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره خبر القوم.

٢ ـ والجيش الإسلامى اليوم غيره بالأمس. فخيالته اليوم ثلاثون فرسًا ، وعدده ينوف عن الألف.

(فندب رسول الله ﷺ الناس وأخبرهم خبر عدوهم، فأسرع الناس للخروج

وقادوا الخيول وهم ثلاثون فرسًا في المهاجرين منها عشرة وفي الأنصار عشرون. ولرسول الله ﷺ فرسان ، وكان عليٌّ ـ عليه السلام ـ فارسًا، وأبو بكر، وعمر، وعثمان، والزبير ، وعبد الرحمن بن عوف ، وطلحة بن عبيد الله، والمقداد بن عمرو، وفي الأنصار : سعد بن معاذ، وأسيد بن حضير ، وأبو عيسى بن جبر ، وقتادة بن النعمان ، وعويم بن ساعدة ، ومعن بن عدى، وسعد بن زيد الأشهلى ، والحارث بن حَزْمَةَ ، ومعاذ بن جبل، وأبو قتادة، وأبى بن كعب، والحباب بن المنذر، وزياد بن لبيد، وفروة ابن عمرو ، ومعاذ بن رافعة بن رافع) .

٣ـ وتبقى الدعوة إلى الله تعالى هى الهدف الرئيسى الذى يسبق القتال :

أ ـ (فأتى يومئذ برجل من عبد القيس، فسلم على رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ : « أين أهلك؟ » . قال: بالروحاء. قال: « أين تريد ؟» قال: إياك جئت لأومن بك وأشهد أن ما جئت به هو الحق وأقاتل معك عدوك ، قال له رسول الله ﷺ : « الحمد لله الذى هداك للإسلام » . قال : يا رسول الله: أى الأعمال أحب إلى الله؟ قال: « الصلاة فى أول وقتها » . قال : فكان الرجل بعد ذلك يصلى حين تزيغ الشمس ، وحين يدخل وقت العصر، وحين تغرب الشمس لا يؤخر الصلاة إلى الوقت الآخر .

ب ـ وهذا وافد آخر لعله هو الذى دفع القيسى للإسلام . هذا الوافد هو: مسعود ابن هنيدة قال: لقيت رسول الله ﷺ ببقعاء فقال : « أين تريد يا مسعود؟» قال: قلت: جئت لأن أسلم عليك وقد أعتقنى أبو تميم . قال : « بارك الله عليك أين تركت أهلك؟ » . قال : تركتهم بموضع يعرف بالخذوات والناس صالحون، وقد رغب الناس فى الإسلام وكَثر حولنا. قال رسول الله ﷺ: « فلله الحمد الذى هداهم » ، ثم قال مسعود: يا رسول الله ، قد رأيتنى أمس ولقيت رجلاً من عبد القيس فدعوته إلى الإسلام فرغَّبته فيه فأسلم. فقال رسول الله ﷺ: « لإسلامه على يديك كان خيرًا لك مما طلعت عليه الشمس أو غربت » ثم قال: « كن معنا حتى نلقى عدونا وإنى أرجو أن ينفلنا الله أموالهم » . قال: فسرت مع رسول الله ﷺ حتى غنَّمه الله أموالهم وذراريهم.

جـ ـ ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى المريسيع وهو الماء فنزله ، وضرب لرسول الله ﷺ قبة من أدم ومعه من نسائه عائشة وأم سلمة ، وقد اجتمعوا على الماء، وأعدوا وتهيؤوا للقتال . فصفَّ رسول الله ﷺ أصحابه ، ودفع راية المهاجرين إلى أبى بكر رضي الله عنه وراية الأنصار إلى سعد بن عبادة رضي الله عنه ثم أمر رسول الله ﷺ عمر بن

الخطاب رضي الله عنه فنادى فى الناس : قولوا : لا إله إلا الله تمنعوا بها أنفسكم وأموالكم . ففعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأبوا .

ولابد أن يتربى هذا الجيل كله على أن الدخول فى الإسلام هو الهدف، وليس قتل العدو هو الهدف ، وأن النصر الحقيقى هو فى امتداد هذا الدين فى كل حضر ومدر وتغلغله فى الآفاق أعظم بكثير من قتل العدو وإبادته.

٤ـ ولكن هذا لا يعنى الغفلة عن تحركات العدو. فاليقظة والوعى ومعرفة العدو . تختصر الزمن وتقلل التضحيات فإن كان مسعود رضي الله عنه لقى رسول الله ﷺ ببقعاء فأسلم وعزَّز خط الدعوة ، فهذا آخر يجده المسلمون ببقعاء ويقتل، فيعزز خط الجهاد والالتحام مع العدو .

قال الواقدى: فلما نزل ببقعاء أصاب عينًا للمشركين فقالوا له: ما وراءك؟ أين الناس؟ قال: لا علم لى بهم . . . فقال عمر بن الخطاب: لتصدُقن أو لأضربن عنقك. قال: فأنا رجل من بنى المصطلق ، تركت الحارث بن ضرار قد جمع لكم الجموع وتجلب إليه ناس كثير ، وبعثنى الآن لآتيه بخبركم، وهل تحركتم من المدينة. فأتى عمر بذلك رسول الله ﷺ فأخبره الخبر فدعاه إلى الإسلام وعرضه عليه فأبى ، وقال: لست بمتبع دينكم حتى أرى ما يصنع قومى إن دخلوا فى دينكم كنت كأحدهم، وإن ثبتوا على دينهم فأنا رجل منهم. فقال عمر: يا رسول الله ، أضربُ عنقه فقدَّمه رسول الله ﷺ فضرب عنقه . فذهب الخبر إلى بنى المصطلق. فكانت جويرية بنت الحارث تقول بعد أن أسلمت: جاءنا خبره ومقتله ومسير رسول الله ﷺ قبل أن يقدم علينا النبى ﷺ فسىء أبى ومن معه وخافوا خوفًا شديدًا ، وتفرَّق من كان قد اجتمع إليهم من أفناء العرب ، فما بقى معهم أحد سواهم .

وبعد هذا الرعب الذى نزل ببنى المصطلق تحدثنا جويرية ـ رضى الله عنها ـ بالرعب الثانى:

أتانا رسول الله ﷺ ونحن على المريسيع فأسمع أبى يقول: أتانا ما لا قبل لنا به قالت: فكنت أرى من الناس والخيل ما لا أصف من الكثرة، فلما أسلمت، وتزوجنى رسول الله ﷺ ورجعنا، جعلت أنظر إلى المسلمين فليسوا كما كنت أرى. فعلمت أنه رعب من الله تعالى يلقيه فى قلوب المشركين فكان رجل منهم قد أسلم وحسن إسلامه يقول: لقد كنا نرى رجالاً بيضًا على خيل بلق ما كنا نراهم قبل ولا بعد.

٥ـ ثم كانت المعركة :

(فكان أول من رمى رجل منهم بسهم فرمى المسلمون ساعة بالنبل، ثم إن رسول

الله ﷺ أمر أصحابه أن يحملوا ، فحملوا حملة رجل واحد فما أفلت منهم إنسان، وقُتِل عشرة منهم وأسر سائرهم، وسبى رسول الله ﷺ الرجال والنساء والذرية وغُنمت النعم والشاء، وما قُتِل أحد من المسلمين إلا رجل واحد. وكان أبو قتادة يحدث قال: حمل لواء المشركين يومئذ صفوان ذو الشقر. فلم تكن لى بأهبة حتى شددت عليه وكان الفتح ، وكان شعارهم: يا منصور أمِت أمِت)(١) .

(وروى الواقدى عن أبى بكر بن عبد الله بن أبى جهم قال: أمر رسول الله ﷺ بالأسرى فكُتِفوا وجُعلوا ناحية ،واستعمل عليهم بُريدة بن الحُصيب الأسلمى، وأمر بما وُجد فى رحالهم من رِثَّة المتاع، والسلاح فجمع وعُمد إلى النعم والشاء فسيق ، واستعمل عليهم شُقران مولاه ، وجمع الذرية ناحية واستعمل على المَقْسم - مقسم الخمس - محمية بن جزء الزبيدى قالوا : فاقتُسم السبى وفُرّق فصار فى أيدى الرجال ، وقُسّمت الرِّثة وقُسِّم النعمَ والشاء وعُدِلت الجزور بعشر من الغنم ، وبيت الرِثَّة فيمن يريد وأسْهِم للفرس سهم ولصاحبه سهم، وللراجل سهم، وكانت الإبل ألفى بعير، وخمسة آلاف شاة، وكان السبى مائتى أهل بيت فصارت جويرية بنت الحارث فى سهم ثابت بن قيس وابن عمٍ له، فكاتبها على تسع أواق ذهب)(٢) .

٦- لقد ضاهأت غزوة المريسيع غزوة بدر بانتصاراتها العظيمة على العدو الخارجى ولقى الحارث بن أبى ضرار وقومه المغترون بقوتهم ما لا قِبَل لهم به ، ورأوا رجالاً بيضًا على خيل بلق لم يروهم من قبل ولا من بعد وما هى إلا ساعة،وأصبح القوم كلهم سبايا بيد المسلمين ، وأغنم الله تعالى المسلمين نعمهم وشاءهم . هذا الانتصار العسكرى، أما الانتصار العقيدى فقد كان أعظم من هذا بكثير ، وتضاءل الانتصار العسكرى كثيرًا أمامه .

قال ابن إسحاق:(وحدثنى محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير عن عائشة قالت: لما قسم رسول الله ﷺ سبايا بنى المصطلق، وقعت جويرية بنت الحارث فى السهم لثابت بن قيس بن الشماس أو لابن عمٍ له فكاتبته على نفسها، وكانت امرأة حلوة مُلاَّحة لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه. فأتت رسول الله ﷺ تستعينه فى كتابتها.

قالت عائشة: فوالله ما هو إلا أن رأيتها على باب حجرتى فكرهتها وعَرَفت أن سيرى رسول الله ﷺ منها ما رأيت. فدَخَلتْ عليه، فقالت: يا رسول الله ،أنا جويرية بنت الحارث بن أبى ضرار سيِّد قومه، وقد أصابنى من البلاء ما لم يخف عليك فوقعت

(١) المغازى للواقدى ١ / ٤٠٧ .

(٢) المصدر السابق ١ / ٤١٠ .

فى السهم لثابت بن قيس بن الشماس أو لابن عم له، فكاتبته على نفسى فجئتك أستعينك على كتابتى . قال : « فهل لك فى خير من ذلك؟» قالت: وما هو يا رسول الله؟ قال: «أقضى عنك كتابتك وأتزوجك» قالت : نعم يا رسول الله ، قال: « قد فعلت » قالت: وخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله ﷺ قد تزوج جويرية ابنة الحارث ابن أبى ضرار ، فقال الناس: أصهار رسول الله ﷺ وأرسلوا ما بأيديهم ، قالت: فلقد أعتق بتزويجه إياها مائة أهل بيت من بنى المصطلق فما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها بركة منها) (١) .

قال ابن هشام :(ويقال: لما انصرف رسول الله ﷺ من غزوة بنى المصطلق ومعه جويرية بنت الحارث وكان بذات الجيش دفع جويرية إلى رجل من الأنصار وديعة، وأمره بالاحتفاظ بها ، وقدم رسول الله ﷺ المدينة، فأقبل أبوها الحارث بن أبى ضرار بفداء ابنته ، فلما كان بالعقيق نظر إلى الإبل التى جاء بها إلى الفداء فرغب فى بعيرين منها فغيَّبهما فى شعب من شعاب العقيق ثم أتى إلى النبى ﷺ ، وقال له: يا محمد أصبتم ابنتى، وهذا فداؤها. فقال رسول الله ﷺ :« فأين البعيران اللذان غيبتهما بالعقيق فى شعب كذا وكذا؟ » فقال الحارث: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك محمد رسول الله، فوالله ما اطَّلع على ذلك أحد إلا الله ! فأسلم الحارث وأسلم معه ابنان له وناس من قومه، وأرسل إلى البعيرين فجاء بهما فدفع الإبل إلى النبى ﷺ ودُفعت إليه ابنته جويرية فأسلمت وحسُن إسلامها فخطبها رسول الله إلى أبيها فزوجه إياها)(٢) .

لقد انتقلت جويرية أمًّا للمؤمنين فى الأرض بعد أن كانت إحدى السبايا الإماء . ولا أروع من أن ينقل لنا حديثها ضرتها عائشة - رضى الله عنها - التى لم تخف مشاعرها وغيظها من رؤيتها لجمالها الفائق ،وأن رسول الله ﷺ سيرى منها مثل ما رأت وبذلك يدخل وافد جديد ثالث ثقيل إضافة إلى أم سلمة وزينب بنت جحش - رضى الله عنهما - لكن هذا لم يمنع أن ترتفع فوق مشاعرها التى صرَّحت بها (فكرهتها) لم يمنعها ذلك من أن تتحدث عن أعظم مآثرها ، فهى أعظم امرأة بركة فى قومها فيما نما إلى علم عائشة أم المؤمنين ، وهى التى تحدثنا أن المسلمين قد أعتقوا مائة أهل بيت بهذا الزواج ، فما يمكن للمسلمين أن يأسروا أصهار رسول الله ﷺ ،وقد أدَّت هذه العملية

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام. وقال فيه المحقق:«الحديث حسن فقد صرح ابن إسحاق بالتحديث ٣/٤٠٨ » .
(٢) المصدر نفسه ٣ / ٤١٠ ، وقد رواه البيهقى فى الدلائل عن موسى بن عُقبة ،والأول أصح من الثانى.

فى تحريرهم لهذه القربى ، والمصاهرة أدَّت بهم أن ينضموا إلى الصف الإسلامى جنودًا فيه بعد أن كانوا عدوًا لدودًا حاقدًا يود أن يثأر وينتقم.

ولله در الصدِّيقة بنت الصديق التى قدمت لنا هذه المأثرة العظيمة الخالدة لضرتها التى كانت سببًا فى إعتاق قومها وإسلامهم، وإن كنا ليس بين يدينا سببًا مباشرًا لهذا الإسلام إلا الرواية الثامنة التى تحدثت عن سبب إسلام الحارث وابنيه وقومه.

وتحدثنا جويرية ـ رضى الله عنها ـ عن الأثر النفسى فى هذا الإعتاق لها ولقومها فتقول:

(رأيت قبل قدوم النبى ﷺ بثلاث ليالٍ كأن القمر يسير من يثرب حتى وقع فى حجرى فكرهت أن أخبر بها أحدًا من الناس، حتى قدم رسول الله ﷺ فلما سُبينا رجوتُ الرؤيا، فلما أعتقنى وتزوَّجنى ، والله ما كلَّمته فى قومى حتى كان المسلمون هم الذين أرسلوهم وما شعرت إلا بجارية من بنات عمى تخبرنى الخبر . . . .)(١) .

إنها ظاهرة جديدة تبرز لأول مرة فى المواجهة بين المسلمين وخصومهم أن ينضم الخصوم جميعًا إلى الإسلام بعظمة السلوك النبوى، وعبقرية فن التعامل معهم، ليكون هذا خطاً من خطوط المنهج النبوى فى التربية.

٧ـ ويطالعنا فى هذه الغزوة كذلك خط جديد من خطوط التربية عانى منه الجيش الإسلامى كله فى أطول غياب عن المدينة الذى امتد قرابة شهرٍ كامل.

فعن ابن محيريز سمع أبا سعيد يقول: غزونا مع رسول الله ﷺ بنى المصطلق فسبينا كرائم العرب، وطالت علينا العُزبة، ورغبنا فى الفداء، فأردنا أن نستمتع ونعزل فسألنا رسول الله ﷺ فقال:

« لا عليكم ألا تفعلوا ما كتب الله خَلْقَ نَسَمةٍ هِى كائنة إلى يوم القيامة إلا ستكون » .متفق عليه عن قتيبة عن إسماعيل(٢) .

فبين يدى المسلمين الفاتحين خير كرائم العرب سبايا،وهذا يعنى:أن فداءهن سيكون باهظًا ،وهم فى حاجة ماسة إلى المال لكن العزوبة الطويلة التى عانوا منها تدفعهم إلى الاستمتاع بالسبايا ولو لم يعزلوا فقد فاتهم الفداء ، لأنها تصبح أم ولدٍ له لا يجوز بيعها وولدها يعتقها ، فأذن لهم رسول الله ﷺ بالاستمتاع بهؤلاء السبايا والعزل خارج

(١) المغازى للواقدى ١/ ٤١٢ .

(٢) المغازى من تاريخ الإسلام للحافظ الذهبى ١/ ٢٦٠، ٢٦١ ، وورد فى صحيح البخارى ٥/ ٥٤ كتاب المغازى، وكتاب النكاح ، وفى صحيح مسلم كتاب النكاح باب حكم العزل ٣/ ١٠٦١ (١٤٣٨) .

أرحامهن، وكان هذا الإذن تصحيحًا عقديًا فى نفوسهم، أن الخالق والبارئ سبحانه إذا قدَّر خلق نسمة فسيعجز المرء عن العزل. ولئن تحول هذه الرغبة فى العزل دونه خاصة وأن اليهود كانوا يجعلون الأسباب هى التى تخلق، ولابد من تصحيح هذه العقيدة فى الصف الإسلامى كما يحدثنا أبو سعيد الخدرى رضي الله عنه فيقول:

(قال رجل من اليهود: وخرجت بجارية لى أبيعها فى السوق، فقال لى: يا أبا سعيد! لعلك تريد بيعها ، وفى بطنها منك سخلة! قال: فقلت: كلا إنى كنت أعزل عنها. فقال: تلك الموؤدة الصغرى. قال: فجئت رسول الله ﷺ فأخبرته بذلك. فقال: « كذبت اليهود! كذبت اليهود! »)(١) .

وفى رواية أحمد: «كذبت يهود ،إذا أراد الله أن يخلقه لم تستطع أن تردّه»(٢) .

ونشير بعدها إلى أننا أمام بشر حُبست طاقتهم الجنسية فهم مثلنا فهم يبحثون عن تفريغ هذه الطاقة فى الحلال، ولسنا أمام ملائكة ولم يتمكنوا من الصبر حتى يعودوا إلى بيوتهم وأزواجهم ، وهم بشر كذلك فهم يرغبون فى الفداء فجهد خمس سنوات من الضنك والجهاد ، لا يمنعهم أن يحرصوا على إزالة هذه المعاناة وتحسين وضعهم المادى ؛ ليكون عونًا لهم على متابعة الطريق وإمام المربين صلوات الله عليه ينطلق بهم من بشريتهم هذه، ويلبى عندهم هذه الرغبات بتوجيه الله تعالى وتسديده . وأى إغفال لهذه الطاقات الحبيسة فى المجتمع سيودى بالمجتمع إلى الضياع والانحراف والتفلت ، والتعامل مع واقع النفس البشرية هو خط أصيل وعميق من خطوط المنهج النبوى الإسلامى فى التربية.

٨ ـ وها نحن ندلف إلى عرض الصفحة المقابلة بعد أن عرضنا فى الفقرات السابقة الجوانب المشرقة فى الغزوة وآثارها الإيجابية. نجدنا الآن مساقين. . إلى عرض أكبر محنة تعرَّض لها الصف الداخلى من قبل العدوِّ الداخلى، حزب النفاق ورأسه المخطط له عبد الله بن أبى. وبمقدار ما رأينا عظمة الانتصار على العدو الخارجى بمقدار ما سنعرض ضخامة المحنة داخل البنيان الداخلى من العدو الداخلى المنبث فى الصف الإسلامى، ونعرض ابتداء صفحة فردية لننتقل بعدها إلى عرض الصفحة الجماعية:

(وكان هاشم بن صبابة قد خرج فى طلب العدو فرجع فى ريح شديدة وعجاج، فتلقى رجلاً من رهط عبادة بن الصامت يقال له : أوس فظنَّ أنه من المشركين فحمل عليه فقتله، فعلم بعد أنه مسلم فأمر رسول الله ﷺ أن تُخرج ديته)(٣) .

---

(١) المغازى للواقدى ١/ ٤١٣ .
(٢) مسند أحمد ٣/ ٥٣ .
(٣) المغازى للواقدى ١/ ٤٠٨ .

وقدِم مقيس بن صُبابة مسلماً فيما يظهر فقال: يا رسول الله جئتك مسلمًا، وجئتك أطلب دية أخى قُتل خطأ ، فأمر له رسول الله ﷺ بدية أخيه هشام بن صبابة؛ فأقام عند رسول الله ﷺ غير كثير، ثم عدا إلى قاتل أخيه فقتله ، ثم خرج إلى مكة مرتداً فقال فى شعر يقوله:

شفى النفس أن قد مات بالقاع مسنداً ... تضرِّج ثوبيه دماء الأخادع[1]
وكانت هموم النفس من قبل قتله ... تلم فتحمينى[2] وطاء المضاجع
حللت به وترى[3] وأدركت ثؤرتى[4] ... وكنت إلى الأوثان أول راجع
ثأرت به فهراً وحمَّلْتُ عَقْلَه[5] ... سراة بنى النجار[6] أرباب فارع[7][8]

إنها ظاهرة خطيرة أن يتظاهر بالإسلام رجل ثم ينفض بعدها من الحلف، وبعد أن أخذ دية أخيه فيقتل قاتل أخيه خطأ، ويعود إلى مكة مرتداً يتباهى بذلك، (وكنت إلى الأوثان أول راجع) وبعد وصوله إلى مكة. فقد انتهت سلطة رسول الله ﷺ عليه، ولم يملك ـ عليه الصلاة والسلام ـ أكثر من إهدار دمه، ولا شك أن قريشًا تحتفل كثيراً بهذا الإنجاز، وتفرح به، وتود أن تنشر هذه الظاهرة ظاهرة التظاهر بالإسلام، وقتل المسلمين والردة والهرب إلى مكة ، ويعطى الأمر انطباعًا شيئا فى الصف الإسلامى، وقد سبقه مرتداً ذلك الأنصارى المنافق الذى افتضحت سرقته، وقال الله تعالى فيه بعد أن فرَّ مرتدًا إلى مكة:

﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾[9] .

لكن الطبيعة العربية عمومًا تأبى هذا الخلق ، ومن أجل ذلك لم تأخذ هذه الحادثة الفردية مستوى الظاهرة الجماعية العامة ، إنما كل الذى تم حادثة كل عام تقريبًا . ومع هذا فلم تغفر لهم تلك ، وحين حُقنت دماء مكة كلها بما فيها أعدى العدو، ومجرمى الحرب، لم تغفر لهؤلاء المرتدين هذه الزلة، فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ كما روى مصعب بن سعد عن أبيه (لما كان يوم فتح مكة أمَّن رسول الله ﷺ الناس إلا أربعة نفر وامرأتين وقال: « اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة، عكرمة بن أبى

(١) الأخادع: عروق فى القفا ، وإنما هما أخدعان.
(٢) تحمينى : تمنعنى.
(٣) الوتر: طلب الثأر.
(٤) ثؤرتى: ثارى.
(٥) العقل: الدية.
(٦) سراة بنى النجار: خيارهم.
(٧) فارع: اسم حصن لهم.
(٨) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٤٠٦ .
(٩) النساء : ١١٥ .

جهل، وعبد الله بن خطل، ومقيس بن صبابة، وعبد الله بن سعد بن أبى سرح » . فأما ابن خطل فأدرك وهو متعلق بالأستار فاستبق إليه سعيد بن حويرث ،وعمار بن ياسرفسبق سعيد عمَاراً فقتله ، وأما مقيس فقتلوه فى السوق، وأما عكرمة فركب البحر، وذكر قصته ثم أسلم)(١).

وفى رواية: فأمر رسول الله ﷺ بقتله أى : مقيس فقتله رجل من قومه يقال له: نميلة بن عبد الله بين الصفا والمروة.

٩ـ ذلك الصدام البسيط الذى يقع بين متنازعين ـ ويمكن أن ينتهى بساعته ـ كما حدثنا عنه جابر رضي الله عنه كما فى رواية مسلم : (اقتتل غلامان غلام من المهاجرين وغلام من الأنصار فنادى المهاجر : ياللمهاجرين ، ونادى الأنصارى : ياللأنصار فخرج رسول الله ﷺ فقال: « ما هذا؟ دعوى أهل الجاهلية؟ » قالوا: لا، يا رسول الله ، إلا أن غلامين اقتتلا فكسع أحدهما الآخر قال: « فلا بأس لينصر الرجل أخاه ظالمًا أو مظلومًا إن كان ظالماً فلينهه فإنه له نصر، وإن كان مظلومًا فلينصره») .

وهكذا أطلق ـ عليه الصلاة والسلام ـ فهمًا جديدًا للنصرة وهو يريد أن يبنى أمة تنطلق من الحق لا من الهوى، ويريد أن يجتث جذور العصبية العمياء على الباطل والتى صورها المثل العربى الجاهلى أبدع تصوير، فقال: انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا.

وصحَّح عليه الصلاة والسلام هذا الفهم الموغل فى الانحراف، واعتبر النصر الحقيقى للظالم هو فى كفه عن ظلمه، وليس فى عونه على ظلمه، وبذلك تبطل دعوى الجاهلية.

أطلق ـ عليه الصلاة والسلام ـ كلمته الخالدة فى هذا الجيل الذى رباه وكانت كافية تمامًا فى عملية البناء، وضمن المستوى الذى وصل له الصف المسلم من التربية ، وكان بإمكان هذه الكلمة أن تنهى المشكلة وتغلق الخلاف، وتلوم الظالم أو تعاقبه من قيادته نفسها من المهاجرين أو الأنصار ، وقبل أن نمضى لابد أن نشير إلى هذا الخط العظيم الذى خطَّه عليه الصلاة والسلام فى التربية لاستئصال نوازع العصبية ، وذلك بوقوف المسلمين جميعًا جبهة واحدة فى وجه الظالم، يكفونه عن ظلمه، وأول من يواجهه ويكفه عشيرته الأدنون، وقيادة عشيرته ، ضمن إطار المصالحة ومسح جراح القلوب.

---

(١) المغازى من تاريخ الإسلام للحافظ الذهبى ، وذكره عن أسباط عن السدى عن مصعب بن سعد عن أبيه ، وجميع رجاله ثقات إلا السدى فهو ضعيف ، ولكن له طرقًا ترفعه إلى مرتبة الحسن كما قال المحقق فيه : « فى السيرة النبوية لابن هشام ٤/ ٧٥ ».

١٠ـ غير أن الذين انضموا للصف لأول مرة بعد أحد، وبعد أقل من عام قدموا بمهمة خطيرة وهى ضرب الصف من الداخل، وقد بقوا بعيدين حتى أحاط بهم المسلمون من كل جانب وفتتوا تجمعهم الذى بلغ ثلث الجيش ، وأصبح ظاهر الأمر أن الصف الإسلامى غفر زلتهم ، وعاد ابن أبى فأخذ وضعه الطبيعى بعد جريمته تلك يوم أحد، ولم يُظهر على الساحة إلا الولاء للإسلام وأهله خاصة بعد أن فقد حلفاءه، وفقد أعز نصيرين له هما :بنو قينقاع ، وبنو النضير ، أما ما يكنه فى ذات نفسه فهو فى الدهاليز المظلمة،وفى المجموعات الخاصة التى تبته كرهها للإسلام،وقد بدأت مؤامراتها فى تهييجه لاستغلال هذه الحادثة البسيطة من الخلاف بين المهاجرى والأنصارى .

وقد استغلت المشهد الدرامى من الإساءة كما فى الرواية الأخرى التى رواها الحافظ الذهبى فى مغازيه عن زيد بن أرقم قال: (غزونا مع رسول الله ﷺ وكان معنا ناس من الأعراب فكنا نبتدر الماء ، وكانت الأعراب يسبقوننا فيسبق الأعرابى أصحابه فيملأ الحوض، ويجعل حوله حجارة ويجعل النطع حتى يجىء أصحابه،فأتى الأنصارى فأرخى زمام ناقته لتشرب فمنعه فانتزع حجراً ففاض الماء، فرفع الأعرابى خشبة فضرب بها رأس الأنصارى ، فشجَّه فأتى عبد الله بن أبى فأخبره فغضب. .)[(١)] .

(وفى رواية عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال: فانكفأ كل منافق إلى عبد الله ابن أبى فقالوا: كنت تُرجى وتدفع فصِرت لا تضر ولا تنفع. .) .

ونلاحظ من هاتين الروايتين الصحيحتين ما يلى:

أ ـ ظاهرة انضمام الأعراب الذين حول المدينة إلى الإسلام وتكثيرهم سواد المهاجرين ،وأنهم لم يتلقوا التربية الكافية بعد فهم يسابقون على الماء وبحجزوه ، ولعل بعضهم أسلم حديثًا بعد انتصارات المسلمين الأخيرة وبعد غزوة بدر الموعد، ولا يزالون يتصرفون بالطريقة الجاهلية بالاستئثار بالماء لقومهم وعشائرهم دون الآخرين ولم تتح بعد لهذه الأعداد التربية الكافية.

ب ـ إن الأنصارى الذى اصطدم مع الأعرابى المهاجر ـ حسب رواية الذهبى ـ هو أقرب إلى معسكر النفاق منه إلى المعسكر الإسلامى ، والذى يدفعنا لهذا المعنى هو: أنه عندما شج رأسه مضى إلى عبد الله بن أبى يستنجده.

جـ ـ وكأن العملية مبنية ومصطنعة فى إثارة هذه المواجهة مع الأعرابى ليحولوها إلى معركة مصطنعة بين المهاجرين والأنصار ؛ لأن لجوء الأنصارى إليه أعقبه انكفاء

---

(١) المغازى من تاريخ الإسلام للحافظ الذهبى ١/ ٢٦٥ وقد أوردها بسند رجاله ثقات .

المنافقين إليه ليعطوه المبرر فى تأجيج نار العداوة بين الفريقين.

١١- ولا بأس، أن ننقل مقالة ابن أبى كما استقصاها الواقدى والبيئة التى قيلت فيها:

(وكان ابن أبى جالسًا فى عشرة من المنافقين، ابن أبى، ومالك، وداعس، وسويد ، وأوس بن قيظى، ومعتب بن قشير ، وزيد بن اللصيت، وعبد الله بن نبتل. وفى القوم زيد بن أرقم غلام لم يبلغ - أو قد بلغ - فبلغه صياح جهجاه : يا آل قريش، فغضب ابن أبى غضبًا شديدًا وكان مما ظهر من كلامه وسمع منه أن قال: والله ما رأيت كاليوم مذلة ، والله إن كنت لكارهًا لوجهى هذا ولكنٍّ قومى غلبونى، قد فعلوها قد كاثرونا ونافرونا فى بلدنا، وأنكروا منتنا. والله ما صرنا جلابيب قريش هذه إلا كما قال القائل: سمن كلبك يأكلك. والله لقد ظننت أنى سأموت قبل أن أسمع هاتفًا يهتف بما هتف به جهجاه وأنا حاضر لا يكون لذلك منى غير ، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. ثم أقبل على من حضر من قومه فقال: هذا ما فعلتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم فنزلوا منازلكم وآسيتموهم فى أموالكم حتى استغنوا! أما والله لو أمسكتم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير بلادكم ثم لم يرضوا بما فعلتم حتى جعلتم أنفسكم أعراضًا للمنايا فقتلتم دونه فأيتم أولادكم، وقللتم وكثروا ، فقام زيد بن أرقم بهذا الحديث كله إلى رسول الله ﷺ .فقد أوضح هذا الكلام كل ما ينفثه ابن أبى من حقد وكيد للإسلام وأهله وأنه لو نجح فى ضربته هذه لشقّ الصف الإسلامى ودمَّره ، ويشير كلامه إلى أن الجو الإسلامى قد طغى عليه، ولم يعد له مناص من المشاركة فى هذه الغزوة ولو مُكرهًا (والله إن كنت كارهًا لوجهى هذا ولكن قومى غلبونى) ، وركَّز كثيرا على موضوع كثرة المهاجرين، وكيف هم الآن يتناصرون عليهم، وبلغت معه القمة أن يأتى بهذا التشبيه اللئيم الذى ينم عما فى نفسه من كفر معشش فيها، وهو يتكلم عن رسول الله ﷺوصحبه هذا الكلام ، (والله ما صرنا جلابيب قريش هذه إلا كما قال القائل: سمِّن كلبك يأكلك . إنه عبقرى فى بث الأحقاد وتمزيق الصفوف وهى مدرسة شاس بن قيس الذى ابتدأها فى بداية الهجرة ثم أغلقت أبوابها بعد. لكنه الآن يريد أن يحطم أمة رعاها رسول الله ﷺ بيده الحانية خمس سنين حتى اشتد صلبها واستقام عودها ،ولو كانت الدعوة التى بثها ابن أبى فى غير هذه الأمة لحولَّت واقعها حربًا ضروسًا تأكل الأخضر واليابس فهو يبحث عن الجذور ليقتلعها (هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، فنزلوا منازلكم، وآسيتموهم فى أموالكم حتى استغنوا. . .) ، وها هو يدعوهم إلى اقتلاع هذه الشجرة وهى يافعة، (لو أمسكتم ما بأيديكم لتحولوا

إلى غير بلادكم) ، وإذا كانت هذه الشجرة الباسقة قد سقيت بدماء الشهداء من المهاجرين والأنصار هاهو يحولُ القضية إلى جريمة كبرى يعاقب عليها الخونة المارقون (ثم لم يرضوا بما فعلتم حتى جعلتم أنفسكم أغراضًا للمنايا فقُتِلتُم دونه. فأيتمتم أولادكم وقللتم وكثروا) .

لكن أهم ما فى الحديث وما نقله جبريل من فوق سبع سموات قوله:

﴿ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا ﴾ .

﴿ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ ﴾(١) .

١٢ـ وقد أطمأن ونفث ما فى نفسه من سم لدى هؤلاء الأعزة العشرة عليه من المنافقين دون أن يلقى بالاً إلى هذا الغلام الصغير الذى يسمع الحديث وهو يعرف أنه يحبه إذ يقول زيد الغلام ﷺ : والله ما كان فى الخزرج رجل واحد أحب إلى من عبد الله بن أبى ، والله لو سمعت هذه المقالة من أبى لنقلتها إلى رسول الله ﷺ .

وابن أبى مطمئن إلى أركان حزبه، وقد فشا الخبر فى الجيش، واستدعى التحقيق فى صحة المقالة (فأرسل رسول الله ﷺ إلى عبد الله بن أبى وأصحابه فحلفوا ما قالوا. فكذَّبنى رسول الله ﷺ وصدَّقه فأصابنى هم لم يصبنى مثله هم قط) .

لقد وصف القرآن الكريم قادة النفاق بأنهم: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ﴾(٢) .

فهم فى مظاهرهم من اللباقة والكياسة والجمال ما يبهر الآخرين ، وعندما يأتون فيحلفون الأيمان أمام رسول الله ﷺ أنهم ما قالوا وأن هذا غلام يهم ويتوهم ويخترع ، وحين نرى أن القوم صدَّقوا عبد الله بن أبى فيما قالوا وكذَّبوا الغلام، خاصة ومع ابن أبى شهوده الذين حلفوا معه أنه ما قال هذا الكلام، يعنى:أن لابن أبى لا يزال مركزا فى قومه ، وموقعًا فى قبيلته يجعلهم يجاملونهم ويصدقونه، لكن المعنى الأبعد هو أن ابن أبى قد استعاد وضعه ومركزه بعد هزة بنى قينقاع وجريمة أحد ، وأمل المسلمون أن يكون قد أقلع عن نفاقه وانضم إلى الصف الإسلامى، ولم يجد أتباعه حرجًا من الثقة فيه بعد تعدُّل المواقف، فالإسلام يجب ما قبله، ويغسل الخطأ السابق ولعله أسلم من جديد فدخل فى رحمة الله:

---

(١) المنافقون / ٧ ، ٨ .

(٢) المنافقون / ٤ .

﴿ إنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا . إلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾(١) .

فكما تقول الروايات الصحيحة فى البخارى ومسلم :

(فأرسل رسول الله ﷺ إلى عبد الله بن أبى وأصحابه فحلفوا ما قالوا. فكذَّبنى رسول الله ﷺ وصدَّقه، فأصابنى هم لم يصبنى مثله قط، فجلست فى البيت فقال لى عمى: ما أردت إلى أن كذَّبك رسول الله ﷺ ومقتك. . .) .

وكبار القوم يدفعون عن ابن أبى .

(وجعل الرهط من الأنصار يؤنبون الغلام ويقولون: عمدت إلى سيد قومك تقول عليه ما لم يقل، وقد ظلمت وقطعت الرحم. . .)(٢) .

(ثم إن ابن أبى أتى إلى رسول الله ﷺ فقال:« يابن أبى إن كانت سلفت منك مقالة فتب » فجعل يحلف بالله ما قلت ما قال زيد ولا تكلمت به ! وكان فى قومه شريفًا فكان يظن أنه قد صدق)(٣) .

١٣ـ لكننا نلاحظ من طرف آخر انحسار مد النفاق بشكل واضح فبعد أن اتخذ زعيم النفاق موقفه الأول مع بنى قينقاع وأكره رسول الله ﷺ حياء فى إطلاق رجالهم، لم يعتذر عن ذلك الموقف فهو عند نفسه وشخصه أكبر من أن يُخطئ ، وعندما اتخذ موقفه الثانى يوم أحد وانفصل بثلث الجيش وقام قومه فأجلسوه عندما قام ينافق ويدعو قومه لنصرة رسول الله ﷺ ، خرج غاضبًا ولم يعد، ولم يعتذر عن موقفه بل كان يشمت بالمسلمين ، ويدلِّل على صحة موقفه بنتائج المعركة. أما اليوم فقد اختلفت الصورة تمامًا وقد غزا الإسلام القلوب ولم يعد هناك وجود لحرب الإسلام، أو النيل من رسول الله ﷺ من أى شخصية مهما علا كعبها وارتفع سهمها وثقل وزنها ، ومن أجل ذلك نجد ابن أبى الزعيم الأوحد فى مرحلة من المراحل يأتى مع أتباعه يتنصلون من كلامهم، ويحلفون الأيمان المغلظة على أنهم ما قالوا هذا الكلام، ويتبرؤون إلى الله تعالى منه ، وهذا يعنى أنهم عاجزون عن المواجهة، وعاجزون عن اتخاذ المواقف المعادية ، بل أصبح جل همهم أن يرضى عنهم الله ورسوله، ولأن بشاشة الإيمان لم تخالط قلوبهم، لم يجدوا حرجًا فى حلف الأيمان فلو كان فى قلوبهم ذرة إيمان بنبوة

(١) النساء : ١٤٥ ، ١٤٦ .

(٢ ، ٣) المغازى للواقدى ٢/ ٤١٧ ، ٤١٨ .

رسول الله ﷺ وأن الله مطلّع على سرائرهم ومطلع على خفاياهم لما تجرؤوا على القسم بهذه الأيمان ، ولما أقدموا عليه ، وهم يعرفون أنهم سيفضحون فيما بعد ، وأنه ستنكشف أوراقهم بالوحى الإلهى.

ومن خلال هذه المقارنة ورغم خطورة هذه المقالة نشعر أن جهد ثلاث سنين بعد أحد ، قد استطاع أن يفتت معسكر النفاق ويكسر شوكته وتحديه وانتقل النفاق من أن يكون حزبًا يعمل علنًا ويتخذ المواقف المعادية ووراءه الجموع الكثيرة التى وصلت إلى ثلث الجيش يوم أحد إلى حزب سرى يعمل فى الخفاء، ويتحرك فى الظلام ، ولم تكن الثقة بشخص ابن أبى والتى برزت فى تصديق القوم له ثقة تقوم على شخصه فى حرب الإسلام وأهله إنما ثقة به أن عاد شخصًا نظيفًا مخلصاً للإسلام ويجاهد فى سبيله ، وحرص المسلمين على ابن أبى بزعامته ومواهبه ومركزه أن يوظف هذا كله فى سبيل الله جعلهم ينكرون هذا الحديث، وفى أعماقهم أمل ورجاء ألا يكون هذا صحيحًا. فهذا يعنى أن فى الصف الإسلامى رجل بهذا الموقع والجاه والمال ، لا يزال حربًا على الإسلام وأهله.

إن مجرد مسارعة ابن أبى والذين معه إلى المثول بين يدى رسول الله ﷺ، وحلف الأيمان المغلظة على أنهم ما قالوا ما قاله عنهم زيد ، يعنى: أن ابن أبى زعيم النفاق ووراءه قومه وحزبه قد انتهى من المجتمع ولم يبق إلا ابن أبى الزعيم المسلم الذى يخدم هذا الدين، ويعمل من أجله، وأن الساحة لم تعد تقبل رأيًا يحارب الإسلام ، ويعاديه ليس بقوة السيف ، إنما بقوة انتصار هذه العقيدة، وعظمة تأثيرها على النفوس، فلم يتخذ ـ عليه الصلاة والسلام ـ أية عقوبة بشأن ابن أبى بعد انسحابه من أحد مع حزبه، ولم يصدر أحكامًا بالإعدام تنال ثلث هذا الجيش ، وهم الفارون من الزحف، ولم يعج السجون بهم ليلقوا أنواع العذاب والنكال ، لم يلقوا شيئًا من هذا ولو سار ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى هذا المسار لكانت عملية الهدم للمجتمع هى التى تؤتى أكلها، ولاشتعلت نار الحرب بين الأوس والخزرج. ولخسر الصف الإسلامى كثير من أفراده ولا تزال العصبية لها دورها وأثرها وخطرها، صحيح قد ينتصر رسول الله ﷺ ظاهرًا فى قمع حركة التمرد ويسيطر تمامًا على الموقف ، ولكنه سيخسر بالتأكيد الكثير من أصحابه وأنصاره، وسيتحطم المجتمع تحت مطارق العصبية القبلية ،والقرآن الكريم الذى ينزل على عبد الله تعالى ورسوله هو الذى وضع خطة مواجهة هذا التمرد.

فمضى القرآن الكريم المنزل على قلب محمد ﷺ يفضح النفاق والمنافقين، ويهاجم المواقف والعقائد المنحرفة ، ويدع الحديث عن الأشخاص والأعيان ، ويفتح

المجال الرحب أمام الانضمام إلى المجتمع المسلم دون قيد أو شرط واندفع المؤمنون الأولون من المهاجرين والأنصار، ومن جيل بدر، يتصلون بأقاربهم وأصدقائهم ومعارفهم من تجمع النفاق ، ليزيلوا الغيش عن قلوبهم ، والعمه عن نفوسهم ، ويتمكنوا بحسن معاملتهم وعظمة معادنهم أن يقيموا هذه القلوب من جديد إلى المعسكر الإسلامي.

إن كثيراً من الدعوات والأمم، والجماعات تتحطم حين تكون عاجزة عن صهر الأعداد الجديدة الوافدة إلى الصف بالصف، وتربية الأفراد برفق ليرتفعوا إلى مستوى القاعدة الصلبة ؛ لتجعل من هذه الأعداد الجديدة امتداداً لقاعدتها الصلبة فى الأرض. وحين تنعكس الصورة وتعجز القيادة العظيمة ووراءها الرعيل الأول من استيعاب هذه القواعد الجديدة، ويسود التذمر والنقد، وتفقد الثقة عندئذ يبدأ الرعيل الأول بالتزلزل، والتراجع، ويبدأ العدو الأكثر يغلب المجموعة المخلصة ، فتنتقل أمراض الوافدين الجدد إلى الصف الأول، ويؤذن البنيان بالانهيار وحين تقف القيادة متفرجة عاجزة عن التغيير، ويصبح همها المحافظة على ذاتها وشخصها وكيانها وتبدأ بإدانة المخالفين ومعاقبتهم، تكتب بيدها نهاية حياتها وحياة الجماعة الجديدة التى تقودها ، وما أحرانا ونحن نحاول استئناف الحياة الإسلامية من جديد، ببناء الجماعة الجديدة على خطى الجماعة النموذج فى المدينة ، أن نتوقف كثيراً عند عملية البناء والتربية التى قامت فى مجتمع قتلته العصبية منذ آلاف السنين، وعجز أن ينتقل من مستوى القبلية والعشيرة إلى مستوى الأمة، وحتى قبيل وصول رسول الله ﷺ إلى المدينة كانت معركة بعاث بين الأوس والخزرج ، والتى أفنت قوى الفريقين ، وقتلت شبابها تحت راية العصبية.

إنها لمعجزة حقاً يبحث عنها الإنسان فى عملية بناء الأمم، ويرى عظمة هذه المعجزة فى عظمة بناء النفوس ، وعظمة صياغة القلوب، وعظمة تربية الرجال لا ليكونوا جنوداً عاديين فحسب، بل ليكونوا قادة يقودون البشرية كلها إلى النور.

١٤- ونعود إلى غلامنا العظيم زيد، هذه البذرة المتفتحة التى استنشقت عبير الإسلام وصحت عليه ، والتى لم تلوث بأية عقدة من عقد الزعامة والعصبية والهوى ، والتى لامس القرآن قلبها مباشرة دون حواجز أو عوائق أو قيود ، وهو يمثل صورة هذا المجتمع الوليد الذى آمن بالله تعالى ، وشهد بعينيه سيد الخلق. كيف يفعل. وكيف يربى وكيف يعبد، وكيف يتلقى الوحى ؟ لنصل من خلال ذلك إلى صورة جديدة من صور المنهج التربوى النبوى للأمة ، وذلك من خلال نقاط علامة تلقى الضوء على شخصه كنموذج للبراعم الجديدة التى تنمو فى ظل الإسلام .

أ ـ (فقام زيد بن أرقم بهذا الحديث كله إلى رسول الله ﷺ . فأخبره الخبر، فكره رسول الله ﷺ خبره، وتغير وجهه ثم قال: « يا غلام، لعلك غضبت عليه! » . قال: لا والله لقد سمعته منه . قال: «لعله أخطأ سمعك!» قال: لا يا نبى الله! قال: « لعلَّه شبَّه عليك ! » ، قال: لا والله لقد سمعته منه يا رسول الله)(١) .

إنه إمام المربين ـ عليه الصلاة والسلام ـ لابد أن يتأكد من صحة النقل قبل المحاكمة والاتهام والتحقيق ، وطفل لم يناهز البلوغ، محتمل أن يخترع هذا الكلام لغضب عنيف، أو قلة وعى وفهم للمقال ، أو استزادة ؛ لأن جرح النفوس الكبيرة لا يلتئم بسهولة، فأن يبدأ التحقيق لمقالة صبى قد تجرح كبرياء الرجال، وتزعزع الثقة بين الكبار فى الاستجابة لدعوى طفل صغير، لم يبلغ الحلم بعد، وحين ينظر الآخرون إلى الجانب الصعب فى قضية الصبى زيد، ننظر إلى الجانب العظيم فيها، فقد قبل عليه الصلاة والسلام بعد أن تأكد من غلامه المؤمن وصدقه أن يستدعى أكبر الرؤوس للتحقيق معها بناء على الاتهام الموجه من طفل ، وهذا إكبار عظيم له يفخر بها كل صبى مسلم أن يرى سيد الخلق ـ عليه الصلاة والسلام ـ يستدعى أعظم الشخصيات لتحاسب انطلاقًا من دعوى هذا الطفل العظيم.

وحين لا يصدقه ـ عليه الصلاة والسلام ـ ليس تكذيبًا له ، لكنها كذلك عظمة القضاء. فالدعوى تحتاج إلى شاهد إثبات، وتواطأ الشهود جميعًا على تكذيب زيد، وحلفوا أن عبد الله بن أبى لم يقل هذا المقال وحلف ابن أبى ومعه شهوده، فلا يملك رسول الله ﷺ إلا أن يصدق هؤلاء الحالفين ويكذب هذا الطفل أو يرد دعواه بتعبير أدق. فالإثبات دائمًا بالشهادة أو اليمين، البينة على المدعى، واليمين على من أنكر، وعجز زيد رضي الله عنه أن يقيم البينة ، وعجز زيد أن يقدم ولو شاهدًا واحدًا على صحة دعواه ، فسقطت الحجة الأولى، ثم كان اليمين على من أنكر، وقدم المنكر يمينًا وبينة، فليس أمام سيد القضاة فى الوجود، إلا أن يقر بصحة كلام الحالفين ويرد دعوى زيد ، إنها عظمة هذا الدين وعظمة هذه التربية، فليس للقناعة الشخصية دور فى القضاء ، وليس للهوى وجود فيه ، ويكفينا فى هذا الصدد دستور القضاء العظيم الذى سنَّه ـ عليه الصلاة والسلام ـ حيث يشير الى أن الحكم بالدعوى من القاضى لا يعنى دومًا أنها صحيحة. كما يقول ـ عليه الصلاة والسلام ـ فعن أم سلمة ـ رضى الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ﷺ: « إنكم تختصمون إلى ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له على نحو ما أسمع منه. فمن قطعت له من حق أخيه شيئًا، فإنما أقطع له بقطعة من النار » (٢) .

---

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٤١٧ .

(٢) أخرجه مسلم ٣/ ١٣٣٧ (١٧١٣ / ٤) .

وفي رواية « فإنما هى قطعة من النار فليحملها أو يذرها.. »(١) .

وما لم يأت الوحى من السماء فلا يملك ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلا أن يحكم بالظاهر ، ويدع السرائر لرب العالمين.

ب ـ والذى يعنينا من شخص زيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كلمته العظيمة الخالدة التى تعطينا صورة من صور عظمة التربية للطفل المسلم. الذى يبدو أكبر من سنه، وأكبر من شخصه، وأكبر من هواه فهو يقول: (ووالله لقد سمعت منه، ووالله ما كان فى الخزرج رجل واحد أحب إلىَّ من عبد الله بن أبى ،ووالله لو سمعت هذه المقالة من أبى لنقلتها إلى رسول الله ﷺ) .

فقد أصبح ولاؤه لله ورسوله وحده، فوق الأب والأم والعشيرة. ويعرف أن انتماءه لهذا الدين أعظم بكثير من انتمائه للخزرج. وكم الفرق شاسع بين هؤلاء العُتاة العشرة الذين تواطؤوا على تكذيب زيد، وأقسموا الأيمان ببراءة عبدالله بن أبى، وكيف يمكن أن يقارن هؤلاء مع طفلنا العظيم زيد الذى ارتفع فوق هواه، وفوق عشيرته، وفوق ذاته، وعرف أن دينه يطلب منه التزامًا كاملاً فى أن ينقل كل ما يسمع لا لصديقه ولا لقريبه. فهو يعلم منهج التربية فى النقل .

﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾(٢) .

جـ ـ ومع أن رسول الله ﷺ ردَّ دعواه ، هو أرجى بالله تعالى من كل أحد، وهو يعلم أنه لا يعلم الغيب إلا الله إذ يقول بعد كلمته السابقة :(والله لو سمعت هذه المقالة من أبى لنقلتها إلى رسول الله ﷺ) يقول بعدها:

(وإنى لأرجو أن ينزل الله تعالى على نبيه حتى يعلموا أنا كاذب أم غيرى. أو يرى رسول الله ﷺ تصديق قولى، وجعل زيد يقول: (اللهم أنزل على نبيك ما يصدِّق حديثى)(٣). فهو واثق بربه ، وهو فقيه فى دينه يعرف الحدود بين العبودية والربوبية ، ويعرف أن رسول الله ﷺ عبد لله ورسوله، لا يعلم من الغيب إلا ما علمه الله تعالى، فراح يلجأ إلى ربه ويضرع له أن يعلم نبيه بصدقه .

---

(١) أخرجه مسلم ٣/١٣٣٨ (١٧١٣/٥) .
(٢) النساء / ٨٣ .
(٣) المغازى للواقدى ٢/٤١٧ ،أوردها بسند رجاله ثقات.

والذين يعلِّمون الناس التوحيد ، ويتحدثون عن العقيدة فى الآلاف المؤلفة من الكتب والأشرطة والمحاضرات والخطب ندعوهم جميعًا أن يتعلموا هذه العقيدة من هذا الطفل العظيم الذى نستفيد من جهة أن ينقل لقائده الحبيب ما سمعه من ابن أبى ولو كان أبوه قالها لنقلها لرسول الله ﷺ ، فهو أعظم الحب فى هذا الوجود. هُوَ هُوَ نفسه وقد رُدَّت كلمته من رسول الله ﷺ وأخذ ظاهرًا بيمين الكبار من قومه. لم تهتز عقيدته، ولم يحقد على هذه الإهانة من قومه ولم يأسف أن نقل الخبر للمصطفى - عليه الصلاة والسلام - كان يعلم فوق هذا كله أن رب السموات والأرض الواحد الأحد الفرد الصمد الذى يعلم الغيب هو الذى يبرئ ساحته، وهو الذى يُصدِّق مقولته ويرى نبيَّه صدقه.

إن كل هذا الحب وكل الفداء وكل التفانى بشخص رسول الله ﷺ من زيد لم يرفع رسول الله ﷺ عنده فوق مقام العبودية وبقى مقام الوحدانية والربوبية واضحًا ساطعًا جليًا فى نفسه يلجأ إليه عندما تقف الدنيا كلها ضده ، ولو كان مع هذه الدنيا رسول الله - صلوات الله وسلامه - عليه فهو لا يعلم من الغيب إلا ما يعلمه الله.

هذه هى التربية على العقيدة ، من خلال النصوص الحية الفاعلة المؤثرة وليست من خلال المواعظ الباردة والتوجيهات الصارمة ، والأوامر الصادرة وتوزيع التكفير والتفسيق على الأمة.

ونشهد أدب زيد كذلك رضي الله عنه فى حديثه عن الذين كذبوه، فلم يفقد توازنه، وهو فى أرهب محنة يلقاها فى حياته، ولم يطلق لسانه سبا وشتمًا وتشهيرًا ، إنما اكتفى بقوله: (وإنى لأرجو أن ينزل الله تعالى على نبيه حتى يعلموا أنا كاذب أم غيرى) .

لله أنت أيها النموذج الخالد ! إن الطفل فى مثل هذه السن، لا يكون محقًا، ويكون كاذبًا ، ويحلف الأيمان المغلظة على صدقه ، ويشهر لسانه فى النيل ممن يكذبوه، ويلجأ إلى البكاء أحيانًا والسفاهة أحيانًا أخرى للوصول إلى مأربه وتصديقه وهو يعلم أنه كذوب.

أى مستوى من التربية هذا وصل له أبناء هذا الجيل العظيم ، أن يكتفوا بهذا الأدب الجم فلا ينالوا من الكذبة العشرة ولا يرجمونهم بالحجارة، ولا يصرخون فى وجوههم إنما يكتفون بالقول: (وإنى لأرجو أن ينزل الله تعالى على نبيه حتى يعلموا أنا كاذب أم غيرى) .

وحين نبحث عمن يشرف على تربية زيد لا نفاجأ بهذا المستوى، فهو يتيم فى حجر عبد الله بن رواحة رضي الله عنه وعبد الله هو : شاعر رسول الله ﷺ وهو أحد النقباء الاثنى عشر، وهو أحد البدريين ، وهو قائد عظيم من قادة الرعيل الأول، فلا بدع أن يربى مثل هذا النموذج العظيم .

د ـ ولنتابع تحليلنا فى أعماق هذا الغلام العظيم الذى كذّبه الكبار الكبار وعظام الأجسام والأحلام وصار فى موقع التأنيب حتى من عبد الله بن رواحة رضي الله عنه جاء الوحى من رب السموات والأرض ليدفن قيمًا ويحيى قيما ، جاء ليدفن قيم الجاه والزعامة والقوة فى العشيرة والمال ويبنى قيم الحق فى هذا الوجود ولو كان على لسان طفل مراهق، ولنعش هذه اللحظات السعيدة مع خفقات قلب زيد :

(فبينما رسول الله ﷺ يسير من يومه ذلك ، وزيد بن أرقم يعارض النبى ﷺ براحلته يريد وجهه فى المسير ورسول الله ﷺ يستحث راحلته فهو منفذ فى السير إذ نزل عليه الوحى . قال زيد بن أرقم : فما هو إلاّ أن رأيت رسول اللّه ﷺ تأخذه البرحاء ويعرق جبينه وتثقل يدا راحلته حتى ما كاد ينقلها ، عرفت أن رسول الله ﷺ يوحى إليه ، ورجوت أن يكون قد نزل عليه تصديق خبرى . قال زيد بن أرقم : فسرى عن رسول الله ﷺ. فأخذ بأذنى وأنا على راحلتى حتى ارتفعت عن مقعدى ويرفعها إلى السماء وهو يقول: « وفَّت أذنك يا غلام ، وصدَّق الله حديثك » ، ونزل فى ابن أبى السورة من أولها إلى آخرها وحده ﴿ إِذَا جَاءَكَ ﴾)[1] ، فهو يعرف رسول الله ﷺ أنه بشر مثل هذا البشر ، لكنه فوق هؤلاء البشر جميعًا ؛ لأنه يوحى إليه من دونهم، وهو يعرف صورة الوحى ، فهو يرمق من بعيد وجه رسول الله ﷺ ، فها هو تأخذه البرحاء ويعرق جبينه ، وتثقل وطأة راحلته حتى ما تستطيع السير ، فخفق قلب زيد أن يكون هذا الوحى بشأن حديثه ، وليس هذا من باب إعجابه بذاته أو حرصه على شخصه بمقدار حرصه على دين الله عز وجل، وحرصه على شخص رسول الله ﷺ، من كيد الكائدين ، وتآمر المتآمرين بالخفاء ، فخطورة هذا الكلام هى التى دعته أن ينقله إلى قائده الأعلى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وكم يغيظه أن يسير ابن أبى والطواغيت الذين معه برآء صادقون، وهم الدجالون الكاذبون المحاربون لله ورسوله.

وصدق رجاء الطفل المؤمن، وأعلنها رسول الله ﷺ مدوية. فهو يرفعه ليراه

---

(١) أى سورة « المنافقون » .

القوم ويراه الجيش كله ، ويراه الذين اتهموه بالكذب والاختلاق ، رفعه فوق راحلته، ليعلن للجيش كله صدقه ، وبراءته ، وتصديق الله تعالى لحديثه ، وانتصر الغلام الصغير الصادق على الطواغيت الكبار الحاجرين بتصديق رب العالمين وكانت سورة « المنافقون ».

١٥- ونزل القرآن الكريم لينهى عبد الله بن أبى وحزبه إلى الأبد، ويخرجهم من الصف الإسلامى:

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ . اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ . وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ . سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ . هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ . يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ . وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ . وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[1] .

نزلت هذه السورة فقلبت الموازين جميعًا ، وانتهى عبد الله بن أبى الزعيم عند المسلمين، وإن كان لم ينته ولن ينتهى عند المنافقين.

(فمرَّ عبادة بن الصامت بعبد الله بن أبى عشية راح النبى ﷺ من المريسيع وقد نزل على النبى ﷺ سورة المنافقون فلم يسلّم عليه ، ثم مرَّ أوس بن خولى فلم يسلّم عليه فقال ابن أبى : إن هذا الأمر قد تمالآتما عليه ، فرجعا إليه وأنباه وبكّتاه بما صنع وبما نزل

(١) سورة « المنافقون » .

من القرآن إكذابًا لحديثه، وجعل أوس بن خولى يقول: لا أكذّب عنك أبدًا حتى أعلم أن قد تركت ما أنت عليه وتبت إلى الله إنا أقبلنا على زيد بن أرقم نلومه ونقول له: كذبت على رجل من قومك حتى نزل القرآن بتصديق حديث زيد وإكذاب حديثك، وجعل ابن أبى يقول: لا أعود أبدا)(١) .

لقد فضح القرآن ابن أبى والرهط الذين تتابعوا معه فقال عنهم : (الكاذبون) و(الفاسقون) و (يؤفكون) و (الكافرون) و (لايفقهون) و (لايعلمون) ، فأى شىء بقى لهم بعد هذه الأوصاف ، وماذا بقى لهم بعد ذلك فى الصف الإسلامى وقد وصفهم الله تعالى بهذه الأوصاف ؛إنه السقوط المريع الذى لا تقوم بعده لهم قائمة فى حس كل مسلم ، من أدنى طفل فيه إلى الشيخ الفانى والمرأة العجوز . وإن كان أكبر الأوصاف التى تغسلهم بالعار عند المنافقين أنهم الكاذبون وأنهم الأفاكون المفترون ، فقد يختلف الرجال . وتصطرع العقائد ، لكن الكذب عند العرب إسقاط للرجال . فهذا أبو سفيان وهو بين يدى هرقل ، ويستطيع أن يكذب ويفترى على محمد ما يحلو له. لكنه يخشى السبة عند العرب أن تشتهر عنه كَذِبة واحدة .

(ثم قال لترجمانه : قل لهم : إنى سائل هذا الرجل فإن كذبنى فكذّبوه . فوالله لولا الحياء من أن يأثروا على كذبًا لكذبتُ عنه)(٢) .

(قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ . قلتُ: لا. قال: فهل يغدُرُ؟ قلت: لا . ونحن منه فى مدة ولا ندرى ما هو فاعل فيها. قال: ولم تَمكّنى كلمة أُدخِلُ فيها شيئًا غير هذه الكلمة)(٣) .

لقد جرت الدماء أنهارًا بين رسول الله ﷺ وقريش،وأقصى ما استطاع أبوسفيان أن يناله من رسول الله ﷺ ويطعن به فى ظهره أن قال: ونحن فى مدة ولاندرى ما هو فاعل فيها، والكذب سقوط للرجال فى أى مجتمع كان ، سيان كان ، المجتمع جاهليًا أو إسلاميًا. فكيف يكون إذن سقوط ابن أبى وصحبه بعد هذه الآيات؟!!

يقول الحافظ ابن حجر بصدد تعليقه على مقالة أبى سفيان :فوالله لولا الحياء من أن يأثروا علىَّ كذبًا لكذبت عنه يقول:

وفيه دليل على أنهم كانوا يستقبحون الكذب إما بالأخذ عن الشرع السابق ، أو

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٤٢٠ .

(٢،٣) فتح البارى شرح صحيح البخارى ١/ ٣١ (٧) .

بالعرف ، وفى قوله : (يأثِروا) دون قوله : (يكذبوا) دليل على أنه كان واثقًا منهم بعدم التكذيب لو كذب لاشتراكهم معه فى عداوة النبى ﷺ ، لكنه ترك ذلك استحياءً وأنفة من أن يتحدثوا بذلك بعد أن يرجعوا فيصير عند سامعى ذلك كذابًا. وفى رواية ابن إسحاق التصريح بذلك ولفظه (فوالله لو كذبت ما ردُّوا علىّ. ولكنى كنت امرءًا سيِّدًا أتكرم عن الكذب، وعلمت أن أيسر ما فى ذلك إن أنا كذبته أن يحفظوا ذلك عنى ثم يتحدثوا به فلم أكذبه)[1] .

١٦ـ ولنقف بعد أمام عظمة مواجهة الموقف من المصطفى ﷺ:

قال ابن إسحاق : (فلما استقل رسول الله ﷺ وسار لقيه أسيد بن حضير فحياه بتحية النبوة وسلم عليه ثم قال: يا نبى الله. والله لقد رحت فى ساعة منكرة ما كنت تروح فى مثلها ، فقال له رسول الله ﷺ: « أو ما بلغك ما قال صاحبكم » . قال : وأى صاحب يا رسول الله ؟ قال : « عبد الله بن أبى » قال: وما قال ؟ قال: « زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليُخرجنَّ الأعز منها الأذل» ، قال : فأنت يا رسول الله والله تخرجه إن شئت هو والله الذليل وأنت العزيز ثم قال: يارسول الله ، ارفق به، لقد جاءنا الله بك، وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه، فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكًا .

ثم مشى رسول الله ﷺ بالناس يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس ، ثم نزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نيامًا وإنما فعل ذلك رسول الله ﷺ ليشغل الناس عن الحديث الذى كان بالأمس من حديث عبد الله بن أبى)[2] .

لقد أمر بالمسير مباشرة منذ أن تحدث زيد بن أرقم بالحديث ، وبعد حلف ابن أبى وأصحابه ، وقبل أن ينزل القرآن بهذا الشأن ؛ لأن طبيعة المجتمعات أن تتناقل الحديث بغض النظر عن صدقه وكذبه خصوصًا وأن أسبابه المباشرة تلك المشادة بين المهاجرى والأنصارى ، والذى كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يرى بحسه أن ذيولها

---

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى ج١ ص٣٥ م٧ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٤٠٤ ، وقد رواه ابن إسحاق عن محمد بن يحيى بن حبان وعبدالله بن أبى بكر وعاصم بن قتادة كما فى المغازى للذهبى ١ / ٢٦٤.

قد انتهت بالإصلاح بين المتخاصمين ، وتحديد خط المواجهة التربوى بنصر الأخ ظالمًا أو مظلومًا. فلما وردت هذه الأخبار، تحرك الناس جميعًا بأمر رسول الله ﷺ، ولنشهد موقفين لسيد الأوس أسيد بن حضير ، وسيد المهاجرين عمر بن الخطاب ، تعقيبًا على هذه الحادثة ولم تتضح أبعادها بعد .

قال ابن إسحاق: (فسمع ذلك زيد بن أرقم فمشى به إلى رسول الله ﷺ، وذلك عند فراغ رسول الله ﷺ من عدوه فأخبره الخبر ، وعنده عمر بن الخطاب فقال: مر به عباد بن بشر فليقتله . فقال له رسول الله ﷺ : « فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه ! لا ولكن أذِّن بالرحيل » ، وذلك فى ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها فارتحل الناس ، وقد مشى عبد الله بن أبى بن سلول إلى رسول الله ﷺ حين بلغه أن زيد بن أرقم قد بلَّغه ما سمع منه فحلف بالله ما قلتُ ما قال ، ولا تكلمت به ، وكان فى قومه شريفًا عظيمًا . فقال من حضر رسول الله ﷺ من الأنصار من أصحابه : يا رسول الله ، عسى أن يكون الغلام قد أوهم فى حديثه ولم يحفظ ما قال الرجل حدبًا على ابن أبى، ودفعًا عنه) .

إن عمر رضي الله عنه الخبير الأول فى المنافقين لم يرتفع عنده ابن أبى لحظة واحدة ، وهو الخبير بالرجال وبمستوياتها ، ولم يتغير رأيه فيه لحظة واحدة منذ دخل المدينة، وعندما سمع كلام زيد لم يشك لحظة واحدة بصحة مقالة زيد عن ابن أبى ، والحل الأمثل عنده قتله. غير أنا نجده هنا على غير عادته فهو الذى يعرض نفسه دومًا ليقتل من نافق إلا هنا ، وحين نبحث عن السر فى ذلك نلحظ معنىً عظيمًا فيه ، فعمر رضي الله عنه طرف فى القضية ، وغلامه جهجاه الغفارى هو الذى اختلف مع سنان بن وبرة الأنصارى، فعرض نفسه ليقتل ابن أبى يعنى: أنه يثأر لشخصه ونفسه والطبيعة البشرية تنتظر مثل هذه الفرصة لتنقض على خصمها فتبيده وتسعد بالخطأ الذى يصيب منه مقتلاً .

غير أنا فى مدرسة العقيدة نجد عالمًا آخر غير هذا العالم لا نجده أبدًا إلا فى مدرسة النبوة والتى تجعل الغضب لله لا للذات ، وليس عمر من الضعف رضي الله عنه بحيث يمالئ فى دين الله فيسكت عن قول ابن أبى وهو يعرف دوره الخبيث الخطير فى الصف لكنه اكتفى أن يحيل ابن أبى على عباد بن بشر ليقوم عباد رضي الله عنه بقتله ،

واختيار عبَّاد من عمر ، رغم معرفته أن عبادًا من الأوس يتناسب مع طبيعة عمر رضي الله عنه فهو يعرف أخاه عبادًا أنه لا تأخذه فى الله لومة لائم ، لكن قيادة الخزرج لها رأى بابن أبى تختلف عن قيادة المهاجرين وقيادة الأوس.

وكان الجواب النبوى العظيم لعمر: « فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه؟ ».

فليس الامتناع عن قتل ابن أبى أنه لا يستحق القتل ، وليس الامتناع عن قتله خوفًا من عشيرته ، ولكن الامتناع عن ذلك هو خط تربوى جديد نفقهه فى هذا المنهج هو: أن السمعة السياسية للجماعة المسلمة يجب أن يحافظ عليها ، فالحرب المعنوية أشد عنفًا من الحرب المادية ، وأن يمضى العدو فى الحديث عن الصراعات الداخلية فى الجماعة المسلمة ، هو أكبر سلاح نسلِّمه إياه يطعن به هذه الجماعة. ومحمد ﷺ الذى فداه أصحابه بمهجهم وأرواحهم ، والذين هيؤوا أعظم شهادة اعتراف من أبى سفيان بتضحياتهم حيث قال : (والله ما رأيت أحدًا يحب أحدًا كحب أصحاب محمد محمداً) هذه الشهادة الواقعية لا يناسب أن تُنتقض بأن محمدًا بدأ ينقض على أصحابه الذين آووه ونصروه ، وراح يمعن بهم قتلاً وذبحًا .

هذا هو الموقف: « فكيف إذا تحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه ؟ » . والموقف المقابل للحفاظ على سلامة الصف الداخلى: « ولكن أذِّن بالرحيل ». فسوف يسود اللغط ، ولا يجد الناس حديثًا لهم إلا قالة ابن أبى ، ورسول الله ﷺ يريد وأد هذا الحديث وعدم الخوض فيه.

فسار بالناس يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس ثم نزل بالناس ، فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نيامًا ، وإنما فعل ذلك رسول الله ﷺ ليُشغل الناس عن الحديث الذى كان بالأمس من حديث عبد الله بن أبى.

إنه التوازن العجيب والفقه الأعظم فى بناء الأمة ، من حيث الحفاظ على سمعتها الخارجية ،والحفاظ على ذات بينها الداخلية ، وعمل اللفظ فى الصف أسرع من الهزيمة فيه ، وأفتك من السيف فيه ، ولابد أن يجتث هذا اللفظ ، ولن تُحلَّ القضية بتعميمات ونصائح وأوامر تطالب الصف بالابتعاد عن الخوض فى هذا

الحديث ، وما هكذا تعالج الفتن ، إنما كانت المعالجة الجذرية فى هذا السير العنيف ، العنيف منذ منتصف النهار ، وحتى طيلة الليل إلى ضحى اليوم الثانى ، وإشغالهم بمهماتهم الأصلية عن الفراغ الذى يقتل الصف ، ويذبحه حين لا يجد حديثًا إلا الطعن والغيبة وتكرار المسالب.

إن كثيرًا من الجماعات لتقتل من خلال طاقاتها المعطلة حيث يفرغ الناس للجهاد ولا جهاد ، ويجتمع القوم ولا عمل ، ولا شغل يشغلهم إلا اللغط فى أخطاء الصف ووقوع الخلافات ، وسريان الإشاعات . أقول هذا وفى الواقع العملى الذى عشته تجربة تحطم إحدى الجماعات المجاهدة فى عصرنا الحاضر لعجز قيادتها عن ملء فراغها وعجزها عن الاستفادة من طاقاتها وتشغيلها ، فتحولت هذه الطاقات للصراعات الداخلية ، فشقت صفها ووجهت طاقاتها لتغذية هذا الخلاف والشقاق الذى استمر سنين قبل أن يلتئم.

ونعود إلى الموقف الثانى من سيد الأوس أسيد بن حضير . الذى لم تكن لديه عقدة عبد الله بن أبى وزعامته وهو يعرف أنه لم يتغير منذ أن استُلب ملكه ، حيث يأتى أسيد إلى رسول الله ﷺ وقد فوجئ بمسير رسول الله ﷺ فى ساعة منكرة ما كان ليسير فيها فعلم رضي الله عنه أن حدثًا جللاً قد وقع فجاء إلى حبيبه محمد ﷺ وسأله متعجبًا : يا نبى الله ، والله لقد رحت فى ساعة منكرة ما كنت تروح فى مثلها فقال رسول الله ﷺ : « أو ما بلغك ما قال صاحبكم ! » قال : وأى صاحب يا رسول الله ؟ قال : « عبد الله ابن أبى » قال : وما قال ؟ قال: « زعم أنه إن رجع المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » . قال : فأنت يا رسول الله ، والله تخرجه إن شئت ، هو والله الذليل وأنت العزيز . ثم قال : يا رسول الله ارفق به ، فوالله لقد جاءنا الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه ، فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكًا.

فأسيد رضي الله عنه يعلن ابتداء لرسول الله ﷺ أن عبد الله بن أبى أقل وأذل من أن يقدر عمل شىء فى المدينة ، والمهاجرون والأوس والخزرج يدٌ واحدة ضده .

ولكن أسيد رضي الله عنه الذى ترفع عن ثاراته الجاهلية ، وعن الطعن فى خصم من خصومه فى الجاهلية ، كان يدعو إلى موقف معاكس من موقف عمر رضي الله عنه يدعو إلى

الرفق معه ، ويبيِّن لرسول الله ﷺ وجهة نظره ، وهى : أن جنون العظمة وعقدة الزعامة عند ابن أبى هى التى تحركه ، ولن يستطيع أن ينطلق من قاعدة الإيمان وهو يرى رسول الله ﷺ قد استلبه الملك ، ولا يرى من المصلحة موقف القتل الذى رآه عمر، وهو الموقف الذى رآه ـ عليه الصلاة والسلام ـ من عبد الله بن أبى.

حين كان عمر رضي الله عنه طرفًا فى النزاع ، أبعد نفسه من أن يكون هو القاتل لزعيم المنافقين واختار عباد بن بشر لينفذ ذلك، لكنه وهو الوزير الثانى فى الدولة يرى استئصال هذه الجرثومة من المدينة ؛ لأنها هى بؤرة الشر.

وحين كان أسيد بن حضير طرفًا فى النزاع أبعد نفسه من أن يطرح فكرة القتل، ودعا إلى الرفق مع هذا الزعيم وهو غير متهم فى الولاء له ، وبينه وبين ابن أبى ثارات وثارات دفنها الإسلام إلى غير رجعة ،وكان القائدان العظيمان عمر وأسيد - رضى الله عنهما ـ ينطلقان من مصلحة الإسلام ، وينطلقان بعيدًا عن ذاتيهما فى مواجهة المشكلة.

ونشير أخيرًا إلى أن رسول الله ﷺ، لم يكن لديه شك فى صدق زيد ، ومن أجل ذلك حدث خاصته وأركان دولته بالأمر قبل أن ينزل الوحى من السماء ، وقبل أن يأتى زيد فيحلف ما قال ، ويعلم ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن هذين القائدين من الكتمان والسرية ، بحيث لا يطَّلع على حديثيهما أحد فى الوجود لأنه سر رسول الله ﷺ، واختارهما لحفظه فلن يفشياه.

١٧ـ وكانت المعالجة الثالثة مع المؤمن العظيم عبد الله بن عبد الله بن أبى.

قال ابن إسحاق : (فحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة أن عبد الله أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إنه بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بن أبى فيما بلغك عنه، فإن كنت لابد فاعلاً . فمرنى به فأنا أحمل إليك رأسه ، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبرَّ بوالده منى ، وإنى أخشى أن تأمر به غيرى فيقتله ، فلا تدعنى نفسى أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبى يمشى على الأرض فى الناس ، فأقتله، فأقتل رجلاً مؤمنًا بكافر فأدخل النار فقال ﷺ : « بل نترفق به، ونحسن صحبته ما بقى معنا »)[1] .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٤٠٥ ،وقال المحقق فيه: « صرح ابن إسحاق بالسماع، وسنده منقطع، ورواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح إلا أن عروة بن الزبير لم يدرك عبد الله كما فى مجمع الزوائد ٩/ ٣١٨ ».

ونجد تتمة الرواية عند الواقدى: (لقد علمت الخزرج ما كان رجل أبرَّ بوالد منى، وما أكل طعامًا منذ كذا وكذا من الدهر ولا يشرب شرابًا إلا بيدى، وإنى لأخشى يا رسول الله ، أن تأمر غيرى فيقتله، فلا تدعنى نفسى أنظر إلى قاتل أبى يمشى فى الناس فأقتله فأدخل النار وعفوك أفضل، ومنُّك أعظم. قال رسول الله ﷺ: « يا عبد الله، ما أردت قتله، وما أمرت به، ولنحسن صحبته ما كان بين أظهرنا » .

فقال عبد الله: يا رسول الله إن أبى كانت هذه البحرة قد اتسقوا عليه ليتوَّجوه عليهم، فجاء الله بك، فوضعه الله ورفعنا بك ، ومعه قوم يُطيفون به ويذكرون أمورًا قد غلب الله عليها)[1] .

فهذا هو العز الأول الذى يركن إليه عبد الله بن أبى ، وقد غرَّه ما رأى من برٍّ ابنه به حتى ليكون الخادم المذلل له لطعامه وشرابه ، وكانت المفاجأة الصاعقة له أن يستعدَّ ابنه ليطيح رأسه عن جسده لو أمر رسول الله ﷺ بذلك ، وبقى فى ذهن عبد الله بن أبى أن يجد من ينصره فى المدينة فقد كان يهدد بحزبه هناك : لئن عدنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . فماذا كان عند دخولها؟ .

(ذكر عكرمة وابن زيد وغيرهما أن الناس لما قفلوا راجعين إلى المدينة ، وقف عبد الله بن عبد الله هذا على باب المدينة - أى ابن عبد الله بن أبى - واستل سيفه، فجعل الناس يمرون عليه فلما جاء أبوه عبد الله بن أبى قال له ابنه: وراءك. فقال: مالك ويلك؟ فقال: والله لا تجوز من هاهنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ فإنه العزيز وأنت الذليل ، فلما جاء رسول الله ﷺ وكان إنما يسير ساقة، فشكا له عبد الله بن أبى ابنه فقال ابنه عبد الله: والله يا رسول الله لا يدخلها حتى تأذن له، فأذن له رسول الله ﷺ فقال: أما إذا أذن لك رسول الله ﷺ فجز الآن)[2] .

وقال أبو بكر عبد الله بن الزبير الحميدى فى مسنده (حدثنا سفيان بن عيينة ، حدثنا أبو هارون المدنى قال: قال عبد الله بن أبى بن سلول لأبيه: والله لا تدخل المدينة أبدًا حتى تقول رسول الله ﷺ الأعز وأنا الأذل ، قال : وجاء النبى ﷺ فقال: يا رسول الله إنه بلغنى أنك تريد قتل أبى ، فوالذى بعثك بالحق ما تأملت وجهه قط

(١) المغازى للواقدى : ٢/ ٤٢١ .

(٢) تفسير ابن كثير ٧ / ٢٣ تفسير سورة « المنافقون ».

هيبة له ، ولئن إن شئت أن آتيك برأسه لأتيتك فإنى أكره أن أرى قاتل أبى)[1] .

وندع للإمام السهيلى التعليق على هذه الحادثة بقوله : (وذكر مقالة عبد الله ابن أبى ، وأن ابنه عبد الله بن عبد الله استأذن النبى ﷺ فى قتل أبيه من أجل تلك المقالة، وفى هذا العَلَم العظيم والبرهان النيِّر ، من أعلام النبوة . فإن العرب كانوا أشد خلق الله حمية وتعصبًا ، فيبلغ الإيمان بهم ونور اليقين فى قلوبهم إلى أن يرغب الرجل منهم فى قتل أبيه وولده تقربًا إلى الله ، وتزلفًا إلى رسول الله ﷺ مع أن رسول الله ﷺ أبعد الناس نسبًا منهم ، وما أخَّر إسلام قومه وبنى عمه وسبق إلى الإيمان به الأباعد ، إلا لحكمة عظيمة ؛ إذ لو بادر أهله وأقربوه إلى الإيمان به لقيل: قوم أرادوا الفخر برجل منهم وتعصبوا له ، فلما بادر إليه الأباعد، وقاتلوا على حبه من كان منهم أو من غيرهم، عُلِم أن ذلك عن بصيرة صادقة ، ويقين قد تغلغل فى قلوبهم ورهبة من الله أزالت صفة قد كانت سدكت[2] فى نفوسهم من أخلاق الجاهلية لا يستطيع إزالتها إلا الذى قطر القطرة الأولى ، وهو القادر على ما يشاء ، وأما عبد الله بن عبد الله : فكان من كتاب النبى ﷺ وكان اسمه الحباب ، وبه كان يكنى أبوه فسماه رسول الله ﷺ عبد الله، مات شهيداً باليمامة رضي الله عنه .

(وروى الدارقطنى مسندًا أن النبى ﷺ مرَّ على جماعة فيهم عبد الله بن أبى فسلَّم عليم ثم ولَّى، فقال عبد الله : لقد عثا ابن أبى كبشة فى هذه البلاد . فسمعها ابنه عبد الله فاستأذن النبى ﷺ فى أن يأتيه برأس أبيه فقال : « لا لكن بِرَّ أباك »)[3] .

لقد كانت هذه الآيات إيذانًا بأفول نجم عبد الله بن أبى ، وكانت قد قتلته معنويًا لا جسديًا ، ومن أجل ذلك وبعد دخول المدينة ، وموقف ابنه منه، تغيَّر حاله ليعانى من الاحتراق البطىء فى قومه (وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنفونه ، فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب حين بلغه ذلك من شأنهم: « كيف ترى يا عمر ؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لى اقتله ، لأرعدت له أنُف ، لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته » قال عمر: قد والله علمت لأمر رسول الله ﷺ

(١) تفسير ابن كثير ٧ / ٢٣ تفسير سورة « المنافقون » .

(٢) سدكت : ثبتت ولزمت .

(٣) الروض الأنف للسهيلى ٤/ ١٨ .

أعظم بركة من أمرى)[1][2] .

١٨- وجاء القتل الثانى لعبد الله بن أبى بوفاة كبير حلفائه وأنصاره فى المدينة، فقد تركنا الجيش وقد استسلم للنوم بعد مسير مضن قرابة عشرين ساعة أو تزيد.

(فما نزلوا حتى ما يسمع لقول ابن أبى فى أفواههم يعنى - ذكرا - وإنما أسرع رسول الله ﷺ بالناس ليدعوا حديث ابن أبى ، فلما نزلوا وجدوا مس الأرض فوقعوا نيامًا، ثم راح رسول الله ﷺ بالناس مبردًا فنزل من الغد ماءً يقال له : بقعاء فوق النقيع، وسرح الناس ظهرهم فأخذتهم ريح شديدة ، حتى أشفق الناس منها، وسألوا عنها رسول الله ﷺ، وخافوا أن يكون عيينة بن حصن خالف إلى المدينة، وقالوا: لم تهج هذه الريح إلا من حدث ، وإنما بالمدينة الذرارى والصبيان، وكانت بين النبى ﷺ وبين عيينة مدةً. فكان ذلك حين انقضائها فدخلهم أشد الخوف، فبلغ رسول الله ﷺ خوفهم ، فقال رسول الله ﷺ: «ليس عليكم بأس منها، ما بالمدينة من نقب إلا عليه مَلَكٌ يحرسه، وما كان ليدخلها عدو حتى تأتوها. ولكنه مات اليوم منافق عظيم النفاق بالمدينة، فلذلك عصفت الريح ». وكان موته للمنافقين غيظًا شديدًا، وهو زيد بن رفاعة بن التابوت، مات ذلك اليوم.

وعن جابر بن عبد الله - رضى الله عنهما - قال: كانت الريح يومئذ أشد ما كانت قط إلى أن زالت الشمس ثم سكنت آخر النهار . قال جابر : فسألت حين قدمت قبل أن أدخل بيتى: من مات ؟ قالوا : زيد بن رفاعة بن التابوت . وذكر أهل المدينة أنهم وجدوا مثل ذلك من شدة الريح حتى دفن عدو الله فسكنت الريح .

وحدثنى عبد الحميد بن جعفر عن أبيه قال : قال عبادة بن الصامت يومئذ لابن أبى : أبا حُباب ، مات خليلك ! قال: أى أخلائى ؟ قال : من موته فتح للإسلام وأهله. قال :من؟ قال : زيد بن رفاعة بن التابوت .قال :يا ويلاه .كان والله وكان ! فجعل يذكر فقلت : اعتصمت بالذنَبِ الأبتر ، قال : من أخبرك يا أبا الوليد

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٤/ ٤٠٦ ، وقال المحقق فيه: « صرح ابن إسحاق بالسماع وسنده منقطع » .
(٢) مقتطفات من المنهج التربوى للسيرة النبوية « التربية الجهادية » للمؤلف ٢ /١٦٧ - ١٦٩ .

بموته ؟ قلت: رسول الله ﷺ أخبرنا الساعة أنه مات هذه الساعة . قال : فأسقط في يديه ، وانصرف كئيبًا حزينًا . قالوا : وسكنت الريح آخر النهار فجمع الناس ظهورهم[1] .

لقد تتابعت الأحداث ، فالمسير الليلي المضني مع طرفي النهار أمس واليوم ، واستيقاظ الناس في اليوم الثاني على هذه الريح الشديدة التي لا تشغل الإنسان إلا بذاته ، وينسى أن حديث جانبي يناله ،وجواب رسول الله ﷺ عن وفاة زيد بن رفاعة حيث تقع المعجزة الربانية في وقتها المناسب لتحول الحديث بعد هدوء الريح إلى وفاة سيد المنافقين ، وكيف كان ابن أبي يعتصم به ، قضت على القالة في مهدها، وأطفأت الفتنة إلى غير رجعة .والتخوف الذي ساد في النفوس من أن يكون عيينة ابن حصن قد نقض العهد، ومضى نحو المدينة ، وليس في المدينة إلا الذراري والنساء، ثم يلم هذا الخوف ودفنه بهذا التطمين النبوي العظيم، الذي ينطلق بالوحي من عند الله:

(ما بالمدينة من نقب إلا عليه ملك يحرسه ، وما كان لعدو أن يدخلها حتى تأتوها) .

بدَّل هذا الوضع خوفهم أمنا، وقلقهم يقينًا وطمأنينة. فقد فرحوا مرتين، فرحوا بوفاة زيد الذي كانت وفاته فتحًا للإسلام وأهله ، وفرحوا بالحراسة الإلهية التي تحفظ ذراريهم ونساءهم في غيابهم ، فما من نقب فيها إلا وعليه ملك يحرسه ، وفرحوا بعودتهم منصورين على أعداء الله ، وبانطفاء فتنة ابن أبي حين خذله ابنه أقرب الناس إليه، والذي كان هو أكبر كنف يستند إليه ، وهو المستعد للإطاحة برأسه. ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ اللهِ ﴾ [2].

أما عبد الله بن أبي فلقد قتل ثلاث مرات :

الأولى : بعد أن فضحه القرآن وكذَّبه، وصدَّق زيد بن أرقم.

الثانية : حين وصله استعداد ابنه لقتله ، ويوم أن وضع السيف على عنقه ليعترف بأنه الأذل ، وأن محمدًا هو الأعز ، ولم يدعه يدخل المدينة حتى أذن له رسول الله ﷺ .

الثالثة : يوم مات كنفه وساعده زيد بن رفاعة بن التابوت ، الذي كان موته كما

---

(١) المغازي للواقدي ٢ / ٤٢٢ ، ٤٢٣ .

(٢) الروم / ٤ ، ٥ .

قال عبادة رضي الله عنه فتحًا للإسلام وأهله وكان من بنى قينقاع، وكان قد أظهر الإسلام وكان كنفًا للمنافقين.

ولا أدل على هذا المقتل من الصورة التى انتهى إليها ابن أبى بعد المريسيع (وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنفونه) وفقد مركزه بين الخزرج إلا من بقى منافقًا مغموصًا عليه بالنفاق فهو يلوذ به، وتحرر الشباب الخزرجى من أى تأثير له عليهم، حيث قضى المنهج التربوى فى البناء أن يبقى وحده فى الساحة أما لو قتل فيصبح الزعيم المظلوم، وينال من التعاطف من القريب والبعيد إشفاقًا عليه، وغدا الورقة الخاسرة.

ورسول الله ﷺ يقول لوزيره الثانى ويحدثه عن أبعاد هذا المنهج، وعن نتائج هذه الخطة :

« كيف ترى يا عمر، أما والله لو قتلته يوم قلت لى اقتله، لأرعدت له آنُفُ لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته » . قال عمر: قد والله علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمرى .

وباتت المدينة ظاهر الأمر على النصر المجلى تشهد عرس رسول الله ﷺ بأهله وتشهد إطلاق سراح بنى المصطلق ودخولهم فى الإسلام ؛ ليتحرك عبد الله بن أبى فى كيد الظلام ، وينفذ أعظم مؤامرة داخلية فى الصف ، انتقامًا لما ناله من قتل.

زعيم النفاق ينتقم
« حديث الإفك »

عن ابن شهاب قال: (حدثنى عروة بن الزبير وسعيد بن المسيِّب وعلقمة بن أبى وقاص وعبد الله بن عتبة بن مسعود عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ زوج النبى ﷺ حين قال لها أهل الإفك ما قالوا ، وكلهم حدثنى طائفة من حديثها وبعضهم كان أوعى لحديثها من بعض ، وأثبت له اقتصاصًا ، وقد وعيت من كل رجل منهم الحديث الذى حدثنى عن عائشة قالوا: وقالت عائشة:

كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفرًا أقرع بين أزواجه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه. قالت عائشة: فأقرع بيننا فى غزوة غزاها فخرج فيها سهمى فخرجت مع رسول الله ﷺ بعد ما أنزل الحجاب ، فكنت أُحمل فى هودجى وأنزل فيه، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك ، وقفل ودنونا من المدينة قافلين ، آذن ليلة بالرحيل فقمت حين آذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأنى أقبلت إلى رحلى فلمست صدرى فإذا عقد لى من جزع ظفار[(١)] قد انقطع فرجعت فالتمست عقدى فحبسنى ابتغاؤه قالت : وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلونى فاحتملوا هودجى فرحلوه على بعيرى الذى كنت أركب عليه وهم يحسبون أنى فيه، وكانَ النساء إذ ذاك خفافًا لم يهبلن[(٢)] ولم يغشهن اللحم، إنما يأكلن العُلقة[(٣)] من الطعام فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه، وكنت جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل وساروا، ووجدت عقدى بعد ما استمر الجيش فجئت منازلهم وليس بها منهم داع ولا مجيب، فتيممت منزلى الذى كنت فيه، وظننت أنهم سيفقدونى فيرجعون إلى. فبينا أنا جالسة فى منزلى غلبتنى عينى فنمت ، وكان صفوان بن المعطل السلمى ثم الزكوانى من وراء الجيش. فأصبح عند منزلى، فرأى سواد إنسان نائم، فعرفنى حين رآنى، وكان رآنى قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفنى،

---

(١) جزع ظفار: الجزع خرز يمانى، وظفار : مدينة باليمن قرب صنعاء.

(٢) لم يهبلن: لم يسْمَنَّ والهبْل: الضخم المسن .

(٣) العُلقة : ما يتبلغ به من الطعام .

فخمرت وجهى بجلبابى ، والله ما تكلمنا بكلمة ، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه وهوى حتى أناخ راحلته ، فوطئ على يدها ، فقمت إليها فركبتها ، فانطلق يقود بى الراحلة حتى أتينا الجيش موغرين فى نحر الظهيرة وهم نزول، فهلك من هلك، وكان الذى تولى كِبرَ الإفك عبد الله بن أبى بن سلول . قال عروة : أُخبرت أنه كان يشاع ويُتحدث به عنده فيُقرِّه ويستمعه ويستوشيه ، وقال عروة أيضًا : لم يسم من أهل الإفك أيضًا إلا حسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة، وحمنة بنت جحش فى ناس آخرين لا علم لى بهم ، غير أنهم عصبة ، كما قال الله تعالى . وإن كِبر ذلك يقال : عبد الله بن أبى بن سلول .قال عروة : كانت عائشة تكره أن يُسبَّ عندها حسان وتقول إنه الذى قال:

فإن أبى ووالده وعرضى ... لعرض محمدٍ منكم وقاء

قالت عائشة: فقدمنا المدينة ، فاشتكيت حين قدمت شهرًا والناس يفيضون فى قول أصحاب الإفك لا أشعر بشىء من ذلك ، يُريبنى فى وجعى ألا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذى كنت أرى منه حين أشتكى ، إنما يدخل على رسول الله ﷺ فيسلِّم ثم يقول: « كيف تيكم ؟ (١) » ثم ينصرف فذلك يريبنى ولا أشعر بالشر، حتى خرجت حين نقهت، فخرجت مع أم مسطح قبل المناصع(٢) وكان متبرزنا ، وكنا لا نخرج إلا ليلاً إلى ليل وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريبًا من بيوتنا، قالت : وأمرنا أمر العرب الأول فى البرية قبل الغائط . وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا . قالت: فانطلقت أنا وأم مسطح وهى ابنة أبى رهم بن المطلب بن عبد مناف ،وأمها بنت صخر ابن عامر خالة أبى بكر الصديق ، وابنها مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلّب فأقبلت أنا وأم مسطح قبل بيتى حين فرغنا من شأننا ، فعثرت أم مسطح فى قرطها فقالت: تعس مسطح، فقلت لها : بئس ما قلت ، أتسبين رجلاً شهد بدرًا؟ فقالت: أى هنتاه(٣)، ولم تسمعى ما قال؟ قالت،قلت:ماذا قال؟» فأخبرتنى بقول أهل الإفك. قالت: فازددت مرضًا على مرضى، فلما رجعت إلى بيتى دخل رسول الله ﷺ فسلَّم ثم قال: « كيف تيكم؟ فقلت له:أتأذن لى أن آتى أبوى ؟ قالت:وأريد أن أستيقن الخبر من قبلهما. قلت: فأذن لى رسول الله ﷺ ، فقلت لأمى: يا أمتاه ، ماذا يتحدث الناس ؟ قالت :

(١) تيكم : إشارة لعائشة رضى الله عنها .
(٢) المناصع : جمع منصع وهو الموضع الذى يتخلى فيه لقضاء الحاجة .
(٣) أى هنتاه : يقال : يا هناه ، وياهنتاه فى النداء للأنثى من غير تصريح بالاسم كيا هذه .

يا بنية ، هونى عليك فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها لها ضرائر إلا أكثرن عليها. قالت، فقلت : سبحان الله ، أوَ لقد تحدث الناس بهذا ؟ قالت : فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لى دمع، ولا أكتحل بنوم، ثم أصبحت أبكى، قالت: ودعا رسول الله ﷺ على بن أبى طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحى يسألهما ويستشيرهما على فراق أهله . قالت : فأما أسامة فأشار على رسول الله ﷺ الذى يعلم من براءة أهله وبالذى يعلم له من نفسه، فقال أسامة: أهلُك ولا نعلم عليهم إلا خيرا، وأما على فقال: يا رسول الله ،لم يضيِّق الله عليك، والنساء سواها كثير ، وسل الجارية تصدقك . قالت: فدعا رسول الله ﷺ بريرة فقال: « أى بريرة، هل رأيتى من شىء يريبك؟ » فقالت له بريرة: والذى بعثك بالحق ما رابنى عليها شيئًا أغمصه[1]، غير أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتى الداجن فتأكله. قالت: فقام رسول الله ﷺ من يومه، فاستعذر من عبد الله بن أبى وهو على المنبر، فقال: « يا معشر المسلمين ، من يعذِرنى من رجل قد بلغنى عنه أذاه فى أهلى، والله ما علمت على أهلى إلا خيرا، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيرا وما يدخل على أهلى إلا معى » قالت: فقام سعد بن معاذ أخو بنى عبد الأشهل، فقال: أنا يا رسول الله أعذِرك، فإن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك، قالت: فقام رجل من الخزرج، وكانت أم حسان بنت عمه من فخذه وهو سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج. قالت: وكان قبل ذلك رجلاً صالحًا ولكن احتملته الحمية فقال لسعد: كذبت لعمر الله، لا تقتله ولا تقدر على قتله، ولو كان من رهطك ما أحببت أن يُقتل فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد ، فقال لسعد ابن عبادة: كذبت لعمر الله لنقتلنه. فإنك منافق تجادل عن المنافقين، قالت: فثار الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ قائم على المنبر قالت: فلم يزل رسول الله ﷺ يخفِّضُهم حتى سكتوا وسكت قالت: فبكيت يومى ذلك كله لا يرقأ لى دمع ، ولا أكتحل بنوم . قالت : وأصبح أبواى عندى وقد بكيت ليلتين ويوماً لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم حتى إنى لأظن أن البكاء فالق كبدى فبينا أبواى جالسان عندى وأنا أبكى. فاستأذنت علىَّ أمرأة من الأنصار، فأذنت لها، فجعلت تبكى معى قالت: فبينا نحن على ذلك دخل رسول الله ﷺ علينا فسلَّم ثم جلس، قالت: ولم يجلس عندى منذ قيل ما قيل قبَلها، ولقد لبث شهرًا لا يوحى إليه فى شأنى بشىء قالت: فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ثم قال: « أما بعد يا عائشة إنه بلغنى عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرِّئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله وتوبى إليه،

(١) أغمصه : أعيبه .

فإن العبد إذا اعترف ثم تاب تاب الله عليه »، قالت: فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعى ، حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لأبى: أجب رسول الله ﷺ عنى فيما قال، فقال أبى: والله ما أدرى ما أقول لرسول الله ﷺ. فقلت لأمى: أجيبى رسول الله ﷺ فيما قال. قالت أمى: والله ما أدرى ما أقول لرسول الله ﷺ ، فقلت: وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ من القرآن كثيرا. إنى والله لقد علمت ، لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر فى نفوسكم وصدَّقتم به، فلئن قلت لكم إنى بريئة لا تصدِّقونى، ولئن اعترفت لكم بأمر ـ والله يعلم أني بريئة ـ لا تصدقونني فوالله لا أجد لى ولكم مثلاً إلا أبا يوسف حين قال: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ (١) ثم تحولت فاضطجعت على فراشى والله يعلم أنى حينئذً بريئة وأن الله مبرِّئى ببراءتى، ولكن والله ما كنت أظن أن الله تعالى منزل فى شأنى وحيًا يتلى، لشأنى فى نفسى كان أحقر من أن يتكلَّم الله فى بأمر، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ رؤيا يبرؤنى الله بها. فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه، ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه فأخذه ما كان يأخذه من البُرحاء(٢)، حتى إنه ليتحدر منه العرق مثل الجمان(٣) وهو فى يوم شات من ثِقل القول الذى أُنزل عليه قالت: فسُرِّى عن رسول الله ﷺ وهو يضحك، فكانت أول كلمة تكلَّم بها أن قال: « يا عائشة، أما الله فقد برأك » قالت فقالت لى أمى: قومى إليه، فقلت، والله لا أقوم إليه، فإني لا أحمد إلا الله ـ عز وجل ـ قالت: وأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ . . . ﴾ العشر آيات(٤) . ثم أنزل الله تعالى هذا فى براءتى. قال أبو بكر الصديق وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره : والله لا أنفق على مسطح شيئًا أبدًا بعد الذى قال لعائشة ما قال فأنزل الله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ . . . ﴾ إلى قوله : ﴿ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(٥) . قال أبو بكر الصديق: بلى والله إنى أحب أن يغفر الله لى. فرجع إلى مسطح النفقة التى كان ينفق عليه وقال: والله لا أنزعها منه أبدًا. قالت عائشة : وكان رسول الله ﷺ سأل زينب بنت جحش عن أمرى فقال لزينب: « ما علمت وما رأيت؟» فقالت: يا رسول الله أحمى سمعى وبصرى، والله ما علمت إلا خيرًا قالت عائشة : وهى التى كانت تسامينى(٦) من أزواج النبى ﷺ فعصمها الله بالورع. قالت: وطفِقت أختها حمنة تحارب لها، فهلكت فيمن هلك، قال ابن شهاب: فهذا الذى بلغنى

(١) يونس /١٨ .
(٢) البُرحاء: الحمى وغيرها وشدة الألم منه.
(٣) الجمان : الفضة.
(٤) النور / ١١ .
(٥) النور / ٢٢ .
(٦) تسامينى: تفاخرنى وتضاهينى.

من حديث هؤلاء الرهط. ثم قال عروة: (قالت عائشة: والله إن الرجل الذى قيل له ما قيل ليقول: سبحان الله فوالذى نفسى بيده ما كشفت من كنف أنثى قط. قالت: ثم قتل بعد ذلك فى سبيل الله)[1] .

وعن الزهرى قال: قال لى الوليد بن عبد الملك أبلغك أن عليًا كان فيمن قذف عائشة؟ قلت: لا. ولكن أخبرنى رجلان من قومك أبو سلمة بن عبدالرحمن وأبو بكر ابن عبد الرحمن الحارث أن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت لهما: كان عليًا مسلِّمًا فى شأنها، فراجعوه فلم يرجع، وقيل: مسلِّمًا بلا شك فيه، وعليه كان أصل العتيق كذلك[2] .

وعن مسروق بن الأجدع قال: حدثتنى أم رومان ـ وهى أم عائشة ـ رضى الله عنهما ـ قالت: بينا أنا قاعدة أنا وعائشة إذ ولجت امرأة من الأنصار فقالت: فعل الله بفلان وفعل بفلان فقالت أم رومان: وما ذاك؟ قالت: ابنى فيمن حدَّث الحديث، قالت: وما ذاك؟ ، قالت: كذا وكذا ، قالت عائشة: سمع رسول الله ﷺ ؟ قالت: نعم. قالت: وأبو بكر؟ قالت: نعم . فخرَّت مغشيًا عليها. فما أفاقت إلا وعليها حمًّى بنافض[3]، فطرحتُ عليها ثيابها فغطيتها. فجاء النبى ﷺ فقال: « ما شأن هذه؟ » . قلت: يا رسول الله، أخذتها الحمى بنافض. قال: « فلعل فى حديث تُحَدُث به؟ » ، قالت: نعم. فقعدت عائشة فقالت: والله لئن حلفت لا تصدقونى، ولئن قلت لا تعذرونى ،مثلى ومثلكم كيعقوب وبنيه: والله المستعان على ما تصفون قالت: وانصرف ولم يقل شيئًا. فأنزل الله عذرها. قالت: بحمد الله لا بحمد أحد ولا بحمدك[4] .

وفى رواية ابن إسحاق (ثم خرج إلى الناس فخطبهم وتلا عليهم ما أنزل الله عليه من القرآن فى ذلك ثم أمر بمسطح بن أثاثة وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش، وكانوا ممن أفصح بالفاحشة فضربوا حدهم)[5] .

قال ابن إسحاق: (ثم إن صفوان بن المعطَّل اعترض حسان بن ثابت بالسيف حين بلغه ما كان يقول فيه، وقد كان حسان قال شعرًا يعرِّض بابن المعطَّل فيه وبمن أسلم من العرب من مُضر فقال:

---

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى لابن حجر ٧ / ٤٣١ ـ ٤٣٥ (٤١٤١) .
(٢) المصدر نفسه برقم (٤١٤٢) .
(٣) حمى بنافض: حمى الرعدة.
(٤) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧ / ٤٣٥ برقم (٤١٤٣) .
(٥) المصدر نفسه برقم (٢٢) .

أمسى الجلابيب قد عزوا وقد كثروا وابن الفُريعة أمسى بيضة البلد

فاعترضه صفوان بن المعطَّل فضربه بالسيف ثم قال كما حدثنى يعقوب بن عتبة:

تلقَّ ذبـــاب السيــف عنــى فإننــى غلام إذا هوجيت لست بشاعر (١)

قال ابن إسحاق:(وحدثنى محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمى: أن ثابت بن قيس بن الشماس وثب على صفوان بن المعطَّل حين ضرب حسَّان، فجمع يديه إلى عنقه بحبل، ثم انطلق به إلى دار بنى الحارث بن الخزرج، فلقيه عبد الله بن رواحة فقال: ما هذا؟ قال: أما أعجبك ضرب حسان بالسيف! والله ما أراه إلا قد قتله. قال له: عبد الله بن رواحة: هل علم رسول الله ﷺ بشيء مما صنعت؟ قال: لا والله. قال: لقد اجترأت، أطلق الرجل . فأطلقه، ثم أتوا رسول الله ﷺ فذكروا ذلك له، فدعا حسان وصفوان بن المعطل. فقال: ابن المعطَّل: يارسول الله آذانى وهجانى فاحتملنى الغضب فضربته. فقال رسول الله ﷺ لحسان : « أحسن يا حسان، أتشوَّهت على قومى أن هداهم الله للإسلام ». ثم قال: « أحسن يا حسان فى الذى أصابك ». قال: هى لك يا رسول الله)(٢).

قال ابن إسحاق: فحدثنى محمد بن إبراهيم: أن رسول الله ﷺ أعطاه عوضًا عنها بيرحاء وهى قصر بنى حديلة اليوم بالمدينة، وكانت مالاً لأبى طلمة تصدَّق بها إلى رسول الله ﷺ، فأعطاها رسول الله حسان فى ضربته. وأعطاه سيرين أمة قبطية . قالت: وكانت عائشة تقول: لقد سئل عن ابن المعطل فوجدوه رجلاً حصورًا ما يأتى النساء ثم قتل بعد ذلك شهيداً (٣) .

١ـ عائشة ـ رضوان الله عليها ـ بنت الثلاثة عشر ربيعًا جاءها فى عام واحد ما يهد الجبال فقد تزوج رسول الله ﷺ خلال عام ثلاثة من أزواجه كن ضرائر لها ولهن من المنزلة الأثيرة عند رسول الله ﷺ ما لا يوصف. فقد تزوج أم سلمة بنت أبى أمية ، زاد الركب عقيلة بنى مخزوم ومن المجاهدات العظيمات اللائى هاجرن إلى الحبشة وإلى المدينة، وذات جمال آسر رأتها عائشة ـ رضى الله عنها ـ أضعاف ما وصف لها بشدة الغيرة منها.

وتزوج زينب بنت جحش ابنة عمته الأثيرة لديه ، والتى كان زواجها بأمر من الله

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٤٢٢، ٤٢٣ .

(٢) المصدر نفسه ٣/ ٤٢٣ ، ٤٢٤ .

(٣) المصدر نفسه ٣/ ٤٢٤ .

تعالى. فالعاقد :الله - عز وجل - والشاهد: جبريل، وهى التى كانت تساميها عند رسول الله ﷺ وتضاهيها كما ذكرت فى أكثر من مناسبة.

وتزوج جويرية بنت الحارث بن ضرار سيد بنى المصطلق، وهى التى منذ أن رأتها كرهت موقفها بين يدى رسول الله ﷺ كما تقول عنها (وكانت امرأة حلوة ملاحة لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه فأتت رسول الله ﷺ تستعينه فى كتابتها، فوالله ما هو إلا أن رأيتها فكرهتها وقلت سيرى منها مثل ما رأيت) وكلما ارتفعت مآثر المرأة كان أشد على قلب عائشة الصغير، ومن أكبر مآثرها ما وصفتها بها عائشة - رضى الله عنها - (فما أعلم امرأة كانت أعظم بركة على قومها منها) .

وبدأت تنافح عن عرينها وهو قلب زوجها سيد الخلق - محمد صلوات الله عليه - من أن يقتحمه أحد ويحل محله كما تنافح اللبؤة عن عرينها، وتواجه خيرة نسوة الأرض خوفًا أن يحللن مكانها.

وفى أتون هذه المعركة جاءها ما أنساها كل هذه الهموم الثقال العضال، جاءها حديث الإفك، ونؤكد ابتداءً أن الحديث جرى على أعقاب غزوة بنى المصطلق كما تذكر رواية البخارى الثانية والتى رواها تعليقًا فى تفسير سورة النور

فعن عائشة قالت: أن النبى ﷺ كان إذا أراد سفرًا أقرع بين نسائه. فأقرع بيننا فى غزاة المريسيع، فخرج سهمى، فهلك فىَّ من هلك.

وكذلك قال ابن اسحاق والواقدى وغيرهما: إن حديث الإفك كان فى غزوة المريسيع[١] .

كما تشير روايات أخرى أن سهمها وسهم أم سلمة - رضى الله عنهما - كان فى هذه الغزوة قالت عائشة: (يا ابن أخى إن رسول الله ﷺ كان إذا خرج فى سفر أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها، وكان يحب ألا أفارقه فى سفر ولا حضر. فلما أراد غزوة المريسيع أقرع بيننا فخرج سهمى وسهم أم سلمة فخرجنا معه، فغنَّمه الله أموالهم وأنفسهم ثم انصرفنا راجعين)[٢] وإن كانت الروايات الصحيحة لم تشر إلى ذلك.

لقد كانت سعيدة جدًا أن تفرَّد بها رسول الله ﷺ وحدها خلال قرابة شهر تحس

---

(١) المغازى من تاريخ الإسلام للذهبى ١/ ٢٦٩ .
(٢) الواقدى فى المغازى ٢/ ٤٢٦ .

أنها وحدها هى التى تملأ وجوده بحبها ،وأكمل الله تعالى سعادتها بانتصار المسلمين فى الغزوة وغنيمته أموالهم وذراريهم ونساءهم، فلم تشبهها معركة قط من قبل إلا غزوة بدر، وأهم ما نشير إليه فى هذه الفقرة هى عظمة النبوة، فهو ﷺ على أرجح الأقوال لم يكلَّف بالقسمة بين نسائه ولكنه تطييبًا لقلوبهن فعل ذلك، وكان يؤثر هذا الجانب على هواه وكلفه الشديد بعائشة أم المؤمنين ـ رضى الله عنها.

(وقال آخرون: بل المراد بقوله: ﴿ تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ ﴾ الآية (١) ، أى : من أزواجك لا حرج عليك أن تترك القسم لهن، فتقدم من شئت وتؤخر من شئت وتجامع من شئت وتترك من شئت، هكذا يروى عن ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة وأبى رزين وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم ومع هذا كان النبى ﷺ يقسم لهن)(٢) .

(...ومن ها هنا اختار ابن جرير أن الآية عامة فى الواهبات، وفى النساء اللاتى عنده أنه مخيَّر فيهن إن شاء قسم ، وإن شاء لم يقسم ، وهذا الذى اختاره حسن جيد قوى، وفيه جمع بين الأحاديث ولهذا قال تعالى: ﴿ ... ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ﴾ أى: إذا علمن أن الله قد وضع عنك الحرج فى القسم فإن شئت قسمت، وإن شئت لم تقسم، لاجناح عليك فى أى ذلك فعلت، ثم مع هذا تقسم لهن اختيارًا منك، لا أنه على سبيل الوجوب، فرحن بذلك واستبشرن به وحملنَ جميلك فى ذلك، واعترفن بمنتك عليهن فى قسمتك لهن، وتسويتك بينهن وإنصافك لهن وعدلك فيهن. وقوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ أى : الميل إلى بعضهن دون البعض مما لا يمكن دفعه كما قال الإمام أحمد.. عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت: كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل ثم يقول : « اللهم هذا فعلى فيما أملك ، فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك » ورواه أهل السنن الأربعة من حديث حماد بن سلمة وزاد أبو سلمة بعد قوله : « فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك » يعنى :القلب . وإسناده صحيح ورجاله كلهم ثقات ؛ ولهذا عقَّب ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا ﴾ أى بضمائر السرائر ﴿ حَلِيمًا ﴾ أى : يحلم ويغفر(٣) .

وكان لابد من الإشارة هنا إلى عظمة إمام المربين الذى يؤثر طيب قلوب نسائه على هواه الذى لم يخفه ﷺ فى عائشة ،ومن جهة ثانية ليكون القدوة لأمته ﷺ بعد وفاته فقد قسم وعدل باختيار منه فكيف بمن يجب عليه ذلك؟!

(١) الأحزاب / ٥١ .
(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ٤٨٤ .
(٣) المصدر نفسه ٥/ ٤٨٥ .

٢ـ ونحن أمام فتاة هى سيدة نساء الدنيا ،وفضلها عليهن كفضل الثريد على سائر الطعام وذلك بعد الأربع (خديجة وفاطمة وآسية ومريم بنت عمران)[١] .وأمام اهتماماتها بصفتها أنثى يعز عليها أن تفقد عقدًا غاليًا عليها، فلم تتمالك يوم فقدته أن تركت هودجها وراحت تسأل عنه ،وكم نحن بحاجة إلى الوقوف طويلاً مع هذه الحاجات الكامنة فى تركيب الأنثى وفطرتها من حبها للزينة وحرصها عليها، وجزعها إن فقدت عقدًا أو سوارًا عزيزًا عليها ماذا تفعل؟

إنه الإسلام العظيم من الخالق العظيم وهو أدرى بمن خلق، وهو أدرى - جل وعلا - بما فطر عليه المرأة من هذا الحب، حتى ليبرز عند سيدة النساء وأميرتهن - عائشة رضوان الله عليها.

رجعت تلتمس العقد الذى انسل من عنقها دون أن تشعر ودون أن تستأذن ودون أن تعلن ،وتحرك الركب دون أن يشعروا بغيابها عن الهودج ،ونلحظ من رواية الواقدى تفاصيل تضفى على هذا التصرف وضوحًا أكثر. فنفاسة العقد عندها أنه رافقها طيلة حياتها منذ دخلت على رسول الله ﷺ فيه (وكانت أمى أدخلتنى فيه على رسول الله ﷺ فلما قضيت حاجتى انسل من عنقى فلا أدرى به، فلما رجعت إلى الرحل ذهبت ألتمسه فى عنقى فلم أجده ،وإذا العسكر قد نفصوا[٢] إلا عيرات، وكنت أظن أنى لو أقمت شهرًا لم يبعث بعيرى حتى أكون فى هودجى فرجعت فى التماسه فوجدته فى المكان الذى ظننت أنه فيه، فحبسنى ابتغاؤه وأتى الرجلان خلافى فرحلوا البعير وحملوا الهودج وهم يظنون أنى به فوضعوه على البعير ولا يشكون أنى فيه، وكنت قبل لا أتكلم إذ أكون عليه فلم ينكروا شيئًا فقادوا بالزمام وانطلقوا .

وإشارة ثانية إلى اهتمامات الأنثى المركوزة فى فطرتها وهى :حرصها على جمال قوامها، ونحافة جسمها كما تشير عائشة - رضى الله عنها - (وكان النساء إذ زاك خفافًا لم يهبلن ولم يغشهن اللحم إنما يأكلن العُلْقة من الطعام) والعلقة هو :ما يسد جوعهن، ويحرصن على تخفيف وزنهن بذلك فشهوة الجمال تفوق عندهن شهوة الطعام ، ومن أجل ذلك لم يحس الرجلان وهما يحملان الهودج بالفرق فيه بين وجود عائشة - رضى الله عنها - وعدم وجودها لخفة وزنها ولعدم حديثها أو كلامها. فليس هناك ما يشير أبدًا إلى غيابها عن الهودج. (فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه وكنت جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل فساروا ووجدت عقدى بعد ما استمر الجيش) .

---

(١) صحيح البخارى ٧/ ٤٣٥ (٤١٤٣) .

(٢) نفصوا : تحركوا .

٣- ويا لعظمة هذه الجارية الحديثة السن التى ندعوا الأبطال ليتعلموا منها رباطة جأشها، وقوة قلبها وشجاعتها (فجئت منازلهم وليس به منهم داعٍ ولا مجيب فتممت منزلى الذى كنت به وظننت أنهم سيفقدونى فيرجعون إلى ،فبينا أنا جالسة فى منزلى غلبتنى عينى فنمت) أى قلب لهذه الفتاة الصغيرة وهى وحدها فى العراء والصحراء ، وليس فى المعسكر داعٍ ولا مجيب والليل ظلمة رهيبة وبرد قارص ،وعلى فطرتها وسجينها تتحدث فلا تبكى ولا تصرخ ولا تذعر ولا ترجُف ولا ترتعد، أى طينة هذه ابنة أبى بكر الصديق؟ هى تربية أعظم بيت فى هذا الوجود ، تربية رسول الله ﷺ الذى تعهدها منذ التاسعة ، وتربية الصديق رضي الله عنه الذى تعدها حتى التاسعة . ويبلغ من شجاعتها وقوة قلبها أن غلبتها عينها فنامت ، وأى نوم لمن يأكل الخوف قلبه، إننا نلقى من الرجال لا من النساء فقط فى مثل هذا الليل البهيم الحالك،وهذا البرد الشديد القارص ما يجعل الرجال الكبار يخشون ويخافون وابنة الثالثة عشرة تغلبها عينها فتنام فى هذه البيد. إننى يشهد الله أحس بعجز كامل عن وصف هذه النفسية العظيمة العالية العجيبة ويكفينا حديثها نفسه فهو فى غنى عن أى تعليق، وهو درس لكل فتاة فى الأرض، كيف تواجه الأزمات، وكيف تتصرف فى المحن، وكيف تتعامل مع النوازل العظام ؟ فلا أدل على طمأنينة قلبها من قولها :وظننت أنهم سيفقدوننى فيرجعون إلى، وهذه الطمأنينة هى التى دفعتها ألا تغادر مكانها، وفى ذلك غاية الحكمة ؛ لأنهم حين يفتقدونها لا شك سوف يأتون لإحضارها - رضى الله عنها.

٤- وشاءت الأقدار الربانية أن يتخلف رجل من المسلمين وهو: صفوان بن المعطل السلمى رضي الله عنه فى مهمة نبوية كلف بها وهو البحث عن مخلفات المعسكر. كما فى رواية الواقدى (وكان صفوان بن المعطل السلمى ثم الذكوانى على ساقة الناس من ورائهم. فأدلج فأصبح عند منزلى فى عماية الصبح) أو كان فى حاجة خاصة له كما تشير بقية الروايات ، وتقول رواية البخارى : (وكان صفوان بن المعطل السلمى ثم الذكوانى من وراء الجيش فأصبح عند منزلى) وها هو صفوان رضي الله عنه وحده كذلك فى عماية الصبح، وهو يحس أنه مسؤول عن هذا الإنسان المتخلف عن المعسكر، ونقف مع رواية البخارى التى تشير إلى أنه لم ينطق أى كلمة حين رأى سواد الإنسان القائم وعرف أنها ظعينة رسول الله ﷺ :

(فرأى سواد إنسان نائم فعرفنى حين رآنى ،وكان رآنى قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفنى فخمرت وجهى بجلبابى، والله ما تكلمنا بكلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه، وهوى حتى أناخ راحلته فوطئ على يدها فقمت إليها فركبتها،

فانطلق يقود بى الراحلة حتى أتينا الجيش موغِرين فى نحر الظهيرة وهم نزول .

سلوا أهل الأرض جميعًا هل عندهم مثل هذه التربية لزوجة رسول الله ﷺ ولصاحب رسول الله، يلتقيان فى عماية الصبح، وترتفع العفة عندهم، بل والله تشرف العفة بهم أن يصمتا فلا تستيقظ إلا على استرجاعه، وتفقه ضرورة الركوب على الراحلة ،وتركبها ويمضى بها دون أى كلمة وأى سؤال، وهى تتلفع بجلبابها منذ أن أحست به فتغطى وجهها، وهو يكتفى بالاسترجاع هذه هى التربية العظيمة لأبناء هذا الجيل وبناته، فهو يعرف رضي الله عنه أن زوج رسول الله ﷺ فى عهدته وفى أمانته، وهو على استعداد أن يقتل ويقطع ويمزق لحمايتها من كل سوء.

وعظمة رسول الله ﷺ فى نفسه، وعظمة حرمة أزواجه تشل لسانه فلا ينطق بكلمة ،ومن جهة ثانية فزوج رسول الله ﷺ التى ترى الدنيا كلها برجالها أقل من ذبابة. وما تنطق بكلمة إكرامًا لزوجها سيد ولد آدم. إنها مدرسة واحدة تخرَّج منها هذا الجيل بإشراف المصطفى ـ صلوات الله عليه ـ ومن الصبح حتى الظهيرة لم تنطق بكلمة ولم ينطق بكلمة، فمن هؤلاء؟

إننا نشهد فى هذه المدرسة التى شاءت إرادة الله تعالى أن تقع المحنة فيها، نشهد قمة الأنوثة، وقمة الشجاعة، وقمة العفة وقمة الحكمة وقمة التربية ، تحدثنا عنها أديبة عصرها وأديبة الأعصر كلها: عائشة بنت الصديق وزوج رسول رب العالمين فى بلاغة قل نظيرها فى التاريخ.

٥ ـ ومن هذا المجتمع العفيف النظيف الشريف إلى ذلك المجتمع الدنِس الرجِس الآسن، الذى يقوده عبد الله بن أبى وقد اكتملت ذلته وصِغاره على يد ابنه الذى أنجبه الإسلام بعد أن أنجبه ابن أبى. وكيف يضع السيف على عنق أبيه فى ذات الله، وثأرًا لرسول الله ﷺ فلا يجوز إلى المدينة حتى يعترف أنه الذليل وأن محمدًا العزيز، ولا يدخلها إلا بإذن رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ وها هو ابن أبى بكل ما يملك من حقد وما يملك من غيظ، وما يملك من كيد، وما يملك من عبقرية ، يجد هذا المنظر، عائشة ـ رضى الله عنها ـ تأتى وحدها مع صفوان بن المعطل السلمى، وتركب على جمله ، فما هذا؟

قالت: (فهلك فىَّ من هلك، وكان الذى تولى كبر الإفك عبد الله بن أبى بن سلول. قال عروة: أخبرت أنه كان يُشاع ويُتحدث به عنده فيقرّه ويستمعه ويستوشيه) .

(وروى أبو معشر عن الزهرى قال: كنت عند الوليد بن عبد الملك فقال: الذى تولى كبره منهم على. فقلت: لا: حدثنى سعيد وعروة وعلقمة وعبيد الله كلهم سمعوا

عائشة تقول: الذى تولى كبره عبد الله بن أبى قال: فقال لى: فما كان جرمه؟ قلت: سبحان الله! أخبرنى رجلان من قومك أبو سلمة بن عبد الرحمن ،وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام أنهما سمعا عائشة تقول: كان مسلما فى أمرى) أخرجه البخارى [1] .

فإذن نحن أمام مجرم تولى كبر هذا الحديث وصاغ أحداثه لكن أخطر ما فيه أنه استطاع أن ينفذ إلى الصف الإسلامى من خلاله، وهنا تكمن جسامة الأمر، فقد حاول فى غزوة المريسيع أن ينفذ فعجز، واستطاعت قيادة الأوس والخزرج أن تتجاوز استثارات الجاهلية. أما هنا فالأمر أكبر والطبيعة البشرية لابد من عرضها من خلال حديث رسول الله ﷺ لنعلم كيف استطاع ابن أبى أن يضرب على وتر هذه الطبيعة ونجح فى ذلك.

أخرج مسلم عن صفية بنت حيى ـ رضى الله عنها ـ قالت: كان النبى ﷺ معتكفًا فأتيته أزوره ليلاً ، فحدثته، ثم قمت لأنقلب فقام معى ليقلبنى[2] . وكان مسكنها فى دار أسامة بن زيد فمرَّ رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبى ﷺ أسرعا، فقال النبى ﷺ: «على رسلكما[3] إنها صفية بنت حيى » فقالا: سبحان الله! يا رسول الله! قال: « إن الشيطان يجرى من الإنسان مجرى الدم، وإنى خشيت أن يقذف فى قلوبكما شراً » أو قال « شيئًا »[4] .

وفى رواية أخرى لمسلم عن أنس: (أن النبى ﷺ كان مع إحدى نسائه فمرَّ به رجل، فدعاه فجاء. فقال: « يا فلان، هذه زوجتى[5] فلانة » فقال: يا رسول الله ،من كنت أظن به فلم أكن أظن بك فقال رسول الله ﷺ: « إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم » [6]) [7] .

(١) المغازى فى تاريخ الإسلام للحافظ الذهبى ١/ ٢٧٨ .

(٢) ليقلبنى: ليردنى إلى منزلى.

(٣) على رسلكما: أى على هيتكما فى المشى فما ها هنا شيء تكرهانه .

(٤) مسلم ٤/ ١٧١٢ (٢٤) (٢١٧٥) .

(٥) هذه زوجتى : هكذا فى جميع النسخ وهى لغة صحيحة وإن كان الأشهر حذفها وبالحذف جاءت آيات القرآن .

(٦) (إن الشيطان يجرى من الإنسان مجرى الدم) قال القاضى وغيره : قيل على ظاهره ، وأن الله تعالى جعل له قوة وقدرة على الجرى فى باطن الإنسان وفى مجارى دمه ، وقيل هى على الاستعارة لكثرة إغوائه ووسوسته فكأنه لا يفارق الإنسان كما لا يفارقه دمه . وقيل إنه يلقى وسوسته فى مسام لطيفة من البدن فتصل وسوسته إلى القلب .

(٧) مسلم ٤ / ٣٩ (٢٣) (٢١٧٤) .

فتغلغل الشيطان فى النفس البشرية لابد أن يقذف فيها شرًا حين ترى رجلاً مع امرأة ليست من محارمه يقود بها جمله وحيدين فى الصحراء دون أن يتعرف على الظروف التى أدت لذلك ،ومعرفة المصطفى ﷺ بهذا الشر المستطير الذى يلقيه الشيطان فى النفس البشرية، حدا به أن يوقف الرجل، أو الرجلين من الأنصار ليؤكد لهما أنه واقف مع زوجته صفية بنت حيى ـ رضوان الله عليها ـ واقشعر جسد المسلم قائلاً: من كنت أظن به فلم أكن أظن بك ، وصدق الأنصارى والأنصاريان لكنه الاحتياط من مواطن الشبهة والبعد عنها.

وقد تدفع الخاطر السيئ مرة ومرة ،ولكن الشيطان المجرم يلح ألف مرة حتى يجد لها فى القلب موقعا. طالما أنه يجرى مجرى الدم، ويتجدد بجريانه ، والمسلم يجب أن يكون يقظا فيدفع وسوسة الشيطان ، وقد اختلفت المواقف من هذه الحادثة.

وأعلاها قمة كان موقف عمر رضي الله عنه الوزير الثانى لرسول الله ﷺ على شديد غيرته وشديد بطشه بالمنافقين والذين يردون موارد الشبه.

(فعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ أنها قالت: لما استلبث الوحى استشار الصحابة فقال له عمر رضي الله عنه : من زوَّجها لك يا رسول الله؟ قال:« الله تعالى » قال : أفتظن أن الله دلَّس عليك فيها ؟ سبحانك ربى هذا بهتان عظيم ، فنزلت)[1] .

فقد كان عمر رضي الله عنه يرى استحالة وقوع هذا الأمر وأسماه (البهتان العظيم) ونزل به الوحى .

المستوى الثانى: الذى يبرئ عائشة ـ رضى الله عنها ـ وقد مثله نموذجان ، ورأت الكذب فيما يُقال :

أ ـ أبو أيوب الأنصارى رضي الله عنه . فقد روى ابن إسحاق عن بعض رجال بنى النجار أن أبا أيوب خالد بن زيد قالت له امرأته أم أيوب: يا أبا أيوب، ألا تسمع ما يقول الناس فى عائشة؟ قال: بلى وذلك الكذب. أكنت يا أم أيوب فاعلة؟ قالت: لا والله ما كنت لأفعله قال : فعائشة والله خير منك.

ب ـ نموذج بريرة ـ رضى الله عنها ـ كما فى رواية البخارى الثانية:(وجاء رسول الله ﷺ ومعه أناس من أصحابه فسألوا جارية لى سوداء كانت تخدمنى فقالوا: «أخبرينا ما علمك بعائشة » فقالت:والله ما أعلم منها شيئًا أعيب من أنها ترقد ضُحىً حتى إن الداجن ـ داجن أهل البيت ـ تأكل خميرها، فأداروها وسألوها حتى فطنت

(١) السيرة الحلبية ٢/٦١٣ .

فقالت: سبحان الله! والذى نفسى بيده ما أعلم على عائشة إلا ما يعلم الصائغ على تبر الذهب الأحمر . فكان هذا وما شعرت) .

وبقول أبى أيوب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ نـزل ثناء الله تعالى علـى أمثـال ومستـويات هذا النموذج: ﴿ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾(١) .

المستوى الثالث: وهو الذى برأ عائشة من هذا الإفك وذكر الخير الذى يعرفه فيها، وقد مثَّله نموذجان كذلك هما:

أ ـ أسامة بن زيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ :(فدعا رسول الله ﷺ على بن أبى طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحى يستأمرهما فى فراق أهله فأما أسامة : فأشار على رسول الله ﷺ بالذى يعلم من براءة أهله وبالذى يعلم لهم فى نفسه من الود فقال أسامة: يا رسول الله أهلك ولا نعلم إلا خيرا).

ب ـ زينب بنت جحش ـ رضى الله عنها ـ : (وكان رسول الله ﷺ يسأل زينب بنت جحش عن أمرى فقالت: أحمى سمعى وبصرى ما علمت إلا خيرًا، وهى التى كانت تسامينى من أزواج النبى ﷺ فعصمها الله بالورع ، وهذا النموذج أثنى الله تعالى عليه كذلك فى كتابه الكريم، ودعا المسلمين لأن يكونوا أصحابه فقال: ﴿ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾ (٢).

المستوى الرابع: وهو الذى لم ينف أصل الأمر فكل بشر يتعرض للخطأ لكنه دعا للتثبت والتحقيق وقد مثَّله على ـ رضوان الله عليه ـ وحفظ لسانه من الخوض فى الأمر.

وأما على فقال: يا رسول الله، لم يضيِّق الله عليك ،والنساء سواها كثير، وأسأل الجارية تصدقك. فدعا رسول الله ﷺ بريرة فقال: أى بريرة :هل رأيت من شيء يريبك؟ قالت: لا والذى بعثك بالحق إن رأيت عليها أمرًا أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن ، تنام عن عجين أهلها فتأتى الداجن فتأكله).

هذه النماذج الأربعة دخلت فى إطار ثناء الله ـ عز وجل ـ ولابد من الوقوف مليًا مع موقف على رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وكيف دخل فى إطار الثناء الربانى مع الإشارة للين موقفه من هذا الأمر.

---

(١) النور/ ١٢ .   (٢) النور/ ١٦ .

كما تشير رواية البخارى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ دعا أسامة وعليًا يستشيرهما فى فراق أهله ، وكما هو اللفظ فى نص عائشة : (يستأمرهما فى فراق أهله) وقد نظر على رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من جانب غير الجانب الذى انطلق منه أسامة - رضوان الله عليهما - فالجانب الذى استحوذ على اهتمامه هو نفسية المصطفى ﷺ وقد أهمَّه وأغمَّه هذا الأمر، وهو لا يرى أن يملأ هذا الأمر حياة رسول الله ﷺ همًّا وغمًّا. والله تعالى لم يضيِّق على نبيه، وليست هى المرأة الوحيدة فى الدنيا والنساء غيرها كثير (يا رسول الله لم يضيِّق الله عليك والنساء سواها كثير) ولو وقف الأمر عند هذا الحد ؛ لخرج على رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من إطار المواقف الثلاثة ؛ لأن الأمر يعنى : احتمال وقوع الأمر بناء على هذه المشورة ،لكن عظمة عائشة - رضى الله عنها - وذروة بلاغتها نقلت لنا الموقف كاملاً وهو الجانب الثانى من الجواب (واسأل الجارية تخبرك) فأقرب الناس لعائشة وألصق الناس بها وأدرى الناس بها ، جاريتها التى تعيش معها صباح مساء ، ويريد على - رضوان الله عليه - أن ينزع من نفس نبيه محمد ﷺ ، الهم والغم بالاطمئنان إلى سلامة الموقف ، أو احتمال وقوعه من خلال جواب الجارية، وكانت إشارة على رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هى التى أزاحت الهم عن نفس الحبيب المصطفى - صلوات الله عليه - وحسمت الأمر فى قضية فراق أهله، فجاء جواب الجارية - رضوان الله عليها - حاسمًا فى نفى وقوع هذا الأمر واحتمال وقوعه، وقالت: والذى نفسى بيده ، ما أعلم على عائشة إلا ما يعلم الصائغ على تبر الذهب الأحمر.

(وهذا الكلام الذى قاله على حمله عليه ترجيح جانب النبى ﷺ لما رأى عنده من القلق والغم بسبب القول الذى قيل.... وقال الشيخ أبو محمد بن أبى جمرة: لم يجزم على بالإشارة بفراقها ؛ لأنه عقب ذلك بقوله: وسل الجارية تصدقك، ففوض الأمر فى ذلك إلى نظر النبى ﷺ فكأنه قال: إن أردت تعجيل الراحة ففارقها ، وإن أردت خلاف ذلك فابحث عن حقيقة الأمر إلى أن تطلَّع على براءتها؛ لأنه يتحقق أن بريرة لا تخبره إلا بما علمته، وهى لم تعلم من عائشة إلا البراءة المحضة، والعلة فى اختصاص على وأسامة بالمشاورة ؛ أن عليًا كان عنده كالولد لأنه رباه من حال صغره ثم لم يفارقه، بل وازداد اتصاله بتزويج فاطمة فلذلك كان مخصوصًا بالمشاورة فيما يتعلقبأهله لمزيد اطلاعه على أحواله أكثر من غيره، وكان أهل مشورته فيما يتعلق بالأمور العامة أكابر الصحابة ، كأبى بكر وعمر، وأما أسامة فهو كعلى فى طول الملازمة

ومزيد الاختصاص والمحبة) (١) .

وروايتا البخارى لا تشيران إلى ضرب على لبريرة ـ رضوان الله عليهما ـ إنما تشيران إلى السؤال فقط، وكان هذا الجواب، ولو أخذنا برواية ابن إسحاق. لكان هذا يدعّم صحة الرأى الذى أشرنا إليه ، وضرب الجارية وإصرارها على تبرئة عائشة ، يمسح نهائيا من نفس رسول الله ﷺ أى أثر لهذا الحديث وينفى وقوعه ، ومن أجل هذا وجدناه ـ عليه الصلاة والسلام ـ وبناء على استشارة على وأسامة ـ رضوان الله عليهما ـ والتحقيق مع الجارية فصعد المنبر، ويتحدث عن براءة أهله، وينال من الذين يخوضون فى هذا الحديث، وحمى على رضي الله عنه سمعه وبصره وحفظ لسانه فلم ينطق بشىء فى هذا الموضوع .

المستوى الخامس : الذين لم ينفوا وقوع الأمر ولم يثبتوه، لكنهم لم يخوضوا فيه، ولم يقيسوا الأمر على أنفسهم وأزواجهم كما فعل أبو أيوب رضي الله عنه بل لم تستبعدوا ذلك إنما حفظوا لسانهم عن الخوض فيه ، وهذا أمر جماهير المسلمين.

المستوى السادس : الذين خاضوا بالإفك وتحدثوا به من داخل الصف الإسلامى، وكان على رأسهم ثلاثة هم : مسطح بن أثاثة ، وحسان بن ثابت، وحمنة بنت جحش. وهم الذين جاء القرآن بذم موقفهم والتشنيع عليه، ثم جاء بحدهم بعد ذلك ، وهم من قادة وسادة الصف الإسلامى ويتبوؤون أعظم المواقع فيه . فحسان بن ثابت شاعر رسول الله ﷺ وأعظم المدافعين عنه وعن الإسلام، ومسطح بن أثاثة من جيل بدر ، ومن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ،وربيب أبى بكر الصديق رضي الله عنه ، وحمنة بنت جحش زوج الشهيد مصعب بن عمير ، ثم زوج عبد الرحمن بن عوف ، من خيار الجيل الأول، وهؤلاء الثلاثة هم الذين حدوا وقال الله تعالى فيهم :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ . . . لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُوْلَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ . وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ . إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ . . . يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(٢).

---

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٨/ ٤٦٨ . (٢) آيات حديث الإفك فى سورة النور / ١١ ـ ٢١ .

ولعل مسؤولية الصف المسلم فى قاعدته العريضة أنه لم يقف كله موقفًا موحدًا فى المواجهة والرفض ، فأكثريته صامتة لا تستبعد وقوع الأمر ولا تخوض فيه.

إنما ذكر القرآن أعلى مستوياته وذكر أدنى مستوياته ، ولم يتحدث عن الصف العريض فيه إلا باللوم ؛ لأنه لم يقل مثل مقال أبو أيوب ﴿ **لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ** ﴾ .

المستوى السابع: وهو المستوى الذى فجَّر الحدث وسعَّر النار، وأضرم الحطب ومدَّها بالوقود المستمر على أمل أن يدمِّر هذا الصف، وهو خارج هذا الصف ، وهو مستوى عبد الله بن أبى ، والذى اكتفى القرآن بقوله فيه: ﴿ **وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾ .

٦ـ وهنا نرى مكمن نجاح ابن أبى أن الصف لم يقف سدًا منيعًا أمام فريته. وذلك لأن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم فى العروق وسرعان ما يقذف فى النفس الشر، وجاءت هذه الحادثة المثيرة للشبهة، والمثيرة للتساؤل. فركبها ابن أبى، وقال القرآن الكريم عن جميع المستويات ، الدنيا على تفاوتها القول الفصل : ﴿ **لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ** ﴾ ابتداء ممن لم يستبعد وقوعه، أو صمت عن القالة فيه. أو شارك بلسانه بنزر قليل أو يسير، أو خاض فيه خوضًا، أو تعاطف مع الخائضين فلكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم.

لكن النجاح الأكبر الذى حققه ابن أبى ، هو فى إفساد الصف الداخلى وتوتر العلاقات فيه، ورفع هذا التوتر إلى درجة المواجهة والقيام بتصرفات فردية من نماذج عالية فى الصف دون إذن رسول الله ﷺ ، وهذا الحد من الخلل لم يحدث إطلاقًا منذ أن دخل رسول الله ﷺ المدينة ، ولنشهد عظمة إمام المربين فى مواجهة هذا الخلل، ورأب الصدع فى الصف المخلخل.

أ ـ فقام رسول الله ﷺ فاستعذر من عبد الله بن أبى بن سلول . فقال وهو على المنبر: « يا معشر المسلمين من يعذرنى من رجل قد بلغنى عنه أذاه فى أهلى ، والله ما علمت على أهلى إلا خيرا ، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيرا ولا يدخل على أهلى إلا وهو معى » . فقام سعد بن معاذ وهو أخو بنى عبد الأشهل فقال: يا رسول الله أعذرك، فإن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك. قالت: فقام رجل من الخزرج وكانت أم حسان بنت عمه من فخذه وهو سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج قالت: وكان قبل ذلك رجلاً صالحًا. ولكن احتملته

الحمية فقال: كذبت لعمرو الله لا تقتله ولا تقدر على قتله ، ولو كان من رهطك ما أحببت أن يُقتل. فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد، فقال لسعد بن عبادة : كذبت لعمرو الله لنقتلنه. فإنك منافق تجادل عن المنافقين. قالت: فثار الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ، ورسول الله ﷺ قائم على المنبر. قالت: فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا وسكت.

لو كان هذا الحدث مع أى ملك من ملوك الدنيا لأرسل مخابراته فقطعت مئات الألسنة وقُطّعت مئات الرؤوس وسجن الآلاف من الذين يخوضون فى عرض البيت المالك ، لكننا أمام رسول رب العالمين، الرحمة المهداة للبشرية ، ومربى هذه البشرية على الخير ،وداعيها إلى الله سبحانه ، ومخرجها من الظلمات إلى النور.

فقد هدَّ الحدث رسول الله ﷺ وأغم ذاته الشريفة أن يتناول الحديث أحب خلق الله إليه عائشة ـ رضى الله عنها ـ وصمت عن الحدث لعله ينتهى ويكف الوالغون فيه عن الحديث فيه ، لكنه زاد انتشاراً ، والتربية الربانية تدع النفوس تتفاعل مع الحدث سلبًا أو إيجابًا دون أى تدخل من الوحى، لتنكشف النفوس والمعادن على حقيقتها ، ورسول الله ﷺ البشر ، لا يستطيع أن يقطع بشىء ما لم يأته الوحى من السماء ، وشاءت إرادة الله تعالى أن يمضى شهرٌ كامل على أعصاب المصطفى ﷺ ، فاحتمل ما لم يحتمله بشر على الوجود ، ولو كان فى غير بيته لكان حرًا فى التصرف، لكنه لا يستطيع أن يفعل شيئًا ، حتى لا يكون الأمر ثأرًا لذاته الشريفة ، وهو المبرأ من الهوى، وهو الإنسان الكامل فى الوجود ،ومضى ﷺ فى الخطوات التالية التى تعطينا المنهج التربوى فى مواجهة الخلل الداخلى فى الصف فيما يتعلق بالقيادة وشخص القائد.

ب ـ التمهل قبل إصدار الحكم : والرصد للأقوال ومصادرها وطبيعتها ونخل هذه الأقوال والتعرف على مصادرها ودوافعها ، وتعتبر هذه من أهم المراحل اللازمة وأدقها بحيث لا تتدخل فيها الأهواء الشخصية ، ولا التوجيه المباشر فى التحقيق ليخدم هدفًا معينًا، ولا الرغبة البشرية بحيث يندفع التحقيق فى تلبية هذه الرغبة، فقد مضى قرابة شهر كامل، ولم تشر عائشة ـ رضى الله عنها ـ إلى أى تصرف أو حكم أو موقف من رسول الله ﷺ فى هذا الموضوع، إنما كانت مرحلة تقصٍ وسماع للأخبار، وتعرف على دوافعها ووقائعها.

جـ ـ مرحلة الاستشارة : وذلك على المستويات العليا الموضوعية البعيدة عن الصلة بالحدث نفسه ، فالأمر الوحيد الهام الذى لم يستشر فيه رسول الله ﷺ الصديق هو أمر حادثة الإفك ، فقد حفظ ـ عليه الصلاة والسلام ـ مشاعر هذا الأب العظيم من أن

تخدش ، ولو كان هو وزيره الأول، ويعرف ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن الصديق لن يتمكن أن يشير بشيء فهو مثل رسول الله ﷺ بالنسبة لهذا الأمر، لا يملك نفيًا ولا يملك إثباتًا ، إنما لجأ ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى الوزير الثانى عمر رضي الله عنه فهو خالٍ من الغرض فى هذا الأمر، ولجأ إلى على وأسامة، وهما ذوى قرابة ماسة فى البيت النبوى ومن أهل بيته ﷺ وأدرى الناس بطبائعه ومداخله، وقد أشرك على رضي الله عنه بريرة التى تتصل بعائشة صلة يومية مباشرة. وانتهت الاستشارة باتجاه التبرئة والبعد عن الريبة، وأنها ـ رضى الله عنها ـ كما قالت بريرة : والذى نفسى بيده ما أعلم عن عائشة إلا كما يعلم الصائغ عن تبر الذهب الأحمر .

د ـ مرحلة المواجهة : وذلك بعد التقصى والاستشارة، حيث وقف ـ عليه الصلاة والسلام ـ قائلاً وهو مطمئن: « من يعذرنى من رجل قد بلغنى عنه أذاه فى أهلى ، والله ما علمت على أهلى إلا خيرا ، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيرا » . ورسول الله ﷺ يقصد عبد الله بن أبى فهو الذى يسعر الحرب ويشعل النار ويضرم الحطب ، ومن خلال تقصيه ﷺ كان يود مواجهة ابن أبى بالذات من قومه كما تقول عائشة ـ رضوان الله عليها ـ فقام رسول الله ﷺ فاستعذر من عبد الله بن أبى وهو على المنبر ، وأدب النبوة الخالد ، الابتعاد عن تجريح الأشخاص ، فلم يذكره باسمه إنما ذكره بقوله : « من يعذرنى من رجل » دون ذكر اسم ذلك الرجل، وهو معروف لدى المسلمين جميعًا ، وما موقفه بالمريسيع بسر.

هـ ـ مواجهة المضاعفات الناشئة عن المواجهة : وتكلم سعد بن معاذ رضي الله عنه فلم يخرج عن أدب النبوة بكلمة واحدة ، وكان جوابه واضحًا بينًا صريحًا دون أن ينال من أحد. قال رضي الله عنه : أنا يا رسول الله أعذرك، فإن كان من الأوس ضربتُ عنقه فهو سيد الأوس، ولا يرى جزاءً لهذه الفرية إلا ضرب العنق، وهو يملك صلاحيته على قومه ، وسينهى الأمر بلحظة واحدة. إنها قمة التخلى عن الذات، وتقديم طاعة الله ورسوله على الأهل والعشيرة والولد ، وآن لسعد ألا تأخذه فى الله لومة لائم.

(وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك) فحافظ على أدب الأخوة بينه وبين الخزرج فقال: (وإن كان من إخواننا) والفرق كبير بين أن يقول : (من الخزرج) أو يقول: من إخواننا من الخزرج ، فهى روح هذا الدين التى اختلطت بدم سعد وعصبه وعظمه، فلا يذكر الخزرج إلا بقوله : (إخواننا) بعد أن كانوا أعدى العدو ، ولم يشر رضي الله عنه إلى ضرب عنقهم ، وإنما ترك الأمر لرسول الله ﷺ ، ورواية البخارى أدق من رواية ابن إسحاق فعند ابن إسحاق:

(قال أسيد بن حضير: يا رسول الله ، إن يكونوا من الأوس نكفيكهم، وإن يكونوا من إخواننا الخزرج ، فمرنا بأمرك فوالله إنهم لأهل أن تضرب أعناقهم. وفى هذا النص شيء من الإثارة للخزرج يحتمل ثورة سعد بن عبادة رضي الله عنه أما رواية البخارى فتنفح بالأدب الجم مع الخزرج) .

قال سعد بن معاذ :(... فإن كان من الأوس ضربت عنقه ، وإن كان من إخواننا من الخزرج ، أمرتنا ففعلنا أمرك) ، لكننا نرى ثورة سعد بن عبادة لم تكن أسبابها استثارته فى النيل من عبد الله بن أبىّ، إنما اتجه ذهنه إلى حسان بن ثابت رضي الله عنه وحسان هو من هو فى الأنصار كعبًا وموقعًا وسيادة ،وأم حسان بنت عمه من فخذه،ولم ينبهنا إلى هذا المعنى إلا الأديبة العظيمة عائشة ـ رضى الله عنها ـ فهى التى قالت لنا ابتداء: (فقام رسول الله ﷺ فاستعذر من عبد الله بن أبىّ وهو على المنبر) وهى التى قالت انتهاء: فقام رجل من الخزرج ، وكانت أم حسان بنت عمه من فخذه وهو سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج . وعندنا إذن سوء تفاهم حول الشخص الذى يطلب ـ عليه الصلاة والسلام ـ الإعذار منه ، وعندنا تعبئة معنوية من عبد الله بن أبىّ فى الموضوع ، ولا نتصور أبدًا أن تكون ثورة سعد دفاعًا عن ابن أبىّ وهو الذى سقط فى الحمأة السابقة ، وفضحه القرآن أيما فضيحة. إنما كانت ثورته لحسان بن ثابت شاعر الرسول العظيم والذى خاض فى الإفك. وتعيد عائشة ـ رضى الله عنها ـ الأمر إلى أن أم حسان قريبة سعد فهى (الفريعة بنت خالد بن.... ثعلبة ، وقوله : من فخذه بعد قوله : بنت عمه إشارة إلى أنها : ليست بنت عمه لحًا ؛ لأن سعد بن عبادة يجتمع معها فى ثعلبة) (١) .

واندفاع أسيد بن حضير للذود عن سيد قومه وابن عمه سعد كان فيه كذلك استثارة لحميته فى مواجهة سعد بن عبادة فقال: كذبت لعمرو الله لنقتلنه فإنك منافق تجادل عن المنافقين.

ووقع أسيد رضي الله عنه بالظن الذى وقع به سعد ؛ حيث فهم سعد بن عبادة خطأ أى : أنه يجادل عن عبد الله بن أبىّ ، ومن أجل ذلك اندفع قائلاً: لنقتلنه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين.

وفى رواية البخارى الثانية (قام رسول الله ﷺ فىَّ خطيبًا فتشهد فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: « أما بعد أشيروا على فى ناس أبَنُوا (٢) أهلى ، وايم الله ما

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٨/ ٤٧٢ .
(٢) أبنوا: عابوهم ورموهم بخلّة سوء .

علمت على أهلى من سوء، وأبنوهم بمن والله ما علمت عليه من سوء قط، ولا يدخل بيتى قط إلا وأنا حاضر ولاغبت فى سفر إلا غاب معى » ، فقام سعد بن معاذ فقال: ائذن لى يا رسول الله أن نضرب أعناقهم ، وقام رجل من بنى الخزرج وكانت أم حسان من رهط ذلك الرجل فقال: كذبت ،أما والله لو كانوا من الأوس ما أحببت أن تضرب أعناقهم ، حتى كاد يكون بين الأوس والخزرج شر فى المسجد وما علمت) (١) .

فقد نفذ الشيطان فى لحظة ضعف بشرية ، وأدخل ظن السوء فى قلب سيدى الأوس والخزرج :سعد بن عبادة ، وأسيد بن حضير ، وتفاعلت كلمة القائدين فانطلقت شرارًا يتلظى فى قلوب جماهير الأوس والخزرج ، وعلا اللغط والخلاف، وتثاور الحيان.

ها هو رسول رب العالمين يرى هذا الامتحان الجديد،والشر الأكبر يقع بين الحيين، أحب أنصاره إليه،وفى لغط يمس شرفه العظيم،فما ينحاز إلى أحد ويرتفع فوق بشريته ليكون هدفه الأعظم هو تجاوز هذا الشرخ،وتفادى هذا الكارثة،فتثاور الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ قائم على المنبر فلم يزل ﷺ يخفضهم حتى سكتوا وسكت ،وإنها المرة الأولى منذ خمس سنوات التى يفقد فيها سعد بن عبادة رضي الله عنه حلمه وهذا ما تـعنيه عائشة ـ رضوان الله عليها ـ بقولها: (وكان قبل ذلك رجلاً صالحًا) أى:لم يعرف عنه هذه الحمية من قبل ، فهو النقيب العظيم الذى وجه طاقات الأنصار والخزرج لفداء هذا الدين. وحين نسترجع مستوى التربية العظيم الفائق نجد هذه الزلة لا تتناسب أبدًا معهما فكلاهما كانا يتسابقان ويتنافسان فى الفداء والجهاد والتضحية ، ولم يكن ليقع فيهم ذلك التنافس الجاهلى للغضب للذات والثأر للنفس، وجواب أسيد رضي الله عنه السيد الثانى للأوس لم يكن على المستوى الرفيع للتربية الربانية النبوية العظيمة لهذا الجيل.

وتاريخهما كله ينضح باستعلائهما عن هذه الصغائر طيلة حياتهما، فما ندت من سعد، ولا ندت من أسيد طيلة هذه السنوات الخمس بادرة أو زلة مثل هذه البادرة ، وهذه الزلة ولعلها تكون قد برزت من رجل عادى من غمار الأوس والخزرج أو من زعيم المنافقين كما شهدناها، أما ظهورها من أعظم قادة هذا الجيل ، فهى لم تظهر من فراغ ، إنما ظهرت من التعبئة العنيفة التى يقودها ابن أبىّ وراء الكواليس، وقد كان الأوس بعيدين جدًا عن مثل هذه التندبة ، وليس فى صفهم أمثال ابن أبىّ فبقى صفهم نظيفًا من قالة السوء هذه، أما فى صف الخزرج ولا يمكن أن ننكر أبدًا أن ابن أبىّ نجح

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى للحافظ ابن حجر ٨/ ٤٨٧ (٤٧٥٧) .

فى إيغار الصدور، وبث الفتنة واستجاب له من كرام الصف من استجاب ، على تنوع المستويات التى ذكرناها سابقًا ، وكان اتجاه النبى ﷺ هو فصل ابن أبىّ عن قومه ، لكن الأمر سرى باتجاه آخر ؛ حيث فهمه سعد أنه يتعرض للمسلمين الصالحين من قومه ، وأن يرى القتل يقع فيهم وشيكا فلم تحمله نفسه فى ذلك.

غير أن قيادة النبوة العظيمة الخالدة التى ربت هذا الجيل، والتى سيطرت على فتنة المريسيع هى هى نفسها التى بقيت تهدئ هذه النفوس الثائرة التى اشتعل نار الحمية فيها حتى سكتوا ،وكأننا مع هذه النفس الخالدة. نفس أعلى البشرية كعبًا وعظمة وشعورًا، تكاد تفعم من الألم ، فهو يريد أن يبتر فتنة الحديث فى أهله، إذ تشتعل الفتنة فى أكبر قياداته، وإذا الصف المتراص الملتحم المتحد يتخلخل ويتوتر ويستعد للمواجهة ، فنسى الهدف الأول الذى غدا صغيرًا أمام خسارة جيشه والصفوة من صحبه ، وليت شعرى أى المحنتين أعظم وأشد وقعًا على نفسه الشريفة ـ صلوات الله عليه !

والله تعالى شأنه يدع الجيل يخوض كما يشاء، لتبلغ المحنة ذروتها ، وكأن ابن أبىّ اليوم فى أحلى أعراسه ، وقد تحققت أعظم أحلامه فى تفجير هذا الصف الذى عجز خمس سنوات عن النفاذ داخل هذا السد المنيع والسور العظيم، وهو اليوم يجد القيادات الكبرى تغضب ، وتستجيب الجماهير لها فى ثورة عارمة كان يمكن أن تأكل الأخضر واليابس ؛ لولا تغلغل حب النبى ﷺ فى أفئدتهم فاستجابوا لتوجيهاته وصمتوا لتهدئته، ولا شك أن هذه النتيجة قد أكلت قلب ابن أبىّ أن فوت القائد العظيم عليه هدفه .

و ـ **مرحلة المفاتحة مع صاحب الشأن** : ولجأ إليها رسول ﷺ لحل نهائى أن يفاتح أم المؤمنين فى الأمر وأى مستوى من الثقة بين رسول الله ﷺ وبين زوجته!!

لقد رأى رسول الله ﷺ عائشة تدخل المدينة راكبة على جمل صفوان بن المعطل السلمى ، ويكفى هذا المنظر لرجل آخر أن يأتى بالسيف فيقط رأس عائشة وصفوان عن جسديهما وانتهى الأمر .

فهى الغيرة العمياء التى لا تعرف العذر لأحد ، ولو كان عندنا أعلى مستوىً من الحلم فى الأرض، من أى بشر لضبط أعصابه التى تشتعل فيها النار حتى يأتى المساء ويأوى إلى زوجه فيسألها عن جلية الخبر ، لكننا مع سيد ولد آدم ﷺ ، وقد رأى هذا المنظر وهو أعرف الناس بزوجه عائشة ـ رضى الله عنها ـ وثقته فيها لا يمكن أن تتزحزح قيد أنملة ، يصبر رسول الله ﷺ شهراً كاملاً لا يفاتحها بشىء ، وهى لطيفة ربانية ، فالله تعالى الذى جبل نبيه بقوله : ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾ (١) وشاءت

(١) القلم / ٤ .

إرادته سبحانه أن يستمر حديث الإفك شهراً ليأخذ كل أبعاده ، وتنكشف النفوس كلها لتأتى التربية بعدها وقد برزت كل الأخطاء، وبرزت كل المنحنيات ، وبرزت كل الفضائل كذلك، فماذا يجرى بأعصاب هذه الجارية الحديثة السن لو عرفت بولغ الناس فى عرضها شهرا كاملاً دون موقف ؟ إنها فى أقل من يومين أصابتها الحمى ، وفى أقل من يوم كانت تبكى حتى تظن أن البكاء فالق كبدها ، ولا يرقأ لها دمع فكان اللطف الربانى بحبيبه المصطفى ﷺ أن لم يصل الخبر إلى مسامعها إلا فى اليومين الأخيرين قبل الوحى، والمدينة تضج بحديثها وتلغو فى عرضها وهى لا تدرى، ولعل مرضها والوعكة التى ألمت بها حدت برسول الله ﷺ أن يصبر عليها الشهر كله، ويراعى وضعها الصحى والنفسى فلا يحدثها بشىء مما يخوض به الناس، وحاول اجتثاث الأمر وتأجيل المفاتحة ، لكنا شهدنا تفاقم الأوضاع عبر تلك المعالجة ، وفيه ملاطفة الزوجة وحسن معاشرتها والتقصير من ذلك عند إشاعة ما يقتضى النقص وإن لم يتحقق ، وفائدة ذلك : أن تتفطن لتغير الحال فتعتذر أو تعترف ، وأنه لا ينبغى لأهل المريض أن يعلموه بما يؤذى باطنه ؛ لئلا يزيد ذلك فى مرضه، وفيه السؤال عن المريض ، وإشارة إلى مراتب الهجران بالكلام والملاطفة ، فإذا كان السبب محققًا فيترك أصلاً ، وإن كان مظنونا فيخفف، وإن كان مشكوكًا فيه أو محتملاً فيحسن التقليل منه لا للعمل بما قيل ، بل لئلا يظن بصاحبه عدم المبالاة بما قيل فى حقه ؛ لأن ذلك من خوارم المروءة [1] .

٧ ـ ونجدنا مساقين إلى أن نقف مع قلب هذه الفتاة الصغيرة كيف كان وقع الخبر عليه، فهى لاحظت شيئًا لا يتناسب مع مستوى الحب لها من حبيبها المصطفى ـ عليه الصلاة والسلام ، فقدمنا المدينة، فاشتكيت حين قدمت شهرًا ، والناس يفيضون فى قول أصحاب الإفك ، وأنا لا أشعر بشىء من ذلك ، وهو يريبنى فى وجعى أنى لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذى كنت أرى منه حين أشتكى ، إنما يدخل علىَّ رسول الله ﷺ ، ثم يقول: « كيف تيكم؟ » ثم ينصرف فذاك الذى يريبنى ولا أشعر بالشر ، ولا تعرف سر خفة هذا اللطف، وهى لم تذنب فى ضميرها شيئًا يقتضى هذا العتب ، وهو ـ عليه السلام ـ لا يفاتحها بشىء . ولو كان من أمر يقتضى المفاتحة لفعل، وهى كذلك لم تسأله ، وهى الفتاة المدللة المدلهة التى عوَّدها ـ عليه الصلاة والسلام ـ على أن تترع منه كؤوس الود واللطف والحب فتترع منها ما شاء الله لها أن تترع ، ثم كانت تلك الخرجة القاتلة ، يوم خرجت مع خالتها أم مسطح بن أثاثة تتبرز . وراعها أن تدعو أم مسطح على ابنها مرتين بالتعاسة ، وهو البدرى العظيم، وبطبيعة التربية

---

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى للحافظ ابن حجر ٨/ ٤٧٩ .

التى تلقتها فى بيت الصديقية ، ثم فى بيت النبوة لم تصبر على سباب رجل من أهل بدر ، فقالت لخالتها بعنف: بئس ما تقولين أتسبين رجلاً شهد بدراً؟! قالت: أى هنتاه أو لم تسمعين ما قال؟ قالت : قلت: وما قال؟ فأخبرتنى بقول أهل الإفك .

ما أعتقد أن عائشة مرَّ عليها فى حياتها أعنف من هذه الكارثة ، حتى ولا زواج رسول الله ﷺ بضرائرها. وطعن الشريف البرىء بعرضه الموت أهون عليه منه ، وخاصة عندما يكون من ابن خالتها مسطح البدرى العظيم ، ومن الناس كلهم ومن المجتمع كله .

أما فى رواية ابن إسحاق فتتحدث عن هول الصدمة فتقول: فوالله ما قدرت على أن أقضى حاجتى ، ورجعت فوالله مازلت أبكى حتى ظننت أن البكاء سيصدَّع كبدى . وفى رواية البخارى الثانية: وركبتنى الحمى فحممت . وعند الطبرانى بإسناد صحيح قالت: لما بلغنى ما تكلموا به هممت أن آتى قلثا فأطرح نفسى فيه (١) .

لكنها لا تزال تتمالك ، فعادت مسرعة إلى البيت والتقت بحبيبها المصطفى ،وهى لا تجرؤ أن تفاتحه بهذا الحديث ، ولا تدرى أعنده علم به أم لا ؟ فازددت مرضًا على مرضى ، فلما رجعت إلى بيتى ودخل علىّ رسول الله ﷺ فقلت: أتأذن لى أن آتى أبوى ، وفى رواية هشام بن عروة المعلقة: فقلت: أرسلنى إلى بيت أبى فأرسلنى إليهم فقلت لأمى: يا أمتاه ما يتحدث الناس؟ قالت: يا بنية هونى عليك ، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها .

إنه قلب الأم الذى ينفطر لمصاب ابنتها وما تملك أن تفعل شيئًا لها ، ولم تنطلق لتسب وتشتم وتلعن وتضرب ثأرًا لابنتها وكرامة بيتها. إنما اكتفت أن تخفف عن هذه البنية الصغيرة التى لا تقوى بعد على الهم بأن تذكر لها أن كيد الكائدين وحسد الحاسدين لما تلقى عند رسول الله ﷺ من حظوة وما تجد من حب فهى فائقة الجمال وضرائرها كثر ، وتود أن تحصر ذهن الصديقة عائشة بهذا الاتجاه. ونجد هناك روايتين أخريين تتحدث عن أثر الصدمة عن القلب المكلوم ـ قلب عائشة ـ ففى رواية هشام ابن عروة عن عائشة ـ رضوان الله عليها ـ : (فدخلت الدار فوجدت أم رومان فى السفل وأبا بكر فوق البيت يقرأ فقالت أمى: ما جاء بك يا بُنية فأخبرتها وذكرت لها الحديث، وإذا هو لم يبلغ منها ما بلغ منى، فأخبرتها وذكرت لها الحديث فقالت: يا بنية خفضى عليك الشأن فإنه والله لقلما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها لها ضرائر إلا حسدنها وقيل فيها) وزاد الأمر تعقيداً وهى مستمرة فى النشيج والبكاء أن دخلت امرأة من

(١) المصدر السابق ٨ /٤٦٦ .

الأنصار عليهن ، كما فى رواية مسروق عن عائشة (فقالت: فعل الله بفلان وفعل بفلان فقالت أم رومان : وما ذاك؟ قالت: ابنى فيمن حدَّث الحديث؟ قالت: وما ذاك؟ قالت: كذا وكذا . قالت عائشة: سمع رسول الله ﷺ؟ قالت: نعم . قالت: وأبوبكر؟ قالت: نعم . فخرَّت مغشيًا عليها فما أفاقت إلا وعليها حمى. فطرحتُ عليها ثيابها فغطيتها ، وفى رواية الأسود عن عائشة: فألقت علىَّ أمى كل ثوب فى البيت) .

فقد تمالكت ـ رضى الله عنها ـ عند سماع حديث الناس لكنها خرت مغشيًا عليها عندما علمت أن رسول الله ﷺ وأبا بكر قد بلغهما الخبر ، فالأمر من الاتساع والشمول بحيث وصل إلى زوجها وأبيها ، وهى البريئة الطاهرة العفيفة النظيفة لكن كيف تثبت ذلك.

وفى رواية هشام بن عروة عن عائشة: واستعبرت فبكيت ، فسمع أبو بكر صوتى وهو فوق البيت يقرأ ، فقد أفاقت من غشيتها وهى ترتعد من الحمى، وقد طرح عليها كل فرش البيت فما تهدأ، والبكاء هو السلوان الوحيد والمتنفس لحرقة القلب لظى ناره، وأنى للبكاء أن يبرد هذه النار المستعرة !! (فنزل فقال لأمى: ما شأنها؟ قالت: بلغها الذى ذكر بشأنها ففاضت عيناه. قال: أقسمت عليك أى بنية ألا رجعت إلى بيتك فرجعت. ولقد جاء رسول الله ﷺ بيتى فسأل عنى خادمتى فقالت: والله ما علمت عليها عيبًا إلا أنها كانت ترقد حتى تدخل الشاة فتأكل خميرها أو عجينها فانتهرها بعض أصحابه فقال: اصدقى رسول الله ﷺ حتى أسقطوا لها به. فقالت: سبحان الله ! والله ما علمت عليها إلا ما يعلم الصائغ على تبر الذهب الأحمر. وبلغ الأمر إلى ذلك الرجل الذى قيل له فقال: سبحان الله !والله ما كشفت كنف أنثى قط . قالت عائشة: فقتل شهيدًا فى سبيل الله وأصبح أبواى عندى فلم يزالا حتى دخل على رسول الله ﷺ وقد صلى العصر) (١) .

ولكن من الصبح إلى العصر فقد تطورت أمور ضخمة اهتز لها كيان النبى ﷺ وأطفأ أضخم فتنة شهدها ـ عليه الصلاة والسلام ـ منذ أن وطئت قدماه الشريفة المدينة بين أحب الناس إليه الأوس والخزرج ، ولكن ما كادت تعالج هذه القضية وهدأ سيد الأوس والخزرج وكُفت جماهير الأوس والخزرج ، حتى وقعت الحوادث الفردية التى كان يمكن أن تفجر الموقف من جديد.

وعائشة ـ رضى الله عنها ـ لا تملك شيئًا تثأر به لنفسها مما افترى الناس عليها فسلوانها الدمع ، وبلغ بها همها أن تفكر فى أن تطرح نفسها بقليب خلاصًا من هذا

---

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى للحافظ ابن حجر ٨/ ٤٨٨ تفسير سورة النور (٤٧٥٧) .

البلاء الطام. وقد اعترتها الحمى فذبحتها أكثر وأكثر ، وها هى الآن تقف الوقفة الكبرى فى تاريخها ، والتى ينهد أمامها أعاظم الرجال وهى الفتاة الصغيرة حديثة السن بنت الثالثة عشرة من عمرها المبارك .

وحتى إذا صليت العصر دخل رسول الله ﷺ وأنا بين أبوى أحدهما عن يمينى، والآخر عن شمالى. فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: « أما بعد يا عائشة إن كنت ظلمت أو أخطأت أو أسأت فتوبى وراجعى أمر الله واستغفرى » فوعظنى وبالباب امرأة من الأنصار قد سلَّمت ،فهى جالسة بباب البيت فى الحجرة وأنا أقول : ألا تستحى أن تذكر هذا، والمرأة تسمع حتى إذا قضى كلامه قلت لأبى وغمزته: ألا تكلمه؟ فقال: وما أقول له؟ والتفت إلى أمى فقلت: ألا تكلمينه؟ فقالت: وماذا أقول له؟ فحمدت الله وأثنيت عليه بما هو أهله ثم قلت:

أما بعد ، فوالله لئن قلت لكم أن قد فعلتُ والله يشهد أنى لبريئة ما فعلت لتقولُنَّ قد باءت به على نفسها واعترفت به ولئن قلت لم أفعل والله يعلم أنى لصادقة ما أنتم بمصدِّقى، لقد دخل هذا فى أنفسكم واستفاض فيكم ، وما أجد لى ولكم مثلاً إلا قول أبى يوسف العبد الصالح ـ وما أعرف اسمه يومئذ ـ : ﴿ **فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ** ﴾(١)) (٢) .

إنهما يومان يعادلان العمر كله ، فقد جاءت عائشة ترتعد من الحمى بأمر أبيها إلى بيتها ، وجاء معها الصديق أبوها وأم رومان أمها فباتا عندها تلك الليلة ولا يدريان هل تفيض روحها من الأسى هذه الليلة أم لا ؟

واستمرا عندها حتى العصر لا يرقأ لها دمع ولا يكتحل جفنها بنوم . وكيف تنام شريفة الأرض وقد تحدث الناس بشرفها ؟! وبلغ ذلك زوجها وأباها ولم يفعلا شيئًا ، فلم يمنعا أحدًا من الكلام ،ولم يعاقب عليه الصلاة والسلام أحدًا خاض فيه وماذا تفعل فهل من نصير لها فى هذا الوجود إلا رب السموات والأرض؟! ولكن جسدها النحيل كم يحمل من هذه المرارة ، وراحت تراجع الساعات الأولى وتتحسس شيئًا من خطتهم يوم خرجت لعقدها ، ولم تستأذن وكل ما نزل بها من أجل البحث عن هذا العقد. ترى أتصل العقوبة من ربها سبحانه لها على هذا الذنب أن تبقى معلقة هكذا والناس يلغون فى عرضها وشرفها ؟!

لقد حدثتنا عن أعماق ذاتها ، هذه الأعماق التى تكونت فيها من خلال نفاسة

---

(١) يوسف / ١٨ .

(٢) فتح البارى شرح صحيح البخارى للحافظ ابن حجر ٨/ ٤٨٨ (٤٧٥٧) .

معدنها وعظمة تربيتها ، لقد كان أملها ورجاؤها بالله وحده سبحانه فهو الذى يبرئها ولن يدعها، غير أنها كانت أحقر فى شأنها من أن ينزِّل الله فيها قرآنًا يتلى ، لكن لعل رسول الله ﷺ يرى رؤيا يعرف براءتها بها ، وها هو نص لفظها : (ولكن والله ما كنت أظن أن الله تعالى منزل فى شأنى وحيًا يتلى لشأنى فى نفسى كان أحقر من أن يتكلم الله فىَّ بأمر ، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ فى النوم رؤيا يبرئنى الله بها) .

إنها زوجة رسول رب العالمين، وحبيبته الأثيرة عنده وبنت الصديق أبى بكر ، وهذا كله لم يدخل الغرور فى قلبها ، وهى المظلومة المتهمة فى عرضها. فأى بناء نفسى فى الدنيا يبلغ هذا التوازن وهذا السمو . لقد كانت فى نفسها أحقر من أن ينزِّل الله بها قرآنا ، ولكنها من جهة أخرى هى أكبر فى ميزان الله من أن يترك الله تعالى رسوله فلا يعلمه ببراءتها.

وها هى ترى الآن رسول رب العالمين يدعوها إلى التوبة إن قارفت شيئًا مما يقوله الناس، لقد طعنت اللبؤة الجريحة طعنة فى قلبها ،وكما تحدثنا فى رواية أخرى : تظهر اللبؤة العظيمة الخالدة فى ثنايا هذا الجسد الناحل، وآن الأوان لها أن تقول كلمة الفصل فى أروع بيان وأعظم عرض.

وكما فى رواية ابن إسحاق قالت: فوالله ، ما هو أن قال ذلك فقلص دمعى حتى ما أحس منه شيئًا وذلك بعد أن كان البكاء هو رفيق يومها وليلتها ،فلم يجف لها دمع ، ولم تكتحل عينها بنوم ، أما وهذه اللحظة فهى البطلة فعلاً التى تحمل وحدها عبء مواجهة الموقف، وبجوارها أعز من عليها فى الوجود، لم ترتم على أرجلهما تنشج وتبكى وتملأ الدنيا عويلاً وصراخًا أنها بريئة ، ولم ترتم على أقدام زوجها ، فتقسم الأيمان المغلظة أنها ما ارتكبت خطأ ولا ذنبا فهذا شأن الضعاف، أما شأن الرجال، وشأن الأبطال فشىء غير هذا كله . لقد تصاغر أمام بطولتها كل أعاظم الرجال، انتظرت لحظة جواب أبيها ودعته إلى الإجابة فلم يجب شيئا، وانتظرت لحظة جواب أمها ودعتها إلى الإجابة فلم تجب شيئًا ، وآن لها أن تتكلم ،وهى الجارية الحديثة السن التى تنام عن عجينها فتأتى الداجن فتأكله، آن الأوان لتتكلم أمنا أم المؤمنين فى الأرض، وأن تتكلم ربيبة رسول الله ﷺ التى عاشت ثلاث سنوات تنهل من خلق المصطفى ﷺ وتتربى به، وآن أن تتكلم ابنة الصديق التى رأت النور فى قلب النور، فلم تفتح عينيها على هذا الوجود إلا والإسلام يعمر بيتها ودارها، آن الأوان أن تتكلم ثمرة تربية الصديقية، ثم ثمرة تربية النبوة التى صاغت بيدها أعظم وأشرف لبنات هذا الوجود.

رمت وراء ظهرها كل هذه الدنيا، ووقفت معتصمة برب السموات والأرض، رب العزة جل جلاله، دونما وهن، ودونما ضعف ، ودونما تشنج ، ودونما صراخ ، ودون أن تفقد وعيها فتشتم وتسب وتجُن لهذه الفرية دون هذا كله فى أعصاب أصلب من الحديد وأقوى من الجبال، وقفت لتقول بهدوء الجبال الرواسى : وإنى والله لقد علمت لقد سمعتم هذا الحديث قد استقر فى نفوسكم وصدقتم به، ولئن قلت لكم : أنى بريئة لا تصدقونى، ولئن اعترفت لكم بأمرٍ والله يعلم إنى منه لبريئة لتصدقُنى فوالله لا أجد لى ولكم مثلاً إلا أبا يوسف ﴿ **فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ** ﴾ ثم تحولت فاضطجعت على فراشي.

لقد قالها يعقوب ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهو يواجه أكبر أكذوبة انتهت بفقد ابنه يوسف : ﴿ **وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ** ﴾ (١) .

وليس بين عائشة ويعقوب إلا النبوة . أما عظمة المواجهة وعظمة الصبر وعظمة التجلد فكلاها تنبع من معين واحد مع فارق السن فتجربة يعقوب ـ عليه الصلاة والسلام ـ بعد اثنى عشر كوكباً غدوا رجال الأمة ، وتجربة عائشة بعد ثلاثة عشر ربيعًا تمثل كل وجودها على هذه الأرض وتقول عن نفسها : (والتمست اسم يعقوب فلم أجده) وفى رواية : (وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرًا من القرآن) فهى لم تحفظ اسم يعقوب ـ عليه الصلاة والسلام ـ بعد ، ولكن قصة يوسف قد أشربت فى قلبها، وغدت جزءًا من كيانها وراءها الصبر الجميل من أبيه على فراقه وكيد إخوته ، وها هى تواجه الدنيا كلها ، وتواجه أكبر محبيها فى الوجود ـ زوجها وأباها وأمها ـ حين يجد هذا الحديث مسلكاً إلى قلوبهم لتقول : ﴿ **فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ** ﴾.

وتعود فتضطجع على فراشها وتحسم الأمر .

إنها عائشة يوم تتلفع بجلبابها فى الصحراء، وفى الليل الدامس ، وهى عائشة يوم لا تنطق بكلمة حتى تأوى إلى بيتها قبيل الظهر ، وهى عائشة الأنثى التى تبكى لما أصابها حتى تظن أن البكاء يفلق كبدها ، وتتجرع غصص وآلام الاتهام وهى البريئة العفيفة الطاهرة، وهى عائشة التى تقلص دمعها فما تحس منه قطرها، ثم تقول كلمتها وتتحول فتضطجع على فراشها .

وجاء الوحى وجاءت رحمة رب السموات والأرض :(فوالله ما رام رسول الله ﷺ

---

(١) يوسف / ١٨ .

مجلسه ، ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه ، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء حتى إنه ليتحدر منه العرق مثل الجمان وهو فى يوم شات، من ثقل القول الذى أنزل عليه) .

وحتى هذه اللحظات التى يقشعر من هولها جسد المؤمن ،لم تنس الصديقة ـ رضى الله عنها ـ أن تحدثنا عن المشاعر فيها .

أما هى فكانت تأمل نزول البراءة من السماء، لكنها كما قالت: كانت أحقر فى نفسها من أن ينزل الله بها قرآنًا يتلى ، لكنها لم تنس ـ رضى الله عنها ـ مشاعر القلبين اللذين أشفقا عليها أكثر منها تقول ـ رضى الله عنها ـ :(فأما أنا حين رأيت من ذلك ما رأيت فوالله ما فزعت ولا باليت ، قد عَرفتُ أنى بريئة، وأن الله ـ عز وجل ـ غير ظالمى ، وأما أبواى فوالذى نفس عائشة بيده ،ما سُرِّى عن رسول الله ﷺ حتى ظننت لتخرجن أنفسهما فرقًا [١] من أن يأتى من الله تحقيق ما قال الناس [٢] .

ومن أعظم لحظات المحنة إلى أعظم آيات السعادة .

فسُرِّى عن رسول الله ﷺ وهو يضحك فكانت أول كلمه تكلَّم بها أن قال: «ياعائشة، أمَّا الله فقد برأك » . قالت : فقالت لى أمى: قومى إليه فقلت: لا والله لا أقوم إليه فإنى لا أحمد إلا الله ـ عز وجل ـ وأنزل الله ـ عز وجل ـ : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ** . . . . ﴾ [٣] العشر آيات ثم أنزل الله تعالى هذا فى براءتى .

وفى رواية عباد بن عبد الله بن الزبير فى البخارى :

(ونزل الوحى ساعة قضيت كلامى ، فعرفت والله البشر فى وجه رسول الله ﷺ قبل أن يتكلم فمسح جبهته وجبينه ثم قال: « أبشرى يا عائشة فقد أنزل الله عذرك »، وتلا القرآن ، فكنت أشد ما كنت غضبًا ،فقال لى أبواى: قومى إلى رسول الله ﷺ ، فقلت: والله لا أقوم إليه ولا أحمده وإياكما ، ولكنى أحمد الله الذى برأنى. لقد سمعتم فما أنكرتم ولا جادلتم ولا خاصمتم) [٤] .

لقد وضعت عذرها وخطأها ونفسها بين يدينا، فقد قالت فى أشد حالات غضبها: (والله لا أقوم إليه ولا أحمده وإياكما ولكنى أحمد الله الذى برأنى) . فقد اتصل قلبها فى هذه اللحظات الخالدة برب السموات والأرض وحده (وأشارت إلى إفراد الله

---

(١) فرقًا: خوفًا .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٤١٧ ، ٤١٨ .
(٣) النور / ١١ .
(٤) فتح البارى ٨/ ٤٨٨ (٤٧٥٧) .

تعالى بقولها: فهو الذى أنزل براءتى. فناسب إفراده بالحمد فى الحال ولا يلزم منه ترك الحمد بعد ذلك) .

إنها العبودية الخالصة لله تعالى وحده فى هذه اللحظات الخالدة فى تاريخها، والحبيب المصطفى ﷺ يدرك غضبها، فيضحك بشراً وسعادة بهذه البراءة . قال الزمخشرى: لم يقع فى القرآن من التغليظ فى معصية ما وقع فى قصة الإفك بأوجز عبارة وأشبعها ؛ لاشتماله على الوعيد الشديد والعتاب البليغ والزجر العنيف واستعظام القول فى ذلك واستشناعه بطرق مختلفة وأساليب متقنة كل واحد منها كاف فى بابه ، بل ما وقع منها فى وعيد عبدة الأوثان إلا بما هو دون ذلك ، وما ذلك إلا لإظهار علو منزلة رسول الله ﷺ وتطهير من هو منه بسبيل (١) .

٨ - **فتنة جديدة** : أما صفوان بن المعطل السلمى فَقَدْ فَقَدَ صوابه أمام اتهامه وأخذ سيفه ومضى إلى حسان بن ثابت رضي الله عنه الذى يغوص فى الحديث ويلغُ فى عرضه وما أن رآه حتى علاه بالسيف قائلاً :

تلق ذباب السيف منى فإننى غلام إذا هوجيت لست بشاعر

وكادت ضربة السيف تأتى على حسان فتقتله.

(وكان صفوان بن المعطل قد كثَّر عليه حسان فى شأن عائشة وقال يعرِّض به :

أمسى الجلاليب قد عزوا وقد كثروا وابن الفريعة أمسى بيضة البلد (٢)

فاعترضه صفوان ليلة وهو آت من عند أخواله ببنى ساعدة ، فضربه بالسيف على رأسه، فيعدو عليه ثابت بن قيس فجمع يديه إلى عنقه بحبل أسود ، وقاده إلى دار بنى حارثة ، فلقيه عبد الله بن رواحة. فقال: ما هذا؟ فقال: ما أعجبك ! عدا على حسان بالسيف ، فوالله ما أراه إلا قد قتله ، فقال: هل علم رسول الله ﷺ بما صنعت به؟ فقال: لا . فقال : والله لقد اجترأت ، خل سبيله ، فلما أصبحوا غدوا على رسول الله ﷺ فذكروا ذلك له فقال: « أين ابن المعطل؟ » فقام إليه فقال: هاأنذا يا رسول الله، فقال : « ما دعاك إلى ما صنعت؟ » . قال: آذانى وكثَّر علىَّ ولم يرض حتى عرَّض بى فى الهجاء فاحتملنى الغضب وهاأنذا فما كان علىَّ من حق فخذنى به ، فقال

(١) المصدر السابق ٨ / ٤٧٧ ، ٤٧٨ .

(٢) قال السهيلى فى الروض الأنف: الجلابى: الغرباء . وبيضة البلد: يعنى منفردًا وهى كلمة يتكلم به فى المدح تارة ، وفى معنى القلّ أخرى يقال: فلان بيضة البلد أى أنه واحد فى قومه عظيم فيهم ، وفلان بيضة البلد يريد أنه ذليل ليس معه أحد.

رسول الله ﷺ: « ادعوا إلىّ حسان » فأُتى به، فقال: « يا حسان اتشوهت [1] على قومى أن هداهم الله للإسلام يقول: تنفّست عليه يا حسان، أحسن فيما أصابك » فقال: هى لك يا رسول الله. فأعطاه رسول الله ﷺ سيرين القبطية، فولدت عبد الرحمن بن حسان وأعطاه أرضًا كانت لأبى طلحة تصدق بها [2] على رسول الله ﷺ[3].

رغم إطفاء النار قبل يومين بين سيدى الأوس والخزرج. لكننا نرى الآن مضاعفات خطيرة وتصرفات فردية تقع لأول مرة من الجيل الأول جيل بدر وليست من المنافقين. فصفوان رضي الله عنه البدرى العظيم الذى يعرف حق عائشة أم المؤمنين وأنها زوج رسول رب العالمين وهو على استعداد أن يقطّع جسده ذرة ذرة دون أن يمس أحد شرف المصطفى وعِرضه بكلمة. فأما أن يتهم هو فى ذلك ، فأخذته الحمية التى ملكت عليه كل كيانه وحدّث نبيه ﷺ بما فى ذاته :

(آذانى وكثّر علىّ ولم يرض حتى عرّض بى فى الهجاء، فاحتملنى الغضب وها أنذا فما كان علىّ من حق فخذنى به). وفى عالم أهل الأرض فالذى يدفع إلى ضرب حسان بالسيف هو الزعيم المطعون فى عِرضه فالأصل أن يبعث الزعيم أحد جلاوزته أو رجال مخابراته أو يصطنع قضية مع الذى يتجرأ على ذاته وعلى زوجته فيقذفها، فيبعث إليه من يقتله ، أو يهدده بالقتل إن نطق بكلمة واحدة.

أما فى عالم النبوة ، وفى آفاق هذا الدين ، وعند أعظم شخصية فى هذا الوجود، وعند الرحمة المهداة للبشرية ـ كل البشرية ـ نجد هذا الموقف فى تحرى العدل بعيدًا عن جرحه الغائر ، وبعيدًا عن الطعنة النجلاء فى عرضه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بعيدًا عن هذا كله يعالج الموقف ـ عليه الصلاة والسلام .

وقبيل المعالجة، فلا بد من أن نعرض تتمة التصرفات الفردية الخطيرة إذ أعقب ثورة ابن المعطل السلمى ثأر ثابت بن قيس رضي الله عنه لحسان فينقض على صفوان فجمع يديه إلى عنقه بحبل أسود غليظ واعتقله.

ها هو خطيب الرسول ﷺ المصقع ، يثأر لشاعر رسول الله ﷺ العظيم، ويأسر ضاربه بالسيف ، والثلاثة بدريون ويأتى الشاعر الثانى ابن رواحة رضي الله عنه فيرى حسان

---

(١) تشوهت على قومى: أى أقبحت ذلك من فعلهم حين سميتهم الجلابيب من أجل هجرتهم إلى الله ورسوله.

(٢) فى السيرة: تصدّق بها إلى رسول الله ﷺ وهى من أصح منها فى المغازى : تصدّق على .

(٣) المغازى فى تاريخ الإسلام للذهبى ١ / ٢٨٠ ، وهى فى السيرة لابن هشام ٣ / ٤٢٢ ، ٤٢٣ .

وقد طعن، وصفوان وقد أسر ، فيهوله الموقف لكنه عضو فى حكومة محمد ﷺ فهو أحد النقباء الاثنى عشر ليلة العقبة ، فلا بد أن يتصرف بالحكمة البالغة التى لا تؤزم الأمر، قال: ما هذا؟ فقال ثابت: ما أعجبك! عدا على حسان بالسيف فوالله ما أراه إلا قد قتله.

فقال: هل علم رسول الله ﷺ بما صنعت به؟ قال: لا ، فقال: والله لقد اجترأت، خل سبيله ، فقد كان عبد الله بن رواحة رضي الله عنه على مستوى المسؤولية المناطة به،وأطلق سراح صفوان ، وأعاد الأمر برمته إلى القائد الأعظم ﷺ ، وأوقف مسلسل الفتنة بعظمة التربية والنبوغ لديه وانعقدت المحكمة فعرض صفوان ما عنده وأبدى استعداده لتنفيذ كل عقوبة دون أن تأخذه الحمية أو يجادل بالباطل أو يماحل ، فزلة الرجل العظيم تبقى زلة (فما كان علىّ من حق فخذنى به) ثم يعود بعدها إلى مستوى عظمته، وإلى مستوى تربيته التى تلقاها على يد نبيه محمد ﷺ ، ويتخلى عن لحظة الحمية الجاهلية التى نزلت به دون أن يسوق مئات الصفحات فى الدفاع عن خطئه، وفى تبرير موقفه ، ويستغل عاطفة قائده الجريح لما أصابه من الحديث عن أهله ويأتى المتهم الثانى حسان رضي الله عنه إنه هو وروح القدس معه فى هجاء المشركين هو الذى يخوض فى الحديث ، ويستجيب لدنس ابن أبىّ فى نفخ روح الفتنة من جديد يوم عجز عنها فى المريسيع وقال : فعلوها وكاثرونا فى بلادنا ، هاهو حسان يخوض أكثر وأكثر فى الفتنة، ويتأثر بروح ابن أبى فيقول مقالته :

أمسى الجلاليب قد عزوا وقد كثروا وابن الفريعة أمسى بيضة البلد

وآتت هذه الفتنة أكلها، فدفعت بصفوان لضرب حسان بالسيف، وحدت بثابت لاعتقال صفوان ، غير أن حكمة ابن رواحة أوقفت تسلسل الفتنة.

وسيد ولد آدم، وسيد البشرية بين يديه حسان شاعره الفذ ما باله اليوم يقلب ظهر المجن . وارتفع عليه الصلاة والسلام فوق جراحاته، وفوق نزيفه، وترك جانبًا ليتابع عملية التربية فى خنق روح العصبية المنتنة فقال: « يا حسان أتشوهت على قومى أن هداهم الله للإسلام » . يقول: « تنفست عليهم يا حسان » .

ونعود هنا لنتم هذه الحادثة من رواية الواقدى وذلك بعد انعقاد المحاكمة: (فقال حسان: يا رسول الله ، شهر علىَّ السيف فى نادى قومى، ثم ضربنى لأن أموت، ولا أرانى أنى إلا ميتًا من جراحتى ، فأقبل رسول الله ﷺ على صفوان فقال: « ولم ضربته وحملت السلاح عليه » ، وتغيَّظ رسول الله ﷺ . فقال: يا رسول الله ، آذانى وهجانى وسفَّه علىّ وحسدنى على الإسلام، ثم أقبل على حسان فقال: « أسفهت على

قوم أسلموا ؟» ثم قال رسول الله ﷺ: « احبسوا صفوان، فإن مات حسان فاقتلوه به»، فخرجوا بصفوان) (١) .

ومضى صفوان رضي الله عنه لينال عقوبة تجاوزه الحد، وضربه حسان بالسيف وصفوان يثأر لنفسه ويثأر لرسول الله ﷺ.

وهنا نعرف المنعطف الذى تعلو به البشرية بالإسلام فى قضية من أكثر القضايا حساسية فى التاريخ البشرى، فى قضية العدل، ورسول الله ﷺ وليس لديه بينة على براءة عائشة - رضوان الله عليها - وحسان يخوض فى عرضها بين الناس، وصفوان ينتقم لهذا الحديث الشائن فلا يملك - عليه الصلاة والسلام - وهو القائد الذى بيده من يضربه بمهجته وروحه ، ويكفيه إشارة واحدة منه ليطاح برأس حسان المفتت . إنه وهو إمام العدل فى الوجود ،وقبل أن يكون عنده البينة يأمر بحبس صفوان بحسان فإن مات فاقتلوه.

وتتعلم البشرية، ويتعلم الجيل الأول أبلغ دروسه على الإطلاق، كيف يرتفع القاضى عن ذاته وعن شخصه وعن جرحه ليطبق النص المباشر : « إن مات صاحبكم فاقتلوه » .

ونتابع مع هذا الجيل مواقفه الضخام التى نشهدها فى عملية البناء .

فبلغ سعد بن عبادة ما صنع صفوان، فخرج فى قومه من الخزرج حتى أتاهم فقال: عمدتم إلى رجل من أصحاب رسول الله ﷺ تؤذونه وتهجونه بالشِّعر، وتشتمونه فغضب لما قيل له، ثم أسرتموه أقبح الإسار ورسول الله بين أظهركم؟! قالوا: فإن رسول الله ﷺ أمرنا بحبسه، وقال: « إن مات صاحبكم فاقتلوه » . قال سعد: والله إنَّ أحبَّ إلى رسول الله ﷺ للعفو، ولكن رسول الله قد قضى بينكم بالحق، وإن رسول الله ليحب أن يترك صفوان ، والله لا أبرح حتى يطلق، فقال حسان: ما كان لى من حق فهو لك يا أبا ثابت. وأبى قومه ، فغضب قيس ابنه غضبًا شديدًا فقال: عجبًا لكم ما رأيت كاليوم! إن حسان ترك حقَّه وتأبون أنتم ! ماظننت أن أحدًا من الخزرج يرد أبا ثابت فى أمر يهواه، فاستحيا القوم وأطلقوه من الوثاق) .

وها نحن هنا أمام معدن سعد بن عبادة رضي الله عنه سيد الخزرج عامة، وسيد بنى ساعدة خاصة وهو يدخل مع قومه فى الخيرية الرابعة :

« خير دور الأنصار أربعة : بنو النجار، وبنو عبد الأشهل، وبنو الحارث بن

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٤٣٦ ، ٤٣٧ .

الخزرج، وبنو ساعدة، وفى كل دور الأنصار خير » .

وسعد بن عبادة هو الذى أخذته الحمية قبل يوم، وقال كلمته لسعد فى أول زلة تبرز منه منذ إسلامه : كذبت لعمرو الله لا تقتله ولا تقدر على قتله، وعاد سعد إلى هدوئه، ورأى عِظَم الزلة التى وقع فيها ، وأضاءت له معالم القضية ، فليس الأمر أمر الأوس والخزرج، ولكنه أمر رسول رب العالمين يشكو ممن يؤذيه فى أهله، وأمر عبد الله بن أبى الذى يضرم النار بالحطب لتشتعل الفتنة . إن الأمر أمر شرف رسول الله ﷺ، وأمر عرضه، فكيف يكفِّر عن هذه الزلة؟!

وجاءت المناسبة ، فهذا صفوان بن المعطل السلمى، أسير بيد الخزرج رهنًا بحسان ابن ثابت « فإن مات فاقتلوه » ولو كان الأمر أمر حمية تسيطر ، فهذه فرصة ذهبية للثأر من صفوان ضارب حسان والذى ثار من أجله سعد فى الأمس ، ولكن الأمر أن الله تعالى أذهب عنهم حمية الجاهلية، وبرز المعدن النفيس وراءها معدن سعد.

قال: (عمدتم إلى رجل من أصحاب رسول الله ﷺ تؤذونه وتهجونه بالشعر وتشتمونه. فغضب لما قيل له، ثم أسرتموه أقبح الإسار، ورسول الله ﷺ بين أظهركم؟!) .

لقد رأى ما فعل الغضب به بالأمس، وكيف دفعه إلى شتم أخيه فى الله أسيد، وكادت المعركة تحتدم بين الحبيبين نتيجة هذا الغضب، ولم يفعل رسول الله ﷺ شيئًا سوى تهدئة وتخفيض هذه الثورة العارمة ، وترك قضيته الأولى حفاظا على وحدة صفه. ترك عرضه لله حتى لا يؤزم القضية ، وتفسَّر بانحياز رسول الله ﷺ للأوس دون الخزرج، ثم يرى سيد الخلق يرتفع عن ذاته، وبدل أن يأمر بحبس حسان الذى يلغو فى عرضه ، يحبس صفوان الذى نال من حسان بالجرح والأذى.

جاشت هذه المعانى جميعًا فى ذهنه، ورآها فرصة سانحة يغسل بها كل آثار ثورة الأمس. قالوا: فإن رسول الله ﷺ أمرنا بحبسه وقال: « إن مات صاحبكم فاقتلوه » .
وسعد جزء من الحكومة النبوية ووزير فيها ، مثل عبد الله بن رواحة فهو أحد النقباء الاثنى عشر.

قال: والله إن أحبَّ إلى رسول الله ﷺ للعفو، ولكن رسول الله قد قضى بينكم بالحق ، وإن رسول الله ليحب أن يترك صفوان، والله لا أبرح حتى يُطلق . إن ما يحبُه رسول الله ﷺ أعظم عند سعد بن عبادة من الحق الذى يحكم به لقومه .
وحسان رضي الله عنه ما يحبه سيد قومه سعد أحب إليه من حقه فقال : ماكان لى من حق فهو لك يا أبا ثابت . ولا تزال الحمية فى نفوس الخزرج ، فأبوا قول سعد وحسان .

وتدخل داهية الأنصار وحكيمهم قيس بن سعد بن عبادة واصطنع الغضب ليصل إلى هذه الروح العالية من الحب والتسامح تسود بين المهاجرين والأنصار قال: عجبًا لكم ما رأيت كاليوم إن حسان ترك حقه وتأبون أنتم، ما ظننت أن أحدًا من الخزرج يرد أبا ثابت ـ يعنى سعدًا ـ فى أمر يهواه.

ومن هذه الحمية فى الحفاظ على حق حسان إلى حمية تنفيذ أمر زعيمهم سعد، وبهذه الإثارة استحيا القوم وأطلقوه من الوثاق.

وتعلم سعد بن عبادة من نبيه ﷺ ألا يكتفى بإطلاق صفوان بل لابد من إكرامه، كما فعل رسول الله ﷺ مع حسان:

فذهب به ـ أى صفوان ـ سعد إلى بيته فكساه حلَّة ثم خرج صفوان حتى دخل المسجد ليصلى فيه، فرآه رسول الله ﷺ، فقال: « صفوان؟ » قالوا: نعم يا رسول الله ﷺ. قال: « من كساه؟ » قالوا : سعد بن عبادة. فقال: « كساه الله من حلل الجنة » . وقرّت عين رسول الله ﷺ إلى ثمرة تربيته وعظمة جنده ، وأن ما جرى بالأمس زلة من الشيطان ، ولم يكتف سيد الخزرج بأن يكسو صفوان ضارب حسان بالحلة. بل ذهب أبعد من ذلك فى رأب الصدع، وذبح العصبية والانطلاق من روح هذا الدين العظيم، قال لحسان بن ثابت: لا أكلمك أبدًا حتى تذهب إلى رسول الله فتقول: كل حق لى قِبل صفوان فهو لك يا رسول الله. ومضى حسان تنفيذًا لأمر عميد قومه ، حتى وقف بين يدى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ، كل حق لى قِبل صفوان بن المعطل فهو لك ، فقال: « قد أحسنت وقبلت ذلك » وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان، فأعطاه رسول الله ﷺ أرضًا براحًا وما حولها ،وبقى يقر له ذلك الموقف سنين حتى جاءته سيرين هدية من النجاشى. فأهداها له ، وقام سعد فأكرم حسانًا، وأعطاه حائطًا كان يجد مالاً كثيرًا عوضًا له عما عفا من حقه . لقد عادت الروح الحقيقية فسرت فى الصف الإسلامى وانقشعت تلك السحابة العارضة من الأسى والتوتر الذى زرعه ابن أبى .

ولم ينس عليه الصلاة والسلام أن يمسح مابين زعيمى الأوس والخزرج :

(ومكث رسول الله ﷺ أيامًا، ثم أخذ بيد سعد بن معاذ فى نفر، فخرج يقود به حتى دخل به على سعد بن عبادة ومن معه، فتحدثا عنده ساعة وقرّب سعد بن عبادة طعامًا فأصاب منه رسول الله ﷺ وسعد بن معاذ ومن معه ، ثم خرج رسول الله ﷺ فمكث أياماً ، ثم أخذ بيد سعد بن عبادة ونفر معه ، فانطلق به حتى دخل منزل سعد

ابن معاذ ، فتحدثا ساعة وقرَّب سعد بن معاذ طعامًا فأصاب رسول الله ﷺ وسعد بن عبادة ومن معهم، ثم خرج رسول الله ﷺ وإنما فعل ذلك رسول الله ﷺ ؛ لأن يذهب ما كان فى أنفسهم من ذلك القول الذى تقاولا) (١) .

لقد صفت النفوس، وعاد جو الحب والود بين الحبيبين العظيمين : ﴿ **وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾ (٢) .

إنها الإرادة الربانية التى اختارت يد النبوة لتصوغهم على هدى هذا الدين، وبروح هذا الكتاب العظيم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وماذا عن القضية الرئيسية وبعد براءة عائشة ـ رضى الله عنها ـ من فوق سبع سموات ، وكانت قرآنا يتلى حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، وبمقدار ما كان التشنيع والتأنيب لمن خاض فى عرضها حتى إنه كان أشد من تشنيع عبدة الأوثان، بمقدار ما كان الثناء العطر على الفتاة الصغيرة حدثة السن، والتى تجاوب رب العزة جل جلاله فبرأها ، وأنزل حكم قاذفها بالسوء ، ورأت عائشة انتصار حقها وعقوبة قاذفها ، على التو قالت:

(لما تلا رسول الله ﷺ القصة التى نزل بها عذرى على الناس نزل فأمر برجلين وامرأة ممن تكلم بالفاحشة فى عائشة فجلدوا الحد. قال: وكان رماها ابن أبىّ ومسطح وحسان وحمنة بنت جحش (٣) . وعند ابن إسحاق: ثم أمر بمسطح بن أثاثة وحسان بن ثابت، وحمنة بنت جحش، وكانوا ممن أفصح بالفاحشة فضربوا حدهم) (٤) .

٩ ـ **المجتمع الفاضل** : وبقى عندنا نقطتان ، لابد من إلقاء الضوء عليهما ، نشهد فيهما عظمة عائشة بنت الصديق . وعظمة الصديق خير المسلمين بعد رسول الله ﷺ.

أما عظمة عائشة ـ وهى ابنة الثالثة عشرة ـ فقد بلغ بها الورع حدًا يفوق سادة البشرية فى الورع ، فعلى عظم ما اتهمت به، وما افترى عليها به ، استطاعت ـ وهى فى هذا السن ـ أن تفصل ضرتها زينب عن أختها حمنة فتبرئ الأولى وتدين الثانية ، ونحن نجد فى عالمنا المعاصر كبار الرجال يسقطون فى هذا الامتحان ، حين يطعنون بأعز

---

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٤٣٥ . (٢) الأنفال / ٦٣ .

(٣) المغازى فى تاريخ الإسلام للحافظ الذهبى ١/ ٢٧٩ نقلاً عن ابن هشام.

(٤) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٤١٨ وقد رواها الترمذى فى التفسير ج٥ (٣١٨١) . وقال: « هذا حديث حسن غريب » .

ما عندهم إفكًا وافتراء ، فيفقدون صوابهم ، ويبحثون عن خصومهم ليلصقوا بهم التهم ، ويقولوا لهم ما لا يقولون ثأرًا لذواتهم وأشخاصهم دون تحرٍ للحق، وتحر للصواب ويستحيل أن يبرئوهم من التهم حين يجدون أقاربهم يتحدثون باتهامهم.

فعائشة - رضى الله عنها - وهى ترى حمنة أخت زينب تدخل من بيت وتخرج من بيت ، وتتحدث الإفك فى عائشة ، حسب طبيعة المرأة وسنها إن كانت فى أعلى مستويات موضوعيتها فسوف تقول : إن هذا الحديث هو بإيحاء أختها زينب تدفع أختها فى الخفاء وتنسل من مسؤوليتها. وكلما تدنى مستوى الموضوعية ابتدأ الافتتان والظن، بحيث يصل إلى تحميل كلام حمنة كله لزينب أنها تقوله، فهى الضرة الرئيسية ، لكننا أمام فتاة تربت وترعرعت فى أشرف بيتين فى الوجود : بيت الصديق ،وبيت النبى ﷺ، وامتزجت طينتها بهذه التربية ، فهى تصل الأفق الأعلى فى التجرد يوم تفصل فصلاً كاملاً بين زينب وأختها حمنة فتقول:

(وكان رسول الله ﷺ يسأل زينب بنت جحش عن أمرى فقالت: أحمى سمعى وبصرى ما علمت إلا خيرا ، وهى التى كانت تسامينى من أزواج النبى ﷺ فعصمها الله بالورع وطفقت أختها حمنة تحارب لها ، فهلكت فيمن هلك من أصحاب الإفك)(1) .

وهى نفسها التى تبرئ عليًا رضي الله عنه من تولى كبر الحديث وقد سمعته يشير على رسول الله ﷺ بقوله: والنساء غيرها كثير، واسأل الجارية تخبرك . فلم يدفعها كلامه إلى النيل منه .

فعن الزهرى قال: (كنت عند الوليد بن عبد الملك فقال: الذى تولى كبره منهم على ، فقلت: لا. حدثنى سعيد وعروة وعلقمة وعبيد الله، كلهم سمع عائشة تقول: الذى تولى كبره عبد الله بن أبىّ. قال: فقال لى: ما كان جرمه؟ فقلت: سبحان الله! أخبرنى رجلان من قومك : أبو سلمة بن عبد الرحمن ،وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام:أنهما سمعا عائشة تقول: كان مسلمًا فى أمرى،أخرجه البخارى)(2) . وفى رواية: مسلّما ، وفى رواية : مسيئاً .

وهى التى تبرئ حسان رضي الله عنه ولا ترضى أن تذكره بسوء ، وهو الذى خاض فى الإفك وجلد فيه ، فعن هشام عن أبيه قال: (ذهبت أسب حسان عند عائشة فقالت: لا تسبه ، فإنه كان ينافح عن رسول الله ﷺ . وقالت عائشة: استأذن النبى ﷺ فى

(1 ، 2) المغازى فى تاريخ الاسلام للحافظ الذهبى ١/ ٢٧٨ .

هجاء المشركين . قال : كيف بنسبى ؟ قال : لأسلنك منهم كما تسل الشعرة من العجين)[1] .

لم يستطع أفراد الجيل الثانى ـ وهم الملوك وأمراء المؤمنين فيه ـ أن يصلوا إلى مستوى ابنة الثالثة عشرة من العمر فى الجيل الأول.

فهذا الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين وهو ممن يحمل على أهل البيت بعد حرب معاوية رضي الله عنه معهم، ويحمل إرث خلاف بنى أمية وبنى هاشم ، يقول ـ فما يرويه الزهرى عنه :

(قال لى الوليد بن عبد الملك: أبلغك أن عليًا كان فيمن قذف عائشة ؟ قلت: لا. ولكن قد أخبرنى رجلان من قومك أبو سلمة بن عبد الرحمن ، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث أن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت لهما: كان على مسلِّمًا فى شأنها فراجعوه فلم يرجع وقيل مسلِّمًا لا شك فيه وعليه كن فى أصل العتيق كذلك)[2].

(وفى رواية عبد الرزاق: كنت عند الوليد بن عبد الملك فقال: الذى تولى كبره منهم على. قلت: لا. ولكن حدثنى سعيد بن المسيِّب وعروة وعلقمة وعبيد الله ، كلهم عن عائشة قال: الذى تولى كبره عبد الله بن أبى قال: فما كان جرمه) [3] .

وهذا هشام بن عبد الملك أخو الوليد يعتقد ذلك وهو أمير المؤمنين (فأخرج يعقوب بن شيبة فى مسنده عن الحسن بن على الحلوانى عن الشافعى قال: حدثنى عمى قال: دخل سليمان بن يسار على هشام بن عبد الملك فقال له: يا سليمان ، الذى تولى كبره من هو؟ قال: عبد الله بن أبىّ. قال: كذبت هو على. قال: أمير المؤمنين أعلم بما يقول. فدخل الزهرى فقال: يا ابن شهاب من الذى تولى كبره ؟ قال: ابن أبى، قال: كذبت، هو على. فقال: أنا أكذب لا أبا لك. والله لو نادى مناد من السماء : أن الله أحل الكذب ما كذبت. حدثنى عروة وسعيد وعبيد الله وعلقمة عن عائشة أن الذى تولى كبره عبد الله بن أبىّ، فذكر له قصة مع هشام فى آخرها: نحن هيَّجنا الشيخ)[4] .

فكبار المسلمين من بنى أمية لما يحملون فى أنفسهم من ضغينة على على رضي الله عنه رسخ فى قلوبهم أن عليًا رضي الله عنه قذف عائشة ـ رضى الله عنها ـ بل أكبر من ذلك أنه هو الذى تولى كبر هذا الحديث. نعرض هذا ، ونعرض الفتاة العظيمة الخالدة صاحبة الشأن .

(١) فتح البارى للحافظ ابن حجر ٧/ ٤٣٦ (٤١٤٥) .

(٢) فتح البارى للحافظ ابن حجر ٧/ ٤٣٥ (٤١٤٢) .

(٣) المصدر نفسه ٧/ ٤٣٦ .

(٤) المصدر نفسه ٧/ ٤٣٧ .

وهى التى خاض القوم فى عرضها، يصل بها التجرد والتقوى أرفع المستويات فى الوجود، فتبرئ عليًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وهى التى سمعته يقول: النساء غيرها كثير. واسأل الجارية تخبرك، وتبرئ حسان، وقد جلد فيها من أن يكون هو الذى تولى كبر الحديث. بل تستقبله وتحتفى به؛ لأنه كان ينافح ويذود عن رسول الله - صلوات الله عليه - وتبرئ زينب بنت جحش ضرتها التى كانت مهاجرتها فى تلك المرحلة، فتنقل عنها قولها لها: (أحمى دينى وعرضى ما علمت عليها إلا خيراً). وتقول عنها: (فقد عصمها الله بدينها فلم تقل شيئا).

إنها الصديقة بنت الصديق سليلة بيت سيد المسلمين، وخيرهم على الأرض بعد رسول الله ﷺ، أما أبوها رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فتحدثنا عنه العظيمة الخالدة فتقول: (.. قال أبو بكر الصديق وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره: والله لا أنفق على مسطح شيئا أبدًا بعد الذى قال لعائشة ما قال: فأنزل الله تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ ﴾ إلى قوله ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١) قال أبو بكر الصديق: بلى والله إنى لأحب أن يغفر الله لى. فرجع إلى مسطح النفقة التى كان ينفق عليه وقال: والله لا أنزعها منه أبدًا) (٢).

لقد جرحت بشرية الصديق يوم رأى أقرب الناس منه رحمًا، وأقرب الناس منه إحسانا، لا يرعى هذا الرحم، ولا يرعى هذا الإحسان، ويلُغ فى عرض عائشة - رضى الله عنها - قريبته وزوجة نبيه، وجاء الوحى من السماء بعقوبته مع حسان وحمنة ثمانين جلدة.

وقال الصديق: بعد أن برأ الله تعالى ابنته من السماء: والله لا أنفق على مسطح أبداً بعد الذى قال فى عائشة ما قال. لم يقلها الصِّديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قبل نزول البراءة وصمت على جرح القريب الأقرب:

وجرح ذوى القربى أشد مضاضة ... على المرأ من وقع الحسام المهند

إنه ليس قريبًا فقط، بل مقيمًا فى بيت الصديق. فى هذه اللحظات البشرية لم يتمالك الصديق نفسه أن يقول هذا القول ثأرًا لعرضه المستباح، وغضبًا لكرامته المثلومة. قرر إيقاف النفقة على مسطح، ويجلس الصديق بجوار المصطفى ﷺ وقد كُفَّت الألسنة، وحُدَّ القاذفون، وأصبحوا محط نظر الشزر من المؤمنين الصادقين، وغدا الصديق لا يستطيع أن يرى هؤلاء الثلاثة الذين آذوه فى عرضه وفى ابنته وأحب الناس إليه.

---

(١) النور / ٢٢.

(٢) فتح البارى للحافظ ابن حجر ٧ / ٤٣٤ (٤١٤١).

وها هو ينظر فى وجه رسول الله ﷺ يتحدَّر منه الجمان ، وتأتيه غاشية الوحى، ترى أى جديد بعد حديث الإفك، وهل هناك جوانب مخبأة يود القرآن أن يبرزها، حتى إذا سرِّى عن رسول الله ﷺ، إذا هو يبتسم صلوات الله عليه وسلم ويتلو:

﴿ وَلا يَأْتَلِ (١) أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

ويصغى الصديق ثم ينتبه كأنما لسعته حية ، إن الحديث عنه والنداء من رب العزة له، فهو الذى منع النفقة عن مسطح . والله تعالى يدعوه ويسأله ويحـ ـضه قائلا له : **﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ. . ﴾** وصرخ بلا وعى: بلى والله إنى لأحب أن يغفر الله لى.

لقد جاءت هذه الآية لتمسح كل جراح قلبه، وتكون بلسمًا لفؤاده، فيقسم ثانية : (والله لا أنزعها منه أبدا) .

إنه ابن القرآن وقد تعلم من نبيه المصطفى ﷺ يوم أقسم والمسلمون ليمثلن بثلاثين رجلاً من المشركين لما رأى ما بحمزة رضي الله عنه فجاء القرآن الكريم ليقول لنبيه: **﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ . وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ . إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾**(٢).

فقال رسول الله ﷺ: « نصبر ولا نعاقب » .

وفى رواية: فكفَّر رسول الله ﷺ عن يمينه وأمسك عن ذلك . وخلُقُ الصديق هو من مشكاة النبوة، وهو أكثر خلق الله تأسيًا بهدى رسول الله ﷺ فلم يراجع ولم يناقش. لقد عزم على ألا ينزعها منه أبدا بعد عتاب الله له فى ذلك، لكن الأمر الأبعد وراء نزول هذه الآية، ووراء العفو والصفح الشخصى، وإعادة النفقة هو طى صفحة الإفك كلها من المجتمع الإسلامى، فقد نزل القرآن وبرئت الطاهرة المطهرة ، وعوقب القاذفون وهم قمم فى هذا المجتمع، فهل يعزلون عنه؟ أم تسقط عضويتهم فى المجتمع لهذه الجريمة؟ أم يُنفون من المدينة وتنزع عنهم صلاحياتهم ويمارسون العزل الاجتماعى والسياسى وقد نالوا من رئيس الدولة المسلمة وقذفوا عرضه ؟ ماذا يحل بهؤلاء الثلاثة

---

(١) يأتل: من الألية وهو الحلف .

(٢) النحل / ١٢٦- ١٢٨ .

الكبار بعد هذا الموقف من البهتان العظيم ؟

لقد جاء القرآن الكريم على التو بعتاب الصديق على موقفه ليعلن أن هؤلاء الثلاثة هم من المهاجرين فى سبيل الله ، ولم يفقدوا أى ميزة كانوا يملكونها، ولا يجوز أن يفقدوها، ويتابعون مهماتهم ومسؤولياتهم على ما هى عليها فى المجتمع وهم من النخبة القيادية فيه. ولا يجوز أن يبنى أى موقف بعد الحد عليهم على ضوء هذه الآية ، فمسطح فى بيت الصّديق ينفق عليه، وحسان شاعر الإسلام العظيم ، بل كرَّمه رسول الله ﷺ وأهداه سيرين فيما بعد ، لعفوه عن ضربته من صفوان ، وحمنة بنت جحش أرملة شهيد الإسلام مصعب بن عمير وزوج أحد العشرة المبشرين عبد الرحمن بن عوف فيما بعد، وهم فى مواقعهم، لا ينزع منهم شىء .

إنها عظمة الإسلام. التى برأت عائشة الطاهرة المطهرة أولاً .

وعظمة الإسلام التى أمرت بإيقاع الحد على ثلاثة من كبار المسلمين علنًا أمام الأشهاد ، ولم تشفع لهم سابقتهم دون إيقاع العقوبة عليهم، وهم السادة العظام ، وعظمة الإسلام التى أمرت بعودتهم إلى مواقعهم بعد العقوبة وطى صفحة الماضى كله. ومشاركتهم فى الجهاد الإسلامى فى سبيل الله.

بينما بقى المنافقون خارج الصف، لا يدخل أحدهم للصف الإسلامى إلا بعد ثبوت توبته واستقامته سلوكيًا بعد إعلان التوبة، وتخلوا عن الاعتصام بغير الله ، وتبرؤوا من الولاء لغير الله .

﴿ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (١) .

وها نحن نقف على أعتاب الخندق فى هذا الجزء كما وقفنا على أعتاب بدر فى الجزء السابق آخذين بترجيح الحافظ ابن حجر - رحمه الله - الذى قال بعد استعراض الروايات جميعًا (فيظهر أن المريسيع - المصطلق - كانت سنة خمس فى شعبان لتكون قد وقعت قبل الخندق ؛ لأن الخندق كانت فى شوال من سنة خمس أيضًا ، فتكون بعدها فيكون سعد بن معاذ موجودًا فى المريسيع ورمى بعد ذلك بسهم فى الخندق ومات من جراحته فى قريظة) (٢) .

---

(١) النساء / ١٤٦ .

(٢) الفتح ٧/ ٤٣٠ .

الخطوط العريضة فى التربية (١)

من أبواب بدر إلى أبواب الخندق وهى المرحلة التى تناولنا الحديث عنها فى هذا الجزء واستغرقت ثلاث سنوات ، من رمضان فى السنة الثانية للهجرة ،إلى ذى القعدة فى السنة الخامسة للهجرة .والتى تم خلالها بناء الجيل الأول من التابعين بإحسان للسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، نلاحظ هذه الخطوط العريضة فى البناء والتربية :

الخط الأول: التربية بالمعركة والحرب :

وهذه من المعالم الأولى للعهد المدنى، فالمرحلة السابقة قبيل بدر لم تكن المواجهة فيها شاملة، وكانت غزوة بدر الكبرى أولى المعارك الشاملة بين المسلمين وبين أعدائهم. والحديث عن الحرب والمواجهة شيء ، والمواجهة شيء آخر، يتم من خلالها اختبار عنصرى الشجاعة والصبر، واختبار قوة الإيمان كذلك ، وقد أشار القرآن لذلك فى آيات آل عمران فى قوله تعالى :

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ . وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾(٢) .

وأشار إلى ذلك فى سورة النساء بقوله تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً . أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ. . . ﴾ (٣) .

وسواء كانت نتيجة المعركة شهادة أو جراحًا غائرة فى سبيل الله، أو غنائم وأسلاب بعدها ، فكل هذه معامل ضخمة للتربية لا يكاد يعادلها معمل آخر.

الخط الثانى: التربية بالمناورات الحربية :

والمناورات : مصطلح عسكرى يعنى التدريب على الحرب بالذخيرة الحية ، دون

(١) لابد من الإشارة إلى أن أعظم معالم التربية فى المجتمع الإسلامى الأول كانت من خلال القرآن الكريم ، وحيث أفردنا الأجزاء الثلاثة الأولى للتربية الجهادية من خلال القرآن الكريم، فنتحدث عنها عن التربية النبوية المباشرة لهذا الجيل القرآنى النبوى الفريد فى التاريخ.

(٢) آل عمران / ١٤٢، ١٤٣ .

(٣) النساء / ٧٧، ٧٨ .

وجود العدو. وقد رأينا كثيرًا من الغزوات قام رسول الله ﷺ على رأسها ليواجه عدوًا فلم يلق عدوًا ولم يلق كيدًا، إنما كانت دورات عنيفة فى قلب الصحراء تكشف الأخلاق والنفوس والإيمان ، فتتلقفها يد النبوة بالعناية والرعاية والتوجيه ، إضافة إلى عظمة الصحبة النبوية مع سيد ولد آدم ، ورؤية القدوة العليا حية بين ظهرانيهم ، فتقتبس هذه النماذج النور من منبع النور لتشع بعد ذلك هدىً على العالمين.

الخط الثالث: التربية والتدريب على الشورى :

وذلك فى مجتمع تسوده دكتاتورية رئيس القبيلة ، ليشعر كل فرد فى هذا المجتمع الجديد أنه ليس صفرًا أو نكرة أو رقمًا ، يطلب منه أن يقبل وفقط، بل هو إنسان له رأيه وله قناعته وله وزنه ، وقد أخذت الشورى صورًا شتى فى عمليات البناء :

الصورة الأولى: أن يطلب رسول الله ﷺ الرأى من فريق محدد بعينه، كما هو الحال فى بدر ، يوم ألح على سماع رأى الأنصار فى مواجهة قريش، وهم غير ملزمين بالمواجهة حسب نصوص بيعة العقبة، وتقدَّم قادة الأنصار فأدلوا برأيهم إضافة إلى رأى قيادات المهاجرين ، وقرَّر المواجهة على ضوء ذلك قائلاً: « إن الله وعدنى إحدى الطائفتين ، فامضوا وأبشروا ، والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم».

الصورة الثانية: أن يطلب رسول الله ﷺ الرأى من الأمة جميعًا : جنودٍ وقيادات كما جرى قبيل غزوة أحد ، فشارك الأحداث والشيوخ والشباب فى الرأى دون أن يحظر على أحد ، بل ارتفع الأمر أكثر بأن أخذ رسول الله ﷺ برأى الشباب والأحداث بصفتهم عنصر الفداء والتضحية وليُعلِّم القيادات الإسلامية فى الأرض بعد ذلك كيف تستشير وتقيم وزنًا لنتائج الشورى والاتجاه الغالب والرأى العام فى صفوفها.

الصورة الثالثة: أن يستمع إلى الشورى ولو لم يطلبها كما جرى فى بدر ، حيث قام الحباب بن المنذر إلى رسول الله ﷺ فقال: أرأيت هذا المنزل الذى نزلت، أهو منزل أنزلكه الله ، ليس لنا أن نتقدم أو نتأخر عنه ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ قال: «بل هو الرأى والحرب والمكيدة » قال: يا رسول الله ، إن هذا ليس لك بمنزل فانهض بنا حتى نأتى أدنى ماء من القوم فننزله ونغوِّر ما وراءه من القُلَب، ثم نبنى عليه حوضًا فنملأه ماء، فنشرب ولا يشربون .

فاستحسن النبى ﷺ ذلك من رأيه، وأمر بالقُلَب فغورت،وبنى حوضًا وملأه ماء ، هكذا تكون المجتمع العربى الشورى لأول مرة فى التاريخ.

الخط الرابع: التربية بإبراز النموذج :

وقد رأينا هذه الصورة يوم انفعل أبو حذيفة بن عتبة رضي الله عنه وقال فى سورة غضب

عنيفة: نقتل آباءنا وأعمامنا وندع عم محمد، والله لئن لقيت العباس عم محمد لألجمنه بالسيف.

واكتفى ـ عليه الصلاة والسلام ـ بمعالجة هذا الوضع، وإعادة أبى حذيفة لصوابه بأن قال لعمر: « يا أبا حفص أيضرب وجه عم محمد بالسيف ؟ » .

فقال عمر: يا رسول الله ، دعنى أضرب عنقه ، فلقد نافق.

ولم يوجه كلمة واحدة لأبى حذيفة المسلم العظيم، والذى أفاق من ضياعه على ضوء مقالة عمر ،وقال: والله ما زلت أصوم وأصلى وأتصدق، وما أنا بآمن من تلك الكلمة وما أرى يكفرها عنى إلا الشهادة.

واندفع بعدها ليمحو تلك الخطيئة بأن يطلب مبارزة أبيه فى الحرب، استجابة لداعى العقيدة ثم يرى أباه وعمه وأخاه وهم يُلقون فى القليب، ويتابع رسول الله ﷺ تربيته لجنديه العظيم، وقد رأى تغير وجهه، فقال: « يا أبا حذيفة، هل رابك من مصرع أبيك شيء » . فقال: والله ما شككت فى أبى ولا فى مصرعه، ولكنى كنت أرى له حلمًا وفضلاً ، فلما مات على الكفر آلمنى ما رأيت . ثم أنهى حياته شهيدًا فى اليمامة رضي الله عنه .

وكان فى الممكن لو اتبع غير هذا الأسلوب مع أبى حذيفة أن يقتل مرتدًا ،والعياذ بالله.

الخط الخامس: التربية بالإعراض :

وذلك عندما يرى الخطأ ـ عليه الصلاة والسلام ـ يقع من أحد أصحابه فيعرض عنه، قال سلمة: يا رسول الله لم تزل عنى معرضًا منذ كنا بالروحاء فى بدأتنا، فقال رسول الله ﷺ: « أمًّا ماقلت للأعرابى :وقعت على ناقتك فهى حبلى منك، ففحشت وقلت ما لا علم لك به، وأمًّا ما قلت فى القوم،فإنك عمدت إلى نعمة من نعم الله تزهدها » .

فاعتذر إلى النبى ﷺ ، فقبل منه رسول الله ﷺ معذرته ، فكان من علِيّة أصحابه.

الخط السادس: التربية بالترغيب بالآخرة :

وذلك فى قلب المعركة، وساعات المواجهة مع العدو. فها هو ـ عليه الصلاة والسلام ـ يقول فى بدر: « قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض » ، ثم يقول : «والله ما يقاتل القوم اليوم رجلٌ مقبلٌ غير مدبر إلا أدخله الله الجنة».

فقال عمير بن الحمام ـ أخو بنى سلمة ـ وفى يده تمرات يأكلهن ـ: بخٍ بخٍ ، أفما

بينى وبين الجنة إلا أن يقتلنى هؤلاء؟ ثم قذف التمرات من يده وأخذ سيفه، فقاتل القوم حتى قتل.

وذاك الأفق الوضيء الآخر الذى يحرص أكثر ما يحرص على مرضاة الله. وهو عوف بن الحارث الذى جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! ما يضحك الرب من عبده؟ قال: « غمسه يده فى العدو حاسراً » فنزع درعًا كانت عليه فقذفها، ثم أخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل.

وذلك الموقف يوم أحد حيث أخذ ﷺ سيفًا وقال: « من يأخذ منى هذا السيف بحقه » فبسط كل إنسان منهم يقول :أنا. أنا. فقال: « من يأخذه بحقه؟» فأحجم القوم، فقال له أبو دجانة سِماك: أنا آخذه بحقه، قال: فأخذه ففلق به هام المشركين. أخرجه مسلم.

الخط السابع: تربية الأسرى :

والأسرى مشركون، وقد رعى رسول اللهﷺ هؤلاء الأسرى ، واتبع معهم الأساليب المتنوعة التى تتناسب مع أشخاصهم ونماذجهم:

أ- قتل مجرمى الحرب منهم: (ثم قفل رسول الله ﷺ ومعه الأسارى فيهم عقبة ابن أبى معيط والنضر بن الحارث. . . . ثم قتل النضر بن الحارث العبدرى بالصفراء. فقال عقبة حين أمر النبى بقتله: من للصبية يا محمد؟ قال: « النار». فقتله عاصم بن ثابت بن أبى الأقلح، وقيل : على رضي الله عنه .

وعن الشعبى قال: لما أمر النبى ﷺ بقتل عقبة قال: أتقتلنى يا محمد من بين قريش؟ قال: « نعم ،أتدرون ما صنع هذا بى؟ جاء وأنا ساجد خلف المقام فوضع رجله على عنقى وغمزها، فما رفعها حتى ظننت أن عينى ستندران. وجاء مرة أخرى بسلى شاة فألقاه على رأسى وأنا ساجد فجاءت فاطمة فغسلته عن رأسى » (١) .

ب ـ إحسان معاملتهم جميعًا: (قال يونس بن بكير عن ابن إسحاق: حدثنى نُبيه ابن وهب العبدرى قال: لما أقبل رسول الله ﷺ بالأسارى فرقهم على المسلمين وقال: « استوصوا بهم خيرا » قال نبيه: فسمعت من يذكر عن أبى عزيز بن عمير ، قال: كنت فى الأسارى يوم بدر فسمعت رسول الله ﷺ يقول: «استوصوا بالأسارى خيرا» ، فإن كان ليقدِّم إليهم الطعام،فما يقع فى يد أحدهم كسرة إلا رمى بها إلى أسيره،ويأكلون التمر.فكنت أستحى فآخذ الكسرة فأرمى بها إلى الذى رمى بها إلى،فيرمى بها إلى)(٢) .

(١) المغازى للذهبى :٦٤، ٦٥، وسلى الشاة : أمعاؤها.
(٢) المصدر نفسه : ١١٩ .

وقد حدث هذه المعاملة الكريمة بأبى عزيز أن يسلم فيما بعد.

جـ ـ الفداء بالمال: (ثم بعثت قريش فى فداء الأسارى، فقدم مكرز بن حفص فى فداء سهيل بن عمرو فقال عمر رضي الله عنه : دعنى يا رسول الله أنزع ثنيتى سهيل بن عمرو، فلا يقوم عليك خطيبًا فى موطن أبدًا فقال: «لا أمثل به فيُمثِّل الله بى، وعسى أن يقوم مقامًا لا تذمه» .

فقام فى أهل مكة بعد وفاة النبى ﷺ بنحو من خطبة الصديق رضي الله عنه وحسن إسلامه..)[1] .

د ـ المنُّ بدون فداء: (ومن الأسرى: أبو عزة عمرو بن عبد الله الجمحى، كان محتاجًا ذا بنات، قال للنبى ﷺ: قد عرفت ألا مال لى، وأنى ذو حاجة وعيال، فامنن علىَّ. فمنّ عليه وشرط عليه أن لا يظاهر عليه أحدا)[2] .

ولكن أبا عزة غدر، وظاهر المشركين على رسول الله ﷺ، فأمكن الله تعالى منه يوم أحد، ووقع أسيرًا بيد المسلمين فضربت عنقه.

هـ ـ الذين فدوا أنفسهم بتعليم أولاد المسلمين: وذلك فى مجتمع يقبل على العلم والنور والهدى، وأصبح بين يديه كتاب الله تعالى، فما أحوجه إلى القراءة والكتابة بعد أن كانوا الأميين من بين الأمم.

(روى ابن سعد عن الشعبى قال: كان أهل مكة يكتبون، وأهل المدينة لا يكتبون، فمن لم يكن له فداء دفع إليه عشرة من غلمان المدينة يعلمهم، فإذا حذقوا فهم فداؤه، وكان زيد بن ثابت ممَّن علِّم)[3] .

و ـ ولا ننسى تلك الكلمة الخالدة التى أرسلها ﷺ وهى كلمة وفاء للمطعم بن عدى الذى كان أكبر نصير للدعوة بعد أبى طالب لتطرق مسامع مكة، حين يرون قتل النضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط:

قال: « لو كان المطعم بن عدى حيًا لوهبت له هؤلاء النتنى » أى : الأسرى.

الخط الثامن: استثارة الطاقات الكامنة :

حيث يحدد رسول الله ﷺ الهدف ، ويدع للطاقات الإيمانية الكامنة أن تتفجر وتبدع ، وهذه نماذج من ذلك:

---

(١) المغازى للذهبى : ٦٨ .
(٢) المصدر نفسه : ٧١ .
(٣) سبل الهدى والرشاد ٤/ ١٠٤ ، ١٠٥ .

(فها هو يقول عليه الصلاة والسلام: « من لكعب بن الأشرف؟ فقد آذانا بالشعر. وقوّى المشركين علينا » فقال محمد بن مسلمة: أنا يا رسول الله. قال: «فأنت»)(١) .

(كان أبو عفك اليهودى يحرّض على رسول الله ﷺ ويقول الشعر، وكان قد نجم نفاقه فقال رسول الله ﷺ « من لى بهذا الخبيث؟ » فقال سالم بن عمير وكان قد شهد بدرًا: علىَّ نذرٌ أن أقتل أبا عفك أو أموت دونه)(٢) .

(وكانت عصماء بنت مروان تعيب الإسلام وتؤذى رسول الله، وتحرّض عليه، وتقول الشعر، وكانت تطرح المحايض فى مسجد بنى خطمة. فأهدر رسول الله ﷺ دمها، فنذر عمير بن عدى، لئن رجع رسول الله ﷺ من بدر إلى المدينة ليقتلنها)(٣) .

وقد نجحت هذه المهام جميعًا كما مرَّ معنا من قبل، وبذلك أفسح عليه الصلاة والسلام مجال التنافس فى الجهاد والبطولات، وأبرز الطاقات المكنونة لتعمل كلها فى سبيل الله.

الخط التاسع: تكليف الأبطال بالمهمات الصعبة :

وهذه نماذج من ذلك :

أ ـ فى سرية أبى سلمة بن عبد الأسد إلى قطن :(.. فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ دعا أبا سلمة رضي الله عنه وقال: «اخرج فى هذه السرية فقد استعملتك عليها »، وعقد له لواء ، وقال: « سر حتى ترد أرض بنى أسد بن خزيمة فأغر عليهم قبل أن تلاقى عليك جموعهم ، وأوصاه بتقوى الله عز وجل وبمن معه من المسلمين خيرا »)(٤) .

ب ـ قال عبد الله بن أنيس رضي الله عنه :(دعانى رسول الله ﷺ فقال: « إنه بلغنى أن سفيان بن خالد بن نبيح يجمع لى الناس ليغزونى وهو بنخلة أو عرنة فأته فاقتله » فقلت: يا رسول الله صفه لى حتى أعرفه ، فقال : « آية ما بينك وبينه أنك إذا رأيته هبته ، وفرقت منه ، ووجدت له قشعريرة ، وذكرت الشيطان » . قال عبدالله : وكنت لا أهاب الرجال . فقلت : يارسول الله! ما فرقت من شىء قط. فقال: « بلى ، آية ما بينك وبينه ذلك أن تجد له قشعريرة إذا رأيته »)(٥) .

ومضى ابن أنيس رضي الله عنه ونفذ مهمته كما مر معنا من قبل.

---

(١) المغازى للذهبى : ١٦٠ .
(٢) سبل الهدى والرشاد ٤/ ٣٨ .
(٣) المصدر نفسه ٤/ ٣٦ .
(٤) المصدر نفسه ٤/ ٥٤، ٥٥ .
(٥) المصدر نفسه ٤/ ٥٧ .

جـ- سرية عمرو بن أمية وسلمة بن أبى أسلم لقتل أبى سفيان: (فقال رسول الله ﷺ لعمرو بن أمية الضمرى ولسلمة بن أسلم بن حريش: « اخرجا حتى تأتيا أبا سفيان ابن حرب، فإذا أصبتما منه غرة فاقتلاه »)[1].

وشهدنا تفاصيل السرية من قبل، وكيف فاتهما قتل أبى سفيان، لكن عمراً رضي الله عنه أنقذ خشبة خبيب رضي الله عنه التى قتل وصلب عليها، ثم غيبته الأرض معها، وكيف قتل أربعة من المشركين وهو قادم فى طريقه.

الخط العاشر: التربية بالقدوة :

لقد كان عليه الصلاة والسلام كواحدٍ من أصحابه، وإذا حل الخطر بالمسلمين فهو فى قلب الخطر وهو أقرب ما يكون من العدو .

وهذه نماذج من ذلك :

أ- قال على رضي الله عنه : لما كان يوم بدر اتقينا المشركين برسول الله وكان أشد الناس بأسًا [2] .

وفى رواية عند الإمام أحمد عن على رضي الله عنه قال : (كنا إذا احمر البأس ولقى القوم القوم ، اتقينا برسول الله ﷺ، فما يكون منا أحد أدنى إلى القوم منه)[3] .

ب - روى البيهقى عن المقداد بن عمرو رضي الله عنه فذكر حديثًا فى يوم أحد ، وقال: فأوجعوا والله فينا قتلاً ذريعًا، ونالوا من رسول الله ﷺ ما نالوا ،ألا والذى بعثه بالحق إن [4] زال رسول الله ﷺ شبرًا واحدًا، وإنه لفى وجه العدو، ويفىء إليه طائفة من أصحابه مرة وتفترق مرة عنه، فربما رأيته قائمًا يرمى عن قوسه، ويرمى بالحجر حتى تحاجزوا ، وثبت رسول الله ﷺ فى عصابة ثبتت معه[5] .

وقال محمد بن عمر: (ثبت رسول الله ﷺ مكانه ما يزول قدمًا واحدًا بل وقف فى وجه العدو، وما يزال يرمى عن قوسه حتى تقطَّع وتره، وبقيت فى يده منه قطعة تكون شبرًا فى سية القوس، فأخذ القوس عكاشة بن محصن ليوتره له، فقال: يارسول الله لا يبلغ الوتر. فقال : « مُدَّه فيبلغ » ، قال عكاشة: فوالذى بعثه بالحق لمددته حتى بلغ، وطويت منه ليتين أو ثلاثًا على سية القوس، ثم أخذ رسول الله ﷺ قوسه، فما

(١) دلائل النبوة للبيهقى ٣/ ٣٣٥ .
(٢) المصدر نفسه٣/ ٦٩ .
(٣) مسند الإمام أحمد ١/ ١٥٦ .
(٤) إن: بمعنى ما .
(٥) سبل الهدى والرشاد ٤ / ٢٩١ ، ٢٩٢

زال يرمى به وأبو طلحة يستره مترسًا حتى تحطمت القوس، وصارت شظايا، وفنيت نبله. .ورمى بالحجارة، وكان أقرب الناس إلى العدو (١) .

جـ ـ وروى الإمام أحمد وابن سعد عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنا يوم بدر كل ثلاثة على بعير وكان أبو لبابة وعلىٌّ زميلى رسول الله ﷺ ، وكان إذا كانت عُقُبَةَ رسول الله ﷺ (أى نوبته فى السير وقيادة البعير بزميليه) قالا: اركب يا رسول الله حتى نمشى عنك ، فيقول: « ما أنتما بأقوى منى على المشى، وما أنا بأغنى عن الأجر منكما » .

قال فى البداية: وهذا قبل أن يرد رسول الله ﷺ أبا لبابة من الروحاء ثم كان زميلاه علياً وزيداً (٢) .

الخط الحادى عشر: التضحية بأقرب الناس إليه :

فعندما يكون خطر الموت قائمًا فأقرب المقربين له هم أبطال المواجهة.

وهذه نماذج من ذلك :

أ ـ قال ابن عقبة وابن سعد وابن عائذ: ولما طلب القوم المبارزة وقام إليهم الثلاثة (من الأنصار) استحى رسول الله ﷺ من ذلك، لأنه أول قتال التقى فيه المسلمون والمشركون ، ورسول الله ﷺ شاهد معهم، فأحب رسول الله أن تكون الشوكة لبنى عمه وقومه فقالوا: من أنتم؟ قالوا: رهط من الأنصار. فقالوا: أكفاء كرام ، مالنا بكم من حاجة . ثم نادوا : يا محمد ، أخرج لنا أكفاءنا من قومنا ، فناداهم رسول الله ﷺ: « ارجعوا إلى مصافكم وليقم إليهم بنوعمهم » .

قال ابن إسحاق : فقال رسول الله ﷺ: قم يا عبيدة بن الحارث (٣) وقم ياحمزة(٤)، وقم يا على(٥) ـ وكان علىٌّ معلمًا بصوفة بيضاء ـ فقاتلوا بحقكم الذى بعث به نبيكم إذ جاؤوا بباطلهم ليطفئوا نور الله، فلما قاموا ودنوا معهم قالوا: من أنتم ؟ تكلموا ، فقال عبيدة : أنا عبيدة ، وقال حمزة : أنا حمزة ، وقال على : أنا على . قالوا : نعم أكفاء كرام . فبارز عبيدة، وكان أسن القوم عتبة بن ربيعة ، وبارز حمزة شيبة ، وبارز على الوليد بن عتبة. فأما حمزة فلم يمهل شيبة أن قتله ، وأما على فلم

(١) سبل الهدى والرشاد ٤ / ٢٩١ ، ٢٩٢ . (٢) المصدر نفسه ٤/ ٣٩ ، ٤٠ .
(٣) عبيدة هو ابن عم رسول الله ﷺ الحارث بن عبد المطلب.
(٤) حمزة: هو عمه وأخوه من الرضاعة. (٥) على: هو ابن عمه وأخوه فى الدنيا والآخرة.

يمهل الوليد أن قتله، واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين كلاهما أثبت صاحبه، وضرب شيبة رجل عبيدة فقطعها ، وكرَّ حمزة وعلى بأسيافهما على عتبة فذففا عليه واحتملا صاحبهما.

ب ـ سرية زيد بن حارثة إلى القردة: (فخرج [١] بهم على طريق ذات عرق، فبلغ رسول الله ﷺ أمرهم، فأرسل زيد بن حارثة فى مائة راكب فاعترضوا لهم بالقردة فأصابوا العير، وأفلت أعيان القوم، وأسروا رجلين أو ثلاثة ، وقدموا بالعير على رسول الله ﷺ فخمسها ، فبلغ الخمس قيمة عشرين ألف درهم، وقسَّم الباقى على أهل السرية) [٢] .

لقد كان زيد بن حارثة آنذاك هو زيد بن محمد حيث تبناه ـ عليه الصلاة والسلام ـ ولم يكن التبنى حرم يومئذ ، وكانت السرية إلى أرض العراق سيرًا فى مجاهيل وبيد لا يقطعها إلا الرجال الأشداء.

وليست سرية أبى سلمة بن عبد الأسد التى تحدثنا عنها من قبل إلا نموذجًا من ذلك، فأبو سلمة ابن عمة رسول الله ﷺ وأخوه من الرضاعة، ولم ينته الأمر عند قيادتهم للسرايا ومبارزتهم للخصوم ، فقد سقط هؤلاء القادة شهداء فى سبيل الله. فهذا عبيدة بن الحارث يستشهد فى بدر، وذاك حمزة بن عبدالمطلب أسد الله وأسد رسوله يستشهد فى أحد، وذاك أبو سلمة بن عبد الأسد يستشهد على أعقاب جراحه فى أحد.

الخط الثانى عشر: التربية بالقدوة فى استئصال العادات الجاهلية :

فقد اختار رسول الله ﷺ ابنة عمته زينب ليقضى بزواجها على فوارق النسب، وزوجها من مولاه زيد بن حارثة.

قال العوفى عن ابن عباس ـ رضى الله تعالى عنهما ـ قوله تعالى : ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ** ﴾ [٣] الآية ، وذلك أن رسول الله ﷺ انطلق ليخطب على فتاه زيد ابن حارثة رضي الله عنه فدخل على زينب بنت جحش الأسدية ـ رضى الله عنها ـ فخطبها. فقالت: لست بناكحته ، فقال رسول الله ﷺ: « بلى فانكحيه ». قالت: يارسول الله

---

(١) الذى خرج بقافلة قريش (فرات بن حيان العجلى) خبير الصحراء .

(٢) سبل الهدى والرشاد ٤/ ٥١، ٥٢ .   (٣) الأحزاب / ٣٦ .

أؤامر فى نفسى؟ فبينما هما يتحدثان أنزل الله هذه الآية على رسول الله ﷺ : ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا** ﴾(١) . قالت: قد رضيته لى يا رسول الله منكحًا؟ قال رسول الله ﷺ: «نعم» . قالت: إذن لا أعصى رسول الله ﷺ ، قد أنكحته نفسى(٢) .

واختاره الله تعالى ليتزوج مطلقة متبناه ليقضى على عادة التبنى:

عن على بن زيد بن جدعان قال: سألني على بن الحسين ـ رضى الله عنهما ـ ما يقول الحسن: فى ﴿ **وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ** ﴾ (٣) فذكرت له. فقال: لا، ولكن الله تعالى أعلم نبيه أنها ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها ،فلما أتاه زيد رضي الله عنه ليشكوها إليه ، قال: « اتق الله وأمسك عليك زوجك » ، فقال: قد أخبرتك أنى مزوجكها وتخفى فى نفسك ما الله مبديه، وهكذا روى عن السدى أنه قال نحو ذلك(٤) .

الخط الثالث عشر: تربية المنافقين :

هذه الظاهرة الخطيرة التى برزت فى الصف الإسلامى، وكان يمكن لها أن تودى بالصف الإسلامى كله، لولا عظمة التربية القرآنية والنبوية التى قلَّصت حزبهم وفتنته.

وذلك من خلال الخطوات والأساليب التالية:

أ ـ استبعاد قتلهم ابتداء: عن زيد بن ثابت قال: لما خرج رسول الله ﷺ إلى أحد رجع ناس خرجوا معه ، فكان أصحاب رسول الله ﷺ فرقتين، فرقة تقول: نقاتلهم، وفرقة تقول: لا نقاتلهم. فنزلت: ﴿ **فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً** ﴾ (٥)متفق عليه(٦) .

وقال محمد بن عمر : (فمشى ـ أى عمر بن الخطاب ـ إلى رسول الله ﷺ ليستأذنه فى قتل من سمع ذلك منه من اليهود والمنافقين ،فقال رسول الله ﷺ: «يا عمر، إن الله مظهر دينه، ومعز نبيه، ولليهود ذمة فلا أقتلهم ». قال: فهؤلاء المنافقون يا رسول

---

(١) الأحزاب / ٣٦ . (٢) تفسير ابن كثير ٥/ ٤٦٣ .
(٣) الأحزاب/ ٣٧ .
(٤) تفسير ابن كثير ٥/ ٤٦٧ وأوضحت الآية أن المطلوب هو القدوة حيث قال عز وجل فى نهايتها ﴿ ...لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً ﴾.
(٥) النساء / ٨٨ . (٦) المغازى للذهبى : ١٦٧ .

الله: فقال رسول الله ﷺ: « أليس يظهرون شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؟ » قال: بلى يا رسول الله، وإنما يفعلون ذلك تعوذًا من السيف، فقد بان لك أمرهم وأبدى الله أضغانهم عند هذه النكبة ، فقال رسول الله ﷺ: « نهيت عن قتل من قال لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله») (١) .

ب ـ مفاصلتهم: (وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد : ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ (٢) وقال: ميزهم يوم أحد) (٣) .

وعندما خرج عليه الصلاة والسلام لمواجهة المشركين فى حمراء الأسد ، بعد أحد بيوم واحد (أمر بلالاً أن ينادى: أن رسول الله ﷺ يأمركم بطلب عدوكم، ولا يخرج معنا إلا من شهد القتال بالأمس. . . .وقال ابن عُقبة: وأتى عبد الله بن أبى رسول الله ﷺ فقال: أنا راكب معك، فقال: « لا » .

قال ابن إسحاق وابن عمر: (وأتى جابر بن عبد الله رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن مناديك نادى : أن لا يخرج معنا إلا من حضر القتال بالأمس، وقد كنت حريصا على الحضور، ولكن أبى خلفني. . .) (٤) .

جـ ـ فتح صفحة جديدة معهم: وذلك بعد مرور سنتين من المفاصلة؛ ليتاح لهم تكفير أخطائهم وتغيير مواقفهم حيث أتيح لابن أبىّ زعيمهم أن يحضر غزوة بنى المصطلق، وهى أول غزوة يحضرها بعد غزوة أحد.

وقدَّر الله تعالى أن يفضح ثانية على رؤوس الخلائق إلى يوم الدين ، فى موقفه الذى نال به من رسول الله ﷺ ومن المسلمين، حيث كان آمنًا من نقل حديثه فأركان حزبه العشرة كانوا معه ، ولم ينتبه إلى ذلك الصبى الصغير زيد رضي الله عنه والذى كان فى إيمانه أكبر من النفاق كله.

د ـ فضحهم من خلال القرآن الكريم دون ذكر أسمائهم: إذ جاءت سورة (المنافقون) كلها تتحدث عن جرائمهم، وبقيت قرآنا يتلى إلى يوم القيامة، وكان رسول الله ﷺ يقرؤها يوم الجمعة دائمًا على رؤوس الأشهاد، حتى يكبتهم، ويحول دون أن يخدع بهم أحد.

هـ ـ امتناع النبى ﷺ عن قتل قائدهم الذى ثبتت جريمته بنص القرآن: وقد أبدى

(١) المغازى للواقدى ١ / ٣١٨ .
(٢) آل عمران / ١٧٩ .
(٣) المغازى من تاريخ الإسلام للذهبى : ١٦٧ .
(٤) سبل الهدى والرشاد ٤/ ٤٣٩ .

ابن عبد الله بن أبى المؤمن العظيم استعداده لقتل أبيه بأمر رسول الله ﷺ : (بلغنى يا رسول الله أنك قاتل أبى ، فإن كنت لابد فاعلاً فأنا آتيك برأسه).

و ـ ترك عقوبتهم للمؤمنين من قومهم: حيث قام عبد الله بن عبد الله بن أبى رضي الله عنه بتنفيذ هذا الإذلال له، وهو الذى لم تعرف الأنصار أبر بأبيه منه ، ووضع السيف على عنق أبيه وقال :

والله لن تجوز ـ تدخل المدينة ـ حتى يأذن لك رسول الله.

وفى رواية : (حتى تقول بأنك أنت الذليل وأن محمداً هو العزيز) .

ز ـ قتلهم المعنوى: حيث انفض الكثير من أتباع عبد الله بن أبىّ عنه، بعد افتضاح موقفه، وتقلص حزبه، ولجأ إلى المؤامرات بالخفاء والسر بعد التحدى السابق لله ولرسوله، وأصبح من كان حوله على استعداد لقتله ، لو أمرهم رسول الله ﷺ بذلك.

(وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنفونه ، فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب حين بلغه ذلك من شأنهم:

« كيف ترى يا عمر، أما والله لو قتلته يوم قلت لى: اقتله ؛ لأرعدت له آنفا لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته » . قال عمر: قد والله علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمرى) (١) .

الخط الرابع عشر: المحافظة على السمعة السياسية والعسكرية :

وهى تدخل فى صميم التربية. ونقدم نموذجين لذلك :

النموذج الأول: يوم قال الفاروق عمر رضي الله عنه لرسول الله ﷺ بشأن ابن أبى: مر به عبَّاد بن بشر فليقتله.

فقال له رسول الله ﷺ: « فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه » (٢) .

إنها المحافظة التامة على السمعة السياسية، والفرق كبير جداً بين أن يتحدث الناس عن حب أصحاب محمد محمداً، ويؤكدون على ذلك بلسان قائدهم الأكبر أبى سفيان:

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٣/٤٠٦ .
(٢) المصدر نفسه ٣/٤٠٣ .

ما رأيت أحداً يحب أحدًا كحب أصحاب محمد محمدًا [1] . وبين أن يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه، ولا شك أن وراء ذلك محاولات ضخمة ستتم فى محاولة الدخول إلى الصف الداخلى فى المدينة من العدو ، بينما هم يائسون الآن من قدرتهم على شيء أمام ذلك الحب وتلك التضحيات.

النموذج الثانى : المحافظة على السمعة العسكرية ، وذلك فى إصراره ـ عليه الصلاة والسلام ـ على الخروج إلى بدر الموعد .

ولو كان سيخرج وحده ،وكيف تخاذلت قريش، وانهارت سمعتها على إثر ذلك، وفى نزوله إلى عسفان، وبعث أبى بكر والفرسان العشر إلى كراع الغميم، وتحدث رسول الله ﷺ أن السبب فى ذلك هو إرهاب قريش، والمحافظة على السمعة العسكرية العالية للجيش الإسلامى :

« إن قريشًا قد بلغهم مسيرى وأنى وردت عُسفان وهم يهابون أن آتيهم فاخرج فى عشرة فوارس » ، فخرج أبو بكر فيهم حتى بلغ كراع الغميم، ثم رجع أبو بكر إلى رسول الله ﷺ ولم يلق أحدًا فقال: « إن هذا يبلغ قريشًا فيذعرهم، ويخافون أن نكون نريدهم » [2] .

وكان هذا بعد محنة أحد بثمانية أشهر، وذلك للرد على ادعاءات قريش وانتصاراتها.

الخط الخامس عشر: بث الدعاة لنشر الدعوة :

ورغم أن هؤلاء الدعاة جميعًا قد قتلوا لكن الأصل هو الحرص على نشر الدعوة فإسلام الناس هو الهدف الرئيسى ، وليس قتلهم ، غير أن الطواغيت الذين يحكمونهم هم الذين يحولون بين وصول الدعوة إليهم ، فما أن سنحت سانحة لرسول الله ﷺ إلا وعبأ خيرة أصحابه لنشر دعوته.

(فعن محمد بن إسحاق قال: حدثنى عاصم بن عمر بن قتادة قال: قدم على رسول الله ﷺ بعد أحد رهط من عضل والقارة. . فقالوا: يا رسول الله، إن فينا إسلامًا فابعث معنا نفراً من أصحابك، يفقهوننا فى الدين، ويقرئوننا القرآن، ويعلموننا شعائر الإسلام. فبعث رسول الله ﷺ معهم نفرًا ستة من أصحابه وهم: مرثد بن أبى مرثد الغَنوى حليف حمزة بن عبد المطلب ، وخالد بن البكير الليثى حليف بنى عدى ابن كعب ، وعاصم بن ثابت بن أبى الأقلح. . وخبيب بن عدى. . وزيد بن الدثنة . .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٢٤٥ .

(٢) المغازى للواقدى ٢ / ٥٣٦ .

وعبد الله بن طارق (وهؤلاء من الأنصار) وأمَّر عليهم مرثد بن أبى مرثد. . .) (١) .

وبالهدف نفسه أرسل رسول الله ﷺ القراء السبعين لأهل نجد، وهى أكبر كتيبة دعوية مضت لتنشر هذا الدين فى أكبر قبائل العرب.

قال ابن إسحاق: (حدثنى أبى إسحاق بن يسار عن المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وعبد الله بن أبى بكر بن حزم، وغيره من أهل العلم قالوا:

قدم أبو براء عامر بن مالك بن جعفر ـ ملاعب الأسنة ـ على رسول الله ﷺ المدينة، فعرض عليه رسول الله الإسلام، ودعاه إليه، فلم يسلم ولم يبعد عن الإسلام، وقال: يا محمد ، لو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد، فدعَوْهم إلى أمرك،رجوت أن يستجيبوا لك. فقال رسول الله ﷺ: « إنى أخشى عليهم أهل نجد ». قال أبو براء: أنا لهم جار، فابعثهم فليدعوا الناس إلى أمرك.

فبعث رسول الله ﷺ المنذر بن عمرو أخا بنى ساعدة المعتق ليموت فى أربعين رجلاً من أصحابه من خيار المسلمين، منهم الحارث بن الصمة، وحرام بن ملحان ، وعروة بن أسماء، ونافع بن بديل بن ورقاء الخزاعى، وعامر بن فهيرة مولى أبى بكر الصديق، فى رجالٍ مسمين من خيار المسلمين ، فساروا حتى نزلوا ببئر معونة، وهى بين أرض بنى عامر وحرة بنى سُلَيم كلا البلدين منهما قريب، فلما نزلوها بعثوا حرام ابن ملحان بكتاب رسول الله ﷺ إلى عدو الله عامر بن الطفيل ، فلما أتاه لم ينظر فى كتابه حتى عدا على الرجل فقتله، ثم استصرخ عليهم بنى عامر، فأبوا أن يجيبوه إلى ما دعاهم إليه، وقالوا: لن نخفر أبا براء، وقد عقد لهم عقداً وجواراً . فاستصرخ عليهم قبائل من بنى سُلَيم من عصية ورعل وذكوان، فأجابوه إلى ذلك، فخرجوا حتى غشوا القوم فأحاطوا بهم فى رحالهم، فلما رأوهم أخذوا سيوفهم، ثم قاتلوهم حتى قتلوا من عند آخرهم ـ يرحمهم الله ـ إلا كعب بن زيد ، فإنهم تركوه وبه رمق فارتث من بين القتلى، فعاش حتى قتل يوم الخندق شهيداً ـ يرحمه الله) (٢) .

صحيح أنهم لم يدعوا بلسانهم، لكنهم دعوا بدمائهم، وانتشرت أخبار ثباتهم، وحبهم لرسول الله ﷺ وحبهم للموت، واعتباره فوزاً لهم، وكراماتهم فيمن صعد إلى السماء، أو جاءه القطف من العنب، وصارت أحاديث السماء فى المضارب العربية، وكونّت أرضية لهذا الدين فى أعماق العرب، وأن محمداً وأصحابه طراز فريد من

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٣ / ٢٤٢ .

(٢) المصدر نفسه ٣/ ٢٦٠ ، ٢٦١ وهو عند البخارى ومسلم .

البشر، وثقتهم بدينهم وتمسكهم به، واستعدادهم للموت فى سبيله يفوق كل وصف.

لقد زرعت البذرة الأولى فى نفوس العرب نحو الإسلام، وهم يحاولون قتلها، لكن الله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون، ولكل أجل كتاب.

الخط السادس عشر: تحويل الفاتكين المحار بين إلى دعاة مؤمنين :

فهذه الطاقات الرهيبة التى تتجند لصالح الشرك، لو أتيح لها أن تفقه الإسلام لتحولت إلى جنودٍ فى دعوة الله ـ عز وجل ـ وهذا ما حرص عليه رسول الله ﷺ أن يقع، بحيث يبقى همه الأول إيصال النور إلى قلوب المحاربين قبل إيصال السيف إلى أعناقهم.

فهذا عمير بن وهب ـ الملقب بشيطان قريش ـ يأمر بسيفه فـشحذ له وسُمَّ، ثم انطلق إلى المدينة ليغتال رسول الله ﷺ ، ولما وصل إلى المدينة (دخل عمر على رسول الله ﷺ فقال: يا نبى الله ، هذا عدو الله عمير بن وهب قد جاء متوشحًا سيفه . قال: « فأدخله على » . فأقبل عمر حتى أخذ بحمالة سيفه فى عنقه فلببه بها ، وقال لرجال ممن كانوا معه من الأنصار: ادخلوا على رسول الله ﷺ فاجلسوا عنده. واحذروا عليه من هذا الخبيث، فإنه غير مأمون، ثم دخل به على رسول الله ﷺ، فلما رآه رسول الله ﷺ وعمر آخذ بحمالة سيفه فى عنقه. قال : « أرسله يا عمر، ادن يا عمير » . فدنا ، ثم قال: انعموا صباحًا ـ وكانت تحية أهل الجاهلية بينهم. فقال رسول الله ﷺ: « قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير، السلام تحية أهل الجنة»، فقال: أما والله يا محمد ، إن كنت بها لحديث عهد. قال: « فما جاء بك ياعمير؟ » قال: جئت لهذا الأسير الذى فى أيديكم فأحسنوا فيه. قال: « فما بال السيف فى عنقك؟ » قال: قبحها الله من سيوف ، وهل أغنت عنا شيئًا: قال: «اصدقنى، ما الذى جئت له؟ » قال: ما جئت إلا لذلك، قال: « لا بل قعدت أنت وصفوان بن أمية فى الحجر فذكرتما أصحاب القليب من قريش ، ثم قلت : لولا دين على وعيال لخرجت حتى أقتل محمدًا فتحمل صفوان بدينك وعيالك ؛ على أن تقتلنى له، والله حائل بينك وبين ذلك » قال عمير: أشهد أنك رسول الله، قد كنا يا رسول الله نكذبك بما تأتينا به من خبر السماء، وما ينزل عليك من الوحى، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان، فوالله إنى لأعلم ما أتاك به إلا الله، فالحمد لله الذى هدانى للإسلام، وساقنى هذا المساق. فقال رسول الله ﷺ: «فقهوا أخاكم فى دينه، وأقرئوه القرآن، وأطلقوا له أسيره» ، ففعلوا ثم قال: يا رسول الله ، إنى كنت جاهدًا على إطفاء نور الله شديد الأذى لمن كان على دين الله، وأنا أحب أن تأذن لى، فأقدم مكة،

فأدعوهم إلى الله تعالى، وإلى رسوله ﷺ، وإلى الإسلام لعل الله يهديهم ، وإلا آذيتهم فى دينهم كما كنت أوذى أصحابك فى دينهم، فأذن له رسول الله ﷺ فلحق بمكة . . . فلما قدم عمير مكة أقام بها يدعو إلى الإسلام، ويؤذى من خالفه أذىً شديدًا. فأسلم على يديه ناس كثير) (١) .

والحادثة فى غنىً عن أى تعليق . وهذه الحادثة الثانية:

(كان أبو سفيان بن حرب قد قال لنفرٍ من قريش بمكة: ما أحد يغتال محمداً ، فإنه يمشى فى الأسواق فندرك ثأرنا. فأتاه رجل من العرب فدخل عليه منزله، وقال له: إن أنت قويتنى خرجت إليه حتى أغتاله فإنى هادٍ بالطريق خرّيت، ومعى خنجر مثل خافية النسر، قال: أنت صاحبنا، فأعطاه بعيراً ونفقة، وقال: اطو أمرك، فإنى لا آمن أن يسمع هذا أحد فيُنمه إلى محمد، قال العربى: لا يعلم به أحد. . . فدخل - على محمد ﷺ - فلما رآه رسول الله ﷺ قال لأصحابه: « إن هذا الرجل يريد غدراً والله حائل بينه وبين ما يريد » . فوقف فقال: أيكم ابن عبد المطلب؟ فقال رسول الله ﷺ: « أنا ابن عبد المطلب » ، فذهب ينحنى على رسول الله ﷺ كأنه يساره فجبذه أسيد بن حضير وقال له: تنح عن رسول الله ﷺ ، وجبذ بداخلة إزاره ، فإذا الخنجر فقال رسول الله ﷺ: «هذا غادر» وسقط فى يدى العربى. وقال: دمى دمى يا محمد، وأخذ أسيد يلبّب ،فقال رسول الله ﷺ: « اصدقنى ما أنت؟ وما أقدمك؟ فإن صدقتنى نفعك الصدق، وإن كذبتنى فقد أُطلعتُ على ما هممت به ». قال العربى: فأنا آمن؟ قال: « فأنت آمن » ، فأخبره بخبر أَبى سفيان وما جعل له، فأمر به فحبس عند أسيد، ثم دعا به من الغد فقال: « قد أمنتك فاذهب حيث شئت ، أو خير لك من ذلك ! » ، قال : وما هو ؟ قال: « تشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله » قال: فإنى أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، والله يا محمد، ما كنت أفرق الرجال، فما هو إلا أن رأيتك فذهب عقلى، وضَعُفَتْ نفسى، ثم اطلعتَ على ما هممتُ به مما سبقتُ به الركبان، ولم يعلمه أحد، فعرفت أنك ممنوع، وأنك على حق، وأن حزب أبى سفيان حزب الشيطان، فجعل النبى ﷺ يبتسم، وأقام أيامًا ثم استأذن النبى ﷺ فخرج من عنده فلم يسمع له بذكر) (٢) .

الخط السابع عشر: الزواج طريق لنشر الدعوة :

وتحدثنا عن هذا الزواج عائشة - رضى الله عنها - ضرة جويرية - رضى الله عنها - فتقول : (لما قسم رسول الله ﷺ سبايا بنى المصطلق، وقعت جويرية بنت الحارث -

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٧٤ .

(٢) دلائل النبوة للبيهقى ٣/ ٣٣٤ .

سيد بنى المصطلق ـ فى السهم لثابت بن قيس بن الشماس أو لابن عم له، فكاتبته على نفسها، وكانت امرأة حلوة ملاحة، لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه ، فأتت رسول الله ﷺ تستعينه فى كتابتها، قالت عائشة: فوالله ما هو إلا أن رأيتها على باب حجرتى فكرهتها، وعرفت أن سيرى منها ﷺ ما رأيت، فدخلت عليه فقالت: يا رسول الله ، أنا جويرية بنت الحارث بن أبى ضرار، سيد قومه، وقد أصابنى من البلاء ما لم يخف عليك ، فوقعت فى السهم لثابت بن قيس أو لابن عم له فكاتبته على نفسى، فجئتك أستعينك على كتابتى، قال: «فهل لك من خير من ذلك؟ » قالت: وما هو يا رسول الله؟ قال: « أقضى عنك كتابتك وأتزوجك » قالت: نعم يا رسول الله ، قال: « قد فعلت » .

قالت: وخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله ﷺ قد تزوج جويرية ابنة الحارث ، فقال الناس: أصهار رسول الله ﷺ وأرسلوا ما فى أيدهم قالت: فلقد أعتق بتزويجه إياها مائة أهل بيت من بنى المصطلق ، فما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها بركة منها (١) .

صحيح أن الرواية لم تتحدث عن إسلام بنى المصطلق ، فنأخذ الرواية الثانية التى رواها ابن هشام، وتحدث فيها عن إسلام الحارث وبعض قومه، والثابت أن بنى المصطلق جميعًا دخلوا فى الإسلام ، بعد إسلام سيدهم الحارث بن أبى ضرار ، وفيهم نزل قول الله عز وجل :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ (٢) .

حيث جاء الحارث وقدَّم صدقاته ، وصدقات قومه للنبى ـ عليه الصلاة والسلام .

لقد كان الزواج هو الذى كسر أقفال هذه القلوب التى أُنعم عليها بالعتق إكرامًا لرسول الله ﷺ وذلك قبل أن تدخل فى الإسلام، وفتحت مغاليق القلوب له على ضوء هذه المعاملة.

الخط الثامن عشر: الاستفادة من الطاقات الجديدة :

هناك من أسلموا قبيل بدر وأحد، ودخلوا المعركة، وبعضهم استشهد فيها، وهذا عمرو بن أمية الضمرى يسلم بعد أحد، فيبعثه رسول الله ﷺ خلال أشهر عينًا وحده

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ،وقال المحقق فيه: « حديث حسن » .

(٢) الحجرات / ٦ .

إلى مكة لينقذ جثة خبيب رضي الله عنه وليغتال أبا سفيان بن حرب ، فخبيب بن يساف رضي الله عنه يقول: أتيتُ رسول الله ﷺ وهو يريد غزواً، أنا ورجل من قومى لم نسلم فقلنا: إنا نستحى أن يشهد قومنا مشهداً لا نشهده. قال: « أسلمتما؟ » ، قلنا: لا، قال: « إنا لا نستعين بالمشركين على المشركين » ، فأسلمنا، وشهدنا معه، فقتلت رجلاً، وضربنى ضربة، وتزوجت ابنته بعد ذلك [1] .

الخط التاسع عشر: القضاء على العصبية الجاهلية وتصعيد مفهومها :

وهى التى برزت أشد ما تكون فى بنى المصطلق، وقد برزت مرة واحدة قبل بدر، وحديثنا عن هذه المرحلة:

بينما المسلمون على ماء المريسيع وقد انقطع الحرب، وهو ماء ظنون[2] إنما يخرج فى الدلو نصفه، أتى سنان بن وبر الجهنى وعلى الماء جمع من المهاجرين والأنصار فأدلى دلوه، وأدلى جهجاه بن مسعود الغفارى أجير عمر بن الخطاب دلوه، فالتبست دلو سنان ودلو جهجاه، وتنازعا فضرب جهجاه سنانًا فسال الدم. فنادى سنان: ياللأنصار ، ونادى جهجاه : ياللمهاجرين، وفى لفظ: يالقريش ، فأقبل جمع من الحيين، وشهروا السلاح حتى كادت أن تكون فتنة عظيمة، فخرج رسول الله ﷺ فقال: « ما بال دعوى الجاهلية؟» فأُخبر بالحال فقال: «دعوها فإنها منتنة، ولينصر الرجل أخاه ظالمًا كان أو مظلومًا فإن كان ظالمًا فلينهه، وإن كان مظلومًا فلينصره » [3] . وإن جماعة من المهاجرين كلموا عبادة بن الصامت، وجماعة من الأنصار كلموا سنانًا فترك حقه .

كلمة واحدة من فم النبى ﷺ أوقفت حربًا : « دعوها فإنها منتنة » . ولا تزال الأمة اليوم تعج بهذه العصبيات القبلية والوطنية والقومية ، وتفترق أحزابًا وطوائف وشيعًا ودولاً. وهى أعجز من أن تحل شيئا من هذه العصبيات، بل تزداد اشتعالاً وحرقًا لكيان الأمة وتكوينها، بل ويصطلى الدعاة بنارها مثل غيرهم، فيتوزعون منازع شتى. ويصيبهم ما يصيب مجتمعهم الجاهلى من نكسات وتمزق وخلافات ، وهم الأمل المرجى بإحياء الأمة.

ويصعِّد النبى ﷺ مفهوم النصر، فنصر الظالم هو كفه عن ظلمه، فهو نصره على نفسه وعلى شيطانه وعلى عصبيته، ونصر المظلوم عونه ، ولو كان من غير قبيلته ولو

(١) سير أعلام النبلاء للذهبى ٢/ ٥٠١ ، وقد أخرجه أحمد وابن سعد .

(٢) ماء ظنون: ماء قليل.

(٣) هذا المعنى هو نص حديث رواه الإمام أحمد والبخارى والترمذى: « انصر أخاك ظالماً أو مظلومًا » . قيل : كيف أنصره ظالماً ؟ قال : « تحجزه عن الظلم فإن ذلك نصره » .

كان من غير عشيرته، فأخوة الإسلام هى الميزان التى يوزن بها الناس والأشخاص والقيم والأعراف، والعصبية عصبية ، سيان كانت فى الإسلام أو الجاهلية ، فهى فى الجاهلية بين أوس وخزرج أو بين قبيلة وأخرى، وهى فى الإسلام بين المهاجرين وبين الأنصار ، وكلا الكلمتين مستحدثتان فى ظل النبوة ، ومع ذلك فقد اعتبرها ـ عليه الصلاة والسلام ـ عصبية جاهلية. وقال عنها: « دعوها فإنها منتنة » ، وليست عصبية الانتماء للجماعات الإسلامية اليوم ،والتى تقوم على نصرها ظالمة أو مظلومة بالمفهوم الجاهلى، إلا صورة عفنة من هذه الصور.

الخط العشرون: القضاء على الخونة المتمالئين مع العدو :

فعصماء بنت مروان التى كانت تعيب الإسلام وتؤذى رسول الله ﷺ وتحرِّض عليه وتقول الشعر، وتطرح المحايض فى مسجد بني خطمة،أهدر رسول الله ﷺ دمها فقتلها عمير بن عدى ، وأبو عفك اليهودى الذى كان يحرِّض على رسول الله ﷺ ويقول الشعر ، وقد نجم نفاقه قصد إليه سالم بن عمير ، فقتله بعد أن قال عليه الصلاة والسلام: « من لى بهذا الخبيث؟ » .

وكعب بن الأشرف ، وكان شاعراً يؤذى رسول الله ﷺ ويهجو الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ ويحرِّض عليهم الكفار ،وقد مضى إلى مكة بعد بدر يحرضها ، ويبكى قتلاها لعلهم ينتدبون ويخرجون معه لغزو رسول الله ﷺ ـ وراح يشبِّب بالنساء المسلمات ،وخاصة بأم الفضل زوج العباس عم النبى ﷺ. فقال عليه الصلاة والسلام: « من لى بكعب بن الأشرف فقد آذى الله ورسوله » ، وفى رواية « فقد آذانا بشعره وقوَّى المشركين علينا » . فقال محمد بن مسلمة: أنا له يا رسول الله. قال: « أنت له فافعل إن قدرت على ذلك » .

ولابد من الإشارة أن عملية القتل هذه جزء من التربية، فبقاء هؤلاء الخونة يسرحون ويمرحون ويبثون الشبهات، وينالون من الإسلام والمسلمين، يعنى : أن التربية النبوية تقاوم وتعاق، ويعنى : أن لهؤلاء الخونة شوكة يلجأ إليها ضعاف النفوس، ويكوِّنون جيوبًا خائنة داخل المجتمع الإسلامى، وينشرون الشبهات والإشاعات فى شعرهم وحديثهم ، فيصبح المجتمع الإسلامى نهبة للزعازع، تهب عليه الرياح من كل مكان، والعدو يتربص به من كل جانب ، يود أن ينفذ إلى ثغرة فيه، فلو بقيت هذه الثغرات لانهار المجتمع الإسلامى، وتهاوت حصونه وتمزق الولاء عند أفراده بين الجاهلية والإسلام والعصبية ، والمجتمع الإسلامى النموذج يقبل الحوار والجدال،

فلأهل الكتاب حقهم فى الوجود فى هذا المجتمع، والقرآن يدعونا إلى جدالهم بالتى هى أحسن ، وما دعوا إلى الحوار مرة إلا كان رسول الله ﷺ أول من يلبى.

وقد دعاهم إلى الحوار مراراً فخنسوا ، وكثيراً ما يعرض القرآن الكريم نماذج من هذا الحوار بين المسلمين واليهود، لكن أهل الكتاب هؤلاء ، وهم مواطنون فى الدولة المسلمة ، يجب أن يكون ولاؤهم لها لا لأعدائها ، و إلا فقدوا حق المواطنة، وعلى هذا كتبوا المواثيق والعهود مع النبى ﷺ. أما التشهير والنيل من الإسلام والاعتصام بالعدو والتعاون معه، وتحدى المسلمين فى مشاعرهم وشعائرهم وعقائدهم فهو أمر آخر . إن حرية العقيدة مكفولة للجميع ، وحرية الرأى الآخر والحوار معه سمة من سمات هذا الدين ، لكن هجاء الإسلام والمسلمين وتحريض عدوه عليه ، والتعاون السافر معه أمر آخر ، يعالج بالصورة التى تحسمه من جذوره وتهدمه فى أوكاره.

الخط الحادى والعشرون : العدل المطلق الذى قامت به السموات والأرض :

فالله تعالى يعاتب رسوله ﷺ من أجل مظلمة وقعت على فرد يهودى أعزل، وينزّل قرآنا بذلك يتلى إلى قيام الساعة ليكون درسًا للمؤمنين فى الأرض:

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا . وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا . وَلا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴾ (١) .

فربه تعالى يدعوه إلى الاستغفار وينهاه ـ بأبى هو وأمى ـ عن الجدال عن الأنصار الذين أرادوا إيقاع تهمة السرقة بهذا اليهودى الأعزل، وهو ﷺ لا يعلم الغيب، وقد جاء المتهمون بالبينة، فقد وُجِدَت السرقة فى بيت اليهودى، إذ وُضعت فيه لإثبات التهمة عليه، ومع كل هذه البيانات فلم يعف رب العزة ـ جل جلاله ـ نبيه من العتاب، وعتاب الرب سبحانه لعبده ورسوله وأحب خلقه إليه، ليس للخطأ فى الحكم، بل لعله لميله القلبى فى تصديق المسلمين، وتكذيب اليهودى، والله تعالى يريد لنبيه أن يكون للخلق كافة وليس للمسلمين فقط.

ثم كان الخطاب بعدها للمسلمين جميعًا فى الأرض ؛ أن الله تعالى يفضح الظالمين وهو حرب عليهم ، ولو كانوا من حملة كتابه ومن المؤمنين بدينه، فراح القرآن يصف هؤلاء المتواطئين: **﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لا**

---

(١) النساء / ١٠٥ ـ ١٠٧ .

يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا . هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ [1] وهو تهديد رعيب رهيب لهؤلاء الخونة، وقد سماهم القرآن خونة آثمين ، مثل الحديث عن خونة اليهود الذين صدر الحكم بقتلهم كما مر فى الفقرة الآنفة الذكر. ويفسح لهم الفرصة الأخيرة للتوبة والاستغفار والإنابة قبل أن يُسلخوا من هذا المجتمع : **﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا . وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا . وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾** [2] أى برىء : مهما كان لونه وجنسه ودينه فهو برىء ولا يدان بالتهمة حتى تثبت عليه، والمتهم أيًا كان جنسه ودينه ولونه فقد احتمل بهتانًا وإثمًا مبينًا ، ثم يعود إلى رسوله وحبيبه ومصطفاه ، فيحدثه بنعمة الله عليه وفضله ، أن أعلمه بالوحى المنزل بخيانة هؤلاء وتضليلهم : **﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾** [3] كل هذا الفضل العظيم الذى أسبغه على رسوله أن حال دون مظلمة تقع على يهودى أعزل من حبيبه ومصطفاه :

﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [4] .

والذى لا يقبل بحكم الله. ولا يقبل بعدالة الإسلام التى ترفض الظلم من جذوره كما قال ـ جل من قائل ـ فى الحديث القدسى :

« يا عبادى ، إنى حرمت الظلم على نفسى ، وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا » [5] .

الذى لا يرضى بالعدل المطلق الخالد فى هذا الوجود فليجد له أرضًا غير دولة الإسلام ، وهذا ما حدا بالأنصارى المتهم ، أن يرتد عن الإسلام ويهرب إلى مكة منضمًا إلى العدو، فقال الله تعالى بحقِّه: **﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ**

---

(١) النساء / ١٠٨ ، ١٠٩ .
(٢) النساء / ١١٠ ــ ١١٢ .
(٣) النساء / ١١٣ .
(٤) النساء / ١١٤ .
(٥) البخارى ومسلم وهو عند مسلم ٤/ ١٩٩٤(٢٥٧٧) .

﴿ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً ﴾ [1] .

فإقامة العدل فى دولة الإسلام مقدمة على سلامة الصف الداخلى، والعدل لفرد أعزل لا حول له ولا طول ؛ لكن الله ناصره ولو كان يبغضه فلا يظلمه، ولا يرضى لحبيبه ومصطفاه أن يظلمه.

وبهذا العدل قامت السموات والأرض.

الخط الثانى والعشرون: رعاية حقوق أفراد الأمة :

وإذا رعيت حقوق المواطنين العزّل ، فلابد أن تكون رعاية الحقوق عامة خاصة بعد التضحيات العظيمة التى قدَّمها الأنصار، فالشهداء السبعون فى أحد، والشهداء السبعون فى بئر معونة ،وشهداء الرجيع هى أكبر أرقام على الإطلاق فى تاريخ النبوة ، ونشأ عن هذا الاستشهاد أوضاع كثيرة من الحقوق فأرامل الشهداء وأبناؤهم وذوى أرحامهم ، فنزلت سورة النساء تعالج هذه الأمور جميعًا فى كل ما يتعلق بالزواج والطلاق والإرث والوصية، فتدمل الجراح وتؤاسى النفوس ، وتحفظ حقوق الصغار والكبار من الضياع ، وتفتح صفحة جديدة أمام الأرامل لتعاود حياتها من جديد، وتحض المؤمنين على التعدد، لاحتضانهن فيعيش المجتمع كله أسرة واحدة يتبادل هناءه ومسراته، ويتبادل أفراحه وآلامه، ويقوم الحبيب المصطفى ﷺ على رأس هذا المجتمع السعيد، فنساء الأنصار يُمضين ليلتهن يبكين على حمزة ؛ لأن حمزة لا بواكى له ، ورسول الله ﷺ يكون القدوة ويتجاوز حبه الخاص وعواطفه العظيمة لعائشة لرعاية المجتمع الكريم، فيتزوج أم سلمة ، وزينب بنت خزيمة، وحفصة بنت عمر، وكلهن أرامل شهداء، ويتحقق فيه قول المصطفى ـ عليه الصلاة والسلام ـ :« مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر » . فقد كانت هذه الصورة واقعًا حيًا لهذا الجيل الفريد فى التاريخ لم تشهد له البشرية مثلاً على الإطلاق.

وما قصة جمل جابر، ودين أبيه ورعاية رسول الله ﷺ له عنا ببعيد ، فهو ابن الشهيد العظيم عبد الله بن عمرو بن حرام.. وما جواب رسول الله ﷺ للثكلى العظيمة أم سعد بن معاذ : « يا أم سعد أبشرى وبشرى أهليهم: أن قتلاهم ترافقوا فى الجنة جميعًا، وقد شفعوا فى أهليهم » . قالت: رضينا يا رسول الله ومن يبكى عليهم بعد هذا؟! يا رسول الله ادع لمن خلفوا ، فقال: « اللهم أذهب حزن قلوبهم، واجبر

---

(1) النساء / ١١٥ ويراجع تفسيرها فى الظلال .

مصيبتهم ، وأحسن الخلف على من خلفوا » أقول : ما هذه المواساة إلا بلسمًا شافيًا لجرحى القلوب، أما جرحى الأبدان الذى يملؤون كل فج فى المدينة ، فجاء حديث المصطفى ﷺ لهم شفاءً لجراحهم المتدفقة ودمائهم المتفجرة: « وليس من مجروح إلا يأتى يوم القيامة جرحه كأغزر ما كان ، اللون لون دم والريح ريح مسك، فمن كان مجروحًا فليقر فى داره وليداو جرحه ولا يبلغ معى بيتى عزيمة منى» وإلا فسيمضون جميعًا مع حبيبهم المصطفى الجريح إلى بيته يصغون إليه ، ويستمعون منه ، فهو أغلى عليهم من كل شىء فى حياتهم.

ومع رعاية الحقوق يبلغ مجتمع الإيثار القمة التى تتصاغر أمامها كل المثل وكل الحضارات وكل المجتمعات فبعد غزوة بنى النضير، يريد عليه الصلاة والسلام أن يوقف عملية التضحية من الأنصار لإخوانهم المهاجرين والتى كان المهاجرون فيها مثلهم الأعلى ؛ حيث تركوا أرضهم وديارهم (فلما غنم رسول الله ﷺ بنى النضير دعا ثابت بن قيس ابن شماس فقال: « ادع لى قومك »، قال ثابت: الخزرج يا رسول الله؟ قال: «الأنصار كلها » . فدعا له الأوس والخزرج فتكلم رسول الله ـ صلى الله تعالى عليه وسلم ـ فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم ذكر الأنصار وما صنعوا بالمهاجرين وإنزالهم إياهم فى منازلهم وإيثارهم على أنفسهم ، ثم قال: « إن أحببتم قسمت بينكم وبين المهاجرين مما أفاء الله تعالى علىَّ من بنى النضير، وكان المهاجرون على ماهم عليه من السكنى فى مساكنكم وأموالكم ، وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دياركم » ، فتكلم سعد بن عبادة وسعد بن معاذ ـ رضى الله عنهما وجزاهما خيرا ـ فقالا : يارسول الله، بل تقسمه بين المهاجرين ، ويكونون في دورنا كما كانوا ، ونادت الأنصار ـ رضى الله عنهم وجزاهم الله خيراً ـ رضينا وسلَّمنا يا رسول الله ، فقال رسول الله ﷺ: « اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار» ، وتقدم سيد المهاجرين أبو بكر الصديق ليجزل الثناء على إخوانه الأنصار ، فقال : جزاكم الله يا معشر الأنصار خيراً ، فوالله ما مثلنا ومثلكم إلا كما قال الغنوى:

جزى الله عنا جعفراً حين أزلقت ... بنا فعلنا فى الواطئين فزلت

أبوا أن يملونا ولو أن أمنا ... تلاقى الذى يلقون منا لملَّت (١)

فحق فيهم جميعًا قول الله عز وجل: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ

(١) سبل الهدى والرشاد ٤/ ٤٦٢ ، ٤٦٣ .

اللهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ (١) .

هذا فى حق السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، وفى حق هذا الجيل الجديد الذى نشأ بعد بدر وهو يقتفى آثار قادته، وينضم للمجتمع الجديد، فقد قال الله تعالى فيهم : **﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنكُمْ وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾** (٢) .

ولقد شهدنا فى هذا الجزء كيف تمت تربية هذا الجيل الجديد من التابعين بإحسان للسابقين الأولين ، وكيف أصبح مجتمعًا واحداً موحداً **﴿ فَأُولَئِكَ مِنكُمْ ﴾** ، وقد اخترنا الخطوط العريضة فلخصناها فى نهاية المطاف ، وهناك خطوط كثيرة مبثوثة فى ثنايا الكتاب ، وها نحن نودع الأخ القارئ على أعتاب غزوة الخندق إلى الجزء التالى بإذن الله حيث نشهد المنهج التربوى للسيرة النبوية، ونشهد به بناء الجيل القيادى الفريد فى التاريخ.

والله أسأل أن يجنبنى العثار ويغفر لى الزلات ، وأن ينفعنى بهذا الكتاب ، وأرجو دعوة صالحة لى من أخ كريم قرأ فانتفع، فدعوة المؤمن لأخيه بظهر الغيب مستجابة، وأن ينفع به الدعاة العاملين المجاهدين فى سبيله ، إنه على ما يشاء قدير ، وبالإجابة جدير .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

غرة ربيع الثانى ١٤١٤هـ

مكة المكرمة

---

(١) الأنفال / ٧٤ .

(٢) الأنفال / ٧٥ .

الفهرس

الموضوع	رقم الصفحة